

النَهْضَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

فِي سِيرِ أَعْلَامِهَا الْمَعَاصِرِينَ

تَأَلَّفَ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ حَبِيبُ الشُّومِي

عَمِيكَةُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْمُحَرَّفِ

الْجُزْءُ الْخَامِسُ

الدَّارُ السَّامِيَّةُ
بِירוَت

دارُ الفَلَمِ
رَمِي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه آخر الحلقات التي تفضلت بنشرها دار القلم عن أعلام النهضة الإسلامية المعاصرة.

ولا يمكن لمؤلف واحد أن يجمع كل أعلام النهضة في موسوعة عامة، وحسب كل كاتب أن يقدم ما يقدر على تمثيله وتشخيصه من حيوات هؤلاء الأعلام.

وإذا اشترك أكثر من كاتب في هذا المصمار، فإن تاريخ الأمة الإسلامية في عهدها الزاهر لن يضيع، لا سيما وكُتِّبَ الحقل الإسلامي بحمد الله كثيرون ذائعون.

وأشكر دار القلم أن قامت بمجهودها المثمر، فأتاحت للجيل الحاضر أن يرى صوراً من ماضيه القريب، وإنه لماضي حافل.

وقد ختمت الموسوعة بالحديث عن أكبر قضية إسلامية أثّرت في هذا العصر، قضية الخلافة الإسلامية، حيث أوضحت جهود نفر من العلماء المخلصين الذين قاوموا الباطل بلسان الحق، فجلّوا ظافرين.

د. محمد رجب البيومي

١٩٩٨/٢/١٢

أحمد حمزة صاحب لواء الإسلام

حين ارتحل الأستاذ أحمد حمزة صاحب مجلة لواء الإسلام إلى جوار ربه، نشرت جريدة الأهرام كلمة حارة في تأبينه كتبها المؤرخ العراقي الشهير اللواء الركن محمود شيت خطاب، وقد أصابت هذه الكلمة الحزينة وترأشجياً في نفسي، حيث تعرّض في أسف مرير إلى سكوت الأعلام في مصر عن توديع الصفوة من رجال الفكر الإسلامي حين يرحلون عن هذه الحياة، إذ تصمّت الأعلام في الصحف المتعدّدة عن التنويه بهم، على حين تُفرد هذه الصحف الأعداد الخاصة لأناس جلبوا الكوارث على أوطانهم، ثم رأوا من الوصوليين مَنْ يسمّهم بالبطولة الخارقة والحمية المخلصة، وهم أنانيون جبابرة، لا يفكّرون إلّا في ذواتهم المريضة، وجاههم المديد.

ويزيد الأمر دهشة - في نظر اللواء الركن - أن رجال الفكر الإسلامي أنفسهم لا يهتمون بمن يسبقهم إلى رحمة الله، حيث لا يعملون على تسجيل مفاخرهم، وإذاعة مآثرهم بعد أن تركوا الدنيا، ليكونوا مثلاً صالحاً للشبيبة المسلمة، وهو تقصيرٌ يعدّه الكاتب عليهم.

ولعلّه لا يعلم أن بعض من أدوا الأمانة العلمية لهؤلاء، قابلوا من الاضطهاد ما جعلهم يؤثرون السكوت، لأنّ الإشادة بذوي الحمية الإسلامية أصبحت في هذا العصر البائس موضع مؤاخذه وإنكار. . وهكذا يتواطأ المغرضون على إطفاء أنوار مشعة. كان من الواجب أن يظلّ ضياؤها متصل التوجيه، ممدود السراج.

وأنا أعلم علم اليقين ما قدّمه الرجل المؤمن أحمد حمزة من أعمال مثمرة مدّت ظلّاتها الوارفة في الحقل الإسلامي، فتفياها اللائذون، واستروح نسيمها المجهدون، وكان أعظم ما في هذا الداعية الغيور أنّه رجلٌ عملٍ لا قول، إذ كانت

حياته كتاباً خالداً يحتاج إلى مؤلّف يجمع مواده، ويكتب فصوله، ولم يكن الرجل من عشاق الدوي الخالب؛ إذ يحرصُ على تسجيل اسمه في كلّ مقال يكتبه، بل كان من أصحاب الحياء الهادئ ذي التواضع الحليم، وقد كان في مُكنته أن يُرسل مقالاته التوجيهية هاتفةً باسمه، فقد ظل ثلاثين عاماً يكتب افتتاحيات مَجَلَّةٍ متحدثةً عما يشغل العالم الإسلامي من أحداث، ولو جُمعت هذه الافتتاحيات في مداها الطويل، لكانت ثلاثمئة وستين مقالة توجيهية! وما أجلها ذخيرة قلمية كانت في حاجة إلى أن تستقرّ في أجزاء مُستقلة، بدلاً أن تتفرّق في أعداد المجلة على مدى ثلاثين عاماً!

ولكنّ الرجل الكريم يعلم أنه جنديّ لا قائد في المجال الكتابي، كما يعرف أن الأذعياء قد زاحموا الأصلاء في هذا المجال، وأن مقالاته لا تبلغ مبلغ من تخصصوا في الكتابة الإسلامية من المشاهير، ولذلك فَهَمُّهُ الأول أن يجمع الصفوة من هؤلاء في مجلة سائرة، فيكونوا كتبية مجاهدة، يُقنعون العامة والخاصة بأرائهم، ويشرقون بأفكارهم في كلّ داجية تلوح! وهذا ما كان، إذ سعدت المجلة بأقلام الصفوة من ذوي الفكر الثاقب، وأولي الصراط القويم، وفي طليعتهم الأساتذة الكبار محمد الخضر حسين، ومحمد أبو زهرة، وعبد الوهاب خلاف، ومحمد البنا، وعبد الوهاب حمود، وحسن عبد الوهاب، ومحمود عرنوس؛ ومن لا نستطيع الإحاطة بأسمائهم من هذا الطراز الرفيع.

وكانت العبرة البالغة في تاريخ هذه المجلة أنها ظهرت للقراء، وصاحبها الأستاذ أحمد حمزة من أعلام السياسة في عصره، ومن ألمع رجال الحكم صيتاً ونزاهة وثراء، ثم شاء الله أن يُمتحن بما يُمتحن به الصابرون البررة، حيث انقلب المسرح السياسي فجأة، ليأتي من الظلمة من يصادر أموال الرجل ويفرض الحراسة عليه، ويقتّر كل التقدير فيما يُسمح له من مال يكفي لإقامة الأود فحسب، وكان المنتظر من ووجه ببلائه، وامتحن بشقائه أن تُحجب مجلته لُصوب المورد، وجفاف اليد، ولكن الرجل الغيور وجد أن مجلته تُحارب الظلمات ما استطاعت، وأن الجو العربي في حاجة إلى منارة إسلامية هادية. فكان يقطع من ثمن لقمة العيش، وثياب الجسم، وأجر المسكن ما يمكنه من العمل على استمرار المجلة، وقد فقدت كل عون من اشترك الهيئات الحكومية في المدارس والمعاهد والمؤسسات، وأصبحت

تكاليفُ الورق وحدها تبتلع العائدَ بعد التوزيع .

أجلُ كان من المنتظر أن تختجب المجلة في هذا الرهن العسير، ولكن الرجل صمّم على أداء رسالته مع معارضته الخاصة من أهله وذوي قرباه! ووالله لو كنت أنا مكانه ولاقيتُ ما لاقى من نُضوب المادة، وطغيان الحاكم، وجَنف العشير، وحاجة البيت لاضطررتُ اضطراراً إلى احتجاب المجلة .

ولكن أحمد حمزة كان من ذوي العزم حين اختزلَ قوتَ يومه ليساعد على أداء رسالته، وكأني به وقد وجد مجلاتِ الخلاعة، وصُحف الإغراء تتزايد وتنتشر، وفيها ما يُحرّر بأقلام العصبية الحاقدة على دين الله، ثم تجد هذه المجلات الداعرة من الإعانات الحكومية ما يُمهد لها سبيل الذبوع، ولأصحابها ينابيع الثراء، فأثر أن يظلَّ صوت اللواء متردداً في هذه الجلبة الصاخبة؛ فقد يصغي إليه من يميّز بين الهدى والضلال .

ومن المدهش أن هذه المجلات المؤيدة بالحوول والمال والسلطان، تظهر في حجمها الضخم وورقها الفخم، بعيدةً عن هموم العصر، ومشكلات العالم الإسلامي، وكلّ صفحاتها تمجيدٌ للطغاة وتبريرٌ لما يقترفون من مآثم، وهذا كله قد استطاع أن يميل بعقول الناشئة من أبناء الجيل الجديد، فنسوا صُحف التوجيه، وتركوا أقلام الصدق، ولولا أن الله قد كتب لدينه الخلود لصارت أمجاد السلف أثراً بعد عين .

ومما يثير العجب العاجب، أن الأستاذ أحمد حمزة في أزمتة المالية كان يجد كلّ يوم من يتقدمون إليه طالبين عونه الماديّ كعهدهم من قبل أيام الوزارة والثروة والعتاء، وهم يعلمون ما نزل به من مصادرة أتت على مزارعه ومصانعه ومتاجره، ويقفُ الرجل حائراً فيما يصنع، ثم تدفعه مروءته لأن يوجد ببعض ما يمسك، وذلك يذكرني بالمعتمد بن عباد حين وفد إليه ذوو الحاجات وهو سجين في محبس يوسف بن تاشفين بالمغرب، فكان وجودُ بشابه تارةً، وبحليّ زوجته تارة أخرى؛ مما عبّر عنه في قصيدة باكية، قال فيها:

طلبوا الكثير من السجين وإنّه لأحقّ منهم بالمشوبة فاعجب

لقد باع أحمد حمزة بعض محتويات منزله. ليقضي حاجة السائلين، وإنه لانتصارٌ رائع على النفس، حين يكبتُ صاحبها دواعي الحاجة الملحة ليسعد ببسمة

محتاج، ويهنا ببشاشة فقير، فَمَنْ مُبْلَغٌ هؤلاء أن حياة أحمد حمزة في فقره وفي غناه هي أعظم ما ينشدون من أمثلة الأريحية النادرة، والفتوة الرافدة.

وإذا كنتُ قد تحدثت عن بعض مآثره أيام محنته، فلأتحدث عن بعض مآثره حين كانت الدنيا تجازيه سعيًا بنجاح، وعملاً بفوز وفلاح.

ففي ميدان العمل الحرّ ذهبَ أحمد ليدرس الهندسة الميكانيكية في إنكلترا، فكانَ من الذين آمنوا وعملوا الصالحات في بلاد المغريات والانطلاق، وعمل الصالحات لدى المؤمن الصادق ليس هو الانقطاع إلى الشعائر الدينية من صوم وصلاة فحسب، ولكنه الإخلاص في التحصيل، والجدّ في الفهم، والنظافة في السلوك، وإعطاء النموذج الصالح للشرقيّ المسلم الذي وفد حاملاً شرف أمته، وسموّ دينه، فلم تستطع إنكلترا أن تجذبه إلى خدمة تيارات سياسية تجعلُ من الوافدين مطيّةً ذلولاً لمآرب استعمارية، مغرّةً إياهم بمباهج المنصب والجاه، فنأى عن كلّ اتصال لا ينتهي إلى خير وطنه، عاكفاً على الدراسة حتّى نال الدرجة العلمية المرموقة، ورجعَ إلى مصر لا لبيحث عن وظيفة تكفل له الرزق والمنصب، بل لينطلق في ميدان العمل الحر، مستغلاً ثقافته العلمية في مشروعات اقتصادية كاسبة.

وكان الزعيم الاقتصادي الكبير (محمد طلعت حرب) أنشأ بنك مصر بشركاته المختلفة ليضرب المثل للشباب في نجاح العلم الحر بعيداً عن غلّ الوظائف، فأفهم المتشائمين أن أسواق المال ليست وقفاً على الأجانب، وأن المثقفين من المواطنين لا يقلّون كفاءةً عن يستعمرون الوطن بالحديد والنار، والأسهم والمضاربات.

فانطلق أحمد حمزه في ميدان العمل الحر لينشئ شركة الثلج الوطنية، إذ كان الثلج حِجْراً محجوراً على شركات الأجانب، وما كاد أحمد حمزة ينجح في إدارة مصنعه حتى جُنّ جنون الأجنبي، فسعى لدى شركة المياه بالقاهرة كي توقف الماء عن مصنع أحمد حمزة! والشركة حينئذٍ في أيدي المستعمرين، فسرعان ما لبّث طلب الموتورين، وفاجأت أحمد حمزة بانقطاع المياه، ولكن الشاب الناهض بثاقب فكره قد اهتدى إلى الآبار الارتوازية فجعل منها البديل، وظهرت مقدّرتُه وعقّته في إنتاج الألواح الثلجية بثمرن زهيد؛ فاضطّرت الشركة الأجنبية إلى تخفيض أثمانها كيلا تُصاب بالبوار، وكان عمّال المصنع لديه محقّين بما يبتغون من أجر مجزئ، فأحتسوا أنهم أصحاب العمل حين وجدوا الربح يعودُ إليهم دون ابتزاز؛ وحين

وجدوا أن أخلاق الإسلام تفرض على صاحب المصنع أن يكون عمّاله شركاءه في كل كسب، ومن المصادفات أن بعض عمال المصانع قد دَعَوْا إلى إضراب عام لترفع أجورهم، فلم يجذ عمّال أحمد حمزة حاجةً إلى الإضراب إذ لا يُحال بينهم وبين ما يشتهون، وكان انتظامهم في العمل داعياً لأصحاب المصانع الأخرى أن يتدبروا سلوك أحمد حمزة ليقبّسوا منه ما يفيد.

وإذا كان قد أَلَمَ الإمامَ علمياً في دراسته العلمية بشؤون الزراعة، فقد شاءَ أن يُقيم بأرضه مزرعةً كبرى للزهور ليستخرج منها العطور والزيوت، فأصبحت مزرعته مورداً هاماً لهذه البضاعة الرائجة.

وما زالت مصانعه الثلجية والعطرية تنفّح الأسواق بالجميل النافع، حتى جاءت ثورة ٢٣ يوليو فقضت على كلّ نفع يقوم به سياسيٌّ ينتمي إلى أحزاب الكفاح، وخرج الرجل صفراً من أملاكه الزراعية والصناعية معاً، فما فارقه ابتسامته إذ كان يعتقد أن الله عز وجل يمتحن عباده بالمال سلباً وعطاءً، وإذا كان قد نجح في الامتحان والذهب يجري بين يديه، فقد نجح في معيشته حين عاش بالقليل متفرغاً لرعاية لواء الإسلام منفقاً عليها ما بقي من الثمالة، وهو ضئيل.

ومما يعرفه الناس جميعاً، وأشار إليه من تحدثوا عنه في احتفال عائلتهم التأييني، ما قام به من إضاءة المسجد النبوي لأول مرة في تاريخ المدينة بالكهرباء، وقد قدّرت المملكة العربية السعودية عاطفته الدينية، ففسحت له مجال العمل دون معارضة، كما حمل من مزرعته العطور المختلفة لتُسهم في غسل الكعبة المشرفة تعبيراً عن شعور ديني يحتل فؤاده الخاشع، وقد ذكر اللواء الركن محمود شيت خطاب في مقاله بالأهرام ما شاهده من احتفاء أهل المدينة المنورة به، وترحيبهم بزيارته، وزيارة السيدة الفاضلة حرمه، إذ كانوا يحرصان على الحج سنوياً، وزيارة الروضة الشريفة بالمدينة، فقد كانت السعودية موطناً ثانياً له، لا يطيق أن يجفوها في عام يمرّ دون ارتحال.

وقد وُلّي وزارة التموين المصرية في سنوات الحرب العالمية الثانية، وقد اشتدت أزمة الغلاء إلى حدٍّ لا يطاق، فوقف وقفات صارمة أمام الاستغلاليين من أثرياء الحرب، وحارب الاحتكار دون هوادة، ووضع التسعيرة الملزمة للمتاجر والشركات.. ثم أُتيح له بعد ذلك أن يتولّى وزارة الزراعة فبذل الجهد في تعمير

الصحارى ومحاولة استغلال ما يصلح بها للمرعى، وكان ينتقل بنفسه إلى الجهات المستصلحة، ويراقب النمو الزراعي مرشداً إلى أدق الوسائل في إنجاحه، مع هيئة من المتخصصين يرؤن سهره الدائب فينشطون نشاطه مغتبطين.

لا أظنني خرجت في مجال الحديث عن أعماله الوزارية عن المحيط الديني الذي يعيش في جوه أحمد حمزة، لأن الوزارة قد أتاحت له إحياء المثل الرفيعة التي بناها الإسلام في نفسه، والإسلام دينٌ ودنيا، ورجل الشارع المكافح في مضمار التجارة والصناعة والزراعة إذا اتسم في كفاحه بميسم الإسلام، فقد قدّم النمط المأمول بين أنماط يغرّها المكسب العاجل، فتضيّق بمواقف الإيثار والعطاء.

على أنه في خضمّ هذا الكفاح لم ينسَ أن يُعنى بمجلته اللواء عناية الأب المحب لولده الناشئ، فهو يعقد الجلسات مع المحرّرين لدراسة ما يراه سبباً للنهوض بها على الوجه المنشود، وكانت له ندوة شهرية خاصة بمنزله لدراسة شؤون المجلة. وندوة شهرية أخرى للبحث في موضوع ديني أو اجتماعي أو تاريخي يشغل الأذهان، فتبسطه الندوة بسطاً شافياً، حيث يتناولوه الحاضرون من كل جهاته، ولكل عضو الحرية في مخالفة ما يسمع بالدليل، في سعة صدر وانفساح نفس، ولم تشهد مصر قبلها ندوة علمية امتدت عشرين عاماً، لتقدّم أرقى ما يصل إليه الفكر الإسلامي المستنير من آراء تضيء وتهدي، ولو قدر لهذه الندوات أن تجمع في أجزاء مستقلة لكانت سجلاً رائعاً للفكر الإسلامي المعاصر، وهي باتجاهاتها المختلفة تدل على سعة الإسلام وشموله المحيط، كما تُعطي المثل الأرفع في جدّة الحوار ونزاهته، والبراءة من حب السيطرة والاستعلاء، وسأقدم للقارئ عقب هذه الترجمة مثلاً حياً من هذه الندوات العلمية المزدهرة خلقاً وعلماً وإصلاحاً، وقد يتصادم رأيان مختلفان، ولكنه تصادم النظر الفسيح والفكر المتشعب، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة.

وكنت أحب أن أخصّ افتتاحيات لواء الإسلام التي كتبها الأستاذ أحمد حمزة بتحليل كاشف، لأن هذه النفثات المؤمنة كانت تمثل كلمة المصلح الديني فيما يدور من أحداث السياسة في بلاد العرب والإسلام، فهي كلمة المصلح العملي الذي انتفع بتجاربه الشخصية وملاحظاته الذاتية قبل أن يتصفّح آراء مختلفة، ليأخذ منها ويدع، لأن إيجازها الدقيق قد حصر الكاتب الغيور في نطاق نفسه، يستوحي

مشاعرها المؤمنة في كل ما يمسّ العالم الإسلامي من شجون؛ فأحداث الباكستان وأندونيسيا وفلسطين والمغرب والجزائر وتونس، وغيرها من الأقطار المجاهدة؛ قد وجدت التفاتاً صائباً من قلم الكاتب السياسي البارع.

ومما يذكر له بالثناء أنّه دعا في أكثر من افتتاحية إلى الوحدة الإسلامية في وقتٍ نشطت فيه الأفلام إلى الدعوة للوحدة العربية وحدها، وكأنّها كل شيء في مهام المصلح المسلم في الوطن العربي، بل وُجد من يُحارب الاتجاه الإسلامي وكأنّه مضاد للاتجاه العربي، وهو غلُّ حاقّد يكمن في الصدور، ولا يستطيع أصحابه أن يجهروا به، فهم يسترون بالدعوة إلى الوحدة العربية عما يكتونه من بغض للاتحاد الإسلامي في سائر أقطاره؛ والأستاذ أحمد حمزة في دعوته الإسلامية ذو رفي محاذر فهو يخشى تهجم المفترين عليه في زمن أصبحت الغلبة فيه للانتهازيين، لذلك يأخذ الموضوع من أقرب أسبابه، وأضرب المثل بافتتاحية ملخصة قال فيها^(١):

«إنّ أمماً عديدة تدين بهذا الدين الحنيف لا نسمعُ عنها قليلاً ولا كثيراً، وإذا نُقلَ إلينا من أنبائها شيء تفتّر له القلب، وتحسّرت النفس مما يقاسي أهلها من شظف العيش، وحياة الجهل، ففي بلاد جَاوَة مسلمون يجهلون أبسط تعاليم الإسلام، وهم مسلمون بالفطرة، ولا يجدون من يعلمهم، أو يبصّرهم في أمور دينهم، وفي الصومال والحبشة وغيرها ملايين من المسلمين يكاد يقتلهم الفقر والجهل والاضطهاد، ولم نسمعْ أن جمعية دينية أو هيئة إسلامية فكّرت في أن تأخذ بأيديهم، أو تمتدّ إليهم يد المساعدة، إلّا ما نقرؤه بين فترة وأخرى، من أن شخصاً أو شخصين قد سافرا إلى بلد من البلاد لتعليم أهلها، ثم يطوى هذا النبا بعد حين.

إنّا ندعو إلى وحدةٍ قوية تجمع الشعوب الإسلامية، وتربطُ بينها بأقوى الصلات، فنرى من تلك البلاد النائية الأطراف علماء يقصدون إليها، تُوفدهم جمعيات تقوم بالصّرف عليهم وتنظيم شؤونهم، نريد جمعيات إسلامية تبشّر بتعاليم الإسلام، فهل لنا أن نقلد أبناء الأديان الأخرى في إنشاء الجمعيات الدينية ورصد الأموال الطائلة لها كما نشهد من البعثات الأمريكية التبشيرية. قد يقال إن ديننا ليس

(١) لواء الإسلام - ربيع الثاني ١٣٦٧هـ، فبراير ١٩٤٨.

في حاجة إلى من يبشّر به، ولكنه في حاجة قُصوى إلى من يعلمُ أبناءه الذين لا يعرفون من أموره شيئاً».

وفي هذه اللفّات حذرٌ أوْجَبَتْهُ ضرورة المِراعاة لمقتضى الحال، ولكن مقالاً آخر تحت عنوان (الوحدة الإسلامية) قضى على كل حذر حين هتف الأستاذ أحمد حمزة بقوله^(١): تحت عنوان (الوحدة الإسلامية) - ببعض التصرف -:

«لَمَّا دعا الدين الإسلامي أتباعه إلى المساواة دعاهم إلى الوحدة . فإنّ أساس الدعوة الإسلامية الوحدانية لله جلّ علاه . . . ولقد تطوّرت الدنيا وتغيّر وجه التاريخ، وبقي الإسلام مصوناً بتعاليمه، قوياً بفوائده، ولكن أبناءه الآن تفرقوا أيدي سباً، وتشتّتت جموعهم، واختلفت في الحياة ميولهم وأفكارهم، فبينما نرى العالم الغربي يدعو إلى وحدةٍ شاملة تجمع الصغير والكبير، والقوي والضعيف، لا نسمعُ لذلك أثراً بين أبناء المسلمين، وهم أحقّ الناس وأجدرهم بالعمل به، وإذا كنّا لم نعتظ بالأمس، ولم نأخذ العبرة بما يجري في العالم من أحداث، فما أجدرنا في هذه الظروف العصيبة أن نتحد الشعوب الإسلامية قاطبة على رأي واحد، وتجتمع على كلمة واحدة، وقيادة واحدة.

إن المسلمين لو فعلوا هذا أو بدؤوا العمل به، وأخرجوه إلى حيّز الواقع؛ فإنهم سيجنّون من ورائه خيراً كثيراً، وستكون لهم العزة والمنعة، وسيصبحون قوة يُخشى بأسها، ويُحسب ألف حساب لخطرها، ويُرغم الجميع على احترامها.

ليذكر المسلمون هذا كله . . . وليعملوا على أن تكون لهم ومنهم وحدة إسلامية، تجمع الشمل، وترأب الصدع، وتوحد الكلمة، وتدعو إلى كلمة سواء».

هذا بعض ما يقال عن كفاح هذا المناضل الكبير، أمّا ما اخترته من ندوات المجلة فيلي هذه الصفحات.

* * *

(١) مجلة لواء الإسلام - جمادى الآخرة ١٣٧١هـ، مارس ١٩٥٢م.

ندوة إسلامية ذات موضوع دقيق

«نموذج من الندوات الإسلامية التي امتدت أكثر من عشرين عاماً، وسُجّلت على صفحات (لواء الإسلام)، وهذه الندوة تتحدث عن عمل الخير ومتى ينفع صاحبه، أياً كان صاحب العمل مؤمناً أو غير مؤمن».

«عملُ الخير من غير المؤمن:

أثار هذا الموضوع الأستاذ محمد كامل البنا فقال: ما حكم الإسلام فيمن اخترعوا من غير المسلمين مخترعات أفادت الإنسانية قاطبة، ونجّت العالم من أمراض فتاكة، أمثال (باستور) مكتشف الميكروبات و(فيلمغ) مكتشف البنسلين، و(أديسون) مخترع الكهرباء، و(ماركوني) ومن على شاكلتهم؟ وهل يُعَذَّب هؤلاء بعد أن قاموا بهذه الأعمال النافعة الجليلة؟ وهل نستطيع أن نقطع بأن الدعوة الإسلامية قد بلغتهم على حقيقتها، وأنهم لم يؤمنوا بها؟ نرجو أن تتفضل الندوة ببيان هذا الموضوع:

الأستاذ عبد الوهاب خلاف: الموضوع فيه بحثان: بحث بشأن بلوغ الدعوة لهؤلاء أو عدم بلوغها لهم، وبحث بشأن مَنْ نقطع بأنه بلغته الدعوة من غير المسلمين وعمل هذه الأعمال النافعة للإنسانية؛ هل يُبَيِّه الله عليها، أو أنّ عدم إسلامه يحبطها فلا يستحقّ عليها ثواباً؟

أما عن الأول: فالذي اتفقت عليه كلمة علماء المسلمين أنه لا يُخاطَب بأحكام الشريعة الإسلامية إلا مَنْ بَلَغَتْهُ دعوةُ الرسول على وجهها، ومرادنا بكلمة (على وجهها) أن تبلغه الدعوة تبليغاً واضحاً مقروناً بالأدلة والبراهين التي تبعث على النظر فيها والإذعان لها، فأما غير المسلمين الذين لم تبلغهم الدعوة أصلاً أو بلغتهم عن طريق المبشرين، وعن طريق من يشوّهون الإسلام، فهؤلاء لم تبلغهم الدعوة على وجهها، وهؤلاء حكمهم حكم أهل الفترة الذين يعيشون بعد وفاة رسول وقبْل بعثة

رسول آخر، وهم في حكم الإسلام ناجون من العذاب على كفرهم وعدم إيمانهم، وهذا منطوق قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

أما عن الثاني: فغير المسلم الذي بلغته الدعوة الإسلامية على وجهها، وعمل أجل الأعمال النافعة للإنسانية؛ فالآيات ظاهرها يدل على أنه لا يُثاب على عمله، لأن الآيات لما رُبِّت الجزاء رُبِّت الجزاء على الإيمان وعمل الصالحات، ولأن الأحاديث صريحة في أنَّ الأعمال بالنيات، وأن من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه، فهؤلاء عملوا واخترعوا، وأفادوا الإنسانية أجل فائدة؛ لكن لعدم إيمانهم بالله لا توجد عندهم فكرة تقرب إلى الله، ولا نيل ثواب من الله، والله سبحانه يثيب على نية التقرب إليه بالعمل.

فهؤلاء لهم على أعمالهم جزاؤهم الدنيوي من السمعة والصيت والذكر الحسن، ولكن بحسب ظاهر الآيات والأحاديث فالله سبحانه إنما يثيب من قصد التقرب إليه بالعمل، والآيات دائماً تقرن العمل مع الإيمان.

الأستاذ محمد البنا: المبحث ينتظم أمرين:

الأمر الأول: هل هناك مؤاخذه بدون دعوة على وجهها أولاً؟ والجواب على هذا أنَّ الدعوة يجب أن تصل على وجهها حتى يؤخذ المرء بأحكام الإسلام، ودليل على هذا أن الله تعالى يقول في القرآن الكريم: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ ومعنى هذا أن من لم تبلغه الدعوة غير مؤاخذه لقوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، والنبي ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب» وبدون هذا لا يعد المرء مسؤولاً.

والأساس الأول هو الآية الكريمة: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ والرسول هو النبي، فمن لم تبلغهم الدعوة على وجهها غير مسؤولين، وهم ملحقون بأهل الفترة، وبهذه المناسبة تقرر أن المسلمين أجمعوا على أنَّ أهل الفترة الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ناجون أي لا يعذبون، ومن أهل الفترة من غير وبدل كعمرو بن لحي الذي شرع للناس الوصيلة، فمثل هذا المتوغل في الشرك المعاند مسؤول؛ لأنه شرع شرائع من عند نفسه، والنبي ﷺ قال في حقه: «رأيت عمرو بن لحي يجرّ قصبه في النار» يعني أمعاءه. فحكم بأنه ذو نفس شريرة متجهة بطبيعتها إلى الإشرار

والإلحاد والشرائع الباطلة، ومنهم من أدرك بفطرته ألوهية الإله ووحدانيته، وأدرك بفطرته أنّ هناك أموراً لا يليق بالإنسان أن يرتكبها، كورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وعثمان بن مظعون الذين حرّموا عبادة الأوثان وشرب الخمر، هؤلاء قطعاً مثابون على أعمالهم، أما الناجون من أهل الفترة فهم الذين لم يجنحوا إلى الإلحاد، وتكون الخلاصة أن المسؤول هو الرجل الذي عرف فكرة الإسلام بأدلتها وعانده وجدّد وقال لا أوّمن، كما حكى عنهم المولى جل شأنه في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وظُلُومًا﴾ هذا هو المبحث الأول.

أما المبحث الثاني: وهم الذين بلغتهم الدعوة على وجهها فلم يؤمنوا، ولكن قاموا بأعمال جليلة لخدمة الإنسانية فظواهر الآيات تدلّ على أنهم مؤخذون، ولكن ورد في بعض الروايات في السنة أن هؤلاء يُخَفَّف عنهم، قالوا: إن أبا لهب وهو الذي قام من عناد الرسول بما قام يُخَفَّف عنه العذاب كل يوم من أيام الإثنين؛ لأنّ جاريته ثوبية بشرته بميلاد الرسول فأعتقها.

وبعض الأئمة قالوا: إن هذا خاصّ بهذه الحادثة تعظيماً للرسول الأكرم، ولكن أبا طالب أيضاً عمّ الرسول وردّ أنه يخفّف عنه، ونحن جميعاً نعلم أن أبا طالب بلغته الدعوة على وجهها وكاد يؤمن وقال:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذلك مبينا
وقد ورد في الحديث الصحيح أنّه يخفّف عنه حتى قال الرسول: «إنه في ضحضاح^(١) من نار». وهي أيضاً حادثة يصح أن يقال فيها ما قيل في الحادثة الأولى من أنها خاصة بالرسول الكريم، ولكن العقل المطلق يرى أن هؤلاء الناس يفوّض أمرهم لخالق الناس.

الأستاذ محمد أبو زهرة: هناك تقسيم جيد وهو التفرقة بين مؤاخذتهم وثوابهم، فننظر أولاً أهم محاسبون على عدم الإيمان؟ فإن لم يكونوا محاسبين على عدم الإيمان أيعنونون مثابين على أعمالهم؟ وأرى هذا التقسيم المنطقي محكماً، ولهذا أتبعه، فأتكلم على مؤاخذتهم على عدم الإيمان:

(١) الضحضاح في الأصل: مارق من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين، استعير للنار.

المسألة فيها نظران :

نظراً بدا في هذه الأيام وفي سنين ماضية وهو قول طائفة: إن النبي ﷺ ما ترك الناس إلا على المحجة الواضحة التي ليلها كنهارها، وأنه بعد أن بين وبلغ وانتشر أصحابه في أقاليم الأرض قاصيها ودانيها، وعلم الناس الإسلام، وأصبح عند كل إنسان القدرة على أن يعرفه؛ فإنه حينئذ لا عذر بعد ذلك لمن يجهله، إذ كان في إمكانه أن يعرفه، وقد شاع وذاع اسم القرآن والإسلام في كل البقاع؛ وبمقتضى هذا النظر - وأعرف أن كثيرين يؤيدونه ويرتضونه - يكون هؤلاء المخترعون مؤخذين، سواء أبلغت إليهم الدعوة على وجهها أم لم تبلغ.

ومن الحق هنا أن نبين النظر الثاني: وهو أنه لا مؤاخذه إلا بعد العلم على الوجه الأكمل، ولعل أول من أشار إلى هذا النظر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عندما كان يفسر قوله تعالى: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١١٣] يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ [١١٤] وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴿ [آل عمران: ١١٢ - ١١٦].

فإن الأستاذ الإمام عند تفسير هذه الآية قال: «إنها تنطبق على النصارى الذين لا يعلمون شيئاً مطلقاً عن حقيقة الإسلام، ثم ذكر رضي الله عنه في هذا المقام واقعة رآها؛ وهي أنه في إحدى سياحاته في صقلية وجد زاهدة عابدة متسكة شديدة التنسك، ولما شرح لها مبادئ عن الإسلام قالت إنها ما كانت تظن أن هناك عبادة في دين غير الكاثوليكية؛ ومثل هذه لا يمكن أن تعد مخالفة إلا إذا بلغت هذا الدين الإسلامي على حقيقته، ولا يقال إن مثل هذه مُعاقبة إلا إذا بلغت وامتنعت من الإيمان».

هذا كلام الشيخ محمد عبده، ولكننا نرى أن هذه الآية لا تنطبق تمام الانطباق على النصارى الذين نتحدث عنهم، لأن الآية الكريمة تقول: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ولا يمكن أن نقول إن هؤلاء النصارى هم المقصودون، لأنه لا يمكن أن يكونوا ممن يتلون آيات الله، وقد يكونون يؤمنون بالله ويأمرون بالمعروف ويسارعون في الخيرات. ولكن ما لم نستطع أن نقرره أنهم يتلون آيات الله آناء الليل، لأنه لا يمكن أن يتلوا القرآن،

وإذا أردنا تلاوة كتبهم، فكتبهم محرفة، فهم بعد تحريفها لا يمكن أن يكونوا ممن يتلون آيات الله، ولذلك لا أستطيع أن أوافق الأستاذ الإمام على أن هذه الآية تنطبق عليهم.

وسواء انطبقت الآية على هؤلاء أم لم تنطبق، فإن الإسلام وهو القانون الهادي لا يمكن أن ينظر إلى المسألة إلا على قضية الحق والعدل، فهل يستطيع إنسان أن يقول إن شخصاً في مجاهل أفريقيا أو في شمال أمريكا أو جنوبها، أو أقصى أوروبا لا يعلم شيئاً عن الإسلام قط؛ حتى إن بعضهم يسميه بالدين التركي بدلاً من الدين الإسلامي، فإذا كانوا لا يفهمون عن الإسلام إلا أنه الدين التركي، فبمقتضى العدل لا بد أن نقول إنهم غير محاسبين ولا مؤاخذين، وإذا كانت هناك مؤاخذه فإنها تكون على الذين قصروا في الدعوة، فعلى المسلمين أن يُعلنوا بين الأمم حقيقة الإسلام، لئلا يكون للناس على الله حجة، وإذا كنا قد قصّرنا فالإثم علينا، وهم ليسوا في جهلهم آثمين.

أما بالنسبة للأمر الثاني وهو ثوابهم على فعل الخير، فإننا لو سألنا الأستاذ الإمام في اعتماده على قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ إذا سألنا فكرة الأستاذ الإمام في أنها تنطبق على نصارى أمريكا وأوروبا وغيرهم ممن لم يعلموا حقيقة الإسلام، ومن لم تُعلن إليهم، فإنهم حينئذ يكونون مثابين على أعمالهم، فإن الله يقول عنهم: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾، فهو صريح في أنهم مثابون على أعمالهم، ولكني لم أر - كما قلت - أن هذه الآية في سياقها تنطبق على نصارى أمريكا وأوروبا. فننظر الآن أيثابون على أعمالهم أو لا؟

إننا ما دُمنا قد قلنا: إنهم غير مؤاخذين، وإنهم عملوا الخير لأجل الإنسانية فلماذا لا نقول إنهم مثابون على ما فعلوا؟ إما أنهم كفار يؤاخذون مؤاخذه الكفار، أو نقول غير مؤاخذين، وإذا كانت نصوص القرآن في الثواب والعقاب اقتربت بالإيمان؛ فهذا بالنسبة لمن بلغتهم الدعوة والرسالة الإسلامية على وجهها، وإني أعتقد أنهم مثابون، وكما قال النبي ﷺ: «إِنهَا لِلْجَنَّةِ أَبْدَأُ أَوْ لِلنَّارِ أَبْدَأُ». فإذا قلنا إنهم غير مثابين فماذا يكونون؟ قد نقول إنهم من أهل الأعراف، ولكن لا بد أن ينتهي الأمر إلى الجنة أو النار، وأنا أميلُ غير قاطع وغير جازم أنهم يُثابون، ورحمة الله وسعت كل شيء، وأمرهم إلى الله، والله عليم بنفوسهم، ومنَ خدم الإنسانية

وقصد وجه الله سيتغمده برحمته، إنه الغفور الرحيم، ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

الشيخ عبد الحلیم بسيوني: كما أننا يجب أن نبأغ الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة؛ كذلك يجب على كل إنسان أن يبحث عن الدين الصحيح يعتنقه، لأن الدين ضروري لكل إنسان، وهؤلاء المخترعون يستطيعون بما لديهم من ثقافة واسعة، واطلاع كبير، أن يتعرفوا حقيقة الإسلام ومبادئه وتعاليمه، فلا عذر لهم في الجهل بالإسلام بعد أن تيسرت الوسائل لمعرفة حقيقته.

وحكمُ الشريعة فيهم أنهم يجوزون في الآخرة بالخلود في النار، لعدم إسلامهم بعد تمكنهم من معرفته، وأنهم يجوزون على ما فعلوا من خير بسعة الرزق وحسن الحال ونحو ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَكُرْبٍ يَبْقَعُ يَحْسَبُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَظِيحَةٌ شَيْئًا﴾ [النور: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. ولا أوافق على تفويض الأمر فيهم إلى الله بعد أن أعلمنا الله في هذه الآيات بحكمه فيهم.

الأستاذ أحمد حمزة: هناك أناس في مدة الفترة قبل الرسل غير معذبين، ولكن المسألة مسألة عقل، والله سبحانه لم يمتحننا إلا بما تدركه العقول، والإنسان لا يحتاج إلى جهد لمعرفة الخالق، هؤلاء الناس الذين توصلوا إلى هذه الاكتشافات الكبيرة هل يعجزون عن إدراك قوة هي التي خلقت العالم كله، وهي الله سبحانه وتعالى؟

الأستاذ محمد البنا: هم لا يعز عليهم أن يدركوا الوجدانية، ولكن الجزئيات محل الكلام، رجل نشأ على دينه ومقتنع بهذا الدين، فهو مسيحي ومقتنع بالمسيحية، من يقول له ابحت عن الإسلام؟ علينا نحن أن نقوم بهذه الرسالة؟.

الشيخ عبد الحلیم بسيوني: بقي سؤال: هل الإنسان مكلف بتعرف الدين الصحيح أم لا...؟ والآية تقول: ﴿لَا تُذِرْكُم بِهِ وَمَنْ بَلَّغٌ﴾؛ ولم تقل: ومن بلغتموه، فالبحت عن الدين الصحيح واجب على كل إنسان عاقل، ووسائل تعرف الدين

الإسلامي في منتهى البساطة والسهولة، فهم يسمعون الأحاديث الدينية، ولديهم الكتب المترجمة فيه، ويسافرون ويتنقلون، ويعلمون بالضرورة أن هناك إسلاماً، وأن هناك دولة إسلامية، فعليهم أن يتعرفوا هذا الدين، وإلا كانوا مؤاخذين يوم القيامة مؤاخذه الكفار.

الأستاذ عبد الوهاب خلاف (مخاطباً الشيخ عبد الحلیم): لماذا أرسلَ رسولُ الله كُتُباً إلى النجاشي وإلى المقوقس، وإلى من كانوا يُجاورونه من الملوك، ولماذا لم يقل إن أولئك الملوك قد سمعوا بالدين - عليهم أن يبحثوا عن هذا الدين.

الشيخ عبد الحلیم: الرسول كان يتدبّر ديناً، وقد استقرّ هذا الدين، وفصلت شرائعه ودوّنت، فلا عذر لأحد بترك البحث عنها.

الأستاذ خلاف: ماذا تقول فيما كان حدثنا به الأستاذ (فؤاد شيرين) من أنه كان في برلين مع جماعة من العلماء، ولما أرادوا أن يعرفوه حق المعرفة سألوه عن دينه فقال: أنا مسلم، فعجبوا لأنهم رأوا رجلاً عاقلاً مفكراً، وكيف يدين بالإسلام والمسلمون يعبدون محمداً، فهؤلاء الذين يعتقدون أنّ الإسلام دينٌ يؤلّه محمداً كيف لا نعلمهم حقيقة؟

الدكتور منصور فهمي: أتصور رجلاً من أصحاب العقول الكبيرة يفكر وتفكيره قاده إلى وجود إله، وتفكيره قاده إلى وجود ناس من طبقة عليا سماهم الأنبياء أو العباقر، وأتصور هذا الرجل لا يقدم على فاحشة لأنه يرى سوء الفاحشة، وأتصور هذا الرجل يجري وراء المعروف لحُسْنِه، وهذا الحسن يدفعه إلى كل خير، فسارع إلى المعروف لأنه جميل، ونهى عن المنكر لأنه يرى سوء المنكر، ويعتقد بوجود خالقه، مثل هذا الرجل الذي هداه عقله إلى ذلك، والذي إذا ناقشته لا تجد منه إلا كل صورة حسنة، والله أعلم بالسريّة، ومثل هذا الرجل الذي يمثل هذا كله . . . ألا يكون من الأخيار عند الله، إذا كان أيّ دين من الأديان لم يأت إلا ليصل إلى هذا؟ فمثل هذا ألا يؤدي الغرض الذي جاء من أجله أيّ دين من الأديان السماوية، بالطبع كلّ الأديان تدعو إلى الخير . . . الإسلام يدعو لنفس الخير، وكثير من الفضائل الأخرى، فالذي يمثل هذا بنظره الحرّ وتوجيهه الإلهي - إذا فرضنا وكان - هل يكون أمام الله من المعاقبين؟

الأستاذ محمد البنا: قلت: إن أهل الفترة منهم قسم متجه إلى الخير، وحرّموا

على أنفسهم المنكرات، واعتقدوا بعبادة الله، هؤلاء علماء الإسلام أنفسهم قالوا إنهم مثابون على أعمالهم لأنهم وصلوا إلى مقاصد الأديان.

لو لم يسودوا بدين فيه مثبته للناس كانت لهم أخلاقهم ديناً الأستاذ كامل البنا: أعتقد أن الإسلام دين عقل ومنطق، ولم يوجد دين قبل الإسلام يعتمد على العقل والمنطق ويتفق معهما اتفاق الإسلام معه، ولا أتصور أن يكون مثل هؤلاء العباقرة الذين نفَعوا الإنسانية هذا النفع الجليل، إلا وأنهم في أعماقهم وصلوا إلى أن هناك خالقاً هو الله، وأنهم آمنوا بفطرتهم وأنهم فعلوا الخير، لا أتصور أنهم يُعاقبون بل هم مثابون، وأنهم لو وصلتهم دعوة الإسلام على حقيقتها لكانوا أول المؤمنين.

الأستاذ محمد أبو زهرة: لعله يمكن أن نكوّن فكرة من مجموع ما قيل من الندوة من حضرات الأساتذة، وما أشار إليه الأستاذ الدكتور منصور فهمي، وما اعترض به الأستاذ الشيخ عبد الحليم بسيوني، أستطيع أن أقول إنه يمكن تكوين فكرة واحدة، وهي أنه يجب أن يكون في إمكان غير المسلمين أن يعلموا الشريعة الإسلامية بأصولها وفروعها، فإن كان في إمكانهم ذلك، وامتنعوا عن أن يعرفوا يكونون مؤاخذين، وإن لم يكن في إمكانهم أن يعلموا فإننا لا نستطيع أن نقول إنهم مؤاخضون، ويجب لأجل أن يكون علمهم في دائرة الإمكان، يجب أن يكون الإسلام معلناً بكل اللغات التي يعلمها هؤلاء الناس، ويكتب للقرآن تفسير محكم، ويُترجم هذا التفسير، وأيضاً تُكتب الأحكام الشرعية بكل اللغات. وفي هذه الحال يكون من المؤكد في إمكانهم أن يعلموا، وهم حينئذٍ مؤاخضون إذا جهلوا.

أما إذا كانت الحقائق الإسلامية بنورها لم تتجاوز اللغة العربية، فأنا لا أستطيع أن أقول إن في إمكانهم أن يعلموا حقيقة الإسلام، والواقع أن النبي كما قال الأستاذ الجليل الشيخ خلاف وضح لنا الطريق؛ فلن يكون الرومان والفرس والحبشة والمصريون على علم بالإسلام، وفي إمكانهم أن يعرفوا، أرسل ﷺ إلى ملوكهم، وكنت أودّ من الأستاذ عبد الحليم أن يقف قليلاً عند قول النبي ﷺ له رقل وكسرى: «أسلم تسلم وإلا فعليك إثم الأريسيين» (العمال والفلاحين) فكأن النبي ﷺ يبين كيف يمكن الدعوة بأن نرسل إلى كل إقليم حقيقة الإسلام، وعلى هذا نستطيع أن نقول إنه كان علينا معشر المسلمين عامة والعلماء خاصة أن نبين حقيقة الإسلام بكل

اللغات، لكي تكون عند شعوب العالم مقدرة على معرفته .

والخلاصة: إن الذي يُستخلص من المناقشة التي تبودلت في هذه الندوة ما يأتي:

أولاً: لا يمكن الجزم بشأن بلوغ الدعوة لفرد بعينه، وإنما الذي نستطيع الجزم به أنه لا يوجد في العالم، وفي مختلف القارات شعوب وأفراد لم تبلغهم الدعوة الإسلامية على وجهها .

ثانياً: أن المسلمين وعلماءهم مسؤولون أمام الله؛ لأنهم لم يبلغوا الدعوة على وجهها .

ثالثاً: أن من لم تبلغهم الدعوة الإسلامية على وجهها أو لا يمكنهم معرفتها، لا يعذبون على عدم إسلامهم، ولا على عدم قيامهم بفرائض الإسلام بصريح الآية الكريمة: ﴿لَا تُنذِرُكُمْ بِهِ، وَمَنْ يُلَغْ﴾ .

رابعاً: أن غير المسلمين الذين اخترعوا الاختراعات النافعة للإنسانية والتي خففت ويلات المرضى، وقللت من نكبات الحوادث، أو غير المسلمين الذي خرجوا عن أموالهم، أو عن أكثرها في سبيل الخير ووجوه البر، هؤلاء إذا كان منهم من اهتدى بعقله المفكر ونظره المتعاقب إلى وجود الخالق، وعمل هذه الأعمال الخيرية تقريباً لهذا الخالق المدبر، فهؤلاء يثابون من الله على أعمالهم، لأنهم عرفوا الصانع، وتعتبر أعمالهم قربات إليه، وأما من لم يهتد منهم إلى وجود صانع، ولم يؤمن به، وعمل ما عمل من هذه الخيرات؛ فإن الندوة تميل بالنسبة لحال هؤلاء إلى تفويض أمرهم إلى رب العالمين .

وإن الندوة تنتهز هذه الفرصة لتهيب بالمسلمين عامة وعلمائهم خاصة، وخصوصاً الذين يُجيدون اللغات الأوروبية، أن ينشروا حقائق الإسلام بكل اللغات في العالم، وبجميع وسائل النشر؛ ليقموا حجة الله في هذه الأرض، ولكيلا يعذر مقصر في تعرف حقيقة الإسلام .

والندوة تقرر أن هذا فرض كفاية بالنسبة للجميع، وأما بالنسبة للمسؤولين فهو فرض عين، وهنا كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة، فانصرف الجميع سائلين الله التوفيق والسداد .

أحمد ديدات كتيبة حافلة في كيانٍ فردٍ واحد

يقول الشاعر العربي :

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عمّ
نعم إن الواحد قد يسد مسدّ ألف بل قد يسدّ مسدّ المليون، وحيّة أحمد
ديدات المائلة للعيان شاهدة بذلك، وإلا فأين من يقف وحده أمام كتائب المبشرين
في أفريقيا جميعها، لا في جنوبها فحسب، ومن ورائها أموال الملايير من أمريكا،
ومدارس الاستعمار، وكنائسه، ومستشفياته التي تُلوّح في ظاهرة العلاج وهي
لا تقدّم البرشامة إلا ومعهما الإنجيل، أين من يدخل الندوات الحافلة بأبالسة
الاستشراق، وكهنة التبشير، وأسلحة المحتل الغاصب، وجماهير المرتزقة من
الوصوليين، وكلّهم إلْب على رجل واحد، يدخل مضيء الوجه ثابت القدم، حادّ
البصر، فيلقى الوجه المتجهّم، والجمع المتآمر، والحشد المرتّب للإيقاع
والخدلان، تلقى ذلك كله متبسما هادئا، وقد زانه الشيب بوقار زاده جلّالاً،
ويجلس ليستمع المناظر الكهنوتيّة في طيلسانه المزركش، وأمامه الصليب، وعن
يساره الإنجيل، وخلفه صفٌّ من مستشاريه ذوي العمام السوداء، والنظرات
الحداد، والغضب المغيظ الحائق.

حتى إذا أتم المناظر قوله بين مظاهر التصفيق والاحتفاء، صعد الشيخ في قلة من
أنصاره، وكثرة من يقينه وإيمانه، ليعيد كلّ ما قاله مناظره كلمة كلمة، فبرّد عليها في
ثبات ملجم، وكأنّه كان يكتب ما قيل منذ شهور، وقد راجع وبَحَث واستعدّ كأنّه
فعل ذلك، لإصابته المرمي، وتسديده القذيفة، وإحكامه النقض، فترين الدهشة
على الوجوه، ويبلغ الغيظ بخصومه مبلغاً لا يجدون معه غير الانسحاب؛ وتعلو

كلمة الحق على لسان الشيخ، فيخرجُ مع القلة من أنصاره إلى المسجد ليؤدّوا صلاة الشكر، وليرفعوا أكفّهم إلى السماء طالبيين المزيد من النصّر، لأنّهم يعلمون أنّ القوم لا يسكتون، بل سيقيمون المناظرة التالية، إذا دوتوا كلام الشيخ، وأخذوا أدوات التسجيل معهم، ليردّوا على كلّ حجة، وهم في جمعهم يتساءلون عن الخاتمة المنتظرة بعد أن تزعزعت نفوسُ أنصارهم بما سمعوا من براهين الرجل، وعلموا أنّ السكوت فضيحةٌ نكراء.

ثم تجيء الساعة الموعودة، ويؤذن الشيخ بالحضور، والمكان هو المكان، والحضور هم الحضور، ويدخلُ أحمد ديدات صلب القامة ناضر الوجه، دافق البشر، ويجلسُ ليستمع، وقد عرّف سلفاً ما سيُقال، لأنه قرأ العهد القديم والعهد الجديد قراءةً من يحفظهما حفظاً لا مشاحة فيه، ومن وقف على مواضع الاعتراضات من التناقضات وقوف العالم المدرك، ثم رأى كيف يجتهد القوم في التأويل فلا يستطيعون بعد الجهد الجاهد، والتعسف المحتال، أن يحاجّوا من يعلنُ على الملأ أنّ الله واحد لا شريك له، وأن المسيح عبدُ الله ورسوله، وقد تنزّه إلهه عن الولد والشريك، وأن القرآن قد كرم السيد المسيح، وأمه البتول، بما لم يكرمه دينٌ آخر غير المسيحية، فاعترف بأنّه روح الله وكلمته ألّفها إلى مريم التي اصطفاها الله وطهرها، وقرّر أنه أحيا الميت، وأبرأ الأعمى والأكمه والأبرص، وخلق من الطين كهية الطير، ونفخ فيه فصار طيراً بإذن الله، وقد علم ما أطلعه الله عليه من الغيب فجعل يتبىء القوم بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم.

بهذا جاء القرآن كما صدق حين قرّر أن الإنجيل والتوراة قد بشرا بمحمد الذي يجدونه مكتوباً لديهم، ولكنهم حرّفوا الكلم عن مواضعه، ثم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل العقلي على ألوهية المسيح، وهو بشرٌ كالأنبياء ممن يأكلون الطعام ويسيروا في الأسواق بين الناس.

هذا الداعية الأمثل، الذي رنّ صدهاء عالياً، حتى دوى صليله في أمريكا، وانتقل إلى الفاتيكان، فأعدّت العُدّة لمهاجمته دُون جدوى، لأنه لا يُحارب بقوة فتسحقه الدبابة، ولا ينازلُ بسيفٍ فتمحقه القذيفة من الطائرة؛ ولكن رأياً يصول على رأي، ومنطقاً يدفع منطقاً، هذا الداعية الجريء علم أن بابا الفاتيكان قد حشد الحشود في مقرّه، ليدبّر المخطط لاكتساحه، وجاءته الأنباء في مقرّه بأفريقيا تؤذن بالحرب

القادمة، وكأنَّ خصومه قد أحسوا قوَّةَ خارقة ستُكسبهم النصر في المعركة القادمة، فكتبوا الإعلانات، وملؤوا الطرق بِلَه الكنائس والمستشفيات بما سيكون.

وأعلن الشيخ استعدادَه للمناظرة؛ مناظرة بابا الفاتيكان في ملته العزيز، ولكنَّ الأيام تمضي دون جدوى، ثم جاء إليه من يحملُ رسالة البابا داعياً إيَّاه للحوار الشخصي في إحدى أروقة الفاتيكان بروما، ويعلم الشيخ أنَّ المسألة خديعةٌ، إذ لا يخرج الأمرُ عن استقبالٍ ودِّي مصطنع، يدعو إلى التعاون الظاهري، وتُشرب فيه أفداح القهوة، ثم ينفُض الاجتماع عن لا شيء، يعلمُ ذلك علم اليقين، لأنَّ فريقاً من علماء المسلمين في بلادٍ أخرى قد زاروا الفاتيكان ليجدوا الدعوة إلى التعاون لسحق الشيوعية فقط، أما أنَّ يتآلف المجتمعون على الودِّ، لكلِّ دينه الذي يعتنقه، فلا يقومُ البابا بالتبشير العلني بين المسلمين أنفسهم، فهذا ما لا يُوافق عليه البابا، إذ ما يكاد اللقاء يتم، حتى تأتي قوافل التنصير من رُوما، لتكذب على الفقراء من المسلمين وتغريهم بترك الإسلام، وتأخذُ الأطفال خطفاً للكنائس والمدارس التبشيرية.

وقد كان من المنطق المعقول أن تذهب قوافلُ التبشير إلى الوثنيين وهم كثير، تاركة المسلمين لدينهم السماوي الصريح، وهُنا لا يعترض أحد، فكلُّ يجاهد في سبيل عقيدته، ولكنَّ الفاتيكان يعلمُ أنَّ الإسلام منيع، وله عقيدته الواضحة كضياء الشمس في رابعة النهار، فلا بدَّ من تحطيمه أولاً.

يعلمُ البابا ذلك، ثم يضيقُ بدعوة ديدات ذرعاً فيطلب زيارته، ويكرِّر الطلب، ويعلنُ المسيحيون في جنوب أفريقيا أنَّ البابا قد دعا الشيخ ليفلِّ سلاحه بما له من قوة يستشعرونها دون دليل، لقد جاءت دعوة البابا إلى الشيخ أحمد وتناقلتها الصحف، ولكنها تناقلت معها ردَّ الشيخ الحاسم، وقد قال فيه:

«يُسعدنا أنكم تُرتَّبون لقاء معنا، ولكننا نتمسكُ بأن يكون هذا اللقاء علناً، وذلك من أجل الملايين المؤمنة بالمسيحية والإسلام، وقد كان من الممكن أن نلتقي بكم حسب رغبتكم في سكرتارية الفاتيكان، ولكنَّ العديد من المسلمين في جنوب أفريقيا يُصرون على حضور ذلك اللقاء، فأرجو إفادتنا عن الإمكانات لديكم في استيعاب من يريد الحضور منا، وإذا تمَّ ذلك فإننا نطلبُ تسجيل كل ما يُقال، وتصويره بأجهزة الفيديو، حتى تصل مناقشتنا إلى الملايين هنا منا ومنكم...

وذهب الرد إلى الفاتيكان، ومضى شهران دون إجابة، فأرسل الشيخ برقية أخرى لا تخرج في محتواها عما قيل من قبل، ورأت الكنيسة الكبرى أن تسكت فلا تستجيب!

هذا الرجل الذي ثبت كالطود في مهاتب أعاصير لا يحتملها إلا بتأييد من الله وعونه، يزور إحدى بلاد العرب داعياً إلى الله، فماذا يجد؟ كان من المنتظر وقد حضر إلى القاهرة، في دعوة وجهتها السعودية لمن نالوا جوائز الملك فيصل العالمية كي تحتفل بهم في بلدة الأزهر، حيث يقوم كل فائز بالقاء بحث مستوعب في شؤون العالم الإسلامي، وحضر الشيخ العظيم، فتجاهلت أكثر الصحف وجوده، تلك الصحف التي تُفرد الصفحات المتوالية لزيارة ممثلة أفسدت الأخلاق في أفلام داعرة، أو مطرب لا يعرف غير التأوهات في وطن جريح ينشب فيه الغول الإسرائيلي أنيابه دون وازع، وفي كتاب هذه الصحف من اتقد غضبه المريض عليه، فأخذ يلزمه ويقول إنه يتكلم عن العقيدة، لماذا لا يتكلم عن القضايا العاجلة لتحديد النسل ومحاربة المخدرات!.

هكذا قال بعض الكتاب!! ولا أفيض في بقية ما سطوروا مما يُخجل ويشين!! داعية غيور يرى أبناء المسلمين يُخطفون في أفريقيا، لينضموا إلى الكنائس، ويرى الهجوم على الإسلام بمبادئه صارخاً عاتياً يُوصف نبي الإسلام بما هو منه براء، وكأن ادعاءات الآثمين عنه حق بما تلبس من لفائف الزور، وغلالات البهتان... يرى ذلك كله فيترك عقيدته ودينه، ويتحدث عن تحديد النسل لنفع المسلمين!! لقد قام المتعصبون هنا بجمع الأشرطة تحت ستار الرغبة في وحدة الصف، إذ تطوع ذبول إسرائيل المعروفون ببغضهم لكل داعية شريف، بالدعوة إلى اتهام من يحمل شريطاً تسجيلياً يعلن رأي الشيخ في إحدى مناظراته، وعدوه داعية خلاف لا وفاق!! وهؤلاء أنفسهم هم الذين هاجموا محكمة الاستئناف ومحكمة النقض حين أصدرت حكم الله في ضلال المارقين! وكانت صفة على وجوههم، لأن أكبر كاتب فيهم مهما اتسعت له صُحفُ النفاق، لا ترتفع قامته إلى مستوى رئيس محكمة الاستئناف أو رئيس محكمة النقض! وللإسلام رب يحميه!

بعد هذه الزفرة الكاوية أوجز للقارئ ملخصاً عن حياة هذا الداعية، وهي حياة لا تُبهر بمناصبها الزاهية التي يتنقل فيها صاحبها من مركز إلى مركز أعلى حتى يحتل

القمة، ثم يندرج بعد ذلك في حُفرة لا تعرف الهواء والضوء، ولكنها تبهرُ بشعاعها اللّامح الذي أخذَ الأبصارَ فجأةً حين اكتملَ بدرأ ساطعاً لم يمرّ بدور الهلال، حيث عرف الناسُ شرقاً وغرباً أحمد ديدات حين استوى على المنبر سيداً فخماً، فأعطى الناسَ أعظمَ تاريخٍ صعد به إلى القمة دون أن يمرّ على درجات السّلم الممتد إلى أوجهِ الرفيع، رأى درجات مُتصاعدة هذه التي تحكي لنا قصة طفل شريف وُلد في منطقة (سُورات) الهندية، ثم ضاقَ بوالده العيش الماديّ، والصفاء الروحي معاً، فهاجر مع ابنه بعد تسع سنوات من ميلاده إلى جنوب أفريقيا سنة ١٩٢٧م، وكان مولده من قبل في سنة ١٩١٨م، أمّا الضيقُ بالعيش الماديّ فلما رأى من تحكّم الإنجليز العدائي في أبناء المسلمين بالذات إذ هم شوكة الاحتلال الناشئة في الحلق، وأمّا الضيق الروحي فلما شاهدَ من الهُجوم الصارخ بالافتراء السفيه على الإسلام من أناس سمحوا للمبشرين أن يُهاجموا الإسلام دُون الهندوكية، وتلك هي العجبية حقّاً.

وكانَ منْ توفيق الله أن يلتحق التلميذ الصغيرُ ابنُ السنوات العشر بالعمل في دار للتبشير المسيحي، مُوزعاً لكتب تُصدرها مؤسسة التنصير التابعة للمليونير الأمريكي (وليفر)، وقد عملت المؤسسة على اختيار الوافدين من الأطفال بالذات، للعمل بالمؤسسة، وفي زعم القائمين على هذه الخطة الماكرة أن الهنديّ المسلم الوافد في هذا العمر الغض سيكون من السهل الهتنّ عل مثله أن تجتذبه أضواء الترف، والرغبة في سعادة المستقبل إلى المسيحية بعد أن يقرأ ما يوزع من آثار، وكنتُ أفكر كيف سمح الوالدُ المهاجر بدينه لابنه أن يقع تحت تأثير هذه المؤسسة وهو منْ هو صلابة وإيمان، ولكنّ العاقبة السّارة لولده جعلتني أتأكد أنه دُفع به عن قصد، ليُعلمه الكثير من أفاعيل المُنصّرين فيكون عيناً على من يُحاربون الإسلام بأساليب تخفى أكثرها تحت السطح ولا يظهرُ إلا الحبابُ الذائب.

وهكذا جعلَ الولدُ الناشئ، يجمعُ نشرات المؤسسة لتكون في أيدي المهاجرين من الهنود، فيعرفونَ أيّ كيد ينصبّ المبشرون، وفي الوقت ذاته كان الغلام بعدَ أن حفظ كتاب الله مُتدفعاً إلى حفظ العهد الجديد والعهد القديم معاً، ممّا يُوزعُ بالمجان على المسلمين وغير المسلمين، اندفعَ إلى حفظِ العهدين ليجد من النصوص ما يستطيع أن يكونَ سلاحاً يردُّ به إفك الخصوم، وكان يحضرُ جلسات

المبشرين ليعي كل ما يُقال من إفك، وليسطر ما يسمعُ خيفةً من ضياعه في ألفاف
الذاكرة التي يفد عليها كل يوم ما يُنسى كلام الأُمس، وبذلك كان محفوظه ومكتوبه
ذخيرةً كبرى وَعَتَّ كلَّ النقائص والنقائص معاً، وصادف قلباً عاشقاً وروحاً مؤمنة
ففعلتُ بها ما تفعلُ الجدوةُ الملتهبة في الصدر الناقم المغيظ .

وهكذا شاء أصحابُ المؤسسة لمثله الانقياد والإذعان، وشاءَ لنفسه أن يكون
ناقوساً يجلجل بالخطر الزاحف بين معشره وذويه، لقد حفظ أحمد ديدات كراساتٍ
مليئةً بالاتهامات الظالمة، حفظها حين سَمِعها تتردّد أول مرة في مجلس القُسس
بالمؤسسة، ثم رسخت في ذهنه حين رآها تتردّد في الكنائس والمدارس التبشيرية
على أيدي الوعاظ والمدرسين، وكأنني به وقد جعل يُقابل بين ما يقال، وما يعرف
عن كُتب إسلامية حَمَلها والده لكبار العلماء من الهنود، فأخذ الحق يقذف على
الباطل في نفسه حتى دفعه فإذا هو زاهق، ومن أيام الصبا الغض نذر العاملُ الفقير
نفسه ليكون داعية إسلامياً، وسارع بتعلم اللغات الإفريقية مع ما يعرف من
الإنجليزية والأردية والعربية، ليخاطبَ كلَّ فريق بلغته، وهذا ما ساعده في مُقبل
عهده على الانتصار في مناظرات يدورُ أكثرها بالإنجليزية إذ كان يعتمدُ على نصوصٍ
يحسن ترجمتها من العهدين عن جدارة، بل كان قبل أن ينتصب داعيةً مثاليّاً، يُواجه
القُسس حين يحرفون نصوص العهدين ليلبسوا الرأي على المستمعين، كان
يُواجههم بأنهم يحرفون ويكذبون .

وقد أحسن رجال المؤسسة أن الصبي الذي أَمَلوا فيه الركون لما يبتغون صار حرباً
دامية تشتعل في وجوههم، فبادرُوا بفصله، ولكن بعد أن استوى على سوقه وسار له
اسمٌ في مناوأة الخصوم، وكأنني به وقد أحسن الرغبة في مزيد من الاطلاع على
حقائق الإسلام ليواجه حُصومه بما يُثبت قدمه في الصراع، فسارعَ بالعودة إلى
الهند، ليزور مَنْ بقي من أهله وأصدقائه، ثم ليزوّد نفسه بمؤلفات الكبار من العلماء
المسلمين بالهند! .

وأنا ما أذكرُ ما كتبه هؤلاء الأجلَاء عن الإسلام وعقيدته بالأردية إلا تمنيت أن
يخلص جماعة من المترجمين الصادقين، ليقوموا بتعريب هذه الكنوز المليئة
بالمعرفة، وأقولُ ذلك عن يقين؛ لأنّ الكتب العربية للهنود، قد آتت أكلها في الحقل
الإسلامي، وأصبحت من العُمد المتينة في فهم الإسلام، ولعلني أشرتُ إلى ذلك في

بعض ما كتبت، وتاريخ العلم في الهند بالقرنين الثالث عشر والرابع عشر يُضيءُ بصفحاتٍ من نور، ويسطعُ بأسماء زاهية أخافُ أن أذكر منها قوماً وأترك آخرين فأقع موقع التَقصير، وأردُّ مورد الانتقاد.

لقد شفى أحمد ديدات غلته حين رجع بكتب رحمة الله الهندي وصديق خان وعبد الحي الندوي وأبي الكلام آزاد، والكرام من صفوة علماء الندوة، وهم نجوم ثواقب، رجعَ بها جميعها إلى جنوب أفريقيا ليبدأ النضال ومعه سلاح لا يقل، وذخيرة لا تبيد.

كان الموقف جاداً لا يحتمل التباطؤ، فمدارس التبشير بين المسلمين تزداد انتشاراً كل يوم، والكنائس تُبنى في كل حي لا في كل مدينة، وأموال المليونيرات الأمريكيين تتدافع كالسيل لتُسهم في حركة الإنشاء التبشيري، والمسلمون محدودو الثراء ولا يملكون غير النيات الطيبة، وبهذه النيات وحدها، عمل الشيخ أحمد ديدات على تأسيس مركز للدعوة الإسلامية في مدينة ديربان بجنوب أفريقيا، وتأسيس المركز أصبح منذ استقام بناؤه قبلة الأنظار، وميدان التجمع الإسلامي، وفيه أحكمت الخطط لبناء ٣٠٠ مسجد إسلامي، و٣٠٠ مدرسة إسلامية لخدمة المسلمين بجنوب أفريقيا، وبعض الناس يقرأ رقم ثلاثمئة ولا يفكر في مدلوله، لأن $300 + 300 = 600$ ما بين مدرسة ومسجد لم يَقمَ واحدٌ منها إلا بجهد متواصل، تبدأ بجمع التبرعات، واختيار الأماكن، وإعداد المدرسين والأطباء، وقد يكون إعداد المدرسين أصعب من إعداد الأطباء، لأن مهمة الطبيب محصورة في علاج المرض، ووسائل العلاج صارت من الاشتهار بحيث لا تتعذر، أما المدرسون فليسوا مدرّسي فصولٍ فحسب، ولكن يجب أن يكونوا دعاة للإسلام أمام النشء الجديد، يجب أن يقوموا بواجب التربية الإسلامية الصحيحة سلوكاً وعقيدة وشريعة، قبل أن يُعلّموا دروس الحساب والتاريخ والجغرافيا، وعليهم بعد ذلك أن يُناقشوا هذه المنشورات التبشيرية التي تقذفها المطابع يومياً، وتسقط كالمطر في النوادي والشوارع مهاجمة شريعة الإسلام ونبية الكريم!

ولم أرَ في بلاد المسيحية كاتباً واحداً هاجمَ هذه المنشورات العنصرية ذات التعصب المقيت، ولكننا وجدنا في بلاد الإسلام من هاجم حركة أحمد ديدات لأنه وقف سداً منيعاً أمام الغزو الصليبي الممتد منذ الحروب الصليبية، ولم يخمد له أوار

حتى الآن! يختطف أبناء المسلمين، ويُساقون إلى الأماكن النائية لِيُسَوَّوا بالكنائس خلقاً آخر، ويُهَاجَم رسولُ الله في أشرف صفاته وهي العفة والطهارة، ويهاجمُ الإسلام في أعظم مقدساته وأركان بنائه وهي العقيدة، ثم يقولُ قائل: لا تتحدثوا عن عقيدة الإسلام، ولكن تحدثوا عن تحديد النسل وترويج المخدرات!! وصريحُ هذا الاقتراح: اتركوا التبشير يمتدّ ليلتهم المسلمين جيلاً بعد جيل!.

ولم يقنع أحمد ديدات بجنوب إفريقيا بل سافر مُبشراً بدينه إلى بريطانيا وزيمبابوي وأمريكا وروما [روما معقل خصومه الألداء] والهند، وقد أسلم على يده بجنوب أفريقيا وحدها سبعة آلاف إنسان، وألف بلغات مختلفة ستين كتاباً، أما مناظراته المجلجلة، فهناك بعض حديثها الطريف.

كانت رحلة ديدات إلى الهند سنة ١٩٢٧ م، ذات نفع مؤكد له، في أداء رسالته، إذ أنه وَجَد ما عرفه في جنوب أفريقيا كان مُصَوَّراً بصورة مماثلة في الهند، إذ عَمِل الاستعمار الإنجليزي على التبشير بين المسلمين مسلحاً بافتراءات كالتي كان يسمعها من قبل، وإذا كان علماء الهند قد قاموا بواجبهم نحو هذه الافتراءات حين أصدروا الكتب الناقدة، وزيقوا الشبه المرجفة، فإنَّ الأمر قد تسهَّل لديه، وأعظم كتاب اعتمد عليه في جمع براهينه الملزمة، هو كتاب (إظهار الحق) بجزءيه للعلامة الكبير (رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي)، وكان الله قد جعل هذا العلامة مثلاً حياً لديدات، حيثُ حَصَرَ الشبه الظالمة في نقاط خمس ليكرَّ عليها بالأدلة الشافية، وقارئ كتاب «إظهار الحق» يجد هذه النقاط تتركز في ما يلي:

١ - أن القرآن ليس من عند الله ولكنّه من تأليف محمد وطريقة جمعه وترتيبه وقراءاته تدل على عدم بقائه على الوجه الذي حدّده نبي الإسلام.

٢ - أن التوراة والإنجيل غيرُ محرفين، وأنَّ الكتابين صورة صحيحة لما نزل من عند الله.

٣ - أن التثليث هو العقيدة الربانية التي لم يصل إليها المسلمون.

٤ - أن ما يقال عن آيات النسخ في القرآن يؤكد أنَّ الكتاب مفترى على الله، لأن الله لا يبدل رأيه.

٥ - أن نبي الإسلام [كذبوا] كاذبٌ في دعواه، وقد صدّقه أصحاب العقول الضعيفة.

والكتابُ بجزءيه الكبيرين يفيضُ إفاضةً شافيةً في تفنيد هذه التخرصات، بأدلة لا تقبل الدفع، وبعد أن قرأ ديدات هذا الكتاب، جعل يسأل عن حياة (رحمة الله) وكيف كان سلوكه مع المبشرين، فعرف أنه قام بعدة مناظرات مع أكبر قساوسة المبشرين في الهند، وهو الأب «فندر» الذي كان يتكلم العربية والفارسية والأردية بطريقة جيّدة ساقته إلى المهاجمة باللّغات الثلاث في الأمكنة التي يعقد فيها حلقات التبشير، ومن ألسنة المجتمعين من المسلمين.

وكانت أقوى مناظراته تلك التي عُقدت في رجب سنة ١٢٧٠هـ ببلدة أكبر آباد وهي مسجّلة في صحف المسلمين، حيث خُتمت بنصر (رحمة الله) المبين، وكان ما تمّ في هذه المناظرة قد وَجّه ديدات إلى عمل مماثل فيما يزعم القيام به، فحمل معه كتاب «إظهار الحق» مع مراجعه التي سجّلها الشيخ الكبير، وأسرع العودة ليُعلن الجهاد العملي المتصل دون تكوص.

لقد كانت قضية النسخ غير واردة عند مبشري الجنوب الإفريقي، فتركها، كما كان أكثر لجأهم في دعوى تحريف القرآن، وصحّة التوراة والإنجيل، وفي تأكيد حقيقة التثليث، وهُما ممّا جَلَا (رحمة الله) في حقيقتهما وجه القول، على نحو لم يكن مبشرو الجنوب يعلمون عنه شيئاً، حيث فاجأهم ديدات بالسؤال عن طبعات الكتاب المقدس المختلفة. وهي الطبعة العبرية المعتمدة عند اليهود وعلماء البروتستانت، والطبعة المسيحية وهي المُعتمدة عند الكاثوليك والأرثوذكس، والطبعة السامرية وهي المعتمدة عند السامريين، وبين الطبعات الثلاث من التضارب ما يقطع بالتحريف، هذا من حيث الوثيقة الداخلية للنص، أما من حيث التدرج الزمني فقد أثبت كتاب الغرب أنفسهم أن موسى عليه السلام حين سلّم التوراة إلى الأحبار، ووضعها فيما يسمى صندوق الشهادة جعلت تنتقل من جيل لجيل حتى لم يبق منها في عهد سليمان غير لوحين اثنين، ثم أخذت النقول تزيد، وتختلف نصوصها، وضاق «يوشيا بن أمون» بهذا الاختلاف، فأمر أتباعه بالبحث عن التوراة الحقيقية، وأفاض «رحمة الله» في إثبات هذه الحقائق، فكانت قدداً لديدات.

وكان الله قد أراد أن يأخذ بناصر دينه على يد هذا الداعية العظيم، حيث جعل السود من المنصرّين يقرؤون ما معهم من صحف العهد فيجدون الدعوة إلى المساواة، ولكنهم يبصرون الترفع المشين من القُسوس الأوربيين، وإذا كانوا

لا يختلطون بهم، ويُعيّنون من الآباء السود من يُلقي العظّات تعاضماً عن الاتصال بهم! كما أن المستعمرين أنفسهم لا يراعون المساواة التي تنطقُ بها صحف العهد، فهم كاذبون في دعوة المسيحية، إذن، وهذا ما وضّحه أحمد ديدات جريئاً غير هَيّاب، فتعرّض للاعتقال، ولكنّه كان يخرج غير متهم لأنه يتحدث عن واقع لا شك فيه.

ثم فُوجيء ديدات في بعض اجتماعاته بقسّ جاهل يقول إن المسلمين لا يعبدون ربّاً واحداً، بل يعبدون عدّة آلهة، وأنهم يكرهون الأنبياء، ويفترون على المسيح الإله وكان الحشد أهلاً مزدحماً، فوقّف ديدات يثلو كتاب الله ويفسّره، ثم يصيح في هذا الدعي: لقد رعى القرآن حرمة المسيح وأمه، وقُدّس مكانة الأنبياء، ولكنكم تتهمون نبي الإسلام، وتفترون عليه الكذب، فما دليلكم في أنّ الإله متعدد لدى المسلمين؟!

أما دعوى تعدد الزوجات في الإسلام، وهي ما يُشعّع به القسس، فقد واجهها الداعية بفهرس حافل لعظماء من المسيحيين في أوروبا كان الواحد منهم يجمع ثلاث خليلات وأربع، ويغدّر بهنّ تاركاً فلذات أكباده في العراء، وهو عنهم غير مسؤول، ولكنّ تعدد الزوجات قد عصم المرأة من الهوان، وجعل لها الحق المماثل للزوجة الأولى، وحفظ حقوق الأبناء حين جعلهم في مستوى واحد بحيث لا يجرؤ مسلم على أن يتنصّل من ابن له، ثم توجه أحمد ديدات إلى المستمعات من النساء وتساءل: أيّها الأشرف للواحدة منكنّ أن تكون زوجة، أم تكون خلية؟!

وقد طُبعت مناظرات الرجل في كتب كثيرة، ولا أدري كيف جرّؤت بعض الدول الإسلامية على مُصادرتها، كما انتشرت أشرطته في أمريكا وأوروبا على نحو لم يتخّ لداعية من قبله، وقد أُتيح لي أن أسمع شريطاً يدفع فريّة انتشار الإسلام بالسيف، حيث وجدت الرجل منطقياً لا يعتمد على النصوص الثقيلة وحدها، ولكنه يتساءل: أنتم أيّها المسلمون هنا في جنوب أفريقيا، هل أسلم واحد منكم قهراً دون طوع؟ هل المسلمون في أمريكا وأستراليا والصين واليابان وغيرهم من الذين شُرّفوا بالإسلام في العهد الحديث اعتنقوا الدين عن رهبة السيف؟ ومع من هذا السيف؟ والأمم الإسلامية مسلوبّة الحق تُطالب بالاستقلال الحقيقي بعد الاستقلال الاستعماري الذي بدّل أسلحته ليتبع احتلالاً باحتلال؟ ثم لترك هذا العصر ونسأل

عن مبدأ الدعوة الإسلامية، هل حمل محمد ﷺ سيفاً حين أعلن دعوته بمكة؟ أم أنه اضطهد وعذب أصحابه ومات بعضهم تحت العذاب، حتى هاجر معهم إلى المدينة فأخذ يدفع عن دينه غير مُنازِلٍ من سالمه من الناس؟ وهذا بعض ما سمعت في الشريط، وليتَّه كان لديّ فأنقل جلّ ما فيه!

وإذا كانت مناظرة ديدات للقس (جيمي سواغرت) قد دأبتْ أشرطُها في العالم العربي على نحو واسع وعرف عناصرها أكثر المتابعين لأمثال هذه المواقف، فلن أتعرض لها بتلخيص، ويكفي أن الله قد أخزى (جيمي سواغرت) بخذلان أليم في موقفه الجدليّ، ثم كانت خاتمته الأخيرة ذات عارٍ مذهل، وإذا اعترف على نفسه أمام الحقائق المشهودة بالخيانة الزوجية! وهذا هو الداعية الغيور!

أخذ القساوسة يحذرون من مناقشة ديدات العلنية، ويتحلون شتى الأعدار لرفضها، ومضت فترة من الزمن لم يقم بها جدالٌ علنيّ. ففكر الداعية الغيور في الأمر، وقال في نفسه إذا تعدّرت في هذه الأيام قيام حوار علنيّ، ففي الحوار المحدود ما قد يُغني بعض الشيء، ولعلّ من فائدته أن يقتنع المحاور المسيحيّ بآراء جديدة، تظلّ مدار تفكيره فلا يجزم أمام الجمهور بأشياء يراها لا تستقر على منطق صريح، وتلك هي الفائدة المرجوة!

لقد كان أحمد ديدات مواظباً كلّ المواظبة على استماع خطب القس في المسرح الملكيّ بـ(دريان)، وكان القس (هيتين) أشهر خطباء هذا المسرح، وكان كلامه يحفل بوصف المعجزات الخارقة للسيد المسيح من ناحية؛ وبالتأكيد الصارم على أن كتب العهد القديم والعهد الجديد قد تحدثت عما كان وما سيكون. وقد قال مُبالغاً: إن الكتاب المقدس قد تنبأ بقيام الاتحاد السوفييتي الشيوعي، وأنه تنبأ بتولي البابا الحاضر عرش البابوية. بل إن الدكتور (هنري كسينجر) وزير خارجية أمريكا قد أشار إليه بالكتاب المقدس.

وذكر القس نصوصاً تشير إلى ما يعنيه عن طريق التأويل لا عن طريق التصريح، ولما كان ديدات يعرف حقيقة أن التوراة والإنجيل قد تنبأ بظهور محمد ﷺ تصديقاً لقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِذَا دُعِيَ النَّبِيُّ لِنُبُوَّتِهِ

وَعَزَّزُوهُ وَنَصَّرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١١﴾ لما كان يعرف ذلك فقد عزم على مناقشه كبير القساوسة في تنبؤ الكتاب المقدس بمحمد، وكأنَّ القوم يتحاشون الرجل، فمَاطَلُوا في تحقيق طلبه الجدلي، وأصرَّ الداعيةُ على الحوار، وأعلنَ تنصّل الآباء منه، إذ لا يستطيعون الرّد، ثم رُئي أن يقوم القس (فان هيرون) باللقاء الحواري في مجلس خاص، على أن يحضره أستاذه وصهره ليساعده في جدل الشيخ، وتحدّد موعد اللقاء، وسارع الشيخ إليه فرحاً، فبدأ القسُ (فان هيرون) بسؤال الشيخ عما يريد أن يستوضحه، فقال في هدوء:

لقد ذكرتم في خطبكم الدينية أنَّ الكتاب المقدس تحدث عن قيام دولة السوفييت، وعن البابا الذي يرأس طوائف الكاثوليك في روما؟ وعن وزير خارجية أمريكا؟ فقال القس: هذا صحيح! فسأل الشيخ: هل تحدث الكتاب المقدس عن محمد نبي الإسلام، فعاجَلَ بالنفي الصريح، وقال إنه قرأ الكتاب المقدس حَرْفاً حرفاً ولم يجد عنه شيئاً!

فقال أحمد: لقد قرأت في الكتاب المقدس (سفر التثنية) الذي نزل على موسى هذا القول: وترجمته العربية «أقيمُ لهم نبياً من وسط إخوانهم مثلك، وأجعلُ كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيهم به».

قال القس: هذا صحيحٌ فما في هذا؟ قال الشيخ: مثل مَنْ؟ مثل موسى؟ فردَّ الشيخ: من المثل؟ قال: هو عيسى؟

قال ديدات: هل ترى عيسى مثل موسى؟ قال: نعم، كان موسى يهودياً، وكان عيسى يهودياً؟ فقال أحمد: جاء أنبياء مثل سليمان وأشعيا، ودانيال، ويوشع؛ وكلّهم يهود فلم لا يكون أحدهم المراد!

فسكت القس، وتابع أحمد قوله: إن يسوع لا يشابه موسى من أمور، أولها أن عيسى حسب اعتقادكم صار الإله المتجسّد، فهل حصل ذلك لموسى؟ وهي مسألة تتصل بالنبوة، فقال: لا، قال أحمد: وإذن فليس عيسى المراد!

ثم سأل أحمد: تقولون إنّ عيسى مات من أجل أن يكفّر عن خطايا العالم، وقد

صُلب من أجل الفداء ، فهل تحقق هذا لموسى؟ قال القس : لا؟ قال أحمد: فأين المماثلة إذن؟

وتابع يسأل: إن محمداً وموسى وُلدَا ميلاداً طبيعياً، وماتا موتةً طبيعية، ولكن عيسى وُلد من غير أب ومات في اعتقادكم مصلوباً؟ فأين المماثلة؟

سكت القس بعد نقاشٍ في الألفاظ لم يستطع معه الإجابة عن هذه الاعتراضات، وأدركَ ديدات حرجَ صاحبه فقال: إن النص في سفر التثنية هو مثلك، فأين وجه الشبه بعد ذلك؟ ثم إن موسى ومحمداً قد تزوجا وأنجبا أولاداً، ولم يفعل ذلك عيسى فمن يكون المثل؟ ثم إن موسى ومحمداً أتى كل منهما بشريعة جديدة لم تكن معروفة من قبل، ولم يأت عيسى بشريعة ذات قوانين، إنما جاء ليكمل شريعة موسى كما اعترف بذلك وكما تعترفون أنتم؟ فأين المماثلة!

إن محمداً وموسى قد دُفنا في الأرض، ولكلّ منهما قبر يرقد فيه! وعيسى قد رُفِع إلى السماء؟ فأين الشبه بين عيسى وموسى في ذلك؟

ثم إن نصّ سفر التثنية يجزم بأن الرسولَ المُبشِّر به، ليس من بني إسرائيل، بل من وسط إخوان بني إسرائيل، وهم أولاد إسماعيل؟ فكيف يكون عيسى الإسرائيلي هو المقصود؟

وامتد السؤال إلى أبعد مما ذكرتُ حيث دُوّن في صفحات كثيرة حرصتُ على الإشارة إلى بعض منها دُون بعض، لأنه انتقل إلى موازنات بشأن الأنبياء الآخرين، تجعلُ كلاً منهم غير مقصود بالمثلية، وكان القس يسمع كل ذلك، ولا يستطيع الرد، ولكن قابل الشيخ مقابلةً كريمة، وودّعه وداعاً كريماً، ووعدّه أن ينظر في كل ما أثاره من الاعتراضات!.

أما المناظرة البريطانية في أغسطس ١٩٨٨م فقد كانت في (برمنجهام) إحدى المدن الإنجليزية الشهيرة، وقد احتشد لاستماعها ما يربو على عشرة آلاف شخص، وكان المناظر المسيحي هو القس المبشر (شوردس) وهو إيرلندي يحمل درجة الدكتوراه من الجامعات الأمريكية، ثم تخصص في الدراسات الإنجيلية، وأصبح المدافع الأول عن (الإنجيل) بين المبشرين، فهو يثق بعدم تحريفه على حين يجزم بتحريف القرآن، وهذا ما دعا أحمد ديدات إلى أن يحصرَ الجدل في صحة ثبوت الإنجيل، وقد سمح له بخمس وسبعين دقيقة، على حين سمح (لشوردس) بتسعين

دقيقة، على أن يُمنح ديدات خمس عشرة دقيقة للتعقيب بعد حديث شوردرس .

ولباب ما قاله الشيخ أحمد ديدات إن القرآن ذو نص واحد لا اختلاف عليه بين المسلمين جميعاً شرقاً وغرباً، منذُ نزل حتى الآن ، أما الإنجيل فلدينا ثلاثة وسبعين إنجيلاً مختلفاً لدى الكاثوليك، وستة وستين إنجيلاً مختلفاً عند البروتستانت ، وبينهما أناجيلُ أخرى تتباعدُ وتتقاربُ ، وأنَّ وصف الكتاب (بالمقدس) ليس من عند الله، ولكن من عند الناشرين الذي تداولوا توزيعه مخطوطاً ومطبوعاً، وإذا كان (شوردرس) يدّعي في خطابه أنَّ ٧٥٪ مما في القرآن مأخوذ من الأناجيل فليأت الآن بمثال واحد، وأنا ساكتٌ وأسمع رده الآن، وقد أحجم شوردرس عن الرد، وكان ديدات قد واجه الرجل بمناقضات صريحة في عبارات الإنجيل، وطالب الرد عليها، ولما كان (شوردرس) قد قرأ خطابه في أوراق فإنه لم يستطع أن يجيب شفويّاً على اعتراض مناظره، وتفرّق الحشد، وقد ألقى انطباعه الخاص لدى المشاهدين ! .

لقد جعلتُ عنوان هذا البحث (أحمد ديدات كتيبة حافلة في كيان فرد واحد) ولعل القاريء قد وجد تصديق هذا العنوان فيما مضى من هذه السطور! ولا أزيد . . .



أحمد عبد الغفور العطار الكاتب الشاعر البحاثة

- ١ -

بيني وبين الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار صداقة أعتزّ بها، فقد كنت أقرأ له ما يقع تحت يدي من آثاره، وأراه في الطليعة من أدباء المملكة العربية السعودية، وفيهم أساتذته الذين تربى على علمهم في مقاعد الدرس، ثم ذهبتُ إلى الرياض أستاذاً بكلية اللغة العربية، وفوجئت ذات مساء بمن يطرق الباب في منزلي، وخرجتُ لأرى الأستاذ أحمد عبد الغفور يتفضل بزيارتي بادئاً دون لقاء سابق . وتعدّد اللقاء في الرياض ومكة المكرمة، وهو لقاء علمي لم يتطرق لغير شؤون الأدب والثقافة، فوقفْتُ على كثير مما أجهل من سعة اطلاعه، وشمول ثقافته، وتعدد مناحيه، إذ كان متطلعاً إلى صنوف شتى من أفانين المعرفة، يقرأ في الأدب واللغة والتاريخ والتشريع ولا يكاد يدع ناحية من نواحي التراث إلّا ألم بها إمام المدارس البصير، وله اطلاعٌ واف على ما يقع في يديه من كتب الغرب والشرق معاً، فقد وعى ثمار العقول هنا وهناك، وأعجب بطاغور الهندي فقرأه، وترجم له .

وحين حرثُ في تنوع هذا النتاج الحافل في فنون مختلفة سألته كيف يكتب في شتى الاتجاهات هكذا، وأذكر أنّه ابتسم ثم قال : أذكر لك شيئاً أعرفه عن نفسي، إني أكون مثلاً أولف كتاباً في اللغة، ثم يستدعي الأمر أن أكتب عن الشيوعية لأمر أجدها داعيةً إلى كشف منكرها الخافية عن الأغرار، فأتركُ لمدة تزيد عن شهر كلّ ما يشغلني من أمر اللغة التي قطعْتُ أمداً طويلاً في بحثها، وأتخصّص في قراءة كلّ ما أستطيع العثور عليه مما يتعلق بالشيوعية، وأظلّ النهار الأطول، والليل الأليل أقرأ عن الشيوعية وأدون الجُزّاءات، وأعلّق، ولا أسمحُ لنفسي أن أنتقل إلى قراءة

أخرى، مهما دعت أسبابها، وكأني مسوق بقوة جبرية لهذه الناحية إذ تلبسني قوة لا أستطيع لها دفعا، حتى أفرغ من بحثي قارئاً و كاتباً. . . وَهنا أتفلس الصعداء، وأعود إلى الكتاب الذي تركته، إن جميع ما كتبتُه في أمور السياسة خارجية وداخلية وفي سير المعاصرين بالسعودية وغير السعودية كانت تدعو إليه ضرورة ملجئة أنتزع نفسي لها انتزاعاً، وأفرغ للقراءة والكتابة ليل نهار، فإذا الكتابُ ناهض بعد شهرٍ أو شهرين على الأكثر.

هذا بعض ما قال الرجل الباحثة: وأنا بمتابعتي لأكثر ما كتب، وبمعرفتي ميوله الثقافية، أعلم أنه يجلّ الأستاذ عباس محمود العقاد إجلالاً لا يصلُ إلى مستواه كاتب آخر من زعماء الأدب المعاصر، فهو يعدّه المفكر الجاد الدؤوب ذا المنهج المتفرد، والرجولة الماثلة في صلابه الرأي، وصدق الاتجاه، ويراؤه المثل الذي يحتذيه، وليس في ذلك ما يؤخذ عليه، فقد تقدّمه العقاد زميناً، وملاً الدينا وشغل الناس، فقرأه الشاب الناهض ورأى في آثاره ما حبّبه إلى نفسه، فأثر أن يحتذيه.

وأنا أرصد خطوات الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار فأجدّها في طريقها الممتد الطويل شبيهة بخطا العقاد، فقد بدأ العقاد حياته الأدبية شاعراً ثم ناقداً، ثم كاتباً أدبياً وسياسياً، ثم قاصّاً يبدع قصة سارة، ويتمّ الله عليه نعمته فيتجه إلى الإسلاميات محللاً بارعاً، يكتب العبقريات، ويتحدث عن الإسلام ومزاياه، وعن افتراءات معارضيه، ومترلته في الشرق والغرب. . . ويترك مكتبة حافلة في دنيا الفكر الأصيل. . .

وكذلك كان العطار فقد بدأ شاعراً، واستراح إلى النقد في كثير مما كتب، ثم تجلّى كاتباً فخمّاً يُصدر الجريدة اليومية ويقوم على شؤونها ثم هو يلتهم كلّ ما يجد من آثار العقول شرقاً وغرباً، ليكون كاتباً إسلامياً يمتشق براعه في حلبة النضال الفكري ذائداً عن دينه ونبئه وتاريخ الأعلام من زعماء الإسلام! وقد عالج القصة القصيرة في مجموعة مشتهرة تحت عنوان: (أريد أن أرى الله) ولكنه أيضاً حقق كتب التراث وصحّحها وعقّب عليها، وهو مالم يتجه إليه أستاذه الكبير.

وبهذه المناسبة أذكر أن كتاباً صدر عن الشيوعية يحمل اسمي العقاد والعطار بعد أن انتقل العقاد إلى رحمه الله! وقد تضايقت نفوس يُسيئها أن يقرن العقاد بالعطار في كتاب واحد، وأخذت تنبسط في القول على نهج كريبه، وأنا أعرف أن الأستاذ عامر

العقاد ابن أخ الأستاذ العقاد هو الذي اقترحَ على الأستاذ العطار أن يضمَ حديثه عن الشيوعية إلى حديثِ كتبه العقاد عنها ولم يظهر في كتاب خاص ، ورحب العطار بالفكرة! وليس فيها ما يدعُو إلى الضجيج ، ونحن نرى أستاذة يشتركون مع تلاميذهم في كتب تظهر بأسمائهم جميعاً ولم يقل أحدٌ مثلاً إن عبد الحميد العبادي كتب مؤلفاً مع تلميذه محمد مصطفى زيادة ، فلماذا تكون هذه المسألة موضع نقیصة يتحدث عنها الكاتبون ، وفيهم من أكثر حتى أملٌ ، ومن لا يزال يبدىء ويعيد!

قلت : إن العطار بدأ حياته الأدبية شاعراً ، وهذا حقٌ ، لأنَّ بواكير إبداعه ديوان (الهوى والشباب) وهو ديوانٌ صادف ترحيب النقاد في مصر ، وقد تحدّث عنه الأستاذ سيد قطب في مجلّة الرسالة ، وعدّه نموذجاً طيباً لشعر الشباب في المملكة العربية السعودية ، وعقد موازنة بين شعره وشعر الشاعر اليمني (محمد عبده غانم) في ديوان (الشاطئ المسحور) وقال فيما كتب^(١) :

«هناك شبهٌ عجيب ، بين النسيج الشعري في كلا الديوانين ، فهو نسيجٌ رقيق هفّاف ، والشعر الحجازي القديم مشهور بالركة والعذوبة ، والشعراء الغزلون قد نشؤوا هناك ، فديوان (الهوى والشباب) ليس غريباً على بيتته ، فالظاهر أن الرقة والعذوبة ما تزالان كامنتين - تحت الشظف - في مدائن الحجاز ، أما الشاطئ المسحور فيبدو أنّه يستمدّ عذوبته ورقته من خصب اليمن وردائها التاريخيين ، فالبذرة هناك كامنةٌ ما تزال ، وإذا كان في شعر الأستاذ العطار جزالةٌ تُمازج الرقة في بعض الأحيان ، فإن في شعر الأستاذ غانم انسياباً وسيولةً دائمين في جميع فصول الديوان ، ولكنهما قريب من قريب» واستشهد سيد قطب بقصيدة جيدة للعطار ثم قال عنه :

«وقد يكونُ الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار معروفاً للقراء في مصر لأنه كتب في بعض صحفها ، كما نشر من قبل كتابين هما (كتابي) و(محمد بن عبد الوهاب) ، الأول مجموعة مقالات لها قيمتها في الأدب والاجتماع والسياسة ، والثاني دراسةً طيبة لحياة المصلح الكبير (محمد بن عبد الوهاب) فكُتِبَتْ عنهما الصحف مثنية مشجعة» .

(١) مجلة الرسالة العدد ٦٩٨ - ١٨/١١/١٩٤٦م .

وبمناسبة الحديث عن العطار شاعراً، أذكر أنه قال لي في أول لقاء سعدتُ به معه؛ إنه يتذكر أنَّ أول قصيدة نُشرت له بمصر كانت بمجلة الثقافة، وكانَ إلى جوارها قصيدتي (الموت يتكلم) وهي أولُ قصيدة لي في الثقافة أيضاً، فاجتمعنا معاً في أفق واحد، ولم أكنُ لاحظت هذه الملاحظة فرجعتُ إلى مجموعة الثقافة، فوجدتُ الأمر كما قال، وقصيدة العطار تحت عنوان (ناعورة الرياض) وقد وصفها وصفاً بديعاً، فجعلها عاشقةً تنن، وجعلَ ماءها دمعاً يترقرق، ويقول العطار^(١):

كَأَنَّهُا بِالْدمُوعِ تَرَجُّو من الحُبِّ قُرْباً
لَكُنْه في هَجُوعِ يَتِيه كِبَرُاً وعَجَباً
وإذ ترى منه صدا

تسقي الحشاشة برداً

قَدْ أَبْدَعَتْ من جَمَادٍ تَغْلُغِل الحَسَنَ فيهِ
وفي انسِدال السَّوَادِ يَبْكِي على ماضِيهِ
بأنِّه وزفير
يَفْتَنُ في التعبير

والأديب المصلح صاحبُ الرسالة يضيق به الشعر عن تسطير أفكاره المحتشدة المتجددة، لذلك ترك العطار شعره بعد ديوان (الهوى والشباب) إلّا رذاذاً قليلاً تساقط على أبعاد، واتجه إلى النقد؛ اتجه له جريئاً صائلاً تحمله حرارة الشباب على أن يشحذ السيف باتراً، فلا يتوانى عن الضرب القاطع دون رحمة.

أقول ذلك لأنني قرأت نقداً له بمجلة الرسالة عن تحقيق كتاب (مُعْجَم شمس العلوم) وهو مصنفٌ قديم ألفه (نشوان بن سعيد الحميري)، ووكل تحقيقه إلى القاضي اليمني عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، وهو عالم فاضل ولكنه لم يُمارس التحقيق من قبل، فوقعَ في أخطاء لا يخلو من أمثالها كثير من الكتب التي نشرت من التراث.

وعلى أصحاب التصوير أن يقوموا بحق العلم في تصويب الأخطاء مهما كثرت، وقد قام الأستاذ العطار بالواجب النقدي في ذلك إذ تتبّع ما بالجزء الأول

(١) مجلة الثقافة - العدد ٣٨٥ - ١٤/٥/١٩٤٦.

(وهو ما نشر فعلاً) من أخطاء تتبّعاً يقطاً رشيداً، ففهم السياق فهماً دله على شروء ناشز في بعض ما كتبه المحقق، أو روجه في تفصيل كلمة على كلمة، وكان من المصادفة أن أحد المستشرقين وهو العلامة السويدي (زتر ستين) قد اهتم بالمعجم فنشر الجزء الأول منه في السنة التي ظهرت فيها الطبعة اليمنية دون أن يدري كل من المحققين شيئاً عما فعل زميله، وطبعي أن يكون العلامة المتمرس (زتر ستين) أكثر إصابة من زميله، بل أكاد أعتقد أن القاضي اليمني لو عرّف أن المستشرق السويدي بصدد تحقيق (معجم شمس العلوم) ما أقدم على النشر. . . ولكن الطبعة اليمنية قد رأت النور، وقرأها الأستاذ العطار، فدفعه شبابه الثائر إلى المهاجمة العنيفة، حيث قال في مفتتح نقده^(١):

«أما الجزء الأول الذي أخرجته حكومة اليمن، ووقف على تصحيحه القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليمني مندوب وزارة المعارف اليمنية فلا يؤثق به، ويجب أن يُهمل، لأن كل صفحة فيه لا تخلو من خطأ يسيء إلى اللغة والفكر، وأنصح الحكومة اليمنية أن تتلف هذا الجزء. وتعيد طبعه من جديد إن كانت حريصة على نشره، وتكل تحقيقه إلى محققين يؤثق بعلمهم وتحقيقهم، وفهمهم للنصوص العربية واللغة والشعر من أمثال السيد الجليل عبد السلام هارون. . . وأفاض في مثل هذه المنحى».

وقال في ختام كلمته^(٢): «وما مبعث ألمي إلا الخسارة التي يتحملها اليمن، ولشد ما يؤلمني أن يبذل هذا القطر المحتاج آلاف الجنيهات لطبع شمس العلوم، رغبة منه في نشر العلم، ولغة القرآن، ومع هذا السخاء في الإنفاق والاحتمال فوق الطاقة، لا نجد جهداً علمياً مبذولاً في التحقيق والنشر يكون كفاء تلك الآلاف الضائعة سدى».

وهذا تحامل واضح، لأنني راجعت كثيراً مما خطأه الأستاذ العطار فوجدت التخطئة صحيحة لا تحمل اللبس في أمور، ووجدت اختلاف وجهات النظر في مسائل أخرى مرجعها النظر الشخصي، والتمسك برأي واحد في كلمة تحتل معنيين هو ما يسمّى عند الناشرين (بالتحكم في عبارة النص)، ولا أدري كيف تبذل

(١) مجلة الرسالة العدد ٩٤٩ - ١٠/٩/١٩٥١.

(٢) مجلة الرسالة العدد ٩٥٠ - ١٧/٩/١٩٥١.

الحكومة اليمنية ما فوق طاقتها، وتبالغ في السخاء والإنفاق، حين تنشر كتاباً علمياً؟ إنها حماسة شاب متحمس، بدأت تعتدل على ممر الزمان. وبمطالعتي الكثير من نقادات الأستاذ العطار عرفت أنه ممن قيل فيهم (إذا أحبّ وهب، وإذا خاصم ضرب) وهو قول محمود، لأن الحب والخصام هنا ليسا لغرض شخصي، ولكنه نتيجة اقتناع علمي قامت دلائله في نفس الناقد، وقد كان العقاد في شبابه يمثل في النقد جذوةً ملتهبة ذات اشتعال، فهل كتب على العطار أن يحذوه؟

وإذا ضربتُ المثل للخصام النقدي، فإنني أتجه الوجهة الثانية فأضرب المثل للحب النقدي متى قامت دواعيه العلمية الصادقة، فقد ألف الداعية الإسلامي الشهير الأستاذ محمد قطب كتابه الأول في صدر شبابه (الإنسان بين المادية والإسلام) فكان براعة استهلال رائعة لما تلاه من المؤلفات الممتازة، وقد دلّ على العنصر العلمي الثمين الذي يحمله الكاتب الشاب في كيانه الفكري، وهو ما انتبه إليه الأستاذ العطار حيث قرأ الكتاب قراءة الناقد المستقصي الهاضم، وشاهد فيه من آيات التوفيق الباهر ما دفعه إلى كتابة نقد صادق؛ ولا أقول تعريف شامل، إذ جرى بعضُ الناس على اعتبار كلِّ ثناء حقيقي على كتاب ممتاز تعريفاً لا نقداً، إذ النقدُ في رأيهم لا بدّ أن يكون تصويرياً وتصحيحاً، وهذا ضربٌ من التسعف لا مبرّره له يُحتم على الناقد أن يختلق العيب اختلاقاً إذا لم يجده ليكون متعادلاً الكفتين من الإشادة والملام! وهذه ما نراه فعلاً عند نفر يتصيدون الأخطاء تصيداً إذا لم تكن موجودة، وهو ما تجافاه الأستاذ العطار حين أعلن ثناءه الجلل على الكتاب في عبارات صادقة تتسم بالإخلاص العلمي حين قال^(١):

«إن المؤلف يُترجم للإسلام، ويقدم صورته كما هي من غير رتوش، ويترجم للأديان المنسوخة، والمذاهب كما تصوّرهما أحلام أصحابها، ثم يعارضها جميعها بالإسلام لا ليقول هو وحده، إن الإسلام خير منها على الإطلاق، بل يترك القارئ حكماً، وأي قارئ حرّ نزيه منصف لا يملك إلا أن يقول: الإسلام دين الحق، دين الفضيلة، ودينُ السلام، ودينُ الجمال، ودين العمل والحرية والطمأنينة، ودين الطبيعة القويمة، والفترة السلمية ثم يختم الأستاذ العطار مقاله الصادق بقوله:

«وحكمي على المؤلف أو لَه، أنه أديبٌ عالمٌ قديرٌ مع صغر سنه، وهذا

(١) مجلة الثقافة - العدد ٧٠٥ - ٣٠/٦/١٩٥٢.

ما يجعلني شديد الإعجاب بفنه وأدبه وعلمه وبحته، وأنا بعدُ دهشٌ من هذا العلم الواسع والثقافة الصحيحة، والتجارب الكثيرة التي لا تُتاح لمن كان في مثل سنه، بل تُتاح للراسخين من الكبار، ولكن فضل الله يؤتیه من يشاء».

ولعلي أسهبت في هذا المنحى بعض الشيء لهدفٍ مقصود، ذلك أن نفرًا من شباب أدباء المملكة العربية السعودية يبعثون بمؤلفاتهم إلى الأستاذ العطار ليكتب عنها، فيؤثر الصمت كيلا يباغتهم بما لا يرتضون من صائب النقد، ولو عرفوا بواعث صمته لعذروه ولقدّروه، ولكنهم يظنون أن الناقد الفاضل لا يُريد التنويه بمآثرهم تكبراً واستعلاءً، ومنهم من فاض به الوهم فكتب ذلك على صفحات المجلات، ناقدًا لائمًا، وقد قرأ الأستاذ حملات هؤلاء، وتلقاها بصبر لا ينفد، وحين استطال عليه من يجهل موقفه لم ير بداً من الرد المؤلم: «قلت الذين يتعجلون الثناء يدركون أن المديح لا يكون ذا شأن إلا إذا وجد حيثياته الصادقة، كما ليتهم يدركون أن القارئ حصيف واع، فهو يفهم ما يُقال عن تشجيع واسترضاء، وما يُقال عن صدق وإيقان، وكم سيقَت المدايح لكتب لا تستحق غير اللوم، فضاعت في هوج الرياح، وإن كتبها نقاد كبار خضعوا لظروف خاصة فكتبوا ما لا يعتقدون»!

إن كلمة الحق البريئة من الأستاذ العطار أنه يمدح مخلصاً ويلوم مخلصاً، ومن شاء أن يميل به إلى غير ما يعتقد، فجهده ضائع فقيد.

- ٢ -

نشر الدكتور السيد الجميلي بمجلة الأزهر الصادرة في ذي الحجة سنة ١٤١٧ هـ بحثاً عن الأستاذ أحمد عبد الغفور العطار يتضمّن أسماء كتبه، وقد امتد بها إلى أربعة وتسعين كتاباً ما بين مخطوط ومطبوع، وبعض هذه الكتب لم أسمع به من قبل، ولعلّ الباحث قد اتصل بأحد أصدقاء الأستاذ العطار، فعلم منه أسماء ثلاثة وعشرين كتاباً لم تُطبع بعد! وبالتأمل في هذا الحشد الهائل من التأليف نجدُ بحوث اللغة قد احتلت حيزاً كبيراً ما بين مؤلّفة ومحقّقة.

وأنا أعلم أن الباحث الكبير كان قد أعدَّ العدة لإخراج معجم لغوي ضخم تحت عنوان (الفیصل)، يجمع ما بُعث في المعاجم القديمة والحديثة، ويكونُ في رأيه

المرجع الأول في هذه العصر، وقد أطلعني على نموذج منه يشمل عدّة مواد كان قد قدّم بها من مكة إلى الرياض سنة ١٩٧٢م ليعرض المشروع على معالي وزير المعارف إذ ذاك وهو المغفور له الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ، وقد قابله السيد الوزير بكلّ احتفاء، وأشار بعرض المشروع على لجنة متخصصة لترى رأيها، فإذا أقرت هذا العمل بُدئ به فوراً، وقد علمت أن اللجنة رأت أن عالماً واحداً لا يمكنه في ختام القرن العشرين أن يستقل بتأليف معجم لغوي، إذ أن مجامع اللغة العربية صارت صاحبة الشأن في هذا المجال بلجانها المتعددة، وأعضائها المخصصين.

وهكذا شعر الأستاذ بالألم الصّامت لعدم القيام بمشروعه، إذ يرى في نفسه كفاءة تؤهله لإتمامه لا سيما أنه اشترك في تحقيق معاجم من كتب التراث، من بينها الصحاح للإمام الجوهري في سبعة أجزاء، كما كتب دراسة شافية عنه تبين تاريخ المعاجم منذ نشأتها الأولى، في صدر الدولة العباسية، وشارك أيضاً في تحقيق تهذيب الصحاح للإمام الزنجاني في ثلاثة أجزاء، ولديه جزايات لغوية كانت تملأ الكثير من الصناديق، ولعلّ الله إرادة في انصرافه عن تأليف (الفصل) إذ اتسع الفراغ أمامه لمناقشة الآراء المعاصرة، وتبديد الشبهات الاستشراقية الملققة، وهي ناحية لا يجيدها كلّ باحث، بل تحتاج إلى نظر ثاقب، وإطلاع دائب من حجة مستنير ذي مقدرة على استكناه النصوص، ومواجهة المصادر في مظانها القريبة والبعيدة، إذ كثيراً ما يحرف المستشرق الكلم عن مواضعه قصداً أو بدون قصد لينتهي إلى حكم مخطيء، والذين يردّون على هؤلاء معتمدين على ما قدموا من نصوص دون مراجعة للأصول يفوتهم الشيء الكثير.

وقد كنّا معاً ذات ليلة في منزل الأستاذ الكبير محمد سعيد العامودي وجرى الحديث حول النصوص المدخولة، فكان العطار فارس الموقف إذ كشف عن أباطيل راجت على كثير من الدارسين، وأبان في وضوح كيف وفقه الله بأدنى جهد إلى تحقيق الحق، إذ كان يقع على المواد بأدنى اطلاع، ومن يعرف تشتت البحوث في كتب التراث ووجود النص المطلوب في غير بابه يعلم أن توفيق الله عامل ضروري للنجاح، وهو ما تمّ كثيراً على يد الباحث الجليل.

على أنّ ما سرنى منه هو حُبّه الخالص لزملائه في حقل التحقيق، فقد كان يمدّهم بكل ما يملك حين يجلّون إلى الاستعانة به، واثقين بخبرته البارعة في هذا

المجال، ومن لا يلجأ إليه ممن يقيمون خارج المملكة كانوا يجدون منه اتصالاً مباشراً يرحّب بالمساعدة.

وأذكر على سبيل المثال، أن الأساتذة الكبار محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبا الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي؛ قد حققوا كتاب المزهر للسيوطي تحقيقاً دقيقاً بُذل فيه أقصى الجهد الجاهد، حتى أصبح المزهر في طبعته الجديدة وكأنه شيء طريف، وبعد ظهور المزهر بشهور سافر الأستاذ العطار إلى الطائف، وأراد أن يزور مكتبتها العامرة، فعرف أنها مؤصدة، وأن الزيارة العلمية تتطلب تصريحاً من المسؤولين، فاتصل بالشيخ عبد الله سرور الصبان راجياً أن يُسهّل له العسير، ورحّب الرجل المفضل بالرجاء، وصدر الأمر بتيسير مهمة الأستاذ، فرأى فيما رأى من المخطوطات تسعاً وعشرين ورقة من كتاب المزهر هي كلّ ما تبقى في مكتبة الطائف، فدفعه الحرص العلمي على أن يُقارن بين الطبعة الأخيرة التي أصدرها الأساتذة المشار إليهم من قبل، وما وَجَدَ في أوراق الطائف، فرأى بعض الاختلاف الجوهرى في نصوص شتى، واضطرّ إلى أن يكتب مقالاً ضافياً يشرح فيه هذه الحقيقة، ويستشهد بنصوص تُوحى بالاختلاف على ترجيح ما بأوراق المكتبة، وختم بحثه الذي شمل ستة أعمدة من مجلة الثقافة^(١) بقوله:

«وفي كثير من الصفحات مثل ما بيّنت من التغيير والتصحيح، وما ذكرته ليس إلا مثلاً ضربته للقراء ثم لثلاثة الإخوان المحققين، علّي أحملهم بهذا على طلب الُوريقات التي لدي، ليصححوا ما يمكنهم تصحيحه من المزهر في طبعته التالية».

ولا أدري هل وصل نداء العطار إلى الأستاذين أبي الفضل والبجاوي، لأن المرحوم الأستاذ جاد المولى كان قد انتقل إلى رحمة الله، أو أنهما لم يقرأ مجلة الثقافة! لقد أدّى العطار ما عليه وكفى.

وقد قال الدكتور السيد الجميلي بعد أن سرد فهرس مؤلفات العطار: «وللأستاذ العطار نقودٌ واستدراكات لغوية في التعقيب على المؤلفين، في قالب مهذب رقيق ليست مقحمة بأغراض ملتوية تحت ستار نقد مزعوم وهذا الأسلوب الراقي جدير بالتقدير لأنه يبرز أهمية الكاتب والكتاب المنقود في عبارات صادقة مع إشادة

(١) مجلة الثقافة، العدد ٦٥٤ - ١٩٥١/٧/٩.

بمواضع التبريز، ثم يجعل من تنويهاه وتصويباته واستدراكاته صورة علمية محضة، تكميلاً يعتز به المؤلف لانطوائه على الرغبة الصادقة المخلصة في الإصلاح والتقويم».

ثم قال الكاتب: «ولكن هناك بعض المغالاة والمخالفة لضوابط النقد، وهذا ما حملته على تخطئة أشياء وهي صحيحة، أو ليس خطؤها مطلقاً، وإنما يجوز حملها على المجاز، فكان الحكم بتخطئتها ليس سديداً من كل الوجوه».

وهذا يوافق بعض ما عقبته به من قبل على نقد الأستاذ العطار لكتاب (معجم شمس العلوم)، ويبقى أن نقول إن لكل ناقد منحا، فما أراه صحيحاً قد يكون في منطق غيري مخطئاً، فليكتب كل باحث وفق ما يمليه عليه اطلاعه، والقارئ البصير حكم أمين.

قلت إن الله إرادة في انصراف الأستاذ العطار عن تأليف المعجم المأمول إلى ما هو أولى وأجدر من الدفاع عن الإسلام في وجه خصومه، فقد شاء الله أن يكون زميلاً لكوكبة فاضلة من كبار المجاهدين في هذا الميدان من أمثال: محمود محمد شاكر، ومحمد الغزالي، وأنور الجندي؛ ومن لا أستطيع أن أحصر أسماءهم الكريمة في هذا المجال، والحق أن أبطال هذه الجبهة القوية قد فرزقوا محبة الله فرزقوا تبعاً لذلك محبة الناس، والواحد منهم ترجمان لصوت زميله، لأن الحق لا يتعدد، فهم أصحاب هدف معروف المعالم، محدّد الاتجاه، وقد يكتبون في ردّ شبهة واحدة فتجد الدفاع متشابهاً مع أن أحدهم لم يكن قرأ ما كتب أخوه، وذلك لأن للحق روحاً مشتركة تتردّد في النفوس الصافية فتُملي عليها ما يجب أن يقال، والفرق بين كل كاتب من هؤلاء وأخيه هو فرق في الاندفاع والتلبّث لا فرق في الجوهر الشفاف، وقرأ إن شئت ما كتبه العطار في كتابه الرائع (الزحف على لغة القرآن) لترى الأصوات المؤمنة ذات صليل متعدد، بل لترى صوتك أنت أيها القارئ وإن لم تكن من أهل العلم، لأن القارئ المسلم ذو إدراك واع يُشرق في أعماقه فيعرف الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وقد يقرأ الكتاب فيظن أنه هو الذي ألفه، مع أنه ليس رجل تأليف، لأن إشراق الإيمان في نفس القارئ الصافي وحي من عند الله، فتكون قراءته لما يحس به في أعماقه ترتيلاً شجياً يسعفه بأرق النغمات وأجمل الإيقاع.

قد اتهمت اللّغة العربية بالعجز منذُ كثرت الحراب المسمومة في أوائل هذا القرن، وهو اتهامٌ باطل استطاع حافظ إبراهيم بإيمانه الرائع أن يردّ عليه في بيتين اثنين وكأنهما إلهامٌ من الله، وذلك حين قال على لسان اللّغة العربية:

وسعتُ كتاب الله معنى وحكمة وما ضقتُ عن آي به وعظمت
فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آله وتنسيق أسماء لمخترعات

ويردّ العطار فيكشف الغطاء عن الهدف الواضح في الحملة على اللّغة العربية، لأنها ليست المقصودة بذاتها بل المقصود كتابُ الله الذي جمع الأمة الإسلامية على هدفٍ واحد، ومتى جهل المسلم كتابه ولغته فقد انفصم جبلُ الله الذي يعتصم به المسلمون جميعاً، فيكونونَ كالتي نقضتُ غزلها من بعد قوة أنكاثاً، وهذا ما عناه العطار حين رأى خلف هذه الدعوة تجريد المسلمين من أسلحةِ البقاء، وتفريغ حياتهم من القيم العليا ويكونون سريعي الإجابة لكل ناعق.

أمّا انتشار الدعوة إلى الفلكلور في كل قطر إسلامي، فليس الهدفُ منه انتشار سيرٍ وقصص وتقاليد تافهة لشعب مصر أو شعب العراق أو شعب المغرب، وإنما المراد انصرافُ المسلمين عن تاريخهم المجيد بوقائعه ومعاركه وأبطاله ومُثله، والالتجاء لتقديس شخصيات بعضها أسطوري، وبعضها كان ذا مغامرات حربية لم تتجه إلى الدفاع عن حق، فتعيد تاريخاً ذا إلهام، ولكنها قفزاتٌ محمومة لأناس يتجالدون ويتحاربون في غير ميدان، وإلاّ فماذا يستفيدُ القارئ من سير أمثال الزناتي خليفة، والوزير سالم، وحسن ونعيمة، إلى آخر ما احتشدت له بعض الجهات الحكومية تشجيعاً وتمثيلاً وإذاعة وانتقالاً في شتى المراكز والمحافظات لإلهاء الشعب بما لا يعود عليه في شيء، وللمسلمين أبطالهم الحقيقيون، ومعاركهم الظافرة في القديم والحديث، ولك أن تضرب كفاً بكف حين تجدُ سير الزناتي خليفة والوزير سالم تملأُ الأذهان في أمةٍ من أبطالها خالد وعلي بن أبي طالب وسعد والمثنى بن حارثة وصلاح الدين، في مئآت الجبهات المرفوعة في ميادين العظمة والجلال.

وقد فطن العطار إلى ذلك كله حين قال: «إن في هذه المأثورات الشعبية التي يحرص عليها الفولكلوريون ما جاء الإسلام لتحطيمه والقضاء عليه، كالأساطير

والوثنيات ، فكيف تعودُ إلى الأذهان في صورة الفنّ ، لالتلهي النفوس فحسب ، بل لتطمس فيها روح العزة والإيمان .

إنّ كتاب (الزحف على لغة القرآن) يتطلب بحثاً وتحليلاً مستقلاً ، وأنا ألفت القارئ إليه ، ليأخذ مكانة في مكتبته جوار كتاب محمود شاكر (أباطيل وأسماء) وكتاب الغزالي (كفاح دين) ، وغير هذين مما سطع نوره دون خفاء .

وقد شدّني في هذ المجال بحثان رائعان كتبهما العطار عن الأناجيل المحرفة ، وعن التوحيد في الإسلام وغيره من الأديان ، إذ كان الباحث الكبير فسيح الأفق إلى أقصى ما يكون الاتساع الرحب الفسيح ، فقد قرأ الأناجيل قراءة الناقد ، وأثبت بالأدلة الساطعة ما ينطق بتحريف النصوص السماوية ، لأن ما ينسب إلى هذه الصحف المحرفة ينطقُ بالطعن في ذات الله وفي الأنبياء أنفسهم ، فواغوثاه ؛ كيف يكون الإله في بعض نصوص التوراة عاجزاً يطلب العون ، وكيف يقع الأنبياء وهم صفة خلق الله في أرذل المعاصي فجوراً وغياً ثم يكوّنون بعد ذلك أنبياء !

وقد أثبت العطار بالدليل الناصع أنّ الديانة اليهودية التي حُرّفت عن أصلها الأصل الآن قد خرجت عن دين موسى ، وصارت ديانة كفر وإلحاد^(١) ووثنيّة ، وقد فطن العطار إلى أنّ دعوى التوحيد في اليهودية منقوضة من أساسها ، لأنهم يقرّون أنّ الإله هو إله اليهود وحدهم ، وهم شعبه المختار ، ومعنى ذلك أن لغير اليهود آلهة أخرى ، فأين هو التوحيد المزعوم .

كما أوضح أن الديانة المسيحية قائمة على التثليث فالله الأب والله الابن والله روح القدس ، وهم بعد ذلك ثلاثة في شخص واحد! وبقدر ما هبط اليهود بإلههم (يهوه) ، وبأنبيائهم ورسلمهم إلى الحضيض ارتفع المسيحيون بيسى إلى أعلى الدرجات فجعلوه الإله الابن ، فأين التوحيد إذن؟

إن الإسلام قد جاء إلى البشرية لينقذ العالم من الشرك الذي وقع في الأديان السماوية السابقة والأديان الوضعية ، وكلتاهما في وضع واحد ، لأن التحريف الذي وقع بعد رحيل موسى وعيسى قد جعل الشرك واضحاً في الديانتين ، فكان الإسلام رجوعاً إلى المنهج الصحيح ، وهو ما دعا إليه القرآن حين قال : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ

(١) مجلة المنهل - جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ .

الَّذِينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴿[الشورى : ١٣].

ومن أحسن ما فتح الله به على الأستاذ العطار ما كتبه عن التوحيد في رأي^(١) (فرويد) لأنه استقل هنا ببحث سبق به سواه، حيث كشف النقاب عن تخطيط العلامة الكبير (فرويد) حين أكد أن (أتون) الفرعون المصري هو أول من دعا إلى التوحيد في العالم، مع أن (أتون) وثني لأنه رَمَزَ لِلآلهِ بقرص الشمس.

وكلام الأستاذ العطار في حاجة إلى قراءة مستأنية في مصدره الأول، ولا يغني هنا التلخيص، لأنه ذكر من الحقائق التاريخية ما يعصف بفرية تهافت المقلدون على ترديدتها، ولعلني أذكر عن نفسي أنني تحدثت عن هذه الفرية المكذوبة في مقال ضاف بمجلة الهلال^(٢) تحت عنوان (مصر عرفت التوحيد قبل أخناتون) وكان حديثي يتخذ منطقاً آخر غير منطق الأستاذ العطار، وإن تقابلنا معاً في النتائج الصحيحة المقررة، وقد كان مقاله في غاية الوضوح، لأن يوسف عليه السلام قد سبق أخناتون في مصر، بمبني عام، وقد جاء يوسف برسالة التوحيد في مصر، وقال القرآن على لسانه: ﴿يَصْدِحِي السِّجْنِ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف : ٣٩]، كما قال القرآن على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [يوسف : ٣٤]، فكيف يكون أخناتون أول من دعا إلى التوحيد.

إن المجال فسيح لذكر إبداعات الأستاذ العطار، ولكننا هنا نشير ولا نستوعب، ومما يجدر ذكره أن الأستاذ قد وُلِدَ بمكة سنة ١٣٣٥، ونال الشهادة الثانوية بالمعهد السعودي بمكة، والتحق بدار العلوم زمناً، ثم استقل بالبحث والنظر حتى صار علماً مرموق المكانة، سامق الارتفاع.

* * *

(١) مجلة المنهل عدد رجب ١٤٠٥ هـ وما سبقه من الأعداد.

(٢) مجلة الهلال - فبراير سنة ١٩٩٥ م، وأعيد نشره في كتابي (الأدب والنقد).

أحمد الكاشف

شاعر حر ذو أهداف كريمة

لكل حديث مناسبتُهُ، ومناسبةُ هذا الحديث ترجع إلى ثلاثين عاماً^(١) ولّت مسرعة في طريق الحياة، ثم اتصلت الآن بما أعاد ذكرها شاخصة ماثلة! وإن عجباً أن تتقهقر إلى هذا المدى الموغل البعيد، رباه؟ أهكذا تمضي السنون سراعاً لا تتلوم!

حين انتقل الشاعر الكبير الأستاذ أحمد الكاشف إلى سعة رحمة الله سنة ١٩٤٨م، وجهتُ إليّ قارئته فاضلة بالعدد (٧٩١ - ٣٠/٨/١٩٤٨م) من مجلة الرسالة الغراء اقتراحاً أدبياً أن أتحدث عن الكاشف وزميله أحمد محرم على صفحات الرسالة! وقد وجدت لديّ من الخواطر ما يسعف بالحديث عن أحمد محرم، ولم أجد - حينئذٍ - قدرةً أدبية تسعفني بالحديث عن الكاشف العزيز، ودار الزمان دورته فجاءتني هذه الرسالة من القارئة نفسها، تقول فيها بعد مقدمة موجزة:

(لعلّك قرأت ما جاء بالأهرام، تحت عنوان: (منذ ٧٥ سنة عن أحمد الكاشف)، وإذا لم تكن قرأت، فهذه هي القصاصة فاقرأ لتكتب عنه في الثقافة، ولتشرح لي رموز هذه الأسطر التي لم أفهمها من كلمة الأهرام، وأخشى أن تنتظر ثلاثين عاماً أخرى!).

قرأتُ القصاصة في جريدة الأهرام (٢١/٣/١٩٧٩م) تحت عنوان من ٧٥ سنة فإذا بها تقول: «تلقينا أنّ حضرة الشاعر البليغ أحمد أفندي الكاشف تشرف بمقابلة البرنس أرفع الدولة في محطة طنطا، يوم زيارته سعادة منشاوي باشا، وكان قد

(١) نشر هذا البحث بمجلة الثقافة، سنة ١٩٧٨.

ضربَ له موعدَ التلاقي فيها فلَمَّا قَدَّمه إليه عَزُّوْهُ كامل بك تيمور، حَيَّاه تحية الحب الأَكيدة، وتَعَطَّف عليه كعطف الصديق على الصديق ثمَّ أهداه سِجادةً مزرَكشة جميلة، ودعاه للسفر معه في القطار الذي أعَدَّه المنشاوي باشا لينقله إلى القرشية؟
قرأت ما قرأت، ورأيتُ الواجب الأدبي يفرض علي أن أتحدَّث الآن عن أحمد الكاشف، لقد نكلت عن الكتابة عنه منذ ثلاثين عاماً، وأنا طالب بكلية اللغة العربية، أفيجوز لي أن أنكل بعد هذا المدى المتطاوُل، وقد تكرر الرجاء، وصار الطَّالِب أستاذاً من المفروض عليه أن يُسأل فيجيب؟ وإذا أهمل فما عُدَّره أمام نفسه أولاً؟

أما حديث القصاصة، فالأمير أرفع الدولة رضا خان أحدُ أعضاء الأسرة الحاكمة في فارس (إيران الآن) كان شاعراً مُجيداً باللسَّانَين العربي والفارسي معاً، وكان كاتباً إسلامياً يعالج شؤون المسلمين في عصره، غير مقتصر على أحداثِ وطنه، وقد كان سفيراً لدولته لدى الخلافة العثمانية حيناً، وفي بطرسبرغ لدى الروس حيناً آخر، وقد اشترك في ما كان يسمى بمؤتمر السَّلام، وزار مصر في سنة ١٩٠٤م، واتصلَ بشعرائها، وكتَّابها الذين تتبع آثارهم في الصحف العربية، وسأل عن أحمد الكاشف فعرف أنه في قريته (القرشية) بمديرية الغربية، فصمم على لقائه ليُظهر له مدى تقديره الجَم لشعره، وأدبه، وقد دعاه أحمد المنشاوي باشا وجيه الغربية وكبير سراتها حينئذ، فرأى الفرصة سانحة للقاء الشاعر، وتشوَّف لرؤيته، وعانقه عناق الحب حين قابله، واختصَّه بإيثار بالغ، فأمر أن يسير قطاره الخاص إلى قريته ليبلَّغه مأمُنه في احتفاء، وأعدَّ له هدية رمزية هي إحدى نُحفِ السَّجاد العجمي الفاخر، وقد هزَّت هذه العاطفة الحارة من الأمير الشاعر أعطاف الكاشف، فأنشد قصيدة رنانة قال فيها مخاطباً الأمير الكبير^(١):

الفضلُ فضلُك زائراً ومزوراً	فأعد صنيَعك ذاكرأ مذكوراً
وتعهد الغرس الذي استَحْيَيْتَهُ	حتَّى تبسم بالرجاء نضيراً
ولقد عرفتُك في بَعادك راجياً	ألا أرى أمدأ إليك عسيراً
ولبثتُ حتى زُرْتَنِي في موضعي	فكأنني بالغيب كنت بصيراً
شَرَفْتَنِي فسي قَرِيتي فكأنني	ملكُ أسوسُ مدائننا وثغورا

(١) ديوان أحمد الكاشف: ٢ / ٨١.

متهلّسلاً لتحتي مسرورا
توحي إليّ الشعر والتصويرا
أهديت تاجاً عالياً وسريرا
وأطلتُ في إبداعها التفكيرا
لرسائلي التدبيجَ والتَّحْيِيرا
نصروا العلوم ومدّنوا المعمورا
حتّى أجادوا الشّرح والتفسيرا
أن اليراع أجلّ منه أمورا
حتّى أجلّتك الملوكُ سفيرا

لله يوم لقيتني متجمّلاً
للدين والدنيا هديتك إلي
لم تُهدِ طُنْفَسَةً إليّ وإنما
شاهدتُ حذقَ الفرس فيها معجبا
متعلماً من وشيها وطرازها
هل أنت إلا صفوة القوم الألى
لم يسمعوا القرآن أول مرة
ياذا البيان يرى الحُسام وأهله
ما كرم الشعراء أنك شاعر

وتمضي القصيدة حتى تقرب من ستين بيتاً عامرة بأصدق العواطف، وأحرّ المشاعر وقد كان لهذا الموقف أثره البعيد في نفس الكاشف، وهي نفسٌ عالية شريفة لا تعرف الملقَ والاتضاع، بل دفعته إلى أن يُعاتب الخديوي عباس حلمي الثاني في بعض مدائحه، فيفصح له عن ذات نفسه الصادقة، حين يخبره مُصرّحاً غير مجمجم بأنه أثر شاعراً واحداً من شعراء دولته هو أحمد شوقي وهم كثيرون!! وإنّ الأمير الفارسي قد عرف مكانته واختفى به، وبَيْنَهما ممالكُ وبحار وفلوات، وإنّ واجب الحاكم على الرعية أن يرعى نبغها، وذوي المواهب الرفيعة فيها! وهو تقريعٌ رقيق الملمس ظاهراً، ولكنّه ذو وخز باطني يُدمي المشاعر، بل هو مواجهة صارخة لا يصدع بها غير الكاشف العيوف حين يقولُ في مناسبة تهنئة الخديوي ببعض أعياد الجلوس:

ذهبَ الرجاء من الحيس الصادي
لا يقبلنّ شفاعة الأعياد
ولهذه الأعلام والأجناد
في دولة الإنشاء والإنشاد
من عزّتي وسجّيتي وجهادي
بك واحدٌ من أهل هذا الوادي
لك غير مُلْتَفِتٍ إلى الأنداد
وحنانهم كانوا من الزهاد

عيدٌ وماذا سرّني فأنادي
وبأيّ تبيان أهنيء مُعرضاً
مالي إذا لم ألقَ عندك موضعاً
عَرَفَ الوزير الفارسي مكانتي
وأثابني ذاك الغريب لما رأى
قربت شاعرك الجليل فما اقتدى
ما زلت للأشعار تكرمه وما
ناتين مضطربين لولا رفقهم

لا يسألونك مرة إقطاعهم
جعلوا وجوههم صحائف وذهم
فالشعر مفتقر إلى ذي نجدة
أ يكونُ وردك زاخراً متضرباً
أم يرحلن عن الرياض حمامها
لم يغن إسراي إليك شكائتي
إن الذي استقضى على عذاله

والقصيدة ذات نفس حار ممتد، وفيها جرأة تُذكر بغضبة المتنبي في وجه سيف الدولة حين قال قصيدته:

واحرَّ قلباه ممن قلبه شِبْمُ ومن بجسمي وحالي عنده سقم
والكاشف عيوف أنوف، وهو لا يغضب لنفسه وحدها، ولكن يغضب لزملاء
له، رزقوا الإبداع والنبوغ، وحُرموا المنصب والراتب، ومن دونهم يجد مكانه
المستريح في إدارة حكومية، أو جريدة صحفية؟

«نائبين مضطربين لسولا رفقهم وحنَّانهم كانوا من الزهاد»
ومن يقدر غير الكاشف في أفنثه أن يقول: (عيدٌ وماذا سرني فأنادي)، فهو كما
قال عنه صديقه الشاعر الكبير خليل مطران: «الكاشف نارِي المزاج، وزنْبقي
الخاطر، فخور، هو ناصح ملوك، وفارس هيجاء، ومقرع أمم على التقصير،
ومرشد حيارى في مختبط السياسة، ومشتبك المعضلات، يُلقي إليك أبياتاً شائقة
اللفظ، شريفة المعنى، متينة القوافي، يكادُ في بعضها يُبصر الغيب بقوة بدهته
وتحليق فكره»^(١).

- ٢ -

كان أحمد الكاشف صاحب رأي قبل أن يكون صاحب قصيد، فقد أسرع به
حِسّه الدقيق إلى الشعور الصادق بمحنة وطنه المحتل بخاصة، ومُصيبة العالم
الإسلامي من الاستعمار بعامة، فاتخذ من بيانه أداة للإرشاد الحافز، والإصلاح
المنشود، فاشتهر بين أقرانه بالشعر السياسي، وكانت الأهرام في مدى نصف قرن

(١) ديوان الكاشف: ج ٢ المقدمة (ل).

تنشر قصائده تحت عنوان (الشعر السياسي) من أكثر مناحيها، وقد قال عنه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: «أنه أحق بنفسه أن يكون زعيم حزب من أن يكون بمنصبه أحد الأفراد»^(١).

وكان الرافعي رحمه الله سمع رنة الخطابة الثائرة تتعالى في شعره، وأدرك ثبات اتجاهه السياسي ثباتاً واضح الغرض ساطع المنهج فيما يهدف إليه من المنازع الإصلاحية، فرآه صاحب رسالة إصلاحية يجب أن يلتفت حولها أنصاراً وأشباع إذ توافرت له عناصر الزعامة السياسية بتحديد الهدف الصريح، ووضوح الأدلة المقنعة، وحرارة الدعوة المتكررة، والتفاف جمهرة من المثقفين حوله يرتلون قصائده، ويستشهدون بها كتابةً وخطابةً، وإذا فهم من كلام الرافعي أن نصيب الشاعرية لدى الكاشف أقل من نصيب القيادة الفكرية في معتزك السياسة فلا أن الكاشف لم يكن ممن يتفوقون في الصياغة الأدبية، بحيث تكون قصائدهم عرائس فاتنة تخلب وتروع، ولكنه يكتب القصيدة في أغراض إن فاتها رنين اللفظ، وبهاء التصوير، فلن تقوتها فورة الحماسة، واتقاد العاطفة، مع بيان نصوع التعبير وسلامته، وقد كان الأستاذ أمين الحداد أوفى من الرافعي بياناً حين اتفق معه من إجمال رأيه، وتعذاه إلى تفضيل شاف عن الكاشف حين قال^(٢):

«الكاشف بشعره أشبه بزعيم حزب، أو صاحب جريدة منه بقارض قصيدة، وناظم كلمة، ولكن جملة شعره تنم عليه بأنه وفر الحيلة على الإجابة، وأكثر من توجيه الذوق الحسن، أما المبادئ التي يُعدّ هذا الشاعر زعيمها، وتبدو في أكثر قصائده السياسية فهي تحرير مصر، والقول بأحقية الأتراك في الخلافة الإسلامية، والدعوة إلى الجامعة الإسلامية، ومعلوم أن هذه المبادئ مما لا علاقة له بالشعر، وإنما هي من لزوميات كتاب السياسة، وأرباب الصحف، ولكنك لو تفقدت شعره المنظوم لأجلها لوجدته سائغاً مقبولاً، بل تجد في أكثره طلاوة الشعر الصادق، وديباجة الأنيق المشرق، حتى يصرف ذهنك عن الموضوع إلى حسن التنسيق، ولطف التركيب، وهذا بلا شك من المرامي البعيدة التي لا يطالب الدنو منها إلا المحسن المجيد».

(١) ديوان الكاشف: ج ٢ المقدمة (ك).

(٢) ديوان الكاشف: (المقدمة).

وإذا كان زملاء الكاشف - أو أكثرهم - من شعراء عهده ينحون منحاه في الإفاضة في الشعر الوطني حيث نرى لحافظ إبراهيم، وأحمد محرم، وأحمد نسيم، وعبد الحليم المصري ومحمد عبد المطلب مثل ما نرى له من التنديد بالاحتلال، ومحاربة الرذائل الاجتماعية، والدعوة إلى الوحدة الوطنية، فإن أحمد الكاشف يختلف عن هؤلاء بما يحسنه القارئ في شعره من روح القيادة التوجيهية والمواجهة الصريحة لممدوحه بحيث يشعر قارئه أنه أمام مفكر مستقل، تمتد قامته حتى تحاذي قامات من يخصهم بالشناء، وهي روح من الفتوة الإسلامية يحسنها متصفح ديوان الكاشف، كما ينطق بها سجل حياته، إذ كان مثلاً للترفع النبيل، والشمم النافر من التطامن والاستخذاء، وإذا اشتهرت مدائحه في السلطان العثماني والخديوي عباس الثاني، فهي مدائح الصديق الذي لا يُغضي على نقيصه، وقد عاتب العثمانيين مُعاتبة صريحة حين أغضوا عن مساوئ كرومر في مصر فقال في قصيدة شاكية:

بكى بنو الصّين من أخبارنا جَزَعاً	وما استفزَّكمُ من أمرنا خبر
هَلَّا ذكرتم لنا صُنعاً ومأثرةً	إنْ كان للذكر في ألبابكم أثر
يا آل عثمان والدينيا مولية	عنا وعنكم إذا لم تنفع العبر
قد كان ينظم درر التهنئات فمي	فاليوم تُنثر من أجفاني الدررُ
أضعت أيامي الأولى سُدَى فغدت	تلومني فيكمُ أيامي الآخر

وهو عتاب غاضبٌ أثار انتباه صديقه الشاعر أحمد محرم فكتب إليه يقول:

عذلت بني عثمان والعذلُ يؤلم	وملت عن المدح الذي كنت تنظم
بلى إنها الأوطان هاجك أنها	بأيدي بني التّاميز نهب مُقسم
حَنانك بالقوم الألى أتت منهم	ورأيك في القوم الذي هم هم
أعيذك من قول الوشاة تغيّرت	خلانقهُ واعوج منه المقوم

فرد عليه الكاشف بقوله:

لو كنتُ أرجو أن تؤيد حجتِي	بأبلغ منها أيها المتحكم
أبرئي لبلوأي الغلاظ قلوبهم	وتغضب أن أبصرتني أتالم
فلا تنكرن حبي لهم إن عذلتهم	فقد يقتل الصبُّ الحبيب ويعدم

وتصغرُ بعد الإثم للمرء نفسه فيقتص منها ناقماً حين يندم^(١)
وفيما استشهدنا به من قصيدة (عيدٌ وماذا سرني فأنادي) مثلٌ آخر من حميته
الغاضبة العيوف، وهذا مثل آخر ينطق بما نعينه.

عالم الكاشف أحداث السياسة في عصره، كما عالج مصائب الجهل والفقر
والمرض، وما غمر البلاد من الآفات الاجتماعية من خلال قصائده السياسية، إذ
كانَ الوضع الاجتماعي نتيجةً محتومة لانحدار الوضع السياسي، وإذا كان الشعر
الجاهلي هو ديوان العرب وسجل وقائعهم وأحداثهم، فإن ديوان الكاشف يُعدُّ
إحدى الوثائق التاريخية بما أشار إليه من أحداث، ورصد من تيارات، ودلَّ على
انحرافات، وبدد من شبهات، إذ لم يكذِّ يترك موضوعاً سياسياً لم يقل فيه، ففي
شبابه الأول تحدَّث عن فظائع كرومر، وحادث دنشواي، وعن محمد عبده
ومصطفى كامل، وهتف بحرية مصر والسودان، وحلل أوصاب الخلافة العثمانية،
وأشار على رجالها إشارة الناصح الأمين، واستشعر ما يعترضها من أخطار، حتَّى
إذا احتفلت الدولة بدستورها الجديد كان الكاشف أول من فرح بالاحتفال، حيث
أخذ يُعدّد مزايا الحرية والشورى والعدالة والمساواة في كلِّ ما قال من أمداح، راجياً
أن تنال مصر نصيبها الموفور من هذه الحرية، وكانت عاطفته الإسلامية ذات انتقاد
في كل ما نظم من شعره العثماني، إذ اعتبر الخلافة حصن الإسلام، وتمنَّى لو
سمحت ظروفه بامتشاق السيف في حُرُوب البلقان ليؤدِّي واجب الدفاع عن
المسلمين، فهو يقول مخاطباً الأتراك^(٢):

أجود بروحي غير أن سبلها	إليكم كما يأبى الهوى متعذراً
أتجري دمائي من مثار الأسى سدى	وميدانكم أولى بهن وأجدر
ثويت وأغلالي عليّ شديدة	ومالي إلا أدمع تتحدراً
ولو كان لي بأسٌ على قدر غيرتي	لكان لكم منه حُصُون وعسكر
متى يجد الحر الأبى مكانه	من الملك يمضي الأمر وهو مخير

وهي عاطفة حارة، كان على الأتراك أن يُقدروا أمثالها من شعراء جمعهم حب

(١) المقطوعات الثلاث من ديوان محرم: ٢٢٤/١، ٢٢٥، ٢٢٦؛ الطبعة الأولى.

(٢) ديوان الكاشف: ٩٠/٢.

الدين وحماية الإسلام حَوْلَ لوائهم فقاسموهم الألم والأمل، ولها نظائر مشبوية في دواوين شوقي وحافظ ومحرم وحسن القاياتي والرافعي وعبد المطلب؛ ولكن صوت الكاشف يُجلجل مدوياً، وكأنه يريد أن يُسمع كل كائن على الغبراء صدى ما يَمُورُ بنفسه من أحاسيس، إذ يعاود الحديث عن الموضوع الواحد مثني وثلاث ورباع فيحس تنفيساً لم يحتبس في صدره من أوار لفّاح، وهو كذلك فيما ينظم عن أحداث مصر، وقد شمت الشعراء (بكرومر) حين أجبر على الاستقالة بعد حادثة دنشواي، ونظموا في هذا المجال ما يُعد ديواناً برأسه، وكان الكاشف ذا قدرة مقتدرة حين كشف دخائل الرّجل في وضوح يصل إلى أعماق قارته دون حجاب، فهو يُسَلِّسُ جرائر المعتمد البريطاني التي اتضحت مراميها الخافية، وعَدَمَتِ المدافع عنها من بني قومه أنفسهم، فما ظنك بما يحسن به أبناء الوطن المسلوب، وإذا كان المعتمد البريطاني داهيةً أريباً يتدسس إلى أغراضه متسترأ مخادعاً، فذلك ما لم يَفُتْ الكاشف أن يهتك عنه الستار حين قال مخاطباً إياه^(١):

ولبثتَ تبدو في زخارف مخلص	للقوم تُخفي ما اعتزمت وتحجب
غافلتهم حيناً فلم يَتَلَفَتُوا	إلا ونابك فيهم والمخلب
أينول الدستور قيصر قومه	وتقومُ فينا تستبد وترهب؟
ماذا أعد لأهل مصر من يرى	أنّ الأحق بحكم مصر الأجنب
أُطِيلُ بينهم مقامك جاهاً	وتقول لم يتعلموا ويهذبوا؟
إن أخصبت أو أعسرت فبأهلها	وبنيلها تثرى البلاد وتخصب
وهمو بُنُو أبطالها وحماتها	هل تُكرنّ عليهم أن يُنجبوا؟
أم تغلقن قلوبهم وعقولهم	من بعد ما حفظوا العظاات وجربوا
أشركت في أوطانهم نزلاءهم	ووهبتم في مصر ما لا يوهب!
ماذا كسبت وأنت عنا راحل	إلا الجفاء وبئس هذا المكسب
هل كنت تزعم أنّ أمرك خالد	في أهل مصر خلود مصر وتحسب!
وتسبهم أيام لبثك فيهمو	وتودّ بعد العزل أن يتأدبوا!
ما زال حزبك يكبرونك في الرضا	والسخط حتى ألّهوك فعُوقبوا
ومضى الكاشف إلى (غورست) خليفة كرومر بالنصيحة المحذرة التي تتجه إلى	

التهديد، وكان للمعتمد الجديد باطن خشن، وظاهر لين، فهاجمه الكاشف ونذّر بما قام به من كبت للحرية، وإصدار لقانون المطبوعات، وتعاون مع القصر في إخماد الحركة الوطنية، حتى إذا انقشع سلطانه، وجاء اللورد (كتشنر) وله تاريخه الموهوب في طُغيان الاحتلال، ومقاومة الأحرار، كان الكاشف أول من فاجأه بالتهديد والإنذار في قصيدة رنانة عالية قال فيها^(١):

مهلاً لمتحن الطريق خطاك	إن كلفوك لغاية إدراكا
في مصر شعب لا يضام ومالك	متفرد لا يقبل الإشرাকা
ما أنت حابس نيلها يوماً ولا	أهرامها مهدومة بقواكا
الله أكبر من جيوشك سطوة	والدهر أبعد من مدى مرمাকা
لَسْنَا قَطِيعاً غاب راعيه كما	كُنَّا وَلَسْتَ الضيغم الفتাকা
إن كنت طلق الوجه أو متجهماً	فالله يعلم منتهى نجواكا
ولعل شأنك في مشيك غير ما	أسلفته في عُنفوان صباكا
فأقم بمصر مقام ضيف محسن	وعليهمو أن يكرموا مشواكا
واذكر لوادي النيل نعمته عسى	تعطي بنيه بعض ما أعطاك

وتلك معان تدل على عزة الشاعر وأنفته، فكان قائداً حريياً يخاطب قائداً زميله، فلا يخضع ولا يسكتين، وهكذا كانت روح الشاعر قوية مع مخاطبيه جميعاً، وإذا اتجه إلى ملاينة ناعمة في بعض قصائده مع السلطان، أو مع الخديوي عباس، فهي ملاينة من يرى أنه يخاطب محباً مودوداً لا بغيضاً مشنوءاً، فهو صادق الترجمة عن نفسه المخلصة حين يلاين وحين يخاشن.

وقد طُبع الجزء الثاني من ديوان الشاعر سنة ١٩١٣م، ولم يجمع ما قال بعد ذلك في ديوان تال^(٢)، مع أنَّ الشعر المبعثر في الصحف منذ هذا العهد يمثل اقتدار الشاعر، ويبيّن نظرته الصحيحة بعد أن جاوز دور الشبيبة المتحمسة إلى الاكتهاال الرزين، وقد أجاز المغفور له الأستاذ محمد غنيم لنفسه أن يقف عند حدود الجزئين الأول والثاني فيما كتبه من دراسة تحليلية للشاعر في كتاب (خمسة من شعراء الوطنية)، الذي أصدره أخيراً المجلس الأعلى للفنون والآداب، وهذا ما لا أوافق

(١) شعراء الوطنية للرافعي ص ٢٩٤.

(٢) جمع الديوان بعد، وحققه الدكتور محمد إبراهيم الجبوشي.

عليه، لأن الأعواد الغضة في الحقل المتفتح لا تعبر عن الازدهار الخصيب حين يشب العود، ويستوي على ساقه حافلاً بالشمر الشهي، والفنن المورق، وقد تتبعْتُ ما قدرت الاطلاع عليه مما قال الشاعر في شتى المناسبات فوجدتُ ثروة سخية جديرة بالجمع والتدوين، إذ قلَّ أنت تفوت مناسبة لم يقلُ فيها الشاعر قصيدةً مجيدة، وإذا كانت الأحداث قد ازدحمت ازدحاماً يُنطق الأبكم، فما ظنك بفصيح مغرد كالكاشف يُشاهد أهوال الحرب العالمية الأولى، ثم يرى أحداث ثورة ١٩١٩م ترج البلاد رجاً، ويشهد تنازع الساسة، وصراع الدهاة من المحتلين، ويسمع عن مظاهرات الطلاب في العاصمة والإقليم، وما حصدته المدافع الباغية من أرواح بريئة؟ إنه لا شك صارخٌ بهواتفه وآلامه وآماله.

وقد لَمَس في بعض السياسيين ميلاً للتهادن حين لَوَح الإنجليز بإلغاء الانتداب، وقيام تحالف بين البلدين، يعطي المحتل حقَّ الحليف المنتصر، فلم يستطع الشاعر أن يفهم قيام تحالف عادل بين القوي والضعيف، وله من تاريخ المحتل المشاهد في بلده ما يُسيءُ به الظن، من أسماءٍ تتبدل دون أن تتغير المسميات، وهذا ما عناه الكاشف حين قال^(١):

أَوْ اهْبُون لمصر كل ما طلبت	أَمْ أَخْذُونَ بمقدارٍ ومعطونا؟
وإن رفعتُم عن الوادي حمايتكم	فما اسمُ لاحقها فيمن تسمونا؟
وإن تروا بدلاً منها محالفة	فمن لنا بضمانات المساوينا؟
إنا لنعجزُ عن حقَّ الحليف وعن	حق الشريك وأنتم تستزيدونا؟
وما مجاورةُ الأقوى وشركته	إلا كما جاور العصفورُ شاهينا!
ارْعُوا بني مصر أنداداً لكم ودعوا	ولاية مصر مُلوَكاً أو سلاطينا!
وغادروها لأكفاء تجارِبهم	تغنيهم عن تكاليف المُشيرينا
يَقْدُونَ مصر وإن شاكت منابتها	وإن جرى نيلها مُهلاً وغسلينا

والقصيدة أكثر من مئة بيت، وقد خبا فيها الألقُ الشعري بعض الشيء لينوب عنه الحجاج العقلي المدعّم بالأسانيد، ويختل إلي أن الكاشف قد قرأ ما يقوله مؤيدو التحالف ومعارضوه معاً، واستخلص لنفسه رأياً يتجهُ وجهة المعارضة السافرة، وحين جلس ليرد على خصومه سَلَّسَ البراهين نظماً لا نثراً، فجاء كلامه حجاجاً

(١) شعراء الوطنية: لعبد الرحمن الرافعي - ص ٢٩٧، ط. ثانية.

عقلياً تنقصه رفرقة الوجدان، وتغيب عنه أصباغ الفنان، لا سيما أن القصيدة قد طالت إلى أمد مديد، وكان في الاكتفاء بما يغني عن زينة الخيال ورنين الموسيقى ما دفع إلى هذا الجدل.

والشعر السياسي لدى الشاعر المتسرع مَظَنَّةٌ عثار، لأنَّ الائتاد المظمث يبرز للمعاني العامة حُللاً ذات بهاء، كما يُتيح للشاعر أن يولد منها معاني طريفة تظهر فيها شخصيته الشاعرة، وقد كان شوقي ومطران ممن يُخلوْنَ إلى أنفسهم وقتاً غير قصير ليتجاوزوا السطح البارز إلى أعماق تحفل بجوهره الشفاف، والشعر صَنَعَةٌ وجُهدٌ لا بُدَّ منهما كي يساعد الموهبة المتأصلة في نفس الشاعر، ولك أن تقارن قصيدة مظمثة قالها شاعر مكين بقصيدة متسربة قالها الشاعر نفسه: لتجد في الأولى من دقة الفن وإيحائه ورفرفته ما لا تجد في الثانية من تقريرية المعاني، وسفور الأغراض سفوراً كاشفاً يقرب من الخطابة المرتجلة.

ولا أريد أن أتحيف الكاشف فأزعم أن سرعته المتعجلة قد حالت دون إبداع رائع يُنتظر من ملكته القادرة، ولكنني أريد أن أقول إنه كان يستطيع أن يُعطي في مضممار الجودة الفنية أكثر مما أعطى لو لم تشتعل أعصابه اشتعالاً يدفعه إلى تسطير خواطره الهائجة في أقرب مدى يتاح! والشاعر حين ينظم قصيدة ما، يحس بقلق فكري يأخذ عليه أقطار نفسه، ولا يكاد يهدأ حتى يفصح عن أعماقه بما يبدد هذا القلق المضطرب مجيداً سابقاً، أو وانياً متشافلاً.

والذي ينكرون دور الصنعة في إجادة الفن الشعري، ويزعمون أن الوحي قد هبط تلقائياً حين صدقت التجربة العلمية يخدعون أنفسهم، ويخدعون قراءهم معهم، لأنَّ صدق التجربة شيء والتعبير الشعري عنها شيء آخر، فلن تكون التجربة الصادقة ذات تأثير نفاذ في نفس القارئ وإلا إذا جاءت الصياغة معبرة عنه أجمل تعبير، وقد اكتفى الكاشف بالفورة الوقتية فيما نظم من شعر السياسة، وساعدته ملكته الشعرية على التوفيق، ولو أثر الائتاد المظمث لساعدته هذه الملكة نفسها على التحليق من أعلى الأجواء، وللرجل نصاعة تتجلى في شعره المتسرع تجلياً مُرضياً، وما أحراه أن يركن إلى استغلالها ببعض الاطمئنان المترث، لو يملك من أمر نفسه ما يملك العالم المتأمل، ولم يركب جناح الشاعر الملول. لقد هاج الكاشف محتجاً على تصريح ٢٨ فبراير الذي وفق إليه (ثروت) ليكون بداية استقلال حقيقي

للبلاد، ولم ينظرْ إليه نظرة شوقي الراضية عنه باعتباره خطوة حقيقة في أول الطريق، فقال الكاشف الغضوب^(١):

يا عيـد الاستقلال أنت	له خيالٌ أم حقيقة
للعنق أم للرق مـا	خطوه في تلك الوثيقة
أبمهرجان يحتفي الظمأ	ي وتحتفل الغربية
وتنال مصر مرامها	من بعد ماسدوا طريقه
يتكفون الصالحا	ت لها، وتأبأها الطريقة
إن أطلقوا أمس البلا	د فمنهمو ليست طليقة
وحديقة أضحت ولكن	للغريب جنى الحديقة
وإن استبد بنيلها	قتل الشقيقة بالشقيقة
وأحرَّ أكباد إلى	حريرة الوادي مشوقة
هذا ذكي دمى لها	أجد الرضا في أن أريقه
أتخساذل زعماء مصر	أمام هاوية سحيفة
أي العقاب أحق بها	لرجل الذي يؤذي رفيقه!
عاد الغريم لمصر يعبث	بعد خذعته الديقة
فإن افترقتم عنده	كنتسم جميعكم فريقه؟

وهذه القصيدة من أجمل ما قاله الكاشف في شعره السياسي، ومن أقرب ما قال انتساباً إلى معدن الشعر الصحيح، ومن يستطيع أن يهتف بها في هذه الشفافية الرقيقة، يستطيع أن يجد بأمثالها في أكثر ما قال لو لم يعمد إلى ما يُشبه الارتجال.

ومع حملة الكاشف على الحزبية والأحزاب في أكثر من قصيدة، ومع صرخاته الصاخبة التي يقول في إحداها^(٢):

تنازع قومي اليوم جنداً وقادة	فلم أر إلا سالباً وسليبا
مبادئ أحزاب أرى؟ أم منافع	توالث صنوفاً بينهن ضروبا
بقومي على قومي استعان غريبهم	فصال شمالاً واستطال جنوبا

مع هذه الحملة الصارخة التي تعددت ألوانها في أكثر من قصيدة، أثر الشاعر أن

(١) شعراء الوطنية للرافعي ص ٣١٠.

(٢) جريدة البلاغ، ذكرى الأربعين، مارس، سنة ١٩٤١م.

يتجه بشعره إلى حزب الأحرار الدستوريين في مواجهة حزب الوفد المصري، وكانت صلته الشخصية بمحمد محمود باشا القائمة على الإعجاب المشترك والتقدير المتبادل، دَفَعَتْهُ إلى تأييد حزبه ، وهي صلة لم تعد على الكاشف بمغنى مادي كما عادت على نفرٍ من الوصوليين هتفوا في كل ركب، وصفقوا لكل حاكم.

وحين مات محمد محمود رثاء الكاشف ثلاث مرات رثاءً حاراً قوياً يؤكد عمق حسرته، ويدل على أنه كان يصدر عن حب خالص في كل ما قاله عنه في حياته، وقد مات محمد محمود في أوائل الحرب العالمية الثانية، فبدأ الكاشف مرثيته الأولى بموازنة بين أثر الحزب في الشعب، وأثر موت الرئيس الراحل فيه ، ثم هتف يقول^(١):

تَلَقَيْتُ أَنْبَاءَ الشِّفَاءِ مَرِيحَةً	فَلَمْ أَشْسُ حَتَّى جَاءَنِي النَّبَأُ الصَّعْبُ
فُتِحَتْ وَنَاحَ الطَّيْرُ حَوْلِي وَمَادَّ بِي	مَكَانِي ، وَهَاجَ الْمَاءُ وَالتَّهَبَ الْعُشْبُ
وَنَازَعَكَ الْجَنِينُ شِغْلَكَ وَالضَّنَى	فَهَذَا لَهُ جَنْبٌ وَهَذَا لَهُ جَنْبُ
وَبِتَّ تَقَاسِي الدَّفْعَ وَالْجَذْبَ مِنْهُمَا	فَلَمْ تَسْتَرْخُ حَتَّى انْقَضَى الدَّفْعُ وَالْجَذْبُ
وَضَمَّكَ دَاجٌ فِي ثَرَى الْأَرْضِ مَوْحَشٍ	وَكَمْ ضَاقَ عَنْ آمَالِكَ الْعَالَمُ الرَّحْبُ
أَطُوفُ بِهِ مَسْتَرْوِحاً مِنْ عَيْبِرِهِ	وَقَدْ صَبَّحَتْهُ مِنْ بَوَاكِرِهَا الشُّحْبُ
وَلَوْ كَانَ جِثْمَانُ الْعَظِيمِ كَذَكَرِهِ	لَمَا نَالَ مِنْ جِثْمَانِكَ الطَّاهِرُ التَّرْبُ
أَحَنَ إِلَى الْمَاضِي وَمَا هُوَ رَاجِعٌ	وَقَدْ سَارَ بِي فِيمَا أَحَاذِرُهُ الرُّكْبُ
كَأَنِّي حَادِي الظَّاعِنِينَ يَمْرَ بِي	بَلَا رَجْعَةٍ سَرَبٌ وَيَتْرَكُنِي سَرَبُ
وَمَنْ لِي أَنْ أَلْقَى مَحْيَاكَ ثَانِياً	وَقَدْ قَامَتِ الْأَسْتَارُ دُونَكَ وَالْحَجْبُ

والقصيدة باكية ذات امتداد نابض، وقد نُشرت بجريدة البلاغ في صفحة واحدة مع قصيدة للشاعر الكبير أحمد محرم في رثاء محمد محمود ومطلعها:

مَنْ لِي بِمِلْءِ الْمَشْرِقَيْنِ بَيَانَا	وَبِمَا وَرَاءَ التَّيْرَيْنِ مَكَانَا
رُمْتَ الرِّثَاءَ فَمَا ظَفَرْتَ بِمَنْبَرِ	يَسْمَعُ الرِّثَاءَ وَلَا وَجَدْتَ لِسَانَا
ضَاقَ الْقَرِيضُ وَبَرَّحْتَ بِي لَوْعَةً	مَلَكَتْ عَلَيَّ الصَّبْرُ وَالسَّلْوَانَا

فكنت أقرأ القصيدتين شاعراً أن القائل واحد، لتوافق الخواطر، وتدفق

(١) جريدة البلاغ، ذكرى الأربعين، مارس، سنة ١٩٤١م.

العواطف، وصدق الأحاسيس، وروعة البيان؛ وفي الذكرى الأولى نشرت الأهرام قصيدة رائعة للكاشف بدأها بقوله^(١):

بكينا فما أجدى البكاء ولا الحزن ونحن على الوجد القديم كما نحن
تولت بأحبابي الأعزة سُنْهم وما رجعت يوماً بأحبابي السفن
عزيزَ الحمى الغالي ذهبتَ شهيدُهُ وحولك من أهل الحمى الجند والحصن
ثم استرسل يُعَدِّد شمائل الفقيد، لكنه استطراداً قوياً في وصف المأساة
المشتعلة بانفجار الحرب العالمية، وفزع العالم من بلائها المستطير، وما عانته مصر
من بلايا الغلاء، ونضوب الرزق، وخلط الخبز بالتراب، فهو يقول:

خرجتَ من الدنيا وليس بموضع من الهول في الدنيا متاعٌ ولا أمنٌ
جَنَوها بلا أمر الزمان وإذنه وهل يعدم الأمر الضواري والإذن؟
أجناً عليها بدل الدهر ناسها فقد فعلوا ما ليس يفعله الجن
يريدونها غنما وهم يهدمونها فهل عقلوا فيما أرادوه أم جنوا
تقطعت الأسباب والسبل بينهم فما التقل إلا للدمار ولا الشحن
وعزت ضرورات الحياة عليهمو فكاد يُقام الكيل للريح والوزن
أيلتمسُ القوت الجياعُ من الثرى ويأبون إلا أن يُخالطه السمن
ويغضبهم خلط الدقيق وحولهم من الحرب في أبدان غيرهم الطحن
وإن لم يجد من خُلقه الشعب مشبعا فلا القمح يُغني الشعب يوماً ولا القطن
وأَي طعام في الأسى لا أعافه وإن كانت السلوى أمامي والمن
أفي الغُصن يوماً يرغب الطير إن خلا من الثمر المنضود والورق الغُصنُ
ومن أي يلقي أو يرى الضأن مترفٌ إذا فُقد المرعى لدى المترف الضأن
وإني لأدعو للعفاة سراتهم عسى حاتم في أمة اليوم أو معن

وهكذا لم ينس الكاشف زعامته التوجيهية حتى في معرض الرثاء، فتحدث عن واجب التكافل الاجتماعي بين الناس، وتطلع إلى أن يعود عهد الكرام الواهبين من أمثال حاتم ومعن، وشِعْر الكاشف في هذا المضممار ينبيء عن جوهر غال، ويدل على مكانة الشاعر الكبير بين معاصريه الأفاضل.

(١) الأهرام، فبراير، سنة ١٩٤٢م.

وبعد؛ فلا أدري أأكون مخطئاً أم مصيباً حين أزعـم أن شاعرية الكاشف تجلّت فيما كتبه في مقدمة الجزء الأول من ديوانه أكثر مما تجلّت في شعره؛ لأن أغراضه الموضوعية في الشعر السياسي والاجتماعي والمدائح قد باعدت قليلاً أو كثيراً بينه وبين الإفصاح عن رغباته الذاتية، فأنت في أكثر شعره أمام مفكر موضوعي يتحدث عن مسائل تشغل الناس، ولكنك في هذه المقدمة تجد شاعراً بريئاً يصف طفولته وتجارب حياته وصفاً طريفاً، تزيده البراءة الساذجة تودداً للقارئ، وتشغل وجدانه بما يعرف الشاعر من طرائف ونوادر.

إن الكاشف يتحدث في سهولة عن مُربّيته التي تولت عبء رعايته طفلاً فأخسنت الرعاية، وقد أصيب الشاعر باضطراب عصبي، فكان إذا جن الليل تخيل أشباحاً هائلة تجري في دوائر مختلفة الأوضاع حتى تشرق الشمس فتتلاشى في نورها تلاشي الظل، وظلت هذه المحاولة قرابة شهرين، فأدركت المربية علته، واشترت له أرجوحة في شكل طائر وآلة موسيقية، فإذا اضطجع في الأرجوحة اشتركت حركتها مع أنغام الموسيقى وأناشيد المربية في راحته فيهدأ الهائج ويخلد إلى الرقاد.

إن الكاشف الصّبي ليأنس من نفسه غراماً، ثم تهدأ لواعجه حين يقع في حب فتاة كانت رفيقة طفولته، ورآها بعد سنوات، وقد اكتمل جمالها الفاتن فهم بها، وراوحه خيالها وغاداه، وقد لانت عريكته ومال إلى الرقة منذ تذوق حلاوة حسننها، وقال فيها شعراً طفولياً ذا سذاجة وإخلاص.

كذلك نرى التلميذ الناشئ ذهب إلى المدرسة، فيسأل معلّم التاريخ في السنة الثالثة الابتدائية عن أجداد الرسول ﷺ فيقول له: شغلني عن حفظ أسمائهم مُسَلْسَلَةً إعجابي بحرص العرب على أنسابهم وقوة ذكائهم، وحسب علمي أنه نبي عربي عريق، ينتهي نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل! ويسأله المدرس عن أسماء بُناة الأهرام - وهم من الشهرة الطائرة بحيث لا يحتاجون إلى سؤال - ولكن التلميذ يرد: لا أتذكر كل أسمائهم، ولكنّي أعلم أن الأهرام بنيت قبل المسيح بقرون، وأعلم أنها تدلّ على ظلم اقتضاه حبّ بقاء الذكر!!

وفي امتحان الشهادة الابتدائية سأله الممتحن هذا السؤال: اذكر دول أوروبا العظمى وعواصمها وثغورها ومستعمراتها، فذكر التلميذ ما يعرفه من هذه الدول وزاد من عنده فقال! أما الدولة السادسة فهي تركيا - مع أنها غير مطلوبة - أعدّها من الدول العظمى لأنها أظهرت في حربها الأخيرة قوة وغنى فحلت محل إيطاليا التي قهرها الحبشان وأذلوا جيشها، وثقلوها بالدين فأصبحت من الممالك الثانوية.

وبهذه الإجابات الطامحة وأمثالها رسب الكاشف في الامتحان، ومرض أياماً لتأثره الشديد، ولكنه يُعزّي نفسه فيقول: وقد لاقيت كثيرين ممن حصلوا العلوم في المدارس العليا، واشتغلوا بالقضاء وغيره، فلم أجدهم أبلغ مني إدراكاً وأسدّ حكماً على حوادث الكون، ومبادئ الحياة مع أنني لم أتلق العلم إلا عن الكتب لا عن أستاذ في المدرسة^(١).

لو كتب الكاشف أشعاره بالروح التي كتب بها المقدمة لجاوز مرتبته الشعرية إلى مرتبة أعلى منها، وقد تصفّحت ديوانه فوقعت على خاطرة جميلة، لعلها هربت من نظيراتها في المقدمة لتثبت وجودها الشعري في دولة النظم الرصين، فقد مضت به أحلام اليقظة إلى حيث يسأل نفسه: ماذا أصنع لو كنت (روكفلر) أغنى أغنياء الكرة الأرضية؟ وجاءت إجابته نبيلةً رحيمة ذات إنسانية مشفقة تنأى عن مزالق الأنانية الوضيعة، فهو لو كان أغنى الأغنياء لبنى للسلطان خمس بوارج تحمي الخلافة الإسلامية من تحرش الأعداء، ولهياً السفن البخارية تذهب في بلاد الخلافة وتجيء، ولأمدّ لساكني القفار بحراً من دجلة والفرات يُذهب عنهم ظمأ النفوس، ويَزوي جذب الأرض، ولاشترى في السودان أرضاً خصيبة هناك، ثم يلتفت بعد ذلك إلى أقاربه، فيودّ لو ذهب لكل فرد بما يريحه من عناء العيش، ولبنى مسجداً ومستشفى ومدرسة وبستاناً بقريته (القرشية)، ثم يضرب راحلاً في بلاد الله فيُشيد لنفسه قصراً على ضفاف البسفور! ولم ينسَ زملاءه الشعراء فأثر أن يمنحهم الراتب المريح، والرزق المانع من التذلل، على أن يقرض من ماله كل محتاج لهيف، ولعل القارئ قد تشوق إلى نصّ القصيدة بعد هذا التمهيد؛ يقول أحمد الكاشف^(٢):

(١) هذه الطرائف مختصرة من المقدمة الجميلة التي افتتح بها الشاعر الجزء الأول من ديوانه.

(٢) ديوان الكاشف: ١٠٤/٢ ط. أولى.

لو أن لي أموال روكفلر التي
وبنيت للسلطان خمس بوارج
ونشرت ألوية البخار بملكه
ومددت دجلة والفرات لبرويا
وشريت في السودان أرضاً خصبةً
وأسبق الشركات في غاياتها
ووهبت ألفاً كل فرد من ذوي
وبنيت مستشفى ومدرسة وبستا
وضربت في الأرض البعيدة جانباً
ورفعت لي قصرأ على البسفور كني
وجعلت للشعراء رزقأ طيبأ
وإذا أتى ذو كربة مستقرضأ

تغني فعلت لمصر ما لا يفعل
يختال في نعمى عليها الجحفل
يدنؤ بها ناءً ويغلو مهمل
ذاك الثرى الصادي ويعشب محل
أحيي بها المسترزقين وأشغل
حتى يكون لي المقام الأول
قرباي، تضمن لي رضأ وتكفل
نأاً بقريتي التي هي أفضل
أقطارها مُستبعدأ أتامل
أصطاف فيه شاعرأ أتغزل
يحمي أرق الناس أن يتذللوا
أقرضته، والحمد ربحي الأجزل

والشاعر صادق فيما ينوي أن يفعل، ولكن الأيام ضنت عليه بما يريد، فلم يحقق شيئاً مما أمل، وإذا كانت مقدمة ديوانه قد وُثِّت بروحه الشاعرة وشاية لا تقبل الإنكار، فإن خطراته النفسية في أحاديثه العابرة لا تقل وشاية عن المقدمة، فقد ذكر الشاعر الكبير الأستاذ محمود غنيم^(١)، أنه سعد بلقاء الشاعر الكاشف مرات في قريته، وقد تحدثا معاً عن الشعر والشعراء، وجاء ذكر قصيدة شوقي في رثاء المنفلوطي، فقال الكاشف لُغْنِيم -رحمهما الله-: ما سمعت قول شوقي في مطلع القصيدة؟

اخترت يسوم الهول يوم وداع ونعاك، في عصف الرياح الناعي
إلا وشعرت كأنّ الرياح تعصف في أذنيّ كليهما حتى لأهمّ بأن أسدّ كل أذن بأصبع، وباله من تعبير واثب، يصوّر قوة الإحساس لدى شاعر يتخيل المسموع منظوراً مُشاهداً ملموساً، فيفرّ منه بأقصر ما يملك من أدوات الفرار، ثم لا يستطيع!! هذا إحساسُ الكاشف النباتي الذي حرم على نفسه أكل اللحم طيلة حياته، كما حرّمه شاعر المعرفة من قبله، وله من رجال هذا العصر نظراء كبار، منهم الأستاذ محمد فريد وجدي، والدكتور أحمد علوش، والشيخ إبراهيم اليازجي؛

(١) خمسة من شعراء الوطنية ص ١٠٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ومن لا أعلم من ذوي الإرادة السامية والعطف الرحيم .

وتسألني عن الوظائف التي شغلها الشاعر الكبير مدى سبعين عاماً هي مجموع سني حياته على الأرض، فأجيبك بأنه عاشَ حراً طليق اليدين من أعباء العمل الحكومي غير ثلاث سنوات قضاهما بديوان الأوقاف تحت رئاسة أحمد شفيق المؤرخ الشهير، ثم رأى أن يفرغ لقريته (القرشية) بالقرية، وقد ملأ حبّ الريف فؤاده، وارتضى مجلسه المتواضع بين أقاربه وأصدقائه من الفلاحين، ومن يؤمن القرشية لرؤيته، وكان ابنُ بلدته الشيخ الجليل الأستاذ عبد الوهاب النجار المؤرخ الأشهر يفد على القرية بين الحين والحين فلا يجد غير مجلس أحمد الكاشف مُستراحاً لنفسه، ونزهةً لخاطره .

وقد عرف الكاشف كل فرد من أفراد القرية، وسعى إلى قضاء حوائجهم، وجعل منزله نجعة الوافد، وزادَ فعينَ نفسه قاضياً عُرفياً بين المتخاصمين، وشافعاً للمتظلمين، ومعلماً للشادين من هواة المعرفة وعاشقي الأدب، وأخذ يقرض المحتاجين ما يقع في يده، إذ كان لا ينفق غير القليل على نفسه، وماذا عسى أن ينفق شاعر زاهدٌ نباتي غير متزوج!! وحين ودّع الحياة بعد صيال مرض مرير، بكى ساكنو القرشية جميعاً، إذ لم يجدوا مثله في همته وأريحيته مع تواضع جمّ، وبشاشة نبيلة، وكرم حفيّل .

وأذكر أن قصيدته الذائعة التي ألّفها في موسم الشعر بالقاهرة ١٩٣٦م، كانت عن القرية التي أحبها وأحبته، والتي ألهمته أن يقول^(١):

جمعت في العيد حولي سائر الآل	ولم تبقِ الآل حولي كل آمالي
أباً دَعَوْنِي وما لي فيهمو ولد	ولستُ للقوم غير العم والخال
كأنني وهُمُ فني الدار مُطْلَع	منهم على أمم شتى وأجيال
أقمتُ في الريف لا أشقى بطاغية	من الرجال ولا لاهٍ وختال
وعشتُ بالرطب من نفل فاكهة	فيما ملكت وماء فيه سلسال
أحرّم اللحم لي زاداً وأحسبه	طعامَ مفترس في القفر مغتال
لو كان للثبّ إحساسٌ رأفت به	وبت للنبت أيضاً غير أكال

(١) مجلة الرسالة، العدد ١٥٥، ٢٢/٦/١٩٣٦م، وقد وضعها الزيات تحت عنوان (من أحسن ما قيل في موسم الشعر).

لقيتُ في عِشْرَةِ الجهال عاطفة لم ألقها في رجال غير جهال
ولم أجذ مِنْ وضيع الذكر خامله ما ساءني من رفيع الذكر مختال
وهان شأني حتى ليس يذكرني من استعانَ بأقوالي وأعمالي
وما حرصتُ على عيني وعافيتي حرص على الودّ في حل وترحال
ومحنةٌ لأعزاء أن أرى بلداً سوى بلادي أولى بي وأوفى لي!

وفي القصيدة لفحّ تهبّ ناره عليك، يُنبئ عن جمر يشوي الضلوع في صُنّت
صبور، ومثلّ الكاشف لا بد أن تشتعل جوانحه بما يرى من انتكاس الطبائع،
وارتكاس الأخلاق، ونذالة المشاكس، وانحدار السفه، وبالها من مُبوقات.

ومن آخر ما نظم الكاشف مقطوعة صغيرة نشرها بالأهرام في رثاء رفيق رحلته
الشاعر أحمد محرم، وقد خُيِّل إليّ أن الشاعر الملتاع يرثي نفسه هو إذ أحسن اقتراب
الأجل، وانفضاض المسرح، ونوى الصديق. فقال في أسف كاوٍ، ووجدٍ لهيف^(١):

أخسي وأخ الشهداء الكرا م أين أنا اليوم من مشهديكا؟
قطعت معي خطوات الحياة تحنّو عليّ وأخسو عليكَا
إلى غاية سرت من غاية وإنسي خلفك في غاييتيكا
ومالي غير الدّموع الغزار أرقرقها في طريقي إليكا

ولا أرى إيجازاً أدلّ على معناه من إيجاز هذا الرثاء الدامع، يصرخ به مريض
عانٍ، وقد لاحت لعينيه نُذُر الارتحال، فأخذ يتهبّ للطريق البعيد.

* * *

(١) حفظت الأبيات من جريدة الأهرام حين نشرتها، ولا أذكر تاريخ العدد.

السيد أمير علي الهندي المصلح البحاث المفكر

في بعض الندوات العلمية في ليالي الأربعاءيات، كان المرحوم الأستاذ عبد الوهاب حمودة يلقي محاضرة عن الإسلام، قال فيها: إن كثيراً من المستشرقين يكتبون عن هذا اللفظ الكريم (الإسلام) بما ينأى به عن معناه، لأنهم يقرّرون أن الإسلام هو الخضوع التام الإرادي دون محاولة للاعتراض، وقد وُجد من كبار الباحثين المسلمين من ردّ عليهم بلغتهم في كتاب ذائع الانتشار، وهو السيد أمير علي، حيث ذكر أنّ معنى الإسلام ليس هو الخضوع التام دون محاولة الاعتراض، بل معناه الخضوع لما سنه الله من أمور يحترمها العقل ويراهها باب الصلاح، فالإسلام بمبادئه يدعو إلى حرية التفكير، وتطلّب البرهان، فإذا تمّ ذلك صار المسلم منقاداً لتعاليمه عن رضا واقتناع، وأفاض المحاضر في ما يدل على ذلك مستشهداً بأراء أخرى للسيد أمير علي قال إنها مدونة في كتابه (روح الإسلام).

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها بالسيد أمير علي مؤلفاً ذا ذبوع وإقناع، فشاقني حديث الأستاذ حمودة إلى أن أقابله بعد المحاضرة مع نفرٍ من زملائي الذين استمعوا إلى محاضرتي، فجلس الأستاذ يتحدث عن الرجل العظيم بما ملأنا إعجاباً، وذكر أنه ونفراً من زملائه الهنود قد خدموا الإسلام خدمات ثقافية كبرى، حين نشروا مؤلفات رائعة عن الإسلام باللغة الإنجليزية كانت بمثابة رُدود مفحمة على ما في كتب المستشرقين من أخطاء، وقد كُتبت بلغة إنجليزية ممتازة ترتفع إلى مستوى الأساليب العالية في هذه اللغة، فقرأها الأوروبيون، وعرفوا كثيراً من الحقائق التي شوّوها المفرضون، وقال:

إن بعض كتب السيد أمير علي قد تُرجمت إلى اللغة العربية، وهو يتمنى ألا

تُترجم مؤلفاته المستقلة فقط، بل تترجم مقالاته العلمية التي دأب على نشرها في المجلات الخاصة بشؤون الإسلام في أوروبا، لأن كل مقالة تصحح أخطاءً متراكمة، ولا يستطيع لها المنقودُ دفعاً، لأنها مؤيدةٌ بالحجج والأسانيد.

ومنذ ذلك الأمد، وأنا أقرأ كل ما يُترجم من آثار هذا الباحث الكبير، وقد زدت به إعجاباً وله إكباراً لأن حجاجه العقلي يفتح للقارئ منافذاً للتفكير لم تكن متاحة له من قبل، وقد صدرت عنه دراساتٌ موجزة بعد رحيله، كنت أقرأها في شوق، ثم شاء القدر أن أصطدم بمقال كتبه باحث هندي فاضل بمجلة الأزهر، هو الأستاذ محمد إسماعيل الندوي تحت عنوان (زعماء الإسلام في الهند) قال فيه^(١):

«إن أحمد أمين عدّ السيد أمير علي من زعماء الهند، وخصّص له باباً في كتابه، وترك محمد شبلي النعماني الذي يُعتبر من رواد النهضة الحديثة في الهند، وأما أمير علي الذي كتب عنه أحمد أمين فلا يعرفه أحدٌ كزعيم ديني أو سياسي، بل كان مجرد كاتب صَنَفَ كتباً كثيرة في اللغة الإنجليزية، وأشهرها (روح الإسلام)، و(القانون الإسلامي)، ولم يشتهر أبداً بين أوساط المسلمين كزعيم، أو رائد للفكرة الإسلامية، ولا يعرفه كثير من المسلمين لأن، لأن ثقافته كانت ثقافة إنجليزية، ولم يكن إنتاجه باللغة الثقافية التي هي الأردية».

قرأتُ هذا الكلام، فعجبتُ لصُدُوره من باحث هندي يطالعُ قراء العربية كثيراً بمقالاته، ومثله في سعة معارفه لا بد أن يحيط علماً بجهد الأستاذ السيد أمير علي العملي قبل أن يحيط بمقالاته ومؤلفاته العلمية، إذ كان الرجل الكبير ذا جهادٍ مرموق في الهند قبل أن يستقر في لندن [وسأشير بعد قليل إلى بعض مواقفه العلمية الهامة التي كانت بدءاً لخطأ موقفه تابعها خلفاؤه من بعده] ولو أننا أعرضنا صفحاً عن هذا الجهاد الحيوي البارز، واقتصرنا على كتبه الإسلامية ذات الرنين المجلجل في أوروبا، فإنه يكونُ بها وحدها قمةً بارزةً في دنيا الفكر الإسلامي، فقد استطاع أن يُسكِّتَ خصومَ الإسلام بمنطقه المفحم، وبُرهانه الملجم، وذلك في ميزان الأستاذ الندوي يسيرٌ ضئيل!! وما اشتهر العلامة الكبير الشيخ شبلي النعماني^(٢) الذي ذكَّره - ونذكره معه - بالتقدير إلا بمؤلفه الكبير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد

(١) مجلة الأزهر: ربيع الأول، سنة ١٣٨١هـ..

(٢) لنا حديث مستقل عن العلامة (شبلي النعماني) في هذه الموسوعة بالجزء الرابع.

ترجم إلى الإنجليزية، فأدّى رسالة طيّبة في حديثه عن الفتح الإسلامي، وأهدافه ومراحلها، فكيف لا يكون أميرُ علي أهلاً للترجمة المستفيضة حتى يستنكرها الكاتب المفضل!!

ثم إذا كان الأستاذ أحمد أمين قد ذكر أمير علي ولم يذكر شبلي النعماني، فليس في هذا موضع مؤاخذه له، لأن الكاتب لا يتحدث إلا عمّن تمكّن من دراسته، وألمّ بمواقفه، ليجد المجال فسيحاً أمامه، وقد ألمّ الأستاذ أحمد أمين بآثار أمير علي، ورأى من حقّه أن يتحدث عنه، أفنقول له: لماذا تحدثت عن إنسان فاضل ترك دويّه العلمي، ولم تحدث عن زميله!! إنّ أحمد أمين لم يُحرّم على أحد أن يتحدث عن شبلي النعماني وغيره من أئمة الفضل، فهل كان الواجب عليه أن يتحدث عن جميع علماء الهند، لأنه تحدث عن أمير علي! لقد كان الإنصاف الأدبي يحتم على الأستاذ الندوي أن يحمّد للأستاذ أحمد أمين حديثه عن الرجل الكريم، وأن يقترح عليه أن يخص الشيخ شبلي النعماني بحديث إذا توفرت لديه مراجعه، ورأى من البواعث ما يدفعه إلى تأريخه! أما أن يأخذ عليه حديثه عن مجاهد عظيم، فهذا موضع الخطأ الصريح...

أعود إلى حديث الأستاذ حمودة فأذكر أنه شوّقني إلى معرفة الكثير عن السيد أمير علي، ولم يكن الأستاذ أحمد أمين قد تحدث عنه حينئذ في كتابه الذي صدر بعد محاضرة الأستاذ حمودة بسنوات، فسألت عن عام وفاته فأخبرني الأستاذ حمودة أنه انتقل إلى رحمة الله سنة ١٩٢٨م، فقلت لا بدّ أن المجلات العلمية التي صدرت في مصر حينئذ قد تحدثت عنه بإشباع يطفئ نهمي إلى معرفة أخباره، وأخذت أتابع الدوريات التي صدرت عام رحيله، فوجدت مجلة المنار^(١) قد نقلت مقالاً مستفيضاً عن الراحل الكريم كتبه المؤرخ الشهير الأستاذ محمد عبد الله عنان بجريدة السياسة، والأستاذ عنان مؤرخٌ دقيق التعبير، قويّ المعاني، يُصيب المحز في كل ما يكتب، وقد بدأ حديثه الشامل بتصوير المصاب الجلل بفقد الباحث المتمكن، إذ فقد الإسلام إماماً من أئمة، ومجاهداً بأسلاً قضى زهاء نصف قرن في الذود عن مبادئه وأحكامه، ثم قال:

«ولعلّ مفكراً مسلماً لم يعمل في عصرنا لبث دعوة الإسلام العلمية والاجتماعية

(١) الجزء الخامس من المجلد التاسع والعشرين ص ٣٥٢.

قدر ما عمل أمير علي برائع بيانه وناهض حجته، وطريف نقده وتحليله، فقد خاطب أمير علي الغرب لغة غربية، وعمد إلى شرح مبادئ الإسلام الروحية والشرعية والاجتماعية بأساليب الغرب العلمية، فكان أول مسلم استطاع أن يخرج للغرب صورة صادقة، من هذه المبادئ تضطرم بإيمان مسلم أشربت نفسه روح الإسلام الحق، ولا تشوبها مع ذلك ذرة من التشيع أو التحامل، وأن يعرضها في ثوب علمي محدث، يتذوقه الذهن الغربي، ولا ينكره الذهن الإسلامي، وكان أول مسلم استطاع أن يخرج للغرب أجمل وأدق صورة من المجتمع الإسلامي القديم ومدنيته وتفكيره.

هذا بعض ما قاله الأستاذ محمد عبد الله عنان، وأنا أعرف كثيراً من الفضلاء كتبوا عن الإسلام بلغات الغرب المختلفة، فبلغوا ما أرادوا من إذاعة مآثر هذا الدين، ولكن الأسلوب الهادئ الذي اتخذه السيد أمير علي، كان من أقرب الأساليب إلى الأذهان المتجردة عن الانحياز، حيث يتحدث ببساطة محببة عن مسائل تبدو ذات صعوبة بالغة، فقد كتب بعض المستشرقين عن المساجد في الإسلام مقارنة بما للكنائس من أبهة رائعة في المشهد، وعد ذلك مصدر ارتقاء لم يبلغه الإسلام حين جعل الأرض جميعها مسجداً للمصلي! فرد السيد أمير علي قائلاً في هدوء:

«إن من أسباب رقي الإسلام أن معابده ليست في حاجة إلى أن تقيمها يد الإنسان، فشعائره تؤدّي صحيحة في أي مكان من أرض الله، ومتى حان وقت العبادة اتجه المسلم إلى ربه ضارعاً ليس بينه وبين الله من حجاب، وقوة الإخلاص لدى المؤمن تغنيه عن زخرفة المعبد وأبهة المكان، لأنه يتذكر في صلاته قول الله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]! لذلك كان استحضار المصلي لعظمة الله تشغله عما سواه، فقد كان الرسول ﷺ يبكي وهو قائم يصلي، وكذلك أثر عن علي بن أبي طالب والصالحين من كرام السلف!».

بهذه السطور المقنعة الموجزة فضل الباحث بساطة الخشوع، وارتقاء المصلي بروحه إلى مناجاة ربه، عن كل زخرف يدبجه الفنانون في معابد النصرانية، ثم قال:

«وإذا اتجه المسلم في صلاته إلى مكة فذلك أمر طبيعي، لأنها مصدر الإشعاع

السماوي الذي ائتمن من نور الكتاب المبين، والاتجاه إليها خمس مرات في اليوم يذكر المسلم بتاريخ دينه منذ بدأ يصارع زبانية الشرك حتى جاء نصر الله والفتح، كما يؤكد رباط الأخوة بين المسلمين حين يعرف المصلي أنه ليس وحده الذي يتجه في صلاته إلى مكة، بل إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يتجهون اتجاهه، فهو لبنة في بناء ضخم ممتد يزداد صلابة بتماسكه، وهذا المعنى كما يوجد في الصلاة يوجد في الحج، إذ يهرع المسلمون جميعاً إلى مشرق الإسلام، ليروا المكان الذي يتجهون إليه في صلاتهم، وكلهم ذو أمل واحد وهدف واحد.

وقد تحدث السيد أمير علي عن الصوم والزكاة كما تحدث عن الصلاة والحج، ليربط الشعائر جميعاً برباط متحد في هدفه الأول، وهو الخشوع لله والالتزام بما قرّض من شعائر لها نفعها الدنيوي قبل جزائها الأخروي. . لذلك كانت شعائر الإسلام جميعها باعثة على البعد عن الفحشاء، وناهية عن ارتكاب المنكر.

فإذا تركنا العبادات إلى الشبهات التي أرجم بها خصوم الإسلام، فإننا نجد السيد أمير علي يواجه كلّ ما أثير في الغرب من شبهة مواجهة من يتحدث مع أخيه في مجلس سمر لا صخب فيه، وهو بذلك يبلغ من نفسه مالا يبلغه ذو الحماسة الخطابية التي تتخذ من العاطفة سلاحاً للتأثير، وتأثير العاطفة وقتي لا يلبث أن يزول، أما تأثير الإقناع الهادئ دون صخب فلا بد أن يترك صداه المكين.

يواجه السيد أمير علي دعوى انتشار الإسلام بالسيف، فيقول في انتاد المظمتين الراسخين: «إن نظرة صادقة إلى التاريخ تُرينا أن المسلمين الأولين إنما شهروا سيوفهم ليدافعوا عن أنفسهم، وليقاوموا اضطهاد أعداء دينهم، هؤلاء الذين بالغوا في تعذيب الضعفاء إلى درجة لم يكن لهم قبلُ بتحملها، فقد شذت عليهم السلاسل الملتهبة في الهجير المشتعل، وألقوا على وجوههم فوق الرمال المحرقة، وعلى صدورهم صخور ثقيلة ذات لهيب، وهم مع ذلك يسمعون عبارات التهكم من ساداتهم فلا يستجيبون إلى ما يريدون. . . فإذا كان الإسلام قد بدأ دون قوة تخميه غير الإخلاص في العقيدة، فأين هو السيف الذي ساعد على انتشاره! إن الرسول حين هاجر إلى المدينة لم يسلم من تربص الكفار به، وتأليب الجموع عليه في مهاجره؛ فحق عليه أن يستجيب لقول الله تعالى: ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

ومن أجمل الصفحات التي كتبها السيد أمير علي دفاعه عن مكانة المرأة في الإسلام، حيث أطبقت أقلام المبشرين ومن لف لفهم على أن الإسلام سَجَن المرأة ومنَعها حرّيتها المشروعة، فانبرى الباحث المؤمن موازناً بين مكانة المرأة في الإسلام ومكانتها الآن في أرقى بلاد الغرب حضارة وتمدناً، وما قاله الباحث أصبح مشتهراً لدينا الآن، بعد أن كثرت البحوث الخاصة بمكانة المرأة في الإسلام، ولكن ما كتبه منذ قرابة قرن كان جديداً على أناس كثيرين، وقد زاد في قيمته أنه كتَب هذه الفصول حين أنشأ الأستاذ قاسم أمين كتابه عن تحرير المرأة، وتلقفتُ صُحفُ أوروبا فقراتٍ منه، نُقلت مبتورة عن سياقها لتُسيء إلى الإسلام بما لم يقصده قاسم أمين، فكتب السيد أمير علي بحثه عن المرأة في الإسلام، ليكشف النقاب عن مفتريات ألصقت بالإسلام زوراً وبهتاناً.

وقد دَعَا خصوم رأيه إلى مناقشته، فكان قصاراهم أن يقولوا إن المرأة في البلاد الإسلامية جاهلة متأخرة، مع أن تأخر المرأة وجهلها لم يكونا استجابةً لحُكم الإسلام، بل كانا ابتعاداً عن توجيهه، ونصوصُ الشريعة تعصفُ بكل ادعاء!.

ولعل من الأنسب أن ننقل عن السيد أمير علي في هذا النطاق ما ترجمته «إن المرأة تتمتع في ظل الإسلام بحقوق حُرِّمت منها غيرها في ظل أي دين آخر، ففي إنكلترا ظلت المرأة محرومة من أملاكها إلى عهد غير بعيد، في الوقت الذي حفظ الإسلام فيه للمرأة المسلمة حق التصرف في أملاكها، ثم كيف لنا أن نسلم بأن الإسلام أهان المرأة وأضعف شأنها، وقد ظهر من بين المسلمات زعيمات وقادة ومنهن من اغتلتن العروش، وقذن الجيوش، وخضن غمار الحروب، وبرغن في السياسة، ونبغن في الشعر والأدب»!

لقد أعجلنا الحديث عن أسلوب السيد أمير علي الإقناعي، عن الإلمام بطرف من سيرته، ففيها ما يلقي الضوء على منحاه الحيوي.

نشأ أمير علي في بيئة مسلمة ذات حفاظ على دينها، لأنه سليل أسرة عربية تنتمي إلى آل البيت الشريف، وقد استقرت في فارس زمناً طويلاً ثم هاجرت إلى الهند في منتصف القرن الثامن عشر، فكانت ذات رئاسة وجاه لما لها من فضل ونفوذ، وقد وُلد أمير علي في ١٨٤٩/٤/٦م من أب مثقف مستنير، وأم إنكليزية اعتنقت الإسلام وأخلصت له، ولكنها كانت دافعة إلى تعلم الإنكليزية وإجادتها، إذ كانت أستاذته

الأولى، وقد التحق بكلية «هوجلي» في كلكتا، ونال أعلى درجاتها في التاريخ والأدب، ومن حظ الناشئ الداعية أن يدرس الأدب والتاريخ في نشأته الأولى، فالأدب يمدّه بالأسلوب الجيد والتفكير المتصل في إحكام وقوة، والتاريخ يعطيه المثل التطبيقي الذي ينشده في سير الأبطال من المخلصين، كما يجنبه الانحدار الشائن، إذ يرى صفحات مؤلمة لبعض الخونة من الوُصوليين .

ثم التحق بكلية «عليكرة» وهي يومئذ أرقى دار علمية بالهند، فنال شهادتها، وتعمق في دراسة الإسلام تعمقاً أوقفه على أصوله ومشارع هديه، ورأت أمه أن تكتمل ثقافته بالبعثة إلى إنكلترا، ليعود رجلاً دولة في بلده، هكذا شاءت، وشاء الله أن يكون سفره إلى إنكلترا مدعاةً إلى اطلاعه على ما يقال عن الإسلام بأقلام المستشرقين، وقد ضلّ بعضهم السبيل عن قصدٍ أو عن جهل أو عنهما معاً، فرأى من واجبه أن ينهض لتبديد الأوهام ما استطاع، ولكن دراسته القانونية أخذت من وقته الثمين جانباً صرّفه في التحصيل حتى نال شهادة القانون بامتياز .

ورجع إلى كلكتا ليكون أستاذاً للشرعية الإسلامية، ثم مديراً لكلية الحقوق، وقد أتاح له التدريس بهذه الكلية أن يؤلف في الأحوال الشخصية كتاباً يوازن فيه بين قوانين الشريعة ودساتير الغرب موازنة من يطمئن إلى قواعد دينه، فكان تدريسه نمطاً آخر غير أنماط زملائه، ممن لم يتجهوا الوجهة المقارنة، ولعلّه أول من فتح هذا الباب من فقهاء المسلمين، لأن دراسة الفقه المقارن في الشرق العربي لم تكمل على وجهها الصحيح إلّا في عشرينيات القرن العشرين، مع أنّ مؤلفات أمير علي صدرت سنة ١٨٨٥م .

ثم انتقل من التدريس إلى القضاء، فكان مرموق المكانة بين زملائه الإنكليز الذين يتباهون بثقافتهم القانونية، وقد رأوا في أمير علي زميلاً يعرف ما يعرفون ويزيد عليهم بما أتقنه من مسائل الشريعة الإسلامية، وأحكامها الصحيحة التي تضارع ما يتمدّحون به من قوانين بلادهم، إن لم ترّد في الكثير .

ثم رأى من أحوال المسلمين في الهند ما جعله يخصّ كثيراً من وقته لتهيئة الأذهان إلى إصلاح تربوي ينهض بالمسلمين، فنهض إلى تأليف الجمعية الوطنية الإسلامية للدفاع عن حقوق المسلمين، وقد جمع فيها الصفوة ممن يشتغلون غيراً على الإصلاح، وكان تضلّعه في العربية والفارسية والإنكليزية دافعاً لانتشار أفكاره،

إذ كان يكتب مقالاته باللغات الثلاث، فوقَ ما يلتزم به في قاعات الدرس من اتخاذ الأردية وسيلة للشرح والتأليف، لأنها لغة الطلاب الأولى، وبعضهم لا يعرف غيرها .

وقد ساءه أن يحجم أكثر المسلمين عن التعليم، على حين يقبل الهنادكة عليه بتشجيع المحتل، فيتبؤؤون المناصب الراقية بعد تخرجهم، لأنهم أحرزوا قصب السبق حين امتلأت بهم المدارس، فرأى الضرورة تدعو إلى إقامة مؤتمر عام يحضره ممثلو المسلمين من جميع البلاد، لبحثوا أمور التربية، ووجه الدعوة إلى عقد هذا المؤتمر في الجرائد المنتشرة في الربوع القاصية والدانية، وحدد لانعقاده يوم ٢٧ ديسمبر من سنة ١٨٩٩ م.

ولم يكن المؤتمر مقصوداً على أمور التربية والتعليم، بل انتقل به أمير علي إلى شرح آمال المسلمين بالهند في النهوض السياسي والاجتماعي، وكان لاجتماع المؤتمر ضجة في العالم الإسلامي جميعه، بحيث أفردت له جريدة المؤيد المصرية عدة صفحات توالى في أيام انعقاده وبعدها، وقارئ المؤيد يرى ذلك فيما نشر بتاريخ ٢٣، ٢٤، ٢٨ يناير سنة ١٩٠٠، وقد قال رئيس التحرير الشيخ علي يوسف في مقاله الأول عن هذا المؤتمر ما نصّه ببعض التصرف:

.. ولعمري الحق أن نطاق المؤيد ليضيق عن تفصيلات هذه المؤتمر، وما تناول من مباحث إخواننا المسلمين الذين تتألم نفوسهم، وتشعر عواطفهم بضرورة العمل لإيجاد نشأة إسلامية تنهض بالمسلمين من الوهدة التي سقطوا فيها بجهلهم وخمولهم، بل لو أننا حاولنا نشر مظاهر السرور التي كانت تبدو على وجوه المسلمين في ذلك اليوم كما شرحت الجرائد الهندية، وهروغهم إلى محل الاجتماع حتى صار عدد المجتمعين لا يقل عن ألفين من المسلمين كأنما على رؤوسهم الطير، كل يحمل في صدره آمالاً ملؤها حب التقدم والرفعة لكافة إخوانه، لو حاولنا ذلك لتعذر المجال .

ومما قيل في الافتتاح خطبة رئيس المؤتمر القاضي أمير علي، صاحب المقالة التي نشرت في مجلة القرن التاسع عشر الإنكليزية الخاصة بحقوق النساء في الإسلام، ونشرها (المؤيد) إذ ذاك، فإن القاضي أمير علي قد ألقى خطبةً بليغة تستغرق الصحائف العديدة، بحث فيها حالة مسلمي الهند، بنوع خاص، واستطرد

إلى الوسائل التي تفيدهم في مسائل التربية، ثم التفت إلى المسلمين عموماً في كافة بقاع الأرض، وقارن بين تاريخهم الحاضر، مما سيراه القراء ملخصاً فيما بعد . . .

هذا بعض ما قاله المؤيد عن حفلة الافتتاح، كما نشر موجزاً من مقالات مشابهة نشرتها مجلة (مسلم كرونكل) وجريدة (بنجاب ايسرفير) وكلها تتضمن وقائع المؤتمر، والإشادة بجهوده، ولم يكن السيد أمير علي خطيب الاحتفالات في الأيام الثلاثة وحده، بل آزره مخلصون كبار من المسلمين في مقدمتهم السردار محمد هبات خان، ومولانا نادر أحمد ومولانا شبلي نعماني، والسيد شاه الدين، وشاه زاده، ونصر الله خان، وغيرهم من المؤتمرين؛ ولعل من الأوفق أن نشير إلى بعض ما جاء بخطبة (أمير علي) التي افتتح بها المؤتمر لتدل على اتجاهه المخلص حين أوقد هذه الجذوة الملتهبة في النفوس، فقد بدأ حديثه بتحية الحضور شارحاً ما بالمجتمع الإسلامي الهندي من تأخر يجب العمل على تلافيه، وناعياً على بعض المتعلمين اقتصرهم على العلوم القديمة وحدها، دونَ نظر إلى العلوم المعاصرة التي دفعت الغرب إلى التقدّم الحضاري والتحكّم الاستعماري، وما قاله في ذلك سديد محكم تراءى خلاصته في قوله^(١):

«إني أعتقد أنّ التربية التي لا تُربّي أخلاقاً، ولا تُكوّن رجالاً، لا فائدة فيها، بل لا تسمى تربية، إذ يلزم من التربية تهذيب النفس، وترقية مدارك الإنسان، وبعث النظام الحيوي الاجتماعي في عقول الناشئة، وهذا ما لم يتّبع في مدارسنا اليوم، أجل، إنّ مسلمي الهند هم من سلالة عناصر متنوعة، ومن ممالك مختلفة، تجمعهم الرابطة الإسلامية، ويلمّ شعثهم الإخاء الإسلامي، وقد كان التعليم في الزمن السابق دينياً محضاً، وحبذا لو سار على محور الجمع بين الدين والدنيا، فإنه قد تطرّف في الأول، وأخلّ باللازم لضرورة الحياة الاجتماعية، وهل تنظرون من أولادكم وهم رجال المستقبل أن يعملوا لصالح أمّتهم وأنفسهم إلا إذا كانوا في درجة من التربية الحقّة تُساعدهم على السعي في مضمار الحياة الذي يمتلئ بالمنافسة، لا سبيل لذلك إلّا بخلع الأوهام والتقاليد البالية، وبأخذ العلوم الغربية والمدنية العصرية مصحوبةً بأدابكم الإسلامية، ومعتقداتكم الدينية».

هنا بيتُ القصيد في رسالة المؤتمر! إنّ أمير علي رأى قومه غافلين عن التقدم

(١) الإسلام والرد على منتقديه ص ١٣٧، وبه نص الخطبة المشار إليها.

الحضاري في الغرب، وبه سادت أوروبا العالم الشرقي واستغمرته! كما رأى علماء وطنه مُقتصرين على علوم الدين وحدها، وهي ضرورة لا محيد عنها، ولكنها ليست كل شيء، فهناك علوم أخرى كانت سُلّم النهوض الأوروبي، ولا بد من تحصيلها مصحوبة بالآداب الإسلامية، والمعتقدات الدينية، لذلك واصل الحديث بقوله:

«أقول العلوم الغربية، لأنني أعتقد أن النور اليوم يأتي من الغرب، بعد أن كان يشرق من الشرق، فقد كان مسيحيو أسبانيا منذ عشرة قرون يعيشون في ظلام الجهل، فلما دخل العرب بلادهم أخذوا العلوم منهم، وتمسكوا بآدابهم، وتربوا على مدنيّتهم، واليوم نجد عقلاء هذا البلد يميلون إلى الأخذ من علوم أوروبا، ومدنيّتها، والسير مع الزمان في مضمار الحياة العصرية، ولا أنكر أن بعضكم يستدرك علي بالانتقاد بأن ذلك فقدان الجامعة المليّة، فأقول لكم إن ذلك مبحث آخر، ولا تُفقد الجامعة وتضمحل إلا من الجهل لا من العلم!! المعارف قوة، ومن المعارف ذهبت القوة من الشرق إلى الغرب، المعارف ثروة، ومع المعارف نرحت الثروة من الشرق إلى الغرب، وبالمعارف تتمكّن الأمم التي فقدت قوتها وثروتها من أن تردّ شيئاً من ماضي مجدها وقوتها.

وهكذا بلّور أمير علي رسالة المؤتمر في ارتياد العلوم العصرية مجاورة للآداب الإسلامية، وهكذا أجمع المؤتمر على موافقة، وتوالت الكلمات والتعقيبات سائرة في اتجاهه، فبدأ الأساتذة في جامعة «كلكتا» يضعون البرامج الجديدة بوحى من قرارات المؤتمر، وبذلك تحققت أولى الخطوات.

وفي اليوم الثاني ألقى أمير علي خطبة خصّها بالقول في تربية البنين والبنات، وإذا كانت تربية البنين مما لا خلاف عليه بين الحاضرين، فإنّه خصّ تربية البنات بمزيد من الإيضاح، يدحض كلّ ما يُوجهه الجامدون إلى تعليم المرأة من مثالب، وكانت أصداء حركة تحرير المرأة في مصر قد انتقلت إلى الهند، فقُهمت على غير وجهها، فرأى الخطيب أن يؤكد على أنّ التعليم غير التبرج، وأن الثقافة غير السفور، وأن المرأة نصف المجتمع، ولن يرتقي المجتمع إلا بجناحيه لا بجناح واحد، ومما قاله الخطيب في هذا الصدد:

«إننا لا ننتظر خيراً ما لم تكن نسبة التربية بين الأبناء والبنات متساوية، لأننا إذا

أهملنا جانباً وأخذنا بجانب واحد فستكون النتيجة سيئة، إذ لو تعلّم نصف الأمة، وجهل النصف الآخر، فإن الجزء المتعلم سينفر من الجزء الجاهل، ويبعد عن مصاحبته. وأنا لا أريد بذلك أن أبدع إصلاحاً في الدين، فالدين كما جاء من عند الله صالحٌ صالح لا يحتاج إلى جديد، ولكني أريد إصلاح التربية التي تبعدنا عن الخرافات والتقاليد مما لم يأت به الدين في شيء، والتصق به التصاقاً غير حميد، ونحن نعمل تحت نظر الله ورعايته الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، ونستمدّ منه المعونة في جهادنا مع الأمل كل الأمل في النجاح.

هذه شذوّرٌ من كلمات رئيس المؤتمر، وقد انتهى على تأكيد ما ذكره أمير علي في خطبه، وأصرّ المجتمعون على توالي المؤتمرات في أماكن شتى من البلاد، ليصل صوّت الإصلاح إلى جميع المسلمين بالهند، ومن ثم توالى المؤتمرات الإصلاحية، ومن أظهرها مؤتمر (رامبور) الذي انعقد بعد عام من مؤتمر كلكتا، ورأسه العالم الفاضل نواب عماد الملك سيد حسين بلگرامي، وقد ألقى باللغة الأوردية خطبة ممتازة تتفق في جوهرها مع كل ما دعا إليه أمير علي من قبل، واستشهد بالنهضات المعاصرة في اليابان وغيرها، وقام النواب المعظم (مهدي علي خان محسن الملك بهادر) فألقى كلمة تالية، ومما يُحفظ للشيخ علي يوسف بالثناء أنه حرص على تتبّع أخبار المؤتمر، وعَمِل على نشر أكثر ما قيل فيه على صفحات جريدة المؤيد في مصر؛ كما تَلَا ذلك مؤتمرٌ ثالث في (مذراس) سارَ في نفس الاتجاه، وبهذه الاجتماعات المثمرة التي بدأها أمير علي تكوّن رأي جديد في الإصلاح الهندي، وقفزت البلاد من وضع إلى وضع! فكيف يقول الأستاذ إسماعيل الندوي إن أمير علي لم يُسهم في حركة الإصلاح، مع أنه من بناتها الخالدين^(١).

لم يشأ أمير علي أن يُقيم بالهند مع أنه بلغ أعلى منازل القضاء حين عُيّن مستشاراً بمحكمة بنغالة العليا لأنه وجد من خير أعماله أن يرحل إلى إنكلترا مدافعاً عن حقوق الهند في الجرائد الإنكليزية، ومتصدّياً لهجمات المغرضين على الإسلام في

(١) نشر الأستاذ محمد بدر النعماني كتاباً ممتازاً تحت عنوان (الإسلام والرد على منتقديه) جمع فيه خلاصات مركزة لما قيل في المؤتمرات الثلاثة بكلكتا ورامبور ومذراس، ما بين ص ١٣٤ وص ١٩٩، وهو مرجعي الأوحى في كل ما قلته في هذا المجال، فرحم الله جامع الغيور...

وقتٍ أصبحت فيه وزارةُ الاستعمار البريطانية خليةً لذوي الاستشراق ممّن يكتبون عن بلاد الإسلام المستعمرة بما يُسيء، تمكيناً لرسالة الاستعمار في هذه البلاد بدعوى أن الاحتلال سبيلُ التنوير الحضاري! وقد حَفَظَتْ له إنكلترا جانبها السياسي فعَيَّنَتْه مستشاراً ملكياً في المجلس المخصوص، كما انتدُبَ للعمل في لجنة المجلس القضائية، ومن مهام هذا المجلس النظر في أمور المستعمرات البريطانية، وقد مكث البَحَاثَة في وظيفته ريثما اطمأنَّ إلى مكانه في الدوائر العلمية بلندن.

ثم اعتزلَ العملَ السياسي، ليُترجمَ إلى لغة الغرب مؤلفاته القانونية التي كتبها في الهند، ومن أهمّها كتابه عن (حياة الرسول)، وكتابه عن (روح الإسلام)، ومؤلفه عن (الأحوال الشخصية في الأحكام الشرعية)؛ وهو مؤلفٌ مهذَّبٌ للقانونيين في أوروبا أن يقرؤوا الفقه الإسلامي في كتابٍ عصري يَنهَجُ نَهجَ البحث الأوروبي المتداول، وحين رأى انتشار كُتبه في الوسط الإنكليزي آثر أن يعود إلى ما كتبه عن الإسلام ونبيه ﷺ مفرّفاً متناثراً في الصحف فيضمه منسقاً في كتاب شامل، ظهر تحت عنوان (روح الإسلام أو حياة محمد وتعاليمه): وهو مؤلفٌ ضخْمٌ كان قلمُ الكاتب به هادئاً مترناً يقدِّم الأدلة العقلية في سَرْدٍ مناسب يخلو من الانفعال العاطفي، وبذلك كسبَ الكتابُ رواجاً بعيداً، لأن بعض الذين يكتبون عن الإسلام من المسلمين ينسبون أنهم يكتبون إلى أعدائهم الذي يلتزمون الخطأ التماساً فيما يقرؤون، فإذا وَجدوا ما يدل على الحماسة الانفعالية عدوا ذلك خطابةً لا كتابه، ووضعوا الكتاب بما يحطُّ من قدره، وهذا ما نأى عنه أمير علي، ولم يسلم مع ذلك من نقدٍ مغرض وجهه إلى الأستاذ (أسبورن) حين كتب تحليلاً لكتاب روح الإسلام ومحمد وتعاليمه فقال^(١):

«إن هذا الكتاب يستحق الإعجاب، وقد كُتِبَ بأسلوب يدلّ على ملكِ كاتبه لخاصية اللّغة الإنكليزية، أسلوبٌ قل من يستطيع أن يُجاريه فيه من الإنكليز المثقفين، أسلوبٌ خَلَاً من العيوب التي وقع فيها مثقفو الهنود، ويجب أن يهنأ المسلمون بأن يكونَ منهم من بلغ هذه الدرجة، ومن المستحيل على مَنْ فَاتِحَةُ أعماله هذا الكتاب ألا يكون له في مستقبله أثرٌ فعّال في قومه، أما موضوع الكتاب فإننا نخالفه في كثير من مسائله، وسنعرض وجهة نظرنا ووجهة خلافنا فيما بعد».

(١) زعماء الإصلاح للدكتور أمين، ص ١٤٠.

فقد اضطر الناقد إلى الاعتراف بتفوق أمير علي في الكتابة إلى حدّ قد لا يصله كتاب الإنكليز أنفسهم، ولكنه قال إنه يخالفه في كثير من اتجاهاته، وطبيعي أن يكون صاحب هذا النقد ممّن يضيّقون ذرعاً بمحاسن الإسلام ومآثر نبّه، فهو لا يستطيع أن يكتّم عاطفة تعتلج في صدره.

وقد لمس السيد أمير علي فهماً مخطئاً للتاريخ الإسلامي لدى نفرٍ من المستشرقين يكتبون هذا التاريخ بروح عدائية تصيّد الروايات الضعيفة لتجعلها الأساس لاتهامات لا تستند إلى أساس، ونحن نعلم أن الحادثة الواحدة لدى قدامى المؤرخين تُروى بعد روايات مختلفة، وسبيل التحرير التاريخي أن يُوازن الكاتب من هذه الروايات ليختار ما يترجح ثبوته! ولكنّ القوم يتلمّسون ما يُسيء من الروايات المدخولة ليجعلوه أساساً لما يكتبون، ومن هنا اضطر السيد أمير علي أن يكتب بالإنكليزية مختصر للتاريخ الإسلامي في أزهى عصوره يجمع ما ترّجح ثبوته في الروايات ليُعطي الفكرة الصحيحة عن هذا التاريخ، وقد تعدّدت طبعات هذا الكتاب، فكانت سبباً في دُخْص مفتريات خاطئة كانت في نظر القوم من المسلمّات، ومن حظّ اللغة العربية أن الأستاذ رياض رَأَفَت الكاتب العراقي قد ترجم هذا الكتاب إليها وتقرّر على طلاب المدارس العليا بالعراق حين ظهر إلى النور سنة ١٩٣٨م، وطبعته لجنة التّأليف والترجمة في مصر، فلاقَى ذيوماً في وادي النيل، وقالت عنه مجلة الثقافة عقب صدوره^(١) تحت عنوان (مختصر تاريخ العرب):

«هو كتابٌ للسيد أمير علي الهندي الكاتب المعروف، رأى أن الحضارة العربيّة من أرقى الحضارات، وأنّ أوروبا الحديثة لا تزال تسير على هدي تراث العرب الزاخر بشتى العلوم والفنون، وأسف أنّ تاريخهم لا يدرسه في أوروبا إلا المستشرقون، فأراد أن يضع كتاباً يشرح فيه حالة الشعب العربي الاجتماعيّة، وتطوّره الاقتصادي والسياسي والحربي، ورجا من ذلك أن يُزيل أثر التعصب على العرب من الغربيين، فكتبَ هذا الكتاب في تاريخ العرب من مبدأ ظهور الإسلام إلى آخر العصر العباسي، كما كتب في تاريخ العرب في أسبانيا، وتاريخ العرب في أفريقيا، وكان يُتبعُ كل فصل بالعيشة الاجتماعيّة، وحركة العلم، والحالة الاقتصاديّة، والصناعيّة ونحو ذلك. وقد نقله حديثاً إلى اللّغة العربيّة الأستاذ رياض

(١) مجلة الثقافة - العدد (١٨) - ١٩٣٩/٥/٢.

رأفت، وعلق عليه تعليقات مفيدة، ويقع في ٥٢٠ صفحة».

ولم يكن جهاده في إنكلترا مقصوداً على إيضاح تعاليم الإسلام وتفصيل تاريخه والرد على مناوئيه، ولكنه كان يعيش في هموم العالم الإسلامي، ويتأمل ضروب التعسف التي يوقعها الغرب بشتى بلاد الإسلام، ومن ذلك جهده الهائل في مقاومة الطغيان الإيطالي يوم زحفت جيوش روما على طرابلس تذيقيها أشد التكال، إذ سعى إلى تأليف جمعية خيرية تُغيث جرحى النصارى في هذه الحرب غير المتكافئة، حين عرف أن جماعة الصليب الأحمر لا تهتم إلا بجرحى المسلمين وحدهم، وبجهوده أنشئ ما يسمى بالهلال الأحمر ليكون نصيراً للباثنيين من جرحى الحرب، وكذلك امتد بنشاطه إلى مساعدة المسلمين في حروب البلقان.

وحين قامت الحرب العالمية الأولى لم يمنعه مقامه في إنكلترا من أن يدعو إلى حياد المسلمين مطالباً بابتعادهم عن أماكن الاعتداء، مُعلنًا أن تركيا دخلت الحرب مرغمة، وأن الأستانة يجب أن تكون مدينة حرة لا تتعرض إلى نيران القذائف، حتى إذا انتهت الحرب بهزيمة تركيا طالب بالإبقاء على كيائها، ودعا المسلمين في كل مكان إلى مناصرتها، وأرسل مقالاته في صحف الهند لمؤازرة الدولة العثمانية لأنها في اعتباره أقوى حصون الإسلام لذلك العهد؛ وبدهي أن يكون نشاطه السياسي من أجل الهند أوفى وأغزر، فقد لاحظ ما يشبه التواطؤ التام بين الإنكليز والهندوك على عداة المسلمين، فجهر بأن المسلمين على حق حين يعادون إنكلترا في موقفهم المتواطئ، وقال في إحدى خطبه:

«إن للمسلمين حقوقاً واضحة في الهند أمام الحكومة والهندوكيين معاً، وما لم يُعطوا هذه الحقوق فسينقلب الأمر إلى تعصب حاد لا مفر منه، وهم في ذلك لا يخرجون عن نطاق العدالة حين يطلبون بتمثيلهم السياسي تمثيلاً يتفق مع عددهم وتاريخهم، إن المسلمين لا يُريدون امتيازاً حتى يرميهم أعداؤهم بالشطط، وإنما يريدون المساواة في الحقوق السياسية، فإذا تم ذلك فهم على وفاق».

هذه معاني يحتاج بسطها إلى صفحات كاشفة، ولكنها في اختصارها الشديد تنطق باتساع الميادين الحافلة بالجهاد لمصلح لم يدع يوماً من أيامه دون أن يسهم في إحياء مآثر قومه، وتبيان هداية دينه، ونشدان المساواة العادلة لجميع الناس دون انحياز مجحف، أو تمييز ظلم.

حسّين محمد مخلوف بين الولد البار والأب العلامة

- ١ -

كان أستاذنا الكبير الشيخ حسّين محمد مخلوف دائماً الحديث عن أثر والده العلامة الشيخ محمد حسّين مخلوف في تكوينه العلمي، وهو حديثٌ يبتعد عن الصلف والادعاء، إذ يعتمد إلى اقتطافِ الأسوة في سيرة أب حرص على أن يكون ابنه امتداداً لعلمه كما هو امتدادٌ لاسمه، وفي تاريخ العلماء على ممر العصور أمثلة كثيرة لأسر نابهة من أسر العلم تداول أبنائها المعرفة خلفاً عن سلف، فكانوا منارات تسطع بين ذويهم ولكل منهم مقامه المشهود . . .

نشأ الولد الكبير الشيخ محمد حسّين مخلوف العدوي في بلدة بني عديّ، وهذه البلدة ليست عاصمة كبيرة ولكن شهرتها بالعلم تجعلها عاصمة مرموقة، إذ حرص أهلؤها منذ احتلتها مهاجرة قبيلة عديّ بن كعب أن تكون مثال الفتوة العربية في المروءة ومثال المعرفة والإرشاد في توجيه الناس، لذلك ظهر من بينهم على توالي العصور من حملوا مشعل التأليف وقاموا بالتدريس، ثم عظم النفع بهم على مستوى الديار المصرية حين انبثق القرن الثاني عشر وما تلاه، فكان منهم الشيخ علي الصعيدي العدوي شيخ العلماء في عصره ثم تلميذه القطب أبو البركات الدردير إلى نفرٍ من تلاميذهما المخلصين .

وفي هذا الجو الثقافي المعطر بأريج الدين نشأ الشيخ الكبير محمد حسّين مخلوف ليجد الأسماع تُدوي بأمجادِ أساتذة العلم من أبناء بلدته، وليجد دُروس الفقه تتردد من المساجد حِسْبَ الله، لا طمعاً في أجر، ولا احتماً في وظيفة، فحفظ القرآن وقرأ العلم على شيوخ المدينة، ثم سمت به همته إلى الأزهر في العاصمة

الكبيرة، فحضر على شيوخ العصر مدى اثني عشر عاماً حتى استوى عالماً مفضلاً، واختاره شيخ الأزهر العلامة الإنباتي للامتحان أمام هيئة متخصصة تقرر استحقاقه للشهادة العليا بالأزهر، وقد حقق أمل شيخه، ففاز فوزاً عظيماً، ونال الدرجة الأولى الممتازة، وهي التي تؤهله لتدريس كل المواد بالأزهر دون أن يختص بفرع خاص.

وكان عجباً كل العجب أن يبرع الشيخ في دراسة كتب لا يألُفها غيرُ خاصة الخاصة، إذ تدورُ على مسائل المنطق والفلسفة وعلم الكلام، فأخذ يشرح لطلاب كتاب الإشارات لابن سينا، والمواقف لعضد الدين الإيجي، والمقاصد للسعد التفتازاني، وهي كتب تحتاج إلى صبر طويل، بحيث قد يقفُ الدارس أمام العبارة الواحدة في سطر واحد عدّة دروس، لأن صعوبة التأليف، وعمق المادة تجعل فهم الكتاب من حيث تركيبه البنائي جهداً جاهداً، فإذا تمّ ذلك انتقل الأستاذ إلى فهم المعنى العام، ومناقشته والاعتراض عليه بما كتبه المتخصصون حوله!

هذا الاتجاه العلمي إلى مثل هذه الكتب قد جعل العالم المبتدئ علماً بارزاً في وسطه، فهو في نظر الناس أشد احتفاءً، وأقوى مكاناً ممن يدرس كتب النحو والبلاغة والتفسير والحديث، ولست أقلل من قيمة هذه الكتب، ولا أضائل من أثرها البارز في التكوين العلمي للطالب، ولكني أقرّر أن من يتركها إلى مثل كتب ابن سينا والعضد والتفتازاني في الفلسفة والمنطق والأصول قد اعتلى اعتلاءً مرموقاً في ساحة النضل! ولم يمنعه ذلك كله أن يدرس الحساب والجبر لنابهي الطلاب بالأزهر، لأن العلوم الحديثة، كما كان يُطلقُ عليها إذ ذاك، كانت تجد ترفعاً واستعلاءً ممن يدرسون علوم اللسان والتشريع، فتفوّض إلى أساتذة يأتون من الخارج، فرأى الأستاذ الناهض أن يُزامل هؤلاء المبتدئين كي يسارعوا إلى اللحاق به، دون تباطؤ.

ثم اختير لعمل شاق لا ينهضُ به غيره أو من في طبقته، وهو جمعُ الكتب العلمية من المساجد المختلفة، وتصنيفُها لتكونَ نواةً للمكتبة الأزهرية، فقام الشيخ بجهدٍ مرموق حيث تمكّن من أن ينشئ المكتبة في مدى قصير، وأن يقوم لها بما يجب من الفهرسة، وإلصاق البطاقات، وتدوين الأرقام، على غير سابقةِ بفن المكتبات، والذين وفدوا إلى المكتبة الأزهرية من المتخصصين ليرؤوا عمل الشيخ من تلقاء نفسه

رَاعَهُمْ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى تَحْقِيقِ مَا يُلْقِيهِ أَسَاتِذَةُ الْمَكْتَبَاتِ فِي أَوْرُوبَا عَلَى طُلَّابِهِمْ كَيْ يَنْهَضُوا بِأَمَانَةٍ دُورَ الْكُتُبِ عَلَى وَجْهِ نَافِعٍ سَدِيدٍ، وَفِي مَلَفَاتِ الْمَكْتَبَةِ شَهَادَاتٌ قِيَمَةٌ لِلْأَسْتَاذِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ السَّلِيمَ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى عَمَلٍ مَا بِإِخْلَاصِ نِيَّةٍ، وَعَمَلٍ فِكْرٍ، وَمَوَاصِلَةٍ سِيرٍ، فَإِنَّهُ يَجْنِي مِنَ الثَّمَارِ مَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ نَمُودَجًا يَحْتَذَى، وَإِلَّا فَكَيْفَ كَانَ الشَّيْخُ الْمُجْتَهِدُ فِي عِلْمِهِ هَذَا مُتَّبِعًا غَيْرَ تَابِعٍ! ثُمَّ يَأْتِي بِنَتَائِجٍ لَا تَهَيِّأُ لَغَيْرِ التَّابِعِينَ

أَمَّا الْأَعْمَالُ الْإِدَارِيَّةُ الَّتِي وُكِّلَتْ إِلَى الرَّجُلِ فَكَانَتْ تَتَطَلَّبُ مِنَ الْجَهْدِ مَا يُرْهِقُ وَيَتْعَبُ، لِأَنَّهُ تَوَلَّى مَنَاصِبَ قِيَادِيَّةٍ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الْأَزْهَرِ، فَكَانَ أَوَّلَ مُفْتَشٍّ لِلْعُلُومِ بِالْأَزْهَرِ وَالْمَعَاهِدِ الدِّينِيَّةِ، كَمَا كَانَ عَضْوًا بِمَجْلِسِ الْأَزْهَرِ الْأَعْلَى مِنْ أَسَاتِذَتِهِ الْكِبَارِ إِذَا كَانَ أَصْغَرَ الْأَعْضَاءِ سِنًا، ثُمَّ عُيِّنَ مَدِيرًا لِلْأَزْهَرِ وَالْمَعَاهِدِ الدِّينِيَّةِ لِأَوَّلِ إِنْشَاءٍ لِهَذِهِ الْإِدَارَةِ حَيْثُ رَسَمَ لَهَا حُدُودَ عَمَلِهَا، وَوَضَعَ نِظَامَ السَّيْرِ فِي نَهْجِهَا الْجَدِيدِ، بِحَيْثُ كَانَ ذَلِكَ أَثَرًا يَحْتَذَى، وَقَدْ أُضِيفَتْ إِلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ وَكَالَةُ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ، وَمَا أَظَلُّ الَّذِينَ أَشَارُوا بِذَلِكَ إِلَّا مُقَرَّرِينَ لِكِفَائَتِهِ الْإِدَارِيَّةِ، مُعْتَرِفِينَ بِمَا رَسَمَ مِنْ خُطُواتٍ.

وَمِمَّا يَذْكُرُ لَهُ أَثْنَاءَ إِدَارَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ شُيُوخِ الْمَعَاهِدِ تَأْلِيفَ جَمَاعَاتٍ مِنَ الطُّلَّابِ لِلْمِرَانِ عَلَى الْخُطَابَةِ الدِّينِيَّةِ، إِذْ رَأَى انْصِرَافَ الطُّلَّابِ إِلَى كُتُبِ النُّحُوِّ وَالْفِقْهِ دُونَ الْعِنَايَةِ بِمَا يَجْعَلُهُمْ مَرشِدِينَ فِي الْمَدَائِنِ وَالْقُرَى، وَتِلْكَ إِحْدَى رِسَالَاتِ الْأَزْهَرِ الْكَبِيرِ، وَبِجَهْدِهِ فِي هَذَا الْمَجَالِ نَشَأَ جِيلٌ مِنَ الطُّلَّابِ اتَّصَلَ بِالْجُمْهُورِ الْمِصْرِيِّ، وَصَارَ مِنَ الْأَلْسِنَةِ النَّاطِقَةِ فِي ثَوْرَةِ سَنَةِ ١٩١٩م، بَلْ نَشَأَتْ الْبِشَائِرُ الْأُولَى لَوْعَاطِ الدَّوْلَةِ مِنْ رِجَالِ الْإِرْشَادِ وَالتَّوْجِيهِ، وَأَصْبَحَ لِلْبَيَانِ الدِّينِيِّ أَلْسِنَتُهُ الْمَعْتَبَرَةُ، وَخُطْبَاؤُهُ الْبَارِزِينَ.

وَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَتْرَكَ الْحَدِيثَ عَنْ هَذَا الْوَالِدِ الْمُمْتَازِ دُونَ أَنْ نُشِيرَ إِلَى بَعْضِ مُؤَلَّفَاتِهِ الْعِلْمِيَّةِ، فَقَدْ كَتَبَ حَوَاشِيَّ عِدَّةٍ عَلَى الْكُتُبِ الْفَلَسَفِيَّةِ الَّتِي أَهْتَمَّ بِتَنْدْرِيسِهَا، وَأَلَّفَ فِي الْأَصُولِ كِتَابًا قِيمًا أَمَلَاهُ عَلَى الطُّلَّابِ دُونَ أَنْ تَسْمَحَ الظُّرُوفُ بِطَبْعِهِ، وَقَدْ قَالَ وَلَدُهُ الْأَسْتَاذُ حَسَنِينَ: إِنَّ الَّذِي عَاقَ طَبْعَهُ هُوَ انْصِرَافُ الْقَارِئِينَ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْبَحُوثِ الْمُسْتَعْصِيَةِ الَّتِي لَا يَسْمُو إِلَيْهَا غَيْرُ أَفْرَادٍ يُعَدُّونَ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ طُبِعَ كِتَابُهُ (الْمَدْخَلُ فِي عِلْمِ الْأَصُولِ) فَصَارَ نَاطِقًا بِفَضْلِهِ، كَمَا كَتَبَ فِي التَّصَوُّفِ عِدَّةَ رِسَائِلٍ؛

لأنه تتلمذ على شيخ الصوفية في عصره الإمام أحمد الشرقاوي، وتمسك بوروده وأدعيته المأثورة، وهذا بعض ما ألف فحسب، وهو يدلُّ على أن الشيخ العامل في الإدارة هو الشيخ التحرير في التأليف، ولم يفته أن يكتب كثيراً من المقالات في الصحف اليومية حين تلبس الأمور في مسائل الدين، وقد انتقل إلى جوار ربه في المحرم سنة ١٣٥٥ هـ الموافق سنة ١٩٣٦ م، فترك فراغاً كبيراً...

لقد ترك الشيخ الراحل فراغاً، ولكته ترك ولده حسنين من بعده يُحاول أن يقفوه، وقد رُزق من الخطوة العلمية، والخطوة الوظيفية ما ساعده على هذا الاقتفاء، الذي كان الأب الكريم يحرص عليه، ولك أن تقرأ قول الابن الفاضل في الصفحة الأولى من مذكراته:

«في طفولتي لم أعرف اللعب، كانَ والدي يصحبني معه إلى المسجد، وأنا طفلٌ أتابع دروسه، وأرقب طريقته في الإلقاء، أرى سماحة صدره وهو يُناقش، ويصلُّ بالمفاهيم الدينية إلى أبسط فلاح في قرينتنا، متواضعٌ مع الناس كلهم، ويحبُّ إليهم دروس العلم، وعدم الخجل من السؤال عن حُكم الدين فيما يعترضهم من المشاكل...

وقد بدأتُ في تلك الفترة المبكرة من حياتي أسمعُ كلاماً حولَ مُستقبلي كما حدَّدهُ الوالد، بأن يكون في طلب العلم، وأن أخلفه في مجلسه ودروسه، ويبدو أن الوالد كان يعدني منذ طفولتي لهذه المهمة. وهذا ليس غريباً عني، وأنا من بيت علم، لم أعرف اللُّهو ولم أعرف إلا العلم والتَّحصيل».

وإذا كان النجل قد ولد سنة ١٨٩٠ م فقد بدأ حفظ القرآن في السادسة من عمره واستظهره في مدى أربع سنوات وقد احتفل الوالد احتفالاً عائلياً ذا شأن بهذه المناسبة، ولم يلبث أن أحضر له متونَ العلم ليحفظها، وبالأخص متون التجويد والقراءات والنحو، وذلك ما هيَّأه للالتحاق بالأزهر الشريف، وكانت مكانة والده بالأزهر تدفعه إلى الاجتهاد الدائم ليعظم في عُيون زملاء أبيه، فاجتهد في التحصيل اجتهاداً أهله إلى الالتحاق بمدرسة القضاء الشرعي إذ كانت تصطفي النبغاء من طلبة الأزهر، بحيث لا تسمح لهم بالالتحاق بها إلا بعد امتحان يتقدم فيه الكثيرون ليُختار منهم القليل.

وللامتحان النهائي صعوبة بالغة تحدت عنها الدكتور أحمد أمين في كتابه

(حياتي) إذ أن الاختبار الشفوي الأخير يحضره الأزهر مع أربعة من كبار العلماء وقد يمتدّ إلى ست ساعات للطالب الواحد، وفي بعض الأحيان تُرفع الجلسة في اليوم بعد عناء طويل لتستكمل في الغد، وقد نال الشيخ عالمية مدرسة القضاء سنة ١٩١٤م، وعُيّن قاضياً بعد سنتين سنة ١٩١٦م ثم رئيساً لمحكمة الإسكندرية - بعد جولات شتى في محاكم ديروط والغشن وطنطا والقاهرة - سنة ١٩٤١م، وتلا ذلك اختياره رئيساً للتفتيش الشرعي، فنائباً لرئيس المحكمة الشرعية العليا فمفتياً للديار المصرية سنة ١٩٤٥م فعضواً في هيئة كبار العلماء!

ذكرتُ هذه المناصب القضائية بالذات، لأنها يارهاقها العمليّ في مراجعة الأحكام، ودقة تحرير الحيثيات قد شغلت الشيخ عن التأليف العلمي كما كان ينتظر من مثله، وما نُشر له قبل الإفتاء رسائل موجزة أشبه بالمقالات وإن ظهرت في أجزاء مستقلة، وهي ذات فائدة، لأنّ من عادة الشيخ في التأليف أن يلج إلى الموضوع دون مُقدمات، وأن تكونَ القواعد المقررة والنصوص الشرعية هي دعامته بحثه، بعيداً عن التحليل الذهني الذي يمضي بالفكرة إلى الاستقصاء، إذ مما يُذكر أنّ والده أثناء طلبه بمدرسة القضاء، قد استدعاه ذات صباح على غير عادته وأخرج له رسالة وصلت إليه من سائل يطلب حُكم الإسلام في الرفق بالحيوان، وكلفه أن يكتب الرد بعد البحث في المراجع الشرعية، ودهش الابن فجأة لما لم يتوقعه، ولكن الشيخ الجليل أصرّ على طلبه، فعكف الطالب أسبوعين حتى أعدّ الرسالة مستوفاة، وذهب بها إلى والده، فسرّ بها، وبادر بطبعها على نفقته، ووزّع نسخاً منها على زملائه بمدرسة القضاء! فتأكد حسنين أنه مُعدّ منذ اليوم ليكون مؤلفاً، ولكن لجان القضاء الشرعي قد استغرقت وقته إذ كُلف بوضع مذكرات قانونية عن مسائل النفقة والحسبة والميراث والزواج، وهذه المذكرات لا تُنشر على الناس، بل تُوزّع على القضاة بعد موافقة المسؤولين بوزارة الحَقّانية إذ ذاك.

وكما نشر الوالد رسالة نجله، ودفعه إلى كتابة بعض المقالات بالصحف، فاجتهد في ذلك ما استطاع، وظهرت آثاره العلمية في المؤيد واللواء والأهرام، على أنّ شغله الشاغل بعد جلسات المحكمة كان التدريس بالمساجد حيث يقيم، فشهدت مساجد القاهرة والإسكندرية وطنطا دروساً فقهية يُلقِيها القاضي على المصلّين، وصار الدرس عادته بعد أن ولي منصب الإفتاء، إذ جعل يتبع سنة

الشيخ محمد بخيت المطيعي في تأدية الدروس بمسجد الحسين، بعد صلاة العصر يومياً بشهر رمضان وأسبوعياً في أكثر شهور العام، ويسؤال العامة في هذه الدروس عن معاني بعض الآيات القرآنية وجَد من الضروري أن يخص كتاب الله عز وجل بمؤلفين، أحدهما خاص بالكلمات اللغوية وقد رُزق حُظوة بالغة حيث تعددت طبعاته حتى بلغت العشرين، وطبعته بلاد شتى في الحجاز والمغرب وأفريقيا.

أما التفسير الثاني فهو المعروف باسم (كلمات القرآن، تفسير وبيان) وهو قريب من تفسير الأستاذ محمد فريد وجدي - رحمه الله - إذ كان هم المؤلفين معاً أن يُقربا معاني الكتاب المبين للقارئ المتواضع بحيث يجد التفسير جلياً لا تتخمه مسائل النحو والبلاغة والقراءات، وإن اضطر الشيخ مخلوف إلى بعض ذلك حين يجد وضوح المعنى يقتضيه، وقد رأى أحد الفضلاء من أثرياء المملكة العربية السعودية أن يطبع هذا التفسير على نفقته، وأن يوزعه هدية للمسلمين في أماكن كثيرة نائية، فأصبح ميسوراً للقراء في أقطار أفريقيا الإسلامية التي تتلهف على تفسير واضح يقنع إنساناً لغته الأولى ليست العربية، وإنما دُفع إلى الفصحى ديناً وحمية.

وقد كابد الشيخ خصومات كثيرة قبل الثورة وبعدها، فقبل الثورة أبدى رأيه في الشيوعية، وبعدها البعيد عن الإسلام، وكان بمصر فريقاً من المخدوعين يظنون الشيوعية معجزة الإنقاذ، ومفتاح الرخاء، فملؤوا جرائدهم الحمراء بمهاجمة الشيخ واتهموه بالعمالة لأمريكا وإنكلترا، وهو بعيدٌ عن كل اتصال غربي، وقد توقع من رسم صورته الكاريكاتورية رسماً عابثاً، والشيخ ساكت صامد وكان الأمر لا يعنيه، ثم بعد الثورة أراد المسؤولون منه أن يكتب فتوى يعلن فيها أن الإسلام اشتراكي، وأن الاشتراكية نابعة من صميم التشريع الإسلامي قبل أن تنتقل إلينا من الغرب، ولكن الشيخ أصر على أن الإسلام لا يعرف الاشتراكية بمعناها الغربي، وأنه دين التكافل الاجتماعي والعدالة والمساواة بالمعنى القرآني الذي رددته الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، ومواقف السلف الصالح في صدر الإسلام؛ ثم لما ضاق به الأمر، ولم يجد أماناً في وطنه هاجر إلى المملكة العربية السعودية، فعرفت مكانه الجليل، وعُيِّن عضواً مؤسساً لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، فعُضواً مؤسساً للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فعُضواً مؤسساً بمجلس القضاء الأعلى

بالمملكة، ثم مُنح جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام سنة ١٩٨٣م، وهكذا لا يضيع الله أجر العاملين.

وقد امتدت رحلاته من السعودية إلى أقطارٍ أخرى، وهي رحلاتٌ علمية يرأس بها ندوات علمية، فقد استدعاه الملك السنوسي - رحمه الله - إلى ليبيا فألقى عدة دروس، كذلك زار المغرب والبحرين وأبي ظبي ليؤدي رسالة العلم حيث يحلّ، وناقش بعض الرسائل الجامعية في هذه الأماكن، وفي كل مكان يُسأل أسئلةً سياسية تتصل بحُكم الإسلام فيصدع بما يعتقد أنه الحق.

وفي أحد مواسم الحج بمكة شاهد أوضاعاً تُخالف المقرر في كتب الفقه، يقوم بها حجاج يأتون من بلادهم دون أن يلمّوا بمناسك الحج، فكتب مؤلفاً سهل العبارة يتضمن هذه المناسك من لدن الإحرام حتى طواف الوداع، وجاء إليه من يناقشه في بعض المسائل الفرعية التي اختلف حولها أئمة المذاهب، فاستمع إليه الشيخ في هدوء، ثم قال له: اكتب أنتَ دليلاً للحجاج يعتمد على أي مذهب صحيح، وسأقدمه للحجاج بدلاً من كتابي، ووعد المعترض، ولكنه لم يفعل شيئاً، وهذا ما يدل على سماحة الشيخ وسعة صدره، بل مما يدل على أن الحِلْم يطفئ الغضب كما تطفئ النار الحطب، وفي ذلك بلاغ...

- ٢ -

إذا كان الشيخ حسنين محمد مخلوف قد كتب كثيراً من البحوث النافعة مثل كتابه الجيد عن الموارد، إذ وفي بكل ما يتطلبه الموضوع من نقاط، وامتد إلى القوانين المعاصرة، وما استُعير من غير المذاهب الأربعة من أحكام، وإذا كان ذلك كذلك، فإن أكبر آثاره التي احتل بها مكانته الفقهية المبجلة هي فتاواه التي أصدرها أثناء توليته منصب الإفتاء، وما تلا ذلك من فتاوى نشرت في الصحف السيارة ثم جُمعت في جزئين كبيرين، وبعض هذه الفتاوى كان مألوفاً يسير في النسق المطرد، لأنه إجابةً مقررة أكدها الفقهاء من قبل، وسأل عنها سائل فأفتى الشيخ بما علم، وبعضها الآخر كان ذا فتوح مشرق إذ أتى به الشيخ من طريق الاجتهاد الشخصي في مسائل لم تدرس من قبل، واعتمد على القياس فيما حكم، شأنه في ذلك شأن أسلافه من قبله مثل الإمام محمد عبده ومحمد بخيب المطيعي وعبد المجيد سليم، وغيرهم.

والحق أن الشيخ قد كان ثباتاً مكيماً في كل ما أفتى به، كما كان جريئاً لا تأخذه في الحق لومة لائم، فحين اتسع الحديث عن الشيوعية عقب قيام الثورة، وكتب المغالون في تمجيدها وكأنها معجزة الإنقاذ مما يتهدد العالم من أهوال، وتحرشوا في صحفهم المأجورة بكل من يئدي رأياً معارضاً، بل إن أحد المنتسبين للعلم قد جاهر بأن الشيوعية من صميم مبادئ الإسلام حين انتشر هذا اللفظ، ووجه الشيخ مخلوف بسؤال عن حقيقة الشيوعية ومدى صلتها بالإسلام، لم ينكُل لحظة عن أداء واجبه الديني، وأعلن فتواه في الأهرام صريحةً مجلجلة، وهنا تدفقت البذات الجاهلة تنوشُ الشيخ في غير تحشم، بل إن أحد المهاجمين أكثر من ذكر الشيخ «متلوف» وهو البطل المسرحي لمسرحية مترجمة عن موليير مُعرضاً بالشيخ الفاضل، فلم يابه بما يرى ويقرأ، وكأنه التزم بقول الله عز وجل: ﴿وَيْبِكَادُ الرَّحْمَنُ أَلَّا يَكُنْ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾.

كان السؤال موجهاً من السيد رئيس نيابة أمن الدولة، لأن أحد المحامين قد طلب في قضية من قضايا الجنايات رأي الإفتاء في تحديد الملكية، فسعى الشيخ إلى المحكمة بنفسه، وأعلن حكم الإسلام صريحاً غير مجمم، ثم سجل فتواه في سجلات دار الإفتاء، وقد جاء فيها^(١):

أولاً: إننا قد بينا فيما أذللنا به أمام المحكمة العسكرية العليا بجلسة ١٩٢٣/٨/٩ أن من أخطر المبادئ التي قامت عليها الشيوعية إحلال الإلحاد واللا دينية محل الأديان السماوية، وإشاعة الإباحية الفاحشة في المجتمع، وإلغاء الملكيات الفردية للعقار إلغاء تاماً، وانتزاع جميع الأرض من ملائكتها وجعلها ملكاً للدولة، وتطبيق ذلك بالقهر والجبروت، فكانت الشيوعية هادمة لا بانية، باغية لا عادلة، والشريعة الحنيفة السمحة التي من أصولها وجوب المحافظة على الدين والعقل والنفس والمال والعرض، ومن مبادئها احترام الحقوق، وتقرير الحريات العامة للإنسان تُنكر كل ذلك أشد الإنكار، وترى اعتقاده كفرةً بواحاً لتكذيبه ما أجمعت عليه الرسالات السماوية، ونحن لا شأن لنا بوقائع القضية ولا بأشخاص المتهمين، وإن مهمتنا بيان حكم الإسلام في مبادئ الشيوعية.

(١) الفتاوى الإسلامية: ٢٦٠٥/٧.

إن المبادئ الشيوعية المعروفة لا شك أن الإسلام ينكرها كل الإنكار، وإن الرأسمالية إذا احتكرت الملكية بطريقة معينة، وحصرتها فيها مع تحريمها على سائر أفراد الأمة، فالإسلام لا يقرها، وأما إذا لم تحتكر الملكية وأبيح التملك لكل فرد في الأمة فمن المجازفة القول بأن الإسلام يحاربها.

إن الإسلام قد ترك الناس أحراراً في البيع والشراء والتأجير والمزارعة وسائر التصرفات الناشئة عن الملكية بصورها المختلفة، ولم يُقيدهم في ذلك إلا بما يكفل صحة العقود، ويدفع التنازع والتخاصم وأكل الأموال بالباطل مع وجوب أداء حقوق المال لمستحقيها أخذاً بالسنن الاجتماعية والنواميس الطبيعية، فمن الكذب على رسول الله وعلى الإسلام أن يُنسب إليه أنه أوجب تحديد الملكية الفردية بطاقة الإنسان الزراعية بحيث لا يجوز له أن يملك إلا ما يزرعه بنفسه بقدر عيش الكفاف، وأنه يوجب عليه أن يمنح ما زاد عن طاقته للمعدمين مجاناً، ومن الكذب على الإسلام ورسوله أنه يُنسب إليه أن الإسلام يحجر على الإنسان أن يستغل أرضه بالتأجير والمزارعة، وقد بينا الأسانيد في ذلك والخطأ الواضح في تفسير بعض الأحاديث الواردة في هذا الشأن وحملها على غير ما أريد منها.

هذا لباب الفتوى لأنها مُسبهة شيئاً ما، وقد أشار الشيخ إلى فتوى سابقة تُفصل ما أجمله في هذه الفتوى وقد صدرت بتاريخ ١٩٤٨م/٤/٣، ودار حولها لغطٌ ممن يسيئهم أن يُفسر الإسلام على وجهه الصحيح.

تربص المعارضون حينئذٍ بالشيخ، وهم شبابٌ ناثرون يدعون الفهم للدين والسياسة، وقد أثبتت الأيام أنهم على غير شيء مما يدعون! ولكن الشيخ طُورِد وضيق عليه، فكان لا يبرح منزله إلا لحضور اجتماعات هيئة كبار العلماء، أو الصلوات في المسجد القريب من داره، ثم رأى بعد أمد متسع أن يهاجر إلى المملكة العربية السعودية، فلقى فيها أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان.

على أن اعتكافه المنزلي لم يمنعه أن يرقب الأحداث، وأن يجهر بالفتوى القامعة حين يجد رؤوس الشر، تتحرك نافثة سموها القاتلة، ولم يلجأ إلى التلميح أو المؤاربة شأن من يأخذ الحيطة لنفسه، ولكنه التزم بالصراحة كل الصراحة في إقرار ما يعتقد أنه الحق، وقد أثبت عليه الجرائد اليومية التي كانت تُفسح صدرها لمقالاته أن تنشر ما يُرسله إليها من الفتاوى التي تحس أنها لا تُرضي الحاكمين بأمرهم في

مصر، فكانت المجلات الدينية وفي طليعتها مجلة الأزهر مُتَنَفِّسُهُ الذي يعلن فيه رأيه مدعماً بالأدلة المقنعة، وقد فَسَّحت المجلة صدرها لفتاواه الهادفة، وبعضها قد نُشر على ثلاثة حلقات متواليات. ومنها ما كتبه تحت عنوان (زواج المسلم بالكتابية) إذ تصدَّى الشيخ لدرءٍ معصيةٍ كانت تُبَيِّتُ بليل، ولها جُذورٌ إلى عهد غابر، فلم يجد بداً من أن يقول كلَّ ما لديه في هذا المجال، ولذلك تفصيلٌ نُلَمَحُ إليه فنقول:

«قدَّر الله للشيخ أن يكون من كبار رجال القضاء الشرعي بمصر، ليَقِفَ على ما يُسَنُّ من اللوائح والقوانين الخاصة بالأحكام الشرعية وهي في دَوْر التكوين قبل أن تكون حقيقة واقعة حين تصدرُ بمرسوم يتحتم تنفيذه دُونَ نقاش، ففي سنة ١٩٣٢م، رُئي تنظيمُ القضاء الطائفي للنصارى، وألِّفت لجنة كذلك كان أكثر أعضائها من النصارى، فرأت أن الفرصة سانحة لإصدار قانون يقضي بطلاق الزوجة النصرانية إذا أسلم زوجها بعد الاقتران بها، وزادوا فراوا معاقبته بالحبس إذا أقدم على معاشرتها دون أن يُعْلِمَها بإسلامه، وعليه أن يخضع للقضاء الطائفي دُونَ الرجوع إلى المحكمة الشرعية، فيطبق عليه كلَّ ما يتضمنه قانون هذا القضاء، فثار الشيخ لما اقترحه هؤلاء، وأعلن أن الدار دارُ إسلام، وأن كلَّ ما يُبَيِّت في هذا المجال مخالفٌ للدين الرسمي للبلاد بنص الدستور، ولما هو متعارف عليه منذ الفتح الإسلامي لمصر، كما أن مهمة هذه اللجنة هي الإصلاح والتنظيم، لا هدم الأحكام الإسلامية المتعارف عليها لدى الفريقين، وكانت الحكومة إذ ذاك تحاول استرضاء القوم، فلم تجابههم بالرفض، وظلَّ الأمر معلقاً...

ثم أعيدت الكرة بعد سنوات، ولم ينته الأمر لشيء حاسم، حتى جاءت سنة ١٩٥٤م بعد قيام الثورة بأكثر من عام، فتحدثت الصحف عن مشروع يُراد عرضه على مجلس الأمة يقضي بنقض أحكام الإسلام الصريحة، وبمعاقبة من يعتنق الإسلام بعقوبات غير مشروعة، وكان الشيخ حسنين مخلوف قد ترك الإفتاء، ولكنه جابه الموقف فأعدَّ بحثاً ضافياً نشرته مجلة الأزهر في أربعة أعداد متوالية صدرت في عددي رمضان وشوال سنة ١٣٧٣ هـ وعددي محرم وصفر سنة ١٣٧٤ هـ، يُفَصِّل حكم الإسلام في زواج المسلم بالكتابية، ويعرضُ نصوص المذاهب جميعها، واتفقها على زواج المسلم بالكتابية دون اعتراض، والبحثُ فقهيٌّ دقيقٌ مستوعب، وقد انتهى إلى مبادئ صريحة تؤكد أن عقد زواج المسلم بالنصرانية صحيح شرعاً

بنص القرآن حين قال الله عز وجل : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصَيْنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ كما أن عقد زواج النصراني بالنصرانية صحيح في حكم الإسلام، فإذا أسلم الزوج وبقيت الزوجة على دينها استمر العقد صحيحاً واستتبع لذلك كل آثاره من المعاشرة والطاعة والنفقة كما يخضع الزوجان حينئذ لأحكام الشريعة الإسلامية^(١) ثم قال الشيخ :

«والنتيجة لذلك أن عقد الزواج الذي تم بين الزوجين وهما نصرانيان لا يُفسخ، ولا يفسخ بإسلام الزوج، كما يبقى كما كان صحيحاً مستتباً كل آثاره»، مع نتائج أخرى أفاض الشيخ في تسجيلها بوضوح وإقناع.

وبعد نشر هذا البحث القانوني المستوعب، تحدثت الأقلام المؤمنة بمضمونه في الصحف، فنبهت الأذهان إلى خطورة المشروع المعد للعرض بالتنفيذ، واضطرت الوزارة لإرجائه، ولكن نفراً ممن لا يفهمون شيئاً في أحكام الشريعة، ولا تمت ثقافتهم الجامعية إليها بسبب، ادّعوا أن ذلك يُنافي حرية الإنسان، كما ذهبوا إلى تأويل النص القرآني تأويلاً يُضحك ولا يقنع، وامتدّ الصدى إلى الدوائر الأجنبية خارج مصر، وأذكر أن الإمام عبد الحليم محمود حين ذهب في زيارة إلى أمريكا، سأله الصحفيون، كيف لا تتزوج المسلمة نصرانياً، وتتزوج النصرانية مسلماً؟ فقال في رده: إن الإسلام يعترف بالمسيحية، ويعُدُّ أصحابها أهل كتاب، فالمسلم حينئذ مطالب من ربه باحترام دين زوجته، أما النصرانية فلا تعترف بالإسلام، وتعدّ المسلم غير ذي دين صحيح، فكيف تكون المسلمة تحت عصمة من لا يعترف لها بدين؟ وكان الرد منطقياً أسكت ألسنة كثيرة كانت تحاول الشغب المريض.

إما إفحام الشيخ لوزير سابق تصدّر للفتوى الشرعية وهو ليس بذي فقه متخصص، وإن تخرج من الأزهر، ولبس العمامة وعُدَّ عند العامة من العلماء، هذا الإفحام المُسكت قد انشرح له الصدور، حيث نشرت مجلة (الجيل الجديد) سنة ١٩٥٧م رأياً للسيد وزير الأوقاف الأزهرى قاله فيه: (يجوز للعريس أن يختلط بعروسه، ويتمتع بها - أي يُقبلها، ويعانقها - قبل عقد الزواج ليتأكد من صلاحيتها

(١) مجلة الأزهر، محرم، سنة ١٣٧٤هـ، ص ٨٦.

له، وليأمن العيوب الخفية فيها»، وقد هَلَّكت المجلة للرأي، وأحاطته بتقريظات مُغرضة لأناس ليسوا من الفقه الإسلامي في شيء، ولكن الشيخ حسين مخلوف - وكان رئيساً للجنة الفتوى بالأزهر حينئذٍ - تصدَّى لهذا الخطأ الصريح، وأصدر فتواه الصريحة في بطلان ما ذهب إليه الوزير المجتهد! وقال بعد إفاضة في الحديث عن يُسر الإسلام وسماحته، وضرب الأمثلة الناطقة بهذه السماحة^(١):

«وأما ما نُشر في بعض الصحف على لسان السيد وزير الأوقاف من إباحة التقبيل والعناق للمخطوبة قبل العقد، فهو قولٌ باطل يردّه كتاب الله وسنة رسوله، ومذاهب الأئمة قاطبةً ولم يُنقل عن أحد من المسلمين - لا الفقيه ابن حزم ولا غيره [وكان الوزير قد أشار إلى أن ذلك رأي ابن حزم] - إجازته من الأجنبي للأجنبية في أي حال، فضلاً عن أنه إباحيةٌ فاحشة، تنكرها الأخلاق والعادات الفاضلة».

ثم قال في ختام فتواه: «ومما يجب التنبيه إليه، أن الإفتاء في الدين مقامٌ خطير، لا يتصدى له إلا فقيهٌ ثقةٌ أمين على الأحكام، ولا يجوز الإفتاء بما يخالف كتاب الله وسنة رسوله، ويجر إلى مفسدة ظاهرة من الشاذ من الأقوال، كما لا يجوز لعالم من المسلمين أن يذيع باسم الدين آراء ليس لها وزن لدى أئمة المسلمين».

وانتقل إلى ما أصدره الشيخ من فتاوى خاصة بمحاربة البدع والخرافات وما انتسب إلى الدين من تقاليد ضارة تهوي بالمجتمع الإسلامي ولا ترتفع به، فقد أبلى الشيخ بلاءً حسناً في كل ما تصدَّى له من زيغ يقاومه، وباطل يدحضه، فجرى على سنن السابقين من أولي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأظهر ما يُروى له في هذا الباب موقفه من الاحتفال بذكرى الأربعين لوفاة الميت، إذ أراد أن يضرب المثل بنفسه، فكتب في جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ التاسع من شهر رمضان سنة ١٣٦٦هـ تحت عنوان (سنة حسنة):

لقد ابتلاني الله بفقد الولد فصبرتُ [وكان ولده الطالب التجيب عبد الحميد حسين قد انتقل إلى رحمة الله منذ أربعين يوماً] واقطع مني فلذة الكبد فما تبرمت، فله الحمد على نعمة الرضا بالقضاء، ومنه وحده المثوبة وعظيم الجزاء.

وقد تساءل أصدقاؤني عن ليلة الأربعين، فأخبرتهم أنّ إحياءها على النحو المتبع

(١) مجلة الأزهر، الجزء التاسع، رمضان ١٣٧٦هـ، ص ٨٦٣ وما بعدها.

بدعة مذمومة لا أصل لها في الدين، وإني مكتفٍ فيها وفي غيرها من الأيام بما بيني وبين ربي من عمل يُرجى ثوابه بمشيئته لمن افتقدته، ولهم مني عظيم الشكر وأطيب الأمنيات».

وما كادت كلمة الشيخ تُذاع عن طريق الأهرام، حتى تلقت الجريدة أيضاً من الأسئلة الخاصة بحفلة الأربعين، ومن بين ما تلقت خطاباً من محام شهير يسأل المفتي أن يتكرم على الناس بنشر ما يتجاهلونه من أحكام الشريعة في المآتم، وما يجري بها من بدع وسخافات، فكان هذا الخطاب داعياً للشيخ أن يكتب بحثاً مستقلاً عن إقامة حفلة الأربعين، وعما يُحب أن يُعمل شرعاً من أجل الموتى، وعن أحوال الرّوح في البرزخ عقب الانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، وعن سؤال القبر وما ورد عنه، وعن مذهب الحنابلة في وصول ثواب الطاعات إلى الميت، وعن العبادات التي يقوم بها أحباؤه من بعده هبة له، وعن حكم أخذ الأجرة على قراءة القرآن للميت، خاتماً حديثه بفتوى شرعية في هذا الموضوع وجدها بين أوراق والده ولم تُنشر من قبل، والبحثُ مستفيض شاف، وقد نُشر مستقلاً في كتيب لطيف، ثم في مجموعة الفتاوى الإسلامية التي صدرت عن دار الإفتاء^(١).

لقد كان الشيخ نصيراً للحق مُبتغياً وجه ربه في كلّ ما قال وكتب، فكسب احترام المنصفين، وقُوبل مُنعاه بالأسف حين ارتحل إلى جوار ربه في ١٩ من رمضان سنة ١٤١٠ هـ الموافق ١٥ من إبريل سنة ١٩٩٠ م. . فإلى نعيم الله ورضوانه.

* * *

(١) الفتاوى الإسلامية: ١٤٩١/٤ - ١٥١٨، ط. أولى.

الشيخ حسونة النووي ودوره في الإصلاح الديني

- ١ -

مقدمة في إصلاح الامتحان :

يتحدث بعض الكاتبيين عن تاريخ الأزهر بما يتوهمون، لا بما يُحقّقون، ومن هؤلاء من تكلم عن الحقبة التاريخية القريبة في عهد إسماعيل، فزعم أنّ حلقات الأزهر التعليمية كانت فوضى، بحيث يستطيع كلّ طالب يُريد أن يكون شيخاً يزاوِل التدريس أن يجمع حوله عدّة طلاب يقرأ عليهم بعض الدروس، فإذا رضوا عنه كان أستاذاً وأخذ يتصدّر للشرح والتعليم! وهذا التصوّر غريبٌ في بابه، وقد أوحى به توهم متخيّلٌ لانطباع بعيد الصلة عن الحقيقة، لأنّ التصدي للتدريس في الأزهر كان من الصّعوبة بحيث أصبح قريباً من الاستحالة، وما شرع قانونُ الامتحان على يد العلامة الشيخ المهدي العباسي أولاً، ثم ما رُتب على هذا القانون حين وُضعت شروطه على يد العلامة الشيخ حسونة النووي ثانياً كما سأوضحه فيما بعد.

أقول ما شرع قانونُ الامتحان إلّا خلاصاً من رهق شديد كان يلحق من يجدُ في نفسه الكفاءة للتدريس بحيث لا يجتازُ العقبة إلّا بعد أهوال ثقال! فإذا اجتازها كان مطمح الأنظار، وموضع المباهاة! فأين ذلك من قول من قال: إنّ من يُريد التدريس يجمع حوله نفرّاً من الطلبة يُناقشونه ثم يُتوّج بعد ذلك عالماً ذا شأن!.

ولنُ أسوق الحديث خطابياً دونَ تدليل، بل أعرض لمشهدين من مشاهد التأهيل العلمي المعترف به في تاريخ العلم الديني في القديم والحديث، ليُدرك القارئ كيف كان طالب العلم يجتازُ عقبة الاعتراف بالتحصيل بعد استعداد مناضل، تتقاصرُ دونه

الأعناق الواهنة، وتعمل على الارتقاء إليه السواعد الناشطة، فإذا بلغته بعد الجهد الجاهد، والتضال الدائب حَمَدَت السرى عند الصباح، وتَلَقَّتْ عشرات التهاني على الفوز بالثمرة المشتهاة!

أما المشهد الأول فَمِنْ مشاهد العصر المملوكي في سنواته الأخيرة، حيثُ كانَ التطلع إلى المكانة العلمية مأرباً عزيز المنال، لأنَّ الاعتراف بهذه المكانة لا يكون بعد إلا نقاش علمي، يتزعمه عالمُ العلماء في عصره بعد أن يستمع إلى ما يقول القائل في تدريسه! ولا يدورُ النقاش في فراغ، بل في مسائل علمية تنتقل من قضايا الدرس المعروض إلى مسائل أخرى تتعلق بفنون أصيلة من علوم الأصول والفقه والتوحيد والمنطق والنحو والصرف والبيان، وكُتِبَ الأزهر في هذا المجال ذات بحر متسع، فالمسألة الواحدة تُقرَّر في كتاب، ثم يُوجد التعليقُ عليها في شرح مبسوط، ويأتي التعليقُ على الشرح في حاشية، ثم يجيءُ التعليقُ على الحاشية في تقرير، وقد تتعدَّد الشروح والحواشي والتعليقات والتقارير على كتاب واحد، ولدينا مثلاًن شهيران مثل: ألفية ابن مالك وما كُتِبَ حولها من آلاف الآلاف من الصفحات، ومثل متن التلخيص وما حفلت به شروحه من الإسهاب الممتد، الذي كان في بعض الأحيان يخرجُ به عن موضوعه، ولا يزالُ لدينا من كبار الشيوخ من يتتبعون هذه الفرائد في شتى مظانها المتشعبة، عن صَبْر صَبُور.

لقد أراد العالم الأشهر جلال الدين السيوطي في مطلع شبابه أن يُزاحم العلماء في حلبة العلم، فلم يجمع حوله الطلاب ليُلقي درساً ثم يصفقون كما تخيل من تخيل، ولكنه أتى البيوت من أبوابها المشروعة، فأخذ للأمر عُدته، وهياً للنقاش دَرساً علمياً في التفسير، وأعلن عنه ذوي الاختصاص، فانعقد المجلس العلمي برئاسة شيخ الإسلام علم الدين البلقيني، في مشهد جامع حَضَرَهُ أئمةُ الفقهاء والقضاة من ذوي الصيت العلمي، وكان موضوعُ الدرس الأصلي هو تفسير قول الله عز وجل:

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَبِئْسَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَهَدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَبَشِّرْكَ اللَّهُ تَبَشُّراً غَيْرِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح: ١ - ٣]؛ وقد بدأ السيوطي درسه بذكر المراجع العلمية التي اعتمد عليها فقال: إِنِّي طالعتُ الكشاف وتفسير الإمام الرازي وتفسير ابن العربي، وتفسير أبي حيان، وأسباب النزول للواحدي وتفسير

السَّجَّاوندي [وهذا ما لم أسمع به من قبل] وينبوع الحياة لابن ظفر، والصَّحاح للجوهري، ثم بدأ الدرس بمقدمة للشافعي في كتاب الرسالة، وحدد مناطق البحث فحصرها في الكلام على هذه الآية من جهات؛ الأولى: سبب النزول، الثانية: علم اللِّغة، الثالثة: علم الإعراب، والرابعة: علم المعاني، والخامسة: علم التفسير؛ وأخذ يُولي كل جهة ما تستحقه من البحث، ثم تلقى الأسئلة وأجاب عنها في مجلسٍ حاشد امتد ساعات متصلة، فأبان عن دراية شاملة فاحصة، واستحق أن يكون عالماً.

وأذكرُ بهذه المناسبة أن الإمام الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق، قد عثر على هذا الدرس النفيس مخطوطاً، فاهتم به، وجعله موضوعاً لدرسه بالأزهر يوم الجمعة، حين زار الأزهر عاهل السعودية جلالة الملك عبد العزيز بن سعود، وصلى الجمعة بالمسجد الجامع مع جلالة الملك فاروق الأول في مشهدٍ علمي مرموق، وقد فصلتُ ما تمَّ حينئذٍ في فصل وافٍ نشرته من قبل^(١)، فلا أطيل في حديثه، ولكني أختمه بالمقدمة البارة التي نقلها، السيوطي عن الشافعي في مقدمة حديثه، حيث روى عن إمام المذهب قوله: «الحمد لله الذي لا يُؤدِّي شكرُ نعمةٍ من نِعَمِهِ إلا بنعمةٍ منه، تُوجب على مؤدِّي ماضي نِعَمه بأدائها نعمةً حادثة يجبُ عليه شكره بها، ولا يبلغُ الواصفون كنه عظمته، فهو كما وصف نفسه، وفوق ما يصفه به خلقه».

وكلامُ الشافعي من الدقة والنفاسة بحيث يحتاج إلى تأمل دقيق، وبهذا الدرس جاز السيوطي الامتحان بعد مناقشاتٍ فاحصة في مسائل دقيقة من أخصّ مسائل العلم، مناقشة تصدّرها شيخ الإسلام في عصره (علم الدين البلقيني) واشترك فيها فقهاء الأمة وقضاؤها، وبها أصبح السيوطي عالماً رسمياً، يجوز أن يتصدر حلقات الدرس، وأن يدلي بأرائه عن ثقة واطمئنان.

وإذا كان درس العلامة السيوطي قد تمَّ في النصف الأخير من القرن التاسع الهجري، فإنه يُقدّم صورةً وافية لاختيار المدرّسين في حلقات العلم التابعة للأزهر، لأنّ درسَ الشيخ كان بجامع شيخون وهو يومئذٍ أحد الفروع الهامة للتعليم الديني،

(١) مجالس العلم في حرم المسجد، للدكتور محمد رجب البيومي، ص ١٨٣، ط. المؤسسة العربية الحديثة.

وكان التالي في الشهرة للجامع الأزهر، لأن كثيراً من العلماء كانوا يؤثرون التدريس به نظراً لهدوئه النسبي، إذ لا يزدحم الطلاب به ازدحاماً قد لا يكون مبعث الرضا من الأساتذة الكبار الذين ينشدون الهدوء في سَنَهم المتأخرة.

وقد ظلَّ امتحانُ المدرّس في الحلقة العامة بحضور أكابر العلماء، سنّاً متبعاً حتّى جاء الشيخ المهدي فأبدله بغيره .

وأعرضُ المشهد الثاني لمجلس الامتحان المنعقد للشيخ محمد أبي الفضل الجيزاوي شيخ الأزهر فيما بعد، إذ كتب بخطه ما يُشير إلى هذا المجلس الحاشد، وقد تمّ في القرن الثالث عشر الهجري وفي سنة ١٢٨٧ هـ بالتحديد، ولم يكن لدى الطالب التاهض حينئذٍ ميلٌ إلى التدريس في وجود أستاذة كبار بالأزهر أمثال الشيخ محمد عlish والشيخ إبراهيم السقا والشيخ الأنباي والشيخ شرف الدين المرصفي، وكلّهم من ذوي المقام الأعلى في الشرح والتوضيح، ثم إنهم سيحضرون مجلس النقاش الأول للطالب حين يلقي درس الامتحان، وطريقة الدرس أن يكون الأساتذة سامعين لما يقال، والطالب الممتحن يشرح ما أعده، وكلُّ أستاذٍ يسأل عما بدا له، حيث يسأل عن أيّ علم تُوحى به مناسبة ما، فقد يكون الدرسُ في التفسير . . . والسؤال في المنطق أو علم الأصول الأذني مناسبة، يقول الأستاذ الشيخ أبو الفضل بعد أن ذكر جهده الشاق في التحصيل العلمي والإعداد لهذا المجلس الحاسم^(١):

«وقد داومتُ على الاشتغال بالعلم مطالعةً وحضوراً حتّى سنة ١٢٨٧ هـ، فأمرني الشيخ الأنباي - وهو أحدُ أستاذته الكبار - بالتدريس، فاعتذرتُ، فألحَّ عليّ فامتلئتُ لأمره، واستأذنتُ شيخنا الشيخ عlish، وشيخنا الشيخ السقا، فجمعتُ رسالةً في (البسمة) وحديثها المشهور . . . وقرأت تلك الرسالة من حفظي في ثلاث ليالٍ بحضور جَمع من أكابر العلماء من مشايخي وغيرهم، وجميع الطلبة الذين كانوا يحضرون معي، وكان ذلك في أواخر أيام شيخنا المرحوم الشيخ مصطفى العروس شيخ الأزهر إذ ذاك . . . وقد كان العمل في تدريس المدرّس جارياً على ما تقدّم من الاستئذان، وحضور أكابر العلماء في أول درسٍ يقرأه من يريد التدريس حتّى زمن المرحوم العلامة الشيخ المهدي» .

(١) مشيخة الأزهر، للأستاذ علي عبد العظيم: ٤/٢ .

فماذا يأخذُ القارئ من هذا القول؟! يأخذُ منه أنَّ الطالب المستعدَّ للامتحان، قدَّم بحثاً عن البسملة جَمَعَ فيه كلَّ ما يتعلق بها من شتى العلوم سريعةً ولغةً. ثم ظلَّ في درسه الامتحاني يقرأ الرسالة من حفظه في ثلاث ليالٍ، إذ امتدت المناقشة إلى حيزٍ لم يُنحَ للمجلس الواحد أن يشملَه؛ بل ظلَّت حلقةُ النقاش مستمرةً في ليالٍ ثلاث!! استحقَّ بعدها الطالب أن يكونَ مدرساً للطلاب! فليت شعري أين قيمة ما يُقال من أن كلَّ من يحبُّ التدريس يجمع الطلاب فإذا أثنوا عليه كان مدرساً! وإذا كان الأمر كذلك فَلِمَ تلكا الشيخ الجيزاوي وتأبى حذراً من هول العاقبة حتى اضطرَّه أستاذه الشيخ الأنباري؟!

أما كيف تبدَّل هذا النظامُ بنظام آخر قامَ على تنفيذهِ الشيخ المهدي أولاً، ثم الشيخ حسونة النووي ثانياً، فذلك لملاسات قويَّة استدعت نظاماً أدقَّ وأحكم، فقد رأى شيخ الأزهر الأستاذ محمد العباسي المهدي أن أكثرَ من يلجؤون إلى الأزهر من الطلاب، لا ينتسبون إليه لطلب العلم، ولكنهم يرونه باباً للارتزاق بما يُصرف للطلاب من جريات^(١) دائمة، وفيهم من يبلغ الستين من العمر ثم لا يظهر عليه أدنى استعدادٍ للمعرفة، وفريق آخر انتسب للأزهر فراراً من خدمة الجيش فحسب.

وهذا كله في رأي الشيخ المصلح يستدعي العلاجَ بقانونٍ يفرق بين العالم والجاهل، والتمهني للدرس عن اقتناع، والمنتسب عن كسل وخمول، فاستصدرَ قانوناً خاصاً بالامتحان والتدريس يحدد أولاً سمات أعضاء اللجنة العلمية المختارة من كبار العلماء بتوجيه شيخ الأزهر، ويحدّد ثانياً العلوم التي يجب أن يُمتحن فيها الطالب، بحيث لا تكون الأسئلة في أي علم كيفما اتفق، بل تنحصرُ في أحد عشر علماً، هي: الفقه والأصول والتوحيد والحديث والتفسير والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق؛ كما يحدّد الدرجات العلمية التي يستحقُّها الطالب، فينالُ العالمية من الدرجة الأولى أو الثانية أو الثالثة! وقد ارتضى هذا القانون أكثر التابعين للتيارات العلمية المستحدثة في العصر الأخير.

ولكن نقرأ من المتشددین بزعامة الشيخ عlish قد ثاروا على القانون وأرجفوا به، والشيخ المهدي ثابتٌ في موقفه، يُنفذ ما ارتآه في صرامةٍ وجد، وقد جاء الشيخ

(١) الأزهر: تاريخه وتطوره، ص ٢٤٦، لفريق من الباحثين.

الأنبائي من بعده فلم يستطع أن يبدل أو يحذف استجابةً للفريق المتشدد، على حين أكثرِ الصحف من الحديث عن علوم جديدة يجب أن تضاف إلى المواد الأزهرية، وكان صوتُ الأستاذ الإمام محمد عبده أقوى الأصوات في هذا الاتجاه، ولكنَّ الشيخ الأنبائي لم يُصغِ إليه حتى يئس الأستاذ الإمام، ووَجِدَ الحلَّ في أن يُعيِّن للأزهر وكيلٌ يندفع لمتابعة الإصلاح عن رغبة صادقة، فيكونُ ساعداً للحركة الإصلاحية، وقد تحقق المسمى فعَيَّن الشيخ حسونة النوي وكيلًا للأزهر، وكلَّه رغبةً في النهوض بهذا المعهد العريق، فماذا كان؟!

لقد كتبتُ هذه المقدمة الطويلة نسبياً بصدد الحديث عن الشيخ حسونة النوي ليعلم الدارسُ طبيعةَ الجو العلمي للإصلاح الديني بالأزهر، وكيف استطاع الوكيلُ الناهض أن يجمع النفوسَ حولَ ما يُريد من العمل الجاد، ولا يَعْرِفُ مقدار ما كابد في هذا المجال غيرُ من يقدِّر موقفه من أساتذته الكبار بالأزهر، إذ كانَ شيوخُه لا يزالون محتفظين بتأثيرهم القوي بين الطلاب، بل ما يزالون يُذيعون أن العلوم الحديثة كالْحساب والجبر والهندسة والصحة والجغرافيا والتاريخ وسيلةٌ لمزاحمة العلوم الأزهرية، وستعودُ عليها بالنقص الشديد، ولا أدري هل كان الذين يُعالنون الناس بذلك يصدرُون عن اعتقادٍ جازم، أو أنه إلف القديم وحده، قد حَدَّاهم للتكرار لكلِّ جديد يتاح؟!

لم يكن الشيخ حسونة وهو وكيلُ الأزهر ذا قدرةٍ رسمية على تغيير اللوائح المانعة من التقدُّم العلمي، لأن شيخ الأزهر وفريقاً من مؤيديه كانوا على غير رأيه في الإصلاح، أمَّا الشيخ حسونة فقد كانَ على اتفاق تام مع الأستاذ الشيخ محمد عبده فيما قدَّمه من اقتراحات للنهوض بالإصلاح الديني، وهذا ما عبَّر عنه صاحب (الإسلام والتجديد في مصر) إذ يقول^(١):

«وكانَ الشيخ حسونة النوي (١٨٤٠ - ١٩٢٥م) من أقرب مريدي الشيخ محمد عبده، وأخلص أوليائه، كان شيخاً للأزهر من سنة ١٨٩٥م إلى سنة ١٨٩٩م، وتقلد منصب الإفتاء مع مشيخة الأزهر في العامين الأخيرين من عهده فأعان الشيخ محمد عبده على إنفاذ ما يمكن تحقيقه من الإصلاحات».

(١) الإسلام والتجديد في مصر، تأليف تشارلز آدمس، وترجمة الأستاذ عباس محمود، ص ١٩٩.

وأهمُّ مظهر لهذه الإعانة التي أشار إليها المؤلف هو صدور قانون سنة ١٨٩٦م الخاص بمواد الإصلاح المنشود، وهو مكون من ستة أبواب تضم اثنين وستين مادةً إصلاحية، نرى أهمها ما يأتي:

تنظيم الامتحانات بأن تكونَ على مرحلتين: الأولى: يُؤدِّي الطلبة فيها الامتحان بعد ثماني سنوات على الأقل في علوم الدين واللغة، وتتكون لجنة الامتحان من ثلاثة من العلماء برياسة شيخ الأزهر، والناجحون في هذا الامتحان إما أن يكملوا دراساتهم بالأزهر في المرحلة التالية، وإما أن يتمَّ تعيينهم في وظائف الإمامة والخطابة والوعظ بالمساجد، والمرحلة الثانية تنتهي بامتحان العالمية لمن أمضى اثنتي عشرة سنة (بعد الفترة الأولى بأربع سنوات) على أن يكونَ قد تلقَّى العلوم الآتية: علم الكلام، والأخلاق الدينية، الفقه، أصول الفقه، تفسير القرآن الكريم، الحديث الشريف، النحو، الصرف، المعاني، البيان، البديع، المنطق، مصطلح الحديث، الحساب، الجبر، العروض، القافية؛ وتؤلف لجنة الامتحان من ستة من أكابر المدرسين، وتقدير الطالب يتمَّ على أساس الدرجة الأولى، والدرجة الثانية، والدرجة الثالثة.

ثم رأى الشيخ باقتراح الإمام أن تُضَافَ إلى مواد الامتحان مواد الجغرافيا والتاريخ والإنشاء مع العلوم الرياضية المشار إليها في القانون، وقد انتدب لها أكفأ الأساتذة من المدارس الحكومية، كما نصَّ القانون على منع قراءة الحواشي والتقارير منعاً باتاً في السنوات الأربع الأولى لأنها تصدم الطالب بما لا يعلم من تفرعات تضعه موضع اليأس، ولئس الأمر وفقاً على الحواشي والتقارير، بل إنَّ الشروح نفسها التي كتبت عليها الحواشي طالما صدمت المبتدئ بما لا يطيق؛ وأذكرُ أن شرح الأجرومية للكفراوي قد ظلَّ يدرس لطلاب السنة الأولى الابتدائية بالأزهر إلى منتصف الثلاثينيات، وهو شرحٌ يبتدئ بذكر الخلاف في إعراب البسملة، ونصب كلمة الرحمن ورفعها وجرحها مع تأويل ذلك على حين لا يعرف الطالب أصلاً كيف يفرق بين الاسم والفعل والحرف، ثم يفاجأ بمثل هذا التبسط.

لقد كان القانون الجديد فاتحة خير على طلاب الأزهر، لا لأنه جمع كلَّ ما كان يُرجى من الإصلاح، بل لأنه فتح الطريق للإصلاح، وقد أعقبته ضجة في الجرائد اليومية ما بين مؤيد ومعارض! ومن الآف للفظ أن شباب الأزهر جميعاً كانوا في

طليلة المؤيدين ، وقد كتبوا عنه بما يدل على الإعجاب التام ، أما بعض الشيوخ فظلموا يتساءلون عن فائدة العلوم التي تقوم المدارس الحكومية بتدريسها ، ثم رأى القانون إضافتها لمواد الأزهر! وهو تساؤل أجاب عنه المؤيدون بما أحمده كل اعتراض ، فقد انجلى الحق بعد التمهيص .

- ٢ -

تحدثت عن جهاد الشيخ حسونة النوي في إصلاح التعليم الأزهرى بمؤازرة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وتعضيده إياه ، لأنني أرى من الحتم أن يُذكر لكل عامل جهده الحقيقي في سبيل التقدم الفكري ، ناعياً على الذين يكتفون ببعض عن بعض ، وكان عليّ أن أذكر خلاصةً وافيةً لحياته التعليمية والعلمية منذ اتجه إلى الأزهر الشريف ، والحق أن الأستاذ الكبير أحمد تيمور باشا قد قام بواجب محبب إلى النفوس هو تراجعُ بعض الفضلاء ممن أدركهم في زمانه ، أو سمع عنهم في محيطه ، فحفظ لنا ما يضمنُ الذكر الجميل لهؤلاء العاملين ، وكان مما كتبه عن العلماء صفحاتٍ لامعة تتحدث عن جهودِ شيوخ العلم وفي طليعتهم الشيخ محمد المهدي العباسي والشيخ حسن الطويل والشيخ محمد بن محمود الشنقيطي والشيخ حسونة النوي ؛ وقد رأيت جُلَّ من تحدث عن هؤلاء الكرام قد رجع إلى ما قاله أحمد تيمور إذ وجد لديه ما يفتقده ، وقد قال تيمور في مطلع حديثه عن الشيخ حسونة النوي^(١) :

«هو حسونة بن عبد الله ، أصله من نواي ، تابعة لملوى من أعمال أسيوط ، ولد سنة ١٢٥٥ هـ ، ولما ترعرع حَضَرَ إلى الأزهر ، وتلقَّى به العلم على شيوخ وقته ، وكان حضوره الفقه الحنفي على الشيخ عبد الرحمن البحراوي ، والمعقول على الشيخ محمد الأنباري ، والشيخ محمد بن خليل الأسيوطي ، ثم درَّسَ به ، وأُحيل عليه تدريس الفقه بمدرسة دار العلوم ، ومدرسة الإدارة التي سميت فيما بعد . بمدرسة الحقوق ، ودرس آخر بمسجد محمد علي بالقلعة ، فكانَ له من مجموع هذه الدروس ما حَسَنَ به حاله ، وألف أثناء ذلك كتابه (سَلَمُ المسترشدين) في الفقه الحنفي لتلاميذ مدرسة الإدارة ، ونالَ في شهر شعبان سنة ١٣٠٢ هـ كسوة التشريفة من الدرجة الثانية» .

(١) أعلام القرن الثالث عشر ، لتيمور ، ص ١٢٨ .

هذا ما قاله المؤرخ الجليل في مطلع حديثه عن الشيخ، حيث مضى بعد ذلك في سرد مواقف علمية، وأخرى خُلِقَتْ ذات أثر مشهود، سأسير إليها فيما بعد، ولكننا نعلّق على أمرين ذُكِرَا في هذه المقدمة، أما أولُهما ففيما به بتدريس الفقه في مسجد محمد علي بالقلعة، لأنّ مؤرّخي الحركة العلمية في القرن الماضي ومنتصف هذا القرن قد أغفلوا دور المساجد الكبيرة في انتشار التدريس الديني بالبلاد، إذ نقرأ فقرات كثيرة تدل على أنّ مساجد الحسين والسيدة زينب والسلطان الحنفي ومحمد أبي الذهب ومحمد علي بالقلعة وأحمد بن طولون، وشيخون وغيرها كانت فروعاً للأزهر تُلقَى بها الدروس المنتظمة، ويحضرها عشرات الطلاب منتظمين، ولها أساتذتها المتخصصون، وقد كان الشيخ محمد إبراهيم السمالوطي لعهد قريب مُختصّاً بتدريس الحديث في مسجد السيدة زينب، وكان الشيخ محمد بخيت مختصّاً بتدريس الفقه في مسجد الإمام الحسين، وكان الشيخ عبد الله دراز يجمعُ حلقةً علمية كبيرة في مسجد أبي الذهب، وها هو ذا الشيخ حسونة النووي يقرأ الفقه في مسجد محمد علي بالقلعة. فلماذا لا يُكتب التاريخ العلمي لهذه المساجد وما شابهها في عواصم القطر المصري باعتبارها فروعاً للأزهر الشريف، ولماذا يُحجّم دور الأزهر العلمي في مسجده وحده!

إنّ الذين يكتبون الآن تاريخ المساجد بمصر يتحدثون عن العمار الهندسي وكأنه كل شيء! هذه ناحية، أما الناحية الثانية فإشارة المؤرخ الكبير إلى كتاب الشيخ حسونة النووي وهو (هداية المسترشدين) حيث أُلّف في جزئين كبيرين لطلاب مدرسة الإدارة التي عُرفت فيما بعد بمدرسة الحقوق، وقد قال عنه صاحب مرآة العصر^(١): إنه جمّع الأصول الشرعية مع الدقائق الفقهية ببيانٍ شافٍ، وإيضاح وافٍ، مما لا يجمعه غيره. وقد اقتنّت المدارسُ الأميرية هذا الكتاب وعلمته لتلاميذها.

وإذن فالشيخ حسونة النووي أوّل من أُلّف في هذا العصر كُتِبَ الفقه الإسلامي على النظام الحديث بعيداً عن منهج المتون والحواشي؛ فقد كان رائداً لمن جاء بعده من أساتذة كلية الحقوق (التي كانت تسمى مدرسة الإدارة فيما قبل) فتقدّم كوكبة من كبار الفقهاء المشهود لهم بالتأليف الفقهي في هذه الكلية، وفي طليعتهم الأساتذة

(١) نقلاً عن الجزء الأول من كتاب (مشيخة الأزهر) ص ٢٨٤.

الكبار محمد زيد الأنباري وأحمد إبراهيم وعبد الوهاب خلاف ومحمد أبي زهرة وغيرهم؛ ممّن انتشرت مؤلفاتهم الفقهية في نمطها المعاصر، ومن الواجب لمن يُؤرّخ لهذه النهضة الفقهية المباركة أن يحفظ للشيخ حسونة النووي ريادته الأولى في هذا المجال! مجال التدريس الفقهي لطلبة كلية الحقوق.

وفي الحقبة التي ألّف فيها الشيخ حسونة النووي كتابه (هداية المسترشدين)، كان له زميل آخر يشاركه هذا الفضل هو المغفور له محمد قدري باشا، إذ درّس بالأزهر قبل أن يلتحق بمدرسة الألسن، فاتجه ميّله^(١) إلى دراسة علوم الفقه ومقارنة الشريعة الإسلامية بالقوانين الأوروبية، ولكنه صاغ مؤلفاته النافعة في موادّ متسلسلة على النظام الأوروبي في كتب القوانين، وظهر له كتابان جليلان قرّرا على طلبة مدرسة الإدارة هما: (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) في المعاملات المدنية الشرعية، و(الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية) وقد ظلّ هذان الكتابان المرجع الأوفى لقضاة المحاكم الأهلية الذين لم يألفوا كتب الفقه في أسلوبها الدقيق، فكان الفارق بين منحى قدري باشا ومنحى الشيخ حسونة، أن قدري باشا قد التزم الأسلوب الأوروبي في صياغة المواد القانونية، وهو في رأي أول من أطلق اصطلاح (الأحوال الشخصية) على مسائل الأسرة والموارث، وهو إطلاق شاع، وأصبح معترفاً به بين المشرعين ومن يضعون القوانين الخاصة بالأسرة والموارث.

ولكنّ النظر الثاقب يُرينا أن أحكام الزواج والطلاق والميراث ليست أحوالاً شخصية، ولكنها تمسّ الناس جميعاً كأحوال البيع والربا والرهن والشفعة والمزارعة وغيرها، فلم نجعلها أحوالاً شخصية فحسب! بل نحاول أن نلقي انطباعاً بانحصار الفقه الإسلامي فيها، مع أنه يشمل كل مرافق الحياة.

وقد أشارَ صاحب كتاب (كنز الجواهر في تاريخ الأزهر) في ترجمته الموجزة للشيخ حسونة إلى إنشائه (الكتبخانة العمومية الأزهرية)^(٢) وهي إشارةٌ مجملّة تحتاج إلى بسطٍ لأهمية خطرهما، فإذا كان علي مبارك باشا قد قامَ مشكوراً بإنشاء دار الكتب المصرية، وجمّع بها الكتب المتفرقة من سائر أصقاع الدولة المصرية، فإن جهد الشيخ حسونة في إنشاء مكتبة الأزهر معَ ضالّة إمكانياته، جهد عظيم بالنسبة

(١) عصر إسماعيل، للرافعي: ٢٨٣/١.

(٢) كنز الجواهر، ص ١٥٦، تأليف الشيخ سلمان الحنفي.

إلى إمكانات رجلٍ خطير يجمع في يده أموراً عدةً لوزاراتٍ مختلفة، وهو الجهد الذي دفع الرجل بمؤازرة الإمام محمد عبده إلى جمع الكتب الأزهرية وغير الأزهرية من شتى الأزوقة المختلفة بالأزهر ومن المساجد المنتشرة بالقاهرة كجامع الفاكهاني وجامع العيني وجامع شيخون، إذ تزاحمت الملازم والأسفار بها على نسق مختلط مشوش تحدّث عنه الأستاذ عبد الكريم سليمان فقال^(١):

«كان في الأزهر خزائن كتب، وضعت في بعض الأزوقة والحدارات والمساجد، ونيط حفظها بأشخاص يُقال لهم (المغَيَّرُون) فتصرّفوا فيها تصرفاً سيئاً صحّ معه إطلاق اسم المغَيَّرين عليهم، لأنهم غيروا وضعها وشتّوا جمعها، ومزّقوا جلودها، وتركوا ما لا غاية لهم به منها في التراب يأكله العث، غير ما تصرفوا فيه تصرّف الملاك فأصبحوا يبيعونه بالثمن البخس - على نفاسته -».

هذا الوضع السيئ دَفَعَ الأستاذ الإمام إلى فكرة إنشاء المكتبة، وتقدّم باقتراح إلى مجلس إدارة الأزهر، فكان الشيخ حسونة أول مننّذ للاقتراح، حيث أسرع باختيار مكانٍ مناسب للمكتبة، وكتب لديوان الأوقاف الذي يتولّى الإشراف على شؤون الأزهر كي يقوم بالتنفيذ، محذراً من أن يقف في سبيل نجاح هذه الفكرة، لأن كثيراً من القائمين على إدارة الأزوقة كرواق الأتراك ورواق المغاربة ورواق الصعايدة، قد امتنعوا عن تسليم ما لديهم، وألقوا طوائف للمعارضة، فلما لم ينجحوا أمام تصميم الشيخ حسونة، أخذوا يضعون العراقيل.

وقد جيءَ بهذا الكتب من زكائب محشوة بالأوراق يفرغونها تلالاً كما تُفرغ زكائب القمح دون مبالاة، وقلّ أن يوجد بها كتاب مستقل بصفحاته، فبذل القائمون على إعداد المكتبة العامة جهداً في جمع الكتب، وضمّ الأوراق حتى تعود إلى حيّزها المستقل ما أمكن، ودام العمل شهوراً عدة، انتقلوا بعده إلى تصنيف الكتاب إلى فنون علمية، فكُتِبَ للنحو، وكُتِبَ للفقّه، وكتب للتفسير، وهكذا؛ ثم بدأ الشيخ حسونة بعمل رائد ليقنّدي به العلماء وذوو الوجاهة، فتبرع بمكتبته الخاصة لمكتبة الأزهر، وحذا حذوه سليمان أباطة باشا حيث اشترط على الشيخ حسونة أن توضع مكتبته الحافلة في مكان خاص، داخل خزائن خاصة، وأخذت هدايا المتبرعين تتوالى، ومنها مكتبات حلّيم باشا والشيخ الإنبائي والشيخ العروسي

(١) الأزهر، تاريخه ونظوره، ص ٣٨٦.

والشيخ البولاقى ، كما أخذ أكثر العلماء يكتبون وصاياهم بضمّ مكباتهم الخاصة بعد رحيلهم إلى مكتبة الأزهر ، وما منعهم من إلحاقها الفورى في حياتهم إلى المكتبة إلا اضطرارهم إلى الرجوع إليها في منازلهم ، وعدم قدرتهم الصحّة على الانتقال إلى المكان الرسمي ، ومن أظهر هذه المكبات مكتبة الشيخ محمد عبده والشيخ محمد بخيت المطيعي والشيخ عبد القادر الرفاعي وإبراهيم بك خنطي ، وحليم آغا ؛ ولعلّ الإشارة إلى هذه الهدايا تكون دافعاً اليوم لأولي العلم كي يهدوا مكباتهم إلى المعاهد العلمية لينتفع بها الطلاب فتكون من الأجر الذي لا ينقطع ثوابه بعد الوفاء كما جاء في الأثر الشريف .

ومن أبرز صفحات الجهاد في حياة الشيخ حسونة النوي مواقفّه الثابتة في وجه الباطل ، إذ تعرّض لتيارات عنيفة تُحاول دفعه إلى المهادنة ضياعاً لبعض الحقوق المشروعة ، وبُذلت له الأمانى المعسولة كي يغمض العين عما يُراد . ولكنه كان حلقة من حلقات السلسلة الذهبية الغالية التي أشرّبت الدفاع عن الحق منذ ظهر الإسلام بنوره ، وكلّ رجالها من أعلام الدين في أعصارهم ، وقد وفقني الله فكتبت مؤلفاً تحت عنوان (علماء في وجه الطغيان) تحدثت فيه عن بطولة هؤلاء الأعلام ، وفي كلّ يوم أطلع من أخبار نظرائهم الأمثال ما جعلني أحسّ شوقاً إلى متابعة البحث في هذا المضمار .

وممن فاتني الحديث عنهم الشيخ حسونة النوي وأستاذه الشيخ محمد العباسي المهدي ، وكلاهما تسنّم ذروة القيادة في الأزهر لعلمه وفضله معاً ، وقد تعلّم الشيخ حسونة على يد الشيخ العباسي فاقبَسَ منه عظمة السلوك كما اقتبس منه سائغ العلم ، فهو بذلك قُدوته الأمثل ، ومن فضل الأستاذ أحمد تيمور أنه تحدث عن هذه الناحية الفذة لدى الشيخين بما رفع به رؤوس العلماء جميعاً ، فمما قاله عن شيخ الأزهر الأستاذ محمد العباسي المهدي أنه الرجل الأوحّد الذي وقف بجانب الحق أمام عباس باشا الأول ، وكان من الرهبة الباطشة بحيث يحذره الحاذرون ، فقد عنّ له أن يحرم ذرية محمد علي من ميراثها الشرعي ، لأن كلّ ما خلفه يجب أن يكون تحت يده وحده فهو أمين الأمة وراعياها ، وطلب من المهدي أن يصدر فتوى بذلك فأحجم ممتنعاً ، وأصرّ على الامتناع غير حافل بوعيده ، وقد أمر به حين ضاق ذرعاً بتأبيه أن يرحل في سفينة بخارية إلى (أبو قير) حتى يصدر أمره فيه ، وسافر الشيخ مكرهاً وهو

ينتظر أفدح الأخطار، وكأنّ الوالي - حين حاسب نفسه في خلوته - رأى الشيخ رجل دين لا يهتم بمنصب، ثم إنه ليس بذئ صلة قريبة أو بعيدة بمن وقّف معهم ذائداً عن حقوقهم... فأمر بإرجاعه دون تنكيل.

هذا الموقف وأشباهه من مواقف الشيخ العباسي المهدي قد شاع بين الناس، وعرفه تلميذه الشيخ حسونة، فأمدّه بروح مؤمنة يثبت بها الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا والآخرة؛ ومن مواقفه في ذلك أن الوزارة شاءت أن تجعل للمحاكم الشرعية محكمة استئناف عليا كالمحاكم الأهلية، وصدر الأمر سنة ١٨٩٨م بتشكيل محكمة استئنافية تُؤلّف من قاضي مصر، بصفته رئيساً، ومن مفتي نظارة الحقانية، وثلاثة أعضاء يُعيّنون بناء على طلب ناظر الحقانية وبينهما اثنان من مستشاري محكمة الاستئناف الأهلية، فلم يقبل الشيخ حسونة أن يكون مستشاراً المحكمة الأهلية عضوين في هيئة المحكمة الشرعية، وأيده في ذلك قاضي مصر التركي [حينئذ] ولم يعبأ ناظر الحقانية بمعارضة الشيخين، فأعدّ عدة تقارير تؤيد وجهة نظره كتبها بطرس غالي باشا ناظر الخارجية حينئذ والمستشار القضائي للدولة طالباً سرعة إنفاذ المشروع، وكان الخديوي مع الحكومة في اتجاهها، فدعا الشيخين للقائه بالإسكندرية في مصيفه الخاص، وقابلهما بالترحاب مظهراً دلائل التقدير والمودة، ثم تعرّض لموضوع قاضي المحكمة الأهلية، وضرورة وجودهما في المحكمة الشرعية، ورفض القاضي دون أن يتكلّم عن سبب الرفض.

أما الشيخ حسونة فقد واجه الخديوي بقوله: إن المحكمة الشرعية قائمة مقام المفتي الديني، وشرط تولية المفتي مفقود في قضاة الاستئناف، ثم قال للخديوي في صراحة: إن القاضي مُعيّن من الخليفة لا من الخديوي، وإذنه حينئذ هو المطلوب لا إذن الخديوي، وكانت لهجة قاسية لم يتحملها الخديوي فأمر بانقضاء المجلس على حالة من الغيظ، ثم أصدر أمره بعد أيام بعزل الشيخ حسونة من الإفتاء ومشيخة الأزهر معاً. وكانا تحت يده - يقول الأستاذ أحمد تيمور بصدد ذلك:

«ولما أشيع الأمر كثرت وفود العلماء والوجهاء على دار المترجم، وانطلقت الألسنة بمدحه، والثناء عليه، وتعلقت به القلوب، وأقبل الناس عليه أيما إقبال»^(١).

(١) المصدر السابق، أعلام القرن الثالث عشر، ص ١٣٨.

هذا موقفٌ . . أما الموقف الآخر، فموقفُ الشيخ حين انتشر وباء الكوليرا بالقطر المصري، ورأت النظارة أن تُبطل الحجَّ هذا العام بدعوى الخوف من عودة الوباء بعد انتهائه، وأرادت فتوى الشيخ بجواز هذا الإبطال، وفَهَمَ المفتي أن فتح باب الإبطال لأول مرة في تاريخ مصر، قد يكونُ مدعاةً لتكراره فيما بعد لأية علة من العلل المحتملة، فرفضَ الفتوى بإيقاف الحج، وكانَ ذلكَ بمشهد من أعضاء مجلس شورى القوانين، والشيخ عضوٌ به، وطال النقاش، فردَّ الشيخ على المعارض بأقْسَى من عبارته، وانسحب خارج الجلسة دون أن يستمر في نقاش المتصدر للموضوع، ومال أعضاء المجلس لرأي الشيخ فأبطلوا قرار النظارة، ولم يوافقوا عليه، ولم تستطع الجرائد الموالية للحكومة أن تُعارض رأي الشيخ الديني، ولكنها أخذت تلومه على قسوته في الرد على الناظر، وهو وزير مسؤول، ويعتبر انسحابه من المجلس إهانة للمجلس جميعه، وهو نقد مغرض يتجاهل موضوع البحث.

أما رمي الشيخ بالغطرسة والكبر فغير مقبول؛ لأنَّ لكلَّ من الناظر وشيخ الأزهر مكانه الذي يعلمه الناس عن يقين، وقد يكون الكبرُ محموداً على المتكبرين لأنه حينئذٍ دَرَّةٌ للقوة بقوة مماثلة، أما الكبرُ على المعتدلين فمما يذم، وقد قال الشاعر في مثل هذا الحادث:

قالوا به كبرٌ فقلت تأدبوا ما الكبرياء على الكبير بعار
هو عزةٌ قد زانها بترفع ونزاهةٌ قد حفها بوقار

وقد ظل الشيخ بعد اعتزاله مناصب الأزهر والفتوى قائماً بجهدِه في مجلس شورى القوانين، وفي الجمعية التشريعية حتى انتهى أمرها بأفاعيل السياسة، فلزم بيته ذاكرًا مذكرًا، وناصحًا موجهًا حتى انتقل إلى جوار ربهِ في ٢٤ / من شوال سنة ١٣٤٣ هـ. فودعته الأمة بما هو جدير به من الحب والإكبار، في يوم مشهود تناقلت الصحف صورهُ، والألسنة أنباءه في ترخُّم ودعاء.

* * *

خليل الخالدي

الرحالة المنقّب عن ذخائر التراث

في صِغَرِي الباكر رأيت شيخاً مهيباً يأتلق وجهه بالنور، يزور القرية في فترات متباعدة، فحين يُشرق عليها بسيماء المتلألئ يتدافع الناس إلى تقبيل راحته، ويؤم بهم ساحة المسجد حيث تُقام الصلاة في خشوع ثم يجلس مجلس المهابة، لا ليلقي درساً دينياً كعادة أصحاب الفضيلة الوعاظ، بل ليستمع إلى الأسئلة الدينية، ويُجيب عليها في تؤدة، والناس حوله في خشوع، وحين كبرت وشببت عن الطوق، عرفت أن الأسئلة تدور في مسائل الميراث والطلاق كثيراً، إذ تتعدد أحياناً وجوه الفتوى في الريف عن هذين الموضوعين، وينتظرُ الناس قدوم الشيخ، إذ القول ما قالت حزام.

لا أدري كيف تصوّرتُ الشيخ خليل الخالدي على ضوء ما كتبه الدكتور عبد الوهاب عزام في مقالاته الممتعة في مجلة الرسالة في صورة شيخ القرية ذي المهابة! مع الفارق البعيد طبعاً في جوهر ما يدور من الأحاديث.

تصورت المهابة التي تغشى المستمعين والسائلين، والإفاضة الشافية في الجواب، وحُسن الاستماع إلى القول دون معارضة! وهكذا يُلقي الله الخشية على نفرٍ من عباده يخشاهم الناس خشية الحب والإجلال لا خشية القهر والإذلال، فهم موضع الحظوة والارتياح إذا شُهدوا، ثم موضع الذكرى العاطرة إذا غابوا، وكل شيء يذهب غير الذكر الجميل..

كنت نشرتُ في مجلة المنهل الغراء (رجب ١٤١٨هـ) مقالاً عن الإمام محمد زاهد الكوثري رويت فيه ما حدّثني به أستاذي الكبير الشيخ محمد الطنطاوي عن الشيخ الجليل خليل الخالدي حين قرّنه بالكوثري في الإلمام بنفائس التراث، فذكر مع الذاكرين في مجلسه طرفاً من حديثه يشير إلى أنه أحد الوجهاء الكبار ممّن تولوا المناصب الكبيرة في شتى بلاد الإسلام على عهد الخلافة العثمانية، وقد برز تضلّعه

الركين في معرفة المخطوطات العربية في شتى فروع الثقافة الإسلامية، إذ زار أكثر العواصم الإسلامية - والأوروبية أيضاً - ليقراً ما تضمنته المكتبات الشهيرة من المخطوطات، وله خبرة تامة بخطوط العلماء، ومعرفة دقيقة بأحوالهم المعيشية، ومذاهبهم الفقهية، حتى صار المرجع الأول في ذلك لدى كثير من الدارسين.

قلتُ ذلك في العدد المشار إليه، ولم أَلْبَثْ أن تلقيتُ خطاباً مُشجّعاً من أحد ذوي الفضل، يدعوني إلى كتابة بحثٍ شافٍ عن الرجل، إذ لا تكفي هذه اللمحة الطائرة، وأشهد لقد كنتُ أطاول الأيام في الحديث عنه حتى يتسنى من المعرفة ما أطلعُ به القراء، ولكن خطاب الأستاذ جعلني أتساءل، إلى متى؟

وإذا لم أحظُ خبراً بآثاره جميعها فبعضٌ يغني عن بعض!

قرأتُ ترجمتين عن الشيخ، كتب إحداهما الأستاذ العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه الشهير (العلماء العزّاب الذين آثروا العلم على الزواج) وكتب الأخرى الأستاذ الكريم يعقوب عويدات في موسوعته عن رجال فلسطين، وكلتاها شافيةٌ وافية، ولكنّ بهما من الاختلاف ما سأعرض إلى بيانه، وكشف اللبس عن بعض ما حاق به، والحق أن العلامة أبا غدة ليس بمسؤول وحده عما أتى به عن الشيخ، لأنّه رجع إلى كتاب (رياض الجنة) الذي ألفه الشيخ المحدث عبد الحفيظ الفاسي، فالعهدة على الراوي إذن، وقد قال الشيخ الفاسي ما خلاصته: إن الشيخ خليل دَخَلَ أكثر مكاتب الشرق وأحاط علماً بأسماء كتبها، وبما فيها من النفائس والذخائر، واعتنى باقتناء الكُتُب القديمة بخطوط الأئمة، فحصلَ منها على شيء كثير، وقد كان شريفَ الناس، فما تعلّق بذوي الأمر، وما حرص على التقرب منهم، بل كان همّه في كلّ بلدٍ يحلّ به أن يلقي كبار علمائه، وأن يناقشهم الحديث. أقول:

وهذا حقٌّ لأن أستاذتنا الذين سعدوا بلقائه في القاهرة ذكروا أنّه كان يقطع أكثر وقته في زيارة دار الكتب المصرية، ومعه أوراقٌ كثيرة وأقلام، حيث يقضي يومه الأطول، قارئاً وملخصاً، وقد يجد الخطأ في بعض ما يقرأ، فينقلُ النصّ المشتبه فيه، ويكتب عليه بما يوضح صوابه، وكان من عادته أن يُصحح الخطأ في الكتاب الأصلي إذا كان مما يملك، أما كُتُب الدار فقد سألَ القائمين بالأمر عليها: أيجوزُ له أن يصحح في المخطوط شيئاً، فرفضوا، وحثّتهم في ذلك أن التصويب لو ترك لكلّ قارئٍ لتجرأ ذوو الجهالة على تخطئة الصواب من ناحية، ولا متلاتٍ الهوامش

بما قد يكون خطأ صريحاً، وهي وجهة معقولة لأنني قرأت بنفسني تعليقات على بعض الكتب المطبوعة في الدار نفسها، كتبها القارئون دون دراية فجاءت نمطاً من الجهل الصريح .

ويقول الشيخ الفاسي : إنه لم يرَ مثل الشيخ خليل في عظم الهمة، وقد تولى كما أخبره قضاء (حلب) الشهاب ١٣١٩ هـ، فبقي بها إلى رمضان سنة ١٣٢١ هـ، ثم أعفي، وكان ذلك خيراً له ، لأنه استطاع أن يجولَ في بلاد الإسلام مطلق الحرية في الرّواح والغدو، باحثاً عن ذخائر السلف، وقد دخل المغرب الأقصى فزار مدينة «فاس» سادس ذي العقدة من سنة الإعفاء، ومنها إلى مكناسة، ثم رجع إلى فاس ليرتحل منها إلى طنجة ثم إلى طرابلس الغرب .

وقد انتهت به الرحلة بعدَ بلاد المغرب إلى تركيا، حيثُ وصل إلى الأستانة، وعرف القائمون بالحكومة فضله، فعُيّن قاضياً في إحدى بلاد الترك وهي (قالفاندس) وقد ألّف كتاباً في الأدب في ثلاثين كراسة لم يُطبع، والمقصودُ بالأدب هو المعنى العام الذي يأخذ من كل فنٍّ بطرف، لأن الشيخ لم يكن من أصحاب النثر الفني أو الصياغة الشعرية، وأكثرُ قراءاته في كُتب الأصول والتوحيد والمنطق والفقه وغيرها ، وذلك يتضح من مجالساته التي فاض فيها بحديث عن كُتب هذه الفنون، كما أنّ له رسالةً كبيرة في تحقيق وَضْع الحروف والأفعال، ورسالةً في الجهة الجامعة، ورسالة عن رحلته في بلاد الغرب والأندلس، وكل ذلك لم يُطبع، وقد احتفظَ به في مكتبته راجياً أن يأتي الخلفُ بما يقرّ عين السلف، ولم يدِرْ أن المكتبة قد صارت في أيدي أعداء اغتصبوا البلاد وشرّدوا العباد، ولهم يومهم الموعود .

هذا، وقد أشارَ العلامة الفاسي إلى أن الشيخ قد التحق في صباه بالأزهر الشريف ودرس على أفاضل علمائه وأجازَه شيخ الأزهر حينئذ عبد الرحمن الشربيني الشافعي، كما نالَ إجازة أخرى عن حكيم الإسلام الأشهر جمال الدين الأفغاني ، وعن كبير علماء الأستانة الشيخ محمد عاطف الرومي وعن الشيخ المغربي أبي الفضل جعفر الكتّاني الفاسي، ومعنى ذلك أن شيوخ العلماء في شتى عواصم الإسلام وأشهرها - القاهرة والأستانة - قد عرفوا فضل الشيخ عن يقين ، وفيهم من كان في مرتبة أساتذته كالشربيني والأفغاني وعاطف الرومي، ومحالٌ أن يلجأ هؤلاء إلى مُجاملة في العلم فيثنون على مَنْ لا يستحق الثناء، وقد ذهب زمن الإجازة بعد

أن أنشئت المعاهد والكليات، وأصبحت الدرجات العلمية إحدى موازين العلم، ولكنَّ زمن الإجازة كانَ أحرصَ وأدقَّ، إذ لا يسمُّوا إليها غير الواثقين من الأصلاء، ولا تُعرف لدى المجيزين محاباة.

وفي مقدمة حديث الشيخ أبي غدة، قال عنه: «إنه العلامة البارع والقاضي الفاضل، من ذرية الصحابي الجليل سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه» ثم ذكر ما رواه الشيخ عبد الحفيظ الفاسي في سلسلة نسبه حيث انتهى بها إلى جعفر بن سليمان ابن جعفر بن محمد بن الصحابي الجليل سيف الله المسلول خالد بن الوليد^(١).

والأستاذ أبو غدة رحمه الله قد نقلَ هذه النسبة عن الشيخ عند الحفيظ الفاسي، وهي مما أشكُّ فيه، لأن أهل الدار أدرى بما فيها، والخالديون جميعاً - وهم من نبهاء هذا العصر، وقد وردت تراجمهم في كتاب الأستاذ عويدات - ولم يشيروا إلى هذه النسبة، ولو كانت معروفة لديهم لبأهوا بها، بل فيهم من قطع بما ينفي هذه النسبة نفياً قاطعاً.

أقول: قد نقل الأستاذ العويدات^(٢) عن الدكتور ناصر الدين الأسد مؤلف كتاب (محمد روعي الخالدي) وهو من كبار الأسرة الخالدية، وآثاره السياسية والإدارية والعلمية ذائعةٌ مشتهرة، نقل قول الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد:

«وبقي أن نذهب في تفسير نسبة الخالدي إلى واحدٍ من ثلاثة:

١ - أنهم طائفةٌ من بني عبس، كما ذكر ذلك صاحب (الأنس الجليل) وفي رجال هذه الطائفة من يسمَّى بخالد.

٢ - أنهم يُنسبون إلى جدٍّ من جدودهم يسمَّى خالداً، وهذا الرأي شبيهٌ بالأول، ولكن الفرق بين الرأيين أن أولهما قد جعل خالداً عبسياً، وسكت ثانيهما عن ذلك.

٣ - أنهم يُنسبون إلى موضع يسمَّى الخالدية، وقد ذكر الأستاذ روعي الخالدي أنه من أصل عراقي، وقد تزح أجداده من الخالدية، وهي قرية قرب الموصل». أما الذي جعل الأمر في مرتبة الجزم فهو ما عقَّب به الدكتور ناصر الدين حيث

(١) العلماء العزَّاب، ص ٢٣٠.

(٢) معجم فلسطين، ص ١٥٦.

قال: وعندما تلتقي بأحد شبان هذه الأسرة الراقين، يكرّ عليك نسب المرحوم روجي الخالدي كالتالي:

«روجي بن ياسين بن محمد علي بن محمد بن خليل، بن صنع الله بن خليل ابن شرف الدين بن عبد الله، بن طه بن صالح بن يحيى بن نجم الدين محمد بن زين الدين عبد اللطيف بن شمس الدين محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر ابن مصلح ابن أبي بكر بن سعد بن عبد الله مصلح الديري».

وهكذا ينتهي النسب إلى الديرة وهي قرية من إحدى قرى جبل نابلس، وقد نبغ منها الفاضلان اللذان ذكرا في سلسلة النسب، وهما نجم الدين وشمس الدين، إذ كانا من أفاضل علماء العصر المملوكي. فإذا كان النسب قد امتدّ إلى القرن التاسع فحسب، ولم يُعرف له اتصال بعد ذلك، وإذا كان الذين ترجموا لآل الخالدي في القديم والحديث لم يذكروا شيئاً عن خالداً! فالأمرُ مقطوعٌ به إذن، وليس يزيد من فضل الفاضل أن ينسب إلى رجل عظيم، بل حسبه أن يكون ابن نفسه، وقديماً قيل: إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

هذه واحدة، أما الثانية، فهي ما أكده الأستاذ أبو غدة من عزوبة الرجل، إذ ذكر أنه عاش عزباً لم يتزوج مع الغنى واليسار، وأعقب ذلك بشيء عجيب حقاً هو قوله: «وفي أواخر عمره ألحَّ أهله عليه أن يتزوج فتمنّع كثيراً، فأصرُّوا عليه فأظهر لهم الموافقة، ونزل على رأيهم، فاختاروا له زوجةً، وعقدوا له العقد عليها، وزفوها إليه، فاستقبلها مع من زفها إليه من أهله، ثم استأذنها إلى غرفة بيته ليراجع بعض الكتب، واستغرق في مراجعته، وطال انتظار الزوجة له، فذكر بها، وأنها في انتظاره، فأجاب قائلاً: إني عنها في شغل، ثم طلقها وبقي عزباً».

وهذا القول العجيب، لا يكادُ يصدق، لأن الفقيه العالم الفاضل، قد كتب العقد، ووقعه باختياره، وليس من خلق المسلم - فضلاً عن العالم الورع - أن يتخذ أصهاراً، يُسعدهم بانتسابه إليهم، ثم يتلقى زوجته عند حضورها بالبشاشة مع المستقبلين، فإذا استقرَّ أمرها في بيته هجرها في الليلة الأولى، وأرسل من يقول إنه يفضل أن يبقى عزباً!! ألم تصبح المرأة ذات حرمة! هذه روايةٌ موهونة، ومما

يضعفها ما ذكره الأستاذ أبو غدة نقلاً عن الأستاذ أحمد خيرى^(١) من أن الشيخ قد تزوج في فلسطين بعد عودته من تركيا وطلق ولم يعقب ذرية، وإذن فالزواج في شبابه، ولم يكن في آخر حياته! ولم يكن الطلاق ليلة العرس بل كان عقب ذلك، وهو أمر مشروع لا مأخذ عليه! وقد أثرت تحقيق ذلك لأن السكوت عن التصحيح يلحق سيرة الرجل بما يؤخذ عليه في شرع المروءة إن لم يكن في شرع الدين .

هذا بعض ما عن لي تعليقاً على ترجمة الأستاذ أبي غدة، أما ترجمة الأستاذ يعقوب العويدات - وقد اشتهر بين القراء بلقب (البدوي المثلث) - فقد ألفت بحديث نشأته ورحلاته وتبحره في معرفة التراث ورجاله إماماً وافياً، ثم انفردت بحديث عن مجلس الأستاذ وهيبته وطريقته في السمر العلمي، فقالت^(٢):

«إذا سألته سؤالاً عن كتاب من الكتب الشهيرة، تراه جلس جلسة العالم الفاضل، ويقبل عليك، وقد وضع عمامته اللطيفة محنية قليلاً إلى الورا حتى برزت جبهته المهيبة، وطلعتة الجذابة، وجعل يسرد عليك ما يعلم قائلاً إن ذلك الكتاب توجد منه نسخة في محل كذا، وهي أصلية أو غير أصلية، وتوجد منه نسخة أخرى في الأستاذة أو القاهرة أو القيروان أو إسبانيا أو دمشق، أو العراق، أو المدينة المنورة، أو غيرها.

ثم لا يقف الشيخ الجليل عند هذا الحد، بل تراه يشير إلى محتويات الكتاب، وإذا كان للكتاب نسخ مختلفة يدلّك على الفرق بين هذه وتلك، وكلّ ذلك بعبارة لينة، وكلام عذب، وناسوت يملأ قلبك إعجاباً وإكباراً.

وكان الشيخ الخالدي رحمه الله يذهب إلى أكثر من هذا الحد، إذ كان يُدلي برأيه في أن هذا الكتاب - مثلاً - يجب أن يُطبع وينشر، ويأخذ في تفصيل ما فيه ومن دواعي الحيرة والذهول أن الشيخ يجيب بكل هذه المعلومات عن ظهر قلب، وعفو الخاطر، وفي حافظته لا يعلم إلا الله كم تعي من العلم والأجوبة، وكان في وسعه رحمه الله أن يجعل أي مكان من الأمكنة مجلساً للعلم والمذاكرة، فيذكرنا بكثير من فلاسفة اليونان الذين كانوا يعقدون حلقات العلم في كل مكان».

هذا وقد ظن بعض الفضلاء أن الرجل الكبير لإحاطته بكثير من كتب التراث هو الذي أنشأ المكتبة الخالدية؛ والحق أنها وُجدت من قبله، على أيدي الأفاضل من

(١) العلماء العزاب، ص ٢٣٦.

(٢) العلماء العزاب، ص ٢٣٦.

ذوي العلم من نابهي أسرته، وكانت له مكتبة خاصة تمتلئ بالمخطوطات، وعليها من تعليقاته ما يعجب ويروق.

- ٢ -

نجيء الآن إلى مكان عظمة الرجل الحقيقية، عظمة هذا الصدر المستوعب لما لا يحصى غير الله من روائع التراث الإسلامي، عظمة هذا الرحالة المتنقل في شتى الممالك، ليقرأ الآثار العلمية، ويوازن بينها، ويحكم عليها ويعرف من خطوطها أكانت هي النسخة الأولى بخط المؤلف أم نسخة تالية كتبت في غير عصره، وقد لا يصدق الناس ما أقول لبعد أمره، وعسر تحقيقه، ولكن الذين جالسوا الرجل قالوا ذلك وهم عدول أثبات، وقد أتاح الخط لنا أن نقرأ ما كتبه الدكتور عبد الوهاب عزام عن أحد مجالس هذا العالم ثم عن صحبته في زيارة للإسكندرية، فذكر الدكتور شيئاً خارقاً للعادة، وعزام رجل صدق وإخلاص إذا كتب التزم الحقيقة التي هي ديدنه في حياته، فهو إذن صادق صدوق.

يقول الدكتور عزام من مقال نشره بمجلة الرسالة تحت عنوان (الشيخ الخالدي) عدد ٨٨ الصادر بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٣٥٣ هـ الموافق ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٤ م : ببعض التصرف اليسير :

«لقد حرصت على أن أكتب عن الشيخ بعض أحاديثه دون أن أشعره بذلك ، إذ اجتمعنا في حلوان ليلة السبت ثامن رمضان، فسأله بعض الحاضرين سؤالاً فشرع في حديثه، فدوّنت بعض ما قاله إجمالاً، ثم عدت إليه بعد انقضاء المجلس ففصلته قدر ما وعيت .

سأل أحد الحاضرين عن المدارس ذات المكانة في التاريخ ؛ فقال : المدارس النظامية كانت ببغداد والموصل وأصفهان ونيسابور ومرو وهرات، وكان في نيسابور مئات المدارس منها المدرسة البيهقية، ومدرسة ضياء الدين في سمرقند، وكان يقيم بها صاحب الهداية، وشمس الدين الكردي صاحب مناقب أبي حنيفة، ومدرسة الأمير مسعود في بخارى، ومدرسة قطلع تيمور في خوارزم، وكان بخارى من معاهد العلم مسجد كلوكلتانش، ومسجد كلام، ومن رجال مرو : القفال الكبير، والقفال الصغير؛ وكان بدمشق مدارس كثيرة منها العمرية التي أنشأها أبو عمر بن

قدامة وهو أخو الموفق بن قدامة صاحب كتاب المغني في مذهب الحنابلة، وهو اثنا عشر مجلداً، ومنها المدرسة الضيائية، وكان بها خطوط المحدثين كلهم، وهي منسوبة إلى ضياء الدين المقدسي ابن أخت أبي عمر بن قدامة، وقد تخرج فيها ابن تيمية والذهبي، ومن مدارس دمشق دار الحديث الأشرفية، وهي دار المتحف العربي الآن، وقد دُرِّسَ بها النووي وابن الصلاح وأبو شامة، والمدرسة الروحية التي تخرج فيها النووي، والمدرسة التي درس بها ابن القيم.

ثم انتقل الحديث إلى الفخر الرازي فقال الشيخ في أثناء كلامه: إنَّ الرازي من بني أبي بكر الصديق، فتعجب الحاضرون، فقال: ومن ذرية الصديق أيضاً: جلال الدين الداوني، وعُضد الدين صاحب العقائد، وأبو إسحق الشيرازي، والفيروزبادي. قلتُ: وجلال الدين الرومي؟ فقال: نعم، وأيضاً جلال الدين من هؤلاء، قلتُ: لكل وجهة.

ثم سئل الشيخ عن بني عمر بن الخطاب من العلماء فقال: منهم السهرورديون المتصوفة، ومنها الفنري، ومنهم جماعة من بُخارى، وكان تيمورلنك يجلِّهم كل الإجلال، ثم قال: وصدر الشريعة من بني عبادة بن الصامت، وليس كل من نشأ في فارس فارسياً، فأبو داود السجستاني، والترمذي صاحب الشمائل، والترمذي صاحب المسند، وابن عبد البر كلُّ هؤلاء من العرب؛ والحاكم أبو عبد الله النيسابوري من بني طيبة؛ ومسلم بن الحجاج صاحب الصحيح؛ وأبو القاسم صاحب الرسالة القشيرية من بني قشير؛ والمارزي، وابن يونس الصقلي، وعبد الحق الصقلي - الذي غلب إمام الحرمين في المناظرة - من بني تميم، والقاضي عياض من يحصب.

ثم انتقل الحديث إلى القطب الشيرازي، وفخر الإسلام البزدوي، وصدر الشريعة فأفاض في حديثهم، ثم قال: لفخر الإسلام البزدوي كتابٌ في الأصول منقطع النظير، حدَّث شمس الدين الأصفهاني شارح الطوابع أنَّه دخل على أستاذه القطب الشيرازي فوجد عنده كراسات على وسادة، فقال: ما هذه؟ قال: إني منذ سنة كذا أقرأ كتاب البزدوي وأنقل عنه وما أنهيته.

ثم سأله سائل: لماذا قلَّ أمثال هؤلاء العلماء اليوم، فقال: لذلك أسباب، منها أن أسلافنا كانوا يطلبون العلم للعلم لا يبغيون من ورائه شهادة ولا منصباً، ولم تكن أساليب التعليم صناعية آليّة كنظام المدارس في الوقت الحاضر، ومن الأسباب

انقطاع الرحلة، إذ كان سلفنا يشدون الرحال في طلب العلم لا يفترّون، فيلقى بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم عن بعض، انظر إلى قضاة السلف كانوا يفترّون من القضاء إشفاقاً على دينهم، هذا أبو علي الصديقي أحد قضاة الأندلس ذبح الذبائح، وشكر الله على خلاصه من القضاء؛ ثم قال بعد كلام في هذا المجال:

كان الأندلسيون ذوي همة عظيمة في تحصيل العلم، كان طلابهم يبدؤون بحفظ التسهيل لابن مالك ومختصر ابن الحاجب في الفقه والأصول، هذا عند المتأخرين، أما المتقدمون فكانوا يحفظون الموطأ، ومن قبل هؤلاء من كانوا يحفظون المدونة ثم تهذيب المدونة، ثم التفت الرجل إلى ناحية هامة حين قال: إن تفوق الأندلسيين جاء من عنايتهم بأقلام الكتب، كانوا يقرؤون في النحو كتاب سيبويه وأين من كتاب سيبويه كتاب الأسموني وحاشية الصبان؟ وأهل الأزهر يقرؤون في الأصول جمع الجوامع وهو ليس من كتب الأصول القيمة. قال بعض الحاضرين: قرؤوا كتاب الآمدي في عهد الشيخ المراغي ثم أبطلوه، فقال الشيخ: كتاب الآمدي جيد، وللآمدي كتابان، كتاب إحكام الأحكام، وأبكار الأفكار، وكتاب ابن الحاجب في الأصول مأخوذ من منتهى السؤل والأمل للأرموي، وهذا مأخوذ من الآمدي.

وأفاض الشيخ في أمور كثيرة دقيقة وطرائف نادرة عن الباقلاني وابن المعلم، وأعجب ما قاله في هذا المجلس إشارته الناقدة إلى نقل الكتب من الكتب دون تحرز، فعقائد الدواني مأخوذة من عيون المسائل، وهذه مأخوذة من رؤوس المسائل، ورؤوس المسائل مأخوذة من جواهر الكلام لعرض الدين الإيجي صاحب المواقف، والمواقف مأخوذة من أبكار الأفكار للآمدي.

أقول: وإذا عرف القارئ أن جميع هذه الكتب من مؤلفات علم الأصول المعقّدة، وقد قرأها الشيخ جميعها، وعرف الآخذ والمأخوذ أدرك مبلغ تضلعه في علم واحد هو الأصول، فما بالك بالعلوم الأخرى وقد درسها الشيخ عن استيعاب، وللمقال بقية عن كتب ابن رشد وابن حزم والداني واليحصبي ومختصر خليل، وفيها ما لا يثبت لقراءته غير خاصة الخاصة، وأذكر أن عالماً كبيراً سئل في عصرنا هذا عن كتاب (الإحكام) للآمدي وهل قرأه، فقال باسماء: حسبي أن أراه.

ولم تكن إحاطة الشيخ خليل بالكتب العلمية العريقة دون إحاطته بمزارات

(قبور) العلماء في شتّى ربوع الإسلام ، فقد صادف أن قابل الدكتور عزام شيخنا الكبير بالإسكندرية، فأحب أن يزور معه مشاهد السلف من كبار العلماء بالثغر، وأبدى الشيخ رغبةً في ذلك، فاصطحبا في سيارّة أعدّها الدكتور عزام، وأفاض الشيخ في حديث هذه المزارات وساكنيها الفضلاء مما اتسع له مقالان في مجلة الرسالة كتبهما الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في العدد (٣٣٤) بتاريخ ١٩٣٩/١١/٢٧، (٣٣٨) بتاريخ ١٩٣٩/١٢/٢٥، وأشير هنا إلى بعض ما سجّلاه، وضلاً لما سبق.

بدأ الدكتور عزام حديثه بقوله^(١):

«لقيت الشيخ العلامة خليلاً الخالدي بالإسكندرية ففرحت بمقدمه إلى هذه المدينة، وكنت أحسبه لا يعرف كثيراً من مشاهدها وأخبارها، فلما ذكر الطرشوشي وهو من علماء الإسكندرية، نَقَلْتُ الحديث إلى علماء هذه المدينة، فإذا الشيخ عالمٌ بأخبارهم، خبيرٌ بمزاراتهم (قبورهم) فقد ذكر من المحدثين والعلماء، ابن هرمز، والسلفي، وابن المنير، والقاضي سند؛ وذكر من الصوفية أبا العباس المرسي، والأسمر، وياقوت العريشي، والبوصيري؛ وتَوَاعَدنا يوماً نزور فيه هؤلاء الكبراء».

ثم تحدّد الموعد، وجاء الدكتور عزام بسيارة مع صديقين ليصحبوا الشيخ، فذهبوا إلى مزار ابن هرمز وقد حدّد الشيخ موضعه من قراءته، وَلَيْسَ المزار له وحده، بل يشاركه الطرشوشي ومحمد الأسعد في قبرين مجاورين، ثم انتقلا إلى مزارات السلفي وابن المنير وابن الحاجب، فكان الشيخ يتحدث عن كلّ إمام من هؤلاء بما يعرف مما نجعل، وقد استند إلى ما قرأه في رحلة ابن رشيد إلى الاسكندرية، وهي مخطوطة إذ ذاك، ولا أدري أرأت النور فيما بعد أم لا .

وكان بعض الباحثين قد ذهب إلى أن الشيخ الأسمر هو أبو المعاطي الشهير بدمياط، وله مقامٌ يزار بها، ولكن حديث الشيخ أثبت أنهما أسمران لا أسمر واحد، ووجود القبر بالإسكندرية يؤكّد ذلك، وحين ذهبوا إلى مزار الإمام البوصيري في مسجده، جلسوا في صحن الإيوان، وروى الشيخ أبياتاً مناسبة تتصل بأبي العباس

(١) الرسالة ، العدد ٣٣٤.

الموسي وأبي الحسن الشاذلي، وبالعجالة فقد كانت زيارة الشيخ مع صديقه ذات دلالة ملموسة، لأن الشيخ الكبير كان لا يُحيط بآثار العلماء في المخطوطات فحسب، بل كان يعرف أذوار حياتهم: أين عاشوا؟! وأين رحلوا؟! وأين دفنوا؟! وهي معرفة شاملة تدل على استيعاب كبير!!

وحين أقف متأملاً هذه المعرفة الشاملة أتساءل؟ هل دَوّن الشيخ مذكرات خاصة عن قراءاته هذه؟ وأجدُ الإجابة في حديث من قالوا: «إنه ترك ثلاثين كراسة في فنون الأدب لم تُطبع، وأنها تُركت في مكتبته الخاصة التي نهبها الناهيون فيما بعد»، فماذا تتضمن هذه الكراسات ذات العدد الضخم! لا بد أنها تحوي زُبداً خالصة عن أكثر ما قرأ من الكتب، كما تجمع تراجم مختصرة لمؤلفي هذه الآثار! وإذا كان الشيخ يفيض في محفوظه بما يُبهر، فلا بد أن ما كتبه في كراساتِه كان أشد إبهاراً لمن يقرأ!!

وقد ترك الشيخ بحثاً ضافياً نشره تبعاً بمجلة الزهراء التي كان يصدرها الكاتب الكبير الأستاذ محب الدين الخطيب بالقاهرة في المجلدين الثاني والثالث سنتي ١٣٤٤ هـ - ١٣٤٥ هـ، وهو يعطي صورةً عن تناوله الكتابي، إذ اهتم بجمع المعلومات المتنثرة في أسماط منسقة يجمع كل سبط ما يندرج في نطاق خاص من فنون البحث، هذا البحث بُدئ نشره بعدد (الربيعان سنة ١٣٤٤ هـ) تحت عنوان (الطرق الأربعة إلى معرفة الحق، ورجالها، والكتب المعتمدة عند أهل كل طريق) وهو موضوعٌ متشعبٌ يتسع لعدة مجلدات لمن يريد أن يتبحر في أفكاره، ولكن الرجل أوجزه في نقاط مركزة، إذ ليس من عادته أن يحلل وأن يُعلّل، بل يكتفي بالإشارة الدالة، وقد قال في مقدمة البحث^(١):

«ذكرُوا أنَّ الطرق إلى معرفة الحق، إما طريقُ النظر والاستدلال، وإما طريقُ الرياضة والمجاهدات، وطريقُ النظر والاستدلال إما أن يكون مُقيداً بالكتاب والسنة فهو طريقُ (المتكلمين) وإما أن يكون غيرَ مقيد، فهو طريقُ (الحكماء المشائين). وطريقُ الرياضة والمجاهدات إما أن يكون مقيداً بالكتاب والسنة فهو طريقُ الصوفية السائرين، وأما أن يكون غيرَ مقيد فهو طريق (الحكماء الإشرافيين)».

(١) الزهراء، مجلد (٢)، الربيعان سنة ١٣٤٤ هـ، ص ١٩٨.

ثم بدأ بحديث عن طريق المتكلمين من أبناء الوجهة الأولى فبدأ بأبي الحسن الأشعري والماتريدي، وكتب عدة صفحات تضمّ الأسماء والكتب فحسب، دون أن تتعرض لتحليل رأي أو معارضة، ثم عقب بمختصر عن أئمة الاعتزال من أمثال الجبائي والقاضي عبد الجبار، ذاكراً أنهم يتشبهون بأذيال الفلاسفة في بعض المسائل التي لا تعدّ من أصول الإيمان كإنكارهم الرؤية وعذاب القبر والصراط، وقولهم إنّ العبد خالق لأفعاله، وإنّ القرآن مخلوق؛ قال الشيخ: «وهؤلاء لم يخرجوا عن طائفة المتكلمين إلّا أنّ الفلسفة غلبت على علمهم بالكتاب والسنة»، وحديث الشيخ الموجز عن أئمة الاعتزال يدلّ على أنه لا يسير معهم في طريق.

ثم ثنى بالكلام عن طريقة الحكماء المشائين، فذكر من ينتسبون للفلسفة من المسلمين مثل: الفارابي والكندي والرازي وابن مسكويه ومحمد بن طاهر السجستاني وغيرهم، ولا أدري لماذا ذكر ابن المقفع مع هؤلاء وليس بذي مذهب فلسفي يتحدّث عن الإلهيات! ألأنّه ترجم بعض الكتب المنطقية، قد يكون! كما ذكر من النصارى من ترجموا كتب اليونان! ولكن هؤلاء نقله لا مفكروا!

وانتقل إلى حديث (الصوفية) فكانت عواطفه ظاهرة الوضوح بإزائهم لأنه أسهب إسهاباً حميداً على غير عادته من قبل في إيضاح مجاهداتهم وأفانين الرياضات الخاصة بتنقية النفس، وتحدّث عن الأحوال والمقامات حديثاً مستفيضاً، وكأن الصوفية كانوا هم المقصودين ببحثه، وما سواهم تمهيد سابق أو تعقيب لاحق، ويُخيل إليّ أن الرجل بما أفاض فيه من حديث الصبر والشكر والزهد والقناعة والتقوى كان أستاذاً للأخلاق يغرّض عناصرها في معرض الحديث الصوفي، ليحيّا من حيّ عن بيئته، ولو اتسع المجال لنقلت ما قال في هذه الأنحاء، ولكن مجلدات الزهراء محفوظة بدور الكتب العامة وإليها يرجع من أراد.

ولا أحسبني بلغت ما أريد من الحديث عن خليل الخالدي، ولكنني أضربه مثلاً فريداً، للوعاية الحافظة، والقراءة الشاملة، والهيّام بآثار الكبار من ذوي العقول النابغة، والبحث الرصين.

رُوجِيه جَارُودِي

كيف أشرق الإسلام على قلبه

- ١ -

حين قامت الحملة الشرسة في فرنسا على المفكر الإسلامي الكبير «روجيه جارودي» دعت القاهرة إلى تكريمه، وإفساح المجال له للتحدث عن الهجوم الدنيء الذي تعرض له مع مناصره الأب (بيير)، وانهقدت الاجتماعات المختلفة في نقابة الصحفيين وجامعة عين شمس، وغيرهما، أما الذي وجه الدعوة للباحث المناضل فهو الكاتب الكبير الأستاذ سعد وهبة، الذي تحدث عن هذا الموقف الجائر بصدق وإخلاص حين قال:

«لا أعتقد أن فيلسوفاً كبيراً، أو مفكراً واسع الأفق، يملك ناصية المنطق والمعرفة والتاريخ في وزن المفكر الفرنسي روجيه جارودي قد تعرض لما يتعرض له الفيلسوف الكبير من اضطهاد وهجوم وحصار لأنه من [قدس الأقداس]! وهو السياسة الصهيونية، فتجراً على كشف الضلال والزيف والزور في كل ما حاكه الصهيونيون لأنفسهم من مختلقات زائفة، فاستحق كل ما يجري له في عاصمة النور (باريس)، حيث هُوجم وهوجم الأب بيير الذي دافع عنه، وامتنع الناشرون عن طبع كتابه، فقدّم للمحاكمة وامتنع أن يدافع عن نفسه، مع مهاجمة كل من وقف معه!.

إن ما يحدث لجارودي يصوّر محنة الإنسان في ظل النظام العالمي الجديد، من أجل ذلك كان لا بد أن يأتي جارودي للقاهرة، ليرفع صوته، وليعلن أن في العالم شعباً ما زالت تقدس الحقيقة، وتقف في وجه الظلم والضلal.

والكتاب المشار إليه هو (الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية) ويقع في ثلاثة

أبواب، يتحدث الباب الأول عن الخرافات والأساطير التي روجت لها الحركة الصهيونية، مستندة إلى تأويل التوراة والعبث بنصوصها، وأهمها خرافة أرض الميعاد، وخرافة شعب الله المختار، وخرافة نقاء العرق اليهودي.

أما الباب الثاني فأهم ناقوس صلصل في الأسماع ليقظ من يجهلون حقيقة ادعاءات إسرائيل الزائفة، وما لفقته كتاب الصهيونية عن أنهم كانوا ضد الفاشية والنازية، وأنهم لقوا إبادات جماعية ومذابح شنيعة، ولو صح ذلك الذي يقولونه ما بقي منهم فرد واحد، وأنهم أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض، واتخذوا ذلك ذريعة لاحتلال إسرائيل.

وجاء الباب الثالث ليفضح دور اللوبي الصهيوني في عواصم الغرب جميعها في ترويع المفتريات عن العرب، ونسج البطولة لليهود، وتمويل الدولة المغتصبة بالمطالبة بالتبرعات والتعويضات التي لا تقف عند حد، وقد كشف الكاتب العظيم الستار عن ادعاء أن ستة ملايين من اليهود راحوا ضحية هتلر! لأن عدد اليهود القاطنين بأوروبا جميعها وفي كل دولها لم يبلغ هذا الرقم! فكيف يقوم هتلر باستئصال قوم لا وجود لهم!

وهذا الذي كشف عنه جارودي بالإحصاء الدقيق. أثار ثائرة المفترين حيث وُجِّهوا بما لا يستطيعون تخطئته! مع أن إسرائيل قامت بمذابح في فلسطين للعرب تجاوزت كل حد، ولا تساوي أفاعيل هتلر جوارها شيئاً، فكيف يسكت الأحرار الذين يباهون بحرية القلم عن تسجيل هذه المذابح، ثم يردّدون الحديث عن مذابح موهومة فيما كتب عنها من التضخيم والتجسيم والإفك! لقد كان ما كتبه جارودي طعنة قاتلة، لا لشيء إلا لأنه حق صريح، يكشف عن باطل أثيم.

وأعجب ما في الأمر أن جارودي سبق أن هاجم التحيز الأمريكي لإسرائيل، ولم تقم القيامة عليه حين هاجم أمريكا كما تزلزلت باريس بالضجة الفاجرة حين هاجم إسرائيل، والذين يدّعون حرية النشر في مدينة النور، ويزعمون أن حق الكلمة مباح لكل متحدث، هم أنفسهم الذين حرّموا على الرجل أن ينشر كتابه، وقد خافت دور النشر فامتنعت عن طبع الكتاب وتوزيعه، ولم تستمع لما قدمه الكاتب من وثائق تدل على صحة ما سجل من المعلومات! وهنا يجب أن نسجل للذين يتحدثون عن مدينة النور وعاصمة الحرية والإخاء والمساواة، أن هذا النور مقصور على وطنهم

وحده، وأن هذه الحرية لا تتعدى المواطنين في بلادهم! أما أنها حرية الإنسان في كل الأقطار، وأما أنه النور الذي ينبثق كالشمس فيغمر كل الآفاق! فذلك ما يكذبه الواقع الأليم.

ونعترف بأن الحق لا يعدم النصير حين نشير إلى تأييد الأب بيير الراهب الفرنسي النصراني ذي المواقف الاجتماعية الذائعة والدعوات المتتالية لإنقاذ الفقراء والعراة الذين يعيشون بدون مأوى وبدون طعام، لا يكل عن رسالته وقد ناهز التسعين عاملاً للخير ساعياً للإصلاح، هذا الراهب المخلص أزعجه ما رآه من تواطؤ الفرنسيين مع الصهيونية دون اعتبار لإحقاق الحق، فوقف في وجه هؤلاء المتشجنين ليقول لهم بلسان التهكم: «لو ذكرت صحيفة فرنسية أن مغنياً يهودياً خشن الصوت، لا تُهَمُّ الصحيفة بالعداء للسامية، وانهارت عليها اللكمات!». .

ثم كان أن هاجم المفكر الكبير أمريكا هجوماً علمياً يؤيده الواقع المشهود، وليس كلاماً صحفياً لا يترك صده، فقد نشر في جريدة: «لوموند» مقالاً عن مذابح إسرائيل في لبنان، ودور أمريكا في تشجيع إسرائيل. وقامت الصهيونية برفع قضايا ثلاث على الجريدة محاولة القضاء على سمعتها الشعبية، ولكن القضاء رفض الاتهامات وأعلن في حشياته أن النقد الواضح لسياسة دولة، والأيديولوجية التي تتبعها ليس له أي علاقة بالعنصرية، ولا يدل على معاداة جنس بعينه.

أما أمريكا فقد كانت تخوَّف أوروبا بقوة الاتحاد السوفيتي، وتجد من يسمع! وحين تحطمت روسيا رأت أن تصبح سيدة الموقف في العالم جميعه، مفترضة أن يخضع العالم كله لنظرية «وحدة السوق» وهي في ظاهرها نظرية اقتصادية، ولكنها لا تبلغ مبلغها الاستغلالي إلا حين تصبح نظرية سياسية، تشن الحروب من أجلها وتُكَال الاتهامات لكل من يخالفها، فلا بأس أن تكون إيران وليبيا والسودان موضعاً للهجوم تحت ستار الإرهاب، والإرهاب في مضمونه هو البطش الأمريكي المستفحل! .

والأسف كل الأسف أن تبحث أمريكا عن عدوٍّ تحاربه لتخدع الناس بأنها ذات رسالة إنسانية! ولا بد أن يوجد هذا البديل بعد سقوط الاتحاد السوفيتي! وأي بديل يزعج غير الإسلام حين يُصَوَّر في صورة الإرهابي المتوحش، وحين يوصم المسلمون بأنهم أعداء الحضارة!. هكذا حاولت أمريكا، تحت سيطرة الصهيونية

المتسلطة عليها، أن تجعل كل مطالب بحرية بلده ووطنه إرهابياً، وأن تجمع الشعوب، وتمتصها تحت ستار مكافحة الإرهاب! كل ذلك كان معلوماً ولكن روجيه جارودي قد فصله وحققه ودعّمه بالأرقام والتواريخ والوقائع، فقامت القيامة عليه، ولكنه ثبت كالطود... أما كيف اهتدى هذا المفكر الكبير إلى الإسلام فهذا ما كررت الحديث عنه في مناسبات شتى، ولعلي أفيد القارئ حين أوجز هنا بعض ما كتبت، فأقول^(١):

صدي رنان

كان لإسلام المفكر الكبير روجيه جاروي صدى رنان في العالم بأسره، حتى عند الذين حاولوا تجاهله من أعداء الإسلام، لأن محاولة التجاهل تدل على كبت نفسي كاد يبلغ بصاحبه درجة الانفجار، وأعجب ما تراه في مسلك هؤلاء، أنهم يحاولون التنفيس عن لواعجهم الكظيمة بما يدل على هول الكارثة في نفوسهم، إذ يشيرون على أذنانهم مرة أولى بالتهوين من شأن المفكر الكبير، رغم ما قدمه من آثار جليلة في عالم الفكر الإنساني حازت إعجابهم البالغ قبل أن يعلن إسلامه، فحين جهر باهتدائه إلى الدين الحنيف كان جواب الصدمة الهائلة أن يناقضوا أنفسهم فيعلنوا الشك في قدرته الفكرية التي اعترفوا بها مصفقين.

ومنهم من تعاضمه إسلام جارودي فأراد أن يهون من أمره باحتيال آخر، إذ أشار على أبواقه مرة أخرى بأن يقولوا إن الإسلام لم يك في حاجة إلى أن يزيد رسوخاً بأمثال جارودي، إذ له من مبادئه العريقة ما يكفيه دون التجاء إلى تأييد جديد، وقد قيل هذا الكلام المغرض وردّدته بعض الصحف اليومية ترديد البيغاء، جاهلة أن الذي أشار به لا يحب للإسلام أن يكون موضع التأييد من أئمة الفكر الغربي، فإذا أعلن مفكر عالمي اعتناقه لهذا الدين، فيجب أن نستهن به لأن الإسلام ليس في حاجة إلى مثله! وهو منطق يدل على اشتعال الكراهية في نفوس تنوقد بالحق على هذا الدين، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

(١) من كتاب مناقشات وردود (قضايا إسلامية) للدكتور محمد رجب البيومي: ٢/٥ - ٢٤.

دعوة الأزهر

وقد كان من حظي السعيد أن ألقى كلمة في احتفال كلية اللغة العربية بالمنصورة بعيد الأزهر الألفي، وأن أشرح في هذه الكلمة ما ذكره جارودي من الأسباب القوية لاعتناق الإسلام، وأن أقترح على الأستاذ الدكتور محمد الطيب النجار رئيس جامعة الأزهر - وكان في مقدمة الحاضرين - أن يعمل على دعوة الرجل الكبير باسم جامعة الأزهر إلى حضور الاحتفال الكبير بالقاهرة، ليلقي كلمة جامعة عن أسباب اهتدائه إلى الإسلام، فلبى الأستاذ الكبير محمد الطيب النجار ما طلبت، وتفضل فدعا الرجل الكبير إلى مصر، وألقى محاضرة ممتازة عن بواعث إسلامه في قاعة الإمام محمد عبده بجامعة الأزهر، وسلطت عليه الأضواء إذ عملت دوائر الإعلام على اغتنام فرصة الحديث معه، فظهرت الصحف والإذاعة المسموعة والإذاعة المرئية في القاهرة محلاةً بأحاديثه الهادفة، ودفعت كبار المفكرين إلى التعليق الجاد على ما أبدى جارودي من أفكار خصبة حول الإسلام وتاريخه والحضارة العربية وريادتها القائدة، ولو عكف جماعة من الباحثين على تتبع ما قال جارودي وما دار حول أحاديثه من نقاش، وجمع ذلك في كتاب خاص لكان من أنفس الذخائر الثمينة، وإذا كانت أحاديث الإذاعة قد ضاعت في الهواء فإن أحاديث الصحافة باقية تتطلب عملاً جاداً في جمع ما تناثر في الأوراق، وسأحاول في هذا النطاق المحدود أن أصور انطباعاتي الخاصة في ضوء ما سمعت وما قرأت، لِنُفِي الحدث الكبير بعض حقه من الرصد والتنويه.

البيئة الأولى

حين يفكر جارودي في البيئة التي نشأ فيها، يعجب لنفسه كيف انتهى إلى الإيمان بالإسلام. فقد ولد سنة ١٩١٣م، وبدأ يدرك حقائق الحياة شيئاً فشيئاً بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى، وقد خرجت فرنسا منتصرةً بها، لتتقاسم مناطق الاحتلال في العالم الإسلامي مع إنكلترا، ولتتباهى الصحف الفرنسية، بأن بلادها تنقذ المسلمين من تأخرهم القتال حين تحتل بلادهم، لأن مدينة النور (باريس) هي الرجاء الحقيقي في اكتساح ظلمات هؤلاء المتأخرين، إذ يقودهم دينٌ بدوي متأخر،

قد امتدّ في غفلة الزّمن بالسيف القاهر، وليس في طوق معتنقيه أن يتحرروا من عبودية رجعتهم الشائنة إلّا إذا تركوا دينهم المتحجراً هكذا كانت ترسل الكنيسة مبشريها إلى بلاد الإسلام مُدعية عليه ما ليس فيه، وهكذا أخذ نفرٌ من القساوسة يدعون البحث العلمي ويُسَمّون أنفسهم مستشرقين، ليحرفوا الحقائق السافرة عن الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ، بل هكذا وُجد في بلاد الإسلام من يُحاولون التنصل منه استجابةً لمغريات الاحتلال، ولكنّ الدهر لا يدوم لأصحابه كما يشتهون فقد تناحرت الحضارة الأوروبيّة المادية، وغمرتها الأنانية والطمع وحبّ السيطرة الاستعمارية، فاشتعلت الحرب العالمية الثانية لتؤكّد للعالم أنّ كل ادعاء حضاريّ ينسب الإنسانية الرحيمة، والعدالة المنصفة، والمساواة الحقيقية إلى حضارة أوروبا هراء زائف، وأنّ الوقائع الدامية أقطع من أن تستر بخداع من المقالات الزائفة، وقد جُنّد (جارودي) بين شباب فرنسا ليدافع عنها، حين خرّت راکعة مستخذية أمام جيروت الألمان يدافع عنها في الجزائر، لأن فرنسا قد سلمت مستخذية، وأصبحت مستعمرة ألمانية، وفي الجزائر كانت بوادر الانقلاب الروحي الذي غمر جارودي فأراه الحقّ من الباطل، وجعله يفكر بعقله لا بعقول المغرضين.

من أقوال جارودي

لقد عشت في بداية الحرب العالمية الثانية تجربة فريدة من نوعها، لأن قوات الاحتلال الألماني قد قبضت على المجموعة الأولى للمقاومة الفرنسية، حين سقطت باريس، وصدر الأمر بانتقالها إلى معسكر (جلفة) في جنوب الجزائر، وكنت أحد أفراد هذه المجموعة، فقمْتُ بتمرد دعوتُ إليه رفاقي، أنفة من أن نظل أسراء في قبضة أعداء يحتلون بلادنا.

وأعلنت التمرد، فاستجاب كثيرٌ من زملائي، وكان قائدنا فرنسياً مثلنا ولكنه لم يرتفع إلى مستوى التضحية، بل تواطأ مع المحتلين وكأنهم باب الإنقاذ في رأيه، فعصف به الغضب، وأصدر أمره لجنوده أن يطلقوا علينا النار في غير رحمة، وكانت المفاجأة مذهلة! لأنّ هؤلاء الجنود وهم مسلمون من أبناء الجزائر المحتلة قد أبوا أن يطلقوا علينا النار! وأظهروا من التعاطف ما كان موضع الاستغراب، فسكت القائد مقهوراً، وقد عملنا على الاتصال بهؤلاء الممتنعين، لنشكرهم على

موقفهم منا، فكانت إجابتهم مثار دهشتنا جميعاً، إذ أعلنوا أنهم رفضوا إطلاق النار علينا لأنهم مسلمون، وأن الإسلام يمنع أن يحارب أبناؤه قوماً جُردوا من السلاح، ولا طاقة لهم بالتزال!

دهشة بالغة

يقول جارودي أن هذا الحدث قد أصابه دهشة مذهلة لأنه لم يقرأ عن تعاليم الإسلام إلا أنه دينٌ همجي متوحش، قام على السيف! وما هم أولاء نفرٌ من أتباعه يرفضون أن يطلقوا النار على أعدائهم المحتلين حين رضي بذلك فرنسي نصراني!! ودعا إليه محرّضاً، واشتعل في صدره الغضب حين لم يتم التنفيذ! لا بد إذن من دراسة هذا الدين فيما كتبه المنصفون، لأن كتب المبشرين ومن لفّ لفّهم لم تبقى جريمة إلا ألصقتها بالإسلام، ومحالٌ أن تكون هذه الجرائم من مبادئ الإسلام وقد رأينا أتباعه يرفضون أن يهاجموا العزل من الأعداء! هذا الظمأ إلى الارتواء من معين الحقائق الصادقة عن الإسلام قد دفع بجارودي إلى نهم حاد في قراءة كتب تتعلق بالإسلام.

وكان يجد من تناقض الأقوال ما يوقعه في الحيرة، لأن بعض من قرأ لهم قد لوّن الإسلام بمزاجه الشخصي، فتحدث بما أملاه الهوى ولم يعرف للحياد سبيلاً، ولكن الدارس المتطلع أخذ يقرأ ويوازن ويعلل راجياً أن يصيب مقطع الصواب!

في طريق البحث

أمعن جارودي في دراسة التقدم الحضاري للبشرية منذ ظهرت علائم المدنيات الغابرة، وقد أسف في أعماق نفسه، حين رأى تواطؤاً عامداً على محو الحضارة الإسلامية، وإزالة كلّ ما يذكر بها بحيث لا يكاد يتحرر كاتبٌ من ربة الدعاية الرخيصة، ويجهز بالفضل لذويه، حتى يجد كتائب من الأقلام المجهزة لنسف آرائه، وقد أخذت هذه الكتائب عدتها الواقية من أقوال الحقّة الذين استخدمتهم الكنيسة، في فترات طويلة لتزييف الحقائق الصريحة، وهذه الأقوال أصبحت شبيهة بالمسلّمات لديهم، وعلى من يحاول نقضها أن يضحي بسمعته العلمية حين ينتشر حوله الضجيج الصارخ من كل مكان، ليسلبه الهدوء، وأمام ذلك كله أخذ جارودي

يعرض تاريخ المدينة في الإسلام منذ بزغ نوره في المدينة .

وانتقل إلى دمشق وبغداد ومصر وقرطبة وغيرها من العواصم الكبرى ، يعرض هذا التاريخ عرض من يستنطق الآثار ، ويستقرئ الشواهد ، ليصل إلى أن الحضارة الأوروبية المعاصرة لم تقم في أصولها العمرانية على غير الحضارة الإسلامية التي سبقتها كثيراً في الوجود! وبمقارنة أولى بين التقدم الإنساني في أسبانيا والتقهقر الحضاري في جميع أنحاء أوروبا ، يجد الدارس أن النتيجة في صالح الإسلام ، ثم بمقارنة ثانية بين الجيوش الإسلامية والجيوش النصرانية التي زحفت في الحروب الصليبية لتستأصل شأفة الإسلام نجد الفرق الشاسع بين التقدم الحضاري شرقاً والانتكاس البدائي غرباً ، ثم بمقارنة ثالثة بين المدينة الإسلامية في الشرق سلوكاً ومعاملة والتقهقر الأناني في الغرب انتهازاً ووصولية نجد البون الشاسع بين ملتزم بقواعد دين سماوي رحيم! ومتنسب إلى الدين يعتنقه ظاهراً ويخالف مبادئه في كل متزغ في منازع الحياة! فكم شهدنا من ضروب الغدر والقسوة والهمجية والدس والوقية لدى من جاؤوا في زعمهم لينقذوا قبر المسيح من الهمجين ، فإذا بحثت عن تعاليم المسيح لدى من ينتسبون إليه فلن تجد غير المخجل المشين! إن دراسات الحضارات المختلفة عبّر العصور النازحة تهدي إلى منزلة الحضارة الإسلامية السامقة بين هذه الحضارات ، فهي الأحق بالإشادة والتنويه .

- ٢ -

صرخة عالية

كانت القنبلة التي دوّت فأحدثت الزلزلة العاتية ، هي محاضرة جارودي في تونس سنة ١٩٤٦م عن الحضارة الإسلامية حيث ذهب إلى أصالة هذه الحضارة وامتدادها إلى ما بعدها من الحضارات التي قامت على أساسها واهتدت بضياؤها ؛ وقد نقل فيها آراء المشاهير من المنصفين من أمثال أناتول فرانس الذي سجل في كتاب (الحياة الوردية) ما خسرت فرنسا حين قاومت الجيوش الإسلامية في معركة بلاط الشهداء ، لأن الذين تجمعوا تحت قيادة (شارل مارنل) كانوا من الهمجية المتوحشة بحيث ناصروا الظلام على النور فتراجع العلم والفلسفة عن أوروبا بعد أن دق الأبواب بيد القائد الإسلامي عبد الرحمن الغافقي .

وكان صدور هذا الكلام من مفكرٍ فرنسي في تونس التي تن تحت وطأة الاحتلال الفرنسي فاضحاً لدعاية من يزعمون أن الإسلام دين الهمجية، وأنّ فرنسا قد احتلت تونس والجزائر ومراكش لتأخذ بأيدي المسلمين إلى مشارق الضياء! فارتاع المندوب الفرنسي (الجنرال ماست) وأصدر قراراً باستبعاد «جارودي» عن البلاد في أقل من أربع وعشرين ساعة، وأوعز للمرتزقة من مأجوري الكتاب أن يُسفّهاوا كلام جارودي، مع أن المفكر الكبير لم ينسب الرأي إلى نفسه، ولكنه جاء بأقوال الأعلام من أئمة الفكر الفرنسي! فهل تواطأ هؤلاء الأعلام مع المسلمين كي يزوّرا من التاريخ الحضاري للإسلام ما دأب المحتلون على إنكاره، وأكبر فضل لجارودي أنه نبه الأذهان من جديد إلى تحليل معركة بلاط الشهداء وبيان نتائجها المؤسفة التي أخّرت التقدم الأوروبي أربعة قرون على الأقل، وقد أسهم كتاب العرب في تأريخ هذه الواقعة إسهاماً دَلَّ على الإنصاف العقلي إذ لزم أصحابه جانب المنطق التحليلي دون أن يلجؤوا إلى الأسلوب الخطابي، وفي طليعة هؤلاء الكتاب أمير البيان شكيب أرسلان، ومحمد عبد الله عنان، ومحب الدين الخطيب، وأذكر أنّ شاعر الأرز الكبير شبلي الملائط قد نوّه بأثر هذه الموقعة في قصيدة رنانة يقول فيها:

منْ للزّمان بمثل عهد محمدٍ	وعدالة كعدالة الخطّاب
رفع الرسول عماد أمة يعرب	وأعزها بالأهل والأصحاب
لولا تحدّ (شارمارتل) حلّقت	في الغرب فوق مشارف وهضاب

وهذه النفثة الصادقة من شاعر كاثوليكي كبير، تصوّر الحقيقة الخالية من الغرض، وترجع بالأذهان إلى ما كتبه الفرنسيون أنفسهم عن جنود شارل مارتل الذين ارتدوا جلود الوحوش، وقد طالّت أظافرهم وشعورهم إطالة تدل على أنهم لا يحافظون على قواعد النظافة، إذ كانوا يمثلون شعباً صدق الشاعر العربي في تصويرها حين قال^(١):

شعوباً بأوروبا تكاثف جهلها	وكاد دُجاها فوقها يتحجّر
لقد ألفوا الليل البهيم فإن يروا	مشاعل ضوء تظمس الضوء يذعروا
يرون قذارات الجسوم فضيلة	مقدّسة، يا ويل من يتطهّر

(١) ديوان صدى الأيام للمؤلف.

شراذم أميون إلا قساوساً
لهم صرخاتٌ بالعراء كأنهم
تردّوا جلودَ الوحش في الكون فاغ
إذا غمر الشعر الكثيف صدورهم
ثعابين في الأحراش تنفث سمّها
دعاها إلينا (شارل مارتل) فارتمت

إذا استظهروا الإنجيل لم يتدبروا
نمورٌ بأدغال تصيح وتزأر
تدى لهم نسبٌ عند الوحوش مؤصر
تجلى من الإنسان ذئب مصور
تحكّم فيها أفعوان مسيطر
كطوفان موج خلفه تتحدّر

ولم تزد مقاومة الجنرال «ماست» لحرية جارودي إلا صلابةً في اعتقاده وإيماناً
برأيه وسخطاً على الذين يتظاهرون بالحرية، وهم لا يمنحونها إلا لمن يردّد
أفكارهم على علائها، أما الذي يحاول أن يحلل الحقائق بمنطق الحيدة قائم شرير،
يجب أن يطرد في أسرع وقت، ليبقى المصفقون وأرباب الطبول.

مذكرات الجنرالات

كان استبعاد جارودي من الجزائر يحمل طابع الوصولية المغرضة، لأن
المحاضر لم يتحدث عن فرنسا الحاضرة ولكنه تحدث عن فرنسا الغابرة التي قاومت
المدّ الحضاري الناهض، فضاق بها المتألهون من طغاة الاحتلال، وهنا اتسع
المجال لجارودي كي يقرأ تاريخ الاحتلال الفرنسي للمغرب جميعه، فشهد أعنف
ضروب البربرية حين تساق الدبابات وتلقى القنابل، وتسלט النيران على الآمنين
العزل بغياً دون حق، وحين تكون هذه الوحشية القاسية آية التمدن والنور والحرية
في اعتقاد أناس يروّون أن الثورة الفرنسية قد حرّرت الشعوب وأزالّت الاضطهاد!

لقد عكف جارودي على قراءة مذكرات الجنرالات العظام الذين قادوا هذه
المذابح، وسمّوا أنفسهم بناة الإمبراطورية الفرنسية؛ على نحو ما كتب مستعمرو
الإنكليز مذكراتهم ليتغنوا بمذابحهم الحاصدة، ويكونوا بناة الإمبراطورية
الإنكليزية. قرأ جارودي مذكرات (بوجو) و(سانت أورنوا) و(كافيناك) وأثبت من
واقعها الصريح أنّ ما قاموا به إجرام دموي مريع، وأن أقلّ وصف يجب أن يوصفوا
به على ضوء ما اعترفوا به مباشرين: هو أن يكونوا مجرمي حرب، وإلا فماذا نقول
في قائد يدعي أنه يمثل دولة ذات رسالة إنسانية ثم يُباهي بأنه انتهز فرصة اجتماع
عشرة آلاف جزائري بين جبلّين ثم يسלט نيران قذائفه من الجهات الأربع حتى يبيد

المجتمعين جميعاً فلم ينج منهم أحد! أي بطولة خارقة قام بها هذا السفاح الرهيب حين واجه العزل الآمنين بما لا طاقة لهم بدفعه، دون أن يصنعوا شيئاً يستحق الإبادة! وما الرسالة الإنسانية التي يُباهي بنشرها هذا الطاغية وهو مجرم يزاول أعنف ضروب الإجرام، لأن الذي يقتل شخصاً واحداً دون ذنب يكون مجرمًا يستحق الإعدام، فما بالك بمن يبيد عشرة آلاف جزائري لا لشيء إلا لأنهم اجتمعوا في مكان واحد! .

إن نشر مذكرات الجنرالات والتعليق عليها قد أحدث من الفرقة المدوية ما هزّ فرنسا!! لا غضباً على السفاحين ولكن غضباً على جارودي، إذ استنكرت صحف باريس أن يقوم فرنسي بإحصاء جرائم هؤلاء الذين بنوا الإمبراطورية! وأعجب ما يضحك في هذا الاستنكار أنه وقع بعد الحرب العالمية الثانية حين تقلصت مستعمرات فرنسا مستعمرة وراء مستعمرة فلم يبق لها حينئذٍ إلا شمال أفريقيا! وبعد أن رأى العالم جميعه كيف ركعت ذليلة أمام هتلر، فلم تستطع المقاومة عشرة أيام!! .

كان من التناقض المضحك أن يصدر الفرنسيون كتباً تتحدث عن الوحشية القاسية التي ارتكبتها الألمان في فرنسا حين حكموها بالحديد والنيران، وأن يجتهد كل كاتب في تذكر هدم منزل أو اعتقال جماعة، وكأن ذلك كان حدث الأحداث، وجريمة الجرائم، ولكن جارودي حين نشر مذكرات هؤلاء الأوغاد، وهي تتضمن من الفظائع المنكرة ما تتلاشى أمامه أعمال الألمان كان أثماً جانباً في حق بلاده!! فإذا شئت مثلاً واحداً لزيف الحضارة الفرنسية المعاصرة، فقارن بين الشعور العام إزاء مسلكين متحدين، وأعجب كيف يكون الإجرام بطولته في موقف، ودناءة في موقف!! والبواعث واحدة والنتائج واحدة، وعاتب معي روح شوقي حين قال:

دم الثوار تعرفه فرنسا وتعرف أنه نسور وحق

لأنها إذا كانت تعرف أن دم الحرية نورٌ وحق، فكيف قامت بفظائعها الدامية في شمال أفريقيا أولاً، وكيف استنكرت كل الاستنكار أن يقوم من أبنائها من يكشف هذه الفظائع التي اعترف بها السادة الجنرالات مباهين، وكأنهم كانوا يخوضون حرباً متكافئة بين أبطال مسلحين! مهما يكن من شيء لقد صودرت تعليقات جارودي وحزمت الحكومة الفرنسية تداولها بين قرائنها بحجة أنها دعاية معادية لتاريخ فرنسا!

ومعنى ذلك أن التاريخ الفرنسي يجب أن يُكتب بلون مشرق يتنكر للحقائق حين يعمل على إخفائها، ويزين المحامد حين يختلقها خَلْقاً! فأين إذن ما رسمه فلاسفة التاريخ في جامعة السوربون حين نادوا بالحيدة واحترام المناهج، والتثبت من المصادر، ومناقشة الأحداث، والتجرد الخالص من الغرض كي يصل الباحث إلى الحق الصريح! أليكون المنهج التاريخي وفقاً على قاعات الدراسة في السوربون دون أن يسمح لأحد بالتطبيق، كيلا يقوم بدعاية لتاريخ فرنسا وإهانة لشرف البلاد!.

شاهدان آخران

على أن جارودي قد سبق في حديثه عن بُناة الإمبراطورية المزعومين بكاتب حر هو (البيزلوتي) الذي وازنَ بين همجية جيوش الاستعمار، ومَن يسمونهم بالبدايين المتوحشين في أفريقيا، ليثبت أن هؤلاء البدائيين لهم من تقاليد الرحمة والمؤازرة، ومواساة الضعفاء ما ليس لأوروبي متحضر في إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وألمانيا، وأن الذين يبيدون الآلاف باسم التقدم الحضاري قتلة سفاحون.

أما حديثه عن معركة بلاط الشهداء فقد وافق ما كتبه الأديب الفرنسي الأشهر^(١) (كلوت فاير) حين قال في صراحة تبلغ التحدي السافر: «في سنة ٧٣٢م حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في العصور الوسطى، هذه الفاجعة التي أمقت ذكرها، وهي الانتصار البغيض الذي ظفر به على مقربة من (بواتيه) أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين!! يكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال - أشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة - ليشاهد والألم أخذ منه ما عسى أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني المتسامح، وخلصها من الأهويل التي لا أسماء لها، وكان من أثر ذلك أن نتج خراب (غاليا) القديمة، فاستعبدتها اللصوص والقرصان، ثم تجزأت وتمزقت، وغرقت في الدماء والدموع!! ليس ما أكتبه فصلاً من التاريخ بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلمه المرء بنفسه بما يشاهد من خزائن كتب ويرى من مدن ويجتاز من بحار».

(١) الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، للدكتور رجب البيومي، ص ٢٤٢.

وتزید الحقائق وضوحاً حين يتخلص الباحثون من تعصبهم المقيت، فيقولون الحق كما تدل عليه البراهين الصادقة دون امتعاض.

- ٣ -

نحو الشيوعية

لم يفث جارودي باعتباره مفكراً يتصفح مذاهب العصر، ويدرس تياراته السياسية أن يفحص المذهب الشيوعي في كتبه المشهورة، وأقوال أئمه، وقد كان من خطئه الذي اعترف به في شجاعة أنه درس الأقوال والأفكار وحدها دون أن يقف على التطبيق المناقض، وأن يدرك الواقع الصارخ بمساويه الفادحة بعيداً عن زخرفة القول، وسفسطة الكلام، وكانت النازية في ألمانيا، والفاشية في إيطاليا، والدكتاتورية في أسبانيا تُفرغ الناس بما يقترف أصحابها من الفظائع الفردية، وتعمل على إثارة الضغائن بتمجيد الفرد وعبادته واتخاذ قوله مصحفاً منزلاً لا يأتيه الباطل.

ومفكر مثل جارودي يُسيئه كل الإساءة أن يتأله متسلط مثل هتلر أو موسوليني أو ستالين أو فرنكو لا شيء سوى أنه أجاد الدعاية في أمة غلبت على أمرها بما يُوحى إليها صباح مساءً من بهارج الادعاء، ودلائل الانتفاخ المتورم لدى أناس اختلقوا الأكذوبة وصدقوها حين وجدوا المصنفين والمذيعين، أما الرأسمالية في فرنسا وإنكلترا وأمريكا فلم يكن لها من الدعاية الإعلامية ما لبعض الدعايات المجلجلة في روسيا وفي صحف الأحزاب الشيوعية في أوروبا.

وللرأسمالية مساوئها التي تثقل الظهور إذا قورنت بما يزعمه الشيوعيون زيفاً دون تحقيق، وكلاماً دون عمل، وقد انخدع جارودي حين قرأ عند (ماركس) أن العالم منقسم إلى ملائكة متسلطين يمثلون الأقلية في اجتناء المكاسب وتضخم الثروات، وإلى عمال وفلاحين يمثلون الأكثرية دون أن يحصلوا على غير النزر اليسير، وأن العلاج الشيوعي لهذه الآفة الكاسحة أن يحظر مبدأ التملك الفردي، ليكون الجميع سواء، ولتنتفي الحروب بين أمم تدين مبدأ واحد لا خلاف عليه، خُذع المفكر بهذا القول، فدعا إليه وأصبح شيوعياً يؤمن بالماركسية، ولكنه فتح

عينه ليجد أن ما تُدّعى به باطل يمّوه به المتشدقون دون أن يجد التنفيذ، فالامتلاك في الدول الشيوعية وقف على قادة الحزب الواحد الذين ينغمسون في ترفٍ لا يقاس به ترف القياصرة، ولكنهم يسلبون حقوق الضعفاء تحت اسم المصادرة وفرض الحراسة، ليمنعوا كل كاسب أن يتمتع بخيره، وقد ذكروا أن انضمام الأمم إلى المذهب الشيوعي يمنع الحروب ويقضي على العداوات، والذي ينظر إلى الناحية التطبيقية، يجد أن الحروب لم تمتنع في العالم الشيوعي نفسه، فالصين على طرف النقيض من الاتحاد السوفيتي، وقد وقفت جنود الدولتين على الحدود متأهبة للانتقاض والالتحام، ولولا خوف الاتحاد السوفيتي من قوة الصين لبادرها بالغزو المدمر، كما فعلت روسيا مع المجر الشيوعي سنة ١٩٥٧م وكما اكتسحت جيوش السوفييت تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨م، وفي المجر وتشيكوسلوفاكيا قام الشيوعيون بحصد إخوانهم من غير رحمة، وقد حاولوا ذلك مع يوغوسلافيا حين خالف المارشال (تيتو) بعض الأفكار الروسية فعذوه خارجاً، وتأهبوا لاستتصاله لولا احتماؤه بالغرب.

أما الحرية الشخصية في العالم الشيوعي فهي محرمة «تحريراً» قاطعاً على غير الطبقة الحاكمة من أعضاء الحزب الواحد، فليس لكاتب أو خطيب أو ممثل أن يفوه بنقد يتعلق بالأوضاع السياسية أو الاقتصادية أو بعض الرؤوس الحاكمة مهما كان النقد صادقاً، ولئن تم ذلك فلا بد من النفي الرهيب الذي لا يعرف فيه الضحية باباً للعدل ينقذه من الشقاء، والذي لا يعرف أهل الضحية معه شيئاً عن عائلهم الذي اختطفوه بليل، ليعدم دون محاكمة أو يلقي في مجاهيل سيبيريا ليخضع لزبانية الإرهاب من أعوان الشيطان تعذيباً وتجويعاً وإهداراً لكرامة الإنسان.

وأما الجانب الروحي لدى الشيوعيين فقد طُمست أنواره عن العقول والقلوب، إذ لا يوجد إله خالق يكافئ المحسن، ويعاقب المسيئ، وليس ثمة دين سماوي جاء به الأنبياء، لأن من عُرف بالنبوة - في مذهبهم - كاذبٌ غير صادق، ومتى كان الإله غائباً عن المجتمع، ومتى كان الدين خرافة وأفبوناً للشعوب يسرق العقول ويطمس الأفكار، ومتى كان الأنبياء كذبة ودجاجلة، فإن كل ما سنّته الشرائع السماوية هراء لا قيمة له، والشيوعي لا يعترف برقابة سماوية، ولا يستمع لهواتف ضمير يرجو الثواب ويخشى العقاب! وإن مذهباً مادياً ينتهي إلى كل هذه الكوارث لهو أشد

المذاهب خطراً على الناس، لذلك أدركت جارودي حرية النظر، فاستقال من الحزب الشيوعي، وأعلن خداع الشيوعية للناس، وواصل البحث ليهتدي إلى الدين القويم.

حيرة المفكر

ماذا يصنع جارودي أمام ما اكتشفه من زيف المدنية الأوروبية غرباً عند الحلفاء وشرقاً عند الروس.

إنه لجأ إلى منطق الأرقام السافر ليعلم على الأشهاد بهذه الإحصائيات الواقعية ما يهدد العالم من استئصال وفناء!

لقد بحث جارودي فوجد أن العالم الغربي يسيطر على الدنيا جميعها منذ خمسة قرون، ففرض عليها أشد أنواع القلق والفرع بما أحدث من مدمرات حربية ستؤدي إلى انتحار البشرية.

يقول جارودي في أسف شديد: إن الطريقة التي يدار بها هذا الكوكب لا بد أن تؤدي إلى كارثة محققة، لأن الكسب المادي وحده بعيداً عن كل قيم الأخلاق والشرف هو المسيطر على اتجاه الدول القوية، لقد وجدت دول أوروبا المسيطرة أن بيع السلاح وحده هو أداة الكسب السريع ولا يهم أن يكون السلاح أداة تدمير وعدوان بل المهم أن يكون باب ثراء واستغلال. وفي كل حين يتطور السلاح إلى ما هو أفدح أثراً وأوخم عاقبة، فتضطر الدول المسكينة إلى نبذ ما اشترته بعرقها الكادح لتشتري من جديد هذا السلاح المتطور، والتاجر طرب نشوان لأنه وجد سوقاً نافقة تؤدي إلى الكسب، وإن حصدت معها ملايين الأرواح.

يقول جارودي: يكفي أن نعرف أن هناك خمسين ملياراً من الدولارات تُكرّس سنوياً للبحوث العسكرية، ففي عام ١٩٨٢م بلغت نفقات التسلح في العالم سبعمئة مليار من الدولارات، وأصبح على ظهر الكرة الأرضية خمسون ألف قبلة نووية، وممتان وتسعة وسبعون مفاعلاً ذرياً، بمعنى أن نصيب كل فرد على ظهر الأرض يصل إلى ما يوازي خمسة أطنان من المتفجرات.

فإذا تركت هذا الأمر المخجل ونظرت إلى الناحية الأخرى فإن الأمر يزداد خجلاً حين ترى من واقع إحصاءات الأمم المتحدة أن خمسين مليوناً من البشر قد ماتوا

جائعين لا يجدون ما يتبلغون به من كسرة الخبز!! ومنذ عام ١٩٦٠م والحروب المحلية في أفريقيا وآسيا لا تكاد تنقطع إذ يغذيها سماسرة الجشع ممن يبحثون للسلاح عن مورد لدى الشعوب الفقيرة التي يموت بعض أفرادها جوعاً!! الشعوب التي لا تجد ثمناً لكسرة الخبز الضرورية وتضطر إلى أن تشتري السلاح بالملايين! ولا يدهش الإنسان إذا علم أن مجموع ما يبيع من السلاح في هذا العام قد وصل إلى مئة وخمسين ملياراً من الدولارات ، وهذا ما اعترفت به الإحصاءات الرسمية التي سجلت ما علمته، فإذا عرفنا أن أكثر صفقات السلاح تكون سرية لا يعرف أحد مسارها الدقيق، فإن الجزم بأن أضعاف هذا الرقم الهائل قد يحسب في التقدير الدقيق، ومع قليل من التأمل نعرف أن هذا السباق المجنون من أجل ضراوة التسلح وجعله أكبر مورد للتجارة الرباحة قد كان أول باعث للفوضى الدموية في العالم، فهو الذي أدى إلى التضخم المالي لدى شعوب تقترض بالربا الحرام ثم لا تستطيع التسديد في الموعد المقرر، فتتضاعف الفائدة الربوية حتى تصل في أحيان كثيرة إلى مثل القيمة الأصلية لشراء السلاح!.

وقد أدى ذلك - كله كما تنطق إحصائيات هيئة الأمم المتحدة - إلى وجود ستمئة مليون من العاطلين في العالم لا يجدون باباً للكسب، وإلى وجود تسعمئة مليون من الأميين لم تسمح موارد بلادهم لهم بالتعليم والتعلم، وإلى وجود خمسمئة مليون من الفقراء الذين تتخلل قواهم شيئاً فشيئاً بتأثير الجوع الشديد حتى يجيئهم الموت، فيرونه باب الإنقاذ من شقاء لا يقف عند حد، وترداد الكارثة عنفاً حين تثبت الإحصائيات أن لكل مئة ألف نسمة ٥٥٦ جندياً يحارب أكثرهم من أجل لا شيء سوى أن الأقوياء قد بذروا الشر في أرض الفقراء ليجنوا الحرب، فتروج تجارة السلاح على حين لا تجد سوى ٨٥ طبيباً لكل مئة ألف نسمة! وهناك بلاد لا تعرف الطب العلمي إطلاقاً وإنما يعيش أبنائها في أمورهم الصحية عالّة على المتوارث من تطبيب الأجداد، وأكثره عديم الجدوى، بل منه ما يساعد قطعاً على فناء المريض.

الحل السريع على يسد الإسلام

بهذه الصواعق الرهيبة التي ابتدعتها حضارة الغرب تنطق الأدلة السافرة أنها حضارة مادية لا تعرف معنى الإنسانية! وأن عنصر الروح قد فقد منها إلى الأبد،

ولا بد من حلٍّ حاسم للبحث عن حضارة تبحث عن البواعث والتائج، ولا تقدم المنفعة المادية إذا كان الباعث عليها غير شريف! إن هدف أوروبا المعاصرة أن تكسب عن طريق السلاح ولا يهتمها بعد ذلك إذا كان السلاح مصدر خطرٍ ماحقٍ لملايين الضحايا! ما دام يؤدي إلى المكسب السريع، ولكن الإسلام يضع للحرب شروطاً، ويحترم لها من الموائيق ما يجعلها في أضيق النطاق، ثم هو لا يقر تجارة تهدف إلى الإبادة والاستئصال إلا إذا كان استعمال السلاح ضرورياً لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ولن تستقيم الأمور في العالم الغربي إلا إذا فُحصت البواعث فحصاً جيداً، ولن يكون ذلك مع معشرٍ يشره إلى المال، إذ أن القائمين على استغلال السلاح نفرٌ من المفكرين الذين ارتقت عقولهم، وانحطت أخلاقهم، ومجافة الخلق وابتعاده عن العقل هو مصدر الكارثة المحققة، والإسلام دين يهتف نبيه العظيم بقوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»، فالتأكد من الهدف الشريف في كل عمل هو الدرع الواقي من هذا الشر المستفحل ولن يكون ذلك بغير اتباع مناهج الإسلام.

- ٤ -

الدين الشامل

لو رجعنا إلى دين إبراهيم الحنيف نجده قد سرى فيما تبعه من الأديان بحيث قامت عليه، وامتدت منه، ولكنها - فيما عدا الإسلام - قد انحرفت عن منهجه، فاليهودية الأولى جاءت بالمحبة والمساواة، واحتضان الإنسانية كلها دون تفریق بين أحمر وأسود وأبيض، ولكن اليهود بعد الهجرة البابلية حرفوا دينهم، وأخذوا يقولون بالعنصرية البغيضة حين ادعوا أنهم شعب الله المختار، وعاملوا من سواهم على أنهم غرباء عن معدنهم، وليس لهم من الذمة ما لليهود، وغالوا في المادية لدرجة استباحة استغلال الضعفاء، ونهب الثروات عن طريق الربا الفاحش، فجاءت المسيحية لترد الناس إلى شرعة إبراهيم ولتنادي بالمساواة والحرية والإخاء، واضطهد المسيح من اليهود لأنه جاء بدين الإصلاح، ولم يلبث فريقٌ من أتباعه أن أدخلوا في دينه ما ليس فيه، فحاد عن شرعة إبراهيم، وهنا جاء الدين

الخاتم ليعيد الدين إلى مصدره الأول ، فهتف القرآن بقول الله عز وجل : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] .

ولذلك فالإسلام أصلح الأديان لقيادة العالم ، لأنه كما قال جارودي لا يلغي الديانات السابقة ، بل يصححها ، ويردها إلى منهجها الصحيح ، فالنبي محمد ﷺ لم يكن رسولاً فحسب ، وإنما كان رسولاً ورجل دولة ومشرعاً وزوجاً وأباً وتاجراً وقائداً حربياً ، فاكتمت به رسالة الإسلام أبعاداً غابت عن الرسائل الأولى التي بُشِّرَ بها الأنبياء ، لأن رسالة الإسلام تشمل جميع العلاقات الداخلية والخارجية في ظل العنصر الإنساني الذي يرمى حق الضعيف ، ويحميه من القوي ويقف دون الاستغلال والنهب والاستعباد ، فالإسلام يضيف على الحياة معنى وهدفاً ، ويحترم العقل حين يؤمن به ويدعو إلى الإنصاف إلى دلائله ، ويقدر العاطفة النبيلة حين يرمى الوجدان الإنساني ويستجيب إلى هوائف النفس الشريفة ، ويلبي رغباتها المشروعة في طهر ونظافة وشفافية ذات إلهام .

تقدم الإسلام

والإسلام لم يتقهقر مطلقاً في مده الطبيعي لأن جارودي يقرر أنه قد أصابه الضعف الطارئ حين سقطت أسبانيا في القرن الثامن ، ولكنه في الوقت نفسه أخذ سبيله إلى الانتشار في آسيا والهند وأندونيسيا وماليزيا وتايلاند والصين وكوريا واليابان ، ففي جميع هذه الدول ملايين مسلمة تفتدي دينها بالروح وتراه مصدر السعادة وباب الإنقاذ ، فإذا انتقلنا إلى أفريقيا فإننا نجد امتداد الإسلام لافتاً للنظر ، وهو امتداد لم يأت عن طريق الغزو ، بل عن طريق الإقناع الهادئ الذي قام به بعض المخلصين من التجار وأشياخ الطرق دون إلزام إلا بالموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، كما انتقلت الموجهة إلى أمريكا عند زواج القارة الجديدة ، بل إن محاربة السوفييت العنيفة للإسلام بنوع خاص لم تمنع أبناء الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي أن يحرصوا على الالتزام بقواعد دينهم الصحيح ، وقد أخذتهم الدعاية الكاذبة من كل اتجاه فزادتهم إيماناً ، حتى وقف قادة الكرملن حائرين

لا يدرون كيف يخلصون من تغلغل هذا الدين، إذ حاربوه بشتى المفتريات وضاع مالفقوه هباء، إذ لا يصح إلا الصحيح.

لقد التهمت أوروبا حضارة الإسلام ولكنها وقفت عند الجانب التطبيقي للمادة وحدها فعرفت بالتجربة العلمية كيف تهتدي إلى مئآت الاختراعات، ولكنها عجزت كل العجز أن تسلك بهذه الاختراعات مسلكها الصحيح، فلا تتوجه بها إلا للنافع المفيد كما يشير الإسلام، وهكذا خاب أساطين الغرب حين وقفوا عند حدود المادة الصماء في سيطرتهم العلمية، وهذا القصور الذي أصاب العقل الغربي جعل الأوروبي والأمريكي يتساءلان دائماً عن (الكيف) ولكن لا يتساءلان مرة واحدة عن السبب؟ فصاحب هذه الحضارة المادية يسأل كيف نصنع الأسلحة الذرية؟ كيف نصل إلى القمر؟ ولكنه لا يسأل أبداً: لماذا أصنع الأسلحة الذرية؟ وما أضرارها الناجمة إذا استعملت ولو مرة واحدة؟ ولا يسأل لماذا أصل إلى القمر؟ وما جدوى الوصول إذا عجزنا عن السعادة على سطح الأرض ولم نستطع استغلال خيراتها على نحو مطمئن أمين؟ وبناء على ذلك فالحضارة الغربية محكوم عليها بالموت، لا لأنها تفتقد الأساليب، ولكن لأنها تفتقد الغايات. ولا يمكننا أن نخرج من هذا المأزق إلا إذا سلكتنا مسلك الإسلام في البحث عن الغايات والأسباب معاً، لا بد من نبل الهدف واستقامته، وجعله مصدر سعادة وخير للناس جميعاً، أما أن يكون النفع المادي هو الهدف على حساب الأكثرية فلا بد أن نرتقب الدمار.

أمثلة واضحة

ومن الأمثلة التاريخية الواضحة التي قدمها جارودي في تحليله لمبادئ الإسلام، ما ذكره عن محمد ﷺ حين قال: إنه رفض أي تحالف يقوم على العصبية القبلية، وقال إن المجتمع العالمي يجب أن يكون للإنسانية جمعاء، وأن يحكم بقانون سماوي يلتزم به الجميع، ولن تقوم الدولة الإسلامية إلا بتنفيذ أحكام الله، يقول جارودي:

«إن أحكام الإسلام لا تنطلق من وجهة نظر فرد معين يعتبر نفسه المركز الرئيسي لكل شيء، ولكنها تنطلق من وجهة نظر الخالق جل وعلا التي أودعها كتابه الكريم، ومن منطلق هذه الروح التي تحارب الفردية ذات الأنانية الجشعة، وتدعو إلى سلام

شامل تحترم فيه جميع الحقوق، والحدود في الشريعة الإسلامية ملزمة لأن المسؤولية تقع على المجرم ولا تتعداه إلى سواه، فلا تزر وازرة وزر أخرى، والذين يثورون على قطع يد السارق بالحق قد قبلوا أن تقطع آلاف الرقاب بالباطل! وما من فرد متحكم في أوروبا إلا وانتهك القانون خفية، لأنه لا يطبق نصه الصريح، بل يلجأ إلى التأويل المفتعل ليحيل النص من النقيض إلى النقيض، هذا إذا تظاهر باحترام النص كما في إنكلترا وفرنسا، أما إذا بلغ به التضخم المتكبر مبلغ الغرور كهتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا، وستالين في روسيا فإنه يتحدى القانون، ويراه وسيلة للخداع، ثم يعمل على إصدار قانون آخر يوافق دكتاتوريته الباطشة، ويجد من الوصوليين والانتهازيين من يصفق له، ويرى قانونه الزائف حقاً لا شك فيه! وكل هذه الأخطار تنعدم انعداماً تاماً إذا أخذنا بالإسلام، لأن كتابه السماوي ذائع مشتهر، والأطفال في العالم الإسلامي يحفظونه صغاراً ويتدارسه الكبار، والاجتهاد في الإسلام دائماً في حدود النص القرآني فلا تحيّر ولا انحراف.

مبدأ الاجتهاد

إن الاجتهاد في الإسلام ضرورة، لأن لغة القرآن ليست رمزية يفهمها كل إنسان كما يشاء، لكنها لغة صريحة واضحة، ومع وضوحها تتطلب الاجتهاد عند التطبيق، إذ يجد من الأمور ما لم يصدر فيه حكم سابق، ولكن النص القرآني أو الحديث المسلّم به يشير إلى الحكم عن طريق القياس، ولن يكون القياس دون اجتهاد، وتاريخ الإسلام يقدم في مضمار الاجتهاد نماذج مشرّفة ممتازة، وفي أحكام الفقهاء وكبار القضاة أرفع أمثلة التطبيق الاجتهادي، فالإسلام يحمل بذرة نمائه المتجدد بما أوتي من سعة وشمول، وحاجتنا إليه في هذا الوقت أقوى من حاجتنا إليه في أي وقت سابق، لأن تغلغل الأنانية وراء القوانين الوضعية قد جعلها في تموج زبقي لا تستقر به على حال، ونحن نرى صراحة أن المنهج الغربي والمنهج السوفييتي قد أثبتا فشلهما التطبيقي. أما الإسلام فهو الذي يمنح العالم شرّقه وغزبه تطبيقاً واقعياً يقيه من الخوف، ويمنحه الأمل، إذ يعدّ الإنسان أcha الإنسان.

أسباب التخلف في العالم الإسلامي

ثم يتساءل الأستاذ جارودي : إذا كان الإسلام مصدر رقيّ المجتمع الإسلامي فلماذا تخلفت شعوبه هذا التخلف الأليم؟

وفي سبيل الإجابة يقول المفكر الكبير: إننا نسمع في الرد على هذا السؤال أن المسلمين قد أهملوا قواعد الإسلام فتأخروا، وهذه إجابة صحيحة، ولكنها ناقصة تحتاج إلى تتميم مفيد، هذا التتميم هو أن النمط الغربي قد خدع المسلمين في كثير من بلاد الإسلام عن التطبيق العلمي للإسلام، فهذا النمط الغربي قد أدى إلى نهب ثروات المسلمين، واستصفاء موارد العالم الثالث لحساب الشعوب الأوربية والأمريكية، وقد حطم الاستعمار الصناعات في كل بلد يحتله، لأنه يجعل البلد المحتل مصدر إنتاج زراعي أو صناعي، بمعنى أنه يحصل من بلاد الشرق على المادة الأولى لطير بها إلى مصانعه في الغرب ويردها مادة جديدة تباع بأبھظ الأثمان، وتكون وسيلة إلى استنزاف ما بقي من الدراهم لدى البلد المستغل! فحشع المستعمر هو الذي حطم بلاد العالم الثالث، وقد أعطيت بعض هذه البلاد استقلالاً صورياً، ولكنها بعد الاحتفال الشكلي بمظاهر هذا الاستقلال أخذت تتجه شيئاً فشيئاً إلى ضروب من الاحتلال المستمر، بمعنى أن الاستغلال قد فقد وجهه الداخلية، واحتفظ بمظهر خادع كان مدعاة النكته المتجددة دون انقطاع.

هذا إلى نوع من الاستبداد الفكري لدى من تثقفوا بثقافة الغرب، إذ صاروا يعدون أنفسهم رسل الفكر الحديث، ويرون الرجوع إلى تراث السلف مصدر تخلف، وهم في الواقع من أكبر أسباب هذا التخلف المشين!

هذه خواطر سجلها الكاتب الكبير في أحاديثه وكتبه، وإنني إذ أحاول أن أسلط عليها بعض الضوء النافذ أرجو أن يراجعها الدارسون في بصر ويقظة لتكون إحدى علائم الطريق.



سالم أبو حاجب كبير علماء الزيتونة وشيخ شيوخها

لا أدري أكتب مقالة علمية أم أدبية؟ لأن مادة من النثر الفني تجمعت لدي، وأنا بصدد الحديث عن العلامة التونسي الكبير، سالم أبو حاجب، إذ أن أديب عصره المرحوم محمد المويلحي قدّمه للقراء تقديماً أدبياً بأسلوب جيله، قال عنه في خاتمة (عيسى بن هشام) إذ تلقى رسالة من الشيخ الجليل تتضمن رأيه في كتابه، ففاخر بتسجيلها، وقال عن صاحبها الشيخ سالم^(١):

«ناهيك بقدر هذه الرسالة، بركةً ويمناً وشرفاً، وجلالاً لمن يُمثّل لك بالفعل، ما يُروى عن السلف الصالح في القول، ويشهد لك بسيرته في هذه الأيام كيف كان العالم العامل في صدر الإسلام، ويُعيد لنا ذكرى البصري في الزهد والتقى، والكوفي في الرأي والحجى، والمكي في الفقه والدين، والمدني في العلم علم اليقين، هذا إلى سعة في الاطلاع، وتصرف في الأفكار، ودقة في البحث، واستنباط الأمور، يؤلف الغابر بالحاضر، ويطابق بين أحكام ما قضت به الحكمة في سالف الأوان وما تقضي به قواعد هذا الزمان.

أنفق العمر ناسكاً يطلب العلم يكشف عن أصله واعتقاده فهو المثال التام الذي ينشده الإسلام منذ السنين والأعوام، من بين العلماء الأعلام، ليعود إليه مجده، ويرتد إليه حقه، ويعرف به قدره، ولو من الله بمن يأخذ بقدرته في سائر الأقطار، ولو جرى العلماء على مثاله في كلّ مصر من الأمصار لاستوى الأواخر بالأوائل في العلم والدين، ولعاد الإسلام إلى العز القديم والنصر المبين».

(١) حديث عيسى بن هشام، ص ٤٦٣.

هذا ما كتبه المويلحي، وقد تكونُ المبالغة واضحة في بعض معانيه ولكنها تنم عن أصل أصيل لدى الرجل الكبير يتجلى في سعة أفقه، وعمق مداركه، لأن اهتمام شيخ من شيوخ الدين بتونس برواية أدبية تصدر في مصر، فيتحفز لقراءتها واستنباط خوافيها، لأكبر دلالة على أن الشيخ قد خالف زملاءه إذ عكفوا على العلم وحده، وتركوا روايات الأدب لغيرهم من الأدباء. ويخيل إلي أن ولوع المويلحي بالسجع، قد صادف قبولاً لدى الشيخ إذ كان هو الآخر ممن يلتزم السجع في رسائله وخطبه، وللسجع زماناً يأتلق فيه ثم يخبو، وقد كان زمان الرجلين فترة من فترات ازدهار هذا الفن على يد أمثال: عبد الله فكري، وحفني ناصف، والسيد توفيق البكري، ومصطفى نجيب، ومحمد المويلحي؛ والإنسان ابن عصره، فليس لمنتقدٍ في هذا الزمن أن يقول: أسلوبٌ مضى ولن يعود!.

أما الرسالة التي كتبها العلامة سالم إلى المويلحي فقد قال فيها عن كتاب عيسى بن هشام^(١): «فَيَالَهُ من معلّم قد علّم منه كلّ أناس مشربهم، ووجد فيه الباحثون عن وسائل الاستقامة مأربهم، فرجالُ الحكم مثلاً فيه سواء أكانوا من الأمة الإسلامية أم غيرها، يتعرّفون منه ملاك عز الأمة، ونمو خيرها، بإسناد الوظائف إلى أهل المعرفة والفضل، والضنّ بها عن غير الأهل، وإقامة منار العلم والعدل، لتدارك ما يخترّب بيد الجور والجهل، والعلماء يدركون به طرق النصّح في التعليم، وعدم النفرة من الحديث لكونه لم يُعهد في القديم، ومع ما يلزم لهم في اقتياد ذوي الجهالة والعناد من الملاحظات، والتحذير مما يُدنّس الشريعة المصونة من مختلف الخرافات، والحاكمُ الغاشم ينتهي من مطالعته بالكفّ والإعراض، عن كل ما يمس المروءة ويُدنّس الأعراض، والمنشئ يتعلم منه كيف يسحر العقول بهيمنة لفظه ويستلب القلوب بحس إرشاده ووعظه، وكيف يتحلّ الأديب مهارة الطبيب، فيشرح النصائح بأسلوب عجيب، لا يتطرّقه إنكار أو تكذيب، وقد يجد المريض من حذق الطبيب عذوبة التعذيب، ثم يسترشد به الوالد في تربية أبنائه، ويدعوهم إلى حفظ مجد البيت والثروة بعد فنائه، ويعينهم على استثمار دوحة البذور، وينقذهم مما يقضي إليه سوء السيرة من الشرور».

هذا بعض ما قاله الشيخ سالم، وهو في أبسط مدلولاته يدلّ على أن الشيخ قد

(١) حديث عيسى بن هشام، ص ٤٦٤.

عَكَفَ على قراءة الرواية الأدبية عكوفاً جعله يستبطن دخالها، ويستكشف سرائرها، بل يدلّ على أن مشربها قد وافق مشربه، ونهجها في الإصلاح قد واءم نهجه، لأنّ من يقرأ الخطب المنبرية التي سجّلها الشيخ في ديوان خطبه، يراها تتفق في روحها مع منهج المويلحي ذا التقويم والتهذيب، كما يجد أسلوبها قريباً من أسلوب عيسى بن هشام إذ أثر العلامة الكبير هذا النسق من البيان المسجوع في تدييع أفكاره، وتزيين آرائه، والسجع أكثر قبولاً في الخطب المنبرية عنه في الكتب الأدبية، لذلك خُيل إلى أن الشيخ قد استراح إلى أسلوب المويلحي حين آنسَ تماثلاً في العبارة والإشارة، أو الشكل والمضمون كما يقال اليوم. وقد ضنَّ الشيخ على القراء بجمع آثاره القلمية في كتاب غير ما دوّنه في الخطب المنبرية، ولعلي أعطي فكرة موجزة عن طريقته الأدبية حين أنقلُ عن الديوان المنبري بعضَ خُطبةٍ قالها في تربية الأبناء، إذ قال في مفتتح كلمته^(١):

«الحمد لله الذي أئسّ مصالح العباد على وسائل التواصل، وربط عمران الأرض بسلاسل التناسل، فركّب في الطبيعة ما يحملُ على اتصالِ الذكر بالأنثى، وميّز ما يئني عليه من طُرقه وما يئني، إذ مِنْ حِكْمِ حَفْظِ الأنساب، تحقيقُ الوصلة بين الأجنّة والأصلاب، وخلوصُ المعادن الإنسانية وإن كَانَ أصلُها من تراب، والمعدنُ إذا اتحدَ سهل الالتحام، كما يُشاهد من تَراحِمِ ذوي الأرحام، إذ الفرعُ الحقيقي ينجذب بالطبع إلى أصله، فيقوم به كما يتقوم الجنس بفصله، وكما يتدعم ذباب السيف بنصله، فسبحانه من قادر حكيم، خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأرشده أن يسلك فيما يجب لأصله وفزعه النهج القويم».

وقضت الخطبة تُحدّث في مثل هذا الأسلوب عن حقوقِ الأبناء على الآباء، وحقوقِ الآباء على الأبناء، ومن آرائه في هذا الصدد:

«ويجبُ أن يُمنَعَ الولدُ في أوّل الأمر من خلطة الناس، لأنها مجلبة لكل شرّ وبأس، ثم إذا عرف الخير والشرّ، وصار بحيث لا يشتبهُ عليه الفاجر بالبرّ، ولا تروجُ عليه الخدائع والمكر، يؤذّن له في مخالطة ذوي الرشد والحياء، ويتباعدُ عمّن فوقه من الأغنياء، ومَنْ تحته من الأغبياء، ولا بأس أن يُدرَّب على تنمية المال، والتوصّل لاكتسابه من طرق الحلال، ويذم التداين، إذ يجلبُ بين الأجنّة

(١) الديوان، ص ١٣٨ (الخطبة الثالثة لشهر جمادى الأولى).

العداوات والتضاغن، ولأنّ تصبر عليك نفسك التي بين جنبيك، أهون وأحق من صبر الناس عليك، ومما يذم للصبي صرفُ الهمة لتحسين اللباس والطعام، والتقدم على من هو أسنُّ منه في الكلام، وكان من تربية لقمان لابنه: يا بني إن كنت تشك أن تموت، فاجتهد ألا تنام، وإن كنت تشك أن تستيقظ فاجتهد ألا تستيقظ بعد المنام. يعني كما أنك تنام فلا بد أن تموت، وكما أنك تستيقظ من نومك فلا بد أن تُبعث، ومثل هذا وإن كان من قياس التمثيل، الذي لا يُفقد القطع بالدليل، لكّته يغرس في النفوس عقيدةً فطرية، تجري مجرى الجِليّات الجبرية».

هذا بعض ما كتبه سالم في كتابه الوحيد الذي نشره مطبوعاً، ولعلّه لم يطبعه، إلا ليؤدّي رسالة المنبر في عصر لم يكن فيه خطيبٌ منبري يجري على سننٍ صحيح، إذ كانت موضوعات الخطب كلها تحذير من النار ووصفٌ لهول القبر وعذاب جهنم، وتصوير للأساطير الإسرائيلية، ودعوةٌ للزهد والانصراف عن الحياة، وهي غفلة لا أدري كيف وقع فيها هؤلاء الخطباء! ولم يكن الأمر كذلك في تونس، وحدها بل في كل بقاع العالم العربي حين فهم الدين على غير وجهه الصحيح، فاضطرّ سالم إلى أن يُنبّه الناس إلى العمل الصالح في الحياة، وإلى أن الإسلام دين الكرامة والفخر والنهوض، وله من الفضائل ما يجب أن يتردّد دون انقطاع، وله من رعاية الإنسان ابناً وأباً وجداً ما يضمن تعاون الأسرة، التي هي بارتفاعها أداة لرفعة الأمة! في هذه المعاني جالت خطب سالم، وقد أسلفنا أنموذجاً منها يتحدث عن رعاية الآباء للأبناء.

وفي المصلحين قومٌ لم يجعلوا القلم أداة إصلاحهم، بل انطلقوا إلى الإصلاح العلمي في الدروس وفي المجتمعات الخاصة والعامة، نعرف منهم نماذج لم تكتب كثيراً ولكنها فعلت كثيراً، نعرف منهم في هذا العصر جمال الدين الأفغاني الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، ونعرف منهم حسن البنا الذي سيقول التاريخ - أو قاله - إنه أبعد أثراً في نضاله الفسيح الممتد من جمال الأفغاني، ونعرف منهم أخيراً سالم أباً حاجب الذي ترك ذكره في قومه، وعلمه في صدور تلاميذه فدأبوا يذكرونه بالفضل، ويكرّرون مواقفه، ويتحدثون عن جهاده السياسي، جوار الحديث عن مجده العلمي.

لقد كان الأستاذ محمد الخضر حسين في مصر كثير الحديث عن أستاذه سالم،

فهو يعطر مجالسه بذكره، كما يشير إلى مواقفه في مقالاته، ومن حديث الخضر، وحديث السيد محمد رشيد رضا عنه في المنار عرفت مصرُّ سالم أبا حاجب معرفة أنزلته منزلة الاعتزاز، أذكر أن الخضر كتب مقالاً عن الحركة العلمية في تونس، مقالاً مستفيضاً ختمه بالحديث عن ثلاثة من علماء الزيتونة تلقى عليهم العلم في الجامع الأعظم، هم سالم أبو حاجب وعمر بن الشيخ، ومحمد النجار، فقال عن الأول^(١):

«وأستاذنا أبو حاجب، حضرتُ دروسه عندما أخذت في قراءة الكتب العالية، فشعرت بأنني دخلت في مجال أفسح للنظر، وأدعى للفكر، إذ لم يكن الأستاذ مما يقتصر في مناقشته على عبارات المؤلفين، بل كان يتجاوزها إلى نقد الآراء نفسها، ويتجاوز النقد إلى الوقوف على أسرار المباحث دينية كانت أم عربية ولا يترك في درس الكتب الشرعية أن يعقد الصلة بين أصول الإسلام والمدنية الحاضرة.

أما أستاذنا المرحوم الشيخ عمر بن الشيخ فقد كان نافذ الفكر في المباحث الغامضة، قديراً على حل المسائل العويصة، ولكنه لا يُكثر من مناقشة المؤلفين، وإذا ناقش في عبارة أو رأي فبأدب واحترام، وقد درس هذا الأستاذ كتاب المواقف من فاتحته إلى مثنهائه، وكان يوم ختمه لهذا الكتاب يوماً مشهوداً.

وأما الأستاذ المرحوم الشيخ محمد النجار فقد كان واسع الاطلاع، غزير العلم، وإذا صح لنا أن نعدّ الأستاذ الشيخ سالم أبا حاجب أخصائياً في علوم اللغة والنحو والبلاغة والأدب لظهور رسوخه في هذه العلوم أكثر من غيرها وصح لنا أن نعد الأستاذ الشيخ عمر بن الشيخ أخصائياً في الفقه والكلام والمنطق والفلسفة لظهور مكانته في هذه العلوم أكثر من سواها، فإن الأستاذ الشيخ محمد النجار كان نخباً في العلوم التي تُدرس في جامع الزيتونة في درجات متساوية أو متقاربة.

وفي كتاب تونس وجامع الزيتونة الذي نقلت منه هذا النص ترجمتان للشيخين عمر بن الشيخ ومحمد النجار، ولم أجذ ترجمة مستقلة للشيخ سالم كتبها الخضر مع أنه كان يلهج بذكره في حديثه ومقالاته أكثر مما كان يذكر صاحبيه، وفيما يذكره بعض الطرافة مثل قوله^(٢): «دخل عالم تُوزر الشيخ إبراهيم أبو علاّق جامع

(١) تونس وجامع الزيتونة للشيخ محمد الخضر حسين، ص ٣٠.

(٢) مجلة لواء الإسلام، شعبان، سنة ١٣٧٥هـ.

الزيتونة، فَوَجَدَ أستاذنا سالماً أبا حاجب في أحد الدروس فَبَاحَثَهُ الشيخ أبو علاّق، حتى أبرمه وهو لا يعرفه، فَدَعَا مُلاحِظَ المسجد لإخراجه، فخرجَ الشيخ أبو علاّق، وابتداء قصيدة قال في مطلعها:

تَقاصَرْتُ إذ أبدى التطاولَ سالم وسالمتُ والقاصي المكان يُسالم
فلما سمع الأستاذ القصيدة، وعرف أنّه من العلماء الأدباء، ذهب إليه واعتذر له وأكرمه واستمرت الصحبة بينهما.

ومثل ما رواه عنه إذ قال^(١):

وَرَوَى أستاذنا أبو حاجب أنّ وزيراً قال للملك: لا أرى السّجن تعذيباً لأحد، فإنّ الإنسان في سجنه يجلس في مكان ويأتيه أكله وشربه حتّى يخرج، فقال الملك للسّجان، هَبْ مِكاناً للوزير وأعطه كل ما يطلب، وصدع الوزير بالأمر رهبة، فجلّس في الحبس بعض يوم، وصادف أن اجتمع برجل لا يفهم عنه، فقال للسّجان: قل للملك: قد عرفت مقدار عذاب السّجن، فأمر بإطلاقه.

وأذكر طرفةً ثالثة قرأتها للخضر عن الشيخ سالم، ولم أذكر مصدرها، إذ روى: «أنّ أحد الطلاب سأله ذات يوم: هل في الجنة درسٌ للعلم؟ فقال الأستاذ: نعم؟ فقال الطالب: وما الدليل؟ قال الأستاذ: قول الله عز وجل عن الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ﴾، والأنفس تشتهي العلم وتلذه»، وبمثل هذه الطرف ندرك نمطاً من سلوك الشيخ راضياً وغازباً.

وأقوى ما ساعد على امتداد فضل الشيخ، أنّه اتّصل بحركة الإصلاح الديني في العالم العربي، إذ صادق الشيخ محمد عبده، واحتفل به احتفالاً رائعاً حين زار تونس مرتين، وكانا في مجلسهما الخاص يتذاكران فضل جمال الدين الأفغاني ويُعلنان ما يعرفان عن جهاده الموقظ الباعث، وفي المجلس العام بين العلماء كان الشيخ عبده يعرض حالة مصر العلمية وما قام به من الاقتراحات الإصلاحية في التعليم الأزهري، فيرى الشيخ سالم يُعلن أنّ الزيتونة في حاجة إلى تنفيذ هذه الاقتراحات، لأن التعليم الديني في العالم الإسلامي في حاجة إلى وثبة طافرة، وقد مات الشيخ محمد عبده دون أن يشهد ثمار غرسه، أمّا الشيخ سالم فقد امتدّ به الزمن

(١) لواء الإسلام، جمادى الآخرة، ١٣٧٥هـ.

حتّى رأى الخطوات المتتابعة في إصلاح التعليم الزيتوني، وحتى رأى نفرأ من تلاميذه أُشربوا روح الإصلاح، وعملوا على تحقيق تعاليمه ومنهم من وصل إلى مشيخة الإسلام، فصار أداة تنفيذ عمليّ مستنير.

وكان من أبرز صفاته العلمية أن يُحاول بالتي هي أحسن، وأن يغضّ النظر عن تطاول الكبار ممّن يزعمون لأنفسهم المعرفة في كل شيء، فقد كان العلامة اللغوي الشهير محمد بن محمود بن التلاميذ الشنقيطي، وقع في جدل حاد حول صحة عبارة الإمام مالك رضي الله عنه القائلة: «وعليه هذّي بدنة أو بقرة أو شاة إن لم يجد إلّا هي» مع بعض علماء المدينة، ورأى هؤلاء أن يستأنسوا برأي الشيخ سالم أبي حاجب عالم تونس الأشهر فوقفَ إلى جانبهم حين قرر أن الحقّ في جانبهم وأن الإمام مالك رضي الله عنه وإن كان إماماً في الفقه فليس من أرباب السليقة العربية^(١)، وكلام أبي حاجب حقٌّ لأن علماء اللّغة قد أجمعوا على أن عهد السليقة العربية قد انتهى بانتهاء الدولة الأموية، وأصبح بشار بن برد ومَن جاء بعده لا يحتج بشعرهم، ومالك رضي الله عنه قد عاش إلى عهد الرشيد، فليس إذن ممن يُحتج بقوله اللغوي، ولكن الشنقيطي حمل حملة شعواء على الشيخ، فبعد أن وصفه بالشيخ الجليل والأستاذ النبيل، تورّط في وصفه بالجهالة والغفلة إلى ما ينحو هذا النحو، وإعراب (هي) مفعولاً به هو موضع الخطأ، لأن ضمير المفعول به ضمير نصب لا رفع، ولكن الشنقيطي يُفسّر فعل (يجد) بمعنى يغني فتكون فاعلاً! وإذن فلكل وجهه، وليس من شأن المخالف أن يُسفه مخالفه إذا اعتمد على سند نحوي، ولكن هكذا فعل ابن التلاميذ!

- ٢ -

تبعث ما كُتب عن الشيخ أبي حاجب، فرأيت ما نشره الأستاذ علي دب بمجلة الهداية التونسية سنة ١٤١٥ هـ في خمسة أعداد متوالية، أقوى ما كُتب في بابهِ، لأنه قرأ ما تقدّمه من تراجم كتبها الأستاذ محمد الفاضل بن عاشور والأستاذ محمود شمام وابن مخلوف وغيرهم، فكانت مصادره مستوفاة، وقد تحدّث عن نشأته في قرية (بنيل) الساحلية قرب (المنستير) في عام يُرجح أنه سنة ١٨٢٨ م، وبهذه القرية

(١) الرحلة العلمية للشنقيطي، ص ٥٥ وما بعدها.

خَدَمَ الأرضَ ورَعَى الغنمَ، وقد عارض ذلك بعض الكاتِبين مرتفعاً بالشيخ عن مزاولَةِ الفلاحة، وهذا ما اعتَبَرَهُ لَغْطاً في غير محلِّه، لأنَّ هذه النشأة الزراعيَّة قد أمدَّتْه بصلابة وقوة، وهي أخرى بأن تُضاف إلى حسابِه لا أن يُتَنَصَّلَ منها، ثم انتَقَلَ في الثامنة من عمره إلى تونس، وكان بها عمَّه إبراهيم وهو أستاذُ فاضل يقوم بتعليم أولاد الوزير القائم لهذا المعهد، فرعاهُ بعنايته ودَفَعَ به إلى طلب العلم في كُتَّاب (باب منارة) بتونس، فكان ذلك تمهيداً لالتحاقه بالزيتونة حين كانت تسعدُ بعلماء أعلام مثل شَيْخِي الإسلام محمد بن الخوجه، وإبراهيم الرياحي ومحمد بن معاوية ومصطفى بيرم وغيرهم، ومع ابتعاد الزيتونة نسبياً عن علوم اللغة، فإن الطَّالِب الناشئ وَجَدَ من نفسه كَلْفاً بمعرفة الألفاظ الغريبة، ولم تَكُنْ في القاموس المحيط إذ ذاك غير نسخة في قصر الوزير، وكانت من الرِّعاية الخاصَّة بحيثُ لا يسمَح لأحد باستعارتها ولكنَّ سالم بوساطة عمِّه قد اهتمدى إليها وأكب عليها حفظاً واستظهاراً، فكان تَضَلُّعُه في معرفة الغريب ميزة تُحسب له بين الشيوخ والتلاميذ معاً، وكذلك أخذ تدرِّس كتاب المطول للسَّعد التفتازاني في علوم البلاغة، وهو كتابٌ لا يشرَّب له غير تلاميذ المرحلة العالية لأنَّه من العمق والغوص والاستطراد والتعقيد أحياناً بحيث لا يصبر عليه غير الشيوخ!

أما الذي أذكى في نفسه حب الأدب الخالص إذكاء ترتفع حرارته كثيراً، فهو أديبُ العصر وشاعره الكبير محمود قبادو حيث وثَّق صلته به، وكان محمود قبادو مؤسس نهضة أدبية رائعة في البلاد، وقد دعا إلى تعلُّم اللغات الأوروبية، ودراسة العلوم الحديثة، فأعجب الأستاذ بتلميذه، وتطارحا الشعر على صفحات الجرائد، وعظمت ثقة الشيخ سالم بنفسه، فكانَ يحضر مجالس الشيوخ بالزيتونة، ويسمعُ ويعارض، ومنهم من ضاق به ذرعاً، ومن لَمَح فيه بوادر اليقظة الفكرية فاستدناه وقربه، ومنهم الشيخ محمد بيرم الذي قدَّمه إلى رجال الدولة وكبار الساسة، فعقد صلته بالجنرالات خير الدين وحسين ورستم، وهم ذوو الأمر في البلاد، والقائمون على الإصلاح الإداري، يقول الأستاذ علي دب^(١):

«وهذا المناخ هو الذي أكسب الشاب مزيداً من التجربة والاطلاع، وتنوع الأفكار، ولا شك أنه فرض عليه واقعاً جديداً لم يكن يعرفه في المناهج الدراسية،

(١) مجلة الهداية: عدد محرم، سنة ١٤١٥، ص ٨٦.

فبدأ يعيد النظر في ثقافته، فبرمَّ بعضُها، ويضيف إليها ما جدَّ من أفكار وكتب وصحافة، حتى لا يكونَ طفيلياً على مائدة أقطاب المدينة، وقادة الرأي فيها، فإنَّها فرصةٌ جديدةٌ تُتاح لشيخ صغير حديث التخرج لا تتعدَّى خبرته علوم اللُّغة العربية والشرع، وبحكم سنه كان قريباً من شباب الإصلاح خير الدين وحسين ورستم، وهذه المناسبات لم تُضَفْ إلى معارفه الجديدة فقط بل وفَّرت له فرصة القفز إلى المناصب الإدارية».

كان خير الدين التونسي أبرز مصلح تونسي ظهر في القرن التاسع عشر، وحين وُضع قواعد الإصلاح الإداري والسياسي وانتقلَ بها من حيز الاقتراح إلى حيز التنفيذ، خَاف أن يجد من شيوخ الزيتونة معارضةً قوية، ولهؤلاء صوتٌ مسموع في الأمة، ولا بدَّ أن يحوز رضاهم التام كي تمتنعَ الثوائر في الداخل، وحسبُه ما يلقي في الخارج من اعتراضات، ولا بد لإقناع الشيوخ من منطقٍ ديني يؤمنون بنصوصه، ويعتقدونَ قواعده، وتلك مهمة سالم أبي حاجب حيث انبرى يكتب في الصحف عن سعة الشريعة الإسلامية، وصلاحياتها لكل زمان ومكان بما تتضمن من قواعد عامة تندرج تحتها جزئيات كثيرة، كما أوضح أبواب الأصول الكفيلة بتلبية رغبات المصلحين مثل: سدِّ الذرائع، والعرف، والمصالح المرسلة، والاستحسان. وضربَ لكلٍّ من هذه الأمور أمثلة من الواقع العلمي، متحدثاً عن الشورى وتطوُّر نظامها بحيث لا تُخالف الجوهر المراد عن مشروعيتها، كما أمده التاريخ الإسلامي بأمثلة تتفق مع ما يُراد من الإصلاح الداخلي من التنظيمات الإدارية، والتشريعات الضرائبية.

وقد فوجئ بعض العلماء بهذه الآراء فعكفوا على كُتُبهم يحاولون الرد عليها، ولكنهم لم يجدوا القدرة الأسلوبية على بسط ما يريدون، لأنَّ البيان لا قيمة له إذا لم يؤيده منطق صائب، أو دليل ملزم من كتاب أو سنة، لذلك سكت مَنْ سكت عن أَلَم، وأحسن الشيخ أن شبَّيه الزيتونة من الطلاب هم معقد الرجاء، فجعل يعقد المجالس العلمية معهم ليُخرج بهم عن دائرة المقررات العلمية إلى فضاء الإصلاح الإداري الذي يسير فيه خير الدين على هدى وبصيرة، كما أخذ يقرأ عليهم فصولاً من كتاب (أقوم المسالك) الذي نشره خير الدين ليعلن رأيه العلمي في إنهاء الشعوب الإسلامية بعامَّة، والشعب التونسي بخاصة، وبَعْضُ الناس يقول إن الشيخ

سالم هو الذي كَتَبَ فصوله، وهذا بعيدٌ بعيد، لأنَّ عون الشيخ قد وَقَفَ عند تهية التصوص الشرعية الدالة على الإصلاح، والآمرة به، وليسَ هذا بالشيء اليسير، فكُتِبَ الفقه حينئذٍ كانت بعيدة كل البعد عما يتجه إليه المصلحون، لأنها اختيرت من المؤلفات المتأخرة التي اكتفت بشرح المتن وكتابة الحاشية، وحُرِفَت الهمم إلى فهم عبارات المؤلف، والتعبّد بما قال، حتّى إذا وُجِدَ خطأ واضحٌ فلا بد من احتيال تصحيح له، وقد كثر الطُّرق على وجوب الإصلاح حتّى أصبح من المقرّر أن الشريعة لا تتعارض مع الإصلاح، وأنّ التنظيمات ضرورية للوطن التونسي ليلحق بدول أوروبا المتحضرة.

كما اتّسع مجالُ سالم في الكتابة، حتّى شهد له أحمد فارس الشدياق حين قرأ فصولاً من بيانه النقدي، إذ كانَ حكماً بين الشدياق وخصومه، فأبانَ عن مقدرة لغوية فائقة، ساعده عليها استظهاره للقاموس في عهد الصبا الأول، وقد بلغ من إعجاب أحمد فارس بالشيخ، أنه قال لخير الدين: إنّ سالم أبا حاجب ليس في المنزلة التي يستأهلها، وإنّ النهضة لن تبلغ مرتقاها دُونَ أن يكون من أكبر دعايتها البارزين، وهذا ما قاله أستاذه الشاعر المصلح محمود قابادو، وما أكّده محمد بيرم وأحمد كريم، وكان خير الدين يرى ذلك، ويخشى أن يثبّ بصاحبه إلى ما فوق مستوى أستاذته، فتثور عليه الثوائر، ولكنه أمام إجماع هؤلاء الكبار دَفَعَ به إلى رئاسة المجلس البلدي ثم اختاره عضواً بارزاً في لجان عدة، وَجَدَّ من الملابس ما أوجب عزل خير الدين، فانقطعت حركة الإصلاح إلى حين، وحاولَ الشيخ سالم أن يُسالمَ من خلّفوه من الجنرالات، ولكنه كان يحفظ أمامهم مقام خير الدين، ويردّ غييته، وتلك شجاعة خلقية كريمة، لأنّ أكثر الوصوليين قد أخذوا ينبزون المصلح الكبير تقرباً لغرمائه من ذوي النفوذ، وهو ما تحاشاه عالم فاضل له مثل أخلاق الشيخ سالم.

ومن أظهر المؤثرات القوية في حياة الشيخ سالم، وفي اتجاهه الإصلاحية ما قام به من الرحلات إلى أوروبا، حيث مكثَ ستّ سنوات في إيطاليا، ولم يعتزل الناس في مدينة الفنون الراقية، ولكنه بادر فتعلم اللغة الإيطالية وتنقّل في العواصم الأوروبية، ومن بينها باريس التي قابل فيها أعظم دعاة الإصلاح في العالم الإسلامي، وتجاوبت الألسنة معلنة ما تكنّ الضمائر من شوقٍ للنهوض العاجل

بالأمة الإسلامية، ولعلّ من آثار الشيخ النافعة في رحلاته رُدوده المتتابعة على ما يثيره أعداء الأمة الإسلامية من أراجيف حول جمود الإسلام، وتقهقره، وأنه السبب الأوّل في تأخر المسلمين، وهي شبهات قاومها جمال الدين ومحمد عبده في باريس، وردّد محتواها سالم أبو حاجب في روما، ومن أظهر ما أفاض فيه الشيخ دفاعه عن الإسلام فيما يعتبره الأوروبيون مأخذاً جوهرياً مثل الطلاق والزّق، واهتضام حقوق المرأة في زعمهم، وهي شبهات تتكرر بمناسبة ودون مناسبة، ويقوم أمثال سالم أبي حاجب بالرد عليها، في قوة وإقناع، ولكنها بعد أن تجد هذا الدفاع الصامد تُذاع من جديد على أيدي أشباه المبشرين من المستشرقين، لأنّ الهدف ليس هو تجلية الحقائق، ولكنه الافتراء على الإسلام بتكرار ما بان بطلانه، واتّضح عواره، وما زلنا إلى اليوم بعد قرابة قرن ونصف نجد شبهات الأمس تتردد في كُتب اليوم، وكأنها حق قام عليه الدليل.

وقد عاد الشيخ سالم بعد ستة أعوام إلى عَرينه بتونس ليتولّى مناصب علمية بارزة أهمها رُتبة التدريس وهي أعظم درجة تربوية في المعهد الديني العريق، وصاحبها يصير من أكبر العلماء دون منازع، وقد أثبت الشيخ أصالته العلمية في دروسه المتتابعة، تلك التي لم تقتصر على طلاب الزيتونة، بل حضرها رجال السياسة والصحافة والقضاء، وكأنّه بهذه الدروس يحذو حذو الإمام محمد عبده في دروس التفسير التي كان يلقيها بالرواق العباسي بالجامع الأزهر مرتين كل أسبوع، حيث كان الحضور من غير الأزهرين أكثر وأوفى، وبهذا الصيَال الفكري المُشافه، كَوّن الرجلان العظيمان صفوةً من خيرة التلاميذ في مصر وفي تونس، ومنهم من وصل إلى المناصب العليا في الإدارة والسياسة والقضاء، ولذلك من الآثار القوية في نهضة البلاد ما لا ينكره إلا جحود عنيد.

وكان من حظ الزيتونة أن الشيخ قضى في رحابها خمسة وستين عاماً مُدرّساً وأستاذاً، وهي مدّة لم تُنح لغيره، وقد ساعدت على إعداد أفواج كثيرة من الطلاب صاروا علماء من بعده، منهم من سار على نهجه ومنهم من جاوزه في تلقي علوم إدارية وقانونية أهلتهم ليكون رجل إدارة وولاية يُستفَع به في شتى مرافق الحياة العالية.

وإذا رجّعنا إلى الكتب العلمية التي قام بتدريسها في هذا المدى الأطول فإننا نجدها تنوعُ بين الأدب والعلم، واختصاصُ الشيخ بالأدب واللغة في هذا المعهد

العريق لم يُسبق إليه، فقد شرحَ لطلّابه كتاب (صبح الأعشى) للقلقشندي، على ما ذكره مؤرخه الأستاذ علي دب^(١)، وهو كتاب موسوعي ضخم لم يُدرَس بالأزهر نفسه ولا في أي جامعة دينية، إذ كان مع اهتمامه بمسائل البيان وطرق البلاغة في باب من أبوابه يضمّ من المعارف التاريخية والكونية ما ينتقل بالطلاب نقلةً فسيحة، ومثّل الأستاذ في ذلك مثل الشيخ سيد علي المرصفي بالأزهر حين فاجأ الطلاب بتدريس (الكامل) للمبرد، ولم يكن للأزهر سابقةً بالكامل وأمثاله، فأثارَ ثائرةَ الشيوخ، ولكنه جذبَ نوابغ الطلاب فاندفعوا إلى حلقة أستاذهم مستبشرين، ومنهم أعلام الأدب فيما بعد كعبد العزيز البشري، وطه حسين، وأحمد حسن الزيات، والبرقوقي، والهياوي، والجارم، والدباغ.

كما أن الشيخ شرح كتاب (المزهر) للسيوطي لأول مرة بالزيتونة، وحين أرجف قومٌ بأنه يتجافى كتب العلم الأصلية لصعوبتها عمد إلى (المطول في البلاغة) للسعد التفتازاني فشرّحه في سنوات عدة، كما شرح كتاب (المغني)، وهما عمدة البلاغة والنحو، فبرز في شرحهما أتم تبريز؛ وقد نافس الشيخ عمر بن الشيخ في شرح كتاب عضد الدين الإيجي فلم يقصر عنه، على أنه رأى أن يتجه بالتعليم إلى مدى أفسح من الزيتونة، فساعد خير الدين في إنشاء (الصادقية) على نمط (دار العلوم بمصر) فمع اهتمام الصادقية بعلوم اللغة والتشريع أضافت العلوم الحديثة إلى مقرراتها، فكانت خطوةً تاليةً للزيتونة، وطبيعي أن يغضب بعض الجامدين لإنشاء الصادقية ويعدونها مزاحمة للزيتونة لا مكملّة لها، وهذا ما نبّه إلى خطره الشيخ سالم، فدعا شيوخ الزيتونة النابهين للتدريس بالصادقية ليروا كيف يحتفل المعهد الجديد بتراث الإسلام الخالد كما تحتفل الزيتونة.

وقد نجحت الصادقية في تكوين جيل علمي ناهض، فأدى ذلك إلى تطوير الزيتونة في مناهجها وطرق تدريسها، فاشتملت بها المناهج لأول مرة على الرياضيات والطبيعيّات، كما نظّمت أعمال الامتحان، ومراقبة الحضور والانصراف بالنسبة للأساتذة والطلاب، وتلك إحدى ميزات التنافس العلمي بين المعاهد المختلفة، حيث يأخذ كلّ معهد من غيره أحسن ما لديه!.

وقد أخذ بعض الجامدين على الشيخ أنه اهتم بتعليم أبنائه الثلاثة في الصادقية

(١) مجلة الهداية - جمادى الأولى، سنة ١٤١٦هـ.

دون الزيتونة، كما أنه لم يكتف بالنسبة إليهم بالتعليم التونسي بل دفع بهم إلى أرقى جامعات باريس! ولا أدري كيف يُنقَدُ والدٌ يختار لأبنائه أحدث طرق التعليم وأوقاها، على أنه بذلك دفع غيره إلى سلوك هذا النهج، وفي هؤلاء من كان ينتقده من قبل، فدلّ بذلك على أن النقد كان مغرضاً لا خالصاً لوجه العلم.

وتابع الشيخ إصلاحه التعليمي، فسعى إلى إنشاء الخلدونية مع جماعة من محبي التقدم الفكري، فافتتح هذا المعهد الجليل في حفل مشهود حضره النابهون من رجال الثقافة والسياسة، وكان أول درس به هو درسُ الشيخ سالم أبي حاجب، حيث ألقى محاضرة ضافية بدأها بالآية الكريمة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ مبيّناً فضل التعليم، وسبق أوروبا إلى النشاط الفكري حتى سادت الكون، وموضحاً أن العلوم الحديثة سلسلة في حلقات متصلة بدأها العرب في عصورهم الزاهرة، فليست وافدة من الغرب، ولكنها ملكُ الإنسانية جميعاً في المشرق والمغرب.

ولم تكن الرياح رخاء بالنسبة لإنشاء الخلدونية بل وجدت المعارض، وهذه سُنَّةُ الحياة في تطورها البطيء والسريع، ولكن الأمور استقرت من بعد، حين خلصت النفوس، وابتعدت الأهواء، وأكبر ما وُجه إلى الشيخ سالم من نقد أنه أقرب إلى علوم الغرب منه إلى كتب التراث، وهي فرية تدحضها دُرُوسه العلمية التي أشرتُ إليها من قبل، والحق أن يقال إنه عمل على أن يصل الشرق بالغرب، إذ لا يستطيع الشرق أن يواجه الاحتلال الاستعماري إلا بسلاح العلم، وإذا كانت هذه المسألة من البدهيات اليوم فقد كانت في عهد الشيخ من الغرائب العويصة التي يُلتمس لها أدق الحلول.

وفي سنة ١٩٢٤م لقي الأستاذ ربّه بعد كفاح دائب، وجهد جاهد، وكان معتزلاً لعدة سنوات يزوره طلابه من الأساتذة الكبار بعيداً عن حلقات الدرس التي لم يستطع النهوض بها في شيخوخته المباركة، وقد تردّد منعاه في العالم الإسلامي جميعه، ففاضت الصحف مؤبنةً رائية، وأقيمت حفلات التقدير في أكثر من مكان، وهكذا تكون عقبى العاملين...



عبد الحميد سعيد المجاهد المستبسل الغيور

كان عبد الحميد سعيد يُشارك الزعيم سعد زغلول في ميزة من أبرز صفاته، إذ كان لهما من المهابة في النفوس، والهيبة في الصدور، ما يجعل كلّ من يجلس مجلسيهما شديد الحذر في انتقاء كلماته، قوي الشعور بجلالة من يحدث، لأنّ بلاغة الصراحة، وسطوة الحجة، وعدم المداراة الخادعة من أبرز ما يخص الرجلين الكبيرين، وقد قال حافظ إبراهيم وهو يحلل شخصية سعد في مرآة (السياسة الأسبوعية):

«كان إذا غشي قوماً في مجلس وهم قعود رأوا أنفسهم وقوفاً ولم يريدوا، وتنحوا عن الصّدر ولم يقصدوا، وخاطبوه بالرياسة ولم يتعمدوا، إذا ما جلّس سعد مجلساً فأقيم عنه لغيره».

وكذلك حدّثني من لابس عبد الحميد سعيد، وزامله في أكثر مواقفه أنّه كان صدرَ الحفل مهابة وإجلالاً، وإن بعض معارضيّه يستعدّ قبل شهود مجلسه لمعارضته، ويقدم في خاطره من حُجج المعارضة ما يراه جديراً بالمناقشة، ثم يأتي للقاءه في المجلس الحاشد، فلا يكاد ينطق بغير التحية والسلام، ولذلك تفسيراً واحداً لا يخطئه الدارس هو أنّ عبد الحميد في نظر معارضيّه مهما كان مختلفاً في وجهة رأيه، مخلصٌ أشد الإخلاص لعقيدته، باذلٌ كلّ ما لديه من مال وصحة وعلم في حلبة الجهاد الشاق التي لم يتركها حتى لقي ربه، وإذا اعتقد المعارض أنّ صاحبه بريء الغرض، كثير البذل، متواصل النضال، رأى أن معارضته تتضاءل جوار ما قدّم هذا الباسل الصنديد فأثر السكوت!

قدمت حديثي بهذا التمهيد، لأذكر في مجال الأسف، أن قوماً ممن يكتبون

صحائف التاريخ بوحى من الغرض المريض، لم يعرفوا شيئاً ما عن جهاد عبد الحميد، إذ تقدّم به الزمن عن أيام وعيهم الفكري، ولم يقرؤوا ما كان من أمره فيتأدّبوا في الحديث عنه أدب مَنْ يعرف الحقائق الناصعة، والمواقف الباهرة، هؤلاء القوم رأوا أن يتزلقوا إلى الدكتور طه حسين بتشويه كلّ مَنْ وقفَ معارضاً له في زلّات وقعت منه، ولم يرجعوا إلى صحائف التاريخ، ومضابط البرلمان التي سجّلت كلّ كلمة قالها عبد الحميد ليعرفوا ما كان كما كان، ولكنهم صدّقوا ما قاله الدكتور طه مُدافعاً عن نفسه، وقد قال غير الحق، فإذا غير الحقّ عين الصواب في معتقد هؤلاء! أجل صدّق هؤلاء ما قاله الدكتور، لا عن فحص دقيق، ومعاودة مستأنية، بل عن تسرع عاجل لا يعرف الاتّاد، فذهبوا يصفون عبد الحميد سعيد بالرجعية والتخلف ويعتدونه شبهاً من أشباح الظلمات. وهم بعد كُتّاب وأصحاب أقلام!!

وعيبُ عبد الحميد أنه دافعَ عن القرآن إزاء تهجّم كانَ من الدكتور على حقائقه. ومضت الأيام على هذا الدفاع المجيد، وأراد الدكتور طه حسين أن يبرئ ساحته بما رماه به ناقده الصّوال، فنقلَ الحديثَ من موضوع إلى موضوع، وادّعى أن عبد الحميد قد هاجمه في مسألة كتاب (الشعر الجاهلي) والنائب الجريء لم يتحدث عن كتاب الشعر الجاهلي في لباب ما قال، ولكنّه تحدث بتركيز عن خطأ الدكتور فيما تحدّث به إلى طلاب الآداب عن القرآن الكريم، كما سيجيء، وكان ما قاله الدكتور صريح الخطأ، بل ظاهر الإفك والعدوان! فاضطرب المجلس، واضطربت الحكومة، وقامت ثورة في الدوائر الدينية تزعمها علماء الأزهر، ورأت الحكومة أن تنقلَ الدكتور من الجامعة إلى مكان آخر، فهاج أنصاره ممّن يسوؤهم أن يدافع مؤمّن عن كتاب الله، وأخذَ الدكتور يُبرئ نفسه بأنّ الوضع سياسي^(١) وأن معركة الشعر الجاهلي قد فاتَ زمنها من سنوات، فلماذا يُعيدها عبد الحميد سعيد!

وألفت الكُتُب الجامعية، وغير الجامعية في تمجيد الدكتور طه، ولم يشأ أصحابها أن يُغضوا عن زلّته التي أبرزها الدكتور عبد الحميد سعيد فحسب، بل تهجّموا على الرّجل بعد رحيله، فوصفه واصفٌ بأنه يحمي معاقلاً الرّجعية، وكتب الأستاذ سامي الكيالي كتاباً عن طه حسين يسأل فيه المغفرة من الله لعبد الحميد!! وكأنّه جاء بذنب يستأهل الغفران حين قال الحق! وتوالى الكتب تنقلُ هذا البهتان،

(١) نصّ كلام الدكتور بمجلة المنهل، ديسمبر، سنة ١٩٩٥، ص ٨٤.

وتنقل من ورائه أوصاف الرجعية والتأخر ومُحاربة التجديد موكولة إلى الزعيم
المجاهد عبد الحميد سعيد! وإذن فقد وَجِبَ أن نكشف النقاب عن باطل ذاع، وحق
ضاع!

لقد ألقى الدكتور عبد الحميد سعيد بياناً في مجلس النواب بتاريخ ٢٨ من مارس
سنة ١٩٣٢م عن موقف الدكتور طه حسين تجاه القرآن الكريم ، إذ أُملى على طلاب
كلية الآداب بحثاً قال فيه ما نصّه :

« لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الجريء الذي لا يفرق في نقده بين القرآن
وبين أي كتاب آخر يلاحظ أن في القرآن أسلوبين متعارضين لا تربط الأول بالثاني
صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة ،
وتأثر ببيئات متباينة ، فهو في القسم المكي منه ، يمتاز بكل مميزات الأوساط
المنحطة ! كما نُشاهد في القسم المدني أمارات الثقافة والاستنارة ، فإذا أنتم دققتم
النظر وجدتم القسم المكي ينفرد بالعنف والسباب والشدة ، والقسوة والغضب
والسباب والوعيد مثل : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ ٢ ۝ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ وَمِثْل ۝ وَالْعَصْرِ ۝ ١ ۝
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝ ٢ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ ١٧ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاصِرٌ ۝ ١ ۝ كَلَّا لَوْ
تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ ٥ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ٦ ۝ ويمتاز هذا القسم أيضاً بالهروب من
المناقشة ، وبالخلو من المنطق فيقول : ﴿ قُلْ يَتَأْتِيَ الْكَافِرُونَ ۝ ٥ ۝ لَا أَقْبِدُ مَا
تَقْبِدُونَ ۝ ٦ ۝ إلى قوله ﴿ لَكُودِيكُمْ وَلِي دِينٍ ۝ ٦ ۝ ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة ، واقتضاب
المعاني وقصر الآيات والخلو التام من التشريع والقوانين ، كما يكثر فيه القسم
بالشمس والقمر والنجوم والفجر والعصر والليل والنهار والزيتون إلى آخر ما هو
جدير بالبيئات الجاهلة الساذجة التي تشبه مكة تأخراً وانحطاطاً .

أما القسم المدني فهو هادئ لين وديع مسالم يقابل سوء بالحسن ، ويناقش
الخصوم بالحجة الهادئة ، والبرهان الساكن الرزين فيقول : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ
لَفَسَدَتَا ۝ ١ ۝ ويهجر مع أعدائه الترهيب والقسوة ، ويسلك مسلك الترغيب والتطميع في
المكافأة فيقول : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ۝ ١ ۝ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجًا ۝ ٢ ۝ وَزَرْقَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۝ ٣ ۝ كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية
كالمواريث والزواج والطلاق والبيع ، وسائر المعاملات ، ولا شك أن هذا أثر من

آثار التوراة والبيئة اليهودية التي ثقفت المهاجرين في يثرب ثقافة واضحة، يشهد بها هذا التغيير الفجائي الذي ظهر على أسلوب القرآن.

أما أفكاره فمنسجمة متسلسلة ترمي أحياناً إلى غايات اجتماعية وأخلاقية، وعلى الجملة فإن ما في هذا القسم المدني من هدوء ومنطق وتشريع وقصص وتاريخ يدلّ دلالة صريحة إلى أن الظروف التي أحاطت بهذا الكتاب إبان نشأته قد تطورت تطوراً قوياً.

هناك موضوع آخر يجب أن أنبهكم إليه، وهو مسألة هذه الحروف العربيّة غير المفهومة التي تبتدئ بها بعض السور مثل : الم، المر، طس، كهيعص، حم عسق؛ فهذه كلمات ريمًا قصد منها التعمية والتهويل، أو إظهار القرآن في مظهر مخيف، أو هي رموزٌ وضعت لتمييز بين المصاحف المختلفة التي كانت موضوعة عند العرب، فمثلاً: كهيعص رمز لمصحف ابن مسعود، وحم عسق رمز لمصحف ابن عباس، وطس رمز لمصحف ابن عمر وهلم جرا، ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآناً.

هذا ما قاله الدكتور طه حسين، وأملاه على طلابه، وهو لباب البيان الذي ألقاه الدكتور عبد الحميد سعيد في مجلس النواب، وما كان حديثه عن الشعر الجاهلي إلا تمهيداً لحديثه المشبوه عن كتاب الله في بيانه، لأن قضية الشعر الجاهلي قد أصبحت من قبيل الحديث المعاد، وقد فهمها الجمهور بما لا مزيد فوقه، فكانت مقدمة موجزة لهذا الطعن الجارح الذي كشف عنه الدكتور عبد الحميد سعيد.

وإنصافاً للدكتور طه حسين - لأنني لا أبغي سوى تقرير الحقيقة - أعلن أنه رجع عن هذه الآراء رجوعاً تاماً فيما كتبه في مؤلفه (مرآة الإسلام) عن أسلوب القرآن، ولكنه رجوعٌ تأخر أكثر من ربع قرن! فالدكتور عبد الحميد سعيد كان النائب المسلم الشجاع الذي حذر النواب ممن يقول مثل هذه الأوهام. وكلّها منقولة عن لغو الاستشراق، وقد أشرتُ إلى ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب في حديثي عن الأستاذ الناقد الشيخ محمد أحمد عرفة حيث تولى نقد هذه الأراجيف نقداً علمياً جعلها رماداً تذرّوه الريح، كان طبيعياً أن تحدث ضجة صاخبة بسبب هذه الآراء، وأن يخرج طه حسين من الجامعة عقب هذه الضجة! وقد رأى الدكتور أن يعقب على ذلك فقال ما ملخصه :

إن كلام الشعر الجاهلي معروف من قبل، وإن صدقي باشا قد فوجئ باستجواب عبد الحميد سعيد! وأخذ يلح في هذا المعنى كأن الأمر أمر الشعر الجاهلي لا أمر القرآن، وهذا الذي جعل من أرخوا له يتابعون قوله دون أن يقرؤوا بيان الدكتور عبد الحميد سعيد بتمامه فيعرفوا أن حديث الشعر الجاهلي في سنة ١٩٣٢م كان هامشياً، وأن اللباب ما تجاهله الدكتور طه حسين ولم يُشز إليه من حيث إملائه هذه الاستشراقيات المخزية على طلاب لم يبلغوا من العلم مبلغ من يعرف الرد على الخطأ بالدليل! وليست هذه المرة الأولى التي هاجم فيها (عبد الحميد سعيد) طه حسين في مجلس النواب إذ سبق أن قدم بياناً عنه في سنة ١٩٢٩م خاصاً بكتاب الشعر الجاهلي، كما هاجمه مرة ثالثة في موقف ثالث ساعود إليه بعد حين

إن الذين يزورون مواقف الأبطال فيعدّون عبد الحميد سعيد رجعيّاً متأخراً لا يعيش في عصره ينسون أن الرجل قد حصل على الدكتوراه في القانون من باريس، وأنه لم يرتزق بشهادته المرموقة في وظيفة تجعله أستاذاً بكلية الحقوق، بل عميداً لها لو سار على نهج سواه، ولكنه وهب نفسه للدفاع عن حقوق العرب والمسلمين منذ أتى من باريس، فكانت بطولته لسانه كفاءً لبطولته في ميادين الحروب مجاهداً مع أبطال ليبيا والبلقان والأناضول ضدّ العدوان الأوروبي! وكانت ثروة أبيه الطائلة (إبراهيم سعيد باشا) تحت يده، لا كي يبعثها في التّوادي والحفلات ورحلات التنزه والاصطياف، بل كي يُغيث بها الجرحى من الأبطال ويشتري ما يقدر على شرائه من أدوات القتال، وقد تشرّد أثناء الحرب العالمية الأولى في أوروبا مع محمد فريد وعبد العزيز جاويز والشيخ محمد الخضر حسين والدكتور أحمد فؤاد وفؤاد سليم، ليعلّنوا رفض مصر للحماية الإنكليزية، وقد انقطعت عنهم موارد النفقة في مصر فأصبحوا لا يملكون شيئاً، واعتزموا على الخروج إلى الغابات للاحتطاب وقلع الأخشاب كالقَعْلَة من العمال ليتبلّغوا بما يمسك الرّمق، وإذا كان الشيخ محمد عبد المطلب رحمه الله قد قال في رثاء محمد فريد معبراً عن هذه المأساة^(١):

إذا صفرت من ذات دنياه كفه تجلّد لا يشكو ولا يتأفف
وياوي إلى يّئت وطّيء عماده وفي مصر يكيه البناء المطّنف

(١) ديوان عبد المطلب، ص ١٥٢.

فإن الأجل لو امتدّ بشاعر البادية رحمه الله إلى حيث ارتحل عبد الحميد سعيد لقال في رثائه ما قال في محمد فريد، فكلاهما ابن الجاه والمجد والثراء في مصر، ثم هو ابن الحرمان والجوع والنضال في أوروبا، يأوي إلى الكوخ المتطامن غير شاك، وفي مصر يبكيه بيت رفيع العماد!

أعود فأقول: قد يرى بعض من لم يلم بسيرة عبد الحميد سعيد من أبناء اليوم أنني أبالغ في سرد مآثره، لذلك أنقل إليه بعض ما قاله الأديب الكبير عبد العزيز البشري حين خصّه بتصوير أدبيّ في مرآته الذائعة، ولم يكن البشري من حزب عبد الحميد، بل ربما كان معادياً له، إذ كان هواه السياسي مع حزب الأحرار الدستوريين، وعبد الحميد من زعماء الحزب الوطني الذي يُعارض سياسة هؤلاء، ويراهم عون المحتل في أكثر مواقفهم ذات البلبلة والاضطراب؛ يقول الأستاذ عبد العزيز البشري رحمه الله عن الرجل العظيم^(١):

«نشأ منشأ بني الأعيان، يُدليهم أهلهم إلى المدارس ليحزروا الشهادات ثم يخرجوا إلى خدمة الحكومة، وتلك غاية الجمهرة من أعياننا تُشدّ إليها الرحال، ولكن التلميذ عبد الحميد سعيد لم تكد تفتح نفسه لفهم ما في الدينا حتى كان له في أسباب الحياة غير هذا الرأي، فقد أدرك من شباب سنه أن له وطناً، وأن هذا الوطن يتحكّم في شأنه غير أهله، وأنّ واجبه ما دامت بلاده محتلة مضيعة الحق، أن يكون جندياً لمصر قبل أن يكون طالب علم في مصر، وعلى ذلك اتّصل الفتى بدعاة الوطنية وصرف أعظم قسطن من الوقت المقسوم لمراجعة الدرس إلى حديث الوطن، وإذا كان قد أحرز إجازة الحقوق (الليسانس) فقد اختلس الدرس والمذاكرة لها من وقت الوطنية اختلاصاً.

وبهاجر صاحبنا إلى باريس، يدعو إلى مصر، ويرفع للعالم حجتها، ويجاهد في سبيلها بما يملك من المال واللسان والقلم، ويتخذ هناك بيتاً يصبح مثابة لدعاة مصر خاصة، ودعاة أمم الشرق المظلومة عامة، يجتمعون فيه الفينة بعد الفينة ليأتمروا في شأنهم ويستفصحوا للدعوة مناهجهم. وتنهد دول البلقان لحرب الدولة العلية، وتجرّد عليها كلّ مهلكة من آلات القتال، كما تحرك عليها كلّ ما تغلي به صدور

(١) في المرأة، للأستاذ عبد العزيز البشري، ط. أولى، ص ٧٧.

القوم من التعصب الديني، فركبُ عبد الحميد إلى البلقان جناح النعامة، وإذا هو جنديّ في لباس العسكر وسلاحهم، وإذا هو يابى إلا أن يقاتل دائماً في الصف الأول، حتى يقع ذات ليلة في إحدى المواقع جريحاً يترسّب في دمه، إذ قد انحسر عنه قومه، وأقبلت خيل البلغار، فما زال يتخلّج من دونها، وينحرف عنها، يستتر بالظلام، ويتوارى في جذوع الدوح لا يبالي ما ينزف من دمه المهرق حتى يبلغ على هذه الحال خُطوط الترك، ولولا العونُ من الله ما وقعت عين عليه بعد.

وتدور بعد أولئك الأيام رحى الحرب العظمى فينخرط عبد الحميد في جُندها يتحوّل من ميدان إلى ميدان حتى إذا تهادّنت الأمم المحتربة، وظهر الحلف الإنكليزي، وتكسّرت دول الحلف الألماني، وانطلقت إنكلترا في ملك الله تفعل ما تشاء، هام صاحبنا في فضاء الأرض، يتبلّغ بالكسرة ويتروى بالصّباة، وهو سليلُ بيت نشأ في الترف، وتقلّب في النعمة، لا يعنيه من أمره إلا أن يدعو حيث كان لمصر، ويهتف أتى وقع به القضاء باستقلال مصر» اهـ.

هذا بعض ما كان من جهاد الرجل الفدائي المستبسل، فلّيت شعري ماذا صنع الذين وصفوه بالرجعية والجمود لأوطانهم إذا قيسوا به! وهل يمكن أحد هؤلاء أن يكون بجواره أكبرَ قدراً من الحصاة بإزاء الجبل الأشم! أهكذا يضيع التاريخ، بل هكذا يضيع الحياء.

- ٢ -

عاد الدكتور عبد الحميد سعيد إلى مصر بعد انتهاء الحرب العالمية، مع فريق من المجاهدين، ولم تكن العودة مأمونة الطريق، لأن إنكلترا كانت تنظر إلى هؤلاء البُسلاء نظرة الكراهية، وهي تعلم أنهم مخلصون لبلادهم ولا يتشيعون لألمانيا حين أقاموا بها، لأنهم لجؤوا إليها خيفةً من بطشها الظالم فحسب، ومن الطبيعي أن يكون عدو إنكلترا صديقاً لمناوئها من زعماء البلاد التي سيطر عليها الاحتلال الإنكليزي، لم تكن الطريق مأمونة ولكن رعاية الله حفظت النازحين من اغترابهم، وساعدتهم على سلامة الوصول.

وقد عادَ عبد الحميد ليجد النفوس متأهبةً للثورة على الاحتلال في مصر، ويجد سعد زغلول ورفاقه قد قاموا بالإعلان الحاسم للجهاد الوطني، فكان ذا فرحة غامرة

لما شاهد من روح التوثب، بل كان منزله الكبير مقرّاً للثائرين في أحلك أيام الثورة لأن والده الوطني الكبير إبراهيم سعيد باشا في شيخوخته السعيدة، اختير رئيساً للجنة الوفد المركزية بعد اعتقال سعد زغلول، وقام بجهود حاسمة بذل فيها ماله وصحته فاعتقلته السلطة العسكرية مع محمود سليمان باشا زميله في القيادة، وقد رأى القائد العام للسلطة شيخوختهما البالغة - إذ كلاهما قد ناهز الخامسة والثمانين - فأمرهما بضرورة مفارقة القاهرة إلى مزارعهما خارج العاصمة، فردّا عليه في شجاعة بأن القاهرة موطنهما، ولا يتركانها مختارين، فأمهلهما أربعة وعشرين ساعة فلم يقوما بما أراد، وهنا أصدر أمراً باعتقالهما في ثكنات قصر النيل.

وتسلم الدكتور عبد الحميد سعيد قيادة الثائرين بعد اعتقال والده، مع أنّه من كبار أعضاء الحزب الوطني، وليس منتبياً إلى لجنة الوفد المركزية التي يرأسها أبوه، ولكن اتفاق الآراء على مذهب الاستقلال السريع، لم يدع للاختلاف الحزبي سبيلاً بين المخلصين من أبناء الوطن العزيز.

وهكذا خاض عبد الحميد حرباً ضد الاحتلال في صلابة عهديت فيه من قبل ومن بعد، وحين أعلن الدستور، وقام البرلمان الوطني بعد انتخاب حرّ، كان الدكتور عبد الحميد سعيد في طليعة الفائزين، وقد انتخب لعضوية مجلس النواب فترات متعدّدة كان في إحداها وكيلاً لمجلس النواب، وكيلاً حاسماً ذا مهابة واقتدار، وحين حارب الاحتلال مع القصر الملكي انعقاد البرلمان الشرعي، وأمر بمحاصرة مقرّه كيلاً يلتئم به شمل الأعضاء، كان عبد الحميد سعيد في طليعة من هاجموا المتصدّين لإغلاق البرلمان من رجال الشرطة، وجمع خلفه عدداً من النواب لم يشأ أحد اعتراضهم بالسلاح، وقد أبدع الأستاذ البشري حين قال في وصف هذه المعركة^(١):

«وما أنسَ لا أنسَ منظره يوم ٢١ نوفمبر، وقد جردت دولة زيور باشا كلّ ما عندها من جيوش وخيول مهيّرة، ورماح سمهرية، وقنّى خطيّة، وكلّ قاصفة مدممة، لتحول بين نواب الأمة وبين اجتماعهم، ويخرج عبد الحميد سعيد متسلّحاً بعصاه التي تزن ٧٣ كيلو، وقد تهيّأ للحرب والنزال في سبيل اقتحام الصفوف إلى البرلمان فكان (كالتانك) سواء بسواء».

(١) من المرأة، ص ٧٩.

وقد ظلّ عبد الحميد في دورات البرلمان المختلفة حيث كان النجاح حليفه في كلّ دورة مدافعاً عن حقائق الإسلام وحاملاً راية الحرب الدينيّة الصحيحة كما جاءت بها الشرائع، لا كما يفهمها المتحللون، ومن أظهر ذلك موقفه في مجلس النواب سنة ١٩٣٩م حين اتسع النقاش لحوار حول الكتّيب الملحدة التي تقرّر على طلبة كلية الآداب بدعوى حرية الفكر، فترغم الدكتور مناوأة هذه الحركة، وأعد بياناً رائعاً قال فيه^(١):

«ليست نظرية فصل الدين عن التعليم إلّا ستاراً للإلحاد والإباحية والخروج على الآداب والتقاليد الدينيّة والقومية، ولهذه النظرية قال هؤلاء المخزّبون إنّهُ يجب تحرير العلم من سلطان الدين، كأن الدين نير ثقيل، أو حائلٌ منيع في وجه العلم. وفي السويد قانون يمنع الشخص من تغيير دينه ويحرم عليه اعتناق دين غير دين البلاد الرسمي، وقد حدث أنّ أحد علمائها وهو أستاذ بجامعة (إسألو) اعتنق الديانة الإسلامية فكان جزاؤه أنّ طرد من الجامعة وحُرم حقوقه السياسية، وهنا نطعن في الدين، وعلى أشرف المرسلين، وعلى أخلاقنا وتقاليدنا ثم لا تُحرّك الحكومة ساكناً. إنّ العلم قابلٌ للتطور والتغير لأنه نتيجةٌ لعلم الإنسان وتجاربه، وكثيراً ما نرى نظريات علمية يطغى بعضها على البعض، ويلغي بعضها بعضاً، ولكنّ الدين الصحيح لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا نريد أن نسمع الدعوة لحرية الفكر التي في ظلّها تهدم الأخلاق والعقائد».

وحين تعرّض الدكتور عبد الحميد سعيد إلى ما يجري في الجامعة من أقوال تنشر الإلحاد، قال وزير المعارف: هل لحضرة النائب أن يذكر أمثلة لما يقول؟

فقال الدكتور عبد الحميد سعيد «أرجو من معالي وزير المعارف ألا يقاطعني، فإذا كان معاليه يجهل الأمثلة التي يطالبني بذكرها، والتي تُثبت الاعتداء على الدين والفضيلة والأخلاق في كلّية الآداب فلا يصح أن يبقى في كرسي الوزارة، وليت هذا الفساد كان مقصوداً على الجامعة بل تعدّاها إلى المدارس المصرية، بل تسرب إلى بعض البلاد العربية، أنا لا أريد الحجر على حرية الرأي بل أقول إنّ لها حدوداً يجب ألا تتعداها، فإذا تعدتها قضينا على النظام والأخلاق».

(١) كتاب طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام، للأستاذ أنور الجندي، ص ١٨٧ وما بعدها.

وبيان الدكتور شاف مستوعب ولا يمكن نقله جميعه، ولكنه يُصوّر حمية المؤمن، وجرأته في مخاطبة وزير المعارف حين تجاهل بعض ما يقال مما يثير الريب في نفوس الطلاب، هذه الجرأة الحبيبة ليست تهووراً كما كتب بعضُ المعلقين على البيان البرلماني، لأن المتهور هو الذي يندفع وراء أوهام لا حقيقة لها لمأرب في نفسه، أما أن يحتج طلاب الجامعة أنفسهم على تقرير كتاب يتعرض لسيرة رسول الله بما لا يليق، وأن تسكت الجامعة عن مصادرة هذا الكتاب فيحتج نائبٌ على هذا السكوت فليس ذلك تهووراً ولكنه وضعٌ للأمر في نصابه، وأذكر أن كاتباً فاضلاً من غير أعضاء البرلمان كتب في الصحف يسأل وزير المعارف: أيّ كتاب يطعن في المسيح عليه السلام أو في الإنجيل أبيع تقريره في جامعات إنكلترا وباريس، وهي جامعاتُ الفكر الحرّ في رأي من يؤيدون هذا الاتجاه! وهو سؤال ظلّ دون إجابة، مع أنه ذو حسم أكيد.

أشير بعد ذلك إلى عمل مجيد ممتاز قام به الدكتور عبد الحميد سعيد في الحقبة الأخيرة من حياته، فقد نظر إلى الجو السياسي من حوله في مصر، فوجد الأحزاب السياسية لا تكاد تفكر في شيء يتعلق بالإسلام، ورأى جمعيات للشبان المسيحيين وغيرهم من الطوائف تحتلّ المراكز المرموقة في أرقى شوارع العاصمة، وتدعو الشباب إلى محاضرات ظاهرها الثقافة العامة وباطنها البُعد عن التقاليد الإسلامية، والارتقاء في الحضارة الأوروبية، وقد كان الدكتور عضواً بارزاً في الحزب الوطني، ولكنّ رصيد الحزب قد تضاعف شعبياً بعد وفاة محمد فريد، وتألّف حزب الوفد، فلم يكن في استطاعة الدكتور عبد الحميد أن يجعل الهتاف بالمبادئ الإسلامية من مهام الحزب، وفي زملائه من يرى ترك الخوض في هذه المسائل، أما الجمعيات الإسلامية القائمة مثل جمعية المواساة، والجمعية الخيرية الإسلامية وجماعة مكارم الأخلاق فتَقصّر محاضراتها على الوعظ الشعبي أوما يقرب منه، فهي تعدّ المحاضرات عن الفضائل الإسلامية وعن تفسير آيات من كتاب الله، دون أن يتحدّث القائمون بالإرشاد بها عن مكانة الحكم في الإسلام، وعن دعوة الإخاء والحرية، وعن إنقاذ البشرية على يد هذا الدين حين انتشر ضياؤه في عالم غريق بالظلمات؟.

لم تكن هذه الجمعيات في وضعها الراهن تختلفُ عن المساجد فيما يُلقى بها من

دروس ابتدائية أشبه بما يقدم لطلاب المدارس في المقررات المبتورة، لذلك ما كاد يتحدث عن فكرته إلى نفرٍ من أصفياه، وفي مقدمتهم الأستاذ محب الدين الخطيب، والشيخ عبد العزيز جاويز، وأحمد تيمور باشا، حتى وجد إجماعاً تاماً على ضرورة إنشاء هذه الجمعية (جمعية الشبان) وكان الأستاذ محب الدين على اتصال وثيق بشباب الأزهر ودار العلوم وذوي الحصانة من طلاب الجامعة، فبادرهم بما يعين له، ووجد من سرعة الاستجابة ما جعل الجمعية حقيقة واقعة، في أقل ما كان ينتظر لتحقيقها من أيام، وقد بدئت حفلة إنشاء الجمعية بكلمة للأستاذ الكبير محمد الخضر حسين أوضح فيها بيانه الهادئ ومنطقه السديد أغراض الجمعية وما ينتظر تحقيقه على يديها من ثمار، وقد قال فيما قال^(١):

«إذا قالوا لكم - المناهضون للجمعية - إن رابطنكم هذه ستؤثر على الوحدة القومية، والرابطة الوطنية، فأرشدوهم إلى الجمعيات غير الإسلامية الموجودة في البلد، فحسبهم إذا رأوها أن يكون ذلك جواباً على مقالتهم، كما أفاض في الحديث عن عالمية الإسلام مبيناً أنه الدين الوحيد الذي نجح في تطبيق معنى الإخاء خارج حدود الممالك فلم يكتف بالشعارات الخادعة، بل جاء بهذا الإخاء عاملاً شاملاً مُطبّقاً على أساليب الحياة، ولشدة انطباقه من الوجهة العلمية انتشر انتشاراً هائلاً ارتفعت معه قيود الممالك وحواجز الجنسيات حتى صار المراكشي أخ المصري بمجرد كونهما مسلمين، فيستطيعان أن يتحدا في أنظمة الأحوال الشخصية وحياة الأسرة وغيرها».

وقد تمنى الخضر حسين أن يكون يوم الافتتاح مبدأ نهضة إسلامية شاملة لشعوب الحنفية في شتى ربوع الإسلام، والحق أن الاستجابة للجمعية كانت أكثر من المتوقع إذ تعددت فروعها في مصر والشام والعراق وغيرها، وأصبح مكانها الدائع في القاهرة مقراً لكل زعيم إسلامي يفد إلى القاهرة، فيجد أهلاً بأهل وإخواناً بإخوان.

وقد أخذ الدكتور عبد الحميد سعيد على عاتقه أن يقوم بالترحيب التام لإخوانه الوافدين، وتهيئة ما يحتاجون إليه، وفي قاعة المحاضرة بالجمعية جلّجلت أصواتُ النباء الوافدين من أمثال عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي ومولاي شوكت علي

(١) المنتقى من محاضرات جمعية الشبان المسلمين: ٤/١ وما بعدها.

الزعيم الهندي، والحاج محمد أمين الحسيني المجاهد الكبير وزعيم فلسطين،
ومحمد مرديوك المسلم الإنكليزي، والرحالة الشهير الروسي عبد الرشيد بن
إبراهيم صديق جمال الدين الأفغاني، والحسن العربي بوعباد العالم المغربي، ومن
لا أستطيع استيفاء أسمائهم الكريمة، وكلُّ وافد يشرح أحوال المسلمين في بلده،
ويسمع من التعقيبات ما يطمئنُّ به صدور ذوي الشعور الواحد، الجامع بين الآمال
والآلام.

وقد تعددت المؤتمرات السنوية للجمعية برئاسة الدكتور عبد الحميد سعيد،
حيث يقوم خطباء كل مؤتمر بالحديث عن المشكلات القائمة في طريق الدعوة
الإسلامية، وأضربُ المثل بالمؤتمر المنعقد بعد ثلاثة أعوام من تأليف الجمعية سنة
١٣٤٩ هـ. حيث دعا الرئيس في كلمة الافتتاح إلى بحث الأذواء التي ظهرت
أعراضها في العالم الإسلامي لتتخذ الوسائل إلى طريقة العلاج، وكان في مقدمة
ما عُرض على المؤتمرين موقفُ حكومة فلسطين الإنكليز من جمعية الشبان
المسلمين حيثُ أذاعت منشوراً يقضي بامتناع الموظفين من الانتماء إليها، على
حين قد أباحت هذه الحكومة انتماء موظفيها إلى الجمعيات اليهودية والمسيحية
دون مؤاخذه، كما ناقش المؤتمر ما قامت به الحكومة الإيطالية في طرابلس
الغرب وبرقة من إغلاق الزوايا السنوسية، وما قامت به حكومة «أتاتورك» في أنقره
من إغلاق ثمانين مسجداً في تركيا، ثم ما تقوم به حكومة السوفييت من اضطهاد
المسلمين ومنعهم من إقامة الصلاة في المساجد، مع مصادرة أوقافها وممتلكاتها
العامّة!

كلّ هذه المسائل الدقيقة بُحثت بحثاً مستفيضاً في مؤتمر واحد، وقد أصدر
المؤتمر في النهاية قراراته التي تستنكرُ شتى أنواع العدوان، وأذاع على العالم
الإسلامي ما كان خافياً على الناس من هذه الاعتداءات، ثم رَسَمَ خُططاً جديدة
لتعرّف أحوال المسلمين في شتى الأقطار المختلفة، داعياً إلى تقوية وسائل التعارف
بين الملة الواحدة، وقد امتدت الآمال به فأعدّ مشروعاً لإنشاء مصرف إسلامي،
وشركات تعاونية إسلامية، وهباً من أعضائه من يقوم بتخطيط لهذا المشروع، وقد
خُطط المشروع فعلاً بعناية فريق من أساتذة الاقتصاد بمصر، ولكن الحكومات
العازفة عن كل نشاط إسلامي أخذت تضع العراقيل، أما حركات التبشير التي هبّت

عواصفها في أفريقيا وآسيا فقد ألفت لجنة علمية لمحاربتها، وتنوير المسلمين بحقائق دينهم وأراجيف خصومهم، وقد انتقل صدى هذا الاقتراح إلى الأزهر نفسه، حيث قامت هيئة كبار العلماء بالدعوة إلى تأليف كُتُب موجزة تبحث شبهات المفرضين، وتعرض الإسلام عرضاً واضحاً يتسنى للقارئ المتوسط أن يلم بكل ما فيه من حقائق دون غموض، وممن كتبوا في هذا المجال الأساتذة محمد أحمد عرفة، وإبراهيم الجبالي، ومحمد الخضر حسين، ويوسف الدجوي، وغيرهم من صدور الباحثين؛ وقد وُزعت هذه الكتب بثمان رمزي، ولو عمل الأزهر على إعادة طبعها لعادت بما يفيد.

ومنذ ظهرت قضية فلسطين وهي تشغل الدكتور عبد الحميد سعيد، فقد أكثر من الندوات الخاصة بها، فعقد بقاعة الجمعية أكثر من عشرة مؤتمرات، ودُعي كبار السياسيين إلى منصة المحاضرة ليلقوا الضوء على ما تبيته الصهيونية من كيد.

وحين رأى الدكتور عبد الحميد سعيد أن مسألة فلسطين أكبر من أن يختص بها أعضاء جمعية الشبان المسلمين نهض إلى تأليف جمعية خاصة بها تشمل أسماء الغيورين من الأحزاب المختلفة وأساتذة الجامعات، وقد حرص في مرضه الأخير على متابعة السعي في إنشاء هذه الجمعية حتى تحقق بجهوده إنشاء (اللجنة العليا لقرش فلسطين) حيث اجتمعت في مساء الأحد ٢٣/١٢/١٣٥٧ هـ الموافق ١٢/٢/١٩٣٩ م بدار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين، وانتخب الأستاذ الدكتور عبد الحميد سعيد رئيساً، والأستاذ عبد المجيد إبراهيم صالح بك سكرتيراً عاماً، وصاحب العزة ميرزا رفيع مشكى بك أميناً للصندوق، والوجيه محمد حسين الرشيد أميناً مساعداً، وكل من حضرات أصحاب السعادة الأستاذ محمود البسيوني بك، وعبد الخالق مذكور باشا، ومحمد فهم الناصوري باشا، واللواء أحمد فطن باشا؛ وأصحاب العزة الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم بك، ومحمد عيد بك، وأصحاب الفضيلة الشيخ عبد الوهاب النجار، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز، والأستاذ حسن البنا، والدكتور محجوب ثابت، والدكتور نجيب اسكندر، والأستاذ عبد القادر العبد، والأستاذ أحمد السكري: أعضاء. ثم ألفت لجان (فرعية) كلجنة الدعاية ولجنة الحسابات ولجنة المتطوعين.

وقد رأيت أن أسجل أسماء هؤلاء الأفاضل ليعرف القارئ أن الدكتور عبد

الحميد سعيد جعل الدعوة إلى نصره فلسطين عامّة فشمل الاتجاهات المختلفة في مصر، وأنّه في مرضه الأخير لم يهدأ حتى تكوّنت اللجنة وَوُفِّقَتْ إلى جمع تبرّعات كثيرة أرسلت للمجاهدين، ثمّ لقي ربه في يوليو سنة ١٩٤٠م بعد مرض متصل لم يمنعه من شهود احتفالات الجمعية، ومجلس النواب الذي كان عضواً به، وقد أقيمت له حفلة تأبين كبرى تحدّث فيها المخلصون من أئمة الرأي، وألقى بها الشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران قصيدة هادفة بدأها بقوله^(١):

مصرُ في موقف الدفاع المجيد	أين فيه مكان عبد الحميد؟
أينَ ذاك الذي تطوّع قدماً	غير هَيَّابَةٍ ولا رعديد
فاصطلى الحرب والحمية تحدو	ه وحق الإخاء في التوحيد
يمنح الجار فوق ما يتمنى	جاره المستضام من تأييد
كان سيفاً لقومه من سيوف	عرف القوم كرهها للغمود؟
رجلٌ لسم يداج في أمر دنياه	ولا في صلاته والسجود
سَيَرُهُ سَيَرُهُ بغير التواء	وعن الحق ماله من محيد؟

هذه صفحة من صفحات الكرامة أرجو أن يقرأها من رموا المجاهد العظيم بالرجعية والجمود! ليعرفوا من هو أولاً ومن هم ثانياً!

* * *

(١) ديوان مطران: ٢٧٣/٤.

عبد القادر عودة أستاذ التشريع وشهيد الرأي

هيأت الأقدارُ عبد القادر عودة لأن يكون الفقيه الشهيد منذ طفولته الأولى، فقد التحق بالمدارس الأميرية، تلميذاً صغيراً، ولكنه في الوقت نفسه كان يحفظ القرآن على مراحل متتالية، فما انتهى من الشهادة الثانوية حتى كان القرآن طيَّ صدره إيماناً، وعلى لسانه بياناً واستشهاداً، ثم التحق بكلية الحقوق، فكانت دروسها المختلفة في شتى القوانين الغربية والبعيدة موضعاً للموازنة الدقيقة بين ما تحمل من مواد، وما يدرس في محاضرات الشريعة الإسلامية من نصوص قرآنية، وآراء فقهية في شتى ضروب الحياة من معاملات وحدود وأحوال شخصية، وازداد ارتباطاً بالأساتذة الذين يدرسون مادة الشريعة، فكان صديقاً للأساتذة: عبد الوهاب خلاف، محمد أبي زهرة، وفي الوقت نفسه كان يقرأ كتب السنهوري وعلي بدوي ليدون في هوامشها آراء الشريعة الإسلامية فيعقد مقارنةً بين شريعة السماء وقوانين الأرض.

وكان سيفه الظافر سبباً في التحاقه بالقضاء المصري عالماً فقيهاً متمكناً، ولكنَّ عمل القضاء على كثرته لم يشغله عن الهيام بالشريعة الإسلامية إذ رآها مظلومة كل الظلم من أناس يزاملونه في القضاء وفي فقه القانون ثم لا يرونها غير شريعة ماضية فات زمنها كالقانون الروماني، وكانت مجالسه مع هؤلاء الرفاق مجالس مناقشة وجدِّ، وهم لا يعرفون غير ما درسوه في كلية الحقوق، وقد طارَ أكثره من رؤوسهم، حيث لم يعودوا في حاجة إليه عندما يزاولون القضاء بالمحاكم الأهلية! لقد فكَّر الأستاذ أن يعطيهم كتب التراث كي يلمّوا بما فيها من ذخائر، ولكنه وجدها كُتبت بطريقة لا تؤتي ثمارها إلا بعد جهد، وقد يبحث الدارس عن مسألة في مظانها

القرية فلا يجدها، على حين تكونُ بين يديه بعد سنوات في بابٍ آخر!.

هنا تكونُ لدى الأستاذ عبد القادر التفكير في كتابة جديدة للتشريع الإسلامي، وقد أشفقَ على نفسه أن يخوض في لججٍ مائجة تحتاج إلى العصبية أولي القوة، فأشار على أساتذته بالكلية أن يبدؤوا جميعاً في تأليف موسوعة فقهية، واستمع الأساتذة إلى رأيه مقدّرين، ولكن ظروف التدريس بالجامعة تُقيدهم بنظام خاص يرتبط بالمنهج الدراسي، فأشار عليه الأستاذ عبد الوهاب خلاف أن يكتب بحثاً في التشريع الجنائي تكون فاتحةً لعمل مُجيد ربّما يمتد حتى يشمل أنواع التشريع المختلفة، وعلل اختياره للتشريع الجنائي بأن الاتهام المتتالي من ذوي النظر القاصر ينصبّ على الحدود التشريعية للزنا والسرقه ممن يكتفون بالمرور السطحي على النصوص دون أن يلجوا إلى اللباب.

أما موضوعات المعاملات من بيع ورهن وربا، وموضوع الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث فالاتفاق قريب جداً، إذ يكاد التشريع الإسلامي أن يحتضن أكثر أبوابه باستثناء أمور خاصّة في مسائل الربا والتأمين، لقد كان اقتراح الأستاذ خلاف ذا صدى قوي في نفس الأستاذ عبد القادر عودة فبادر بكتابة فصول عن التشريع الجنائي نشرها في مجلة لواء الإسلام التي كان الأستاذ خلاف أحد محرريها الكبار إن لم يكن المحرّر الأول بها! وقد صدق الظنّ بالباحث، فامتدّ اجتهاده في حقل التشريع حتى أصدر جزءين كبيرين هما دليلٌ عبقرية الفقهية، ونظرة المقارن، وسعة اطلاعه الشامل، لأنّ الرجل لم يعكف على كُتب المذاهب الأربعة وحدها، بل امتد إلى الكتب الإسلامية كلها فنقل عن الزيدية والظاهرية والمستقلين من ذوي الاتجاه المنفرد، إذ كان الحق وجهته فيما يكتب.

والذي يعرف هول الأبحاث في كُتبها المعقدة الدقيقة يدرك ما كابد الأستاذ من عناء، لأن أكثر هذه الكتب كانت ذات شروح، ومن وراء الشراح حواشي وتقاريرات، وقد تظل المسألة الواحدة موضع اطلاع متصل في كتب مختلفة دون أن يتضح وجهها الأبعد عناء مستطيل، ونحن الأزهريين الذين ألفنا هذه الكتب منذ الدارسة الأولى في القسم الابتدائي حتى الدراسة النهائية في الكليات العالية كنا نجد الرهق الجاهد في تحصيل ما نستوعب، فما ظنك بمن لم يتمرس على هذه الكتب على نحو متصل إلا بعد الانتهاء من الدراسة الجامعية، أضف إلى ذلك اضطراره إلى

مراجعة كُتب الأصول وهي أشق وأهول، ولكن الثقة بالنفس من ناحية، وحب البحث لذات البحث من ناحية ثانية قد دفعا بالأستاذ إلى الإلتقان التام بحيث صار أستاذاً كبيراً في كل ما يعالج من مسائل التشريع .

لقد صار التشريع الإسلامي شُغله الشاغل، كما كان ابتعاد الكثيرين عن فهمه، فضلاً عن اعتناقه مذهباً في الحياة ذا ألم ممض يأخذ عليه منافذ صفوه، ثم نظر فرأى جماعة الإخوان المسلمين تنادي في إصرار جازم بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتعلن ذلك في هتافها المتردد (القرآن دستورنا) فاتصل بذوي الرأي فيها ، فلمس من صدق الإخلاص، وحمية الغيرة ما عرف مثله في نفسه، ووجد الشباب من الجماعة يقرؤون كتب التشريع في شوق، كما وجد الأساتذة منهم يتعمقون في كل رأي يصدرونه، وبعبارة موجزة: وجد نفسه كأحدهم، فأعلن انضمامه إليهم في ارتياح، ولم يكن اسمه بارزاً أثناء المحنة الأولى في عهد الملك فاروق ، إذ كان لا يزال على الشاطيء، ولكنه مع مجالسته للأستاذ المرشد العام حسن البنا رحمه الله عدة مرات لم يبلغ أن يكون من رؤوس الجماعة، أو ممن يسمون حيثند أعضاء مكتب الإرشاد.

حتى إذا انكشفت المحنة الأولى وأعيدت الجماعة للظهور الرسمي في نطاق القانون كان الأستاذ عبد القادر عودة من أعضائها البارزين، بل كان من أخص المقربين من الأستاذ الكبير حسن الهضيبي المرشد الثاني، وهنا انفسح المجال الواسع للعمل الشعبي أمام الأستاذ عبد القادر عودة فكان يزور البلاد المختلفة مدينةً مدينةً وقريةً وفق الخطة التي رسمها الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله، وفي كل زُورَةٍ يلقي خطبة وافية تعلن الاتجاه الجازم نحو الشريعة الإسلامية، وتؤكد المناداة بتطبيقها الحتمي دروساً للحياة .

وفي سنة ١٩٥٢م كنت مدرساً بمدرسة (أبي تيج) الثانوية للبنين ، فعلمت أن سرادقاً كبيراً قد أعد، ليلقي فيه الأستاذ عبد القادر عودة كلمة الإخوان مع رهط من إخوانه القاهريين ، فهرعت إلى استماع ما سيقال ، ولم أكن رأيت الأستاذ عبد القادر عودة من قبل، فبهرنى الرجل بحديثه المتمكن، لأن خطبته البليغة لم تكن كلمة تُقال في حفل، ولكنها كانت محاضرة فقهية دقيقة تلم بأطراف هامة من نواحي التشريع، وكانت للرجل ذاكرته الواعية إذ روى كثيراً من النصوص الفقهية الدالة على أن

الشرعية الإسلامية شريعة كل زمان ومكان، وأنّ مرور العهد بها منذ نزل القرآن الكريم لم يزلها إلا نماء وخصباً، وكانت الهتافات تتردد، وكأنها تشق عنان السماء!

وقد دفعني شوقي إلى استماع الرجل أن أنتقل وراءه في مركز أسبوط، فشاهدت عدة احتفالات في أنحاء الصعيد كان الأستاذ عودة أحد خطبائها البارزين، وطبيعي أن يكرر بعض ما سمعته من قبل، لأن الهدف الذي يعنيه يتطلب الإيضاح في كل محفل، ليتكوّن رأي عام ينادي بدعوة الإخوان إلى تطبيق أحكام الله.

وبهذه المواقف المتكررة صار الأستاذ عودة علماً بارزاً في محيط الإخوان، وأصبح صده القوي مصدر رعب لمن قاموا بثورة ٢٣ يوليو، لا ليحكم الشعب نفسه بنفسه، بل ليكونوا رؤساء يتمتعون بالحكم الدكتاتوري دون رقابة، وقد بدؤوا بمحاولة عزل الرئيس محمد نجيب في المرة الأولى، ولكن الأستاذ عبد القادر عودة كان على رأس مظاهرة شعبية كُبرى أجبرت عبد الناصر على عودته، لا ليهدأ الأمر ويسير في مجراه الصالح نحو الديمقراطية النزيهة، بل ليتمكن مع مؤيديه من إحكام مؤامرة أخرى تنتهي بعزل محمد نجيب، دون أن تقوم مظاهرة لإرجاعه، حيث يجمع كتائب الجيش في كل اتجاه لتُصادر كلّ تجمع! ثم افتعلت حادثة المنشية للقضاء على الإخوان المسلمين، ولم يكن عبد القادر بالإسكندرية، ولا كان من المتهمين المزعومين بدءاً، ولكن دوره في المظاهرة الأولى كان غصّة في حلق المستبد، فأمر بتقديمه للمحاكمة دون جرم، وانتهى الأمر باستشهاده، فقتل ظلماً بسيف البغي، وخمد صوتٌ كان مشرق حياة ومبعث آمال؛ وقد قال التاريخ كلمته في هذه الجريمة النكراء، وسيقولها في صورة أوضح عندما تزول الغواشي المدلهمة التي لا تزال تحجب الحق عن الأبصار، وقد تأخر الزمن كثيراً كثيراً فلم تنكشف الحقائق للناس جميعاً كما يجب أن يكون.

وإذا كنتُ في هذه البحوث أهتم بأفكار المتحدّث عنه، لأنها أثّره الخالد في الحياة، فسأترك حديث جهاده العملي، إلى حديث جهاده العلمي، وقد أُلْمِعْتُ من قبل إلى مؤلّفه الكبير عن التشريع الجنائي، وهو بمواده الدقيقة قد أصبح مرجعاً للباحثين جميعاً، وقد حارب في مصر وأعدمت أسفاره حرقاً كيلا تكون مصدرَ لوعةٍ للنفوس، ولكن الكتب التي أحرقت في مصر، قد طُبِعَت مرات عدة في أكثر البلاد العربية فانتشرت على مدى أفصح، وفي أفق أرحب، ثم عادت إلى مصر لتأخذ

مكانها المطمئن في مكتبات الدراسين، وكذلك فُعل بتفسير الشهيد «سيد قطب» في ظلال القرآن، حيثُ أحرقت أجزاءه، وسُجن أكثر من وُجدت لديه، ولكن طبعاته ازدهرت في أماكن كثيرة، ورجعت ثانية لتنتشر على مدى أوسع، وقد أخذت رسائل جامعية عنه وثبتت على الاضطهاد! وهي مأساة تتكرر على مَرَّ العصور، إذ أعدمت كتب رفيعة لأمثال أبي حامد الغزالي وابن رشد، ثم عادت للظهور على نحو وضيء.

هذا المؤلف الجليل الفخم يقع جزؤه الأول في أكثر من ثمانمئة صفحة بالقطع الكبير، وقد قال في مقدمته: «هذه دراسات في التشريع الجنائي الإسلامي مقارنة بالقوانين الوضعية، وفقني الله فيها إلى إظهار محاسن الشريعة، وتفوقها على القوانين الوضعية، وسبقها إلى تقرير كل المبادئ الإنسانية والنظريات العلمية والاجتماعية، التي لم يعرفها العالم ولم يهتد إليها العلماء إلا أخيراً.

وسيرى القارئ مصداق هذا القول بين دفتي هذا الكتاب، وأرجو ألا ينتهي من قراءته إلا وقد أصبح يعتقد بما أعتقده، وهو أن الشريعة الإسلامية هي شريعة كل زمان ومكان، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله».

وهذه السطور على إيجازها الدقيق تكشف عن جوهر هذه الموسوعة كشفاً لا يحتاج إلى بيان، فإن مجال المقارنة المحايدة بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية قد أظهر تفوق الأولى ظهوراً يُرى بالعين ويلمس باليد، ولم يكن الكاتب مُبالغاً حين قرر تفوقها السَّابِق إلى تأكيد كل المبادئ الإنسانية، فقد أقام الدليل على ذلك بما ليس بعده إقناع، على أنه مع سَبْقِه الفائق في كتابه لم يلجأ إلى ما اعتاده أصحاب المقدمات الطويلة من مباهاة بالجهد، واستطالة بالأدلة، وإدلال بالتأنيج، فقد ترك للقارئ أن يعلم ذلك بعد اطلاعه، مكتفياً بحمد الله على توفيقه وهدايته.

ولعل من الألف لالقارئ أن يقف على شيء من هذا البحث الجاد، نعرضه حين نتحدث عما كتبه الباحث عن الجريمة بين الشريعة والقانون، فقد بدأ بتعريف الجريمة عند الفقهاء مُقارناً بتعريفها لدى القانونيين، ومبيناً اتحاد المراد من الجريمة والجنائية معاً عند الفقهاء، بخلاف ما جرى عليه القانونيين؛ لأن الجريمة في الإسلام جنائية مهما قلَّت درجة الفعل، أما في القانون فتعني الجريمة الجسيمة وحدها؛ وبعد أن كشف مدى خطورة الجريمة في المجتمع، تعرَّض إلى تفصيل

شافي عن وَجْهَيَّ الخلاف بين الشريعة والقانون، فذكر أن الشريعة الإسلامية تعتبر الأخلاق الفاضلة أولى الدعائم التي يقوم عليها المجتمع فهي تحرص على حمايتها، أما القانون فلا يهتم بالأخلاق إلا إذا أصاب إهمالها ضرراً مباشراً يخل بالنظام، فلا تعاقب القوانين الوضعية مثلاً على الزنا إلا إذا أكره أحد الطرفين الآخر، وكان الزنا بغير رضاه، رضاه تاماً، والمزني بها غير زوجة، لأن الزنا حينئذ يمس ضرره المباشر الأفراد كما يمس الأمن العام.

أما الشريعة الإسلامية فتعاقب على الزنا في كل الأحوال والصور، لأنها تعتبر الزنا جريمة خلقية، وإذا فسدت الأخلاق فسدت الجماعة، وكذلك الخمر تعاقب الشريعة على شربها سواء أحدث السكران ضرراً بغيره أم لم يحدث، أما القانون فلا يعاقب إلا إذا حدث ضرر، فليس العقاب للخمر إذن ولكن لما أحدثته، ووجهة نظر الشريعة أن الخمر من الناحية الخلقية مفسدة خلقية، وإذا ضاعت الأخلاق فقد هُدرت الصحة والأموال والدماء، والأصل الأصيل في ذلك أن الدين الإسلامي يأمر أمراً جازماً بمحاسن الأخلاق، ويحث على الفضائل، ويهدف إلى تكوين الجماعة الصالحة الخيرة، أما القانون فقد وضعه أناس على أساس من الظاهر المشهود، دون تعمق في النتائج البعيدة، فكان من الطبيعي أن تهمل القوانين الوضعية النظر الأخلاقي فتجرّ الناس إلى الإباحة والشذوذ.

أما الوجهة الثانية فهي أن الشريعة من عند الله لا من فكر الناس، وبترتب على ذلك نتيجتان هامتان:

أولاً: نُباتُ القواعد الشرعية واستمرارها، مهما تغيرت الأحكام، وتعاقبت الدول، يستوي في ذلك أن يكون الحكم جمهورياً أو ملكياً، لأن القواعد الشرعية لا ترتبط بالهيئة الحاكمة ولا بنظام الحكم، وإنما ترتبط بالدين الإسلامي، وأصوله ثابتة لا تتغير.

ثانياً: وهو من الأهمية بمكان: إن احترام القاعدة الشرعية تجعل المسلم يخاف العقوبة الأخروية لأنه جاوز حدّ الله إذا ارتكب الإثم، فهو في حذر دائم من الجريمة، وإن قامت الستور دون كشفها، أمّا في ظل القانون فلا يلمس المجرم حرجاً في نفسه إذا أخذ الاحتياط الدائم، وأمن الشهود الذين يروون جريمته فيشهدون عليه، ورقابة الله هي الحاجز الأول دون الشهوات.

وفي توضيح الأركان العامة للجريمة أتى الباحث بما يُعلي منزلة الشريعة في الالتزام بالنص المقرّر، وسريان النصوص الجنائية على الزمان والمكان معاً، وسريانها على الأشخاص جميعاً دون تفريق بين رئيس ومروّوس، وما كتبه الباحث في هذا المجال يشفي الصدر حقاً، كما يدلّ على غوص دقيق في علم الأصول حين يحلّل القواعد العامة مثل: الأصل في الأشياء الإباحة، ولا حُكم للأفعال قبل ورود النص، ولا تكليف إلا على القادر المتمتع بالأهلية؛ ومع كل أصل في هذه الأصول دليله الملزم من كتاب الله، والإفاضة المشبعة في أحداث رُوعي فيها تطبيق النص منذ عهد رسول الله ﷺ، ومن أجمل ما اهتدى إليه الباحث في تقريره هو ما فصّله من الحديث عن حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين منهيّاً إلى قوله الجازم:

«والأصل في الشريعة أن فرض العقوبة واستيفاءها حقٌّ لله تعالى، ولكن الشريعة جعلت استيفاء بعض العقوبات حقّاً للأفراد كعقوبة القصاص والدية، فلهم أن يتمسكوا بها أو يتنازلوا عنها، فإذا تنازلوا عنها كان للجماعة أن تُعاقب الجاني بالعقوبة الملائمة لظروف الجريمة والمجرم، وعلى هذا فإن جعل استيفاء بعض العقوبات حقّاً للأفراد لا يسلب الجماعة حقها في فرض عقوبات أخرى على هذه الجرائم، وهذا كلام له وجهته الصحيحة فقد يتنازل الفرد عن حقه وراء ضغط خفي لا تُعرف أسبابه، ولا تُعلم شواهد، ويظن المجرم أن الأمر قد انتهى بتنازل الفرد عن حقه في إدانة المرتكب، وهنا يبحث المجتمع عن حقه، فيقع العقاب على الآثم ليحصل الأمن للجماعة دون احتيال».

لقد تعمّدت أن أوجز بعض ما كتبه الباحث الكبير عن الجريمة، لا لألخص كلّ مقال، فليس المقام مقام استقصاء وإشباع، ولكن لأظهر الروح التشريعية التي تلبست هذا المشرع الإسلامي، فأمدته بنظر صائب في التعليل والتخريج، كما اهتدى إلى اللباب الجوهرية من أسرار الشريعة اهتداءً لا يبلغه من درس الإسلام في نصوصه القرآنية وأحاديث النبوة دراسة متغلغلة إلى أعماق التشريع، ومعرفة مراده الدقيق، والتزامه الجاد بصلاحية الفرد والمجتمع على نحو لا يغلب جانباً على جانب، ولا ينظر إلى مصلحة موقوتة دون امتداد إلى المدى الآجل في الزمن البعيد..

وبعدّ حديث الجريمة بنوع عام اتسعت صفحات الكتاب لبحث جرائم الحدود،

وهي الزنا والسَّرقة والقتل والشرب والحرابة والردة والبغي، ومذهبه في البحث هو المذهب المقارن، ولنأخذ حدّ الزنا مثلاً لطريقة البحث، حيثُ صدره الأستاذ عودة ببحثٍ عن هذه العقوبة في الشريعة والقانون، وانتصر صادقاً لوجهة الشريعة حين قرّر أن اعتبار الزنا من المسائل الشخصية في القانون الوضعي كان أساساً للتحلل الخلقي المشاهد في دول الغرب، وما تحطمت الأسرة وازدهرت الإباحية هناك إلا بترك الناس لشهواتهم في استباحة الزنا المَرَضِيّ عنه من الطرفين.

ويرجع انتشار العزوبة على وجه شاسع إلى أنّ الداعي الغريزي للزواج قد وجد منافذه في قناة سهلة لا تسبّب التزاماً أسرياً في العيش، ولكنها سبّبت أضراراً صحية وخلقية، فانتشرت الأمراض السرية، وسهّل الاتصال الشاذ على نحو مريض، ولو انتقلت هذه الفوضى إلى الأمم الإسلامية لكانت كارثة الكوارث، وإذا كان الغريبتون يضعون حدّ الزنا بالمغلاة تارةً وبالتوحش تارةً، فقد حدّد الباحث أركان جريمة الزنا تحديداً يمنع الشطط في التنفيذ المتسرع دون دليل. ورجع إلى أمّهات الكتب الفقهية من شتى المذاهب على مختلف العصور، وأشار إلى أفاتٍ جنسية يحرمها الإسلام ويبيحها القانون، عارضاً ما قيل في المذاهب المختلفة ومُرجحاً ما يراه دون اعتصام بغير الدليل، وكان دقيقاً حين تعرّض للتطور التشريعي لعقوبة الزنا في صدر الإسلام حتى استقرّ الحكم على رجم المحصن وجلد سواه، وإذا كان بعضُ المعترضين قد وجّه المآخذ على تغريب الزاني، فإن ما ذكره الباحث من الأدلة يدفع هذه المآخذ، والمشاهد الآن في كثير من المدن الإسلامية أنّ من يشيع عنه ارتكاب هذه الفاحشة لا يستطيع مواجهة الناس، ويعجّل بالرحيل إلى بلد آخر، لأنّ الاستنكار العام للفاحشة جعله موضع التحقير، إن لم يكن باللسان الناطق، فبلسان الحال، وإذن فالتغريب خيرٌ يدفع شراً لا محيص منه.

وتوالى الحديث عن العقوبة، وتنفيذها، وعن الأدلة الكافية في إثبات الجريمة، وعدد الشهود، وشروط الشاهد بما ملأ عدة صفحات لا يخلو سطرٌ منها من ملحظ فقهي دقيق، والحق أنّ كلّ حد من حدود الله تعرض له الأستاذ عودة يصلح وحده أن يكون كتاباً مستقلاً لما أفاض فيه المؤلف مقارناً ومعلّلاً وموجّهاً، وما ذكرته من مثال الزنا في مجال الاستشهاد يُعطي نماذج أخرى لسائر الحدود التي تحدث عنها بإشباع وإمتاع، وقد يظنّ القارئ بي بعض المغلاة، ولكنني أنقل إليه بعض ما ذكره

الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي خاصاً بهذا الكتاب القيم، ومحمد فريد وجدي علمُ الأعلام في عصره، ولا ينزغُ إلى هوى خاص فيما يُقرّر، قال الأستاذ رحمه الله^(١):

«شرح القاضي الفاضل في بسط ما أجمل في مقدّمة كتابه على ترتيب يعتبر غايةً في حسن التقسيم، وجمال التبويب، فذكر أولاً مدى المقارنة بين الشريعة والقانون الوضعي والمذاهب الشرعية المقارن بها، وعلة الاختصار على هذه الأربعة [لدى غيره لا لديه] ولغة البحث لدى الفقهاء والشرح، ولماذا بدأ بالقسم الجنائي، وكيف دُفع لدراسة الشريعة، وكيف اتهمت الشريعة بعدم الصلاحية، ووجه الخطأ في قياس الشريعة بالقانون، مما يأخذ بعضه بأيدي بعض من الموضوعات ليكونَ القارىء على بينة مما يقرأ، وعلى علم بما يقارن، ولم يدغ مما تجب معرفته في هذا الموطن حاجةً لمستزيد، والذي لمُسناه في هذا الكتاب أنه يفيدُ في فهم الشريعة لمن يريد أن يلمَ بما لا يستطيعه من كتبها، فإن هذه صُنفت للمشتغلين بدراستها، والكتاب الذي بين أيدينا وُضع للوصول إلى بيان واضح، يُفهمُ المشتغل بالدراسة الفقهية، وغير المشتغل بها، فهو من هذه الوجهة من أنفع الكتب في تعميم العلم بأسرار الشريعة وتفوقها على غيرها من الشرائع».

هذا بعض ما قاله الأستاذ وجدي وفيه اكتفاء وشفاء.

وللأستاذ كتابان آخران، هما كتابا (الإسلام وأوضاعنا السياسية) و(الإسلام وأوضاعنا القانونية)، ودراسة كتاب التشريع السالف تُقدّم مثلاً تطبيقياً لما دَعَا إليه الأستاذ في هذه الناحية القانونية، مع مزيد من الإفاضة في بلاء القوانين الوضعية وكيف دُوهمت بها أكثر بلاد الإسلام، ورسم الطريق إلى العودة الصحيحة لتعاليم السماء في هدي من الذكر الحكيم، هذا عن الكتاب الخاص بالأوضاع القانونية، وقد كان أسبق في الوجود من كتاب (الأوضاع السياسية) فتداوله القراء على نحو أوسع، قبل أن تصدر قراراتُ مصادرات كُتب الأستاذ وكأنها من أفحش أنواع المخدرات، بل إن المخدرات في مصر لم تكن لتجد هذه الحرب الضروس، ولو وجدت على هذا النمط لما بقي فردٌ يتعاطى المخدر أو يبيع.

ولعل الذي حدا بالأستاذ عودة إلى تسطير كتاب (الإسلام وأوضاعنا السياسية)

(١) مجلة الأزهر - المجلد العشرون، سنة ١٣٦٨ هـ، ص ٦٧١.

ما لفظ به صاحبُ (الإسلام وأصول الحكم) من قوله: «إن الشريعة الإسلامية لم تحدد التزامات الحاكم وطريقة الحكم في الإسلام على وجه مبين»، وقد ردّ عليه أساتذة الفضل بما أظهروا خطأه المتسرع، ومع هذه الردود المفحمة فقد وجدت دعوى الأستاذ علي عبد الرازق ذبوعاً هائلاً لدى من يسرهم أن يعلنوا أنّ الإسلام لم يأت بشيء ما في سياسة الحكم والحاكمين، وأن ما قيل في هذا الصدد اجتهادات من فقهاء المذاهب لا تلتئم على نحو مريح.

نعم وجدت هذه الدعوى أذنًا صماءً لدى من أرجفوا بقول الأستاذ علي عبد الرازق، واعتقدوه على أنّه الرأي الصحيح، فجاء كتاب الأستاذ عودة ليؤكد ما سبق أن تحدّث الكبار في ردودهم المفحمة من أمثال الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ محمد بخيت والشيخ يوسف الدجوي والسيد محمد رشيد رضا، وكلّهم لم يدع حقاً إلا جلاًه ولا باطلاً إلا أرداه، وقد كتبه الأستاذ بأسلوبه الواضح الساطع كعهداً به باحثاً ومحاضراً، فتحدّث عن الخلافة ومركزها السياسي، وعن الحكومة الإسلامية ووظيفتها ومميزاتها، وعن الإمامة العظمى، والشروط الواجبة في الإمام، ومتى تنعقد الإمامة، واختيار الإمام، ومبدأ الشورى في الإسلام، وواجبات الإمام وحقوقه وحقوق الأفراد، ووحدة الأمة الإسلامية؛ ثم ختم هذه البحوث ببحث عن أوضاع الأمة الإسلامية الراهنة، وعن المسؤول عمّا نحن فيه من انهيار، وما أدت إليه المفاهيم الخاطئة في السياسة من انحدار، كما جَلجل بصوته في آذان العلماء كي يقوموا بواجبهم أمام هذه الادعاءات الباطلة، حتى يعرف كلّ إنسان أنّ الإسلام سياسةٌ رشيدة في الحكم وجدت تطبيقها العادل حيناً من الدهر، ثم رجفت الراجفة، فاستعمر الغرب الشرق، ووجد الإسلام حائلاً دون أغراضه، فوجد من يعرضه على غير وجهه، ويراه مدعاة التأخر في بلاده ولا سبيل لديه إلى الإصلاح إلا باحتذاء قوانين الغرب سياسةً وتشريعاً وقانوناً! ومن رحمة الله أنّ أمثال الأستاذ عودة - وهم بحمد الله كثيرون - قد أجهزوا على هذه الأراجيف، وجلّوا رونق الإسلام في وجهه الصبيح.

كان الأستاذ عودة يردّد في كل مجتمع أن علة تأخر المسلمين هي بُعدهم عن الإسلام، وهي أزمةٌ تأكدت حلقاتها منذ أوائل هذا العصر، فكتب عنها عبد الرحمن الكواكبي في كتابه (أم القرى)، وشكيب أرسلان في كتابه (لماذا تأخر المسلمون

وتقدم غيرهم)، وأبو الحسن الندوي في كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، وجاء عبد القادر لينظر في صميم الأزمة فيراها بفكره القانوني الضليع جائزةً في البعد عن الشريعة، وإهمال تطبيقها، فكتب كتابه الرائع (الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه) وهو كتابٌ صغيرٌ من ناحية الكم، ولكنه من ناحية الكيف قُبلة عاصفة كانت جذيرةً بأن تكتسح ما يجثم في وجوه المصلحين من عقبات لو سارعَ الناس إلى فهمها وتنفيذ ما تدعو إليه، وقد بدأ الرجل الحزين كتابه بقوله:

«إنَّ مما يُحْزِنُ المسلم أن يرى المسلمين يسرون من ضعف إلى ضعف، ويخرجون من جهل إلى جهل، ولا يدرون أنَّ العلة الحقيقية لما هم فيه، إنما هي الجهلُ بالشريعة الإسلامية، وإهمال تطبيقها على كمالها وسموها، ولا يعلمون أن تشبثهم بالقوانين الوضعية الفاسدة، هو الذي أفسدهم، وأورثهم الذلة، وإني لأعتقد أننا لم نترك أحكامَ الشريعة الإسلامية إلا لجهلنا بها، وقُعود علمائنا أو عجزهم عن التعريف بها، ولو أنَّ كل مسلم عرف واجبه نحو الشريعة لما تأخَّر عن القيام به، وتسابقنا في العمل لخدمتها وتطبيق أحكامها».

وفي ضوء هذا العلاج الحاسم شرع الأستاذ بيِّن من أحكام الشريعة ما لا غنى عنه، ويكشف وجه الحق فيما يدعيه بعض الجهال من دعاوى غريبة منكرة لا منطق لها، ولا سند يسندها.

وإذن فرسالته الصغيرة (الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه) كتبت لتكشف محاسنَ هذه الشريعة، وتوضح أسباب التخلف بمجافاتها، ودواعي هذا التخلف، ولو كان لي أن أنقلها جميعها في هذه الصفحات لفعلت، لأن كل سطر منها يفيد في إيضاح مضمونٍ جديد، ولكني سأقوم بتلخيص لأهم ما حوته، ولعلَّ ذلك ممَّا يدعو لا إلى قراءتها فحسب، بل لاعتناق أفكارها بعد أن صارت واضحة الدليل، قوية الصراط.

فبعد أن أكَّد الباحث ما هو معلوم من الدين بالضرورة، من أنَّ أحكام الإسلام تشملُ العقائد والعبادات وتنظيم الدولة، وتنظيم علاقات الأفراد والجماعات بيِّن أن مخالفة هذه الأحكام ذاتُ جزاءٍ دنيوي وذاتُ جزاءٍ أخروي لأنها مزجت الدين بالدنيا، وجعلت الله رقيباً على كلِّ عمل يعجزه بالخير إن كان خيراً وبالشر إن كان شراً، كما أوضح أن أحكامَ الشريعة لا تتجزأ، ولا تقبلُ الانفصال، إذ أنَّ هذه

الأحكام نفسها ترتبط ارتباطاً عضوياً يجعلها سبيكة متحدة لا تقبل الفكاك، تأكيداً لقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

كما يَبَيِّنُ أَنَّ هذه الشريعة عالمية، ظهرت بدين الهدى والحق ليظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون، وهي دائمة كاملة بأصولها لا يتطرق إليها النقص، حيث نزلت من عند الله بدءاً لتُطبق أحكامها بين الناس، أما القانون الوضعي فقد تَكُونُ بالتدريج على أيدي أناس يُصَيِّبون ويخطئون، وهذا ما يجعله عرضةً للتبديل بين حين وآخر، وكم رأينا في القوانين ما كان ثابتاً راسخاً في عصر، ثم انقلب إلى نقيضه في عصر آخر، والذي حال دُونَ تبدل الشريعة على مرِّ العصور أَنَّ نُصوصها المدونة من العُمووم بحيث تتسع لحاجات الجماعة مهما طال الزمن، وقد مرَّ عليها أكثر من أربعة عشر قرناً تغيرت بها الأوضاع وتطوّرت الآراء أكثر من عشرات المرات، واستحدثت من الصناعات والمخترعات ما لم يكن يخطر على بال، بحيث انقطعت العلائق الثابتة في القانون الوضعي بين اليوم والأمس، وظلت الشريعة حافظة لكيانها العريق، لأنَّ الغرض منها تنظيم الجماعة وتوجيهها، أما القانون الوضعي فيجيء متأخراً عن الجماعة فهو يَنْبُعُ منها وَلَيْسَ له إمكان توجيهها، وهي التي وَضَعته على ما تراه مناسباً.

وقد أفاض الكاتب في إيضاح المميزات الجوهرية لشريعة الله بما لا مزيد عليه، وهي أمورٌ أصبحت شائعة مشهورة، ولكن أعداء الشريعة يُغْمضون عيونهم عنها مكابرين، ومن أظهر ما جاءت به تحديدُ سلطة ولي الأمر حيث لا يخرج عما أحل الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإذا كانت الشريعة بهذا السمو فإن جريمة أي جريمة أن نقبل القوانين الوضعية في أحكامنا ونرفعها. وقد جاءت هذه القوانين أثراً من آثار الاستعمار الأوروبي وقعود علماء المسلمين عن مناهضة ما جدَّ من الأحكام.

وأقف مع الرجل الفاضل وقفة ناقدة، فقد صدّق ما يقال من أن الخديوي إسماعيل أراد أن تكون الشريعة الإسلامية أداة التنفيذ في حكمه، ودعا علماء الأزهر لوضع التشريع الإسلامي في مواد قانونية تكون موضع التنفيذ فرفضوا، واضطرَّ إلى

الاستعانة بالقانون الوضعي! . هذا القول قد ذاعَ أوّل ما ذاع على يد السيد محمد رشيد رضا في مجلة المنار، وكان بينه وبين علماء الأزهر مناقشات جوهرية، ذهب كلا المتناقشين فيها مذهب الغلو، فرمى السيد رشيد علماء الأزهر بهذه التهمة دون تحقيق .

والواقع أن نوبار باشا رئيس الوزراء حين أنشأ المحاكم المختلطة وإلى جوارها المحاكم الأهلية ألّف لجاناً لنقل القوانين الفرنسية، حيث تكون مصدر التشريع، ودعا بعض العلماء من الأزهر للاشتراك في هذه اللجان، فرفضوا جميعاً أن يكونوا أعضاء في لجان مهمتها نقل القانون الفرنسي إلى البلاد، ولو كان الخديوي إسماعيل - ومعه رئيس وزرائه - صادقي النية في احترام الشريعة الإسلامية، لوجدوا القوانين الإسلامية مهيأة في (المجلة العدلية) التي أصدرها الفقهاء في تركيا، وحولت أحكام الإسلام إلى مواد تطابق روح العصر في التأليف، إن أعوزه أن يجد من ينهض إلى ذلك من الأزهريين، وهذا غير المعقول، بل كان في مصر من أمثال محمد قدرى باشا من قاموا بترتيب الأحكام الشرعية وفق المواد القانونية المتعارفة، ولو دُعي أمثال محمد قدرى باشا مع فريق من علماء الأزهر إلى تقنين المواد، لكان الأمر من السهولة بمكان، وأمامهم موسوعة (المجلة العدلية) حافلة بكل ما يُراد .

لقد صدّق الأستاذ عبد القادر هذه الفرية التي أخذت تتردد عن غرضٍ ماكر، هو إثبات أن علماء الإسلام لا يستطيعون مجارة العصر، وإذا كان نواب الأمة في عصر إسماعيل - ولم يعرفوا شيئاً عن البرلمانات الأوروبية - قد استطاعوا أن يسقطوا وزارة رياض بفطرتهم القانونية المحكمة إلى كتاب الله كما أعلن ذلك الأزهرى الماجد عبد السلام المويلحي أحد المعارضين من النواب، إذا كان هؤلاء النواب البعيدون عن قوانين أوروبا قد عرفوا وجه الحق فيما يأخذون ويدعون تنفيذاً لشريعة الله، في الأمر بالشورى والحكم بالعدل، ومسؤولية الحاكم . ألا يستطيع الكبار من علماء الأزهر أن ينهجوا نهج علماء تركيا، وأمامهم المثال؟!

أرجعُ إلى الحديث عن رسالة (الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه) فأقول: إنّ من أهم أبوابها ما كتبه الأستاذ عودة عن أثر القوانين الوضعية على الشريعة من الوجهة العلمية، إذ أنشئت محاكمُ يرأسها قضاة أوروبيون، أو قضاة مصريون لم يدرسوا شريعة الله، كما أنشئت كليات للقوانين تحتفل بكتب الأوروبيين وتعدها

مصدر التشريع، وتُغفل إغفالاً تاماً شريعة الإسلام، ولم تُدرس الشريعة الإسلامية في كليات الحقوق بدءاً إلا بعد زمن امتد، إذ طالب المصريون بضرورة أن يكون للشريعة الإسلامية ما للقانون الروماني البائد من حصص المحاضرات. كما كان أكبرهم القانونيين إذا عورضوا بالمُحكم من كتاب الله أن يُحاولوا تأويل النص بما يتفق والحكم الوضعي، ويعُدُّون ذلك قياماً بواجبهم نحو دينهم الذي يعتنقونه!

وقد خرجت القوانين المخالفة للشريعة عن وجهة الحق، لأن البلد بلد إسلامي، والإسلام لا يسمح للمسلم أن يتخذ من غير شريعة الله قانوناً، وقد قال الله عز وجل في محكم كتابه: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٨ - ١٩].

ولعل الرجوع إلى هذه الرسالة الرائعة مما يجب على كل مسلم أن يقول به، فقد كشفت آلاماً مبرحة عن جهل المثقفين من المسلمين بشريعتهم، وعن أدياء الثقافة الأوروبية التي جعلوها مصدر التفوق على سائر الثقافات ومن بينها ثقافة الإسلام، ولهم في ذلك غلو كاذب كشف الأستاذ عن سيره المعوج، مع جهل تام بكتاب الله وسنة رسوله، وهم بعد ذلك أصحاب الرأي في البلاد بوظائفهم العالية، ومناصبهم المرموقة! وإذا كان مما يهرفون به جهلاً دون علم: أن الشريعة الإسلامية شريعة وقتية لا تقوم بمتطلبات العصر؛ فقد كشف الأستاذ عودة مدى هذا الادعاء المتطاوّل وأفسده بما يكشف عن عواره القبيح. والباب الأخير تحت عنوان (من المسؤول عما نحن فيه) بابٌ موجه قاسٍ جداً، وهذه القسوة ضرورية لقوم غافلين، إذ أن آخر الدواء الكي كما يقال في المثل القديم.

هذه بعض النواحي الرائعة التي تحولت من الفكر العلمي إلى الواقع العملي في حياة الشهيد عبد القادر عودة، فنأدى في محاضراته ومؤلفاته بتحقيق مبادئه، وعقد الندوات، وناقش الخصوم، وجمع الجموع، ثم فاز بجثة الله شهيداً طاهراً بين من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين.

عبد العزيز الإسلامبولي صاحب مجلة المعرفة

- ١ -

من الناس من يذلون الجُهدَ كلَّ الجهد، ويُعطون خيرَ الثمارِ الشهية، ويُقدّمون
لذويهم ما يملأ العقل، ويمنع النفس، ويبهج العين، ثم لا يذكّره أحد، وكأنهم
لم يشقّوا طريقهم في الصخر حتّى تفجر الماء، وانبجس النبع!

كان الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي شاباً شديد الحماسة للأدب والعلم والدين،
كان شاباً يحمل عقل الشيخ الناضج، وتدقّ الفتوة الملتهبة، وإيمان المؤمن
المناضل، وكان له أسلوب رائع واثق على ريق العمر، ونضارة السن، وقد نظر
فوجد الجوّ الفكري في حاجةٍ إلى مجلةٍ أدبيةٍ إسلامية، ذات عمق أصيل، واتّجاه
هادف.

كانت مجلة (السياسة الأسبوعية) في دورها الثاني الذي أخذت تهبط شيئاً فشيئاً
فيه عن دورها الأول، ولم تعد لها حدة الصيال، ولا رغبة الإثارة، مع أنّ رئيس
تحريرها هو رئيس التحرير، ولم تتغيّر المجلة من حيث الطبع والانتشار، ولكن
رئيس تحريرها هو الذي تغيّر، حيث بدأ يفقد حماسه التي سيطرت عليه حين رأى
في الدعوة إلى الفرعونية وإعادة مجد (تحتمس) و(رمسيس) و(إيزيس) وسيلةً
للاستنهاض الفكري، والاستقلال السياسي، إذ مرّت السنوات دون أن ينمو البذر
الذي غرسه مع زملائه في أرض الجريدة الأسبوعية! وهذا ما جعله في الدّور الثاني
يفكر أين يتجه؟ ولكنه لم يبدأ بعدُ خطته الجديدة في الاتجاه إلى التاريخ الإسلامي
باعتباره الغذاء الحقيقي المؤثّر في نفوس الشباب العربي بعامة، والشباب المصري
بخاصة، وكأنّ الأقدار شاءت أن يكون عبد العزيز الإسلامبولي سابقاً لهذا المفكر

الكبير حين أصدر مجلة المعرفة قبل أن تظهر مجلة الرسالة فتكمّل الدور ناهضةً نحو الكمال! .

لقد وقفت السياسة في مهبّ الحيرة، وكأنها تأهبت لعملٍ آخر لا يذري عنه القراء شيئاً بعد، ونظر عبد العزيز فإذا في الأفق الفكري مجلات؛ (المقتطف) و(الهلال) و(المجلة الحديثة)، أما المجلتان الأوليتان فليست لهما رسالةٌ فكرية، ولكنهما أشبه بموسوعةٍ تُقدّم المعلومات دون هدف، وقلّ أن تعرض إحداهما في جدّ حازم لهموم الشرق، وآلام العروبة، ومستقبل الإسلام؛ نعم إن كتابهما من خيرة الكتاب، ومن رجال الصف الأول في دنيا الإبداع، ولكنهم يكتبون المقال وكأنهم يؤلفون باباً من أبواب العلم ينفع العقل ولا يغذي الروح.

أما مجلة (المجلة الحديثة) فذاتُ طبيعةٍ منعزلةٍ عن آمال الشبيبة الناهضة التي تنزعُ إلى المجد القديم مستمدةً القوة من دينها الخالد، وتراثها الثمين، فليست من آمال عبد العزيز في شيء، لذلك تطلبت الضرورة الملحة أن تنشأ مجلة المعرفة لتحمل راية الأدب العربي، ونور الثقافة الإسلامية.

وفي مصر من الأعلام من يستطيعون أن يؤدّوا دورهم الباهر في هذا المجال، في مصر أحمد زكي باشا شيخ العروبة، ومحمد فريد وجدي كاتب الإسلام النابغة، وعبد العزيز البشري، وطنطاوي جوهرى، ومصطفى صادق الرافعي، وزكي مبارك، وأحمد فهمي العمروسي، وأحمد حسن الزيات، ومنصور فهمي، ومصطفى عبد الرازق، وعبد الوهاب النجار، وأحمد الإسكندري، وعلي الجارم؛ ومعهم من كُتّاب العالم العربي عبد الرحمن الشهبندر، وعبد العزيز الثعالبي، ومحمد المكي الناصري، ومصطفى جواد؛ ومن لا أستطيع حصرهم من أساتذة الجامعة وعلماء الأزهر وقادة الفكر في الأمة الإسلامية، وهؤلاء قادرون كل القدرة على أن يعيشوا نسيماً منعشاً في الجو العربي، وأن تنشق أعلامهم بنور جديد.

وعبد العزيز شابٌ دمّث، حسنُ التأتّي، شديد الاحتمال، متحمّس الروح، وسيُصادق هؤلاء جميعاً، يسعى إلى منازلهم في الغدوّ والرواح، ويتلطف في طلب ما يُريده من المقالات، ولهؤلاء نخوة خلقية تدفعهم إلى أداء الرسالة، ومجاوبة الفكرة، وهذا ما كان فعلاً، إذ صدرت مجلة المعرفة ذات اتجاه متميز، وفكر واعد سديد، وأعلن صاحبها في العدد الأول الصادر بتاريخ ذي الحجة سنة ١٣٤٩ هـ

مايو سنة ١٩٣١م اتجاهه في الفاتحة الأولى للمجلة حيث يقول :

«من أهم أغراضنا ربط البلاد الشرقية بعضها ببعض أولاً، ثم ربط الشرق بالغرب ثانياً، وذلك بالعمل على نشر معارف الأول، فما يزال الشرق مبعث الحكمة والنور، ومهبط الوحي والإلهام، وأب المعرفة، فمن شاء فليؤمّن ومن شاء فليكفر، كذلك سنعمل على استخلاص النافع لنا من علوم الغرب، واستصفاء ما يصلح لنا من مدينته لنقوم بها ببناء مدينتنا، وإذن فستكون المعرفة باباً للمعارف العامة، وهي تودّ لو يحقق لها الزمن أن تكون مركزاً لنشر الصّوفية السامية، وبعث الفلسفة الإسلامية العالية، وإحياء الحكمة المشرقية الجديدة، وبناء الأدب العربي وتجديده، وإذاعة الفن السامي، وأن تكون معولاً هداماً لبناء المذاهب المادية الإلحادية، ومبضعاً دقيقاً لبتّر الفاسد من المذاهب الشاذة، ومصلحاً مقوّماً لغلطات بعض المستشرقين؛ وسبيلنا إلى ذلك هو النقد والتحليل، ليتبين الحق من الباطل».

أما موضوعات العدد الأول فتكشف عن هذا الاتجاه، إذ تتحدث عن: الأخلاق وفلسفة الجبر، ورابعة العدوية، ومسألة الجبر والاختيار، وطريق المعرفة وحيرة الفلاسفة إزاءها، وكيف يُستعاد مجد الإسلام، والفلسفة والدين عند فلاسفة الإسلام، واعرف نفسك بنفسك، ومهيار الديلمي شاعراً، وحرية المرأة في الإسلام، ورحلة ابن بطوطة، وكيف رُتبت حروف الهجاء، إلى أبواب ثابتة في الخاتمة تتحدث عن نقد الكتب، والجديد في العلوم والفنون، ومملكة المرأة في البيت؛ هذا جلّ ما جاء في العدد الأول وتبعته الأعداد المتوالية على نحو من الاتساع المتتابع حيث استفاضت البحوث الأدبية والفلسفية وقامت المناقشات المختلفة بين كبار الكتاب في أدقّ مسائل الفكر، وكثر الحديث عن علل الشرق في بلاده المختلفة، وربوعه القاصية والدانية، ووُوجه الاستعمار الفكري والسياسي بمعاول هادمة! ووضح اتجاهه نيز في آفاق الفكر العربي الحديث.

كان القارئ لأجزاء مجلة المعرفة على توالي صدورها يرى الجزء الواحد منها أقرب ما يكون من حولية علمية تصدرها كلية جامعية وفق اختلاف المواد المنهجية بها، فبحوث المجلة تدور حول الفلسفة والتاريخ والأدب والنقد والاجتماع والتربية ثم ما يتصل بالوضع السياسي الراهن في أمور العالم الإسلامي، ولكلّ غرض من هذه الأغراض أساتذته المتخصصون يكتبون فيه بأسلوب وسط بين البحث

الأكاديمي، والمقال العلمي في مجلة سيارَة؛ فأنت إذا عرضت إلى بحوث الفلسفة بالمجلة تجد جُلَّ القائمين بها من هيئة التدريس في القسم الفلسفي بكلية الآداب المصرية - تجدُ من الأساتذة: مصطفى عبد الرزاق، ومنصور فهمي، ويوسف كرم، ومن الشباب: عثمان أمين، ومحمود الخضير، وتوفيق الطويل، وغيرهم، فكانت المجلة تعبر عن روح القسم بالجامعة.

وبحوث الأستاذ مصطفى عبد الرزاق بالمجلة ذات طابع معتدل، فهو يعاني مسائل دقيقة يخرج منها بتوفيق فلسفي هادئ، وفي بحثه المنشور بالسنة الثانية ص ١١٦٥ نجد ابتكاراً طريفاً فيما يُعاني من القضايا، حيث تساءل الباحث عن صلة الفلسفة الإسلامية بالفلسفة اليونانية، وذكر آراء (رينان) ومن شايعه ممن لا يعترفون بالنظر الفلسفي المستقل عند مفكري الإسلام ويرون الفلسفة الإسلامية تلخيصاً لفلسفة اليونان، ليرد على ذلك بفساد الرأي المصطنع في التفريق بين السامية والآرية دون تعصب أو صخب، وتوالت دراسات الرجل الكبير لينتهي إلى الجديد حقاً حين يعلن استقلال الفلسفة الإسلامية البارز في ناحيتين، ناحية علم الأصول، وقد ابتكره الإمام الشافعي عن ثقافة إسلامية خالصة، وناحية علم الكلام وقد استند في أصوله إلى شريعة الإسلام دون نظرٍ إلى منطق يوناني في أصل العقيدة، وإن تابع المنطق في طريقة الحوار، وقد شاء الله لهذا المذهب الجديد في الفكر الإسلامي أن يتأيد بالدليل وأن يكون له أشياعه الفاقهون.

وأشير بعد ذلك إلى ما كتبه الدكتور عثمان أمين تحت عنوان (التوفيق بين الفلسفة والإسلام) في العدد الأول ص ٣٥ من السنة الأولى، وعثمان أمين تلميذ مصطفى عبد الرزاق ومريده، وقد أخذ عنه تشييعه لأفكار الأستاذ الإمام محمد عبده والعمل على نشرها في عدة مؤلفات لاقت إعجاب الدارسين، وقد حلل الباحث آراء الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد في موضوع دقيق كتبه بحيدة وإنصاف منتهياً إلى أن موقف الفلسفة من الدين في نظر هؤلاء أشبه ما يكون بنظر الأرستقراطية المستنيرة من الديمقراطية الشعبية المغمورة، وهي نتيجة تحتاج إلى تصحيح لم يفهم الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي، حين عقب على البحث بقوله:

«كنا نود أن يوضح الباحث رأيه عن الغزالي توضيحاً أكثر من هذا، لنستطيع الحكم على ما قرره عنه حكماً صحيحاً لا شائبة فيه، والنقد منطقيّ مسلّم به، لأن

الأستاذ عثمان أمين يكادُ يضع الغزاليّ مع ابن رشد وصاحبيه في سَلّة واحدة، مع أن الغزالي نازِل الفارابي وابن سينا منزلة صارمة في كتابه الشهير (تهافت الفلاسفة) مما اضطر ابن رشد إلى الردّ عليه في كتاب (تهافت التهافت)، ولو رجع الأستاذ عثمان أمين إلى أصول الإسلام الصحيحة لا يرى نفسه في حاجة إلى تأويل كلام ابن سينا والفارابي على نحو يتفق مع الفلسفة اليونانية والإسلامية معاً هذا إذا كان يتحدث عن الدين الإسلامي، أما إذا أراد غيره من الأديان فلا اعتراض».

ومما يتصلُ ببحوث الفلسفة ببحوث الأخلاق، لأنّها شُعْبة من شعب الفلسفة، وقد نُشرتِ المعرفة عدّة بحوث حُلُقِيّة عن (الضمير) للدكتور مهدي علام كانت مزاجاً جيّداً لحقائق علمية اشترك فيها الشرق والغرب معاً، كما أن البحوث الضافية التي كتبها الأستاذ أحمد فهمي العمروسي عن التربية، وقد جُمِعت في كتابٍ خاص أهدته مجلة المعرفة لقراءها، كانت ذات طابع مستقل، لأنّ أكثر الوافدين من كليّات الغرب قد كتبوا عن التربية وكأنها شيء جديد لا علاقة لنا به، فهم يتحدثون عن (جان جاك روسو) و(هربرت سبنسر) و(بستالوزي) و(جون ديوي) وغيرهم، وكأنهم كلُّ شيء في هذا المجال، أمّا العمروسي فقد حفظ لأساتذة التربية في الإسلام حقوقهم، فأفاض في النقل عن الماوردي، وابن مسكويه، والغزالي، وابن خلدون بما جعل البحث ممتد الجذور إلى أرض بعيدة لم يلتفت إليها مَنْ كان مهمتهم الترجمة قبل البحث.

وقد افتتحت المعرفة عددها الأول ببحث فلسفي واضح عن (الأخلاق وفلسفة الجبر) للدكتور منصور فهمي أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية، فكان بحثاً صادق النبرة حسن الاتجاه، لأنه لم يشغل القارئ بأراء الفلاسفة فيتخمه بزاد لا قبل له بهضمه، ولكنه وازن بين الحضارة الغربية والحضارة الشرقية في ضوء ما تتخذه كلتاها من نظر فلسفي، منتهياً إلى أن فلسفة الجبر ليست من خصائص النظر الشرقي - كما يحاول إثبات ذلك بعض المتعجلين - كما أنها ليست من خصائص النظر الغربي، ولكنها من آثار العقل المجرد، إذ يجول في بحبوحة الزمن جولات تقنعه وترضيه.

أفضتُ في حديث الفلسفة على صفحات المعرفة بعض الشيء لأبين أن المجلة كانت دسمة المحصول، قوية الاتجاه؛ وانتقلُ إلى حديث التاريخ حيثُ تشعبت

موضوعاته على صفحات المجلة تشعباً متفرعاً، جمع بين القديم والحديث، بل خرجت المجلة ببحوث مبتكرة لم تكن معهودة للقراء منذ سبعين عاماً كما هي مشتهرة اليوم بعد ازدهار الحركة العلمية في الدراسات الجامعية العليا، إذ أن ما ورد بالمجلة عن تاريخ المناذرة في الجاهلية كان جديداً لم يُطرق من قبل، وقد انتشر على عدة حلقات، كما أن ما ورد بها من تاريخ البيمارستانات كان أول حديث في موضوعه، وقد أبدع الدكتور أحمد عيسى في تسلسله إبداعاً حيث صار بعد ذلك الأصل الأول لكل من سار على دربه، أما مأساة المهالبة من أبناء المهلب بن أبي صفرة، فقد كتبت على حلقات متصلة ببيان مُعلّل للمؤرخ الكبير الشيخ عبد الوهاب النجار فكانت باكورة لما بعدها، وكذلك الحديث عن مأساة لسان الدين بن الخطيب الشاعر الذي قُتل وحُرقت جثته، قد وجد بحثه الشافي في حلقات مستوعبة كتبها الأستاذ أحمد الإسكندري، أما بحوث محاكم التفتيش فكانت نواة لكتاب شامل أصدره الدكتور علي مظهر، ولعله أول من جلاّ النقاب عن هذه الفظائع الدامية التي تجاهلها الدارسون حيناً من الدهر، وكذلك البحوث الخاصة بتطور الحركة السياسية في ألمانيا، مما يضيق المقام عن استيعابه.

والأدب؟ هل يُجهل مكانه في مجلة أدبية ممتازة كال معرفة؟! لقد حافظت على امتداده الأسلوبية حين حرصت على التعبير الجيد في كل ما نشرت، وبقيني أن الأستاذ الإسلامبولي قد كان يتولى تقويم بعض العبارات لأساتذة كبار يفهمون الموضوع ولا يُحسنون الصياغة على وجه مستنير، أقول ذلك اعتماداً على ما رأيت من عناية الأستاذ أحمد حسن الزيات بتقويم أساليب الكبار من العلماء من أمثال ساطع الحصري، والأب انتاس الكرملي، وإسماعيل أحمد أدهم، وغيرهم حين يكتبون القلم في أخطاء تعبيرية تهبط بالمقال! والأب انتاس لغوي كبير، ولكن اللغة شيء، وصياغة الأسلوب المطرد شيء آخر، لذلك أجزم بأن الإسلامبولي كان الفاعل الحقيقي وراء من يظهر اسمه على أنه نائب فاعل في كثير من البحوث، وهذا عن الأسلوب الأدبي.

أما بحوث الأدب فما أكثرها وأغزرها، لقد فسحت المجلة صدرها لبحوث متوالية عن مهيار الديلمي وابن زيدون وابن الرومي وابن شهيد والمنفلوطي وإسماعيل صبري وشوقي وحافظ، بل إن وفاة أمير الشعراء وشاعر النيل في وقت

متقارب قد دفعت المجلة إلى استفسار كبير بين أعلام الكتاب عن أثر الفراغ الذي أحدثه رحيلُ الشاعرين؛ فأجاب طه حسين، ومحمد حسين هيكل، وأحمد الإسكندري، وأنطون الجميل، وعلي الجارم، وخليل مطران، بما يصلح أن يكون كتاباً نقدياً في تحديد اتجاه الشاعرين الكبيرين، وقد قرأت مقال الأستاذ خليل مطران في هذا الصدد، ووقفتُ عند انتقاده للشاعرين، وإن كان قد تحدّث بلسان المتكلم، ليدخل معهما تأدّباً وكياسةً نعهدهما فيه، فكانت خلاصته ما قال: إنّ الطريق لا يزال ممتداً، وإنّهما لم يتقدّما بغير الخطوات.

وإذا كان النقد الأدبي أحد أبواب الأدب بمدلوله العام فإن صفحات المجلة اتسعت لشؤون كثيرة من النقد الهادف، ومن أبرز ما جاء في هذا المجال حديثُ الرافعي عن كتاب ابن الرومي للعقاد، حيث هاجمه على صفحات المجلة بما لم يُواجه به هذا الكتاب القيم من قبل، وقد أحسّت المجلة أنّ المقال سيغضبُ العقاد وهي حريصةٌ على استرضائه فذكرتُ أنّها ترحبُ برده فليست طرفاً في النزاع، وكان الشاعر الكبير الأستاذ علي أحمد باكثير لا يزالُ في دور التكوين، ولكّنه نشر نقداً هادفاً لتحقيق ديوان ابن زيدون على صفحات المعرفة دلّ على تمكّنه الأدبي في عهد الصبا، وأنّ هلاله سيكونُ بدرأً كما تمّ، ولعلّ مقال طه حسين الطويل عن شوقي وحافظ الذي نشره بمجلة الهلال عقب رحيل شوقي لم يجد رداً أقوى مما كتبه الأستاذ محمد خورشيد على صفحات المعرفة، وقد رثى صاحب المعرفة حافظاً وشوقياً وعبد المطلب حين رحيلهم بما حفظ لهم مكانتهم الأدبية على صفحات المجلة.

ومما يندرجُ في باب النقد ما خصصته المجلة في آخر كلّ عدد من الحديث عن الكتب الجديدة، وأكثر المجلّات المجاملة كالهلال والمقتطف تكتفي بالتعريف، ولكنّ الأستاذ الإسلامبولي - وهو الذي يحزّر هذا الباب - قد لبس القفّاز الحريري في نقده كثيراً، ولم يمنعه لين الملمس أن يمسّ المؤلف بما يراه من نقد هادف، وهو أسلوب بارع، لأن محاولة الهدم تضرّ أكثر مما تنفع، لاسيما إذا كان الكتابُ ذا نفع مؤكد، ويتطلّبُ بعض التسديد حتى يبلغ أوج الكمال!

ثم ماذا؟ هل تسكت المجلة عن أوجاع المجتمع ودواهيهِ؟ وهي ترى العلل المنتشرة عن شمال ويمين؟ لقد أسهمت المعرفة في حركة الإصلاح حين حلّت

أوباء الأمراض الاجتماعية في مصر ومن أهمها معضلة (البغاء) حيث رسخ في بعض الأذهان أنه شر لا بد منه، وأن الأمم الراقية لا ترى مانعاً من بقاته، ولكن المجلة الناهضة حاربت كل ادعاء، وتعرضت إلى تهكم مقن لا يروّن الخير لمصر، حتى قال أحدهم: إنه باقٍ باقٍ، ولن يزول إلى يوم الدين، لحاجة الناس إليه، ثم شاء الله أن يخيب ما يرتجون وأن تغلق أبواب البغاء بعد حين لا إلى عود، فتظهر البلاد من دنس كربه.

وكذلك أفاضت المجلة في أحاديث اختلاط الجنسين شارحةً وجهتي النظر المتقابلتين، ومبيّنةً مساوئ الاختلاط، كما شنت حملةً قاسيةً على المآثم التي تُرتكب في الموالد، موضحةً أنها بعيدة عن أصول الدين، وأن الذين يلحقون هذه المنكرات بتقاليد صوفية، لا يعرفون شيئاً عن التصوف الحقيقي وإنما هم مارقون! ولو أردت أن أفي هذا الموضوع حقّه لعرضتُ كل ما نشرته المجلة على مدى ثلاث سنوات، إذ لا يخلو عددٌ واحد من موضوعات اجتماعية تتعلق بالبيت والأسرة والشارع، وموافقة العادات للأصول الصحيحة للأخلاق، ولعلّي بهذا العرض السريع أكون قد كشفتُ بعض الملامح الدقيقة في وجه هذه المجلة الوضيء.

- ٢ -

على صفحات مجلة المعرفة مقالات كثيرة عن التصوف الإسلامي، والتصوف العالمي، وكنت أقف أمام هذه البحوث متسائلاً عن تردادها الكثير نسبياً، ثم قرأت للأستاذ محب الدين الخطيب بمجلة الأزهر في حديث عن الكتب ما يفيد أن الفيلسوف الفرنسي الأستاذ (رينيه جينو) الذي اعتنق الإسلام عن دراسة عميقة وسمّى نفسه (عبد الواحد يحيى) قد ساعد مادياً على انتشار مجلة المعرفة، بل إنه الذي حثّ الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي على إصدارها، لتكون امتداداً لمجلة المعرفة التي كان يصدرها بالفرنسية في باريس، ثم انتقل إلى القاهرة فرأى أن تكون المعرفة العربية امتداداً لسابقتها الفرنسية، ومقالاتُ الفيلسوف عبد الواحد يحيى ذات عمق، وتدل على أصالة عميقة في فهم الفلسفة الشرقية والغربية معاً، وقد ألّف عنه أستاذنا الكبير الشيخ عبد الحليم محمود كتاباً قيماً يشيد بعلمه وصوفيته ويتحدّث عن الكثيرين من تلاميذه في شتى ربوع العالم، ومنهم كبار الشعراء والأعيان.

فإذا عرفنا الفضل الكبير للأستاذ الإسلامبولي في إصدار مجلة المعرفة فلنعرف معه فضل الشيخ عبد الواحد يحيى، وأذكر أن نقاشاً علمياً دار على صفحات المعرفة بينه وبين العلامة محمد فريد وجدي حول المسائل الروحية التي يهتم أساطين العلم في أوروبا باكتشافها فيما يُسمى تارةً باستحضار الأرواح وتارةً بالتنويم المغناطيسي، وللأستاذ وجدي ولعٌ شديد بهذه البحوث قد كتب فيها مؤلفاً ذا أجزاء ثلاثة مع عشرات المقالات التي ترددت في (الدستور) و(الحياة) و(المقتطف)، واتسعت (مجلة الأزهر) لعشرات منها.

والذي أحب أن أقوله أن المعارضين للأستاذ وجدي يضيّقون ذرعاً باكتشافات العلم في هذا المجال ويعدّونها أوهاماً لا تُبنى على أساس، مع أن القائمين بها ليسوا من ذوي الشعوذة كما يحلو لخصومهم أن يقولوا، ولكنهم في إنكلترا وأمريكا وغيرهما من كبار الأساتذة الجامعيين، ومنهم مديرو الجامعات وعمداء كلياتها، ومعهم تجاربهم الدالة، ذات النتائج الحاسمة! ومحاولة تجاهل كلّ ذلك خطأ في بابه، لأننا لا نزال مهما امتد الزمن إلى القرن العشرين بعد الميلاد لم نكتشف من المجهول إلاّ قدراً يسيراً، وكلّ يوم يأتي للناس من الاكتشافات الحديثة ما لا يخطر على بال! فإذا كان في هذه البحوث - على صلتها الوثيقة بأئمة العلم التجريبي في الغرب - ما يؤيد بقاء الروح ويعصف بأقوال الملاحدة من المادّيين فلماذا لا نستمع إلى القوم وهم أساتذة كبار.

لقد امتد الحوار المفيد في هذا المنحى بين العلامة محمد فريد وجدي والشيخ عبد الواحد يحيى، والقارىء هو الكاسب حين يقرأ هذه المجادلات الفكرية وأشباهها، وألاحظ أن الإسلامبولي حرص على المجادلات العلمية بالتي هي أحسن، فلم يأذن لنفسه أن ينشر نقداً غير موضوعي يتجه إلى التهكم والاستهزاء، ولا يُراعي أدب البحث والمناظرة؛ وهذا ما يجب أن يحرص عليه رؤساء التحرير جميعاً! لأن الخطأ في الاجتهاد الفكري مشروع ومحتمل، وكلا المخطئ والمصيب طالب حقيقة.

لم أذكر شيئاً بعد عن حياة الأستاذ عبد العزيز الإسلامبولي، لأنّه كان متواضعاً إلى أقصى مدى التواضع، فلم يتحدث على صفحات المجلة بشيء عن سيرته، والتزم الصمت في السنوات الطوال التي أعقبت احتجاج المجلة فلم يكتب لنفسه

ترجمةً، مع أنه كتب تراجم كثيرة نُشرت تباعاً في الصحف لمن يعرفهم من الكاتبيين من أمثال أحمد زكي باشا وأحمد فهمي العمروسي، وعبد العزيز الثعالبي، وعلي يوسف، وأمين الرافعي، ومحمد رشيد رضا، وعبد العزيز جاويش، ومحمد فريد، كُتِبَ هذه التراجم بروح التقدير، لأن هؤلاء جميعاً من كرام المجاهدين في حقول السياسة والدين والعلم، وما منهم إلا له مقام معلوم.

وكان الأستاذ بعد احتجاب مجلته يُلقى أحاديث إذاعية عن الأعلام في القديم والحديث في الأربعينيات نُشر كثيراً منها في مجلة الإذاعة المصرية، ولم يسمح لنفسه أن يقول شيئاً يتعلق بصلته بهؤلاء وفيهم من أصدقائه المخالطين أمثال أحمد زكي والثعالبي والعمروسي، وهي صوفية نبيلة أعرفها لدى قوم من المثاليين.

وقد أتيح لي أن أشرف على رسالة جامعية تقدّم بها الدكتور (هشام محمد إبراهيم البيه) لنيل درجة الدكتوراه في الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بالمنصورة تحت عنوان (مجلة المعرفة واتجاهاتها الأدبية) فوقفْتُ على ترجمة أمينة للأستاذ، جمعها الباحث من أسرة الراحل وأصدقائه فكانت مدداً للدارسين، ومما قاله أن والد الأستاذ كان تاجراً معروفاً في بيئته، وأنه ولد في قرية بسيون بالغربية في ٢٠/١٠/١٩٠٥م، وأسرته تنتمي إلى بيت النبوة، كما ذكر ذلك الأستاذ زكي مجاهد في كتاب (الأخبار التاريخية في السيرة الزكية) ص ١١٥.

وقد حفظ القرآن في نشأته الأولى، والتحق بالتعليم الأولي، ثم انتقل مع والده إلى القاهرة ليشهد قيام ثورة سنة ١٩١٩م، وينفعل بأحداثها وهو فتى يخطو خطواته المتثددة من الصبا إلى الشباب، فكان يخرج بين المتظاهرين في سن الخامسة عشرة، ويوزع المنشورات، حتى عرفته الشرطة الإنجليزية فاعتقلته على طراوة العمر، وكان اعتقاله باعثاً لطرده من المدرسة الثانوية بأمر المحتلين، فأثر الهدوء في القرية بعيداً بعض الوقت، ثم رجع إلى القاهرة ليُتمّ دراسته الثانوية في مدرسة عابدين الليلية.

وجدَّ من الأحداث الخاصة ما جعله يقوم بأعباء أسرته بعد انتقال والده إلى جوار ربه، فترك الدراسة النظامية وظلَّ يقرأ لنفسه ما يروقه في شتى فنون الأدب والتاريخ والدين حتى أصبح كاتباً مرموقاً، ترخَّب الصحف والمجلات بآثاره الفكرية، وهذا ما دفعه إلى إنشاء مجلة المعرفة، حتى إذا توقفت عن الصدور التحق محرراً بصحف البلاغ والجهاد والشعب، ثم متحدثاً بالإذاعة المصرية، ولها مجلة تهتم بنشر أحسن

ما يُذاع، فكانت كلمات الإسلامبولي تأخذُ حظها من الظهور.

وعند إنشاء نقابة الصحافة عُهد إليه بالقيام على إنشاء مكتبتها، ثم عمل مستشاراً صحفياً للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وفي هذه الفترة اتجه إلى الكتابة الإسلامية تاريخاً وثقافة على صفحات مجلة (منبر الإسلام) التي يصدرها المجلس الأعلى، فتكوّن له مما كتب محصول وافر لوّ جمع في كتب خاصة لصار عدة أجزاء، ثم انتقل إلى ربه في ١٩٦٤/١٢/٢٦م بعد جهادٍ علمي يحتاج إلى جمع وإشادة وتنويه!

هذا بعضُ ما يقال عن حياة الإسلامبولي، ولنا أن نلقي نظرات سريعة على بعض ثماره الأدبية لتكتمل صورته على نحو قريب.

لقد خاض عبد العزيز معركته الأدبية في دنيا الصحافة، قبل أن يبلغ الثلاثين بعامين، خاضها شاباً يحمل فورة الطموح، وأديباً اكتملت رجولته الأدبية في هذه السن الصغيرة، مع أن الرجولة الأدبية ذات دلال وإباء، ولا تواتي الشاب دفعة واحدة، قد تتيج له أن يكون كاتباً في صحيفة، أما أن يكون صاحب مجلة فكرية ممتازة يرسم خطتها، ويشتكتب أعلامها، ويهيئ وسائل نشرها، فهذا موضع التقدير حقاً، وليته فرغ لأمره وحده، بل لاقى من صعوبات المنافسة ما لا قبل له به.

لقد عزّ على أصحاب المجلات المنافسة - ولهم باعهم الطويل في سوق التجارة الصحفية، وخبرتهم البعيدة في الكر والفز، والدهاء والمكر - عزّ عليهم أن يجدوا صحيفة مصرية خالصة تهياً لدورها الناهض حاملة رسالة تجذب الشباب والشيوخ معاً، فكان من كيدهم أن يتفقوا مع باعة الصحف على إهمالها، إذ تخفى عن الأنظار فلا يستطيع شراءها من يريد، والباعه سماسرة يذعنون لمن يدفع ويفرّز، وبذلك وجد النهر الدافق جنادل تعترض طريقه، كما أوعزوا للسفن النازحة، ولم تكن الطائرات حينئذ وسيلة نقل الصحف والمجلات، أن تُبطئ في إرسال ما يذهب إلى بعض الأقطار الشقيقة حتى يمضي الوقت، فيصبح العدد الجديد قديماً، ويُسأل عنه في مواعده فلا يوجد! هذه ناحية.

أما الناحية الأخرى فالافتراءات ذات الوجهين المتعارضين، فمرة يُقال إنها مجلة رجعية تشغل بالتصوف والأفكار المتقهقرة، ومرة يُقال إنها تناصر الأفكار الجديدة

وتنكر القديم؛ وصفحات المجلة تنكر ذلك وتزججه فهي ميدان الفكر الحر، وأداة الربط بين القديم التليد والحديث الطريف، ولكن في الناس من يسمع فيصدق، ويتهم ما يراه بعينه؛ ومن هؤلاء وأولئك جأر الشاب بالشكوى صارخاً، حين كتب في بعض افتتاحيات المجلة يقول^(١):

«فريق يتهمنا بالجمود في الرأي والتعصب للدين، والتمسك بالقديم، وليس لنا مناقشتهم بعد أن رأوا أجزاء المجلة التي صدرت من قبل تردّ ما وجه إلينا من الجمود والتعصب، على أنّ المضحك هو أن تجد إلى جانب هؤلاء فئة من الناس تتهمنا بالمغالة في الجديد، وهذه يترعّمها بعض السوريين الدخلاء، وآسف أن أقول السوريين الدخلاء؟ أتعرف ماذا يقول هؤلاء الأناسي؟ يزعم هؤلاء الدخلاء ومن لفت لقمهم في غير حق ولا رحمة، أن مجلة المعرفة تعمل دأبة على نشر الآراء الصوفية المتطرفة، والبذع الدينية، والأفكار الفلسفية الإلحادية... يا سبحان الله!». .

وقد سكّت عن محاربة التوزيع لأنّه لا يملك أدلتها القانونية، وإن تحدث عنها صغار الباعة وكبارهم معتردين، وقد ينكلون في ساعة الجد فيخضعون لإغراء جديد، وقد حاربت (المجلة الحديثة) فيما بعد مجلة (الرسالة)، واتهمتها بالرجعية والتأخر، ولكن الرسالة كانت قد ثبتت أقدامها إذ جمعت كبار الكتاب من أعضاء لجنة النشر والتأليف والترجمة، ولهم ثقلهم المعنوي والمادي، فوالت الصدور حتى أحمدت أنفاس المعترضين، ولكن ماذا يصنع شاب لم يتجاوز الثلاثين، وهو فرد ناشئ لا وظيفة في يده، ولا ثراء لأبيه! .

وإذا كنّا نعجب لثباته الشجاع في معركة الصيال قدر طاقته المحدودة، فالعجب كل العجب لمقدرته الأدبية إذ خرج على القراء بنمط من الأسلوب البياني كان حينئذ قبلة الأنظار، وموضع الارتياح، كان أسلوباً بيانياً شفافاً يحتذي حذو مدرسة الفصاحة الأسرة التي يترعّمها المنفلوطي رحمه الله، ويسير في ركبته أحمد حسن الزيات، وعبد العزيز البشري، وصادق عنبر، ومحمد الهياوي، وكانت أساليب الخطابة حينئذ تختلط بأساليب الكتابة، لأن خطيب العصر سعد زغلول قد نزع إلى البيان فيما يطالع به المستمعين من خطب رنانة ذات تأثير نقّاذ، وكانت هذه الخطب

(١) مجلة المعرفة، سبتمبر، سنة ١٩٣١م.

تُشر بعد إلقائها في الصحف فيعجبُ بها القراء ، ويحتذونها لا في الخطابة بل في الكتابة أيضاً.

وأذكر أن الأستاذ الإسلامبولي كتب مقالاً تحليلياً في ذكرى المنفلوطي قال في مقدمته إنه سيحاكي في رثائه أسلوبه البياني، وما درى أنه في ذلك لا يحاكي بل يصدرُ عن طبع تهيأ له وارتسم في نفسه، إذ كان في بدئه محاكياً، ثم صار أصيلاً، مما يذكرنا بقول القائل:

بعد أن كانَ حاكياً وهو يشدو جعلته المحكّي بين الشوادي
يقول الأستاذ الإسلامبولي في ذكرى المنفلوطي من مقال مستفيض ببعض التصرف^(١):

«أي سرّ هائل كانت تكتنزه نفسُ المنفلوطي الفتية؟ وأي مأساةٍ عنيفة، تلك التي استهل بها حياته وما يزال يافعاً صبيّاً؟ كانت حياة المنفلوطي في مراحلها صورة واحدة تجتمع إليها ألوان لا تستطيعها يد الصانع الفنان، ولا تستطيعها الريشة الماهرة الجاذبة؟ هذه الصورة، ماذا تكون؟ إنها الصورة التي أدرك الشرق العربي منها كيف ينتهي الدمعُ إلى الصميم، وكيف تذوب القلوب المتحجرة في بوتقة النار المحرقة، تلك نار الشجن الهائل الحافل، الذي استطاع المنفلوطي أن يغدقَ منه على قراء العربية صبيّاً جزيلاً فيه تحقيقٌ للجوانب العابسة، وفيه تألّب على كل مشرق طروب؟

أي دموع سخينة تلك التي سخّها على صفحات كتبه سحّاً أولئك الذين يقرؤون رسائل المنفلوطي، بل أيّ عبرات تلك التي سكبها على عبراته سكباً! لقد كان يسترسل في كتاباته على سياق نفسه، وعلى ما تُوحي إليه عواطفه الخاصة، وأحاسيسه الرفيعة، ومشاعره التي يدقّ فيها كل حسّ، حتى لتكون الهمسة والآلة حين تصدرُ عن وجدانه عاصفةً داوية، وريحاً صرصراً عاتية».

وما فضّله الإسلامبولي أجمله شوقي في رثائه للمنفلوطي حين قال:

مَنْ شَوْءَ الدنيا لديك فلم تجد في المُلْك غير معذّبين جِيعاً؟
ما هكذا الدنيا ولكن نُقْلَةً دَمْعُ القَرِير، وعبرة الملتاع

(١) المعرفة، أغسطس، سنة ١٩٣٢م.

وإذا كان الإسلامبولي يزعم كما قلنا أنه يحاكي أسلوب المنفلوطي في رثائه فحسب، فإننا نزعماً أنه قد صار منفلوطياً في كل رثاء، صار منفلوطياً فيما كتبه عن حافظ إبراهيم، وعن أحمد شوقي، وعن سعد زغلول؛ ولا أستطيع أن أستشهد بكل هؤلاء فلاكتف بنمط مما قاله عن سعد الخطيب^(١):

«لم يكن سعدٌ من خطباء المنابر والمآتم، وإنما كان الخطيب الذي يطلق لسانه في كل موقف ليتلقى الناس عنه وحي الساعة، فأَي خطيب كان؟ كان صوته قويّ النبرات فيه سحر، وفيه أسر، وفيه سلاسة، وكان إلى ذلك صوتاً طيعاً لا ينساق لعمي، ولا يمضي إلى تلكؤ، وإنما كان كالزوبعة حين يهدر، والعاصفة حين تنطلق، والرعْد حين يدوي، والنخمة الساحرة حين يستقر، كانت الألفاظ تزدهم في هذا الفم القوّال، وعلى ذاك اللسان الجوال، فلا نستطيع أن نقف لسعد حين يقول على موضع من مواضع الفهامة، وقد حاول كثيرون أن يقفوا على ذلك فرجعوا إلى أشياءهم رجوع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، ذلك لأنّ كلمات سعد كانت تمضي إلى الأذان كالحلقة المفرغة أخذاً بعضها برقاب بعض، لأنّ سعداً كان يدري موقفه جيداً حتى في الساعة التي يهدر فيها هدير الأسد».

لقد أوصدت مجلة المعرفة بعد ثلاث سنوات حافلة بالجد السديد، ولكن صاحبها إذا غادر رئاسته لتحرير المجلة فلم يُغادر قلمه الصوال في كل معترك، لقد سارت الصحف بمقالاته وقصصه، والإذاعة بكلماته ذات الهدف الصريح، وكان الرجل صاحب رسالة فيما يبدع، فلم ينسَ أنّه صاحب مجلة المعرفة التي أفردت صفحاتها للحديث عن ثقافة العرب، وعبقریات الإسلام، لذلك كان يكشف المستور عن الكبار من النوايع من أمثال أحمد بن ماجد، وأبي حيان التوحيدي، والبيروني، والرازي، وابن سينا، والغزالي... في دنيا الفكر؛ وعن أمثال المثنى بن حارثة وعبد الرحمن الغافقي، والمهلب بن أبي صفرة، ومحمد بن القاسم... في دنيا البطولة؛ وعن أمثال سعد، وأمين الرافعي، وجاويش، في دنيا البطولة؛ يكتب عن هؤلاء لا ليذكر المتعارف من المواقف، بل ليفسّر هذه المواقف، ويكشف عن دوافعها الأصيلة، مع نبرة حماسية تدفع الشبية القارئة إلى الاحتذاء.

(١) المعرفة، سبتمبر، سنة ١٩٣٢م.

وقد قرأت له قصصاً عربية كان مصدرها الأغاني في أكثر اتجاهاتها تُصوّر ناحية من الحضارة العربية في عهدها الزاهر ، وتكشف طرائف خالصة عن القصور في دنيا الأمويين والعباسيين والأندلسيين والمماليك ، مما يدل على اطلاع غزير ، وبحث شامل فياض .

الحق أنني لم أقل كل ما أريد أن أقوله عن هذا الذي أدى دوره ثم سكت الناس عن تقديره ، وكأنه لم يكن بطلاً في ميدان . .



عبد المجيد اللبان عالم ديني ومناضل سياسي

- ١ -

من أعجب ما أراه أن ينتقل إلى رحمة الله عالم كبير له جهاده الوطني الحافل، فيكتفى في نعيه وما يقال في تأبينه بإبراز جهوده العلمية وحدها، وكأن جهاده الوطني وقد ضحى فيه بأنفس أوقاته، ولاقى من السجن والنفي ما ترك أثره في صحته . . . كأن هذا الجهاد ممّا يجب إهماله، على حين ترى صفحات تُسجّل لآخرين لم يقوموا بمعشار ما قام به هؤلاء، وكلّها إشادة بجهودهم السياسية!

أذكر أنني كنتُ طالباً بالسنة الثانية بمعهد الزقازيق الثانوي حين انتقل إلى رحمة الله الأستاذ الكبير عبد المجيد اللبان، فجعلت أقرأ ما قيل عن مكانته العلمية ومناصبه الإدارية، وكأن الرجل الكبير لم يعرف غير التدرج في السلم الوظيفي حتى صار شيخاً لكلية أصول الدين وعضواً في هيئة كبار العلماء! وتذكرتُ حينئذ أنني قرأت منذ عام مقالاً للدكتور زكي مبارك بمجلة الرسالة قال فيه^(١):

«المعهد الديني بالإسكندرية منسيٌّ في هذه الأيام، ولكنّ الذين عاشوا قبل الحرب العالمية الماضية [الحرب الأولى] يذكرون كيف استطاع أستاذنا الشيخ عبد المجيد اللبان أن يقيم زعامة دينية يصلُ روحها إلى أكثر المدن المصرية، وإن كُشف الغطاء عن التاريخ فستعرفون أن الشيخ عبد المجيد اللبان كانت له يدٌ في تأدية الثورة المصرية، فهو الذي جمع بين أعضاء الحزب الوطني وبين حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون، ومن تلك الحركة تهيأ الجو لحركات شهدتها سنة

(١) مجلة الرسالة، العدد ٣٥٦، ٢٩/٤/١٩٤٠.

١٩١٨م، ثم استفحلت في سنة ١٩١٩م، ثم كان ما كان إلى أن شهدتم سقوط الحماية وإعلان الاستقلال.

ومعنى هذا أن الإسكندرية التي ألقى فيها مصطفى كامل أعظم خطبة وطنية في الإسكندرية، هي الإسكندرية التي سبقت إلى الثورة على الأحكام العرفية في أعقاب الحرب العالمية الماضية، وهي التي سنّت لأهل مصر شريعة النضال في سبيل الاستقلال.

إن أكثر الذين يكتبون عن مرحلة الجهاد ضد الاحتلال يبدؤونها بيوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٩م حين قابل الزعيم سعد زغلول ورفيقاه عبد العزيز فهمي وعلي شعراوي المندوب البريطاني مطالبين برفع الحماية، وينسون أن الأستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان قد سبق إلى تهية الأذهان لمحاربة الاحتلال حين جمع الكبار من أعضاء الحزب الوطني، ولم يكن الوفد المصري قد أُلّف بعد، وكان الحزب الوطني وحده هو الذي يُمثّل الدعوة إلى الاستقلال، جَمَعَ الكبار من أعضاء الحزب ليلتقوا بالأمير عمر طوسون ويضعوا خطة للمناداة العاجلة بالاستقلال، وقد كان لهذا الاجتماع الإسكندري صداه في مصر، حيث أقدم الزعيم سعد ورفاقه على تأليف وفدٍ سياسي يطالب بحق البلاد! وقد انضم الأستاذ عبد المجيد اللبان فيما بعد إلى الوفد المصري حين أجبرت الظروف السياسية الأمير عمر طوسون على الاعتزال استجابةً لأمر السلطان أحمد فؤاد، حيث تخوَّف أن يكون للأمير مآربٌ سياسي يزعزع مكانته! هذه الشرارة الأولى اندلعت في الإسكندرية حين أشعلها علماء المعهد الديني بقيادة الأستاذ اللبان، فكيف غفل من تحدثوا عن الشيخ الراحل عن هذا الموقف الجهيري! وقد تلاه موقف وموقف من هذا الطراز!

أذكر أنني قابلت الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد المجيد اللبان بالإسكندرية، وحدثته في شجون تتصل بهذا الموضوع، فبدا عليه التأثير إجلالاً لذكرى والده الكريم، وقال إن الشيخ الكبير لم يكن يميل إلى الإعلان عن جهده في أي مجال سياسياً كان أو خيرياً أو علمياً، وكنا نحترم إرادته فلا نحاول أن نتحدث بشيء عن جهاده السياسي، أو مواقفه الخيرية، لأنه يرى أن ما قام به حقٌّ مفروض، ولا شكر على واجب، فإذا تناسى المؤرخون أن يقولوا كلمة عن جهاده، فلن ينسى الله له حسن الصنيع، وفي الابن البار نفحة من إيمان أبيه، شممتهما فيما يقال.

أعود إلى حياة الشيخ، فأذكر أنني كنتُ ولوعاً بمعرفة أذوارها العلمية والسياسية دون أن أجد ما يشفي غلة الظامئ لمعرفة الحقيقة، حتى وقع في يدي كتاب (صفوة العصر في تاريخ مشاهير مصر)^(١) وفيه حديثٌ عن الشيخ كتبه مَنْ قال عن نفسه (مؤرخ الأزهر، محمد علي الطحاوي مدرس التاريخ وآداب اللغة بالأزهر الشريف) وقد صدر الكتاب سنة ١٩٢٤م، فكشّف عن حقبة زاهرة من حياة الشيخ، فكان هذا البحث دافعاً لي إلى مواصلة الجهد كي يمتدّ الخيط إلى مداه الطبيعي، كما سيري القراء فيما يلي من الفقرات.

وُلد الشيخ في بلدة سنديون سنة ١٢٨٨هـ في أسرة تعزّز بنسبها الشريف، والتحق بالأزهر بعد أن حفظ القرآن الكريم، وأكّـب على التحصيل متطلعاً إلى مجد علمي زاهر، حتى نال شهادة العالمية بدرجة الأولى، فعُيّن مدرساً حيث كان تلميذاً، وكان اسم الأستاذ محمد عبده يملأ الأسماع، فأخذ كلّ ناشئ من شباب الأزهر ينشدُ بعض مجده، وأحسنَ عبد المجيد في نفسه همّة تدفعه إلى مناقشة الآراء العلمية في الصحف، وإبداء المقترحات التربوية في الحلقات التعليمية، وثارَت من المسائل الدينية على صفحات جريدة المؤيد ما دفع الشاب إلى اتخاذ مكانه بين المناقشين، فعارض وأيد، وصمّد لنقاش أعلام الكتاب منهم حفني ناصف، وعلي يوسف، فلفت الأنظار إلى مكانه العلمي.

وكان معهد الإسكندرية حينئذ يتلقّف كلّ نابغة أزهرية ليضمّه إلى هيئة التدريس، حيث كان شيخه الأستاذ محمد شاكر يرسم له نهجاً جديداً، فهو أول معهد أزهرية درّس ما يُعرف بالعلوم الحديثة. والإسكندرية حينئذٍ مُلتقى الشرق والغرب، لا يكاد يفد وافداً إلى القاهرة إلا عن طريقها، وفيهم من أعلام الفكر من يُحاولون إلقاء المحاضرات؛ مُخلصَةً من المؤمنين، ومُصْطَنَعَةً من ذوي الغرض، فكانت فرصة طيبة لعلماء المعهد الناهض أن يكونوا في طليعة المنتدبين إلقاءً وتعقيباً، وأن يكونَ الشيخ اللبان أحد الذين امتدّ لهم صيتٌ في عالم الرأي زميلاً للشيخ إبراهيم الجبالي والشيخ الشاذلي والشيخ عبد الله دراز ممّن تبوؤوا المناصب العلمية والإدارية في الأزهر فيما بعد.

(١) صفوة العصر، ص ٥٠٥ - ٥١٠.

وقد ظهر اسم الشيخ اللبان جهيراً حين قامت حركة التبشير النصرانيّ بتشجيع الاحتلال، وتحوّل الثغر الهاديّ إلى وَكْرٍ للأفاعي تَبَثُّ سمومها القاتلة جهاراً في عقول الشبيبة من طلاب المدارس ودُوي العقول الغضة التي لا تدري وجه الصواب فيما تسمع، فنهض الشيخ اللبان على رأس نُخبة من زملائه لتأليف جمعية دينية أسماها (جمعية الإرشاد إلى الحق) واستجاب الأعيان وذوو الغيرة إلى نداء الجمعية حيث لم تقتصر على إلقاء المحاضرات، بل امتدّت نشاطها إلى العمل الخيريّ موساةً للفقراء وإصلاحاً لذات البين.

وواجهت الجمعية حركة التبشير بلسانٍ صارم، وحجج دامغة، فقام المبشّرون بالشكوى إلى الخديوي عباس ورئيس التّظار حسين رشدي باشا فأسرعا باستدعاء شيخ المعهد فضيلة الأستاذ محمد أبي الفضل الجيزاوي، وأوضحا له غضب المعتمد البريطاني على العلماء لما يقومون به من بذر الفتنة في محاضراتٍ تُناهض المسيحية، وكان الشيخ الجيزاوي رجل الموقف، حيث قال إن العجب يملؤه حين تسمح الحكومة بقيام المبشرين بحركاتهم المريبة، ثم تدعو العلماء إلى السكوت عن نهم ظالمةٍ توجّه للإسلام! لماذا سمحت الحكومة لفريقيّ يعبث بدين الأمة، ثم جعلت تترصد من يدعو إلى سبيل الله، واقتنع الخديوي بمنطق الشيخ، فكتب إلى رئيس الوزراء يدعوّه إلى اجتثاث الفتنة من مصدرها، وأشار على الشيخ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وكأنّ الله قد هيا هذا الموقف ليصبح علماء المعهد الإسكندري قادة الثغر الحقيقيين، بيدهم التوجيه والإرشاد، ومن ورائهم الشعب المؤمن، يؤيد ويشيد!

ثم قامت الحرب العالمية، فصدرت الأوامر العسكرية في ظل الأحكام العرفية بمنع كل اجتماع سياسيّ أو ديني، واضطر الشيخ اللبان إلى قُصْر جُهدِه على اللقاء الأخوي في منازل العلية، جمعاً للتبرعات الخيرية، وفي بيوت العامة، تثبيتاً واطمئناناً، حتّى بدت تبشير السلام، وتيقّظ الرجل إلى واجب الأمة في الاستقلال، فبدأ بإعداد الرأي العام في الإسكندرية إلى مواجهة الاحتلال، على نحو ما أشار إليه الدكتور زكي مبارك وطرناه في صدر هذا المقال.

أصبح منزل الشيخ اللبان بالإسكندرية مقراً للنضال السياسي، وامتدت الحركة من الإسكندرية إلى ما جاورها من الأقاليم، حيث انتشر أبناء المعهد الإسكندري

فيما حول الثغر من البلاد يعلنون التعبئة العامة على نحوٍ لم تكن عيون الاحتلال تتوقعه، وكانت الرسل تردّد بين القاهرة والإسكندرية، حيث كان الشيخ اللبان على اتصالٍ بجهد زملائه في الميدان وفي طليعتهم محمود أبو العيون، وعلي سرور الزنكلوني، ومصطفى القاياتي، ومحمد عبد اللطيف دراز، ممن أشعلوا لهب الثورة في القاهرة من فوق منبر الأزهر.

وإذا كانت جهود عبد المجيد من الوضوح البارز بحيث هابها المحتل، فقد بادرت السلطة الغاشمة باعتقاله يوم اعتقل زعيمُ الأمة سعد زغلول للمرة الأولى في ٩/٣/١٩١٩م، لأنَّ تَمَنُّعَ اللبان بالحرية معناه أن يصبح الثغر ناراً تلتهب، وكان للشيخ موقفٌ وطني خالد لو قُطِنَ له المستعمرون لقدَّرُوهُ حق قدره، فأطلقوا سراحه ليكون عامل تهدة! هذا الموقف فضّله الأستاذ الطحاوي حين قال^(١) بتصرف قليل:

«وعندما شجر الخلاف بين فريقٍ من الأرمن والمصريين بالإسكندرية أوائل سنة ١٩١٩م، واعتدى الأرمن على المصريين [بتحريض من السلطة لتُحدث من النزاع بين الطوائف ما يدفعها إلى القمع المنتقم تحت ستار إعادة الأمن] لقيت الإسكندرية في شخص الأستاذ عبد المجيد اللبان عاملاً كبيراً من عوامل السلام، حيث اتّصل بزعماء الأرمن ممثلاً للمصريين، فألّف جماعة من زعماء الفريقين في لجنة برياسته، تكون مهمتها القضاء على بواعث الشقاق، ثم قام مع علماء الإسكندرية بزيارة كنيسة الأرمن، رداً على زيارة رؤسائهم لمنزل فضيلته، فتبادل الفريقان عبارات الوثام، وأطفئت النار بعد اشتعال، كما كان للشيخ اللبان الفضل كل الفضل في إعادة الوثام بين الإسكندرانيين والأجانب بعد شقاق خطير، إذ زار مع فريق من الأعيان قناصل الدول بالإسكندرية، وحادث الصحفيين مؤكداً لهم أن الشقاق مُضْطَنع، حتّى استتبَّ الهدوء».

اشتد ضرامُ الثورة المصرية فرأت السلطة أن تُفرج عن سعد وزملائه، وسارت بهم الباخرة نحو الإسكندرية، وكان الشيخ قد خرج من معتقله قبل مجيء سعد بأسابيع، فقرأ في الصحف الاستعمارية أن الثوار لا يمثلون الأقباط، لأن هؤلاء يرغبون في بقاء الإنجليز، فأسرع إلى عقد اجتماع بالإسكندرية يضمّ أعيان الطائفتين، وأشار بصنع علم يُسمّى علم الاتحاد، تظهر فيه صورُ الكبار من أعيان

(١) نقلاً عن (صفوة العصر في تاريخ مشاهير مصر)، ص ٥٠٩.

المسلمين والأقباط متعانقين، ووُزعت صُور من العلم في شتى أنحاء البلاد فأفسدت ما زعمته الصحف الاستعمارية.

وحين رسث باخرة الزعيم في ميناء الإسكندرية، كان الشيخ اللبان في طليعة مُستقبله مع أعضاء الاتحاد المصريّ المكوّن من الطائفتين، فتقدّم أحد كبار الأقباط مصافحاً الرئيس الجليل، ومهدياً إليه علم الاتحاد في احتفالٍ كبير أُقيم لهذا الغرض، وقد ابتدأه الشيخ اللبان متحدثاً عن وَخْشة الوطن لغياب قائده، والتفاف الأمة بعنصرها الكريمين حول مبادئه، فوقف سعد محيياً أصحاب الفكرة، ومقبلاً العلم بشفتيه الكريمتين بين الجموع الحاشدة، وألقى الشاعر الأزهري الشهير الشيخ (إبراهيم سليمان) المدرس بالمعهد الأزهري، وصاحب الأناشيد الثورية التي ذاعت حينئذ في مصر، قصيدةً عامرة كانت موضع تقدير الرئيس، ولا يزال كثير من المصريين يردّدون أناشيد هذا الأزهري الغيور في تأكيد الوحدة الوطنية، ومن بينها هذا البيت الذائع:

الشيخ والقسيس قسيسان وإن تشأ فقلل هُما شيخان

وهو بيت نشرته الصحف الوطنية في صدر الصحيفة الأولى منوهة بالحركة المباركة التي قام بها علماء الأزهر في الإسكندرية، وقد عرف الزعيم للشيخ اللبان مقامه الوطني الكبير، فرشحه لعضوية مجلس النواب عن دائرة أبي مندور ممثلاً للوفد المصري، وهو ترشيحٌ صادف ارتياح أهل الدائرة، فأجمعوا على انتخابه، حيث فاز بنصر ساحق لم يُتَح لغير الصفوة من كبار المجاهدين.

وأذكر أن أهل الإسكندرية كانوا قد قدّموا رجاءً بترشيح الشيخ اللبان عن بعض دوائر الثغر، وأعلنوا ترحيبهم بتمثيله المشرف، ولكنّ رغبة الشيخ في أن يكون ممثلاً لموطنه الذي نشأ به، وعَرَف أكثر أبنائه معرفة الأب الحاني الشفيق، جعلته يشكر الرغبة الصادقة التي تقدم بها الإسكندريون معذراً، ولم تكن معركته في الانتخاب حامية الوطيس كالمعهود في هذه المواقف الطاعنة، لأنّ الشيخ أبى أن يُقيم السرداقات الداعية لانتخابه، وتجريح غريمه، مؤكداً أنّ الحرية الشخصية ستكون الدافع في الاختيار، وأنّ كل عمل دعائي يتنافى في رأيه مع إطلاق المجال الحرّ للاختيار، فكلّ مرشح مكانته وتاريخه، وليس المواطنون بمن تغرهم الأكاذيب، وهو مبدأ لو سار عليه المرشحون في معاركهم الساخنة، ما سالت دماء،

- ٢ -

صار عبد المجيد اللبان عضواً مرموقاً في أول مجلس نيابي بعد الثورة ، فشارك في قضايا كثيرة بالرأي الصائب ، ولكنَّ موقفه الرائع من قضية تحفيظ القرآن بالمدارس الإلزامية كان ذا صدى بعيد في الرأي العام ، حيث لحظ الشيخ أن انتشار التعليم الإلزامي قد ساعدَ على تقليص الكتابات الخاصة بتحفيظ القرآن ، إذ دأب القائمون على نشر هذه المدارس في القرى والمدن على تحويل الكتابات إلى مدارس إلزامية أو أولية ، وكان من أثر ذلك أن انصرفت الناشئة عن حفظ كتاب الله ، كما مُنعت المكافآت القليلة التي كانت تجودُ بها مجالس المديريات على الكتابات ، بدعوى الالتفات إلى المدارس الجديدة ، وهُنا طالب الشيخ بأن يكونَ حفظ القرآن جميعه مقررّاً على تلاميذ المرحلة الأولى ، فلا يُهمَل الكتاب بإغفال أمر الكتابات ، ودوّت كلمته في المجتمع العام إذ لاقَتْ الاستحسان ، فانبرت لتأييده في الصحف اليومية أقلامُ الأساتذة محمود أبو العيون ، وعبد الباقي سرور ، وعبد ربه مفتاح ، وكلهم من خيار أساتذة الأزهر الشريف .

ومما يُذكر للنائب الغيور الأستاذ الدكتور عبد الحميد سعيد رحمه الله أنه احتضن الدعوة مُحاضراً ومكرّراً على المسؤولين ، ولكنَّ الاحتجاج بارتفاع مستوى الأسلوب القرآني عن عقول التلاميذ كان بعض التعلّات الواهية لدى من ذهبوا إلى الاكتفاء بالأجزاء الأخيرة في هذه المرحلة ، وقد ردَّ الأستاذ الكبير الشيخ حسين والي عضو جماعة كبار العلماء حينئذ على ذلك ، بأنَّ تلميذ الكتاب قد حفظ القرآن في سنِّه الصغيرة دون عناء ، ثم صار الشيخ حسين والي فيما بعد عضواً بمجلس الشيوخ ، فواصل الدعوة ملحاً ، وأعاد موقف الأستاذ اللبان في مجلس النواب مرة ثانية في مجلس الشيوخ ، فكسب تأييد الرأي العام ، مما أطلق لسان الشاعر الكبير الأستاذ محمد الهراوي بمديحه في قصيدة قال فيها :

قُلْ لِّوَالِي عُوذْتُ بِالْقُرْآنِ	هل درى نُبُل قصدك المجلسان
وقفتُ منك للكتاب وللدين	تولّى تسجيلها الملكان
نحن نبغى القرآن لفظاً ومعنى	فهو صقل الحجا وصقل اللسان

ليت شعري والمُخلَق في الناس فوضى هل له وازع سوى القرآن
 وكان الأستاذ اللبان يجمع مع عضويته في البرلمان تفتيش العلوم الدينية والعربية
 بالمعاهد الدينية، فرأى حاجة الطلاب ماسة إلى تأليف كتابين موجزين في السيرة
 النبوية وفي الأخلاق الإسلامية، ودَرس السيرة النبوية لا يزال قائماً إلى الآن
 بالمعاهد الأزهرية، ولكنّ مما يؤسف حقاً، أن يُمحي درس الأخلاق بعد أن كان
 مقرّراً بالمعاهد والمدارس الحكومية معاً، وحاجة النشر إلى دراسة الأخلاق
 الإسلامية في مُقرّر مستقل، وحصّة مُعينة في الجدول المدرسي من أشدّ الحاجات
 ضرورة، لأنّ تدريس هذه الشرائع الرفيعة في سنّ الرغبة والبراءة يطبعُ التلميذ بطابع
 الخلق الإسلاميّ، وهو من عوامل نجاحه في حياته المستقبلية، بل لا نَجاح حقيقي
 بدونه، وما فسدّت أخلاق التلاميذ اليوم إلاّ بابتعادهم عن سنن القرآن في تقويم
 النفوس.

ومنّ ذهبوا إلى إلغاء دَرس الأخلاق المستقلّ بمنهج خاص، يقولون إن درس
 الديانة والتّهذيب يجمعُ بعض الآيات الدالة على الخلق الحميد، وهذا تبرير مصطنع
 لأن حصّة الدين تضمّ العبادات وتُبدأ من القرآن والحديث وبعض سير النُبهاء من
 رجال الإسلام، وكل ذلك في كُتَيْب صغير لا يشفي غلّة، فلماذا لا يعود درس
 الأخلاق الإسلامية إلى المدارس والمعاهد في حيّزه الفسيح، وهل تربيةُ النشء على
 صراط مستقيم لا تبلغُ مبلغ الدّروس الأخرى ومنها المفيد وغير المفيد، حيث
 سخت المدارس المصرية في عهد الثورة أمداً طويلاً في تدريس ما يُستقى بالمِثاق
 دون جدوى، لأن ميثاق الله قائم راسخ لا ينقضه كلام منقّق، سيق لملء الفراغ، إذ
 دعا الميثاقُ إلى الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة قولاً ناقضه الواقع العملي
 فكان مهزلةً أية مهزلة!

والمسألة بديهية لا تحتمل المعارضة، ولكنّ من نكد الأيام أن نلجأ إلى الدعوة
 لتدريس التربية الإسلامية بأخلاقها القرآنية، وكأنّها مما يختلف فيها اثنان! أقول لقد
 ألّف الأستاذ اللبان كتاب الأخلاق مُوجزاً ليُجد من يسير بعده في الطريق الواضح،
 فيكتب كتاباً تالياً لتلاميذ المعاهد الثانوية في المادة ذاتها، ولم يذر أن الرياح تهب،
 والأعاصير تموج..

ثم انتقل اللبان شيخاً لقسم التخصص القديم، وهو قسمُ خلاصة الخلاصة

من علماء الأزهر، وهيئة كبار علمائه، إذ ليس بعد طالب التخصص من يعلو مستواه من طلبه العلم، وإذا كان هذا القسم يجمع بين أساتذته من هم في مرتبة أساتذة اللبان من كبار الشيوخ، ومن كانوا زملاءه من قبل، فإنه لم يقصّر في رعاية شؤونه العلمية والإدارية، إذ كان يضع الجداول بنفسه، ويناقش المدرسين فيما يصلح من الكتب الدراسية في كل المواد، وكان الأساتذة يحرصون على الحضور الباكر إلى العمل، حيث كان من عادة اللبان أن يُصلي الفجر، ويمضي إلى إدارته قبيل الشروق، وقبل أن يفد أحد من المدرسين والطلاب، وقد خرج هذا القسم طائفة من الأساتذة كانوا عدة الأزهر في تثقيف جيل جديد، ومنهم من بلغ أرقى المناصب العلمية والإدارية عن كفاءة ذات اقتدار.

أما عمل الشيخ الفذ حقاً، فهو ما قام به حين أصبح شيخاً لكلية أصول الدين منذ إنشائها، فقد عقد النية على أن تؤدي الكلية رسالتها المنشودة على أتم وجه يستطاع، وعقد مع الشيخ الأكبر محمد الأحمد الطواهري عدة جلسات متصلة ليختاراً معاً أساتذة الكلية في ضوء ما يعلمانه عن مقدرة ذوي الكفاءة من الشيوخ، وإذا كانت الكلية تشمل شعباً جديدة للفلسفة والتاريخ والتربية، فقد أثر اللبان أن يستعين بذوي التخصص من أساتذة الجامعة المصرية، فاختار ذوي الأصالة ممن نشؤوا في الأزهر من قبل، ثم التحقوا بجامعات الغرب ليعرفوا ما لدى المستشرقين من دراسات جديدة تتصل بالعقيدة والحضارة الإسلامية، معرفة اختبار ومناقشة، لا معرفة إذعان وتسليم، ولأول مرة دُرست الفلسفة الإغريقية وما تلاها من الفلسفات في رحاب الأزهر بكلية أصول الدين، ووُجد من أبناء الأزهر أنفسهم من قاموا بالتدريس على أحسن وجوهه، مثل الدكتور محمد غلاب، ومحمد يوسف موسى، ومحمد البهي، وغيرهم من ذوي الفضل! تدريساً يقوم على تصحيح الأخطاء الإغريقية إذا انحرفت عن الصواب.

ومأثرة علمية رائعة نذكرها للشيخ في عمادته بالكلية، إذ دأب على زيارة حجرات التعليم ليشهد حركة التدريس في مسارها الطبيعي، فكان عجباً أن يستمع إلى الدرس جالساً مع الطلاب لمدة ساعة كاملة، وهو في أتم اليقظة لما يُقال، وقد يُشارك في توجيه الأسئلة، وتلقي الإجابة، دون أن يحدث ذلك حساسية ما لأستاذ المادة، فشيخ الكلية في مرتبة أستاذه سنّاً وعلماً، وكلا الرّجلين حريص على نفع

الطلاب، والزمنُ زمنٌ علمٍ وتحصيل لا زمنٌ دَعوى وتهريج.

ونحنُ الآن نرى مدرّس الكلية يُعيّنُ بعد حصوله على الدكتوراه مباشرة مُدرّساً بالكلية، وقد كان طالباً في العام الماضي، ثم يندفع إلى كتابة مذكرة للطلاب لا جديد بها، فإذا أراد العميد أن يُلَفِّته إلى بعض أموره، حيث تصله بعض الشكايات، عدّ ذلك مَساساً باستقلال الجامعة، وإهانةً لحرمة المدرّس، واجتمع حوله من نظرائه من يزجفون بالعميد، ويرمون به سوء النية! ويمضي العام فلا يحصل الطالب على شيء ذي بال. وإذا سألت عن مستوى المتخرج اليوم مُقارناً بمستوى المتخرج في الكلية نفسها بالأمس وجدت الفرق هائلاً! لأنّ السيطرة العلمية مفقودة تماماً، وقد صار العميد في أكثر عمله إدارياً يراجع درجات الامتحانات، وكشوف الحسابات، وأوراق التجنيد ورعاية الشباب!! ولن يستقيم الأمر على وجهه الصحيح إلا إذا كانت بالكلية رقابةً علمية، وكان للعميد أستاذية تدفع الأستاذ إلى الجد والمثابرة متوقعاً رؤية زائرٍ علمي يزُن ويقدّر، فمتى يحدث هذا؟

حدثني بعض الحاصلين على الدكتوراه من إحدى جامعات باريس، أن من تقليد هذه الجامعة، أن يُعقد عميد الكلية اجتماعاً عاماً في اليوم الأول من العام الدراسي يجمعُ الأساتذة والطلاب، حيث يتبادلون التهنة بالعام الجديد ثم يعرض العميد ما لحظه في العام الماضي من قصور أو نجاح، متسائلاً عما يراه المجتمعون من خطوات يطرّد بها النجاح في هذا العام! وقد أسهب صديقي في ذلك إسهاب المجدّ المادح، فانتظرت حتى فرغ من حديثه، وقلْتُ له إن هذا التقليد الحميد قد سنَّه الأستاذ الكبير عبد المجيد اللبان أثناء مشيخته لكلية أصول الدين، حيثُ حَفَلْتُ مجلّات الأزهر في سنواتها الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة بخطبه التوجيهية في حفلات الافتتاح، ومراجعة هذه الخطب تدلّ على اهتمام بالغ بالحركة التعليمية في الكلية، وتوضّح الأصول التربوية العريقة التي شرحها الشيخ للمدرسين والطلّاب معاً ليكونوا على بينة من أمرهم في سيرهم الدراسي المنشود، ولا أستطيع أن أُلِم بمضمون هذه الخطب الرائعة جميعها، ولكنني أكتفي بشاهدين ماثلين..

فالشاهد الأول من الخطبة الأولى التي ألقاها الشيخ يوم افتتاح الكلية لأول مرة، فقد نهض بين الأساتذة والطلاب ليتحدث عن رسالة كلية أصول الدين بالأزهر، وكَم تتفتح نفس الطالب الناشئ حين يترك معهده الثانوي، ويخطو الخطوة الأولى

داخلَ كليته العالية، فيجد عميد الكلية ناهضاً بين جمهرة من الأساتذة ليتحدث عن مجهول يتحسسه الطالب، ويريد أن يلمسه! لقد قال الشيخ^(١) ما ملخصه:

إن عقائد الإسلام هي دعائم الحق، وقد انقطع لإيضاحها في الزمن السالف فريق من أئمة الإسلام، وضحوا أصولها ببيان شافٍ وحجج دامغة، وردوا أراجيف المبطلين بالمنطق الرادع، ولا تزال آثارهم في مؤلفاتهم شاهدة بجهودهم المثمرة، واليوم وقد ذهب السلف الصالح إلى ربه راضياً مَرْضِياً، وانتقل هذا الواجب إلينا فأصبح أداؤه حقاً عَلَيْنَا، ولم يكن الإسلام في عصر من العصور أحوجَ إلى البحث والدرس والدود عن حياضه منه في هذا العصر، فقد انصرف جمهور المسلمين إلى زخرف الأضاليل الوافدة من الغرب فاعتنقوا مدينته الشبيهة بالوحشية بما زينه الشيطان بها من مآثم، ولهؤلاء دعاة يرددون أهواءهم ويحاولون حمل الناس على ما يقتربون، فانتشرت ضروب الفساد، وشاعت الرذيلة أسوأ شيوع، وقد أنشئت هذه الكلية لتؤيد عقيدة الإسلام، وتنصر تعاليمه، وليست مهمتها مقصورة على أداء العمل في حجرات الدرس فحسب، بل لتهيئ علماء يخالطون الناس ويدعونهم بالحكمة والموعظة إلى تعاليم الإسلام على أن يكونوا قدوة بأعمالهم قبل أن يكونوا خطباء بأقوالهم، إن العلم أمانة يجب أن تؤدي على أمثل الوجوه وقد حملتهم أمانة العلم فهيّا!

هذا لبابُ ما أفاض فيه الأستاذ في كلمته الإضافية.

أما الشاهد الثاني فأنقله من الخطبة التي ألقاها الأستاذ بعد أن قطعت الكلية أربع سنوات، وخَرَّجَت الفوج الأول من طلابها، وفي مفتتح العام الخامس من حياتها المباركة نهض الأستاذ اللبان، فألقى كلمة قالت عنها مجلة الأزهر^(٢): «إنها تُعدُّ دستوراً في التربية والتعليم، ودرساً نافعاً في الأخلاق والآداب، ومنهاجاً للعمل الصالح والنظام الدراسي»، ومما جاء في هذه الخطبة قول الأستاذ - وله دلالة التربوية البارزة -:

«قد انتهينا بفضل الله من دور التعليم العالي على النظام الحديث، فكانت لنا وعلينا منه أمور مَرَّ بكم تفصيلها ضمن ما وَجَّه إليكم من التعليمات في هذه المدة

(١) نور الإسلام (مجلة الأزهر): ٤٤٨/٢، سنة ١٣٥٠هـ.

(٢) مجلة الأزهر، السنة الخامسة، ص ٤٨٥، سنة ١٣٥٣هـ.

التي كشف العمل منها عن هَنَات في النظام كان لزاماً علينا أن نصلحها، وإني لمغتبط أن أصارحكم بأن بعض الفضل في ذلك يرجع لملاحظات أديتموها في تقاريركم التي رُفعت إلينا، ولهذه المناسبة نطلب منكم دوام استخلاص قواعد الثقافة النافعة، وأن تزودونا بما تُوقِّعون إليه بجدكم، فأنتم مرايانا التي تُبصر بها صورَ الحق، وعليكم واجبٌ للمهمة التي وضعت على عاتقنا، فأصبحت أمانة في ذمنا جميعاً» .

وبعد أن أسهب الأستاذ في تأكيد الرابطة القوية بين الطالب والأستاذ، أوضح في صراحة ما يجب على الأستاذ من الاهتمام بإعداد موضوعه إعداداً شافياً، مع ملاحظة من يتوسم فيهم النبوغ من الطلاب ليأخذ بأيديهم ويعدهم للغد المأمول، كما تحدّث عن مهمة الطالب لافتاً إياه إلى مراقبة الله في السرّ والعلانية، ومراعاة حقوق أساتذته، وكان جميلاً من الأستاذ أن يتحدث عن طريقة الطالب الأزهري في العهد الماضي حين يُعدّ الدرس كما يُعدّه الأستاذ، ويأتي للمناقشة فيما لم يستطع فهمه، وبهذا الإعداد للدرس يهيئ نفسه لغد أفضل حين يصبح أستاذاً يلقي درسه في اطمئنان الواصل المكين .

هذه فقرات تربوية ناجعة لا أملك الاسترسال في سردها، وإنما أشير إلى اهتمام الشيخ برسائله في قيادة كليته، بحيث صار مثلاً يُحتذى؛ أما مقالاته في الصحف، ومحاضراته في الجمعيات الإسلامية فذات دلالة على أنه لم يترك فراغاً لنفسه، كما أنه كان عضواً بارزاً في هيئة كبار العلماء، يُرجع إليه في الترجيح والاختيار عند تقدير الرسائل العلمية التي يتقدم بها طالبو الانتساب إلى الهيئة، وكان الرجل من الصراحة الحازمة بحيث لا يقبلُ شفاعة متوسّل، وهي حمية صادقة نعهد لها في نفر من الأفاضل يحكمون للبعيد على القريب إذا كان الحق في جانبه، إذ ليس بعد الحق غير الضلال . .

* * *

عبد الوهاب خلاف فكر دقيق في تعبير سلس مبين

قرأت الطبعة السابعة من كتاب علم أصول الفقه للعالم الكبير الأستاذ عبد الوهاب خلاف رحمه الله، وقد صدرت بعد وفاته وطالعت مقدمتها الموجزة بقلم صديقه الأستاذ الكبير محمد أبو زهرة حيث أعلن أنه أعاد طبع الكتاب للمرة الأخيرة، كي يستفيد منه الطلاب، وقد كفاه الأستاذ الراحل مشقة تأليف جديد في موضوعه، ثم قال: وهذه الطبعة صورة صادقة لتفكير مؤلف الكتاب.

والحق أن التأليف في علم الأصول يتطلب مشقة كبرى في فهم مسائله لأنه يمثل فلسفة التشريع الإسلامي على مرّ العصور، وفي كُتب التراث ذخائر كثيرة تتحدث عن هذا العلم العريق، ولكنّ صعوبة تناولها، وغموض أسلوبها قد باعد بينها وبين كثير من القراء، فاضطر مؤلفو الأصول في هذا العصر أن يؤلفوا كتبهم بأسلوب ميسر، وفي طليعتهم الأستاذ خلاف، إذ رُزق موهبة البيان مع موهبة الفقه التشريعي، فجاء أسلوبه واضحاً مبيناً، وسدّ فراغاً كبيراً.

وقد أحسن القائمون على نشر كتاب أصول الفقه حين صدّروه بكلمة موجزة عن حياة الفقيه الكريم، وهو أمرٌ نرى ضرورته عند صدور الكتب بعد رحيل مؤلفيها، لأنه يحفظ تاريخهم أن يتلاشى في خضم الزمن، وكم من أعلام كتبوا روائع المؤلفات، وغابت أدوار حياتهم عن الناس، فاكتفوا في ترجمة المؤلف بقولهم إنه ألف كذا وكذا، وهو تقصير في حقهم يرجع إلى تلاميذهم الذين شغلوا بأنفسهم عن أساتذتهم، ولعلنا نجد هذه التراجم الموجزة فيما سينشر من آثار الراحلين.

أما ما جاء من تاريخ الأستاذ في مقدمة كتابه فأنقله في فقرات متتالية كما جاء دون تصرف ما، فهو بإيجازه يعطي الكثير:

- ١ - ولد الفقيه في شهر مارس سنة ١٨٨٨ م ببلده كفر الزيات .
- ٢ - التحق بالأزهر سنة ١٩٠٠ م بعد أن حفظ القرآن الكريم في أحد كتاتيب البلدة .
- ٣ - انتظم في سلك طلبة مدرسة القضاء الشرعي إثر افتتاحها وتخرج فيها عام ١٩١٥ م وعين مدرّساً بها في نفس السنة .
- ٤ - اشترك في ثورة ١٩١٩ م فبرزت مواهبه الخطابية والكتابية، وترك المدرسة أو أُجبر على تركها فانتقل إلى القضاء الشرعي .
- ٥ - عُين قاضياً بالمحاكم الشرعية سنة ١٩٢٠ م ثم نقل مديراً للمساجد بوزارة الأوقاف سنة ١٩٢٤ م، وبقي بها حتى عين مفتشاً بالمحاكم الشرعية في منتصف سنة ١٩٣١ م .
- ٦ - انتدبته كلية حقوق جامعة القاهرة مدرّساً بها أوائل سنة ١٩٣٤ م وبقي أستاذاً لكرسي الشريعة الإسلامية حتى إحالته للمعاش سنة ١٩٤٨ م وقد ظلت خدمته تمتد حتى سنة ٥٥ - ٥٦ حيث أقعده المرض عن إلقاء المحاضرات .
- ٧ - زار كثيراً من دول العالم العربي للاطلاع على المخطوطات النادرة، وإلقاء المحاضرات فكان سفيراً ناجحاً لمصر في كل مكان .
- ٨ - انتخب عضواً بمجمع اللغة العربية فأشرف على وضع معجم القرآن .
- ٩ - ترك للشريعة ثروة من المؤلفات امتازت بوضوح العبارة وجلاء الأحكام، فله كتاب (أصول الفقه)، وكتاب (أحكام الأحوال الشخصية) وشرح وافٍ لقانوني (الوقف والمواريث) وكتاب فريد عن (السياسة الشرعية أو السلطات الثلاث في الإسلام) وكتيب في تفسير القرآن بعنوان (نور من الإسلام)؛ هذا عدا ما دبّجه من بحوث ومقالات نشرها في مجلة القضاء الشرعي، ومجلة الأحكام، ومجلة لواء الإسلام .
- ١٠ - ألقى مجموعة من الأحاديث من منبر الإذاعة المصرية في مختلف الموضوعات العلمية والاجتماعية والدينية، وأخصها (من قصص القرآن) .
- ١١ - ألقى مجموعة من المحاضرات في المناسبات الدينية والاجتماعية، كما ألقى سلسلة محاضرات في تفسير القرآن الكريم لعدة سنوات بدار الحكمة .
- ١٢ - طواه الموت وشيخ جثمانه الطاهر إلى مقره الأخير بمقابر الغفير، صباح الجمعة ٢٠/١/١٩٥٦ تغمدّه الله برحمته .

هذا ما صُدِّر به كتاب (أصول الفقه) في طبعته السابعة، وهو يعطي انطباعاً تاماً لشخصية الرجل العلمية، ويرصد مآثره الفكرية مؤلفاً وخطيباً ومحاضراً وكاتباً، والحق أن الرجل كان متعدّد الآفاق، وله نظراء يماثلونه في اتجاهه الفكري، وتأليفه التشريعي، ولكن ميزته الأولى - من بينهم - وضوح أسلوبه الشفاف إذا تحدّث في مسائل التشريع، والتماع خواطره الذكية إذا أفاض في محاضراته عن التوجيهات الخلقية في الإسلام، وقد رُزق إلى جمال الأسلوب، جمال الصوت، فكان إلقاؤه شائقاً رائعاً، يجذب إليه الأسماع، حتى ليودّ سامعه ألا يسكت، وقد قام زميله الكبير الأستاذ محمد أبو زهرة بإيضاح هذه الجوانب من حياته، ومن مثل أبي زهرة حين يتحدث حديث الصدق عن زميل عاشره الزمان الأطول، وشاركه هموم الثقافة، ومعاصل التربية، وأشهم معه في التوجيه بأرقى كليات الجامعة، فكان صوتهما الأعلى، ورأيهما الأسد.

يقول الأستاذ الكبير محمد أبو زهرة عن صاحبه^(١):

«نحن الذين ارتبطنا مع ذلك العالم الجليل برابطة الود والصداقة، ودُقنا لطف عشرته نحسّ بأننا قد فقدنا جزءاً من أنفسنا، ولكن لا يصح أن تُنسبنا أحاسيسنا ما فقدناه في العالم الإسلامي، وما فقدناه في البيان العربي، فقد انصرف رحمته الله إلى الدراسات الإسلامية يبحث في ذخائرها، وينقّب في دفائناتها، ويكتب ويبين في أسلوب سهل رصين، فكان رحمه الله لا يستوعز ولا يستوحش، بل يتخير المعنى السهل المألوف، القريب المعروف، وما لا يكون قريباً في ذاته يسهله ويؤنسه، حتى يصير بيتاً مكشوفاً، وكان يختار من الأساليب أقربها إلى الأذهان، وأوضحها في البيان، وأحسنها جرساً في الآذان، حتى كان أسلوبه البياني يعد بحق من السهل الممتنع.

أما إلقاؤه فنوع من الإلقاء، هو نسيجٌ وخِده، يستمع إليه السامع فلا يحسّ فيه تكلفاً، ولكنه يحسّ رنة عذبة عميقة، لها صدّى في النفس، ويحسّ في نغماته الإلقائية تصويراً للمعاني من غير أن يحسّ أن المتكلم غير أو بدّل في صوته، وإنّي مع طول العشرة، ودوام المحادثة كنت إذا فتحت المذياع وسمعت أحسن برغبة شديدة في الإنصات، وكأنني أسمع صوتاً جديداً لم أسمع، وأحياناً كنت أؤخر عملاً

(١) مجلة لواء الإسلام، فبراير، سنة ١٩٥٦م.

مطلوباً لأتم الاستمتاع بحلو الحديث، وجمال الإلقاء الذي لا تكلف فيه، وسماع صوت ليس باللين، وليس بالخشن.

أما أحاديثه الأخوية فنوعٌ من السحر، أُنْفِقُ واسع، وعلم فياض، وأخذ بأفانين القول وشجونه، حتّى إن المستمعين إليه في أحاديثه الخاصة يتبرّمون بكل من يقاطعه، أو بكل من يتكلم ويمنعه من استئناف القول، وأشهد أنّي ما سمعتُ في الشيوخ أظرف حديثاً، ولا أملكُ بفنون التحديث، وأعلّمُ بمداخل النفوس من الأستاذ خلاف، وكأنّ الحديث الحلو فنٌّ في ذاته عنده، إذ تثير عقله المجالس العلمية الخاصة إلى أشات المعاني فيجمعها في قولٍ يقوله كأنه السلسيل العذب، وإن استقام الحديث بين يديه نسي همومه وآلامه، وأمتع مستمعيه، وأذكر أنّي زرتُه عقب موت أكبر أبنائه، فوجدته كأبي يوسف في همٍّ لا سرور معه، وإن كان معه الصبر الجميل، فلم أجذ سبيلاً للتسرية عن نفسه إلا أن أفتح له حديثاً ليدخل من بابه، فشاقه الحديث إلى القول فقال، وأشهد أنّي أردتُ بالحديث أن ينسى، فأنسيّت ما أردتُ، وأخذتُ أجاذبه أطرافه، لا مُسلياً معزياً، ولكنّ محبّاً للاستماع مستطرفاً، ومكثنا أكثر من ساعة نتحدّث، أو يتحدث، وأستمعُ وأناقش، وكلّما أحسست منه فتوراً أثرته لأستمع وأستمع، لا لأسلي وأعزّي، فقد نسيّت ذلك عند أخذه في شجون الحديث، وممالك البيان.

وقد كان أستاذنا الجليل الذي فقدناه قوّة للشرعة بشخصه المهيّب، وبيانه الرائع، وأحاديثه العذبة، وكتاباته السهلة، وبحوثه الفياضة، وكنا في كلية الحقوق نحس بأن الشرعة ولها مكائنها القدسية ودقتها الفقهية، في حاجةٍ دائماً إلى شخصيات تجلّها، ولها من المكانة في النفوس، ما يردّ زيغ الزائغين، فقد فقدنا منذ عشر سنين أستاذنا العظيم الإمام أحمد إبراهيم، ولكنّ وجدنا في أستاذنا خلاف عزاء، فقد قام بحق الأمانة وحمل العبء كريماً، وكان خلفاً لكریم عظيم.

لا أذكر أنّي أطلتُ الاقتباس في هذه المجموعة كما أطلتُ حين ذكرت حديث أبي زهرة عن خلافٍ لأنّه جلا شخصية الرجل بما لا يستطيع أن يأتي به غير زميل كبير له مقدّره ولمحاته، ولعل القارئ قد أدرك أن الميزة الأولى للأستاذ خلاف هي حسنُ بيانه التشريعي، وإلمامه بأحداث عصره، فكان يتحدث إلى الخاصة والعامة معاً بما يكون موضع التقدير لدى الجميع، وما تزال الشرعة الإسلامية في كل عصر

في حاجة إلى عالم مستنير مشرق البيان يجلو أصولها جلاء لا يكتنفه الغموض، فيسهل على القارئ استيعاب ما يقرأ، وقد كتب الأستاذ خلاف في أدق مسائل الأصول كتاباً العالم الثبت، ولكنه كان يعرف مقتضى الحال، فلا يكون في تأليفه العلمي في ساحة النظر، مثله في محاضراته وإذاعاته، وحسبه أن كسب عقولاً كثيرة ضمها إلى حقل التشريع، بعد أن كانت عازفة صادة عن مناهله! كسبها بما جلاه من سهولة المنطق، ويسر تناول..

لقد كان الأستاذ خلاف يعيش أحداث عصره عيش الواعي اليقظ الدؤوب، فهو يطالع ما يجذ من النظرات الاجتماعية، والأصول القانونية، وما تفيض فيه الصحف من إصلاحات اجتماعية وسياسية حدثت في أوروبا، وبهرت الناس بما انتهت إليه، يطالع ذلك كله، فلا ينكل عن أن يبدي رأي الإسلام فيما جد، يُدّيه مدعماً بالدليل، حريصاً على ألا يستثير القارئ بتحمس مفتعل يضر أكثر مما ينفع، بل ليستميله بما يُبدي في هدوء تام من الحجج ذات الوجه الصريح! وأكثر مقالاته التي شغلت القراء، وأثارت تطلعات الدارسين هي ما واجه به أحداث العصر، ومستحدثاته من مقالات ثبتت عراقة الإسلام، وشموله المتسع لكل ما يحدث، وكان له من الخطوة لدى الدارسين ما يجعل بحوثه موضعاً للاهتمام الفريد، فقد تجذ مسألة اجتماعية أو سياسية تتعلق بنظم الحكم في الإسلام أو بوسائل العلاج لأدواء العالم من فقر وجهل ومرض، قد تجذ مسألة من هذه المسائل، وتفيض الأفلام في سزد الوجهة التشريعية حافلة بالأدلة والأسانيد، ولكن القراء يرقبون أول ما يرقبون ما يقوله الأستاذ عبد الوهاب خلاف في هذا المجال، لأنه يقرأ ويستوعب ويمحص، ثم لا يُلقِي بكل ما قرأ واستوعب ومحص، بل يخلو لنفسه لينسق القول تنسيقاً منطقياً، بحيث تناصر الأدلة، وتستعلن الشواهد، وتمضي المقدمات في سهولة إلى النتائج، فإذا تم ذلك له بينه وبين نفسه، شرع في تسطير خلاصة ما اهتدى إليه في أسلوب بعيد عن الفضول، عارفاً أن المقدمات الطويلة تضل ولا تهدي، وتباعد أكثر مما تقارب، لذلك يكتفي بالاستفتاح الموجز ليصل إلى جوهر الموضوع.

قلت: إن الأستاذ خلاف كان يُصدر بحوثه في المناسبات الاجتماعية ذات الدوي لتوضيح وجهة الإسلام فيما يقال، وأقوى شاهد أقدمه في هذا المجال بحثه

الشهير عن التأمين الاجتماعي في الإسلام، ومناسبتُهُ الداعيةُ هي ما تردّد في الجرائد والمجلّات أثناء الحرب العالمية الثانية من تفكير بريطانيّا في دراسة الحالة الاجتماعية التي اضطرتّ بسبب هذه الحرب، واتجاهها إلى تحقيق التأمين الاجتماعي فيما سمّته بتقرير (بفردج)، وهو عالم اجتماعي عكّف مع نفرٍ من زملائه وتلاميذه على إعداد مشروع اشتهر باسمه، ينتهي إلى وجوب التكافل الاجتماعي بين أفراد الشعب ليضمن كلّ إنسان رزقه دون عناء، والوسيلةُ المقترحة لذلك مبدأً هي أن كل فرد من أفراد الأمة ملزمٌ بدفع جزء يسير من المال لا يتجاوز أربعة شلنات وربع الشلن في الأسبوع للرجل البائع، وأقلّ من هذا للمرأة والشباب ما بين السادسة عشرة والحادية والعشرين، وفي مقابل ذلك تقومُ الدولة للفرد بخدماتٍ عديدة ومساعدات اجتماعية في مختلف الأحوال التي يتعرض لها من الاحتياج.

وقد أفاض التقرير في تحديد مواطن الاحتياج هذه، فنصّ على العجز الذي يحول دون القدرة على الكسب، وعلى الشيخوخة، وعلى التمرّل وعلى البطالة حين لا توجد أبوابٌ للعمل، ويقف الشاب الصحيح دون مورد، كذلك الأسرة الكبيرة العدد دون أن تجد المورد الكافي، مع توفير الضروريات من وسائل العلاج والمأوى لمن لا يستطيع، وكلّ ذلك اندرج في (مشروع بفردج) وقد ترجمته الجرائد مفصلاً، وقام الكاتبون بمعالجة شؤونهم، والطريف أن أحد الذين خصّوه بالتحليل الدقيق هو المربي الكبير الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف شقيق الأستاذ عبد الوهاب خلاف، وقد ذهب في الإشادة بهذا المشروع مذهباً مغالياً حيث قال: «إن هذا المشروع جاء ملزماً ومُجبراً على الأخذ به، وليس من قبيل الأعمال الإنسانية التي دعت إليها الأديان دون إلزام! مما جعل أثر ذلك محدوداً لا يحول دون انتشار الفاقة!».

هذا ما كتبه الشقيق الفاضل، ورّدده الكثيرون من بعده، لأن النقاش حول مشروع بفردج استغرق أكثر من عامين في الصحف والمجلّات، وقد أسهم فيه المفكّرون من كل اتجاه، فانعقد الاجتماع - أو كاد ينعقد - على أنّه فريد في بابه، ولم تُسبق إنكلترا بمثله! فنهضت بحوث إسلامية دقيقة توصّل دعوة الإسلام للتكافل الاجتماعي، وبذلّ الباحثون في ذلك المنحى ما استطاعوا بذله من الأدلة والأسانيد.

وهنا عكف الأستاذ عبد الوهاب خلاف على جلاء هذا الأمر في حلقات متصلة،

توضح أصالة الإسلام وسبقه الملزم في رعاية الفقير والمريض وذوي الإعسار، وقد قرأ كل ما قيل في مشروع بفردج قراءة من يقارن بين العناصر، ويوازن بين الاتجاهات، وكانت الحكومة المصرية قد استقدمت من أوروبا خبيرين اجتماعيين يدرسان مسائل التأمين الاجتماعي في ضوء ما تقرر هناك مع اقتباس ما يناسب البيئة المصرية من اقتراحات، وقدم الخبيران اقتراحاتهما إلى مجلس الوزراء، فوافق على الأسس الصالحة لوضع قانون التأمين الاجتماعي، وجعل تنفيذ ذلك إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، فكان تقرير الخبيرين موضع الالتفات والمقارنة، إذ وجد الأستاذ خلاف أن كل علاج اتجهوا إليه قد سبقت الشريعة الإسلامية بتقريره من قبل، وهنا دتج بحثه الشافي الذي نشير إلى جزئياته المختصرة في عناوين محددة، ووراء كل عنوان أدلته الشافية من الكتاب والسنة وسير الصحابة وأحكام الفقهاء! أما هذه العناصر فهي كما يلي:

١ - واجب العمل على كل قادر يجد باب الرزق ولا ينهض له، وهو بذلك لا يستحق المعونة، بحيث لا ينالها غير الضعيف العاجز.

٢ - الأمة وحدة، وأفرادها متضامنون، وكل فرد مسؤول عن نفسه، وعن غيره من أفراد أمته، وقد قال الأستاذ بهذا الصدد: «إن الأسس والمبادئ التي وافق عليها مجلس الوزراء ليوضع على أساسها قانون التأمين الاجتماعي تقتضي أن يكون القانون مقصوراً على عمال المدن دون عمال القرى، وهذا ليس إصلاحاً شاملاً، بل يجب أن يعم الجميع».

٣ - الأسرة وحدة، وأعضاؤها متضامنون تضامناً خاصاً، ويجب ديانة وقضاء على الموسر منهم أن يقوم بنفقة الكفاية للفقير العاجز، كما لا يكلف زوج أن ينفق على زوجته إلا بقدر ما في وسعه، ولا يكلف قريب أن ينفق على قريبه إلا بقدر كفايته وما يسد حاجته.

٤ - في أموال الأغنياء حق معلوم للفقراء، وهو حق دوري له مناسباته المتعددة في العام، كما أن في إيراد الدولة العام حقاً للفقراء عليها تأديته.

ووراء كل عنصر من هذه العناصر، أو كل مادة من هذه المواد بالتعبير القانوني نصوص أجاد الأستاذ الاستشهاد بها، وأحسن تفسيرها، ووضح عللها، مما جعل بحثه هذا فاتحة بحوث كثيرة انتشرت لدينا الآن عن التكافل الاجتماعي في الإسلام،

ولو كانت الشريعة الإسلامية مطبقة تمام التطبيق في البلاد الإسلامية التي استقدمت الخبراء لعلاج الداء، ما كان لدينا داءٌ يتطلب الشفاء! ولعل من بواعث الشكر لله أنّ خصوم الشريعة أخذوا يتضاءلون حين رأوا في موادها ما كانوا يجهلون.

فإذا تركنا بحث التأمين إلى سواه من بحوث الأستاذ، ونعني بها تلك التي شغلت الرأي العام، وتطلبت الآراء الشافية المصتحة، أما البحوث المنهجية التي عقد لها المؤلفات - خاصة بطلبة كلية الحقوق - فهي على نفاستها مما لا أعرض له، لأنها ذات مزية مشتهرة، يتجلى في العرض الواضح البيّن لأحكام كانت تُقرأ مغلفة في ضباب متراكم، فلا يصل القارئ إلى لبابها دون جهد جهيد، أما الحقائق فثابتة ذات استيفاء.. أقولُ إذا تركنا بحث التأمين إلى سواه مما دار حوله الجدل حيناً من الدهر، فإننا نشير إلى بعض ماله ارتباط عام بالواقع المعاصر، فيما يلي:

لَقَدْ قَامَتْ في الثلاثينيات من هذا القرن مناقشاتٌ فقهية، لم يكن لها من داع، إذ دأبت بعض المجالات الدّينية على إثارة مسائل فرعية، اختلف الأئمة في حكمها، على حين تمسك كاتب المجلة برأي خاص في مذهبه، وخطأ من حاد عنه، واضطرت مجلات أخرى إلى أن تهجن ما اتجهت إليه المجلة المشار إليها، فصرنا نرى الجدل لا ينتهي حول تعدد الجمعة في بلد واحد، وحول اقتداء الشافعي في الصلاة بحنفي لا يشترط الموالاة أو الترتيب في الوضوء، وحول عدد الركعات في صلاة التراويح، إلى أمورٍ أخرى لعلّ من أكثرها إثارة ما اتجهت إليه الدولة حول عدم وقوع اليمين المعلق، وبعض المسائل في الأحوال الشخصية، وزاد اللجاج حدة حتى أصبح القارئ في حيرة من أمر فقهاء يتشاجرون ولا يتناقشون، وهنا رأى الأستاذ عبد الوهاب خلاف أن يكتب فصلاً حاسمة تصدّد هذا اللجاج، ففتح الله عليه بما ألجم نفوساً كانت تتحفز للصيال في غير ميدان، وللاعتراك في غير معترك، بل وصل الأمر ببعضهم إلى أن حرّم الصلاة في مسجد جماعةٍ تخالف اتجاهه المذهبي! فبدأ الأستاذ خلاف كتابة مقالات هادفة يجادل بالتي هي أحسن، وقد يكون من الخير أن نشير إلى نماذج منها.

كتب الأستاذ مقالاً تحت عنوان (في اختلاف الأئمة رحمة)^(١) بدأه بتاريخ للتشريع من عهد النبوة حتّى انتهى إلى أئمة المذاهب، موضحاً أن ما وقع فيه

(١) لواء الإسلام (١/٣/١٩٤٩م) السنة التاسعة.

الاختلاف انحصر في جزئيات تختلف فيها المصالح باختلاف الأحوال، وربّ حُكم منها يكون فيه الرفق والرحمة ورفع الحرج في حالة مُعيّنة بالنسبة لشخص معين، ويكون نقيض ذلك بالنسبة لشخص آخر، فمن التوسعة على المسلمين أن يجدوا من الأحكام المختلفة ما يجعلهم في سعة من أن يأخذوا ما يناسبهم من الأحكام وختم مقاله بقوله: إن الله عز وجل ما أوجب على أي مسلم أن يكون حنيفاً أو شافعيّاً أو مالكيّاً أو حنبليّاً، وإنما أوجب على المسلم أن يتبع أحكام دينه، فإن عرف حكم الدين بنفسه اتبعه، وإن لم يعرف سأل عنه أحد المجتهدين واتبعه.

ولم يمض مقال الأستاذ دون صدى يتردد بين المعارضين، فرأى أن يتبعه بمقال تال تحت عنوان (للمسلم أن يقلّد عدّة أئمة) قال فيه: «إن تقليد المسلم لإمام من الأئمة المجتهدين ليس عبادة ولا واجباً مقصوداً لذاته، وإنما هو طريقٌ لمعرفة الحكم الشرعي، أو وسيلةٌ لاتباع المسلم أحكام دينه، وليس لإمام مجتهد ممن يقلدهم المسلم ميزةً على غيره من الأئمة تجعله معصوماً من الخطأ. . . وبناء على ذلك يجوز لمن التزم أن يقلّد الشافعي في أحكامه أن يقلّد مالكاً أو أبا حنيفة في بعض الأحكام، لأنّه في كل حال يتبع أهل الذكر، ومن سوء الظن أن يتوهم مسلم أن مذهب بعض الأئمة هو الصواب، ومذهب غيره خطأ، إذ أن كل قولٍ لهؤلاء يحتمل أن يكون صواباً، وأن يكون خطأ، وقد أكدوا ذلك وقزروه. . .»، ثم ختم مقاله بقوله: «إن المذاهب الفقهية ليست أدياناً مختلفة، وإنما هي فروعٌ من شجرة واحدة، وجداول يجري فيها الماء العذب من منبع واحد، فمن أي فرع نال المسلم ثمرة جَنَى ثمرة طيبة، ومن أي جدول شرب رُوي بماء عذب، والتعصب الأعمى لمذهب من المذاهب جهل من الجهل، وتصويب مذهب دون غيره على سبيل القطع والجزم جرأةٌ وافتيات، وتفریق لكلمة المسلمين، وتمزيق لوحدهم؛ فاختلاف الأئمة يسر ورحمة».

وقد أتى الأستاذ في بعض مقالاته بأحكام رآها راجحةً له، مثل تحديده للزّبا المحرم، وتفصيله في حكم ذبائح أهل الكتاب، وعدم صحّة الحج عن الغير في رأيه، وطبيعي أن يدور خلاف بشأنها، وقد جاهر بعضُ معارضيهِ بقوله إنه مجتهد في الأحكام وقد مضى زمن الاجتهاد! وهي مقولة كانت تتردّد في أوائل هذا القرن وقد دحضها الإمام محمد عبده بما لم يدع مجالاً للشك في بطلانها بدليل أنّه وهو

مُفتٍ للديار المصرية قد اجتهد في بعض الأحكام عن الحوادث الطارئة التي لم يُسبق بحثها من قبل ، وأن زملاءه من قبل - وكذلك من جاؤوا بعده على نسب متفاوتة - قد طرّقوا باب الاجتهاد! لذلك كتب الأستاذ خلاف بحثاً شافياً تحت عنوان (الاجتهاد في أحكام الشريعة) بدأه بعرض تاريخي للمذاهب الفقهية في عصور الاجتهاد، ثم قال متسائلاً^(١):

«ولا يُعرف بالضبط متى شدّ باب الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وأوجب تقليد إمام من المجتهدين السابقين، وإنما الذي يُعرف أنّه في القرن الرابع الهجري سادت فكرة القول بسدّ باب الاجتهاد، وعطف المسلمون خاصتهم وعامتهم على مُتَابَعَةِ المجتهدين، وشاعَ أن آخر من عُرف بالاجتهاد المطلق هو محمد بن جرير الطبري، ولكنْ وُجد في كل عصر من العصور من اعترض على هذا القول، وصرّح بأن الاجتهاد المطلق واجبٌ كفايةً على الأمة الإسلامية في كل عصر، فالحكم بتحريمه على من هو أهله لا يستند إلى دليل شرعي.

وقد انتهى الأستاذ إلى رأي موقّع يمنع التهور في الاجتهاد دون أهلية، كما يفتح باب الاجتهاد في كل مسألة معاصرة تعن، هذا الرأي هو ما أجمله الأستاذ خلاف في قوله^(٢):

«والرأي السديد أن يُسدَّ باب الاجتهاد للأفراد، ويفتح بابه للجماعة التشريعية التي تختارُ أفرادها من خيرة رجال العلم والدين والقانون والاقتصاد، لتختار هذه الجماعة من مذاهب المسلمين ما هو أوفق لحاجاتهم وأوفى بتحقيق مصالحهم».

وعلى ضوء هذا الاتجاه أُلْفِت في كل قطر، أو في أكثر الأقطار الإسلامية هيئة علمية للبحث الفقهي تتمثل الآن بمصر في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ويوجد نظائر لها بالسعودية والباكستان والمغرب وغيرها، وأرى أن الاجتهاد ليس محرماً على من لم يكن من أعضاء هذه الجماعات الرسمية، فلكل باحثٍ مطلع صادق أن يجتهد، وأن يُبدي رأيه مذعوماً بما يراه من البرهان، ويتقدّم به إلى الهيئة

(١) مجلة لواء الإسلام، ص ٥٨٦، يناير، سنة ١٩٥١م.

(٢) مجلة لواء الإسلام، ص ٥٨٨، يناير، سنة ١٩٥١م.

العلمية الرسمية لفحصه، ولا شك أنه سيجد التأييد إذا أصاب مقطع الصواب، وسيجد التصويب إذا انحدر إلى خطأ ما.

حدثني أستاذ فاضل من تلاميذ الأستاذ عبد الوهاب خلاف أن مجالسه العلمية وإن جرت مجرى السمر الشهي كانت تُتيح له أن يفيض على البديهة بآراء ذات عمق تأتية عفواً دون أن يفكر فيها من قبل، لذلك كان يحرص على هذه المجالس ويقبل على المتسامرين في شوق، وكأنه يُدعى إلى حفلة عرس، وقد طلبنا منه مرات كثيرة أن يُسجل ما يقول إذا دار الحديث في موضوع واحد، وقال هذا الأستاذ: إن حديثاً جرى ذات مساء عن الفقه الإسلامي فقال بعض الحاضرين: إنه على كثرة ما أُلّف فيه لا يفي بحاجة العصر، لأن القرآن قد نزل والمسلمون أقرب إلى البداوة، فلم يأت كتاب الله بما يرسم الطريق الحضاري في المعاملات المعاصرة، وكان الظن بالأستاذ خلاف أن يثور لما سمع، ولكنه اغتبط بما قيل، وتوجه للمتحدث باسماً ليعلن له أنه صاحب فضل كبير، إذ هياً مجالاً للسمر المقيد، ثم اندفع الأستاذ يتحدث عن الأحكام الشرعية، فبين أنها ثابتة لا تتغير بتغير الزمان، وقد فصلها القرآن أتم تفصيل فلا مجال للاختلاف على أصولها وإنما الاختلاف في فهم بعض النصوص، وذلك من سعة القول لا من ضيقه، وكذلك أحكام العبادات قد فصلها كتاب الله وبيّنها سنة الرسول بما لم يدع مجالاً للتردد في مفهوم عبادة أو إقامة شعيرة.

أما الأحكام الخاصة بالمعاملات من بيع وتجارة ورهن ومضاربة وعقوبة وجنايات، وكل ما يدور حول شؤون الناس، فلم يعرض لها القرآن بالتفصيل، إنما اقتصر على الأحكام الأساسية، ووضع الضوابط العامة ليفصل العلماء أحكام المعاملات في عصورهم بما يناسب، وفي ذلك سعة لمسايرة التطورات الاقتصادية، والشؤون التجارية، ثم قال الأستاذ: إن أحكام البيع في القرآن أربعة أحكام فحسب، واستشهد لها جميعها بما يحفظ من النص القرآني، وهي أحكام أساسية لا تختلف باختلاف التطورات، مثل: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَايَعْتُمْ﴾، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ﴾، فقد جاء ذلك كله مجملاً ليقوم العلماء بتفصيله حين يأتي ما يجذ من الأمور، قال صاحبي:

وكان حديث الأستاذ ممتداً فسيحاً، فطلبنا منه أن ينشر خلاصة له، ففضل وكتب مقالة (الإسلام ومصالح الناس) وفيها كل ما ذكرت، وحين رجعتُ إليها بعد

حديث تلميذه وقفتُ على سديد الرأي، وخالص التوجيه، وقد أعجبني قوله^(١):

«إن نصوص القرآن والسنة ليس فيها ما يقف عقبة في سبيل مصالح الناس، بل فيهما الأساس لكل تشريع مالي يسائر التطورات، ويحقق النفع ويدفع الضرر، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحُكْمَةٍ عَنْ رَاضٍ﴾ والرسول ﷺ يقول: «لا ضرر ولا ضرار»، فكل مبادلة تجارية عن تراض بين المتبادلين، وليس فيها ضرر لأحدهما ولا لغيرهما من الناس فهي مباحة، وكان الواجب أن يكون دستور المسلمين ومرجعهم في أحكام العقود والتصرفات والمضاريبات أن تسأل: أهى تجارة عن تراض؟ هل فيها ضرر ما، ثم نبني الحكم؟

ومن أنفس ما قاله الأستاذ بعد ذلك: «لكن الدستور الذي يرجعون إليه هو استنباطات المجتهدين السابقين التي استنبطوها لعصرهم في مصالحهم، فإذا أُريد معرفة حكم نوع من الشركات أو المعاملات رجعوا إلى عبارة المتن أو الشرح، وحكموا بإشارتها أو بالقياس عليها، ولا ريب في أن تطبيق هذه الأحكام الجزئية في غير عصرها وفي غير بيئتها لا يتفق والمصالح، ولا يسائر التطورات».

وهذا كلامٌ يجب أن يكرّر ويعاد، لأننا نرى كثيراً ممن يتصدرون للإفتاء يتمسكون بنصٍّ في حاشية، لمؤلفٍ متأخر، وكأنه نصٌّ نبوي، ويجعلونه مدار التحليل والتحريم، ولست فقيهاً حتى أضرب أمثلة لما أعلمه من التحكم النصي دون مبرر، فأثير لفظاً لا داعي لإثارته، ولكني أذكر أن الله قد ألهم الأستاذ خلاف إلهاماً صادقاً حين وضّح الفرق بين اجتهادات الفقهاء في مسألة ما، وبين النص الملزم من كتاب الله، والثابت من سنة رسوله!

هذا المقال الجيد كان أصله حديثاً في سمر غير متعمد، وقد سطره الأستاذ استجابة لسامعيه، ولا ندري كم من هذه الأحاديث الشائقة ترك دون تسجيل! على أن مما يسعدنا أن نرجع إلى ما كتبه الشيخ الجليل في المجلات التي أشرنا إليها في صدر هذا البحث، لنرد ماءً عذباً صافياً لا كدر به، وقد حرص كثير من الفقهاء كالأستاذ محمود شلتوت، والشيخ محمد أبي زهرة، والشيخ حسنين مخلوف على جمع آثارهم الفقهية في أجزاء منفردة، فليت الأستاذ خلاف قد اتجه إلى ذلك فيدفع

(١) مجلة (لواء الإسلام) يولييه سنة ١٩٥١م.

عن راغبه مشقة البحث المرهق في مجلات يتعسر الوصول إليها، إلا بعد جهد جهيد .

هذا وقد فسر الأستاذ عبد الوهاب خلاف سوراً قصيرة من المفصل، جمعها في كتاب تحت عنوان (نور على نور)، وقد أهدته مجلة لواء الإسلام إلى قرائها، وهو ضرب من البيان الديني يجذب الشبيبة الناشئة إلى معينه السلسال، وله نظائر جيدة فيما كتب محمد الغزالي، وأبو الحسن الندوي، وعلي الطنطاوي، وسيد قطب من ذوي الأدب العالي، وقد آن أن نلتفت إلى آثار هؤلاء في هديها المنير ونقدمها زاداً صحيحاً للشباب .

لم أقل كل ما لدي عن الأستاذ عبد الوهاب خلاف، ولكنني اكتفيت هنا بما لعله يوجه القارئ إلى نتاجه العلمي الممين .

* * *

عوض الله جاد حجازي

مثال أمين للباحث المستوعب الدقيق

قرأت وأنا طالب بكلية اللغة العربية إعلاناً عن مناقشة رسالة علمية يتقدم بها باحث من طلبة الدراسات العليا بكلية أصول الدين لينيل درجة الدكتوراه، تحت عنوان (ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي) وكانت إحدى المجلات الدينية حيث قد نشرت بحثاً مُتسرعاً تهاجم فيه هذا العالم الكبير، وقد قرأته غير مستريح لما جاء به، فرأيتُ من الفائدة المحققة أن أُسارع إلى حضور المناقشة، وخصوصاً أن اللجنة العلمية التي ستناقش الباحث تضم كوكبة من أولي القدم الراسخ في العلم والفلسفة، إذ يرأسها الأستاذ الدكتور منصور فهمي باشا وهو مَنْ هو في صيته الأدبي، وأستاذيته الفلسفية، ومعه المشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور محمد البهي، والدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود حب الله والدكتور عبد الرحمن تاج، ولكلّ منهم أثره البارز في المحيط الأزهرى بخاصة، والمحيط العلمي بعامة، وكان الباحث هو الأستاذ الشيخ عوض الله جاد حجازي.

وأذكر أن رئيس اللجنة قد قدّمه تقديماً جيداً، وجعل من رسالته دليلاً على النضج الفلسفي بجامعة الأزهر، وقد قال إنه لم يكن يتوقع هذا السبق السريع في المضمار الفلسفي بجامعة الأزهر، ولكن الواقع المشهود أكبر دليل على هذا الارتقاء الفكري، ولما كانت مناقشة الرسائل حيث تُدلى في دورها الأول بالأزهر فقد أظهر المناقشون دقةً بالغة، وعمقاً أصيلاً يدلّ على أنهم قد قرؤوا الرسالة قراءة المتحفز المتأهب، حتى الدكتور المشرف لم يُعف الباحث من أسئلة دقيقة تقدّم بها للطالب، ومع ما ظهر من تمكّن الباحث العلمي، وإحاطته الكاملة بكلّ ما كتب واهتدى إليه من نتائج، كان سلوكه الهادئ المتزن، وإحاطته بدقائق الأسئلة موضع

الارتياح من الجمهور، وقد سعد حقاً حين نال درجة الدكتوراه بامتياز في التوحيد والفلسفة والأخلاق، وأقبل عليه المهنتون مباركين .

تأكد لي بعد حضور النقاش صواب ما اتجهتُ إليه من تحامل كاتب المجلة على ابن القيم، واعتقدتُ أنه لا يزال في أول الطريق مع علوِّ سنِّه، وظلَّ اسم الدكتور عوض الله حجازي يترددُ على سمعي من أفواه الأساتذة والطلاب بكلية اللغة العربية إذ قام بتدريس المنطق بها أمداً غير قصير، فاكسب ثقةً علمية بين زملائه وطلابه، لأنَّ المادة التي قام بتدريسها كانت صعبة التحصيل، وتحتاجُ إلى معارف سابقة لم تيسر للطلاب في عهد الدراسة الثانوية، فاستطاع الأستاذ أن يجلوها مقرباً مبسطاً دون أن يفقد شيئاً من دسمها الحافل .

ولم يُنح لي أن أتصل مباشرة بالدكتور الباحث حتَّى عُيِّن رئيساً لجامعة الأزهر، وكنتُ عضواً بمجلس الجامعة، فأذهشني دهشاً كبيراً بما عاينتُ من شدة اهتمامه البالغ بكلِّ ما يدورُ في الجلسات من مناقشات متشعبة، وإذا كانت الكليات لعهدِه قد جاوزت الثلاثين، فقد كان الرئيسُ يقرأ كلَّ ما تتقدَّم به الكليات من أوراقٍ مُنقلةٍ بالتقريرات والترشيحات والتنقلات قراءة من يتصدَّر للإجابة السديدة المُنصفة دون تحيُّز، وله صبرٌ حميد في تلقي وجهات النظر، ومحاولة الوقوف الهادئ أمام التسرع حين يلمسه من عضو متعجل، والحق أني عرفتُ من يومها عظم التبعة الإدارية، والمسؤولية الخلقية والكفاءة الشخصية حين يقوم بأعبائها إنسانٌ حيُّ الضمير، قويَّ الإحساس، وأخذتُ - شهد الله من سلوكه العملي - درساً بالغ التأثير في حياتي، إذ لم يكن لي عهدٌ بهذه الجلسات من قبل، وقد قدر الله لي أن أشهدها في أكمل ما يُتاح لها من الدقة والكمال والإنصاف .

وقد شعرتُ برغبة شديدة في مراجعة مؤلفات الدكتور عوض الله حجازي منذُ تجلَّت لي موهبتهُ الإدارية السديدة، فقد قلْتُ في نفسي إنَّ الذي يهتم هذا الاهتمام بجلسات الجامعة لابدَّ أن يكون ذا اهتمام مماثل بما يؤلَّف من البحوث، لأنَّ الخُلُق البصير ثابتٌ لا يتحوَّل، وسارعتُ إلى صديقي الراحل العزيز الدكتور الحسيني هاشم وكان يومئذ أميناً عاماً لمجمع البحوث وذا اتصال مباشر بمباحث العقيدة والفلسفة في كلية أصول الدين، رجعتُ إليه أسأله عمّا لديه من مؤلفات الدكتور عوض الله حجازي، فقال لي إنَّ المجمع قد طبع رسالته عن ابن القيم، وسيحضرها

إِلَيَّ الآن! أما الكتب الأخرى فهي قليلة في كمّها العدديّ، وسيعملُ على إنجازها لتكون بين يديّ عن قريب، وقد وقع قوله إن الكتب قليلة في كمّها العدديّ من نفسي أجمل موقع، لأنّ الذي يكتبُ القليل يبلغ في أحيان كثيرة ما لا يبلغه المكثّر المطيل، وقديماً قال أسلافنا: «احذَرُ صاحب الكتاب الواحد» بمعنى أنّه درس موضوعه دراسة صابرة بحيثُ أصبح سيّد الموقف في أمره، فيتصدى للرد الحاسم لكل اعتراض، إذ قتل الموضوع قتلاً جاهداً، ولست بهذا أحتّ على ترك التّأليف، ولكنّ أدعو إلى التّؤدة اليقظة، فالقارئ الناقد كاشف، ولا يستوي عنده الطيب والخبيث.

طالعتُ رسالة الأستاذ عن ابن القيم، وهي أولُ دراسة علمية عنه كُتبت في هذا القرن، وجاء بعدها عددٌ من الدراسات كانت أصلاً لها كلها، وقد اختار الدارس أن يستقصي آراء ابن القيم في كل مسألة كلامية تعرض لها، والاستقصاء بالنسبة لعلامة كابن القيم يتطلّب جهداً مُرهقاً لأن مؤلفاته كثيرة متعدّدة، وقد يبدي رأياً في كتاب ثم يعنّ له رأيٌ آخر يخالفه في كتاب آخر، وليس هذا من التناقض في شيء، لأنّ تغيّر الآراء بطول الدراسة ومعاودتها شيءٌ طبيعي لدى العلماء، والتناقض هو اختلاف الرأيين في وقت واحد، وفي فضل واحد، وهو موضع المؤاخذه.

لقد ذهب بعض الدارسين إلى أن ابن القيم قد قال بفناء النّار، مستندين إلى ما جاء في كتابيه (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)، و(شفاء العليل)، وقد نظر الدكتور إلى ما جاء بهذين الكتابين، فعلم أنّ كلامه صريح في بقاء الجنة وأن نعيمها متصل لأصحابها دون انقطاع، أما النار فلم يُخبر القرآن عنها بأكثر من خلود أهلها فيها، والفرق واضح بين القول بأنّ أهل الجنة دائمون بها وأن عطاءهم غير منقطع، والقول بأنّ أهل النار مقيمون فيها ولا يخرجون منها، وذلك يُوجدُ إذا كانت النار موجودة، والآيات لا تدلّ على بقائها ودوامها، وواصل الباحث استشهادات قرآنية تنحو هذا المنحى، متتهياً إلى قوله:

«لقد قدمنا أن الرأي الظاهر في هذه المسألة عند ابن القيم هو القولُ بفناء النار، وهو ما فهمه العلماء من كتابيه (حادي الأفراح، وشفاء العليل) ولكنني^(١) رأيتُ في كتب ابن القيم ومؤلفاته ما يُناقض هذا الحكم الذي فهمه هؤلاء العلماء مما دعاني

(١) ابن القيم للدكتور عوض الله حجازي، ص ٢٤٠، ط. ثالثة.

إلى التريث قليلاً في هذا الأمر، فقد عثرتُ على نصوص في كتب ابن القيم تنفي القول بفناء النار.

ومضى يعرض نصوصاً من كتاب (الوابل الصيب من الكلم الطيب) ومن كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية) تدلّ على أن ابن القيم ينحو منحى علماء السلف في حكمهم بعدم فناء النار، ثم تساءل الدارس قائلاً: هل كان الرجل مُتناقضاً؟ وفي مجال الإجابة عن ذلك قال إنّ هذا ليس رأياً له ولكنه نقله عن غيره بدليل ما، صرح به في كتاب (الوابل الصيب)، وكأنّ الباحث يريد تبرئة ابن القيم نهائياً مما جاء في كتابيه الأوّلين بنسبة آرائهما إلى سواه، وهذا لا يكفي في نفي القول عنه، إذ كان عليه أن يردّ على ما نقله إذا كان يخالف اتجاهه، وهو ما لم يفعله في الكتابين المشار إليهما، إنّما الأقرب إلى الصواب أن نقول إن الرجل قد عدلّ عن رأيه الأول، وانتهى إلى عقيدة السلف فيما ذكره في (الوابل الصيب).

وروح الحب واضحة تجاه ابن القيم من المؤلف، وهو بضلّاعته العلمية وأصالته الفكرية جدير بهذا الحب الصادق، ولكنّ ذلك لا يمنع المؤلف أن ينقده في كل ما يراه موضعاً للنقد، وتلك سبيلُ العلماء المنصفين، بل إن من سبيلهم الحق أن ينقد الباحث نفسه في رأي سلف أن تقدّم به، ثم بان له عدمُ صوابه، ومن أهم ما التفت إليه الدكتور عوض الله في المجال النقدي: الاستطراد الواضح في كثير من الفصول، ثم التكرار لمسائل كان قد ذكرها من قبل في كُتب أخرى، والمأخذان لا شكّ فيهما، وقد ضرب لهما المؤلف من الأمثلة ما ينطق بوجودهما كثيراً كثيراً.

ولعلّ من المناسب أن نذكر هنا أن المؤلفين من ذوي المصنّفات الكثيرة لا يخلون من هذا التكرار إذا تحتمت دواعيه، فابنُ القيم كالإمام الغزالي داعيةٌ صاحبُ هدف تربويّ قبل أن يكون مؤلفاً ذا اتجاه نظري، وكلّ داعية يحتاج إلى تكرار بعض ما سبق أن أكدّه في مضمّار آخر، لأنّه يرى القراء في حاجةٍ إلى التبصر والاستضاءة، فكتابُ (الإحياء) ككتاب (حادي الأرواح) وما سارَ على شاكلتهما كتبُ تربوية، تُرسَلُ الآراء الدينية بها وكأنّها صيحاتٌ تجلجلُ في الأسماع، ولا بدّ من استطراد في الخواطر ليشفي الكاتب غليله بإفراغ كلّ ما يعتقد راجياً أن يشفي غليل القارئ أيضاً.

هذا وظهور المطبعة في العصر الأخير يمنع المؤلف من التكرار، ويراه ضرباً من

اللغو، ولكنه فيما قبل عصر المطبعة كان مدعاة ضرورة يراها المصنف ذات أسباب، لأن انتشار الكتاب يجول في نطاق محدود، وفي القراء من لا يستطيع العثور عليه مخطوطاً، فإذا لجأ المؤلف إلى تكرار بعض المعاني في كتاب آخر هو معذور، وقد طالعت بعض ما أشار إليه المؤلف من مواضع التكرار فوجدت زيادات في بعض المعاني ألهمها الكاتب وهو يتدقق تدفق السيل المنهمر، وهذا طبيعي لمن ينقل عن صدره لا عن محفوظه كبعض الكاتبتين.

ومما التفت إليه الباحث أن ابن القيم قد نقد بعض أساتذته، واعتذر عن هذا النقد بحب الحقيقة لذات الحقيقة، ومن ذلك ما وجهه إلى أستاذه شيخ الإسلام أبي إسماعيل الهروي صاحب كتاب (منازل السائرین) حيث واجه بعض آرائه بما يعتقد في عدم إصابتها، وقال ابن القيم بصدد ذلك^(١): «شيخ الإسلام - أي الأنصاري - حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه، والله يشكر لشيخ الإسلام سعيه ويُعلي درجته، ولو وجد مُريده فسحة وسعة في ترك الاعتراض عليه لما فعل؛ كيف وقد نفعه الله بكلامه، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه.

نقل الدكتور عوض الله هذا القول عن ابن القيم ثم شفعه بقوله عن نفسه: «وكذلك كان موقفي من ابن القيم، فمع أنني استفدت منه استفادة علمية ودينية معاً، ومع أنني جلستُ منه مجلس التلميذ من أستاذه، فلم يمنعني ذلك من نقده في بعض المواضع، إذ مع حبا له فالحق أحب إلينا منه».

وهنا أشير إلى اتجاه تأثر به الدكتور عوض من ابن القيم، وكان له أثره الواضح فيما كتبه في بعض مؤلفاته، فقد تتبع آراء ابن القيم في الصفات الخيرية، ناقلاً عن الأشعري رجوعه في ذلك إلى طريق أهل السنة التي ترى عدم التأويل، ثم أردف الأستاذ ذلك بآراء واضحة للإمام الجويني، والإمام الغزالي، والإمام الرازي، وهم من أساطين المذهب الأشعري، مشيراً إلى قول الرازي وهو من أضخم من خاضوا في مآزق علم الكلام^(٢):

«واعلم أنه بعد التوغل في هذه المضائق، والتعمق في الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق، رأيتُ أن الأصوب الأصلح في هذا الباب طريقة القرآن الكريم،

(١) ابن القيم، ص ٢٤٩.

(٢) ابن القيم، ص ١٥٥.

والفرقان العظيم، وهي تركُّ التعمق، والاستدلال بأقسام السموات والأرض على وجود رب العالمين، ثم المبالغة في التعظيم من غير خوضٍ في التفصيل».

ثم عَقَّب عليه بقوله: فهذا النصُّ من الرازي يدلُّ على أنه قد رجع عن طريقة التأويل والمجاز في الآيات المتشابهة، وأنَّه بعد تعمقه وتوغله في باب التأويل، رجع عنه في آخر حياته، ورأى أن الأسلم طريقة السلف وهي الإيمان بألفاظ القرآن وإثباتها، والإيمان بها كما هي من غير تأويل.

أما أثر هذه الآراء في اتجاه الدكتور عوض الله العلمي فيما بعد، فقد تجلَّى واضحاً في كتابه (العقيدة الإسلامية)، حيث نحا في تأليفه منحى التيسير الدمشقي في بسط الأدلة، وتقرير القواعد، إذ كان أكثر الخاضعين في مباحث علم الكلام يسلكون سبيل الأقدمين في اصطناع الأدلة المنطقية، ومناقشة القضايا وفق ترتيبها كلية وجزئية، وهي سبيلٌ تباعد عن التذوق الوجداني، والإشعاع العاطفي، فتجعلُ القارئ يعالج معادلاتٍ رياضية قد تُمتع ذهنه، ولكنَّ وجدانه الظامئ إلى الرِّيِّ يظلُّ شاكياً ما يجدُ من الغليل، وليس معنى هذا أنه لا يسلكُ سبيل الفكر المتزن في الإقناع، ولكنَّ معناه أنه ينجو بهذا الفكر منحنى آخر حين يسلك به مسلك القرآن الكريم في الإقناع.

ولعلَّ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كانَ أسبق المعاصرين حين دعا إلى نهج قرآني في بسط الأدلة الكلامية فتحدث عن سنن الله في الخلق، وتأخي الدين والعقل في الإسلام وشدّد النكير على مزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بمسائل الدين، وبين سبب خلط العقائد بالنظريات الفلسفية، وأنكر الصِّراع المحتدم بين الفرق الإسلامية في تقرير المسائل الكلامية على النهج الأرسطي مع التشبُّث بأفكار وجهة الرأي المخالف، وكان أقوى ما قاله في ذلك^(١):

«بقيت علينا جولةٌ نظر في تلك المقالات الحمقى، التي اختبط فيها القومُ اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصدٍ واحد، ثم التقوا في غسق الليل فصاح كلُّ فريق بالآخر صيحة المُستجير، فظنَّ كلُّ أن الآخر عدوٌّ له يريدُ مقارعته على ما بيده، فاستمرَّ بينهم القتال، ولا يزالون يتجادلون حتى تساقط جلهم دون

(١) رسالة التوحيد للأستاذ الإمام، ص ٥٣، الطبعة الرابعة عشرة، سنة ١٣٧١هـ.

المطلب، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرّشد إلى من بقي وهم الناجون، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أمّلوا، ولوافتهم الغاية إخواناً بنور الحق مهتدين».

وهذا من أعظم ما قرأتُ من آيات البيان المقنع في الأسلوب العربيّ، وقد ترك تأثيره في نفر من الأساتذة وازداد به الدكتور عوض الله حجازي اقتناعاً حين قرنه بما انتهى إليه أئمة المتكلمين من أمثال الغزالي والجويني والفخر، ودَعَكَ من ابن تيمية وابن القيم فأمرهما في محاربة المنطق الجاف في تليق الأدلة الكلامية أوضح من أن يشار إليه.

لقد كتب الباحث الفاضل مؤلفه عن العقيدة الإسلامية مؤكداً في المقدمة أنه صاغ مسائله صياغة علمية قائمة على العرض الجيد والأسلوب الواضح في عبارات تبعدُ عن الغموض والتعقيد، وتقوم أدلتها على الإقناع الساطع والنص القاطع، وقد تجلّى ذلك في فصول كثيرة، منها ما كتبه تحت عنوان (مسلك القرآن في الاستدلال على وجود الله) حيث ذكر من آيات الكتاب العزيز ما يدعُو إلى النظر في مشاهد الكون الفسيح بسمواته وأرضه وأنهاره وجباله وإنسانه وحيوانه، لتكون صنعة الله الذي أحسن كل شيء خلقه دليلاً ناطقاً بوجوده، مستشهداً بما ذكره القرآن من أدلة الأنبياء في إقناع الجاحدين، فإذا بلغ من ذلك موضع الاطمئنان الراضي ألم بما سمّاه الأدلة العقلية وهي موجودة فعلاً فيما استشهد به من قبل من آيات الكتاب العزيز، فذكر مسلك الفلاسفة في الاستدلال ومسلك المتكلمين.

وانتقل إلى باب فريد حقاً كتبه تحت عنوان (الرد على من يقول إن العالم وُجد بالمصادفة) ولست أعني بوصفه بالتفرد أنّه لم يسبق إليه، ولكن أعني أنه جمع من الأدلة المقنعة في القديم والحديث ما يلزم القارئ المنصف بالاقتناع، وقد رجع إلى كُتب معاصرة تُرجمت عن أفاضل الباحثين، وكان من المناسب أن يُرضي المنهج الدراسي، فيتحدث عن الكلام في الصفات، وعن المخالفة في الحوادث، وقيامه تعالى بنفسه حديثاً يمت إلى القديم بأقوى الأسباب، ثم أشرق إشراقاً زاهياً حين كتب فصلاً شافياً عن أثر العقيدة في حياة الإنسان، موضعاً موضع تغلغلها في الجانب النفسي والجانب الجسمي، وفي هذه الخطرات الصائبة نفعٌ محقق للبشرية المهتدية بكتاب الله حين تُسيطر العقيدة على سلوك المسلم فتقيه شرور النفس

الأقمار بالسوء، وعلماء الأخلاق في شتى الأديان لا ينكرون هذا الجانب الهام في التأثير، بل يعدّونه وسيلة العلاج الناجع، وموضع الهداية الراشدة حين تتفرق الأهواء، ويحار الدليل.

ولعلّ فيما قرره الأستاذ في موضوع الإيمان بالقدر والقضاء ما يكشفُ شبهاتٍ حائرة لدى من يظنون أن الإيمان بهما ينافي الأخذ بالأسباب، ومن يتوهمون أن هذا الإيمان يدعو إلى التواكل، وهي مسائلٌ تحتاج إلى مواصلة الطُّرق، لأنّ الغُلاة من أدعياء التصوف - لا من الأصلاء - قد ركبوا المركب الخشن فيما توهموه، ومن الناس من يميلُ إلى الكسل والبطالة حُبّاً في الراحة الوادعة، فيجذُّ في شطحاتهم ما يُرضي أهواءه، لذلك أقرر أنّ مواصلة الطُّرق في هذا الاتجاه تعصم الإنسان من شُرور تحاصره كثيراً في ميدان الحياة.

وفي مضمار التوجيه العلمي الخالص أشير إلى ما كتبه المؤلف عن منهج الأشاعرة في البحث مقارناً بينهم وبين المنهج الاعتزالي، وهو موضوعٌ في حاجة إلى استيفاء شامل، لأنّ المنهج الأشعري في مراحلهِ التالية كان يتخذ المنهج الأرسطي من أقوى دعائمه، وقد أشرتُ من قبل إلى احتشاد المتكلمين في مضماره، ثم رجوع أعلامهم عنه، حين أملَّهم طول الجلال.

لقد أطلت بعض الشيء في حديثي عن كتاب (دراسات في العقيدة الإسلامية)، لأنه بمقرراته الهادفة يُنْجِي من عثارٍ متواصل، تكبو في ميدانه أقدام كثير من الباحثين، والسبيل واضح مبين.

- ٢ -

تاريخ الأديان من سماوية ووضعية، ميدان حافل احتله المستشرقون في القرنين الماضيين، فكتبوا فيه ما لا يحصى من المؤلفات، وكان همّ أكثرهم - وهم من اليهود - أن يُثبتوا أن التوراة أصل لكل ما جاء بعدها، وهم لا يتحدثون عن المسيحية إلا بقدر، إذ جُلَّ همهم موجّهٌ إلى الإسلام لا ليثبتوا أصالته الربانية كما نزل بها الذكر الحكيم، بل ليعلموا أن العبادات والمعاملات تابعة للشريعة اليهودية، بل تخصّص بعضهم في أبواب خاصة تدورُ حول المقارنة المغرضة بين فريضة وفريضة، فهناك كتب تتحدث عن الصلاة في الإسلام وعن الصوم في الإسلام وعن

الحج في الإسلام لترجع بهذه الشعائر إلى الأصول اليهودية، وكأن نبي الإسلام قد تعمق في هذه الأصول لينتزع منها ما يروقه، معدلاً بعض التعديل.

لذلك كانت الدراسة المقارنة بين الأديان في حاجة إلى علماء مسلمين يضعون الأمر موضعه الصحيح، فنشطت بعض الدراسات الهادفة في هذا المجال، وكان من بينها ما كتبه الدكتور عوض الله جاد حجازي في كتابه (مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام) ومن يقرأ هذا الكتاب يرى أن خطة المؤلف منذ بدأ كتابه تتجه إلى مقارنة عامة بين الأديان جميعها، واليهودية جزء منها، ولكن أموراً عاقته عن إتمام مشروعه إذ لم يؤلف غير هذا الكتاب (مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام) والفصول الأولى منه تؤكد ما قرره من قبل، لأنه بدأ الحديث بعد المقدمات التمهيدية عن ديانة القدماء المصريين، والديانة الفارسية، والديانة الهندية القديمة، وخصص البرهمية والبوذية بحديث مجمل منتقلاً إلى تفصيل القول في الديانة اليهودية التي عنوان بها الكتاب!

وأظهر ما يجب أن يتحلى به مؤرخ الدين هو التسامح وسعة النظر الحيادي، وتفسير كل مذهب بما يراه أهله عنه، فليس مؤلف التاريخ المقارن للأديان مبشراً بدين خاص، يحاول أن يثبت استعلاءه التام، ولكنه رجلٌ حقيقة ضالّة يبحث عنها، وإذا انحاز لدين ما بعد البحث المحايد الملتزم، والأدلة المقنعة، فتلك طبيعة المنهج العلمي، لأنه يسير بخطوات محسوبة دقيقة، تحت راية الحياد، وهذا ما نجده لدى الدكتور عوض الله حجازي إذ أجهد نفسه في استخلاص الحقائق الصريحة، وقد يكون ما كتبه موجزاً في رأي من يُصدرون المجلدات الحافلة بمثل هذه البحوث، ولكن السعة والضيق ليستا ميزان الترجيح، فقد نجد في الكتاب الموجز ما لا نجده في الكتاب المبسوط، لأن الاختيار الهادف من شأن الباحث البصير، حيث يطالع ويستقرئ لا ليجمع بل لينتخب ما يفيد.

ومقدمات الكتاب تتحدث عن معاني الدين والملة والنحلة، والدين الوضعي والدين السماوي، ونشأة الدين وعالميته؛ ومن أنفس ما تحدث به ما كتبه تحت عنوان (الدين أمر ضروري للإنسان) حيث بين في وضوح أسباب التدين في العصور الغابرة، وأجمل أموراً فصلها فيما بعد في باب (فطرية التوحيد) فأكد الرأي القائل

بأن عقيدة التوحيد فطرية في النفوس، وقد ذهب إليها جمهور أهل السنة من المسلمين.. هكذا قال.

وأحب أن أقول إن جمهور المتكلمين في المذاهب الإسلامية جميعها قد ذهب إلى هذه العقيدة وليس الأمر مقصوراً على جمهور أهل السنة وحدهم، فلعل هذا سبق قلم، وأفاض المؤلف في ذكر الأدلة الدالة على أن التوحيد فطري من كتاب الله وسنة رسوله بإيضاح كافٍ للإقناع، ثم اتجه إلى الرأي المخالف، وهو ما اتجه إليه فريق من علماء الاجتماع مثل (سبنسر) و(دوركايم) و(فريزر)، وهو أن التدين بدأ بالخرافة والأوهام ثم انتقل إلى الوثنية والشرك، وتطور على مدى الأجيال حتى وصل إلى عقيدة التوحيد، وقد ذكر أدلة هؤلاء وفندها بما اهتدى إليه مستعيناً بأقوال الأثبات من راسخي العلم، وإذا كان الأستاذ العقاد قد انتحى الوجهة الثانية في كتاب (الله)، والأستاذ طه الهاشمي في كتابه (تاريخ الأديان)، فإنهما ينقلان ما قاله رجال الاجتماع، ولكنهما لا يمثلان المذهب الإسلامي المقرر في كتاب الله، إذ أن آدم نبي الله موحد، وابنه هابيل قد قال لأخيه: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْمَلَكِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمَانِي وَلِإِيمَانِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [المائدة: ٢٩] فالتوحيد قد وجد منذ بدء الخليقة، وقد حصل الانحراف حين ضلّت العقول وتشعبت الأهواء.

وبتداء من الفصل السادس أفاض المؤلف في تاريخ اليهودية فتنبع أنبياء الله منذ إبراهيم عليه السلام باعتباره جدّاً لبني إسرائيل لا باعتباره يهودياً، لأن القرآن قد قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، وتسلسل الحديث ناظماً في سلكه حياة موسى عليه السلام وقيادته لبني إسرائيل، وزمان التيه، وعصر العودة.

أما أهم فصل من فصول الكتاب فهو الفصل الثامن الذي تحدّث فيه عن العقيدة اليهودية الحقّة، ورجع في هذا المجال إلى نصوص القرآن نفسها باعتبار القرآن مهيمناً على ما قبله من الكتب التي أصابها التحريف، ثم نقل من نصوص التوراة ما يدل على رسوخ عقيدة التوحيد مقارنة بما يدل على اتصاف الله ببعض صفات البشر مما ينفي النصوص الأولى، ويدل صراحة على أنها زيدت على التوراة، وكيلا يكون الكلام مرسلًا دون دليل، فقد كتب المؤلف باباً تحت عنوان (التحريف في التوراة) مستنداً إلى أقوال السيد محمد رشيد رضا والشيخ رحمة الله الهندي، وبعض

رجال الدين المسيحي، ومفضلاً أنواع هذا التحريف، ومنها ما يشذ عن نطاق المعقول كأن يكون الإله مرتاحاً إلى الضحايا حين يأكل منها، وينتفش برائحة الدخان المتصاعد، وحين يُصارح الإنسان بقوته فلا يقدر عليه كما جاء في سفر التكوين، ثم حين يثور ويغضب، ويرتكب أشياء يندم عليها بعد ذلك!!

أما الأنبياء في التوراة المحرّفة فيُنسب إليهم الكذب والفجور والزنا وما جاء تحريمه في كل الشرائع، فكيف يكونون قدوة للناس! ولعلّي أشرتُ بهذه النقاط إلى مراجعة هذا الكتاب لاستيفاء ما تركته من أمورٍ يجب أن تكون موضع الاعتبار لدى من يجلّون كلام الله ورسله عن إباحة الموبقات.

وتتابعت فصول الكتاب تتحدث عن عقيدة شعب الله المختار، وأدلتهم على هذه العقيدة، وإبطال هذه الأدلة، كما أَلَمْتُ بمصادر الديانة اليهودية، وخُتِمَ البحث بنصوصٍ تؤيد البشارة بنبوّة سيدنا محمد في التوراة، والكتابُ بهذه الفصول الجادة في مستوى علمي يدفع القارئ إلى استيعابه المفيد.

ولعلّي بعد ما قدمت لا أنسى أن أشير إلى كتاب (المرشد السليم في المنطق الحديث والقديم) حيث رزق حظوة في الانتشار، إذ تعددت طبعاته حتى بلغت ثماني طبعات، بالنظر إلى الطبعة التي تحت يدي، ولا أدري هل جذّت بعدها طبعة أخرى، ومزية الكتاب أنه أولُ كتابٍ أزهريّ يضم المنطق الحديث إلى المنطق القديم، حيث درجت الكتبُ الأزهرية فيما قبل على أن تكتفي بكتب التراث دون نظر إلى ما جدّ في الدوائر العلمية الأوروبية من بحوث منطقية جديدة، وقد ظهرت بالجامعة وغيرها كتبٌ حديثة تشمل ما جدّ من مسائل علم المنطق المعاصر، فأفاد منها المؤلف إفادةً جادة، حين كتب فصولاً دقيقة عن التحليل والتركيب، والفرق بينهما موضحاً ما قرّره بأمثلة كاشفة، كما أسهب في معنى الفرض العلمي، وشروطه وأنواعه، وفوائده واختلاف الفروض، والطرق القياسية في إثبات الفروض، وقيمتها العلمية وأمثلتها، ومن أنفس ما أوضحه ما أَلَمَ به من حديث الملاحظة والتجربة، وعناصرهما، ومواطن الخطأ فيهما، وفضل التجربة العلمية على الملاحظة، ومواطن استخدامهما وشهادة الغير، معناها وأنواعها وتمحيصها، وقد تابع المؤلف نفرٌ ممن كتبوا بعده في المحيط الأزهرى فأمذّوا هذا العلم بروافد جديدة زادت في حيويته، وارتقت به إلى المستوى المنشود.

وكنْتُ أود أن يضيف المؤلف إلى كتابه هذا بحثاً عن مناهج البحث العلمي، فيوضح معنى المنهج العلمي، ويوضح أقسامه، وقواعده العلمية، مفصلاً الحدود التي وضعها ديكرارت لتعصم من الخطأ، وهذا من حيث المنهج العلمي؛ أما المنهج التاريخي فقد أَلَمَ به المحدثون من المناطقة، ووضّحوها طرقه، وكيف تُمتَصَّص الوثائق التاريخية، وكل ذلك من صميم البحث المنطقي المعاصر.

وإذن فالكتاب في حاجة إلى بحث هذه المناهج ليكون شاملاً كافياً عن غيره، لمن يريدُ التثقيف لا التخصص، فللتخصص المنطقيّ سبيل طويل، والأستاذ غير غافل عن ذلك لأن حديثه عن تطور علم المنطق بعد أرسطو يدلّ على أنه أَلَمَ إماماً كافياً بمن نقدوا المنطق الصوري، فأخذوا عليه عدم اعتماده على الملاحظة والتجربة، وإهماله الاستدلال الاستقرائي، وهو السبيلُ إلى استكناه المجهول واكتشاف معلومات جديدة، كما وضّح المؤلف موقف (فرنسيس بيكون) من المنطق الصوري، ودعوته إلى منطق الاستقراء ومناهج العلوم، ثم جاء الفلاسفة المحدثون فزادوا على ما ابتدعه بيكون، وتوسعوا في مباحث المنطق، وقد استشعر المؤلف أن المحدثين قد ركزوا حديثهم على المنهج الاستقرائي، وعدّوه جديداً طريفاً مع أن أرسطو قد تكلم عنه، فماذا أضافوا من الجديد؟ وقال إجابةً عن ذلك: إن أرسطو لم يبحث الاستقراء بمثل ما اتجهوا إليه، ولم يتوسّع توسعهم، ولكنه اقتضب وأوجز، وجاء القوم فجعلوا من الاستقراء منهجاً واضح الدلائل، بيّن المعالم، فكان جديراً أن ينتسب إليهم، وفي هذا الرد إنصاف وتحديد.

لقد كانت حياة الدكتور عوض الله حجازي خصيبة مثمرة لا في مصر وحدها بل في ربوع كثيرة من بقاع العالم الإسلامي، حيثُ أُعير أستاذاً للعقيدة لجامعات إسلامية كبرى بمكة وأمّ درمان والرياض والمدينة المنورة، فكان له جولات كثيرة في أنديتها العلمية، وكان ملحوظ الجانب في مناقشات رسائل الدكتوراه والماجستير، إذ كان يحشدُ للنقاش العلمي احتشاداً جاداً، وقد يُلَاقِي بعض الصعوبات من زملاء في حلبة النقاش يتقيدون بوجهات مذهبية ضيقة لا تنفجُ عن التسامح العلمي المنشود، ويظهر ما يدلّ على ذلك في جلسات المناقشات، فكان الدكتور عوض يرعى حق الله في مناقشة كلّ ما لا يميلُ إليه من وجهة النظر العلمية ذات الشمول العام، وتدور المناقشة علنيّاً بين زميل وزميل، مع أن المفروض رسمياً

أن تدور بين الفاحص والباحث، فينتصر الأستاذ لرأيه بالدليل الملزم في سماحة طبع، وهذوء نفس! ومع هذه السماحة الرفيعة فقد ضاقت به بعض الصدور.

وأنا أُجيزُ أن تضيق الصدور في غير مسائل العلم ممّا تتمخض عنه شؤون الحياة العامة، أما أن يكونَ النظر المؤيد بالدليل المستند إلى الحجة مصدر ضيق من المخالف، فهذا ما أعجب له كثيراً، وأنا لم أشهدْ حلّيات هذا الصراع، ولكنّ بعض الفضلاء من زملاء الجامعة تحدّثوا عنها بإشباع، وكثّروا أن الدكتور لم يتنازل عن رأيه العلمي، مع من يخالفونه، فضرب المثل على صدق اليقين.

وفي غير فترات انتدابه أستاذاً للعقيدة بجامعة الدول الشقيقة، حضّر عدّة مؤتمرات علمية في الكويت والسودان ولندن والفلبين، وألقى عدّة محاضرات كان عليه أن يحرص على جمعها في مؤلف مستقل، ولكنه اكتفى بنشرها متفرقة فيما أصدرته الدولة القائمة على المؤتمر من أجزاء.

وبين يدي الآن بحث جيد تحت عنوان (الإسلام والتميز العنصري) نشرته مجلة اتحاد الجامعات العربية في عددها الممتاز الصادر في أول المحرم سنة ١٤٠١هـ، إذ أراد الاتحاد أن يصدر عدداً حافلاً بمناسبة مطلع القرن الهجري الخامس عشر يكون سجلاً لجوانب هامة من الحضارة الإسلامية فاختر نخبةً من كبار الباحثين لمعالجة هذه الجوانب، ومن بينهم الدكتور (عوض الله) وقد حدّد له موضوع البحث، فكتبه بما عُرف عنه من الدقة الملتزمة، والهدوء المتزن، مع الخلوّص إلى الجوهر المخلص دون ولوج إلى المقدمات.

وقد أرتسمت عناصر البحث في فكره على هيئة متماسكة يُسلم فيها الدليل إلى الدليل، فبدأه بالحديث عن عالميّة الإسلام، التي هي إحدى خصائص هذا الدين، إذ اتجه إلى الإنسان في جوهره لا فيما يحيط به من الأعراض، لينظر إليه نظرة متساوية لا تفرق بين جنس ولون ولغة، وأقام الدليل على ذلك عقلياً ونقلياً، لينتهي إلى أن تأكيد وحدة الطبيعة الإنسانية في الإسلام تُسقط دعاوي الاستعلاء بكلّ صورها وأشكالها ونزعاتها، فأزاح الإسلام بذلك عن كاهل الإنسان أثقالاً ضخاماً من شأنها أن تحدّ من نشاطه الذاتي، وتكبّت لديه ملكات الترقّي في السّلم الإنساني، ويسقوط هذا الاستعلاء أصبحت الإنسانية وحدةً خالصةً من التميز العنصري، وهذه الوحدة هي الأصل في الحكم على البشرية جميعها، وإذا اختلفت

النواحي العرفية في الإنسان فإنها لا تُبَرَّر اختلافاً بين أجناسه باختلاف البيئات والأزمنة والمجتمعات، وإذا كانت ضغوط الجوانب المادية على الإنسان أكبر من أن تتغلب عليها إرادته المحدودة، فقد توالَتْ إمدادات السماء في كل حين لتتوجّه به إلى الخير ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

وقد أفاضَ الباحث في هذا الاتجاه بما لا يقتضي مزيداً من القول، حين تحدّث عن وحدة التكاليف الإلهية باعتبارها مظهراً لعدم التفاوت، وأتى بنصوص ملزمة تؤكّد هذه الوحدة، ثم عرض إلى مشكلة التفاوت في ظل الحضارات المختلفة، حيث أوضح العنصرية البارزة في ظل الحضارة اليونانية، واستشهد بدعوى أرسطو في اختلاف الطبقات؛ تلك الدعوى التي وجهت اليونان وجهةً طبقية تركت أسوأ الأثر بين المواطنين، وجاء الرومان فامتدّ التأثير اليوناني إلى دستورهما في هذا المنحى، إذ تضمّن قانون الإمبراطور «جوستنيان» نصوصاً تحتم التفرقة والتمييز وتنادي صراحة بأن غير الرومانيين من رعايا الإمبراطورية ليست لهم حقوق الرومانيين، ويكفي أن يكون الرقيق في ظل هذا القانون ساقطاً عن رتبة الإنسانية، إذ لا يعامل العبدُ معاملة الآدميين، وتتابع القولُ في أساليب التفاوت الطبقي في الحضارة الهندية، وفي المعتقدات اليهودية، وفي المسيحية حين نقل بولس الرسول إليها هذا التمييز العنصري، وهو ما لم يأت به المسيح، ولم يغفل الباحث حديث الزنوج في أمريكا وما لاقوا من الصعاب، ثم عمد بعد العرض التاريخي إلى التمييز العنصري في ضوء النقد العلمي، فاستشهد بأقوال قوية لمعارضيه هذا التمييز لينتهي من ذلك كله إلى قوله في خاتمة البحث^(١):

«وببقى الإسلام وحده هو النظام الإلهي المتفرد الذي يجعل الإنسان في عمومهِ وشموله، وبجوهره لا عرضه محور حديثه وتوجيهاته، وتبقى قوانين البشر التي تشرع لصالح الإنسان في المحافل الدولية من الواقع النظري فقط، فلا ترقى إلى قدسية التشريع الإسلامي الذي يقرر أن الجانب النظري والجانب التطبيقي للقانون الإلهي إنما يشكّلان وجهين لعملة واحدة».

وربما كان من الخير أن أشير إلى تعليق صادق على هذا البحث كتبه الأستاذ

(١) مجلة اتحاد الجامعات العربية (المحرم سنة ١٤٠١، ص ٧٩).

الدكتور إبراهيم بيومي مذكور رئيس مجمع اللغة العربية قال فيه^(١):

«ختم شيخنا مقاله بالإشارة إلى موقف البحث العلمي من فكرة التميز العنصري، فقد هدمها هدماً، وقضى على أسسها ودعائمه، فلاحظ أن أمم العالم جميعها خليطٌ من عناصر مختلفة، وتسير كل أمة في طريقها وعلى قدر إمكانيتها، ولا يستطيع أحد أن يثبت أن عنصراً ما عاش بمعزل تام عن العناصر الأخرى، فالقولُ بالعناصر النقية الصافية يعوزه الدليل، والتاريخ شاهد على أن الحضارات الإنسانية لم تكن وفقاً على جنس أو عرق معين».

وقد اهتم الدكتور مذكور بتحليل النقاط الملزمة في بحث الدكتور (عوض الله) مثنياً على ما قدّم من اجتهاد.

هذا، وقد اشترك الدكتور في تأليف كتب فلسفية مع بعض الزملاء، والكتب المشتركة لا تتيح للدارس أن يعرف اختصاص كل مؤلف بموضوع معين، لذلك رأيت أن أغفل الحديث عنها حتى لا أنسب إلى الدكتور ما لم يقل، وهو احتياط واجب في مثل هذه المؤلفات.

ولعلي في ختام هذا المقال أكون قد قدمت تعريفاً موجزاً لبعض الجوانب العلمية لأستاذنا الدكتور عوض الله جاد حجازي، أما التعريف المسهب فمن واجب تلاميذه الذين صدروا عن علمه، ونهلوا من فضله وهم بحمد الله كثيرون.



(١) مجلة اتحاد الجامعات العربية (المحرم سنة ١٤٠١، ص ١٣).

عيسى منون باحث يعمل في صمت

- ١ -

نقرأ بعض البحوث العلمية لنفر من كبار العلماء، فنجد عمق النظرة، وشمول التتبع، وسلامة الاستنتاج، ولكننا نجد مع ذلك أنهم لم يواصلوا البحث العلمي إلى مدى متسع، تؤهله دراستهم التي قدموا نماذجها للقراء، لأن من يُخرج هذه البحوث الجيدة جدير بأن يواصل التنقيب العلمي إلى أقصى مدى يُستطاع، وفي الناس من لا يكتب لأجل الكتابة، ولكنه ينتظر حتى يرى الضرورة الملحة، فيلقي بدلوه، ومثله لا يكتفي بالترداد المتكرر، بل لا بد أن يضيف الجديد.

على أن المناصب الإدارية تكون لدى بعض الغيورين فرضاً من الفروض التي تؤدي على وجهها الصحيح، فهم يبذلون جهدهم الأطول في تيسير الدفة بمنتهى الأمانة، ولا يكلون لغيرهم أن ينوب عنهم في شيء، وتلك حال تستفرغ جهد اليوم الأطول، ولكنها تدع صاحبها مستريح الضمير لما يصنع، وقد عرفت من هؤلاء الأجلاء من تعددت الإدارات المختلفة تحت رياسته، ولكل إدارة رئيس يقوم بواجبه، ولكنه لا يطمئن حتى يراجع كل قرار اتخذ، ويتأكد من كل إمضاء وقّع، وقد يجمع الأوراق من مختلف الإدارات ليقرضي ليله الأطول في مراجعتها، وهذه أمانة نزيهة، ويُعذر صاحبها الحازم إذا ترك ما يشتهيه من التأليف العلمي مستمعاً إلى نداء الواجب.

كذلك كان الأستاذ عيسى منون عضو جماعة كبار العلماء وشيخ كليتي أصول الدين والشريعة الإسلامية لمدى طويل، وشيخ رواق الشام بالأزهر، يحرص على أن يؤدي دوره الإداري في حزم يقظ متربص، وقد كان أستاذاً من قبل في القسم

العالي بالأزهر، وفي تخصصات رفيعة المستوى، حيث لا يشغل مناصب إدارية، ولكن طبيعة العمل في تركيبه الخلقي كانت تدفعه إلى بذل الجهد في استيفاء ما يلقيه من دروس علم الأصول، وهو العلم الذي نيط به تدريسه حقاً طويلاً، ومسائله أعوص وأغمض من أن تُدرس دون علاج يومي بطول النظر، وكثرة التقلب، والطلاب في الأقسام العليا حينئذ علماء لا مُتعلّمون، فهم يقرؤون ما يقرأ الأستاذ، ويعلمون درس الغد فيتحضرون إلى مراجعته، وكأن كل طالب يذهب ليشرح لا ليستمع، والأستاذ يعرف ذلك فيلمّ بالدقائق ساهراً الليل كطلّابه، ويعتبر المتعة الهنيئة في أن يرى من الطلاب من جاهد وناضل حتى حاز تقديره!

تلك كانت أيام رأيناها رأي العيان، ثم انقلب المسرح فجأة، فإذا العلم قشور، وإذا الحاصل خواء، لقد قرأت جلّ ما كتبه تلاميذ الأستاذ عيسى منون عنه في كتاب ألف خاصاً به، فوجدت تلاميذه وهم بعد من أعيان العلماء يؤكّدون مدى استمتاعهم بدروس الشيخ في أغمض الفنون من أصول ومنطق وتوحيد، ويذكرون من ذلك ما يجب أن يُردّد فقد يُحيي مواتاً، وقد يكون صور النشور.

وأقول ما يجب أن يردّد، لأننا الآن في حاجة لأن نطلب العلم على وجهه الصحيح طلاباً، وأن نؤديه على وجهه الصحيح أساتذة، ولن يكون الأستاذ مدرساً ممتازاً إلا إذا كان طالباً ممتازاً، وقد تحدث فضيلة الأستاذ الشيخ حسين محمد مخلوف مفتي الجمهورية الأسبق عن زميله الشيخ عيسى منون حينما كانا طالبيين بالأزهر فقال^(١):

كان دأب النابهين من الطلاب إذ ذاك ألا يحضروا الدرس إلا بعد مطالعة الشروح والحواشي، وقد يضيفون إليها التقارير مطالعة دقيقة، رغبة في العلم وتثبيتاً منه، ويُناقش بعضهم بعضاً في عباراتها ومفاهيمها، فتختلف الآراء والمذاهب، فإذا ألقى الشيخ المحقق درسه، وشرح ما كتب فيه، وفند الاعتراضات، وحقق الأجوبة واستخلص الحق من بين الآراء المتعارضة - عَرَف هؤلاء الطلاب الخطأ والصواب فيما تناقشوا فيه، وكانوا يُناقشون الشيخ مناقشة قوية، وكانت هذه الدارسة شحذاً للأذهان، وتربيةً للملكات، وتقوية للمعارضة، وتدريباً على الجدل والمناظرة، وعُدّة لفهم المراجع التي لا تدرس في الأزهر».

(١) حياة علم من أعلام الإسلام، ص ١٨١، من مقال حسين مخلوف.

هذا هو الجو الذي نشأ فيه الشيخ عيسى طالباً، وقد أثنى عليه صديقه الشيخ مخلوف بما لا مزيد عليه، وذكر له أدبه في نقاش أستاذه، وتحضره الشديد في تخطئة عبارة، حتى يكون الصواب في خلافها واضحاً جلياً، والدليل معه راجحاً، ولم يكن مزهواً بنفسه، ولا محبباً للتفاخر مع توافر الأسباب لديه.

فإذا تركنا جو التلمذة إلى جو الأستاذية، فإننا نجد تلميذه العالم الكبير مؤرخ الأصوليين الشيخ عبد الله المراغي يتحدث في مقال ضافٍ عن درس الأستاذ للطلاب فيقول عنه^(١):

«واختير مُدرّساً لعلم الأصول بالقسم العالي سنين عدداً، كان فيها مرجعَ الحائرين في عويصات مسائله، ولقد حظيت بالتلمذة له في قسم التخصص القديم، فكان يدرّس علم الأصول في كتاب (مسلم الثبوت) وما كان أشدَّ حرصنا على الإصغاء له، وتدبّر كل ما يقول، لأنّه كان يجمع لنا معلومات كاملة شاملة، وقد تفهّمها في نفسه وهضمها بثاقب ذهنه، وكَمْ كانت له منا مواقف جدل عنيف يستجلي فيها غوامض المسائل ومشكلاتها، فما يترك سائلاً في بيداء الحيرة إلا أخذ بيده رويداً رويداً حتى يُنجيه من لجة الشك، ويحميه من عواصف الاضطراب، وكلّ ذلك منه في تواضع جمّ، وصدر منشرح، وشكرٍ لله على نعمة الهداية والتوفيق».

هذان قولان عن الشيخ أستاذاً وطالباً، قالهما أستاذان كباران لا يرقى الشك إلى منطقتهما، وقد حرصتُ على نقلهما، لأقدم صورة صحيحة للأزهر في عهد الجدّ المناضل، حين كان العلم وحده هدف الطالب، وحين كان جلاء الغوامض من العلم هدف الأستاذ، ومن الناس من يستغريون اليوم أن نقول لهم إنا كنّا نحضّر الدروس في شتّى العلوم في المنزل قبل أن نأتي إلى درس الأستاذ، ويتساءلون ماذا يصنع الأستاذ إذن؟ يتساءلون متهمّين، مع أن الأستاذ يصحح الخطأ، ويدل على الصواب.

وقد أحسن الأستاذ محمد عيسى منون نجل الشيخ حين أصدر كتاباً عن والده يضمّ شذوراً من أقوال زملائه وتلاميذه عنه مع تفصيلٍ لأدوار حياته، وأولاد الشيوخ

(١) حياة علم من أعلام الإسلام، ص ١٩٥، من مقال الأستاذ عبد الله المراغي.

من العلماء كثيرون، ولو فعل كلُّ منهم ما فعل هذا الابن البار لقدّم للتاريخ صفحةً
مجيدة من حيوات العلماء.

ومما قاله عن الشيخ الوالد: إنّه وُلد في عين كارم بفلسطين، وهي ضاحيةٌ من
ضواحي القدس، ذات أشجار وزروع ومياه، وقد درس الناشئ في مدرسة المدينة،
فأبدى همّة ونشاطاً، وأرى أن يتهيأ للدراسة بالأزهر بعد أن حفظ القرآن، فأحضر له
والده من يقرأ عليه مبادئ الفقه والنحو، ويحفظ بعض المتون التي اشتهر تدريسها
بالأزهر، ثم اختاره بعضُ النظّار للتدريس للصغار بإحدى المدارس القريبة، فكان
شغله الشاغل أن يترك المدرسة ليلتحق بالأزهر، وقد استجاب له والده فالتحق
بالجامع الكبير سنة ١٣٢٢هـ، وواصل الجد الدائب ليُظهرَ لمن عارضوه في السفر
أنّه ذو أمل كبير، وقادرٌ على تحقيقه، وكان النظام التعليمي يسمح إذ ذاك لمن قضى
ست سنوات أن يتقدم لامتحان (الأهلية) ففاز بها عن كفاءة، وقد أهله ذلك إلى أن
يتقدم في العام التالي لامتحان العالمية سنة ١٣٢٩ هـ، وهو مطمح لا يصل إليه
الطالب إلّا بعد خمسة عشر عاماً في الأكثر الأعم، ولكنه اعتمد على جدّه، وتقدّم
للامتحان، وكانت مواده ستة عشر علماً، فاجتازها بنجاح، وقد حضر الشيخ محمد
شاكر بعض الوقت أثناء امتحانه فُسّر بإجابته وعمل على أن يلقاه بعد خروجه.

ولم يَمُضْ وقتٌ حتى اختير مدرّساً بالأزهر بالقسم الأولي، وتعلّق به الطلاب
لأنّه كان يدرّس للفصل جميع المواد ما عدا الفقه، لأنّه شافعي والطلاب أحناف،
فارتقى بعد سنوات إلى القسم الثانوي، ثم إلى القسم العالي، وهو أعلى أقسام
الأزهر في منزلة العلمية، وعلى يده تخرّج في هذا القسم طائفة من خيار العلماء،
وقد أشادوا به منوّهين، وكان يدرس لهم علم الأصول، وحين رأى صعوبة الكتب
القديمة ألّف كتاباً هاماً في هذا الفن سماه (نبراس العقول في تحقيق القياس عند
علماء الأصول)، وكان هذا الكتاب الثمين سبيله إلى عضوية هيئة كبار العلماء،
وقبل أن ينال هذه العضوية كان مدرّساً للتوحيد وأصول الدين لطلاب (تخصص
المادة) وهو الذي يعادل (الدكتوراه) اليوم فأبدى في علوم العقيدة ما أبداه من
التضلع في علوم الشريعة، واختير بعد ذلك شيخاً لكلية أصول الدين فشيخاً لكلية
الشريعة، حيث دام في رئاستها قرابة عشر سنوات أُحيل بعدها للمعاش ليكون عضواً
بمجلس الفتوى حتى لحق بربه سنة ١٩٥٧ م.

هذا موجز لحياة الرجل العلمية، وإذا جمع الشيخ في هذا المدى الأطول بين الإدارة والتدريس فقد أظهر فيهما كفاءة وإنصافاً وعَفْواً، إذ أن ما جَدَّ من الأحداث المضطربة في السياسة حينئذ قد وجد من مرونة الشيخ ما حال دون عقاب كثيرين ممن تورطوا في المظاهرات، وناووا الرؤساء، لأنه يعلم أن الأيدي الماكرة تحرك الطلاب وهم أغرار.

ومن جهوده المشتهرة في عمله الأزهري تَولِيه مشيخة رواق الشوام، وهو حينئذ حافل بالكثير من أبناء فلسطين والأردن وسورية ولبنان، وكانت الأرزاق تجري على الطلاب دون ضابط، وقد تنقطع في فترات تكون موضع شدة قاسية، فرأى الشيخ أن يهتم بدراسة الأوقاف المحبوسة على الرواق، وأن يعرف قيمتها الحقيقية، وطرق استثمارها بعيداً عن أيدي الوسطاء ممن ينظرون إلى أنفسهم أكثر مما يزعمون المصلحة العامة للموقوف عليهم من طلبة العلم، واستعان بأولي الدربة في هذه الناحية حتى أنتج الوقف ما يكفي الحاجة، بل إنه استطاع أن يوفر مبلغاً زائداً كل عام كان يُوزعه بالتساوي بعد استيفاء ما يتعلق بأعيان الوقف، ومرتبات الموظفين، وقد أشاع ذلك نهضة في الأزوقة الأخرى إذ أصرّ الطلاب بها أن ينالوا ما نال طلاب الشيخ عيسى، واضطرّ المسؤولون أن يضبطوا الأمر، فكان الرجل قدوة في هذا المجال.

على أنه لم ينسَ التوجيه العلمي لطلاب الشام، فقد كان يزورهم في مساكنهم ليسألهم عما حصلوا من الدروس فإذا وجد القياس في فهم مُعضلة علمية عقد درساً لتمحيصها، وقد أدته زيارته المتوالية إلى معرفة التوايح من الكسالى وهذّدهم بالفصل ثم أخذ عناوين أولياء أمورهم في بلادهم النائية ليخبرهم بما وقعوا فيه من إهمال، فأدى ذلك إلى جدّ متواصل، وعادت النتيجة سارة كما لم تكن من قبل.

وحين أنشئ نظام الكليات الأزهرية، واشترط القانون للالتحاق بها الحصول على الثانوية الأزهرية، واجه المبعوثون مشكلة في الالتحاق بهذه الكليات، فأخذ الشيخ يسعى سعيه المتواصل، حتى استطاع أن يُقنع المسؤولين بضرورة انتساب هؤلاء الغرباء إلى الكلية عن طريق امتحان خاص بمسابقة الانتساب، ويُعلن عن مواد الامتحان قبل موعده بعدة شهور، وقد تم ذلك واستطاع النابهون أن يجتازوا الامتحان، بل عمل الشيخ على إعداد دُروسٍ خاصّة لطلبة الرواق تهيئهم للامتحان

المنتظر، ودبت روح النشاط بين الطلاب، فقرأوا من المقررات ما لم يكونوا يعهدونه، وشويت المسألة حينئذ على نحو كريم.

وتلا ذلك اهتمام خاص بطلاب البعث من الدول الإسلامية التي لا تتخذ اللغة العربية أداة لها، حيث يأتي الطلاب دون استطاعة ما للإمام بعلم الأزهر المدونة باللغة العربية، وقد قام الشيخ بعرض المسألة على الإمام محمد مصطفى المراغي حيث أصدر قراراً بتأليف لجنة من مشايخ الأروقة المختلفة لدراسة أحوال هؤلاء الطلاب، ووكل رياستها للشيخ عيسى منون، فاجتمعت اللجنة اجتماعاً متواصلاً، وقررت صعوبة التسوية في الامتحان بين كثير من الغرباء والمصريين، ووضعت عدة اقتراحات تقضي بتعديل القانون بإضافة مادة واحدة يُستثنى فيها الغرباء إذ يخضعون لمادة جديدة ترعى حالتهم العلمية من ناحية، وتُهيئ لهم سبيل العلم في منهج ميسر، وقد تم ذلك كله، وتُهيأ للطلاب نيل الدرجات العلمية دون ما يعوق من الاستحالات.

وقد تفرغ في ختام حياته إلى عمله الفقهي بلجنة الفتوى بالأزهر، زميلاً لنخبة من كبار الفضلاء ممن يمثلون المذاهب الأربعة على أرقى مستوى للتمثيل، فكان الشيخ الحجة الأول في المذهب الشافعي لأنه درس كتب المذهب دراسة مستوعبة، جعلته يلقي الحكم دون مراجعة، ثم يشير إلى موضعه من كتب المذهب المعتمدة، فيأتي الحكم بما أفتاه، يقول عنه زميله الكبير الشيخ حسنين محمد مخلوف المفتي السابق وممثل المذهب الحنفي في اللجنة^(١):

«ثم جمع الله بيننا أخيراً في لجنة الفتوى بالأزهر، فسزنا على الجادة، لا نحيد عن راجح المذاهب، وما رجحانه إلا بقوة أدلته، ولا نخرج عن التقاليد الصالحة في الإفتاء، ثم لا نبالي بعد هذا أغضب الناس أم رضوا ما دام في ذلك رضا الله تعالى ورضا الضمائر.

وقد كان رحمه الله حجةً ثبتاً في المذهب الشافعي، فكانت إذا عُرِضت عليه مسألة يُراد معرفة حكم المذهب فيها يبادرُ ببيانه بوضوح، ثم يطلب المرجع فإذا هو ناطق بما قال كأنما يحفظه عن ظهر قلب».

(١) حياة علم من الأعلام، ص ١٨٢.

وقول الشيخ مخلوف إنهما لا يُباليان أغضب الناس أم رضوا، يشير إلى ما كان من أمر الفتوى في إحدى مسائل الوقف، حيث أشارت بعض الجهات برأي معين له اعتماد في فتوى ترد به ببعض المذاهب، وجاءت الإشارة إلى اللجنة، فقمْتُ وجميع أعضائها على اختيار الرأي الراجح لا المرجوح، وكتب بعض المتسرعين في الصحافة يقولُ إن اللجنة تعتمد على آراء الفقهاء ولا تعتمد على الحديث النبوي، فثار الشيخ عيسى ثورةً عنيفة، وكتب يرد في قوة على المعارض، ويقول إن آراء الفقهاء لم تحدث من فراغ، وإنما اعتمد أئمة المذاهب على أحاديث نبوية ونصوص شرعية كانت مصدر الحكم، وعلى من يتحدث بالاستحقاق عن أئمة المذاهب أن يعلم أنه لم يقرأ عُشْرَ ما قرأه أحدهم من كتب الأحاديث، وأن اعتمادهم على الحديث أصيلٌ في بابهِ، لأنهم أئمة متخصصون.

كما أخذ عليه بعض الأساتذة في كلية الشريعة دوام زيارته المتكررة لقاعات المحاضرات مستمعاً ما يقوله الأستاذ ومناقشاً الطلاب والأستاذ حين تحينُ مناسبةً للنقاش، وقالوا إن ذلك ينقص من قيمة الأستاذ في عيون طلابه، حين يرون الشيخ يعارضه الرأي، ولكنَّ الشيخ أصرَّ على الزيارات المتكررة، قائلاً: «إن العلم أمانةٌ، وإنه لا يخجلُ حين يُعارضه تلميذه فيأتي بصوابٍ يصحح قوله، وأنَّ الأساتذة في أكثرهم فضلاء، ولكنَّ منهم من يتساهلُ في الإعداد، فإذا علم أن شيخ الكلية قد يزوره أمده الله بالعون فترك الكسل إلى العمل».

وأنا وقد قدَّر لي أن أكون عميداً في كلية أزهرية أعرفُ عن يقين أنَّ رأي الشيخ هو الأسد، وإذا كان القانون الجامعي الآن لا يُجيز أن تتكرَّر زيارات العميد على النحو السابق، فإنه أضرَّ بمصلحة الطالب إضراراً بليغاً، حيثُ لا تؤدَّى الأمانة لدى أقلية يعلمون أنهم مُحصَّنون بالدكتوراه، والدكتوراه وحدها، وقد كان الشيخ الجبالي يزور الأساتذة في كلية اللغة العربية على عهدنا، وما اعترض غير المقصّر، أما المجتهدُ فكان يُرحَّب ويستزید.

- ٢ -

لا أعني في هذه المقالات الحديث عن شخصيات الأعلام لمجرد السرد التاريخي، فذلك شيء هين يمكن الوقوف على عناصره من مصادر كثيرة، ولكني

أعني رصد التيارات الفكرية التي كانت الشخصية المتحدث عنها ذات أثر في اتجاهها، لأن معرفة التيارات التي تلاطمت في عصرنا الراهن تضع كل إنسان موضعه الحقيقي دون انتقاص أو تزئيد، والأستاذ عيسى منون كان أحد الذين واجهوا تيار الانحراف الديني، واحتمل عاصفةً شديدة من عواصف النقد المتسرع الذي يحاول المعارضون أن يُسكتوا أصوات الحق، وقد كان يعلم جيداً أنه سيواجه قوماً يجدون الترحيب السريع من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية كي يرموا خصومهم بما يتخيلون، كما يعرف أن هذه الصحف التي ترحب بهؤلاء المدفعين، تشجّع عن نشر الرد المعارض، وإذا نشرت بعضاً منه عقت عليه بما لا يخدم الحقيقة، وتركت لأنصار الفكر المعارض أن يتحدثوا كما يشاؤون!

لقد قام أحد المدرسين في كلية أصول الدين بنشر حديث عن الصيام في رمضان، وقّعه بإمضاء وظيفته الأزهرية، وكان الحديث صادماً للمتعارف من الحقائق البديهية، وجاءت الاحتجاجات الصاخبة من شتى بقاع الإسلام تتساءل عن دور الأزهر في إيضاح اللبس، وإزهاق الباطل، فكتب العلماء ما وضح الخطأ، ولكن المدرس المتسرع ردّ عليهم لا لينقض ما ساقوه من الرأي العلمي، والدليل الفقهي، بل ليرميهم بالجمود، والبعد عن روح العصر، ويصفهم بالكهنوتية التي تكتم الأفواه! والمعتدل من هؤلاء ذكر أن للرجل أن يخطأ كما يشاء، وأن حقّ الخطأ لا يعارض فيه عاقل، فالمجتهد مأجور أصاب أم أخطأ، وصاحب هذا القول هو الدكتور طه حسين ذو التأثير القوي بين القراء، لذلك قام الأستاذ عيسى منون بتنفيذ كلّ ما يخرج عن المنطق من شطط، وأرسل ردّه إلى الجريدة التي نشرت كلام المدرس فلم تنشره، ثم إلى جريدة أخرى شاركت في الحملة على المدافعين عن الحقيقة الفقهية، فنشرت سطور مقتضبة، والرجل عضو جماعة كبار العلماء، وشيخ كليتي الشريعة وأصول الدين من قبل، فاضطرّ إلى أن ينشر بحثه المستوعب في مجلة الأزهر، ولم يكذّ يظهر البحث الفقهي الدقيق، حتى قوبل بالتهجم، ووُوجه الشيخ بمن يقول له إنك تقف حجر عثرة في سبيل التجديد.

وقد كان دخول الدكتور طه حسين في المعركة أحد البواعث الداعية لاشتعالها على نحو ممتد، فإن ما ذكره من الأدلة كان موضع المرمى الذي اتجه إليه الأستاذ عيسى منون، وبخاصة قول طه حسين: «إن صاحب الفتوى إذا كان مخطئاً فلا

مؤاخذه في الخطأ، فوق أنه مجتهد، والمجتهد المخطئ له أجر واحد، والمصيب له أجران، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، كما أن في الشريعة ما يُعرف بالتيسير ورفع الحرج!«.

يقول الأستاذ منون متسائلاً تحت عنوان (من له حق الاجتهاد) إن من عرف دقة الدليل (لدى الأصوليين) ظهر له أن الذي يستطيع الاجتهاد ليس كل من يمسك القلم^(١) «إنما يستطيعه المجتهد، وله شروط مبينة في أصول الفقه، منها أن يكون فقيه النفس، عالماً بعلوم العربية، وأصول الفقه، ومتعلق الأحكام من الكتاب والسنة، محيطاً بمعظم قواعد الشرع ومُمارساً لها، حتى يكتسب قوة يفهم بها مقصود الشارع، خبيراً بموقع الإجماع، واقفاً على الناسخ والمنسوخ.

أما قولهم لا كهنوتية في الإسلام، فإن أرادوا بالكهنوتية وجود رؤساء دين يحللون ويحرّمون، ويؤثّمون ويُعاقبون أو يعفون بآرائهم الخاصة من غير استناد للشريعة، فهؤلاء لا يوجدون في الإسلام، وإن أرادوا وجود علماء يعرفون الأحكام التي شرعها الله، وهم مكلفون ببيانها على الوجه الصحيح، ورؤساءهم أولياء أمور المسلمين، يحرسون الإسلام من عبث العابثين، ويُقيمون الحدود على المخالفين، فهذا موجود ومشروع.

وأما حرية الرأي والحجر على الأفكار فليس مما نحن فيه، لأنّي لا أظن أن أحداً يعقل أن تعدي الحدود المقررة يدخل في نطاق حرية الرأي، وأن زجر المخطئ عن خطئه يدخل في نطاق الحجر على الأفكار.

هذه خلاصة ما دار حوله رد الأستاذ، وإن كان بطبعه المحافظ قد ذهب مذهباً شاقاً، حيث حصر الاجتهاد الفقهي في استنباط الأحكام المستحدثة التي لم ينظرها السابقون لأنها لم تكن في زمانهم، مع أن الاجتهاد يجوز في الأحكام التي اجتهد فيها السابقون اجتهاداً لا يستند إلى نص من كتاب أو سنة، وإنما كان محض تفكير إنساني قد يصيبُ مرماء، وقد يجد الاعتراض، وهنا يكون الاجتهاد في هذه الأحكام شيئاً طبيعياً لا خطر فيه، بل هو موضع الترحيب وبهذا الموقف الذي ارتضاه الأستاذ

(١) مجلة الأزهر (شوال سنة ١٣٧٤هـ).

من الاجتهاد في الأحكام السابقة، انفسح باب النقاش، وهو خير كله، ولكنّ ممّا لا خير فيه أن نترك المقول إلى القائل نفسه، فنتهجم عليه بما لا يفيد الجدل في شيء، وهذا ما وقع فيه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي حيث ترك موضوع الجدل وهو (الصيام في رمضان) إلى نقطة عَرَضِيَّة تعرّض لها الشيخ عيسى فأدار حولها نقاشاً لم يكن من باب المجادلة بالتي هي أحسن حيث بدأ حديثه بقوله «إن خطأ الشيخ عبد الحميد بخيت يهون في جانب هؤلاء» يعني الشيخ عيسى ومن نحا منحاه، وتورّط فرماهم بالجمود! والمسألة التي شغل الأستاذ الصعيدي نفسه بالرد عليها مسألة خلافية، ولكلّ وجهة في حكمها، فإذا ذهب الشيخ بالدليل الذي صحّ لديه إلى ما لم يذهب إليه الأستاذ الصعيدي، فليناقش رأيه، وليعلن خلافه، أما التجريح والتهوين من أساتذة يكبرونه سنّاً وسابقة في البحث فما أظنّه ممّا يليق.

وإذا كان الشيخ قد درس فقه الشافعية في الأصول المعتمدة درساً جعله عمدة زملائه في هذا الباب، فإن غيرته الشديدة على كل ما ينسب للشافعي من خطأ جعلته يهاجم بشدة من يقررون ذلك دون حجة ظاهرة، وقد نشرت جريدة السياسة بحثاً عن الإمام الشافعي لبعض الحقوقيين الذين لم يدرسوا فقه الشافعي دراسة كافية للحكم، وكان فحوى هذا البحث بطلان ما ذاع من أنّ للإمام مذهباً جديداً أقتره في مصر يُخالف بعض الأحكام التي سبق أن قررها في بغداد، وحجة الكاتب أنّ الشافعي رضي الله عنه قد عاش في مصر أربع سنوات وعدة أشهر وعاش في غيرها أكثر من خمسة وثلاثين عاماً يُدلي برأيه الفقهي أثناءها، فكيف يتمّ له أن يأتي بمذهب مخالف في هذا المدى القصير، كما ضعف الكاتب ما أشيع من أن للشافعي رأيين قالهما في وقت واحد، وبصدد حكم واحد، جازماً بأن ذلك لا يُعقل من إمام كبير.

ولم يكن الشيخ قد اطلع على ما جاء بجريدة السياسة حتى نَهيه بعض تلاميذه إلى ما نُشر دون أن يُقابل بالرد، وقد قرأ الشيخ المقال، ورأى أن ينقده ببحث فقهي مستوعب يجعله مستقلاً في موضوعه، دون أن يشير إلى باعته، لأنّ ذكر الأسماء مما يُحدث اللجاجة والتعصب دون أن يرجع على البحث بشيء ذي بال، ومن هنا نهض لكتابة بحثه المركز تحت عنوان (بيان القديم والجديد من مذهب الإمام الشافعي) فبيّن أن الحيلة كانت دائماً من دَيْن الإمام، وأن رُجوعه عن بعض آرائه السابقة أثر من آثار هذه الحيلة، بل طلب من تلاميذه أن يرجعوا عن رأيه، إذا

وجدوا حديثاً نبوياً يخالف مذهبه ولم يقرأه الشافعي من قبل، ومن هنا طارث عنه هذه الجملة الذائعة (إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي)، ثم أراد أن يحصر الجدل مع كاتب السياسة في سطور موجزة لا تقبل الخلاف فذكر قول الإمام النووي في المجموع: «واعلم أنَّ قولهم القديم ليس مذهباً للشافعي أو مرجوعاً عنه، أو لا فتوى عليه، المرادُ به قديمٌ نُصَّ في الجديد على خلافه، أمّا قديمٌ لم يخالفه في الجديد أو لم يتعرض لمسألته في الجديد فهو مذهبُ الشافعي واعتقاده ويُعمل به، ويُفتى عليه، فإنَّه قاله ولم يرجع عنه».

وهذا النص يدحض قول من يرى أن معنى الجديد ضياعُ خمسةٍ وثلاثين عاماً من اجتهاد الشافعي في أحكامه، لأنَّ هذه الأحكام صحيحةٌ صحيحةٌ ما لم يتعرض لها الشافعي بتصحيح، وهما بالنسبة لما تعرَّضَ له ذاتُ حيزٍ قليل.

نعم، إن الشافعي قد دوَّن أكثر كتبه في مصر، وقد تلقى عنه مؤلفاته الكبيرة أمثالُ أبي يعقوب البويطي، وأبي إبراهيم المزني، والربيع بن سليمان المرادي، وحرملة، والربيع الجيزي، ويونس بن عبد الأعلى، وعبد الله بن الزبير المكي، وكلهم نُبهاءٌ فقهاء، ولكن هل كلُّ ما أملاه عليهم من أحكام مذهبه يغيّر ما سبق أن قال به!

نعم، إن هذه المؤلفات يطلق عليها المذهب الجديد باعتبار زمنها المتأخر، لا لأنها نسخت الأحكام القديمة، فدعوى كاتب السياسة لا تستند إلى دليل..

أما ما احتج به من استبعاد الرأيين المختلفين في وقت واحد، فهو أمرٌ لم يغب عن الفقهاء من حَفَظَ مذهبَه، فقد ذكروا احتمال تكافؤ الأدلة بين الحكمين فلا ترجيح، كما ذكروا أن هذا قد وقع منه في مسائل أحصيت فلم تزد عن عشر مسائل، والتوقف هنا دليلٌ حذرٌ متيقظ لأنَّ الإمام قد رأى صحة الرأيين معاً، ومثلوا لذلك بحكم وقوع ما لا نفسَ له سائلةٌ من الماء ثم مات به أينجس الماء أم لا؟ وهي أولُ مسألة في كتاب (الأم) ذات قولين!

وفي ختام هذا البحث القيم تفسير حسن لحكاية القولين عن الشافعي، ومن أعجب ما قيل في ذلك أن بعض الألفاظ الصادرة عن الإمام حينئذ قد تختلف مع اتفاق معانيها من وجهٍ واختلافها من وجه! وهو ما لا أتصوِّره، وما كتبه الأستاذ عيسى في هذا الباب دقيق موجز، وقد يحتاج إلى بسط، ولعلَّ طول إلفه لكتب

الأقدمين الموجزة قد حمله على الإيجاز، ولكن العصر غير العصر، والقراء غير القراء!

وأختم القول بالحديث عن بحث الأستاذ عيسى منون الذي أرخ به علم التوحيد، وهو تاريخ لم يتبع به أحداً من الكاتبيين، حيث استقلّ باتجاه خاص بدأه بتعريف العلم المشتهر في كتب الأزهر، وهو أنه العلم بالعقائد الدينية المكتسب من الأدلة اليقينية، ونصّ على أن المراد بالعقائد هي عقائد الدين الإسلامي ليكون علم التوحيد خاصاً بالأمة الإسلامية، وهذا لا خلاف عليه، أمّا القول بأن المراد بالعقائد المستندة إلى الأدلة الشرعية عقائد أهل السنة فحسب، فهو ما قاله قوم، ولكن الشيخ رجّح أن تكون العقائد عقائد جميع الفرق الإسلامية وهو الاتجاه المنطقي، إذ لو اختص علم التوحيد بعقائد أهل السنة، ما كان له هذا الاتساع الفكري في الجدل، وأهل السنة أنفسهم مختلفون بين سلفيين وأشعرين وماتريديين فأيتهم المعني إذن؟ إذا قصرنا العلم على اتجاه واحد؟

أما الطريق في هذا البحث فهو ما انتهى إليه الدارس حين حدّد الفرق بين الفيلسوف وعالم الكلام، إذ وقف عند قول الدكتور أحمد أمين في (ضحى الإسلام): «إن موقف المتكلم موقف محام مخلص، اعتقد صحة قضيته، وتولّى الدفاع عنها، يصوغ لها من الحجج والأدلة ما يؤيدها، أما موقف الفيلسوف فموقف قاض عادل تُعرض عليه قضية لا يكون فيها رأياً حتى يسمع رأي هؤلاء وهؤلاء، ويزن ما سمع بميزان دقيق غير متحيّز».

فقال الشيخ^(١): «وقوله يقتضي أن موقف الفيلسوف أجلّ من موقف المتكلم، ولا يخفى أن ذلك لا يقصده حضرة المؤلف ولا يرضاه» ثم خاض الشيخ في كلام جيّد انتهى إلى قوله: «إن المتكلم يثبت العقائد الدينية لنفسه بالحجج القطعية التي وصل إليها بعقله المطمئن لحكمه، بعد الاسترشاد بكلام ربّه، ثم يُعلّمها لغيره بحججها التي وصل إليها فهو إذن ليس كموقف المحامي المخلص من قضية اعتقد صدقها فصاغ لها من الحجج ما يكفي لإثباتها ضد الخصوم، لأن ما يدافع عنه هو قضيته ورأس ماله، يريد أن يثبتها لا قضية سواه».

(١) حياة علم من أعلام الإسلام، ص ٦٧ وما بعدها.

وهذا الفرق طريف في بابه، ولم أقرأه من قبل، ولكن لي أن أتساءل: لماذا لا يجتمعان في شخص واحد، فيكون عالم الكلام فيلسوفاً في بعض أحواله، ويكون الفيلسوف عالم كلام، وكلاهما يهتدي بالعقل قبل أن يختصّ عالم الكلام بالنقل، إذ أن دليلهما يركز إلى المنطق العقلي، ويزيد الثاني على صاحبه اعتماده على النقل مع ما ساق من حجج العقل!

ويخيل إليّ أن هذه المحاضرة القيمة عن علم الكلام كانت فاتحةً لكتاب اعترم الشيخ تأليفه، لأنه رسم خطة التأليف في آخر البحث^(١) فقسمه إلى خمسة أبواب يتحدث الباب الأول عن عقائد الأمم قبل الإسلام، ويتحدث الباب الثاني عن العقائد الدينية في عهد النبوة وما تلاه من عهد الصحابة والتابعين، ويتجه الباب الثالث إلى الفرق الدينية حتى عصر أبي الحسن الأشعري، أما الباب الرابع فيختصّ بما بعد الأشعري حتى الغزالي، ويمتد الباب الأخير من الغزالي إلى عصرنا هذا، ولعلّ الرجل الهادئ كتّب كتابه ولم يُخرجه للناس، كما فعل في شرح (المهذب) في الفقه، إذ واصل ما كتبه الإمام النووي في كتاب المجموع ومن بعده السبكي، فكتب شرحه مُبتدئاً بما انتهيا إليه، وترك ما قام به مخطوطاً وهو يقع في مئة كراسة، كلُّ كراسة تشمل أربعين صفحة أي أنّ ما كتبه الشيخ قد انتهى إلى أربعة آلاف من الصفحات^(٢)، ولو لم يكن للشيخ غير هذا الأثر الضخم لكان كافياً لإمامته الفقهية.

يقول ولده بصدد هذا الكتاب، وهو أحد مؤلفي كتاب (علم من أعلام الإسلام):

«أما طريقته في البحث وسعة الاطلاع وجمعه، فإنّا نشهد أنه لو تمّ على ما كان يرغبه الشيخ ويريد، لحقّ لنا أن نفخر بأن أيامنا هذه قد وُجد فيها علماء يسامون الأوائل [يريد النووي والسبكي] ويبارونهم، ويقفون منهم موقف التّد، والأمل عظيم أن يتاح لنا إخراج ذلك العمل ليتم به النفع».

وقد انقضى على رحيل الشيخ سنة ١٩٥٧م قرابة أربعين عاماً، ورَحَلَ ولده الأستاذ محمد عيسى منون من بعده وكان من خيرة مدرّسي المعاهد الأزهرية، وله

(١) المرجع السابق، ص ٧٤.

(٢) حياة علم من أعلام الإسلام، ص ٤٨.

تحقيقاً على كتاب نقد الشعر لقدامة، ولم يستطع أن يطبع هذا الأثر الجليل، ولعلّه أودعه المكتبة الأزهرية مخطوطاً، ليكون لنا في ذلك بعض العزاء!

لقد كان الشيخ عيسى متواضعاً في خلقه الهادئ الوادع، وقد جرّه التواضع إلى إهمال أعظم أثر فقهي قام به، فلم يعمل على نشر ما كتبه جزءاً جزءاً، وهو في حاجة إلى هيئة علمية تقوم على نشره ليصبح لبنة وطيدة في صرح مكين . .

* * *

السيدة لبيبة أحمد صاحبة مجلة (النهضة النسائية)

لم أكن متنبهاً إلى مكانة هذه السيدة الممتازة حقاً، قبل أن أقرأ مقالاً جيداً نشر بجريدة الجمهورية الصادرة في ٢٧ مارس سنة ١٩٦٥م تحت عنوان (لبيبة أحمد . زعيمة حقيقية) والحق أنني لا أميلُ بسرعة إلى تصديق أكثر ما تنشره الصحف اليومية عن بعض القيادات النسائية، لأنني أشم رائحة الافتعال في أكثر ما أقرأ، فهناك سيدات تُسلط عليهن الأضواء، وتنسب لهنّ الزعامات، لأنهن يتصدرنّ الحفلات البرّاقة، ويقمن بالدعاية لأعمال تنسب إلى البرّ والإحسان وهي في صميمها فقاعات رغوية تظهر لتختفي، بل إن الصلات الشخصية، والارتباطات العاطفية تجعل ممّن لا يجذّن شيئاً غير الظهور بالمظهر الأنيق مجاهدات باسلات، بل وصاحبات مقالات اجتماعية تُوقّع بأسمائهن، حين لا تستطيع إحداهن قراءة ما يكتب باسمها فضلاً عن تدبيجه، لذلك أخذت موقف الحذر مما قرأت في جريدة الجمهورية .

ثم عنّ لي أن أبحث عن الحقيقة فيما أشارت إليه الجريدة من مصادر، فتأكدت أن الجريدة كانت صادقة، وأنها لم تذهب مذهب الدعاية العريضة فيما تحدثت به عن الكاتبة المجاهدة (لبيبة أحمد)، وبمداومة البحث فيما تركت من آثار عملية وعلمية عرفت أنّها حلقة في سلسلة النهضة النسائية الصادقة التي ابتدأت في مصر بعائشة التيمورية ثم بملك حفني ناصف ثم لبيبة أحمد، وكان صوت (عائشة) على أصالته متواضعاً هامساً لأنها كانت بشارة هذه النهضة، أما صوت (ملك) فكان جهيراً لأنها تمثل الضحى المشرق بعد الفجر الوامض، وتظاهرت أمور شاذة جعلت تاريخ (لبيبة أحمد) يضيع في خضم المجاملات الزائفة، لأنها لم تكن ربة صالون ولم تسمح لنفسها أن تتخذ وسائل الإغراء مما يجعل صورها وأحاديثها تنتشر في

المجتمع النسائي المصري على نحو ما نعرف عن بعض الشهيرات الذائعات!

وحين تُؤرخ النهضة النسائية الحقيقية في سِير صاحبات الاتجاه الرصين، والهدف القاصد، نجد لبية أحمد تحتلّ القمة البارزة! وكي أتابع نشوء هذه النهضة منذ بذرتها الأولى في أرض الإصلاح أعود إلى الزعيمة الأولى عائشة التيمورية، فأذكر تربيتها الجادة في أسرة تعتز بالإسلام اعتزاز المترفع عن الدنايا، الهائم بثقافة القرآن وآداب العربية، فوالدها إسماعيل تيمور من سراة الفضل والمروءة قبل أن يكون من ذوي الحسب الأصيل، والجذر الثابت، وأخوها أحمد تيمور علّم الثقافة الإسلامية وواعية التراث العربي، الجامع له من شتى المصادر المتباعدة يُنبئان عن اتجاهها الإسلاميّ البصير، فقد أحضر لها الوالد الحضيفُ مَنْ دَرَسَ لها فنون العربية والفارسية والتركية! وقد برزت في نظم الشعر العربي قدر ما يسمح لها عصرها الأدبي، إذ لم تكنْ آداب العربية قد نشطت في طريق التجديد إلى المدى الذي صارت إليه من بعد، كما قرأتُ دواوين الشعر العربي قراءةً دَفَعَتْها إلى إنماء موهبتها الكامنة في أعماقها، فأصبحت شاعرة عصرها، شاعرة ذات هدفٍ سامٍ تُمليه أصول التربية الصحيحة التي وقفت عليها، وشعرها ينبئ عن هذا الاتجاه، وقد فاخرت به وباهت حين قالت:

بيد العفاف أضونُ عز حجابي	وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقادة وعزيمة	نقادة قد كملت أدابي
ما ضرنني أدبي وحسن تعلمي	إلا بكوني زهرة الألباب
ما ساءني حذري وعقد عصابتي	وطرازُ ثوبي واعتزاز رجابي
ما عاقني خجلي عن العلياء ولا	سذل الخمار بلمتي ونقابي
عن طي مضمار الرهان إذا اشتكت	صعب السياق مطامح الركاب!

وهي أبيات تنم عن طابعها الخلقي، واتجاهها المتصوّن، وقد كانت المعلّمة الأولى لباحثة البادية حيث قامت هذه الكاتبة الفريدة بأداء الرسالة التي نادَتْ بها عائشة في أبياتها الموجزة، وقد فصلت الحديث عن هذه الرسالة فيما كتبتُ من قبل عن باحثة البادية^(١)، فليرجع إليه القارئ الكريم.

(١) النهضة الإسلامية: ٢/ ٢٢١ ط. دار القلم.

وحين انتقلت عائشة إلى رضوان الله بكتها باحثة البادية بقصيدة حارة قالت فيها^(١):

سبقى بعد عائشة حيارى	كسرب في الفلاة بدون راعٍ
لها القدحُ المعلّى في المعالي	وفي نشر المعارف طول باعٍ
فما خير النساء بلا	خلافٍ وقُدوتنا بلا أدنى نزاعٍ
لقد أحييت ذكر نساء مصر	وجددت العُلا بعد انقطاع
وشدّت صُروح طهرٍ باذخات	محضنةً كتحصين القلاع

لهذه الغاية النبيلة في إنهاض المرأة المسلمة مستتة بآداب الإسلام، لم تجذ لها بعد باحثة البادية من راعية أمينة على آدابها غير السيدة (ليبية أحمد) وقد وُلدت في سنة ١٨٧٥م في أسرة كريمة، وأخذت تتعلم دروس العربية على أيدي سيدات فضليات اشتُهرن بتعليم بنات الأسر الكريمة، فهي في ذلك شبیهة بعائشة التيمورية، غير أنها التحقت بالمدرسة السنية، بعد أن استكملت دراسة السيرة النبوية وآداب الشريعة في منزلها، فكانت كباحثة البادية ذات صلة وثيقة بمعارف الإسلام، وأخذت تكتب في الصحف كلمات هادفة بتوقيع مستعار، إذ كانت ترى الشهرة الأدبية ذات عناء مكلف، ولكن الجمهور الأدبي كان يعرفها حق المعرفة، و ينتظر كلماتها الصائبة، وإذا كانت فترة الاحتجاب الأدبي قد امتدت بها حتى جاءت ثورة سنة ١٩١٩م، فإنها رأت من الضرورة أن تدع العزلة جانباً، وتنضم إلى الثورة الوطنية مع هدى شعراوي ونبوية مرسى! وبجهود هؤلاء قامت المظاهرة النسائية يوم الأحد ١٦ مارس سنة ١٩١٩م احتجاجاً على فظائع الإنكليز في مقاومة الثورة وتنديداً بقتل الأبرياء، وإطلاق النيران على المتظاهرين في تجبر غاشم.

والحق أن هذه المظاهرة كانت غصبة كبرى لفتت أنظار العالم كله إلى مكانة المرأة المصرية، وكان في طليعة المتظاهرات سيدات يتسبن إلى أكبر الرؤوس السياسية والعلمية في مصر إذ تقدمت المظاهرة حرم كل من محمود سامي البارودي، وحسين رشدي، وسعد زغلول، وقاسم أمين، وغيرهن، إذ اكتمل عددهن في ثلاثمئة سيدة، أشار عبد الرحمن الرافعي إلى بعضهن، وترك بعضاً آخر، وكان نجاح المظاهرة سبباً في تأليف الاتحاد النسائي بزعامة السيدة هدى هانم

(١) آثار باحثة البادية، ص ٣٠٤.

شعراوي، وهنا نجد طريقتين مختلفتين في سير النهضة النسائية بمصر، طريق الاتحاد الذي تزعمته السيدة هدى هانم شعراوي، وهو طريق يتخذ الطابع السياسي متأثراً بظواهر التمدن الأوروبي، وداعياً إلى تقاليد لا تنبع من صميم الأعراف المصرية.

أما الطريق الآخر فطريق التربية الإسلامية الصحيحة التي تعتمد على أصول الشريعة وأخلاقيات القرآن الكريم، وكان الظن بهذا الطريق أن يجد التأييد التام من ربّات المنازل، وعقائل الأسر، ولكن الصحافة المغرضة فسحت باب الدعوة إلى السفور والاختلاط، وجعلت التقدم النسوي وفقاً على احتذاء المرأة الأوروبية، وقدّمت سيرة للشهيرات منهنّ، إذ جعلتهن نجوم المجتمع المتحضّر، والمرأة الأوروبية طبيبة ومهندسة ومربية وكادحة في أكثر أحوالها، وهؤلاء لم تغبأ بهنّ صحف الإغراء إذ اقتصرن على سيرة المتبطلات من نجوم السينما ومنازل اللهو وحفلات الإغراء، وقام نفر من الكتاب بتأييد هذا الاتجاه، ومحاربة أصول الاحتشام وكأنّها مدعاة تأخر المرأة المسلمة بعامّة، والمصرية بخاصّة، كما أسيء فهم ما كتبه المرحوم قاسم أمين في كتابه (تحرير المرأة)، و(المرأة الجديدة)، إذ لم يدع الرجل إلى التبرج السافر بل دعا إلى العلم والتربية، في ظلّ العفاف والتصون.

وفي هذا الجو العاصف بشتّى الآراء المغرضة رأت السيدة لبية أحمد أن تُنشئ مجلة (النهضة النسائية)، فدعت من يوافقونها في الاتجاه إلى عدّة اجتماعات بمنزلها الشهير بالسبتية، وجعلت هذا المنزل مقراً لجمعية أشمته (جمعية نهضة السيدات المصريّات) لتقف بها أمام حفلات الصالونات الأرستقراطية التي تجتذب سيدات المجتمعات إلى تقاليد السفور الكاشف، والإسراف المتبذل، مما أخذ مظهر التقدّم النسوي المعاصر في عيون كثير من الناشئات في سنّ المراهقة والشبيبة المتحضرة، وكان كفاح الجمعية شاقاً لأنه قوبل بسخرية أقلام لا تودّ للمرأة اتزاناً هادئاً، بل تودّ أن تقذف بها في لجج الحيرة والاضطراب، ولأصحاب هذه الأقلام مجلات مصوّرة ذات بريق وانجذاب، وقد تألّقت على صفحاتها من داعيات التبرج من أطلق عليهن نجوم المجتمع!

أجل كان كفاح جمعية نهضة السيدات شاقاً، وقد أخذ خطواته الأولى في جمع التبرعات لإنشاء (دار اليتيمات) حيث يؤمها من فقدن العائل من البنات الصغيرات،

فيجدن الرعاية التامة غذاء وكساء وتربية وثقيفاً، وهو عملٌ لم يجد من الدولة - على أهميته البالغة - أذنى مراتب التشجيع، وإنما وجد من السيدة لبيبة أحمد وصديقاتها الكريمات من مدد يد العون في سماحة. وكان تخرج هؤلاء الفتيات من الدار بعد أن تزودن بالمعرفة، وحصلن على ما يؤهلهن للكسب من طريق الحياكة والتطريز وصنع المأكَل المرغوبة، كان تخرج هؤلاء الفتيات ونجاحهن في مقاومة الحياة الكادحة، أكبر ثمرة دالة على العمل الجاد! وقد نهجت المدارس المصرية فيما بعد ما يقرب من هذا النهج حين أنشأت مدارس الفنون الطرزية والاقتصاد المنزلي وغيرها. ثم تطور التعليم الفني للفتاة إلى ما نراه الآن!

فاتني أن أذكر بصدد الحديث عن ثورة سنة ١٩١٩م، ومساهمة فضليات النساء بها، أن السيدة لبيبة أحمد أرادت أن تشعل الجذوة الوطنية في نفوس الطالبات بالمدارس المصرية، وكان لها ابنتان نابغتان، فحرصت على أن تحضر زميلتهما في مدرستهما إلى منزلها بالسبتية، ليعرفن واجبهن الوطني، وكان مما تحدثت به أن بعض السيدات اللاتي لم يتعلمن في مدرسة نظاميه قد ثرن على المحتل الإنكليزي وفتحن صدورهن للرصاص فمئن شهيدات، ومنهن السيدات: شفيقة محمد، وعائشة عمر، وحميصة خليل، وفهيمية رياض، وهذا مثال رائع لفتائهن، كما دعت إلى إسهام السيدات في تشجيع حركات الإضراب الخاصة بالموظفين، فكن يقفن على رؤوس الشوارع ليحرزن من سمحت نفسه بالذهاب إلى عمله على الإضراب الوطني استجابة للرأي العام، وقد بلغ بكثير منهن أن حملن بعض الزاد هديةً منهن لمن يلحظن عليهم مظاهر الفاقة، وطبيعي أن تكون ابنتا السيدة في طليعة الوطنيات ذوات الموقف الحاسم، فأحدهن وهي الطالبة (قمر) كانت تلميذة بمدرسة عياش الثانوية، فجمعت الطالبات في الفسحة الأولى، وخطبت فيهن كي يبلغن أولياء أمورهن ضرورة المقاطعة التامة للجنة (ملتر) التي جاءت للمفاوضة بعيداً عن الوفد المعتقل خارج البلاد بزعامة سعد زغلول.

وحين علمت ناظرة المدرسة (مسز موريسون) وهي إنكليزية تتمتع برضا المعتمد البريطاني ثارت ثائرتها، ودعت والدتها لتكتب تعهداً عليها بأن تمنع كريمتها من الاشتغال بالعمل السياسي لأنها طالبة فقط، فقالت السيدة لبيبة في جرأة متزنة، إنني أنا التي دفعتها إلى ذلك، وليس من المعقول أن أكون من قادة النهضة النسائية في

مصر، وأمنع ابنتي أن تدعو زميلاتنا إلى ما أدعو إليه، وكان بعض المفتشين من الإنكليز حاضراً يستمع، فأشار على الناظرة أن تهدأ، وخرجت الوالدة معتزةً بابنتها، ورأى الزائر الإنكليزي أن تُغَيِّضَ الناظرة عن تظاهر الطالبات لأنهن محصورات في فناء المدرسة، وإذا شاع اتخاذ عملٍ مضاد ضدهن، فإن العدوى ستنتقل إلى مدارس البنات الأخرى، فاستجابت الناظرة على مضض!

هذه قمر البنت الكبرى، أما أختها زينب (عميدة كلية الفنون فيما بعد) فقد كانت طالبة بالسنة الأولى في المدرسة السنية، فأحضرت علماً صغيراً لمصر ووضعت على الجدول المدرسي بحجرة الدراسة، لتواجه مدرّسة اللغة الإنكليزية وهي بريطانية لا تطيق سماع كلمة ما عن ثورة سنة ١٩١٩م، فلما رأت العلم فوق الجدول، سألت في غضب: من قام بهذا العمل؟ فتقدمت زينب واثقة من موقفها، وقالت: علمٌ بلادي في مدرسة من مدارس مصر العزيزة، فصاحت المدرسة: علم بلادك ضعيه فوق رأسك أو تحت قدمك، ولكن لا صلة له بجدول الدراسة، فقالت زينب: علم بلادي فوق رأسك ورأسي، لأنك موظفة بمصر تنالين رزقك منها، وصفتت الطالبات، فانسحبت المدرّسة، وجاء الأساتذة فكلّموا الطالبات في هدوء لتتم المصالحة دون إجراء قد يُعقب ما لا تُحمد نتائجه. ولكنّ العلم ظلّ باقياً! كما اشترطت الطالبات!

أمّا أظهر ما نجحت فيه السيدة لبيبة في هذه الفترة فهو دعوتها إلى مقاطعة الملابس الإنكليزية، وكان كثير من السيدات يرونها مظهراً من مظاهر الوجاهة، ويُقبلن على شرائها متحمسات، فجاءت دعوة لبيبة بمثابة ناقوس يُجْلجل فيقرع الأسماع، وقد استجاب لها الكثيرون.

إن أكثر الأعمال المجيدة للشخصيات المتواضعة تُنسب بعد حين، لأنّ صاحبات هذه الأعمال لا يسعين إلى تخليدها بترداد الحديث عنها، كما تفعل مَنْ تغشّقن ذواتهن، فيُطلن الحديث عن مواقف مسؤومة بالتركار، لذلك كانت الأعمال المطبوعة أبقى أثراً، وأكثر ذيوعاً، وهي بتسجيلها في الصحف والأوراق مصدرُ خلودٍ حيٍّ، وآية دالةٌ على النضال الصادق، فهي وثائق مشتهرة، ومن هذه الأعمال الخالدة مجلّداتُ مجلة النهضة النسائية، التي بلغت العشرين، إذ واصلت المجلة رسالتها الرائدة عشرين حجة لم تنقطع عن الصدور في هذا الأمد أسبوعاً واحداً،

ومجلداتها محفوظة في دار الكتب، ليرجع إليها من يريد أن يقف على السلوك الملتزم في مجلات (المرأة) بمصر، كما يستطيع الدارس المقارن أن يرجع إلى مجلات نسائية أخرى واكبت مجلة النهضة النسائية ليعرف اختلاف المشارب، وتنوع الاتجاه بين صحف تلتزم، وأخرى تتحلل!

لقد كان من محنة الصحافة النسائية في العالم العربي أن أكثر من يُصدرونها يبحثون عن الرواج بالصور الخادعة والأخبار المثيرة، والقصص العاطفية، فإذا عَوَزَهُمْ أن يجدوا المادة الوفيرة لديهم في مجتمعهم العربي، انطلقوا إلى المجلات الغربية يترجمون عنها ما يخيّل إليهم أنه يجذب الانتباه، وأنت تقرأ - ولا زلنا نقرأ إلى الآن - ما يصدر من هذا النوع من مجلات المرأة فماذا نجد؟ نجد صور الأزياء الخادعة، الساترة الكاشفة في آن واحد، تحتل صفحات شتى، فصورة - مثلاً - للمرأة الجميلة تتخذ أوضاعاً شتى يزعم الزاعمون أنها تعرض الملابس مع أنها تمتد إلى مغريات هابطة يعرفها القارئ والناشر معاً! ثم تجد أخبار الممثلات وكأنهن كل شيء في الحياة، حتى كأن من المفروض أن يعلم القارئ عن هؤلاء ما تلبس وما تأكل، وفي أي مكان تنزه؟ وفي أي مأوى تبيت؟.

وفي الغرب والشرق عالماً فاضلاً، ومربيات مجتهدات يؤدّين واجبهن العلمي في رسوخ وأمانة وهن مُثُلٌ كريمة لحواء! ولكن أصحاب هذه المجلات لا يُسْزَن إليهن في شيء! وكأنهن لسن من بنات حواء! كما لا يخلو عدد من حديث عن مطالب المرأة السياسية، وكأن العالم سينقلب رأساً على قدم إذا لم تكن المرأة وزيرة أو نائبة! وما قد وصلنا إلى عهد صارت فيه المرأة وزيرة ونائبة؟ فهل أفاد ذلك شيئاً في راحة المرأة النفسية؟ وهل أسكت من يطلبون المزيد من المطالب الخادعة! كل ذلك لم يكن! إنما الذي كان للأسف هو امتهان المرأة في الأعمال الشاقة، وفساد البيت حين خلا من الأم طيلة النهار!

وقد آن أن أتحدث ببعض التفصيل عن مجلة النهضة النسائية، ولكن ماذا عسى أن أقول هنا عن عشرين مجلداً كبيراً تضم ما صدر في عشرين عاماً، إذ تحتاج إلى دراسة مستوفاة في رسالة جامعة هادفة، لقد وقفتُ أمام هذه المجلدات حائراً، لا أدري ماذا آخذ وماذا أدع، ولكن تصفحي السريع لأكثرها جعلني أتنسم روحها الإصلاحية ممثلاً فيما تكتبه صاحبة المجلة في مقالاتها الافتتاحية الملتزمة، وفيما

يكتبه كبار الكتاب بها من أمثال مصطفى صادق الرافعي، ومحمد صادق عنبر، وشكيب أرسلان، وفريد وجدي، ومحج الدين الخطيب، وغيرهم من أصحاب الأقلام الصائلة في الميدان الإسلامي الفسيح؛ ثم ما عسى أن أقول في المختارات الأدبية والتاريخية التي تقتطفها المجلة من كتب التراث عن عظماء الإسلام تارة وعن مبادئه تارة أخرى مع روائع من ذخائر الشعر العربي مما يقرب بها أن تكون في بعض سماتها مجلة أدبية.

وإذا كانت السيدة لبيبة أحمد قد زاملت باحثة البادية في المدرسة السنية، وطالعت ثمارها الصحفية في جرائد العصر ومجلاته، ثم في ما جمعته من آثار تحت عنوان (نسائيات) فإن ما عالجت به باحثة البادية من بحوث نيرة تنزع إلى الإصلاح النسائي قد عالجت لبيبة أحمد في افتتاحياتها تارة، وفيما تختاره من المقالات المنشورة بأعداد المجلة، من خواطر ومعاني تدور حول ترقية المرأة المسلمة وتعليمها، والحجاب والسفور ومناهج التربية في مدارس البنات والزواج بمعضلاته المتشعبة، وما يجب أن تتسم به الزوجة الصالحة، وما يجب أن ينأى عنه الرجل من خصال الغضب والغيرة والطمع والتهديد بالفراق، وليس معنى ذلك أن الكاتبة الهادفة كانت تُتابع خطوات زميلتها لأنها لم تجد غير ما قالت من قبل، بل معناه أن مشكلات العصر قد امتدت من أوائل هذا القرن منذ شرعت باحثة البادية في تدبيح مقالاتها حتى أوائل الأربعينيات، فكان من الحتم على مجلة صدرت في أوائل العشرينيات أن تواصل السير وأن تكرر الطرق، وقد يتفق رأسُ الموضوع، كما يتفق أيضاً في استشهاده الدينية بآيات القرآن والحديث، ولكنه يختلف في طريقة تناول، وأسلوب التحليل، ومن هنا يندفع القارئ كثيراً إلى مطالعة عدة كتب في موضوع واحد ليجد في كتاب ما يعوزه في كتاب آخر.

ولعلي في مجال التمثيل أكتفي بالحديث عن مجلد واحد من هذه المجلدات العشرين، ليعطي النموذج الدال على بقية المجلدات، وقد مددت يدي عفواً إلى أحد هذه المجلدات فكانت أعدادُه مما صدر في سنة ١٣٤٩هـ الموافقة لسنة ١٩٣١م، وتحديدُ الزمن هنا ذو دلالة، لأن أزمة مالية عنيفة قد ألمّت بمصر حينئذ، فكان من بعض نتائجها انصراف كثير من الشبان عن الزواج، كما كان من نتائجها كثرة حوادث الطلاق، وهو خلل اجتماعي يتطلب العلاج الحاسم، ففاضت مقالات

هذا المجلد بتحليل هذه المسائل العائلية ورسم ما يراه الكاتبون من وسائل العلاج في ضوء المقررات الملزمة من نصوص التشريع، ولعلّي أبلغ بعض ما أريد من وقوف القارئ على اتجاه هذه المجلة حين أفعل ما قالته السيدة لبيبة أحمد في افتتاحية^(١) السنة التاسعة من مجلة النهضة النسائية، إذ أنّ ما قالته في هذا الصدد كان وصفاً دقيقاً لنهج المجلة في ماضيها السالف، وحاضرها التالي دون أدنى تزئد أو ادعاء، قالت الكاتبة الفاضلة:

«اليوم نواصل ما أخذنا على أنفسنا من عهد، هو خدمة المرأة المصرية خاصة، والشرقية عامة، بل نواصل العمل الذي بدأناه في خدمة أبناء هذه البلاد، ونسعى إلى ما فيه إصلاح لنسائنا. . اليوم نعاهد قراءنا على أننا لا بد أن نحارب أهل الضلالة، الذين يزيّنون لنا الغواية هدى، والظلمة نوراً، والمدنية الكاذبة صراطاً مستقيماً، والبدع الفاسدة علماً وتهذيباً، والذين يريدون أن ينالوا من الدين غايةً يضلون بها المسلمين، ويستهوون بمفترياتهم صغار العقول من المؤمنين، فإما انتصار قريب يزلزل أقدامهم، ويهوي بها إلى الحضيض، وإما جهادٌ طويل لا يأس معه. . على أني أجد بروحي وهي رخيصة في سبيل معوجٍ نقوّمه، أو فرض للبلاد وللدين نقدّمه؛ لا نخشى في الحق وإعلاء كلمته لومة لائم، ولا السيف ينزل على الرؤوس، ولا الرصاص ينفذ إلى الصدور.

اليوم تكون النهضة كسابق عهدها منبراً للمصلحين والمصلحات، والمرشدين والمرشدات، والناطقين بالحق والناطقات، والمدافعين عن الفضيلة والمدافعات، والمستكرين للرديلة والمستكرات.

اليوم كأمننا نُجاهر بالكلم الطيب لمن سعى لمصر، وكان سعيه مشكوراً. وبالتالي هي أحسن لمن أخذته سنة من الغفلة لعلّه يصحو، ويكون لمصر عوناً ونصيراً، ولعلّ الذين يريدون خير البلاد لا يضلّون على النهضة وقد علموا سبيلها بما يثبت قدمها، ويرفع شأنها، بل لعلهم لا يضطّون بنصحهم، ولا يبخلون بإرشادهم، فالمؤمن مرآة أخيه».

ثم يلي هذه الافتتاحية مقال تحت عنوان (التجارة الليلية للبنات ومعهد

(١) النهضة النسائية، يناير، سنة ١٩٣١م (السنة التاسعة).

التمثيل^(١) وهو مقال يدلّ على اعتدال النظرة، وصدق التوجه، إذ قررت وزارة المعارف حينئذ إنشاء مدرسة ليلية للتجارة خاصة بالبنات، كما قررت إنشاء معهد للتمثيل، فرحبت المجلة بالقرار الأول وقالت بصدد: «إن إنشاء مدرسة ليلية تتعلم فيها الشابات فنّ إمساك الدفاتر، والعمل على الآلة الكاتبة وطرق الحساب التجاري، وهنّ في حاجة إليه ليكسبن القوت من طريق شريف، ثم تساءلت المجلة عند من تشغل المتخرجات؟ أفي المحلات الأجنبية من أمثال (شيكوريل) و(شملّا) و(مارشيه)، وهؤلاء لا يستخدمون إلا الأجنبية؟ أم في المحلات المصرية وهي قليلة لا تسدّ حاجة ما، أم في وظائف الحكومة، وقد ضاقت ذرعاً بالرجال، ولم يجدوا بها ما يرتزقون بسببه؟ تلك هي الأسئلة التي وجهتها المجلة بلسان كاتبة من كاتباتها هي السيدة (كوثر صادق) ورأت الحل المناسب أن تبدأ الحكومة بإنشاء المشروعات الوطنية لتفتح باب العمل أمام الشباب والشابات معاً، كما دعت أصحاب الأموال أن ينشؤوا المصانع والمتاجر ولا يتركوا المجال للوافدين من الخارج! وكان ذلك موجوداً من قبل، قبل أن يتبدل الحال كما نعهده الآن!

أما معهد التمثيل فقد ذكرت الكاتبة أن المشروع في ذاته جليل، وأن البلاد في حاجة إليه، ولكن الفتاة المصرية لا يتفق مع كرامتها أن تكون ممثلة راقصة في جو مؤبوء بالمفاسد، مُتخَم بالمهازل، وليس من العيب أن تقف المصرية على المسرح تدعو إلى الفضيلة وتحارب الرذيلة، وتمثّل مكارم الأخلاق، فالممثلة معلّمة، ولكنها تعلّم الشعب، ودور التمثيل مدارس الرجال، أما الرقص مهما كان نوعه فلا نقؤه ولا يرضى به من كان في قلبه مثقال ذرة من الحبّ لهذا الدين، وإذا كان التمثيل ضرورة من ضرورات الرقي فلا نرى في الرقص رقيّاً ولا مدنية، ولكنه معولٌ يهدم الحياء والأنفة!!».

وهذا كلام يظنّه من غفل عن الواقع المرير تزمّناً، بل ربما رآه آية تأخر وجمود، ولكنّ الذي يرتفع عن الغرض الخبيث يعلم أن التجربة المريرة على مدى تسعين عاماً فأكثر لم تسمح براقصة ملتزمة، بل إن قضايا هؤلاء قد انتقلت من ساحات المسارح إلى محاكم القضاء في أحوال تُسيء ولا تسرّ، وقد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.

(١) النهضة النسائية، يناير، سنة ١٩٣١م، ص ٥.

وفي العدد نفسه - ولا زلنا في العدد الأول - بحثٌ عن مشكلة حساسة هي مشكلة الزواج الإجباري، وكان الموضوع مثار جدل عنيف في الصحف، إذ دعا بعض المصلحين إلى ضرورة إجبار من يستطيع الزواج جسماً ومالاً من الشباب على الزواج، فوجد من المعارضين من قطع عليه الطريق بأدلة اجتماعية يراها، ورأت مجلة النهضة أن تُقيم الوزن بالقسط بين هذه الآراء المتعارضة، فرأت أننا قبل أن ندعو إلى فرض الزواج فرضاً - وهو سنة مؤكدة في شريعة الإسلام - أن نعمل على توفير أسباب المعيشة للشباب، فإذا أُتيح للشباب مصدرٌ دائمٌ من مصادر الرزق فإنه سيبحث تلقائياً عن شريكة حياته، أما الزواج الجبري فقد يؤدي إلى الطلاق العاجل فتعاطم الكوارث بسببه .

ولا أترك هذا العدد دون أن أشير إلى كاتبة لامعة الآن، كانت في سن الثامنة عشرة حين فتحت لها مجلة النهضة صفحاتها، وكأنَّ السيدة لبيبة أحمد رأت بُرْعاً مزهراً علمت أنه سينشق عن زهرة ناضرة في القريب فأثرت أن تحتضنه، هذا البرعم هو قلم الكاتبة الأدبية الباحثة الدكتورة (بنت الشاطي) حيث بدأت طريقها الأدبي على صفحات النهضة باسمها الحقيقي (عائشة عبد الرحمن) وواصلت الكتابة الهادفة في تمكُّن واثق، فتعددت مقالاتها الاجتماعية وقصائدها الشعرية أيضاً على صفحات هذه المجلة، وفي العدد الأول مقال جيد تحت عنوان (أمنيته في الحياة) تحدثت فيه الفتاة الشابة عن أمنيتها في مستقبلها القادم فودَّت أن تكون شاعرة كاتبة، وكأَنَّها رأت أن الكاتبة التي تُرضي ميولها هي الكاتبة ذات الرسالة الإصلاحية، لا التي تتحدث عن الزهر والطير والماء دون جهاد حي في سبيل الإصلاح المنشود، وقد جاء مقالها في أربعة أعمدة طوال أنقل منه قولها الهادف لأنه في صميمه يعبر عن رسالة (النهضة النسائية) كما تلوح في أعدادها المتواليات .

قالت الكاتبة الشابة عائشة عبد الرحمن^(١): «لو سألوا ما هي أمانيك؟ إذن لطلبت أن أكون شاعرة مُجيدة أوقع نغمات شعري على أوتار القلوب، وأستمطر الدمع والرحمة من متحجري القلوب .

ولطلبتُ أن أوفق فأتحكَّم في الزي النسائي الفاحش، فأصلحه، وبياني

(١) النهضة النسائية، العدد الأول، يناير، سنة ١٩٣١م، ص ٢٠ .

المساحيق فأزج بهم في أعماق السجون، وبدعاة السفور فأنفيهم خارج مصر، وبناشري الصور الشمسية المخزية فأنكل بهم تنكيلاً، وبالمسارح والملاهي غير الأدبية، وكذلك صالات الرقص فأهدمها تهديماً، وبأسطوانات الغناء المخجلة فأكسرهما تكسيراً، وبالهازئين بالشعور المصري القومي فأعذبهم تعذيباً، وبمظاهرات الخلاعة المنكرة، والمجون الفاسد فأمثل بهم تمثيلاً.

بل، لطلبت أن أتحكم بعواطف الشباب فأخرج للناس بحب إفلاطوني طاهر، يسمو بالإنسانية إلى غايات المجد والفخر، ويدفع بأصحابه إلى المجد والشرف والتضحية، ويعلو بهم إلى فضائل النبل والتعاون والرحمة، ويلقي على الناس دروس الشجاعة الأدبية، وترك الأنانية، ذلك الحب الذي لم تفسده الأهواء، والتي ضلت العقول البشرية سبيلها إليه فاستبدلته بمجون فاسد، واستهتار مخجل، وإباحية مؤلمة.

هذه بعض آمال الأنسة ابنة الشاطيء قبل أن تصل إلى عتبة العشرين من عمرها، وإخالها الآن بعد أن بلغت مجدها العلمي والأدبي في دنيا الثقافة الأصيلة لا تزال تبتسم مرحبة بهذه الآمال، إذ لا تزال تدعو إليها بعد تهذيب في العبارة، وتفلسف في الفقرة، وقوة في التمثيل والاستشهاد؛ أجل، هذه هي نواة الشجرة الفيئانة ذات الظلّ الوريث.

وأطيل القول إذا حاولت أن ألخص ما نشرته المجلة عن البغاء الرسمي، وكان وباءً عاصفاً قدّر الله أن ينكشف بلاؤه بعد أعوام، وعن الفقيرات المعوزات اللاتي يتطلبن رعاية الأغنياء، إذ عجزت الدولة عن قيام مبدأ التكافل الاجتماعي، وعن المربيات الأجنبية اللاتي ملأن قصور الأغنياء من المتشبهين بالأوروبيين، تاركين فلذات الأكباد لمن يبعدن عن اللغة والدين والقومية والتقاليد.

أما حملة المجلة على النوادي الخليعة، والرقص الداعر، والسهرات المريبة، والتبرج الفاضح فمما لم تسأم صاحبة المجلة ترداده، وتكاد مجلة النهضة النسائية حينئذ تقف في الصف المدافع وحيدة بين مجالات أخرى تهدم كل ما تدعو إليه، بل تنظر إلى ما تدعو إليه نظرات السخرية والاستخفاف، ولها من القراء والقارئات أضعاف ما تجد هذه المجلة الفدائية، وتلك ضريبة مفروضة على كل مناضل ومناضلة يدعوان إلى الإصلاح الديني في دنيا التبذل والإسفاف!

ولم تقف نظرة النهضة النسائية في حدود مصر، بل شملت الدول الإسلامية بتوجيهاتها الصائبة، ونشرت ما تعلمه من خير هذه الأمة في شتى الأقاليم النائية، ونقلت شذوراً مما يكتب المصلحون في جرائد العراق والشام والهند وإيران مما يتفق ومبادئ الإسلام، حيث أفلحت في اقتطاف فقرات لكبار الكتاب من أعلام الشرق، تُقدّم كمختارات أدبية ونصائح اجتماعية لا يكاد يخلو منها عدد.

وفي ضوء هذا الامتزاج التام بشعوب الأمم الإسلامية تلقت السيدة لبيبة أحمد رسائل التأييد من الملوك والرؤساء كالحسين بن علي وعبد العزيز بن سعود ومن يتعد من هؤلاء عن النهج التركي الذي انتشر وبأوه في صحف العالم الإسلامي منذ تزعم (أتاتورك) الدعوة إلى نبذ تعاليم الإسلام، فأحدث بلبلة في الشعوب الإسلامية لم يستطع المخلصون أن يقضوا على آثارها حتى الآن، إذ ينشأ في كل جيل من يجد لذته في الدعوة إلى التحلل السافر، ولا يذكر أوروبا في تأييد دعوته بل يذكر تركيا وكأنها النهج الأمثل، والقبلة المصطفاة.

ومما أذكره في هذا الصدد، أن صاحبة المجلة كانت تنتهز كل فرصة للاستفادة مما تسمع من القول السديد، والتوجيه الهادف، فقد حضر الزعيم الإسلامي الكبير مولاي شوكت علي المجاهد الهندي الشهير، وألقى محاضرة في حفل نسائي عن أثر التربية الإسلامية في نشأته ونشأة أخيه الزعيم الكبير مولاي محمد علي، فرد ذلك كله إلى مسلك والدته في تربيتهما على السنن الإسلامي المجيد، وضرب من أمثلة هذه التربية ما ملأ النفوس إعجاباً بهذه الأم المثالية التي أنجبت للهند زعيمين من أرقى الزعماء سلوكاً وحميةً وغيرة على الاستقلال، وهمّة في الازدياد عن الإسلام.

وكانت السيدة لبيبة هاشم في طليعة من استمعن إلى هذه المحاضرة الهادفة، فرأت من واجبها أن تتصل كتابياً بوالدة الزعيمين وكانت لا تزال على قيد الحياة لتسألها كيف ألهمت هذا الاتجاه الحميد في تنشئة ولديها العظيمين.

ولم تبخل السيدة الكريمة، بل أسرعته بالرد في رسالة مستفيضة نشرتها مجلة النهضة النسائية (بالزنگراف) في العدد الصادر بتاريخ فبراير سنة ١٩٣١م، حيث تعرّضت في مبدأ الرسالة إلى حالة المسلمين في الهند بعد الاستعمار الغاشم، وكيف جعلت من ولديها جُنديين بأسلين في معركة الإنقاذ، فحقق الله على يديهما

النصر بعد نضال مرير ذاقا فيه أشدّ صنوف البلاء، وقد قالت عنهما:

«إنهما سُحبا إلى السجن ليخرسا عن قول الحق، وبيكما عن شهادة الصدق، ويُصمّا عن دعوة الحق، فبقيا أثناء الحرب العظمى خمس سنوات طوال، ثم أطلق سراحهما ليعودا إلى ما بدأ، وحملّا ما حملهما القوم من الأعباء قياماً بحق الجهاد في سبيل الله، حتى حُكِمَ عليهما بالسجن مرّة ثانية، وهذا ما لم يُلَكن من عزيّمتي فأنا مع بناتي وأزواج أبنائي وأصحاب عملي أجوبّ البلاد مشرّقة ومغرّبة مذكّرة بما يطالب به الدين والوطن».

وكان لنشر هذا الخطاب من الصدى في نفوس القارئین والقارئات ما خفض الرؤوس إجلالاً لكفاح أمّ فريدة عرفت حقّ البلاد عليها، وفهمت دعوة الدين إلى الحرية والاستقلال فقامت بأكثر مما تستطيع.

إن افتتاحيات مجلة النهضة النسائية التي دأبت السيدة لبيبة أحمد على كتابتها كل شهر، تقدّم تاريخاً حياً للنهضة النسائية الصحيحة، يُحاوّر ما يكتب من مقالات الادعاء، كما أن المجلة نفسها تقدّم خطوات الكفاح الجاد في سبيل الخلق الفاضل، والأسرة الواعية، والنشء العزيز. ثم رأت السيدة حين دلفت إلى السبعين أن تستريح من عناء لا تستطيع شيخوختها الواهنة أن تنهض به، فعكفت على التلاوة الهادئة لكتب الشريعة والتاريخ الإسلامي حتى لقيت ربها سنة ١٩٥٥م بعد ثمانين عاماً من عمرها السعيد..

* * *

الدكتور محمد حسين الذهبي باحث موسوعي ملتزم

- ١ -

ما تذكرتُ خاتمة حياة الدكتور محمد حسين الذهبي إلا تذكرت قول الدكتور أحمد أمين في رثاء الإمام الأكبر مصطفى عبد الرازق:

«كان أستاذاً للفلسفة في كلية الآداب، فكان في مكانه الذي خلق له، يحضرُ درسه في جد، ويُلقيه في أمانة، ويوثق صلته بتلاميذه، فهم أبناءه البررة، وهو والدهم المحبوب، لا يكفي معهم بعلاقته العلمية، بل يتعرف أحوالهم العائلية، فيحل مشاكلهم الداخلية، ويفرج أزماتهم النفسية.

ثم رماه القدر بالسياسة، فلم تكن له، ولم يكن لها، فالسياسة تحتاج إلى جلاذٍ ونضال ومداورة ومناورة، وليس هو في شيء من ذلك، فالرحمة التامة لا تنفع في السياسة، لذلك كان فيلسوفاً في سياسته، وهيهات أن ينجح هذا المنهج».

أجل أتذكر قول أحمد أمين دائماً كلما أذكر استشهاد الدكتور الذهبي، وإذا كان الذهبي لم يكن فيلسوفاً يدرس الفلسفة كمصطفى عبد الرازق، بل كان علامة يدرس علوم القرآن والحديث فإن ما عدا ذلك يتلاقى به الرجلان في نسق واحد، فالرحمة الحانية، والبعد عن المداراة والمناورة مما تأصل في سلوك الرجلين، لقد كان الذهبي صريحاً في كل موقف يتعرض له، صريحاً مع نفسه ومع الناس، خصوصاً أو أصدقاء، وكان من البراءة الفاضلة بحيث اعتقد أن الإخلاص في قول الحق، وأن التمسك بالرأي الذي يعتقده سينزلان منزلاً حسناً لدى مخالفه، لأنه كان يحنو عليهم في نقاشه ويدعوهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وبطيئ الاستماع إلى ما يقولون في صبر، ثم يرى من حقه أن يجهر بما يعتقد دون لبس، لأنه

لا يعرف أساليب السياسة الخادعة، بل يلتزم بمنطق الإسلام في زمن أصبح الإسلام فيه غريباً بين أهله، فحتمت حياته بالاستشهاد وأخذ مكانه مع الصّديقين والصالحين وحسُن أولئك رفيقاً.

ولا يظن القارئ أنه كان مع صراحته برماً ملولاً، بل كان الرجل واسع الأفق حقاً حين التمس العذر في بعض كلماته لنفرٍ من الشباب المتسرع، إذ أيقن أن الجو الإعلامي في الجرائد الهابطة، والتمثيلات الساقطة، والتبرج السافر دون احتشام، كل ذلك يقدم الوقود لنارٍ تضطرم، فأعلن أن المسجد وحده لا يستطيع^(١) أن يقوم برسائه في هذا الطوفان الغامر من الاجترار، وأن المسجد يحتاجُ إلى مؤازرة ذوي الرأي من المخلصين، فمهمة وزاة الأوقاف ليست في تكرار الخطب التقليدية كل أسبوع، بل في عودة المسجد إلى طبيعته التي نشأ عليها في صدر الإسلام، إذ لم يكن المسجد إذ ذاك دار عبادة فقط، بل كان كل شيء في حياة المسلم.

وقد تفقّد مساجد الجمهورية، فعرف من بينها نمطاً يقوم برسالة المسجد على وجهها الصحيح، ورأى المثل المنشود كائناً في مسجد سيدي بشر بالإسكندرية، فعقد به اجتماعاً كبيراً للعلماء مع صفوة من أبناء الثغر، يعرضُ عليهم كيف صار المسجد عبادةً طيبةً في جانب من جوانبه، ومدرسةً لدروس التقوية في جانب آخر، ومكتبةً حافلة للقارئ في بعض ردهاته، ومكتبة لتحفيظ القرآن في ساعات معلومة، ومسرحاً للوعظ الديني بين المغرب والعشاء، وممتدًى للقاء الساعين في الخير، العاملين على عَوْن الفقراء من أبناء الحي، كل ذلك تجسد رأي العين أمام المشاهدين، ومع أن الدكتور الذهبي رجل قلم لا خطيب منبر، فقد تفجّر البيان على لسانه خطيباً في مسجد سيدي بشر، إذ ألهمه الواقع المشهود ما تدفق به لسانه عن حماسة حارّة، ويقين مكين.

وحين رأس احتفال الأئمة بوزارة الأوقاف، لم يكن بالذي يدعُو إلى تأييد اتجاه، أو نصرة حاكم هو صاحبُ الأمر والنهي، بل ألقى كلمته داعياً إلى اتباع المنهج القرآني، موضحاً أن أخلاق القرآن، وسيرة السلف الصالح هي مجالُ الوعظ والإرشاد، وأن الداعية المعاصر عليه أن يكون بصيراً بأحكام الشريعة، وبشؤون الناس معاً، فلا يعالج قضيةً إلا في ضوء كتاب الله، ولا يتسع في الاستطراد الخطابي

(١) مجلة الثقافة ٢٥/٢/١٩٤٧م.

دون أن يغمر سامعه بفيض من آيات الذكر وأحاديث الرسول، على أن يكون ذلك في موضوع واحد لا يتعداه، إذ ما رُزئ الوعظ الديني إلا بتعدد الموضوعات في خطبة واحدة، فيأمر الواعظ إجمالاً بكلّ مأمور، وينتهي عن المنكرات يسردها سرداً، وهي معروفة للسامع سلفاً! إنما يريد التدليل والتعليل، وهو ما لا يمكن مع تشعب الأغراض.

ولم يكن عجباً لدى من يعرف الدكتور الذهبي أن يراه أمام وزارة الأوقاف، يقف مع امرأة فقيرة جاءت تطلب العون من وزارة الأوقاف، فيقرأ الطلب قبل أن يدخل، ويسأل السيدة مستفهماً مستوضحاً، ثم يخفّ له من يتملقه قائلاً: إن فضيلة الوزير له أن يستريح في مكتبه، ثم يستدعيها! فيتبسم الشيخ ويقول: لَمْ أتعَب يا أخي فدعني، فإذا اتجه إلى مكتبه أصرَّ عَلَى أن يقرأ كلَّ ورقة يقوم بالتوقيع عليها، ويصلي الظهر والعصر بالمكتب إذا لَمْ يفرغ من عمله، فإذا قيل له إن المسألة متتهية وتوقيع الوكيل ومن دونه يكفي، قال في ابتسام: ولماذا أوجب القانون أن أوقع! وإذا كان فيما يُعرض ما يُرفض، وله أنصارٌ ذوو احتيال، فقد أكثرُوا من اللَّغَط حوله، حتى اضطرَّ أن يقول في مجلس الشعب: لم أكسب من الوزارة شيئاً، وأفضلُ أن أرجع إلى الكلية أستاذاً، إذا لم أقم بالأمر على وجهه الصحيح!

وقد رجع إلى الكلية كما أراد، رجع في هدوء صامتٍ تظللّه السكينة، وطالَعَ طلابه بوجه ضاحك، وكأنه يستقبلُ فرجاً بعد ضيق، ويُسرّاً بعد عُسر، ولكنَّ القدر قد كتب له الشهادة، إذ كان من واجبه أن يرّد على فتوى وُجهت إليه بشأن من يدّعون أنّ الإسلام يفرضُ الهجرة على أتباعه إلى معتزلٍ ينأى عن المجتمع، وقد فرضَ الإسلامُ النضال لا الاعتزال، فالإسلام إيجابي لا سلبيّ، يعرفُ ذلك كلٌّ من قرأ شذوراً من كتاب الله، وما جاء رسولُ الله ليدعوَ إلى اعتزالٍ سلبي، بل جاء يقاوم الشرك في أمتع معاقله حتى كُتب له النصر، وأتمَّ الله نوره على الكون بما هدى من نفوس، وجَمَعَ مِنْ شمل، ولم تكن المسألة بحيث يختلف في شأنها مختلف، ولكنَّ الأغرار من الأيفاع يستجيبون لكل ناعق، فزَيَّن لهم الشيطان أن يُريقوا دماً طاهراً كان حقّه الصون، ولكنَّ سلسلة الشهداء البرّة التي كانَ في براعة استهلالها أمثالُ عمر وعثمان وعلي والحسين ظَلَّت حلقاتها تتواصل عبر الأجيال حتى كان محمد حسين الذهبي أحدَ هذه الحلقات، فلقى الله شهيداً أميناً، وترك لتلاميذه حسرةً في النفوس

نَحْسُنُ أَلَمَهَا اللَّادِعُ فَنَسْتَجِيرُ بِالصَّبْرِ، مَغْتَبِطِينَ بِمَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، إِذْ لَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ.

التحق الطالب محمد حسين بالأزهر في أواخر العشرينيات، فاتخذ لنفسه منهجاً واضحاً، أساسه البعد عن الحركات السياسية التي شملت الأزهر في عهد الإمامين المراغي والظواهري متفرغاً للدراسة الهادئة، جاعلاً نصب عينه العكوف على تحصيل المواد الدراسية في شتى فروعها، وكان اسمه بين المتقدمين في امتحانات السنوات المتوالية، ثم رغب في الالتحاق بكلية الشريعة الإسلامية ليواصل التقدم في امتحاناتها المتصلة، وبهذا التقدّم تهيأ للانتساب إلى تخصص المادة، وهو تخصص للدراسات العليا وضعت الشروط الدقيقة للالتحاق به، إذ لا يتهيأ له غير خيار النجباء من الطلاب، وقد نال مرتبته النهائية بدرجة مشرفة، إذ عكف على دراسة تاريخ التفسير القرآني في رسالة غير مسبقة في موضوعها، إذ لم يسبق أن استقلّ تاريخ التفسير القرآني برسالة علمية ذات مجلدات ثلاثة قبل أن يكتب الذهبي رسالته.

نعم إن تاريخ التفسير القرآني كان يُدرّس باعتباره فصلاً من الفصول المندرجة تحت ما يُسمّى بعلوم القرآن، وهي علوم تمتد إلى عشرة فروع منها القراءات ورسم المصحف وأسباب النزول وغيرها مما نجد صورة مقربة له في كتاب مناهل العرفان للأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني، وقد كان من رأي الدّارس أن يقتصر على عصر من عصور التاريخ القرآني كما أشار إلى ذلك في كتابه، حيث يقوم بتاريخ الحقبة الأولى للتفسير في العصر الإسلامي الأوّل، أو في حقبة تليها كمرحلة الإزهار في العصر العباسي، أو يقتصر على تحليل المؤلفات المعاصرة لكبار المفسرين ممّن ملؤوا فراغاً كبيراً في مفتتح هذا القرن؛ كان هذا رأي الباحث.

ولكنّ المُشرّفين على المادّة رأوا فيه مقدرةً على استيعاب هذا التاريخ الحافل والمتشعب، وهو تكليفٌ بجهدٍ غير مسبوق، لأنّ المؤلفات القديمة اكتفت بما يسمى بطبقات المفسرين، وهي تراجمٌ تنقبض وتنبسط دون أن تُحيط بالعوامل الداعية لتطور الأسلوب التفسيري، أمّا المُحدّثون فلم يلج الحلبة منهم غير المستشرق المجري (جولدزيهر)، وكان كتابه غير مترجم إلى العربية في الوقت الذي كان فيه الذهبي يتهيأ لوضع رسالته. وقد حدّثني رحمه الله أنه في غمرة حيرته في سلوك

النهج الذي يتبعه في تأليف الرسالة الجامعية، عَمِلَ على شراء الطبعة الألمانية لكتاب المستشرق المجري، وحيثُ كان لا يقرأ الألمانية فقد توسّل لبعض الأساتذة المصريين ممّن يجيدون الألمانية أن يُترجموا له فهرس الكتاب فقط، وهو لا يتجاوزُ خمس صفحات ليرى من مضمونه ما يمدّه بنهج مقارب، ولكنّ هؤلاء الأفاضل قد أشاحوا عنه متعلّلين بكثرة الأعباء العلمية، وهو تبريرٌ لا يخلو من ملامة، إذ كان من واجبه العلمي أن يسعفوا طالب العلم بما يريد في غير مشقة تلحقهم مهما انتحلوا شتى الأعذار.

وقد لا يعلمُ القارئ أنّ كتاب المستشرق المجري قد طُبِعَ مترجماً إلى العربية بعد أن فرغ الباحث من إعداد رسالته، ونال عليها درجتها العلمية، فعُتِنَ مدرّساً للتفسير والحديث بكلية الشريعة، ولكنه أثر ألا يطبع الرسالة حتى يقرأ النصّ الألماني، وتمّ له ما أراد فلاحظ بعض الأخطاء فيما قرأ، وتولّى التعقيب عليها بما يراه، ثم أضاف ذلك إلى الرسالة، وعَدَّ كتاب المستشرق من مراجعه في خاتمة الكتاب.

والدارسُ لكتاب الشيخ يرى جهداً حافلاً في البحث والاستيعاب والتحليل والنقد، حيث امتدت الرقعة الفسيحة أمام الباحث، فتكلّم في أجزاء الكتاب الثلاثة عن المرحلة الأولى للتفسير في عهد النبي ﷺ وأصحابه الكرام في الباب الأول، وخصّ الباب الثاني بعصر التابعين، ولو كان لي رأي لضمّ المؤلف البابين في باب واحد لِقُرْبِ المنهج فيهما دون اختلاف كبير، وقد بدت شخصيته الناقدة واضحةً فيما كتبه عن اتهام الأستاذ جولدزيهر^(١) والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسّع في الأخذ عن أهل الكتاب، حيث وضع الأمر في نصابه بما لا يقبل الدفع، وكرّر على نقداً أخرى ساقها جولدزيهر في كتابه (المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن) حين زعم أن ابن طلحة صاحب الصحيفة المشهورة في التفسير، قد نَقَلَ الكثير من آراء ابن عباس رضي الله عنه، مع أن ابن طلحة لم يأخذ التفسير سماعاً عنه، وإنما أَخَذَ عن مجاهد بن جبير، وإذا كان ذلك صحيحاً فلن يفيد الزعم في شيء ما دام مجاهد ثقة لا تُردّ له روايةٌ نقلها عن ابن عباس.

أما البابُ الثالث وقد جاء خاصاً بالمرحلة المنحصرة في عصور التدوين فمن أنفَسَ ما كتب الباحث، حيث دل على سعة اطلاع، ونفاذ رأي، وإصابة تامة في

(١) التفسير والمفسرون: ١/٧٢ وما بعدها، ط ٤.

مجالدة الفحول من كبار المؤلفين، وقد تصدَّى لرواية كعب الأحبار مواجهاً من ذهبوا إلى تكذيبه - وفيهم كبارُ أمثالُ مثل السيد محمد رشيد رضا - ورَوَى من النقول ما أَيْد وجهته، وليس لي أن أفصلَ بين السيد رشيد والدكتور الذهبي، فهذا فوق مقدرتي، ولكنني سُررت حين رأيت رأياً يصول على رأي بالدليل، وحجةٌ تدفع حجةً بالإسناد.

ثم تتابعت الأبوابُ متدرجةً في صراطها التاريخي حتى انتهت إلى العصر الحديث في رحلة شاقة لا يقوم بها غير أولي العزم من الفاقهين، إذ بدأ الدارس بما يُقال عن التفسير الموضوعي والتفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي في عقود منتظمة تضم الكبار من أمثال الطبري، والسمرقندي، والبغوي، وابن عطية، وابن كثير، والثعالبي، والسيوطي، ثم عن أصحاب التفسير بالرأي مثل الفخر الرازي، والبيضاوي، وأبي حيان، والنيسابوري، وأبي السعود، والألوسي، ويطول بي المدى لو أشرت إلى اسم كلٍّ من تعرض له فضلاً عن إيضاح رأي الباحث في منحا، إلّا أن ذلك لا يمنعني من الإشادة بالجهد الحافل الذي خصّ به التفسير الشيعي، وتفسير الاعتزال، وقد جاء ذلك فيما يقرب من جزئين حافلين كتبهما سابقاً غير مسبوق، أما العصر الحديث فقد أشرق التجديد فيه بتفسير المنار للأستاذ الإمام محمد عبده وتلميذه من بعده، ثم مَنْ حاولوا الانتماء إلى مدرسة الإمام من أفاضل المعاصرين، وهكذا يرى القارئ أن الرُّقعة قد امتدت إلى ميدان فسيح، وقد أحسن المؤلف توضيح مرماه حين قال في مقدمة الكتاب^(١):

«لقد رجوت من وراء هذا العمل أن أُنَبِّه المسلمين إلى هذا التراث التفسيري الذي اكتظت به المكتبة الإسلامية على سعتها وطول عهدها، وإلى دراسة هذه التفاسير على اختلاف مذاهبها وألوانها، وألا يقصروا حياتهم على دراسة كتب طائفة واحدة أو طائفتين دون من عداهما من طوائف كان لها في التفسير أثر يذكر فيشكر أو لا يشكر. ورجوت أيضاً أن يكون لعشاق التفسير من وراء هذا المجهود موسوعة تكشف لهم عن مناهج أشهر المفسرين، وطرائقهم التي يسرون عليها، ليكون القارئ على بصيرة من الكتاب الذي يقرأه، وعلى بينة من نهجه ولونه، حتى لا يغتر بباطل أو ينخدع بسراب».

(١) التفسير والمفسرون، ص ٩، ط ٤.

من آفة التأليف المعاصر أن بعض الدارسين يضيق ذرعاً بفضل سابقه، فهو يشرب من نبعه، ويرد مورده صريحاً لا مرية في استقائه، ثم ينكر أي ذكر له، وكأنه لم يسمع به، وما درى أنه لو صحَّ أنه لم يسمع به لعدَّ ذلك قصوراً في بحثه العلمي الذي يستوجب أن يعود الباحث إلى ما قيل من قبل، وما ضرَّه لو اعترف بما قرأ ونهل، ورجع بالفضل إلى صاحبه! هذا ما وجدته لدى بعض من كتب في تاريخ التفسير وتجاهل كتاباً يعدُّ أوفى مرجع في بابهِ! وكأنَّه لم يعلم عنه شيئاً! وأشدَّ من هذا نُكراً من يقرأ الكتاب ثم يهتدي بأفكاره ويستضيء بمراجعته، ويذكره في مصادره المعتمدة، ولكنه يخلق الاعتراضات اختلاقاً حوله كي يهون من شأنه أمام القارئ، ويصبح هو صاحب المصدر المعتمد! فمرة يزعم أن كتابه يشمل تاريخ التفسير من بدء نشأته إلى وقتنا هذا لا يمكن أن يكون ذا بحث دقيق، وقد نسي أن أكثر مؤرخي الأدب من المستشرقين وكذلك من سار على منوالهم من كتاب التاريخ السياسي، يتحدثون عن جميع العصور فترجم بحوثهم وتصبح إحدى المصادر على اتساعها الممتد، إذ ليس الشأن شأن امتداد الساحة، ولكنه شأن اليقظة إلى التيارات الهامة في سَيْرِ العلم المبحوث.

ولعل أغرب ما وُجِّهَ لموسوعة الشيخ الذهبي أنها في حديثها عن التفسير المعاصر لم تذكر الألوان الفنية التي اتجه إليها التفسير الأدبي، وقد نسي الناقد أن الكتاب رسالة علمية قدَّمها صاحبها إلى كلية الشريعة، ولم يتقدَّم بها إلى كلية اللغة أو كلية الآداب أو دار العلوم! ثم إن المؤلف انتهى من كتابه سنة ١٩٤٥م، وهو زمن لم يشتهز به ما يعنيه الكاتب من وجوب رصد التيارات الفنية، فهل كان على المؤلف أن ينتظر حتى تتمخض الأيام عن آراء فنية لها من الخطأ أكثر ممَّا لها من الصواب، ثم يرسلُ البوق الصاخب مباركاً كل اتجاه فني طريف؛ على إن ممَّا يهون الأمر في ذلك كله أن موسوعة الشيخ الذهبي قد أصبحت لدى الأصلاء من الدارسين المصدر الأول في موضوعها وأنَّ تجاهلها يفضح المتجاهل، ولا ينقص مثقال ذرة من فضل صاحبها الجليل، ولو كان المجال ذا سعة لأفضت في تعداد ما اهتدى إليه الذهبي من صائب الآراء في ميدانه الجديد، ولكن الكتاب ذائع الصيت منتشر الفضل،

وذيوه المستفيض دليل الحاجة إليه، وما بعده من دليل . .

فإذا تركنا ما قال الشيخ في موسوعة (التفسير والمفسرون) فإننا نتقل إلى حديث قريب من موضوعها أبلع فيه الباحث أحسن إبداع حين تحدث في بحث مستفيض عن الإسرائيليات في تفسير القرآن والحديث، وقد قلت إن هذا الحديث قريب من موضوع الموسوعة القرآنية، لأنه يصدر عن مشكاتها موضعاً ما أبهم مفصلاً ما أجمل، وهو مؤلفٌ دعت إليه الضرورة العلمية إذ جاهر قوم باصطفاء الدّخيل المشبوه ممّا جمعه بعض المفسّرين، وعُرف لدى الدارسين باسم الإسرائيليات، ومن أصحاب الفن الروائي من عمد إلى بعض هذه المفتريات فجعل منها قصة أدبية بطلها النبي المرسل! وكأنّ ما افتراه أصحاب هذه الأساطير حقّ لا شك فيه، فوجب أن يسلب الضوء على هذه المفتريات، ومن أولى بتوهين عناصرها، ونسف تهاويلها من باحث درس كتب التفسير، وكتب في تحليلها عن ثقة واقتدار . .

لقد دعا المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الدكتور الذهبي لكتابة بحث عن (الإسرائيليات في الحديث والتفسير)، فكان عند الظن به حين قدّم بحثاً شاملاً في أكثر من مئتي صفحة مستوفاة، وقد طبعه المجمع في كتاب مستقل، حيث كسّف جديداً من فنون البحث، وقدّم صائباً من الاقتراحات الناجعة، وإذا كانت جلسات الاستماع في المؤتمر لا تتحمل البحوث الضافية، فقد جرت العادة أن يقوم كل باحث بإلقاء خلاصة شافية لدقائق بحثه، وهو ما فعله الدكتور الذهبي حين لخص حديثه في نقاط هامة، فأبان لنا أن بحثه ينحصر في مقدمة وخاتمة بينهما ثلاثة فصول، فالمقدمة توضّح علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية، والخاتمة تبين ما يجب أن يلتزم به المفسّر بالنسبة للروايات الإسرائيلية، أما الفصل الأول فخاص ببيان معنى الإسرائيليات وكيف تسربت إلى التفسير والحديث، ومدى خطورتها على عقائد المسلمين .

وأما الفصل الثاني فيفصّل أقسام الإسرائيليات وحكم روايتها، وأشهر روايتها، وفي الفصل الثالث أمثلة لما تتضمنه بعض كتب الحديث والتفسير من هذه الإسرائيليات، ومن المهم أن نشير إلى بعض الجديد في هذا البحث، فننصّ على رفضه الحاسم لاعتذار بعض العلماء حين يبرّرون ما يسوقونه من هذه الأراجيف، فيقول قائل: إن المفسر رجلٌ أمين يُطلع القارئ على كل ما قيل، وإذا كان من كذب

فوزره على المخترع الأول، وهو قول واضح التهافت، وقريب منه قول من يزعم أن مثل المفسر فيما يجمع من الإسرائيليات كمثّل رجل النيابة حين يسجل أقوال الشهود جميعها، وهو يعلم أن بينها ما يتسم بالزور الصريح، ولكنه يترك الحكم للقاضي، والقاضي هنا القارئ، وقد نسي صاحب هذا الرأي أن كلّ قارئ لا يملك أداة الحكم كما يملكها قاضي مثقف بصير، فإذا احترز القاضي بعلمه، فماذا يصنع القارئ إذا لم يكن من أولي الاختصاص، ومن قائل: إن سرد هذه الأراجيف يعطي دلالة واضحة لعقلية العصر الذي نشأت به، فيفيد في رصد المجال الفكري للتطور العلمي؛ ومعروف أن رصد هذا التطور ليس ميدانه كتب التفسير، ولكنه يحتاج إلى أفق آخر يطير فيه الباحث بما يملك من أجنحة علمية تهين له ارتياد الآفاق!

وقد أوضح الأستاذ أن كتب الحديث وشروحها أهون خطباً من كتب التفسير في هذا المجال، لأن أحاديث الرسول قد خضعت لميزان دقيق حين تجرّد أئمة الحديث لتطبيق ما عرفوه في علم مصطلح الحديث على ما يُروى منسوباً إلى الرسول، فعملوا على تنقية الحديث وتجريده من الدخيل والعليل في وقت مبكر، فكان من أثر ذلك أن عرف الناس الصحيح من العليل، وإذا كانت بعض الأحاديث الموضوعة تجد لها مجالاً لدى بعض العامة، فإنّ ظهور عوارها يكشف عن باطلها بأدنى البصر الثاقب، وكتب الصحاح بمنجى عن هذه الأراجيف.

ثم قدم الشيخ اقتراحات سديدة وجدت التنفيذ من القائمين على مجمع البحوث، إذ وضعوا التفسير الموجز، والتفسير الوسيط، في هَديّ ما قيل عن خطورة الإسرائيليات، وأصبحت لدينا في مجال التفسير كتب معتمدة، بعيدة عن هول الأساطير، ومراجع للبحث متعددة مستوفاة وقد شملت كتباً أخرى تتصل بالموضوع في غير مجالي التفسير والحديث، وتلك طبيعة البحث الأصيل. . . وقد يرى الدارس أن الدكتور الذهبي كان مرتفع النبرة في تشدّده بإزاء المفسّرين الذين تساهلوا في نقل الإسرائيليات، لأنه في كتاب (التفسير والمفسرون) كان أكثر هدوءاً، ولعلّه لمس من رواج هذه الأساطير بين الناس ما دعاه إلى أن يكون أكثر إزعاجاً، وأعنف لوماً، وهي مسألة لا يكتفي فيها بالقول الهامس فلا بدّ من ارتفاع الصوت ليبلغ المدى البعيد. . .

وقد يظن بعض الناس أن تخصّص الدكتور الدقيق في علوم التفسير والحديث

سنتين عدة قد شغله عن البحوث التشريعية، وقد درسها دراسة مستوفاة في كليتها المتخصصة طالباً، ودرسها بالعراق لطلبته أستاذاً، ولكن هذا الظن يتبدد حين تُطالع ما كتبه الشيخ من بحوث ضافية في مجال الشريعة، ومن أظهرها بحثه الدقيق الذي قدّمه لمؤتمر الفقه الإسلامي بالرياض سنة ١٩٧٦م تحت عنوان (أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع) والبحث في إطاره هذا، يتطلب دراية واعية بالمجتمع الإسلامي في شتى ربوعه قبل الدراية المسلّم بها بقوانين الحدود التشريعية في الإسلام.

وقد أعجبتُ بامتداد النظرة الفسيحة لهذا الموضوع، حين طالعت ما كتب الشيخ، لأنّه لم يُهمل القواعد النفسية والاجتماعية حين عالج الموضوع، بل جعل هذه القواعد ركيزته القوية في بناء بحثه الدقيق، وقد ابتدأه بحديث عن العقيدة وأثرها في السلوك، لأن أكثر من يعالجون موضوع الحدود يهملون أثر العقيدة في كظم الشهوات وكبح العواطف، وهو إهمال يجعل قوانين الحدود ذات لجاج صاخب عند من يفقدون رُوح الإيمان، وفقدُ الإيمان كارثة الكوارث، إذ يفقده تصبح قوانين الحدود مظنةً للاحتيال، حين يُخسِنُ المجرم إخفاء جريمته لينجو من القانون الجنائي، وهو بهذا التستر يظن المسألة قد دخلت منطقة الأمان، وقد يحلو له أن يكرر الجريمة ما دام قد أحسن التدبير، وأجاد الاختفاء، أمّا صاحب العقيدة فإذا نجا من القانون لم ينجُ من وعيد الله فهو في خوفٍ هائل يدفعه إلى الندم.

ومن أبرز ما وُفق فيه الدكتور إصراره على أن يحيا المجتمع حياةً راضية في ظل تكافل اجتماعي قبل أن تنفد الحدود، والذين يستبشعون قسوة الحد حينئذ مخطئون، لأنّ المجرم ليس جائعاً، أو ليس عاجزاً حتى تلمس له الأعذار، فالمجتمع الإسلامي قد حفظ كرامته، ووقاه شر الامتهان! وهنا تكون الجريمة مستبشرة في حد ذاتها، إذ ليس لها مبرر معقول.

يقول الأستاذ الدكتور الذهبي^(١):

«وتكافل الجماعة في النظام الإسلامي يفرضُ مبدئياً أن يتم تبادل كامل في الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع وفتاته، وأن يفي كلُّ بما عليه ليصبح من حقه

(١) البحث المقدم لمؤتمر الفقه الإسلامي بالرياض، ص (٥).

أن يطالب بما له، فالغني مثلاً يفي للمجتمع بما عليه من حقوق المال زكاةً وضريبةً وصدقةً، وهنا يصبح من حقه حماية ماله وصيانيته بإقامة حق آخر من حقوق المال، هو حُدُّ السرقة يُقام على من يعتدي على حرمة هذا المال الذي أصبح بأداء هذه الحقوق حقيقةً بالقدسية التي أضفيت عليه.

وفي غيبة التكافل الاجتماعي، وحين تشيعُ أثره باغية، ويصبحُ المال دولةً بين الأغنياء، وحين يغلق بيت مال المسلمين بابه أمام العاجز والفقير والمضطّر، أو حين يصاب المجتمع كله بمجاعة عامة يكون ثمة ما يمكن أن نسمّيه ظروفاً طارئة من شأنها إعادةُ النظر في الموقف في ضوء الوضع القائم، فقد أوقف عمر حد السرقة عام الرمادة، ومتى قام المجتمع بما عليه تجاه الفرد من تربية صحيحة، وتمكين له من سد حاجته الإنسانية المشروعة مأكلاً ومشرباً وملبساً ومسكناً فقد أصبح لزاماً عليه أن تقام حدود الله دون تهاون.

وعلى هذا المنوال تحدث الأستاذ في الحدود الأخرى مبيناً عدالة الإسلام في تنفيذ قوانينه وإحاطتها بالضوابط المانعة للظلم أو الاعتساف.

ومن أجمل ما تعرّض له الأستاذ في بحثه الدقيق هو إجابته عن سؤال خاص بتطور التشريع في عهد الرسول ﷺ إذ تساءل لماذا لم تُطبّق الحدود في مكة في مبدأ ظهور الإسلام، ولماذا تمّ الانتظار حتى تكوّنت الدولة الإسلامية بالمدينة؟!.

ثم أجاب بما نشير إليه ملخصاً حين نقول: إن تربية الفرد يجب أن تُستكمل قبل أن يواجه بمطالب مجتمعه، فعليه أن يعرف وضعه من نفسه ومن الناس، وعليه أن يتسلح بفضائل الخلق الكريم حتى يدين بها في تحمُّس وارتياح، فإذا تمّ له ذلك جاءت الحدود لتمنعه من الشرّ إذا وسوس له الشيطان به، إذ أنّ استقرار روح العدالة في المجتمع الإسلامي تجعل العقاب جزاء طيعاً لمن يحاول هدم هذا المجتمع وقد قام على العدل والحرية وحماية الحقوق!

ثم نظر الشيخ نظرة واسعة إلى ما يجري الآن في الدول جميعها! إنها ترصد ميزانيات ضخمة لمقاومة الجريمة بحيث أن وزارة الأمن تستولي على أكثر مما تناله وزارة التربية والتعليم أو وزارة الصحة، والعلة في ذلك قصرُ القوانين الرادعة، واحتيال المحامين في المحاكم على تبرئة المتهم، ولو استند المجتمع إلى إيمانه الأصيل لزال أكثر هذه الشرور!

إن بعض الآثمين في عصر النبوة كانوا يعترفون بجرائم سترها الله عليهم، وهم في مأمن من إذاعتها، بل إنَّ الرسول ﷺ كان يحاول أن يرجع بالمتهم عن اعترافه ما دام الله قد ستر أمره، ولكنَّ ضمير المذنب - وهو في صميمه مؤمنٌ صادق - قد دفعه إلى المطالبة بحدٍّ يصل إلى الإعدام بالرجم! ولو استشعر المجتمع الإسلامي الآن ما استشعره رجال الصدر الأول، لم يكن مجالاً للجرائم المنتشرة، والاعتداء المتصل؛ بل كان ذلك استثناءً قليلاً من قاعدة الاستقامة والالتزام.

هذه بضعة سطور، تُعطي موجزاً مقتضباً عن اتجاه الدكتور العلمي، وقد خففتُ عن نفسي بعض الشيء بالحديث عنه، لأنَّ استشهاده المفاجئ قد أثار لواعجي، وجعلني ساعثذ أتقلب على أحرَّ من الجمر، وأنا أرْدُد قول الأستاذ محمد عبد المطلب شاعر البادية في موقفٍ مماثل:

ألا تبت يدُ بالغدر راحت	تمد إلى أبي حسن حُساما!
جبينُ زاده بالموت نوراً	لقاء الله فائتلق ابتساما!

* * *

محمد الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام بتونس وأستاذ الأساتيد

حين انتقل إلى رحمة الله شيخ الإسلام بتونس وكبير علمائها الإمام العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، كتبت ترجمة متواضعة ذات تحليل علمي للمشهود من آثاره، وبعثت بها إلى مجلة (رابطة العالم الإسلامي) التي كان يشرف على تحريرها الأستاذ محمد سعيد العامودي، ولم أحتفظ بأصل لما كتبت، لأن الأستاذ العامودي لم يكن ليؤخر شيئاً مما أبعث به، بل كان يستحثني على الكتابة إذا أبطأت، ولأمرٍ ما ضاع المقال بالبريد، ولم ير النور في صحيفة ما، وكنتُ كلما حاولت استعادة كتابته أجد عزوفاً مُمِضاً، إذ أعلم من نفسي أنني لا أجيد في المرة الثانية إجادتي عند الاندفاع العاطفي الأول.

ولكنّ مكانة الأستاذ تدعو إلى الحديث عنه، وكأنّ القدر كان لي مساعداً فوق في يدي كتاب حافل^(١) يضم محاضرات جيدة، أُلقيت في ندوة علمية قامت عليها وزارة الشؤون الدينية بتونس بقيادة الوزير العالم الأديب الدكتور علي الشاذلي، وهو من العلم والأدب والفضل بالمحل الأرفع، وقد قرأتُ الكتاب الحافل فرأيتُ أنه جمع أفضل ما يُقال عن الإمام، وقد كُتِبَ نَفَر من المتخصصين الفضلاء، حيث اقتصر كل كاتب على ناحية من نواحي الإمام، فتمّ بذلك جهد تاريخي علمي يُذكر لوزارة الشؤون الدينية بتونس، وقد رأيتُ أن أقدم خلاصة موجزة لأفضل ما قرأتُ من فصول هذا الكتاب، فذلك يعطي تصوّراً حياً للناحية العلمية والإصلاحية التي

(١) العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وإسهامه في تجديد الفكر الديني (سلسلة آفاق إسلامية) رقم (٩) عن وزارة الشؤون الدينية بتونس.

ركّز عليها الإمام جهده الحافل في عمره المديد السعيد، ولعلّي بذلك أَعُوّضُ بعض ما فقد بالبريد من حديثي عن الرجل الجليل .

مقدمة

والإمامُ محمد الطاهر فقيهٌ أديب مؤرخ، امتدت حياته السعيدة بين عامي (١٢٩٦ - ١٣٩٤ هـ) الموافقين لعامي (١٨٧٩ - ١٩٧٣ م)، وقد تلقّى العلم بجامع الزيتونة على كبار أعلامه، وتخرج نابغاً مشهوداً بفضله سنة ١٨٩٦م، وتناوبته وظائف التدريس والقضاء حتى صار شيخاً لجامع الزيتونة وفروعه سنة ١٩٤٤م، ومؤلفاته ومقالاته ومحاضراته وفتاويه جاوزت الحصر، لأنه لم يترك يوماً واحداً من عمره السعيد دون اطلاع، حتى في أوقات المرض، وفي مناسبات الحزن المفاجئ إذ كان يشغل باله بالبحث كيلا يَستَرسِل في ذكر ما نزل، وقد تعددت اتجاهاته العلمية بحيث شملت كل فروع الثقافة الإسلامية شريعة ولساناً، مما سأسير إلى مُثُل منها، وكانت صداقته بزميله الإمام محمد الخضر حسين مضرب المثل إخلاصاً ووفاء، فقد كانا يتراسلان على بُعد المزار في أدقّ مسائل العلم، وكانت مجلة (الهداية) التي يُشرف عليها الإمام الخضر إحدى المنابر التي خصّها الطاهر بنتاجه الحافل، فعرف المصريون عن الرجل فضلاً كبيراً، رفع ذكره، وجذبَ النفوس إلى آثاره الجياد، وقد زار مواطن كثيرة في الشرق والغرب فكان موضع الاحتفاء .

الدراسة الأدبية

وإذا كانت الدراسات الدينية هي الميدان الأشهر للشيخ، حيث تَبَوّأ مشيخة الإسلام، وزعامة الفقه المالكي في بلده، بل في عصره الشامل لبلاد الإسلام جميعاً، فإن الدراسة الأدبية كانت ذات احتفال تام من الأستاذ الكبير، فقد ترك في ميدانها آثاراً جمة؛ مثل شُروحه لديوان بشار بن برد، وديوان النابغة الذبياني والحماسة لأبي تمام، وقضية عمود الشعر للمرزوني، وقصيدة الأعشى الأكبر التي قالها في مدح المحلق، وتحقيقه لكتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان، وتحقيق كتاب الاقتضاب لابن السيد؛ وتحقيق لشرح القرشي على ديوان المتنبي . . وذلك

بعض ما كان له في مضمار الدراسات الأدبية لا كله، إذ المراد الاستشهاد لا الاستقصاء.

ولو أن الرجل قد ترك هذه الآثار الأدبية فقط دون أن يتجه إلى طوفانه الزاخر في دراسات التشريع والتفسير لكان علماً من أعلام اللغة كالمصرفي والشنقيطي والميمني في عصره، لذلك بدأ الدكتور علي الشابي كلمته بالحديث عن هذه الناحية، فقال بعد ذكر مقطوعات من شعره^(١): «إن حبّ البيان، ورقة الذوق، هما مدخلُ ابن عاشور إلى التألق في المجالين الأدبي والديني، وقد قضى على القطيعة التي روجها بعضهم من الآداب والعلوم الدينية على اعتبار أن الأدب لا غناء فيه، وأنه مضيعة للوقت، حتى قال قائلهم مؤنباً ولده حين اتجه إلى قراءة الشعر:

إن الزمان الذي تفتيه في الأدب يراه أهل التهي من جملة اللعب»

ثم قال الدكتور الشابي بصدد حديث الشيخ عن بشار بن برد: «وقد دافع الشيخ عن بشار دفاعاً كبيراً، فرد كل الأخبار التي تؤكد زندقته وإلحاده بالرغم من تواترها، وانتصر لفنّه، ولم يحذف أي كلمة من ديوانه مهما يكن فحشها، واعتبر خلاعته ومجونه وغزله المادي غير ماسة بعقيدته وصدق إيمانه، لأن الفن في نظر الشيخ لا يعدو أن يكون مجلى لركة الإحساس والكلف بالجمال وروعة التصوير، ومن ثم فإنه لا يكون بأية حال سبيلاً إلى مصادرة الضمائر والكشف عن السرائر التي لا يعلمها إلا الله».

وهذا كلام جيد في مجموعه، لأنني لست مع الشيخ حين حذ نشر المجون الكثير الممتد في كتب الأدب دون تهذيب أو حذف، وأكد ذلك في مقدمته الطويلة التي صدر بها ديوان بشار بن برد، وهو اتجاه دعا إليه كثير من الأئمة السابقين مثل ابن قتيبة، واللاحقين مثل محمد محيي الدين عبد الحميد، وأذكر أنني ألقيت محاضرة في النادي الأدبي بجدة فنّدت فيها هذا الاتجاه، وقلت تعقيماً على رأي الطاهر في ذلك بعد أن ذكرته بنصه حين قال: «ولا ينبغي أن يُصور الشاعر أو الكاتب على حسب ما يشتهي الناقل أو القارئ، بل ينبغي أن يظهر كما هو بأخلاقه وألفاظه وأخلاق أهل عصره وعاداتهم، ولسنا بالذين نصلح من أمر الشاعر ما أفسده

(١) الكتاب التذكاري، ص ٢٣.

طبعه، ولا نَشْعَب ما تشفق به نبعه» ذكر ذلك كله الشيخ الإمام فعقبْتُ عليه بنقدٍ طويل قلت فيه :

«إن كلام الشيخ قد رَدَدَه سواه من قبل، وقد زَادَ عليهم بقوله : إن الحذف ينقص من تصوير عصر الشاعر اجتماعياً وأخلاقياً، وهو زَعْمُ تَرَدَّد من قبل، ولكنه زَعْمٌ وإِيه لا سند له، لأنَّ الشعراء ليسوا وحدهم مرآة عصرهم، فبحوارهم نجد الفقهاء والزهاد والمحدثين والمفسرين وأئمة الكلام وجلَّهم أصحاب دين وعفاف، وإذا وُجِدَ أمثال بشار وحماة وأبي نواس والحسين بن الضحاك في العصر العباسي فقد وُجِدَ به أئمة المذاهب الأربعة وهم مَن هم، ووُجِدَ به أمثال سفيان الثوري ويحيى بن معين، وعبد الله بن المبارك والأوزاعي وابنُ عبيد، ولهم جمهرة غالية من الأشياع! فأَيُّ الفريقين إذن من يمثل عصره أدق التمثيل؟».

ثم عرض الدكتور الشابي لموقف الإمام من قضية المرأة عرضاً أميناً رجع فيه إلى نصوصٍ ظاهرة من كتبه في الفقه والتفسير منتهاً إلى أنَّ ذلك كله قد أفضى بالظاهر إلى المنافحة الذاتية عن الاعتدال والتسامح وحقَّ الاختلاف في الرأي، ونسبية الفكر وخطأ الإنسان وصوابه اللذين يتردد بينهما، وقد كان الرجل فريد عصره في هذا المضمار.

الإمام المفسر

تحدث ثلاثة فضلاء عن جهد الإمام في التفسير، فاختص اثنان منهما بالناحية العلمية في موسوعة التحرير والتنوير، واختصَّ الثالث بالناحية الأدبية، وقد قال الأستاذ محمود شمام عن الناحية الأولى إن المفسر الكبير كان إمام العلماء في عصره، وقد عالج مسائل الاجتهاد وأعمال الرأي وعدم التقيد بالمأثور في كل قضية كانت موضعاً للاجتهاد إذ لم يأت بها نصٌّ، ويمكن إدراجها في دائرة البحث المقيّد بحدود المنطق الصحيح والنقل الثابت، ثم نقل عن الشيخ قوله بصدد الحديث عن التفسير بغير المأثور^(١):

(وَأَرَانِي كَمَا حَسِبْتُ أَتَيْتُ ذَلِكَ وَأَيَّحَهُ، وَهَلْ اتَّسَعَتِ التَّفَاسِيرُ لِمُسْتَنْبَطَاتِ

(١) الكتاب التذكاري، ص ٦٢.

معاني القرآن إلا بما رُزقه الذين أوتوا العلم من فهم في كتاب الله، وهل يتحقق قول علمائنا: إن القرآن لا تنقضي عجائبه إلا بازدياد المعاني باتساع آفاق التفسير، ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصراً في ورقات قليلة، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «ما كان رسول الله يفسر من كتاب الله إلا آيات معدودات علمه جبريل إياهن».

ثم أتى المحاضر بأمثلة جيدة من استقلال الرأي في تفسير التحرير والتنوير، وأظهرها ما تحدث به الشيخ عن معنى قول الله ﴿وَلَا تُرْمِيهِمْ فَلْيَمَازُكُوا﴾ حيث نصّ على أنه ليس من تغيير خلق الله التصرف في المخلوقات بما أذن الله فيه، ولا ما يدخل في معنى الحُسن، فإن الختان من تغيير خلق الله، ولكنه جاء لفوائد صحية، كذلك خلق الشعر لفائدة تدفع بعض الأضرار، وكذلك تقليم الأظافر، وثقب الأذان للنساء لوضع الأقراط والحلي، وقد انتهى من ذلك إلى إباحة لبس الباروكة للمرأة، إذا أرادت أن تزيّن لزوجها في احتشام، لأن الزينة لا تعتبر تغييراً لخلق الله.

وقد ختم المحاضر حديثه بدفع اتهام ساقه المرجفون عن الشيخ، حين ذكروا أنه أفتى بإباحة التجنيس حين دعت فرنسا التونسيين إلى التجنيس بالجنسية الفرنسية، وأيد ذلك نفرٌ من الوصوليين، وذكر الشيخ من بينهم ظلماً وزوراً، ليكون اسمه الأشهر دافعاً إلى هذا التجنيس المشؤوم، ولكن الوثائق الصحيحة التي رجع إليها المحاضر تبعاً لمن قبله من الباحثين، أثبتت أن الطاهر قد عارض التجنيس بكل قوة، وأفتى فتوى صريحة، بأن المتجنس بجنسية غير أهله مرتدٌّ عن دينه، وعليه أن يتوب من جديد، وينطق بالشهادتين! وأنا أنص على ذلك لأخذ منه العبرة، فقد ألصقت فتاوى أئمة بأئمة من الفضلاء في تونس وغير تونس زوراً وبهتاناً، لتطمس نورهم في العيون، وترحزح مكانتهم في القلوب، وهو عمل إجرامي من حقه الاحتقار والتسفيه، ومن فضل الله أن الباطل لا يستمر باطلاً بل يشع نور الحق فيمحوه.

وجاءت السيدة الفاضلة الأستاذة (وسيلة بلعبد بن حميدة)، وهي متخصصة في علوم التفسير، لتوضح جانباً من اهتمام الطاهر بعلوم القرآن فيما اتجه إليه من التفسير، وقد قالت بدءاً: إن الإمام قد جمع بين أصول التفسير التي اعتمدها أقطاب العلم وبين مُستجدات عصره، وهذا حق، ولكنها لم تبين كيف تم ذلك، ولو ببعض الأمثلة اليسيرة، إنما كان اهتمامها بمقدمة التفسير الطويلة التي ابتدأ بها الشيخ

تفسيره، وهي تصلح أن تكون كتاباً منفرداً بذاته، لأنها ذات فصول عشرة تحيط بكل ما يتصل بالتفسير القرآني، وتوضح ما يُسمى عند الدارسين بعلوم القرآن، ومنها علم الرّسم القرآني، وعلم أسباب النزول، وعلم النسخ والمنسوخ، وعلم القراءات وعلم الإعجاز، وقد وضّحت الدراسة اعتماد الظاهر في ذلك على كتابي البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي مع إضافات فتح الله عليه بها، وقد قالت في مجال الفصل بين صنيع الشيخ وسابقه في التمسك بكل ما يقال عن أسباب النزول^(١):

«وكان موقف ابن عاشور من العلماء الذين أفرّدوا علم أسباب النزول بالتأليف، ومن المفسرين الذين ألحوا على طلب سبب النزول لكل آية موقفاً متشدداً، لأنه اعتبر ذلك أمراً موهماً بأن لكل آية سبب نزول، فقال: وبش هذا الوهم، فإن القرآن جاء هادياً إلى ما به إصلاح الأمة في كل أصناف الإصلاح، فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية إلى تشريع الأحكام».

وليس معنى هذا أن الشيخ يرفض ما يقال عن أسباب النزول، ولكنه يرفض أن يكون لكل آية سبب من أسباب النزول، وهذا ما دعا بعض المفسرين إلى تحمّل أسباب تردّد من أيسر الوجوه لوضوح بطلانها.

ودعت الباحثة إلى تأليف لجنة من المتخصصين في العلوم الإسلامية والطبيعية وغيرها، لتوضح ما جاء به الشيخ من أفانين الاجتهاد، وأنا أعلم أن العلوم الإسلامية والعلوم العربية قد وجدت من الشيخ مجالاً رائعاً في التفسير المبتكر أحياناً، ولكن ماذا عن العلوم الطبيعية التي أشارت إليها الكاتبة، وجهد الشيخ فيها جهد الناقل؟

ثم تحدث الأستاذ الدكتور محمد المهدي العروسي عن البُعد البلاغي في تفسير الشيخ ابن عاشور، والحق أنني أدركت صعوبة موقفه حين قرأتُ هذا العنوان، لأن بحوث البلاغة تتخلل تفسير كل آية من كتاب الله تقريباً، وللشيخ فيها جولات صائبة، لأنه مع تعمقه الرصين في كتب الحواشي والتقارير البلاغية قد درس كُتب ما قبل الحواشي دراسة مستوعبة فعرف البلاغة العربية والبلاغة الأعجمية معاً. إذا جاز هذا التعبير - وقد أدرك العروسي بُعد الشقة عليه فاختر تفسير سورة البقرة

(١) الكتاب التذكري، ص ١٣٦.

وحدها ليأخذ منه ما يريد أن يتحدث به عن المنحى البلاغي عند الإمام، وبدأ الحديث عن اتجاه الطاهر إلى التفسير بالرأي وقد تحدّث عن ذلك سابقوه، ثم قال إن الأستاذ في مجال اللّغة العربية يوجّه تفسيره للألفاظ واشتقاقها ومدلولاتها ومعانيها واستعمالات العرب لها، وأخذ يضرب المثل لذلك بآيات عدة من سورة البقرة تدلّ على اتجاه المفسّر، وقد أتى فيها الإمام أحياناً بالجديد الذي لم يُسبق إليه، ومن ذلك تفسيره لكلمة شيطان حيث جاوز المألوف المتعارف وهو أن الاشتقاق من كلمة (شاط) بمعنى احترق أو شَطَنَ بمعنى (بعُد) إلى قوله أنه اسم جامد شابه في حروفه مادة مشتقة، ودخّل في العربية من لغة سابقة إذ كان هذا الاسم متعلقاً بالعقائد والأديان، وقد عُرف عند عرب العراق قبل انتقالهم إلى الحجاز واليمن^(١).

أمّا أبواب الفصل والوصل والإيجاز والإطناب فقد وَجَدَتْ تطبيقها الشافي في تفسير التحرير والتنوير، وإذا كانت قواعد علم المعاني من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير تركز على قواعد علم النحو، فقد جال الشيخ جولات نحوية كان في بعضها ذا استقلال مطلق عن كل ما قيل من قبل، والأمثلة كثيرة، والتفسير بين أيدينا.

ولم يُغفل الدكتور العروسي حديث الإمام عن وجوه الإعجاز القرآني، فقد فصّل هذه الوجوه بما لا يزيد عليه، موضحاً كيف اتجه الإعجاز للعرب في الأسلوب البياني، ولغير العرب في الأفكار العلمية والأحداث التاريخية سابقاً ولاحقاً، ومما أظرف به الإمام قراءه ما رآه في الكتاب المبين من ترديد كلمات العهد والميثاق والسمع في حديثه عن بني إسرائيل، لأنّ هذه الكلمات بعينها وَجَدَتْ في التوراة، وهُم بها أذرى وأعلم، وقد سُميت بعض أجزائها بسفر العهد، وجاء ذكر الميثاق والسمع فيها بما لا يستطيعون جحوده، وتتبع هذه الطرائف يُوحى بترفٍ عقليّ طريف.

وقد كانت للإمام مؤلفات خاصة بدروس البلاغة، قرّرت النظارة العلمية للجامع الأعظم وفروعه تدريسها بها، واعتمدت في برامج التدريس فور تأليفها، كما كان له تأليف في دروس الإنشاء والخطابة، وكتب الإنشاء - التي كانت ذاتة إلى عهد قريب

(١) الكتاب التذكاري، ص ٢٥٣.

في مصر- تطبيقية تتحدث عن الموضوعات فحسب، أما كتاب الشيخ فنظريّ قاعديّ، وهو خطوةٌ في مجال الحديث عن الأسلوب الأدبي وأمثلته الكثيرة من كتاب الله وسنة رسوله، ورائع الأدب العربي شعراً ونثراً، وهكذا كان الإمام علماً من أعلام البلاغة والتفسير معاً!

إصلاح التعليم

للإمام الطاهر قَدُمُ صدق في إصلاح التعليم الديني بتونس، فقد نشأ في عصر تجاوبت فيه دعوات الإصلاح بمصر على يد محمد عبده، وانتقل صداها إلى تونس فأمن بها نفر من الشباب والأساتذة، وقد زار محمد عبده تونس مرتين واجتمع بشيوخ الزيتونة وشبابها، ومنهم الطاهر، فكان طبيعياً أن يعرف الكثير من وجوه الإصلاح التي نادى بها الأستاذ الإمام، وقد ألّف الشيخ الطاهر كتابه (أليس الصبح بقريب) مفصلاً خطة الإصلاح التعليمي كما رآها، وقام الأستاذ عبد العزيز بن يوسف بعرض النقاط الهامة في البرنامج الإصلاحي، بعد تمهيد يفصل خطوات الإصلاح التي سبقت عصر الطاهر، وهي التي أدّت إلى يقظة فكرية تنكر الجمود، وتدعو إلى الحركة.

وقد أرجع الطاهر أسباب التأخر التعليمي إلى أمور منها غيابُ الخطة التعليمية، ووضعُ مراقبة صحيحة لضبطها، ومنها الفوضى وإهمالُ الضبط في تدريس الكتب، لأنّ التلميذ يتعلم باختياره حين يختارُ حلقةً ما من حلقات الجامع، وكذلك المدرّس يشرح ما يروق له من الكتب سواء أَرْضَى مستويات الطلاب أو ارتفع عنها، كما أنّ النقد الصحيح ليس له اعتبار في حلقات الدرس لأن الأستاذ يذكر التعريف ويُخرج المحترزات ويُرجع الضمائر، والطالب يستمع، وكأنه غائب، وأدهى من ذلك اختلافُ مدارك التلاميذ، فقد يجلس تلميذٌ متقدم مع آخر متخلف لا يدري شيئاً مما يقال، وكلهم طلاب، على أنّ إهمال التدريب والأسئلة والخروج عن قواعد اللّغة العربية نحواً وصرفاً في الحديث العلمي، وعدم انضباط سير الدراسة إذ يتأخر المدرس كما يشاء إذا وَجَدَ من الأعمال الشخصية ما يحول دون الدرس!

كلّ ذلك مما يتطلب العلاج، فإذا أُضيف إلى ذلك خلو المنهج الدراسي من مواد حية كالتاريخ والنقد وعلوم الأدب، فإننا نجد صيحات الطاهر ضرورية، وهي تذكرنا بما كتبه الشيخ الأحمد الطواهري في كتاب (العلم والعلماء)، لأن الحالة

بالزيتونة كانت شبيهة بالحالة بالأزهر، مع دعوة الأستاذ الإمام للإصلاح! وقد اتفق الإمام الظواهري مع الإمام ابن عاشور لسبب واحد، هو اقتناعهما بما كتبه الشيخ محمد عبده عن ضرورة الإصلاح وحثيَّته في الأزهر وما شابهه من معاهد العلم الديني، وكان ابن عاشور متقدماً عن عصره حين افترع مسائل التربية الحديثة فتحدث عن الغاية التكوينية في تربية التلميذ وترقية المعلم، وعن الغاية الفوقية في إنتاج قادة للأمة من بين طلاب المعهد الديني العريق، وعن الغاية الاجتماعية التي تسعى إلى الارتفاع بالمستوى الخلقي والاجتماعي بين البشر، فتكون هناك أهداف ينشدها الجميع ويحرصون على تحقيقها، ثم اتجه الشيخ إلى المطالبة بتدريس العلوم الحديثة كالرياضيات والفلسفيات وسائر ما يُدرس في الكليات الناهضة بالأمم العريقة، ويتعذر تلخيص كل عناصر كتاب (أليس الصبح بقريب) في هذه العجالة، ولكنَّ مما يدعو إلى الارتياح أنَّ كل ما نادى به الطاهر قد تحقق في الزيتونة على نحو مثمر، بحيث قربت الشقة بينها وبين المعاهد الأخرى في طريقة التناول والتوجيه، وإن غلبت مادة على أخرى وفق اختصاص كل كلية بنوع من أنواع التعليم.

وقد قال الأستاذ عبد العزيز بن يوسف في خاتمة بحثه^(١):

«والشيخ ابن عاشور في كتابه قد لاحظ واقترح وهدم وبنى في جراحة تبلغ أحياناً حد الثورة، إذ تكررت بصورة مكثفة - في كلامه - كلمات الفساد والخلل والنقص، كما تنوعت فيه أساليب الثورة على المحافظة والمحافظين، والجمود والجامدين، مما يجعل حركته الإصلاحية تتجاوز الحركة السلفية إلى بناء تصوّر مستقبل عقلي بإنشاء تعليم عصري، يلائم بين مقومات الدين الصحيح، ومتطلبات العصر، ويستجيب لحاجة البلاد والنهوض بالأمة، ومن درس الكتاب يدركُ الجراحة الكبيرة في آراء الشيخ، وخاصة إذا وضعناها في إطارها التاريخي، وقدّرنا نفوذ المحافظين، والتفافهم حول السلطة الحاكمة وما يمكن أن تلحقه به من أذى».

محقق التراث

قام الإمام بتحقيق بعض الآثار، وطبع مما حقق كتباً، وترك أخرى دون طبع،

(١) الكتاب التذكاري، ص ٢١١.

فمن أعماله المطبوعة شرح ديواني بشار والنابعة الذبياني وقصيدة الأعشى في مدح المحلق، والواضح في مشكلات شعر المتنبي، وقلائد العقيان؛ ومن أعماله المخطوطة ما ذكره الأستاذ، جمعه شيخه في كلمته حين أشار إليها دون أن يخصها ببعض التعقيب؛ ولعله لم يعرف الطريق إلى قراءتها، وقد أشار إلى حرصه على إثبات ما ينتمي إلى العبث، وهو أمرٌ فرغنا من الحكم عليه من قبل. أما منهج الرجل في التحقيق فقد قال عنه في مقدمة تحقيقه لكتاب قلائد العقيان^(١):

«بدا لي أن أعمل لطبعة علمية محققة، وأعلق عليه ما أغفله شارحه أو أغلقه، فأول ما صرفت إليه العناية ضبط نسخة القلائد، وشكل معظم كلماتها، فإن التردد في حركات الكلمات عند المطالعة يزيل بهجة المطالع الحاصلة من فصاحة الكلام، بما يحصل من قلق النفس من جراء التردد في كيفية النطق، لا سيما إذا كان المعنى يختلف باختلاف حركات الكلمات، كما يُزيل بهجة القارئ في نفسه وبهجة سامعيه بما يثلى عليهم، فإذا استقام ضبط الكلمات فقد خطأ الفهم خطوة تعقبها خطوات أخرى على تفاوت أهل الأفهام في العلم باللغة والنكت الأدبية، فذلك طوع الناظر إذا تدبر خفاياه، أو راجع خباياه».

وإذا كان الشيخ قد رجع في تحقيقه إلى خمس نسخ مخطوطة وست نسخ مطبوعة، وألزم نفسه أن يذكر في الهامش ما يجب ذكره من الاختلاف المؤدي إلى بُعد المعنى أو اقترابه، فقد قام بجهد جاهد مشكور، وبقي أن أسأل نفسي لماذا خص الإمام قصيدة الأعشى في مدح المحلق وحدها من بين قصائد ديوانه، وليست هي الفريدة المتتقة بين ما قال؟ لعل غرابة مناسبتها هي التي دفعته إلى ذلك؟ كما أسأل نفسي لماذا حرص على جمع شعر (سحيم) وشرحه وقد قام الأستاذ عبد العزيز اليمني من قبله في هذا المضمار بما لا زيادة بعده! من المؤكد أن الطاهر قد وجد ما يقوله بعد أن قرأ صنيع اليمني، ولا نستطيع أن نحكم على ما أضاف، لأن العمل لم ير النور!

هذا وقد خلت الطبعة الثانية لديوان بشار، وقد ظهرت في حياة الشيخ من التعليقات التي أضافها الأستاذان محمد شوقي أمين، ورفعت فتح الله، وهي زيادات علمية جيدة وضعت بين قوسين، وأضاءت بعض المشكلات الأدبية الهامة، ومن

(١) مقدمة القلائد، ص ٢٠.

فائدة العلم أن تبقى الزيادة كما ظهرت في الطبعة الأولى، ولعل لمن قام بالحذف وجهة نظر لا نعلمها، وهي مرجوحة فيما أرى.

نظرة فقهية

وفي كتاب الوزارة الذي ننقل عنه فصلٌ جيد عن منحي الشيخ الفقهى، وإذا كان الدكتور العروسي قد اكتفى بسورة البقرة عند الاستشهاد كيلا يتسع المدى به، فإن الأستاذ محمد طاهر الرزقي قد اكتفى بسورة الحج، فعرض لثلاث مسائل فقهية وقف عندها الشيخ وقفات دقيقة تدل على غوصه العميق، وقد أعجبني ما كتبه عن لحوم الأضحيات بمكة، التي تكثر كثرةً دون أن تجد من يأكلها من الفقراء، وهي مسألة طال الجدل حولها، ورُئي أخيراً أن تُعبأ في ثلاثيات ثم تبعث إلى الدول المحتاجة في شتى الأقطار الإسلامية.

أما الشيخ ابن عاشور فقد قال^(١): إن ما يبقى حياً من الهدايا في موسم الحج يُباع وينفق ثمنه في سدّ خلة المحاويج، وذلك أجدى من نحره أو ذبحه حيث لا يرغب فيه أحد، ومن رأيه أن اللحوم المتروكة تصبّر (تثلج) حتى ينتفع بها المحتاجون فيما بعد، وردّ على من يقول إن تصييرها منافٍ للتعبد بهديها فقال: إن التصبير أوفق بمقصد الشارع تجنباً لإضاعة ما فضل منها، ومعلوم أن مقاصد الشريعة نفع المحتاج، وحفظ الأموال، كما أنه يرى من بعض أوجوه الحلول أن يُوزّع نحر الهدايا على أيام النحر الثلاثة بحيث لا يُتعبّل بنحرها في اليوم الأول طلباً لفضيلة المبادرة، لأن التقوى التي تصل إلى الله من تلك الهدايا هي تحقيق النفع بها، ومراعاة حفظ المال هي الأصل.

سؤال:

أسائل نفسي بعد هذا النشاط المتعدد الوجوه كيف استطاع الإمام مع أعماله الإدارية الكثيرة أن يقوم بهذا الجهد العلمي على هذا النحو الفسيح، لقد قال عارفوه إنه مكث ثلاثين عاماً في تأليف (التحرير والتنوير) بأجزائه الثلاثين، بمعنى أنه كان يُخرج جزءاً كل عام، وهو صنيع مرتب وفق خطة مرسومة، حيث لم ينقطع انقطاعاً تاماً للتفسير في حقبة قد تقصر أو تطول، ولكنه جعل يتنقل في أفانين التأليف من

(١) كتاب الندوة، ص ٣٥٣ وما بعدها.

كتاب إلى كتاب، فهو يفسر آية، ثم يشرح قصيدة، ثم يحقق فصلاً من مخطوط، وفي هذا استرواح من التعب، لأنّ العمل المتّحد يضيف من السّامة والملال ما يعوق صاحبه عن الاسترسال، فإذا انتقل من فن إلى فنّ، شعر بالنشاط المتجدد، وأمّده ذلك بقوة قادرة، والرجل الكبير من أصحاب الإرادة القوية، وإلّا فكيف استطاع أن يعطي كل هذا العطاء الجم، وهو عطاء عميق يحتاج إلى غوص بعيد، فليس قصة تروى، أو نادرة تُحكى! وقد قال الإمام عن نفسه من كلمة ألقاها يوم أخذ جائزة الدولة التقديرية:

«إني أحمّد الله على أن أودع فيّ محبة العلم والتوق إلى تحصيله وتحريره، والأُسّ بدراسته ومطالعة، سجية فُطِرْتُ عليها، حتى أصبحت لا أتعلّق بشيء من المناصب والمراتب تعلّقني بطلب العلم، ولا آنس برفقة ولا حديث أنسي بمسامرة الأساتيد والإخوان في دقائق العلم، ورقائق الأدب، فلا تكاليف الحياة الخاصّة، ولا أعباء الأمانات العامّة التي حملتها فاحتملتها في القضاء وإدارة التعليم حالت بيني وبين أنسي في دروس تُضيء منها بروق البحث الذكي والفهم الصائب».

اختلاف نظر:

أطالع آراء الطاهر العلمية فأجدني معه في أفكاره المرتكزة على النظر الصائب، والبحث المتعمّق، ولكنني أطالع آراءه الأدبية فأخذ منها وأدع، لأنه كان شديد الجزم بأحكام هي في الواقع ليست موضع اتفاق الجمهور من مؤرخي الأدب، فقد قال بعد أن فضّل بشاراً على أبي تمام^(١): «إن بشاراً قد جمع في شعره أفضل معاني الشعر العربي القديم ومعاني القرآن وكلام الفصحاء، والذين جاؤوا عقب ظهور الإسلام، وأجود ألفاظ العربية الفصيحة، وتطرّق إلى وصف الحضارة الجديدة في أجلى مظاهرها فلم يُقنّه المتقدمون، ولم يفضلوه المتأخرون». إلى نمط من هذا الإطراء الفسيح.

ولا أدري كيف يجمع شعر بشار معاني القرآن، وكثير مما تورط فيه يُنافي هذه المعاني!! ثم من قال إن المتأخرين لم يفضلوه! وفيهم المتنبي وابن الرومي

(١) ذكرى سماحة الإمام وهي المطبوعة التي أشرف على اختيار موادها الأستاذ الأديب (الحبيب شيبوب)، برعاية وزارة الثقافة.

والبحثري وأبو العلاء! ثم لماذا يفضل أبا تمام، ولأبي تمام من العمق والتأمل والاستيطان ما لا يبلغه بشار! ^(١) لست أقول إن بشاراً لم يكن شاعراً كبيراً، ولكني أقول إن الإمام قد جاوز به قدره حين تقدّم به على أمثال أبي تمام، وقد قال الأستاذ أحمد حسن الزيات ^(٢) عنه: «إن شعره هو الحد الوسط بين الشعر القديم والحديث، فهو في المولدين كامرئ القيس في الجاهليين، والبارودي في المحدثين» وهذا هو الإنصاف حقاً، فقد فتح بشار باباً وجاء بعده من سار في خطواته حتى اتسع، وإذا لم يكن البارودي من طراز شوقي، فليس بشار من طراز أبي تمام والمنتبي!

صداقة عريقة:

سعد الإمامان الكبيران محمد الخضر حسين ومحمد الطاهر عاشور بصداقة عريقة مخلصة لوجه الأدب والعلم تحدّث كل منهما عنها مباحياً فخوراً، والحق أن خلافاً من العنصر الطيب، والخلق الرفيع، والهيّام بحقائق العلم والأدب قد جمعت بينهما على أتم صفاء، وأكمل وفاء، وقد امتدّت ساحة البعد بينهما منذ ترك الخضر تونس إلى ألمانيا فالشام فمصر، ولكنّ الرسائل بينهما كانت متبادلة، وقد جمع الأستاذ (علي الرضا التونسي) بعض رسائل (الخضر) إلى صاحبه، فكشفت عن ملامح الود الزكي، كما أبانت هيّام الإمامين بمسائل العلم والأدب، وفي كتاب (الرحلات) الذي جمعه الأستاذ علي الرضا من آثار الخضر بعد وفاته حديث الصديق عن الصديق، فقد ذكر الأستاذ الخضر أنباء رحلته من أوروبا إلى تونس ثم قال ^(٣) تحت عنوان (العودة إلى تونس):

ركبنا الباخرة قرطاج، وعندما أتينا على سمت بلد (المرسي) وانكشف من مبانيها ويساتينها ما عظم بتشوّقي إلى طلعة صاحبي الشيخ سيدي محمد الطاهر بن عاشور، وتضاعف عندي تذكّار عهده الوثيق، أنشأت مناجياً لفضيلته:

قلبي يُحيّيك إذ هبّت سفيتنا تجاه مطلعك المحروس يا علم
تحيّة أشرق الشوق الشديد بها في سلك ودّ بأقصى الروح ينتظم

(١) مقدمة الجزء الأول من الديوان، ص ٨٢، ط. الشركة التونسية.

(٢) تاريخ الأدب العربي للزيات، ص ٢٦٦، ط. الخامسة والعشرون.

(٣) (الرحلات) للأستاذ محمد الخضر حسين، ص ١١٥.

ومن ذكرياتي الحبيبة أتّي حين ذهبت للمرة الثانية إلى تونس، اشتقتُ أن أرى بلدة(المرسي) بلدة الإمام الطاهر، فصحبني إليها الأديب الكبير الأستاذ (الحبيب شيبوب)، وتوجهنا إلى زيارة قصر (الطاهر) بها، وهو منزل رحب تحوطه حديقة غناء ذات اخضرار وازدهار، ويدل على تمتع الأستاذ الإمام بذوق أي ذوق في تأمل الطبيعة، والاستمتاع برونقها الخلّاب، رحمه الله وأجزل له عظيم المثاب.

* * *

مولانا محمد علي الهندي المجاهد الداعية المكين

- ١ -

حين أعلنت الحرب العالمية الأولى، صمّت إنكلترا على أن تسوق المسلمين في الهند إلى محاربة تركيا، وتركيا مسلمة لم تقترف شيئاً ضدّ الهنود جميعاً مسلمين وغير مسلمين، ولكنّ إنكلترا تحاربها، وإنكلترا تستعمر الهند، فلها الحق من وجهة نظرها أن تسوق المسلم الهندي إلى محاربة أخيه المسلم التركي، وهذا ما دعا إليه الحاكم البريطاني، وأمر بإعداد الكتائب المحاربة من الهنادكة والمسلمين معاً ليسافروا إلى ميدان القتال.

فثارت ثائرة المسلمين جميعاً لهذا الاتجاه المنكر، وعقدوا مؤتمراً رناناً رأسه مولاي محمد علي يناقش الموضوع من كافة وجوهه، وقد أصدر المؤتمر قراراً حاسماً بمقاطعة الحكومة البريطانية في الهند، وبخاصّة فيما يتعلق بالقوات المسلحة حيث لا يجوز لمسلم أن ينضم إلى جيوش الإمبراطورية في محاربة أخيه المسلم في أيّ مكان كان، واستجاب المسلمون جميعاً لهذا القرار الحاسم، فطأ طائر الحاكم البريطاني وأمر باعتقال الآلاف من المسلمين، وبتقديم رؤساء المؤتمر القائمين على شأنه لمحاكمة قامعة أمام هيئة المحلفين، وهي مكونة من خمسة أشخاص، اثنان منهم هندوكيان وثلاثة مسيحيون أحدهما أوروبي، ووقف مولاي محمد علي مترافعاً عن نفسه وعن شقيقه مولاي شوكت علي، وخمسة من زملائه في قيادة المؤتمر وإصدار القرار، ولم يُنكر مولاي محمد علي التهمة، ولكنه أكّدها والتزمها، وجهر بحكم الله واضحاً صريحاً في عدم منازلة المسلم أخاه المسلم، وأجاب على كلّ اعتراضٍ يُوجهه رئيس المحكمة بقوة دافعة.

وقد استمرت المرافعة يومين في جلستين طويلتين، كلُّهما حجاج بالدليل، واستدلال بالنصوص القرآنية، وعزة شامخة لمتَّهم زعيم يرى نفسه بريئاً أمام ربِّه، ومتَّهماً أمام أعداء دينه، فمنحه الإيمان قوة صارمة، وعُنفاً يستطاب في مثل هذا الموقف الحاسم، عُنفَ الدليل المقنع، لا عنف الثرثرة الهادرة دُون إقناع، وقد اضطرت المحكمة إلى أن تُصدر حكم البراءة، فكان الحكم مفاجأةً للجميع، لأنها لم تستطع أن تدين المتهم ورُفقائه، إذ أظهرُوا قوَّة الحق وعنت الباطل فيما يُواجهونه من ائتمار.

وقد نقلت الصحف الأوروبية مُرافعة مولاي محمد علي وتُرجمت إلى عدة لغات غير العربية حتى مضت ثلاثون عاماً فَشُرت مجلة (المسلمون) ترجمتها على حلقات، وكانت الصحف العربيَّة حينئذٍ مقهورةً تحت سيطرة الرقيب الإنكليزي في مصر، والفرنسي في بلاد الشام، فلم يُتَّح لها أن تنقل شذرات من هذه المرافعة الساطعة الدليل، وهي وحدها تصلح أن تكون قانوناً عاماً يلتزم به كل مسلم في أي قطر كان، كما هي في الوقت نفسه تُبيِّن قوَّة الإيمان الصارم لدى مولاي محمد علي، وتُظهر بسالته الفائقة حين واجه الإعصار المحتدم بإعصار أشدَّ منه احتداماً، ثم كتب الله له التوفيق، فنال البراءة في الدنيا، والفوز في الآخرة بما أرسى من قانون، ودعّم من اتجاه.

بدأ مولاي محمد علي مرافعته يُعلن أن المسلم الهندي يقفُ أمام قانونين متعارضين، قانون أرضي وقانون سماوي، قانون أرضي وَضَّعه المحتلون ليسُوقوا المسلمين إلى حرب إخوانهم بغياً دون حق، وقانون سماوي وضعه الله مؤكداً أن المؤمنين أخوة وأن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، وأن المسلمين كالجسد الواحد إذا تداعى منه عضو تداعى له جميع الأعضاء بالسهر والحمى، وقد أعلن الحاكم البريطاني في أكثر منشوراته أن مبدأ التسامح الديني من مقررات الحكم البريطاني، وأن إنكلترا لا علاقة لها بمحاربة أيَّ اتجاه ديني في البلاد، ومازالت نعمة التسامح تتردد في الدوائر الاستعمارية وتُعلن في الصحف الهندية! فهل التزام المسلم بدينه لا يندرج في ظل هذا التسامح! أو أن للتسامح معنى آخر غير ما يفهمه الناس؟

يقول مولاي محمد علي: "إن نداء المملكة قد أعطى حماية القانون لجميع رعايا

الهند في ممارسة شؤونهم الدينية اعتقاداً وتطبيقاً، وأن العمل الذي يصدر عن أي شخص في الهند - مسلماً كان أو هندوكياً - ما دام هذا العمل مما يتصل بالتعاليم الدينية، فلا سبيل لقانون العقوبات عليه، وأي قانون آخر لا يقف ضده، وإنكم إن منعتُم اليوم هندوكياً أو مسلماً أو مسيحياً حقه في القيام بواجبه أمام الله، والعمل بما توجبه عليه عقيدته ابتغاء ثواب الآخرة، وخشية العذاب، ولم تسمحوا له أن يمارس تعاليم دينه، فإنكم بعملكم هذا تكونون شركاء في جريمة تدمير الحرية الدينية التي يتمتع بها الناس في هذه البلاد.

إنكم عند تسجيل المتطوعين تأخذون عليهم تعهداً كتابياً، وتلزمونهم بقسم مخصوص، فلنرفض أن الرجل هندوكي وأن الضابط أمره أن يذبح بقرة ليجهز له لحمها؟ إنه يرفض ذلك ولا ريب، ويتلو له شواهد من كتابه المقدس، وليس هناك فقرة من قانون العقوبات الذي بين أيديكم تُمكن القاضي أو المحلفين ليقرروا أن هذا الرجل مذنب تنفذ عليه العقوبة، لأنه يتصرف وفقاً لتعاليم دينه، فهل يُعطي نداء المملكة الحرة للديانة الإسلامية أو يستثنىها، فإذا كُنّا نطلب من الجندي المسلم أن يتخلى عن خدمته في الجيش البريطاني وأن يأبى التطوع، ونطلب من الآخرين أن يفعلوا ذلك، ونعلن ذلك ونثبتُه من القرآن فأئنا في تلك الحالة لا نكونُ مذنبين، ولا يمكنكم معاقبتنا، فحيثُ لا يخالف قانونُ العقوبات كتاب الله يسري مفعوله، فإن خالف القرآن ففانونُ العقوبات لهو فارغ.

ألا فلتعلموا - أيها المحلفون - أن كل مسلم يعيش في الهند البريطانية، بل في أي مكان، إذا كان عليه أن يخضع لقانون البلاد، فذلك لا يكونُ إلّا في حدود معتقداته الدينية، ولكن حيثُ أن الحكومة كما يظهر ليست تعلمُ كيف تصبغ عقيدتنا أعمالنا، وكيف ينبغي لأعمالنا أن تضطبع بها، فإن شيئاً واحداً لا بدّ من إيضاحه، هو أن الإسلام لا يجيز لأحد من أتباعه أن يُصدر حكماً على مؤمن آخر دون برهان مبين، ونحن كذلك لم يكن باستطاعتنا أن نقاتل إخواننا المسلمين، ولما نتأكد أنهم معتدون أو أنهم لم يحملوا سلاحهم في الذود عن عقيدتهم، وليس للمسلم أن يقول لا شأن لي بأخي، فإنه لا ينجو حق النجاة إلا إذا حصَّ أخاه على فعل الخير ونهاه عن الشر، فإذا أكره مُسلم على أن يخوض حرباً ضد مجاهدي الإسلام، فليس عليه

أن يأبى وحسب، بل عليه أن يجتهد في إقناع جميع إخوانه حتى يأبوا إياه، هذه هي عقيدتنا وعقيدة كل مسلم».

إن تلخيص هذه المرافعة، وقد استغرقت أربعين صفحة كاملة، مما يتعذر في مجال محدود، ولكن ما قُمت به هو إبراز ما تدور عليه من حقيقة جوهرية، كانت موضع التسليم المطلق من جميع مسلمي الهند، وهي أيضاً موضع التسليم من كل مسلم يعرف ما أنزل الله في كتابه، أما أسلوب المرافعة قانونياً وأدبياً فمما كان موضع الإعجاب لدى خصوم المتهم الشريف، وقد قاطعه رئيس المحكمة متذمراً من هول ما يُلقى إليه من قذائف البرهان، ولكن صدر مولاي محمد علي كان يتسع لكل مقاطعة، ويجيب بما يُوقع المعترض في حيرة! لأنه يدافع عن حق صريح لم يؤمن به فحسب، بل تغلغل في أعماقه، وصار دماً يجري في عروقه، ومن هنا كان نجاحه وبلاؤه المبين. . .

ولد مولانا محمد علي في العقد السابع من القرن التاسع عشر، إذ لا تُعرف سنة مولده على التحديد، وكان أخوه الزعيم المجاهد مولاي شوكت علي قد سبق ميلاده بست سنوات، فنشأ في أسرة مؤمنة تحافظ على تعاليم الإسلام محافظة دقيقة، بحيث كانت والدته قدوة المسلمات في بلدها، وكانت تبسط يدها بالخير لكل من ترى لديه حاجة للمعونة فشغلت مكان السيادة في بيتها، وجعلت تُعنى بتربية ولديها تربية إسلامية، قوامها حفظ كتاب الله، وتُنبذ من أحاديث الرسول ﷺ، وبعد أن أتمت الدراسة الأولية ذات التوجيه الديني التحقاً معاً بجامعة (عليكرة)، فألماً بنموذجين من الثقافة الإسلامية، والعلوم الغربية، وقد درساً الإنكليزية دراسة أهلتها إلى الالتحاق بأرقى الجامعات الإنكليزية في لندن.

وحين نال محمد علي أرقى شهادات الجامعة رجّع إلى الهند، وفي نفسه آمال واسعة أن ينهض بقومه نهضة مستقلة، ولكنه وجد المستعمر الإنكليزي يقفُ عقبة أمام نهوض الهنود عامة والمسلمين بنوع خاص، إذ رأى فيهم توتُّباً للحرية، وتطلعاً للاستقلال بعيداً عن سيطرة المحتل، فأعلن محمد علي الثورة على هذه النية الميئة، وخلع ما كان يرتديه من لباس الغرب، وعاد إلى زي مواطنيه حائثاً كل هندي على ألا يلبس إلا من نتاج بلده الصناعي، وجعل ينتقل في شتى البلاد الهندية ليُبث دعوة الاستقلال، كما شغل نفسه بقضايا العالم الإسلامي جميعه، فما كانت تلم

مأساة استعمارية بموطن إسلامي إلا كان محمد علي سريعاً للدعوة إلى معاونة المعتدى عليهم بالتبرعات المالية، وحين تنكّر الغرب للخلافة الإسلامية وعَاوَن دُعاة العلمانية في سقوطها أَلَفَ جمعيةً هندية سماها (جمعية الخلافة)، وأصدر المقالات الصارخة بفضيحة التآمر العلماني على أقوى رموز الإسلام، ولم يشأ أن يقتصر جهده التضالي على ساحة وطنه في الهند بل عزم على الرحلة إلى أوروبا، ليجهر بما يتأكده من التآمر الصارخ على المسلمين.

يقول الأستاذ الكبير عبد الحميد سعيد متحدثاً عنه^(١):

«ثم سافر بعد ذلك على رأس وفدٍ من إخوانه المسلمين إلى أوروبا للدفاع عن دولة الخلافة بلسانه وقلمه فزارَ عَوَاصِمَ دُولِ الحلفاء، وظهرت كفاءته رحمه الله في السياسة والخطابة حتى اعترف خصومه بقوة تأثيره، وكان موضع التجارة والاحترام في كل مكان ذهب إليه، ولما عاد إلى مسقط رأسه ليواصل جهاده قُبِضَ عليه مَرَّةً أخرى، وأُلقي في غيابة السجن، ولم يفلُ ذلك من عزمته، بل زادها مضاءً وحميةً، فكنت تراه كالبركان الهائج يقذف بالحمم كلما سمع بظلم حلٍّ ببلد إسلامي، فيحملُ على الظالمين حملاتٍ صادقة بقلمٍ من نارٍ ولسانٍ أرهف من الصارم البتار، حتى يثير العواطف، ويحرك النفوس، فكم جَمَعَ من الأموال لإغاثة البائسين من أهل الأناضول، ومنطقة الريف [بالمغرب] وكم ناضل وجاهد عن بلاد الإسلام التي حَلَّتْ بها النكبات، وانتابتها النوائب، ولا أنسى موقفه العظيم في قضية فلسطين، والمسجد الأقصى، فقد سجَّلَ له بذلك صحيفة بيضاء لا تمحى أبد الدهر».

ولم ينسَ الدكتور عبد الحميد سعيد أن يشيد بموقفه من التعاون مع الإنكليز في حرب الأتراك، فسجَّلَ ذلك حين قال في خطابه التأبيني^(٢):

«قامت الحربُ العامة، تلك الحرب الطاحنة الضروس، ودخلت الهندُ فيها مكرهة، فكان الفقيدُ رحمه الله هو الذي قام بين إخوانه الهند يستنكر تلك الحرب، ويُنادي بعدم الاشتراك فيها، حتى لا يقف المسلمون في صفٍّ واحدٍ مع أعداء الخلافة، ولم يعبأ بتهديد ولا وعيد، ولا بما يُحيط به من خطر داهم في تلك الساعة الرهيبة، واستمرَّ في دعوته بشجاعةٍ كانت مضرب الأمثال، حتى قُبِضَ عليه، وأُلقي

(١) مجلة الشبان المسلمين، السنة الثانية، سنة ١٩٣٠، ص ٣٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٥٩.

في السجن إلى أن وضعت الحرب أوزارها».

وقد رأينا في صدر هذا المقال ما أعقب ذلك من مُحاكمته المُتَعَسِّفة، وما قام به من دفاع أدى إلى تبرئته، وما كاد يتحرر من السجن حتى دعا إلى تأليف جمعية الخلافة! مبيّناً أعداءها المتربصين بها من الأتراك أنفسهم كيلا ينخدع المسلمون بأراجيف المموهين... وكانت كلماته تُترجم إلى العربية والتركية والفارسية وتوزع في شتى ربوع العالم الإسلامي لتحدث دويها البعيد.

وإذا كان صاحب هذا الرأي الحرّ لم يعبأ بالحاكم البريطاني في بلده، فإنه كان أشدّ حمية وأعلى صوتاً في إنكلترا نفسها، حين سافر إلى لندن لبحث قضية المسلمين على صفحات جرائدها، ثم على المنبر العام في حديقة (هايدبارك)، فواجه الشعب الإنكليزي بصراحته المعهودة، واستمع إلى الأسئلة المعترضة، وأجاب عليها في ثقة واطمئنان، لأنه يدافع عن قضايا آمن بها إلى درجة اليقين، ومعه لكل مسألة برهان لا يُقْل.

سأله سائل بحديقة (هايدبارك) عن كراهة المسلمين للتجديد، وهو باب التقدم الحضاري، فردّ في إقناع بأن التجديد الذي يُريده الاستعمار هو أن يهدم كل تراث ديني صالح للبقاء، وأن يُفنى المسلمون في الغرب فلا يظهر لهم كيان مستقل في عقائدهم ومعايشهم وأحوالهم الاجتماعية، وهذا ما يلفظه الهنود جميعاً، أما التجديد الحضاري الذي يدفع إلى الحياة الصالحة فمن أول ما نبّه الإسلام إليه ودعا له، وما ارتفعت مدينة الإسلام في عهودها الزاهرة إلا بمواصلة التجديد، فعلى إنكلترا أن تبني ولا تهدم، أما إذا أرادت الهدم للعقيدة والكيان والمثل العليا بدعوى التجديد فهي مخطئة حين تظن أن المسلمين لا يفتنون إلى كيدها الصريح.

وحين طالبه بعض المستمعين أن يترك زيّه التقليدي الذي يرتديه، صاح قائلاً: إنه من صنع بلادي، وبأيدي أبناء بلادي. وهذا بعضُ مظاهر الاستقلال الصحيح، ومن العار أن يتزيا بزّي أمة تحتل بلده وتنهب خيرها وتظن أن أتباعها في مسائل الملبس والمطعم والمسكن مصدرُ رفعة للمتبوع، وهو يرى أظافرها ناشبة في عنقه وماله في جيبيها، وأبناءها يأكلون ويشربون من عرق مواطنيه! إن كلّ زخرف كاذب يُوحى به الملبس والمطعم نضعه تحت أقدامنا، لأننا نواجه الحقائق ولا نُعنى بالزخارف والتهاول.

وحين يُسأل عن الدين الإسلامي، وأن قوانينه لم تعد تصلح للقرن العشرين يصبح بالسائلين: أنتم لم تدرسوا قوانين الإسلام، وإن الإسلام دعا إلى الحرية والإخاء والمساواة، وأوروبا جميعها غارقة في الظلمات، وكلّ ما جاء به الثورات الأوروبية منذ قرن أو قرنين جاء الإسلام بخيره وتجاوى عن شره، وقد انتصر الإسلام في حروبه بسماحته وعدالته، ولذلك اعتنقته البلاد النائية عن طواعية واختيار، والقانون الإنكليزي مثلاً يمنع البغي والسطو والنهب، فهل منع إنكلترا من استعمار الشرق واغتصاب ذخائره، أم أنها سطورٌ تُكتب ولا تجد التنفيذ في غير أوروبا وحدها؟!.

وحين يُسأل عن اهتمامه ببلاد الإسلام، حيث يتحدث عن مآسي الاستعمار في مصر وتونس وسورية والمغرب وليبيا، ولا يقصر حديثه عن بلده مع أننا نعيش في عصر القوميات؟ يتساءل محمد علي؟ ما الذي دفع أوروبا إلى الحرب الطاحنة غير القوميات! إن الذي يجعلُ دولته وحدها كل شيء في العالم، ويطلب لها السيادة والسيطرة، يقذف بها قريباً أو بعيداً إلى حرب تأتي عليها، وقد تنتصر ولكنها تفقد ملايين الأرواح، لأن القومية - كما لاحت بوادرها في أوروبا جميعها - مصدرُ أنانية وأثرة، وترتص بالصغار كي يفنوا في نطاق الكبار، أمّا الإنسانية التي فرضها الإسلام فتجعل المساواة الحقيقية مبدأً للجميع، وقد أوجدتُم عصبة الأمم بدعوى أنها تحكم بين المتنازعين وتدفع بالحق إلى صاحبه، ولكنها لم تفعل شيئاً من ذلك، بل مالأت المستعمرين، واضطهدت الأثرياء، والقومية اليوم تطلّ برأسها في ألمانيا وإيطاليا، وستنمو وتستشري حين توفد حرباً مقبلة.

هذا ما قاله مولانا محمد علي سنة ١٩٢٨ م وقد صدقتُ فراسته، فما حانت سنة ١٩٣٩ م حتى شبت الحرب العالمية الثانية، شبّتها ألمانيا تحت ستار «ألمانيا فوق الجميع»، وإيطاليا تحت سيادة الحكم الفاشي، وانقلب العالم كلّهُ إلى مجزرة رهيبة، لأنّ الذي لم يتأثر بالقتال قد تأثر بالقحط والمرض والغلاء...

لقد بثّ مولانا محمد علي آراءه الناقدة من أعلى منابر أوروبا، وجال بالعالم الإسلامي ليعلن هذه الآراء بين المسلمين داعياً إلى الوحدة الحقيقية التي تجعل بني الإسلام عضواً واحداً، والتي تدفع كل دولة إسلامية إلى التعاون مع شقيقتها تعاون الأصابع في اليد الواحدة، ولأمرٍ أراد الله اندفعت بعض الأقلام إلى توهين مذهبه،

لأنَّ عُشاق أوروبا قد سَكروا بخرمها، فأخذوا يدعون إلى الانفصال، ويحبذون كل حركة تُنادي بفصل الإسلام عن القيادة، ولكنَّ مبادئ محمد علي قد وجدت في كل متَجوِّ من يستمع إليها، لأنَّه لا يتحدث عن نفسه بل يتحدث عن دستور قائم سَجَله القرآن في محكم آياته، وهو إذا عبَّر عن هذه المبادئ في خطبه السائرة فإنما يُعبِّر عن مشاعر واضحة يحسُّها دارسو الإسلام، ويسجِّلونها في كتبهم وأحاديثهم، ولن يُغلب رأيٌ يستقي تعاليمه من نبع القرآن، لأنَّ كتاب الله غالبٌ لا مغلوب، وهذا ما تضيق به بعض الصدور . .

- ٢ -

زار مولانا محمد علي أكثر ديار الإسلام مُوجَّهاً مرشداً، عارضاً تجاربه الخاصة بالدعوة إلى جمع الشمل، وتوحيد الكلمة في العالم الإسلامي، وبعمق نظره، وواسع إلمامه بالوضع السياسي في أوروبا أدرك ما يُبيته المستعمرون لفلسطين من شرٍّ ماحق، إذ يعملون جاهدين على احتلال الصهيونية لهذه الأرض التي باركها الله في كتابه، وقد كان على صلة وثيقة بزعماء فلسطين وفي مقدِّمتهم الحاج محمد أمين الحسيني حيث تبادلوا الرأي فيما يكرث العرب من مشكلات .

وفي إحدى زيارات مولانا محمد علي للقدس، صمَّم الإنكليز على منعه من الزيارة، وأصدروا الأمر باحتجازه إذا عبر الحدود قادماً من بيروت، وعلم بذلك الحاج أمين، فأوقد سكرتيره الأستاذ (عجاج نويهض) للقاء الرجل في بيروت، وإطلاعه على كل ما يتعلق بالمأساة الفلسطينية، وما يدبِّره الحاج أمين من خطط، مع إبداء الرأي في كلِّ ما يسمع، مع النصيحة بعدم الزيارة كيلا يتعرض لاعتقال ظالم يدبِّره المغرضون، وفي هذا اللقاء أوضح مولانا محمد علي وجهة نظره في كلِّ ما قدَّمه الحاج أمين من أفكار، وكتب خطاباً مسهباً يوضِّح بعض الغوامض التي تحتاج إلى توجيه، ثم رجع ثانية إلى الهند، معتقداً أنه أدَّى دوره في حدود المستطاع!

وفي زَوْرته - التالية لحادثة امتناعه الجبري عن زيارة فلسطين - إلى مصر، أقامت له جمعيةُ الشبان المسلمين حفلاً تكريمياً ألقى به كلمة سياسية تضمنت أفكاره في الاتحاد الإسلامي، ودعت إلى مقاطعة الإنكليز في كل وطن إسلامي، موضِّحاً أنَّهم جرثومة الشر في العالم الإسلامي، ودارت أسئلة جمة عن مشكلات المسلمين في

بلادهم القريبة والبعيدة، فأجاب مولانا محمد علي بما كان موضع الارتياح، وأذكر أنه لفت الحاضرين إلى ملبسه الشرقي المتواضع، وقال إنه من صُنع بلاده، وأن إخوانه الهنود قد حاكوا مذهبه في مقاطعة كل ما هو إنكليزي، وقد نادى بهذه الفكرة قَبْل أن يؤيدها زعيم الهنادكة (غاندي)، فأصابت الشلل في كثير من المحلّات الممثلة ببضائع الإنكليز، واضطر أصحابها إلى أن يتجهوا إلى ما يُنتجه الهنود في مصانعهم المتواضعة، وحسبهم أن يعتمدوا على أنفسهم في متطلبات الحياة.

وقد وجّه بعض الصحفيين أسئلة خاصة بحياة مولانا محمد علي ونشأته الأولى وطُرق ثقافته، ومَدعاة اتجاهه إلى قيادة المسلمين في موطنه، فاعتذر عن إيضاح كل ما يتعلق بشخصه، وقال إنه لم يزد عن كونه فرداً يدين بالإسلام ويعمل على انتشار مثله الرفيعة. وظلّ المصريون في حاجةٍ إلى معرفة هذه النشأة المباركة، حتّى حضر شقيقه مولاي شوكت علي بعد وفاة أخيه، فأقيم له احتفال كبير، وطلب منه أن يحكي طرفاً من نشأته ونشأة أخيه، وكانت المربية الفاضلة (زكية عبد الحميد سليمان) من فضليات سيدات مصر قد زارت الهند، ونزلت ضيفاً على السيدة النبيلة زوج مولانا محمد علي، ورأت من تقاليد المنزل الدينيّة ما حرصت على أن تبلغه إلى السيدات المصريات، فاقترحت على مولانا شوكت أن يتحدث عن أسرة البيت الكريم، وأثره في تكوين محمد علي شوكت على هذا التكوين المثالي الباهر، ودعت فضليات العقائل بمصر لسماع محاضرة مولانا شوكت علي التي ستضمن سيرة طاهرة عن نشأة زعيمين إسلاميين كبيرين، هما شوكت ومحمد، وحبّد الدكتور (عبد الحميد سعيد الاقتراح)، فحدّد له موعداً بقاعة الاحتفالات العامة بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، فألقى شوكت علي كلمة رائعة نُشير إلى بعض ما جاء فيها بإيجاز، لدلالته على طُرفٍ من سيرة الزعيمين واتجاههما الفريد.

قال مولاي شوكت علي بعد مقدمة شاكرة، واعتذارٍ عن صراحةٍ قد لا تجد القبول لدى بعض الناقلين^(١):

إن والدتي قد أنشأتني أنا وأخي مجاهدين في سبيل إعلاء كلمة الله، والذبّ عن حياضه، وهي التي كوّنتنا هذا التكوين، وغرست فينا هذه الميول، وأنا وأخي مدينان لها بما اتجهنا إليه من إصلاح وكفاح.

(١) مجلة الشبان المسلمين، السنة الثانية.

لم تكن والدتي ذات ثقافة عالية مثلكنّ الآن (المخاطبات سيدات فضليات) ولكنها كانت امرأة قوية بإيمانها، وقد حفظت القرآن الكريم، وأخذت ثقافتها منه وحده، وهو كاف كاف! وقد توفي والدي عن أربع بنات وعني وعن أخي وكان عمره عاماً واحداً، وعمري سبع سنوات، لأنني أسبقه بستة أعوام، وقد ترك من ورائه ديناً ثقيلاً رُهِنت من أجله تركته، فباعث والدتي حليها وزينتها وحرمت نفسها من كل طبيبات الحياة، لتُعين الأسرة على الحياة، وأتاحت لي ولأخي أرقى أنواع التعليم في هذا العهد، وخلّصت التركة من الديون وبذلت في ذلك ما لا يقدر عليه كثير من الرجال، وقد طلبت السيدة (زكية عبد الحميد) أن أتحدّث عن أسرتي فأوجزت الحديث حريصاً على أن تنتفع به حضراتكن، ليكون منكنّ من تسلك سبيل والدتي في ثقافتها القرآنية وحرصها على سعادة أبنائها مضحية بكل متاع.

إنّ السيدات الهنديات محتجبات، والسبب في ذلك أن المسلمين أقلية في الهند، وكانوا قبل الاحتلال الإنكليزي أصحاب الشأن في إدارة البلاد، فلما داهمنا الاحتلال كان من همه أن يحرم المسلمين من كل ارتقاء، فحاسب الأكرية من الهنادكة وجعل الحكم في يدها، وخشي المسلمون على نسايتهم أن يؤذّن إذا خرجن سافرات، لتحترس السفلة من الرعاع بهن، ونتج من اضطهاد الهيئة الحاكمة للمسلمين أن ساءت حالهم الاقتصادية، وهجروا دُور التعليم، ثم نظروا فوجدوا الوظائف قد ملئت بالهنادكة وحدهم، فقرّروا أن يُزاوِلوا التعليم في مدارس خاصة بهم، وفُتحت كلية (عليكرة) لتخرّج من أبناء المسلمين من يقودون المسيرة في موكب العلم، وقد تبرعت السيدة (ناهيكن بان) ملكة بهوبال بمبلغ مليون روبية مساعدة للكلية، فأدّت بذلك عملاً عظيماً، وبهذه الكلية نشأ جيل مثقف يتعصب لدينه، ويغار على الإسلام غيراً شديدة، وأنا وأخي من طلاب هذه الكلية العريقة.

أعظم ما نراه في تلاميذ هذه الكلية هو الغيرة الشديدة على أبناء الإسلام في كل مكان، فمسلمو الهند بقيادة مثقفهم قد هبوا لمساعدة دولة آل عثمان أيام الحرب الإيطالية والحرب البلقانية، ولما أسقط مصطفى كمال الخلافة ألّف مسلمو الهند جمعية للعمل على إحياء خلافة الإسلام، لأنهم يرونها أقوى رباط للدول الإسلامية شرقاً ومغرباً، وقد جمع مسلمو الهند نصف مليون روبية لتأليف جمعية الخلافة في

أول سنة، وفي السنة الثانية جمعوا مليون رويية، ومنهم من هو في أشد حالات الاحتياج.

وحين قُدمت للمحاكمة أنا وأخي، جاءت والدتي وزوجة أخي إلى «كراتشي» لترقبا أمور المحاكمة، وجعلتا تخطبان في كل مَلَأ من الرجال والنساء تدعوان إلى مناهضة المحتل الغاصب، وتستكران هذه المحاكمة الباغية، ثم قال مولاي شوكت علي ما نصّه - والخطاب للسيدات -^(١):

«تصوّرَنَ هاتين السيدتين المختجبتين طول حياتهما تنضيان عنهما رداء التهيب وتترلان إلى ميدان الجهاد في سبيل الإسلام، وتحملان العبء الذي كنتُ أحمله أنا وأخي ونحن رجلان متعلمان، وتنجحان هذا النجاح الباهر، إني أستنتجُ من ذلك أن المرأة لو أعطيت الفرصة الكافية من التعليم الراقي لنجحت في الحياة نجاحاً يفوق نجاح الرجل، ولتمت على يدها جلائل الأعمال الخيرية، لأنها بفطرتها أميل إلى الخير من الرجال».

ثم مضى المحاضر يتحدث عن مآسي العالم الإسلامي، وانبهار بعض الموفدين من أبنائه إلى أوروبا بخلاعة الغرب ومبازله، واحتقارهم لتعاليم دينهم! مع أن المرأة الأوروبية التي يهيمون بها، لا تبلغ مبلغ المرأة الشرقية في المحافظة على عفافها، ولست أقول ذلك تعصباً للمرأة الشرقية، ولكني أصف ما شاهدت.

هذا بعض ما يصوّر الجو العائلي الذي نشأ فيه مولاي محمد علي وشقيقه شوكت، وإذا كان الزعيمان قد بذلاً حياتهما دفاعاً عن مقدسات الإسلام وتعاليمه، فالى هذه النشأة الإسلامية الباهرة يرجع ما أحرزاه من نجاح رائد، كان القدوة الممتازة لشباب المسلمين في الهند إلى مدى طويل.

وإذا كنتُ في هذه التراجم المتواضعة أنشد القدوة للشبيبة الإسلامية بتسطير أعمال الفضلاء من أبناء الأمة الناهضين، فإنّ ما ألفتُ إليه في مجال الحديث عن مولاي محمد علي هو موضع القدوة في سيرته، وقد كتب الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب فصلاً موجهاً عن الزعيم المجاهد أشار فيه إلى مصدر العظمة الأصيلية في سيرة هذا المجاهد، فأرجعها إلى عاملين أحدهما: أسلوب تعليمه،

(١) مجلة الشبان المسلمين، السنة الثانية، ص ٤٢١.

ولون ثقافته، وثانيهما: كيفية استفادته مما تعلم، وتصرفه فيما وعى من الثقافة.

أما عن العامل الأول فقد ذكر الأستاذ الخطيب^(١) «أن للتعليم الإسلامي المعاصر لونين، أحدهما وُضع لأمتنا في غير زماننا، والثاني وُضع لأمتنا في زماننا، وفي كلٍّ من الثقافتين موضعُ ضعفٍ يحولُ بين أصحابه وبين أن يقودوا هذه الأمة إلى الخير، لأنَّ أحدهما يتحدث بلسان زمنٍ مضى فلا يفقه أهل هذا الزمان ما يخاطبهم به، والثاني يرطنُ لأُمته بلسانٍ أُمِّ غربيةٍ عنهم فلا تعباً بما تسمعه منه، وأيّ مصلح رأيت الأمة سائرة وراء مؤتمّة به، فلا بد أن يكونَ من الذين طعموا التعليم القومي باللّبان العصري، أو عزّبوا التعليم العصري بالذوق القومي، واستعرض إذا شئت ثقافة جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده والسيد أحمد خان وسعد زغلول وسائر رجال النهضة الإسلامية تجدهم ممن ثقفوا بثقافة الإسلام وفهموا روح العصر، فاستعانوا بما فيها من خيرٍ للوصول إلى الخير ونالوا بعض النجاح على مقدار عنايتهم بالتوفيق بين الثقافتين، ولقد اجتمعنا بمولانا الزعيم محمد علي فرأيناه في الذروة العليا من الثقافة الإسلامية مع فهمه روح عصره أجود فهم وأصدق، فقد تلقى ثقافته بجامعة عليكرة، وأسلوبها يوجد في نفوس من أراد الله له الخير مناعةً تحول بينه وبين خرافات الشرق، ومغريات الغرب.

أما العنصر الثاني فهو كيفية استعمال مولانا محمد علي معارفه، لأنَّ الناس عندنا يتعلمون ليتوظفوا فيتناولوا من خزانة الحكومة كلّ شهر ثمن علمهم، ثم ينصرفون إلى أمورهم الخاصّة فيعيشون في عزلةٍ عن أمتهم، أما محمد علي فقد حرص على تقويم آرائه، وتكوين عقيدةٍ صحيحةٍ له في الحياة، حتى إذا اطمأن إلى الخطة التي رأى أن يدعو أُمته إليها كتب نفسه عند ربه جندياً لنصرة الإسلام، وإنعاش الخلافة، وتحرير الأوطان، وإعداد الأمة ليوم الخلاص، وفي سبيل ذلك استعمل معارفه، وكان يعلمُ أنّه سيصطدم بقوىٍ معارضة، فوطّن النفس على الجهاد وتوكل على ربه، وصار يعمل لا لأجلِ ثمنٍ يقبضه، بل ليمتّع نفسه بلذة النجاح، وليرضي ضميره بأنه لم يألُ في السعي جهداً».

لقد أصاب الأستاذ الخطيب في تحديد مسيرة مولاي محمد علي بدءاً وغاية، وهي غاية فهمتها الصفوة من أبناء الأمة الإسلامية في كلّ أقطار الحنيفة، فأنزلت

(١) الحديث: ٢١٧/١١.

الرجل الكبير من نفوسها أجمل منزل، وقد وضح أثر ذلك حين طار النبا الأليم بوفاته في لندن، وعَمَل أخوه على نقل جثته إلى الهند، إذ رأى سماحة السيد محمد أمين الحسيني أن يقوم بعمل تكريمي فذ للراحل العظيم، فأمر بدفنه في المسجد الأقصى تكريماً إلى جهاده، وأبرق لأخيه بإنكلترا كي يعدل مسار الجثة من بمباي إلى القدس، ولاقى الاقتراح صدًى عظيماً في العالم الإسلامي جميعه .

ونحن نشير هنا إلى خطوات تنفيذه ليعرف الجيلُ الراهنُ أنَّ الجيل الماضي كان أشدَّ منه حميةً وغيرَةً على زعماء الإسلام من المخلصين المستبسلين، إذ ما كادت الباخرة تنتقل بالفقيد من لندن إلى بور سعيد، حتى هُرع آلاف المصريّين إلى توديع الراحل حكومةً وشعباً، فاستقبل الرفات الطاهر محافظ القنال مندوباً عن جلالة الملك فؤاد، وأرسل رئيس الوزراء مصطفى النحاس زعيمُ الأمة المصرية من يمثله في هذا الاستقبال، وكذلك أرسل الأمير عمر طوش مندوباً يعبر عن شعوره، وقامت الحكومة المصرية بتوجيه رئيسها الزعيم الجليل بنفقات المشهد من ساعة وصوله إلى أن حملت الراحل قاطرةُ القنطرة متجهة إلى فلسطين، وبعد أن صُلّي على الجنازة في مسجد بور سعيد، سار النعش في موكبٍ فخم تحفّ به الجنود، ويتقدمه العلماء ومندوبو الجمعيات والهيئات ورجال القضاء والمحامون والأطباء وأعيان المجلس البلدي والكتاب والأدباء والمواطنون من ذوي الحيثيات، حتى ازدحمت شوارع بور سعيد بمن وفد إليها من كافة أنحاء القطر المصري، وفي المساء دعا سعادة محافظ القنال (مندوب جلالة الملك) آل الفقيد، وممثلي الهيئات والجمعيات إلى مأدبة الإفطار (إذ كان الموسم موسم الصيام في رمضان) فكانت هذه المأدبة أكبر مظهر للأخوة الإسلامية ذات الأصل الوثيق .

وفي فجر الجمعة خرج سكان فلسطين من حدود مصر حتى بيت المقدس لتحية رفات الزعيم في مسيرة القطار، فكانت كلّ بلدة تُقابل القطار بالتهليل والتكبير، رغم شدة البرد قبل انبثاق الفجر، وحين وصل القطار إلى منطقة (اللد) تجمعت الجماهير من كل صوب، واصطفّ طلاب المدارس وطالباتها في موكبٍ مؤثّر توديعاً للراحل، واستمرت المدن الفلسطينية تقابل القطار بأبهى مظاهر التكريم، حتى وصل إلى القدس فكانَ في الاستقبال جميعُ أهل الحيثيات مع قناصل الدول ورؤساء الدين المسيحي، وابتدأ سيرُ موكب الجنازة من المحطة إلى المسجد

الأقصى في الساعة العاشرة في موكب قدّره المراقبون بمئتي ألف نسمة، وبلغ النعش المسجد الأقصى فازدحم على رحابته بآلاف المصلين وقد قدّر عددهم بمئة ألف حول المسجد وداخله، وبعد انتهاء الصلاة أقيمت حفلة تأبين كبرى خطب فيها السيد أمين الحسيني وتلاه أحمد زكي باشا وعبد الحميد سعيد ثم ألقى الأستاذ عبد الوهاب النجار وكيل جمعية الشبان المصريين قصيدة خالدة لأmir الشعراء أحمد شوقي تحدّث فيها عن مآثر محمد علي، وختمها بأبيات رائعة قال فيها:

قلّ للزعيم محمد نزل الأسى	بالنيل واستولى على بطحائه
فمشى إليك بجفنه وبدمعه	وإلى أخيك بقلبه وعزائه
اجتزته فحواك في أطرافه	ولو انتظرت حواك في أحشائه
نم في جوار الله مابك غربه	في ظل بيت أنت من أبنائه
أفتى بدفئك عند سيّدة القرى	مفتت أراد الله فسي إفتائه
بلد بنوه الأكرمون قصورهم	وقبورهم وقف على نزلائه
قد عشت تنصره وتمنح أهله	عوناً، فكيف تكون من غربائه

وهكذا كان ختام الحياة الخالدة للراحل العزيز شهادة بفضله، واعترافاً بنضاله، شهادة لم يدفع إليها ملقّ كاذب، أو رياء خادع، بل نطقت بها القلوب قبل الألسنة، وجلجلت بها الأرواح قبل الأشباح . .

* * *

محمد عمر التونسي رائد اليقظة التعليمية في النشر والتحرير

يقول العباس بن الأحنف :

حدثوني عن النهار حديثاً أو صفوه فقد نسيئتُ النهاراً
وليس العباس وحده هو الذي نسي النهار مع اتّلاق نوره، وسطوع ضيائه،
ولكنّ أكثر الناس مثله ينسون النهار، وقد بهر العالم بضوئه، فهم لا يكادون يذكرون
شمسه الساطعة، ونوره البسام! وإلا فكيف يذكر مؤرخو النهضة العلمية المعاصرة
عشرات من الأدباء والعلماء فتُفرد لهم المؤلفات وتُسجّل عنهم الرسائل الجامعية،
ثم يُنسى رائدٌ كبير شارك في ميادين شتى من ميادين النهضة المعاصرة، بل كان أستاذ
الرواد في بابهِ، فهو رائدٌ في مجال النشر لكُتُب السلف، ورائدٌ في وضع القواميس
العلمية ورائدٌ في تصحيح ما يصلح للتدريس بمعاهد الطب والهندسة والصناعة، من
كُتُب السلف لتكون بمصطلحاتها الغنية مدداً للخلف، بل هو رائدٌ في كتابة الرحلات
المعاصرة، إذ زار بلاداً غريبة عنه، وعاد ليصف ما رآه وصَفَ الناقد البصير . .

كان الشيخ محمد عمر التونسي مجدداً في كلّ هذه الاتجاهات، وباعث نشاطٍ
علمي يُدوّي صداه في المحافل شرقاً وغرباً . . ثم تمضي الأيام فيذكر المؤرخون من
نَقَلَ كتاباً من الورق الأصفر إلى الورق الأبيض دون عناء، ويذكرون من التقط
مصطلحاً أو عدّة مصطلحات في فنّ واحد، ويذكرون من ألقي عدّة دورس بمدرسة
واحدة لم ينتقل منها إلى سواها، يذكرون هذه الأنماطِ ذكر المُعجب الفاجر، ثم
ينسون من تعددت مواهبه فأحاط علماً بكلّ ما صنع هؤلاء، وكان سابقاً لهم يمهد
الطريق ويرفع الصخر، ويضع البذر ويسقي الزرع! ينسونه مع سطوع أعماله سطوع
الشمس المشرقة، والنهار الوضيء! هذا النهار الذي نسيه العباس، وعذره أنّه عاشق

لا تثريب عليه، فما بالنّا تنسى علم الأعلام، ونحن عمليّون لا عاطفيّون، ومؤرخون لا عاشقون، فيالأب خذله بنوه، وبالميراث ضيّعه وارثوه.

موقف سابق:

كنت كتبتُ فصلاً متواضعاً في الجزء الثاني من موسوعة (النهضة الإسلامية في سیر أعلامها المعاصرين) تحدثتُ فيه عن رُود التراث العربي الأوائل في صدر هذا العصر، فأشرتُ إلى جهود الطنطاوي والتونسي والهويرني والعدويّ والدسوقي، وتحدثتُ عن كلّ فاضلٍ من هؤلاء بما يُقدّم تعريفاً موجزاً يدفعُ قارئه إلى البحث المستوعب إذا أراد، وظننتُ أنني أنصفتهم جميعاً بهذه الفقر الموجزة، ثم راجعتُ للمرة الثانية ما كتبه الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال عميدُ كلية الآداب الأسبق في هذا الصدد، فوجدته يقولُ بعد أن ذكر هؤلاء الأفاضل، إنّ الشيخ محمد عمر التونسي هو نابغة المصححين والمحررين، وزعيمهم جميعاً في هذا العصر، وقد أهله لهذا المنصب ثقافةً واسعة، جناها أولاً من الكتب، وثانياً من رحلاته العديدة^(١).

وقفتُ عند هذه العبارة، فقلتُ في نفسي لم يخلع الدكتور الشيال الزعامة للرجل الكبير على هؤلاء جُزافاً دون تحقيق، فالباحث أمينٌ دقيقٌ، وعليّ أن أراجع أعمال الرجل من جديد لأرى ما ميّزه الله به عن سواه، وأخذتُ أقرأ بروح القاضي العادل قراءة المتشد غير المتعجل، فبدا لي بعد الدرس الصابر أنّ الرجل زعيمُ المحققين والمحررين في عصره، وأنه جديرٌ أن يُعرف له موضعه المطمئن، وليس في تأخر الاعتراف بزعامته العلمية ما يضيّره في شيء، بل فيها ما يضيّرنا نحن، لأننا سكّتنا عن الإنصاف في عالم الفكر، وأخذنا نردّد الكلام المعاد.

موجز عن حياته:

ولد محمد عمر التونسي في تونس سنة ١٧٨٩ م، ثم رحل به والده إلى مصر، وكان الوالد يطلبُ العلم بالأزهر، وله شغفٌ بالتحصيل، وكان من المنتظر أن يستمر هاتناً على ضفاف النيل، ولكنّ أنباءً أتت إليه بأن والده سليمان التونسي يعيش بالسودان منعماً بعطف سلطان دارفور (عبد الرحمن بن أحمد) فسبحت أفكاره

(١) مجلة الثقافة - ٦٧٤ - ٢٦/١١/١٩٥١.

الآملةُ نحو دارفور، وآثر أن يترك الأزهر في رحلة إلى والده، فقد يجدُ لديه من المال ما يحمله إلى مصر ليعيشَ هانئاً مع زوجته وولده، أو يطيّبُ له المقامَ فيُرسَل إلى القاهرة من يحملُ الأسرةَ إليه، هكذا قرّر عمر والدُ محمدِ الطفلِ الناشئ، ولم يلبث أن نفّذ ما اعتزم عليه، وانقطعت أخبارُه تماماً عن أهله . . وترادفتِ السنين ولا نبأً أو رسالة، ولكن الأم لم تنسَ زوجها، والولد ذو حنينٍ إلى الراحل الغائب، وقد التحقَ بالأزهر متعلّماً، وما يجدُ وافداً على الأزهر من السودان إلاّ بآدَره بالسؤال عن أبيه، حتّى سمحت الأيام بقاء شيخ فاضل قَدَم من دارفور فنهضَ محمد إلى لقائه سائلاً مشوقاً، وأطفا المسؤول غُلتَه حين أعلمه أنّه يعرف أباه، وإذا كانت له رغبةٌ في الذهاب إليه بالسودان، فليأتِ مع القافلة، ولن يكلفه شيئاً، وطالَ الحوارُ مع الابنِ وأمه، حتّى همتِ القافلة بالذهاب، فبادر محمد بالسفر معها! وقد رُزِقَ عيناً فاحصة، ونفساً متطلعة، فجعلَ لا يمرّ بمكان إلاّ سأل عنه، وشاهدَ بأرض السودان مالم يشهد من العادات والتقاليد، فحفظ ذلك كلّهُ، ثم انجلت الرحلة عن خيبة أملٍ، حين لم يجد الابنُ أباه، وحين قسّت عليه الحياةُ قسوةً ضاعفها شعوره بغضب والدته عليه إذ تركها آسفةً باكية على فراقه . .

وقد سهّل الله العسير، فرجعَ إلى مصر ليستأنف الدراسة بالأزهر! ويظهرُ أن حبّ الرحلة في دمه كما كانَ في دم أبيه وجده، فحين عزمَ القائد (إبراهيم باشا) على الرحلة إلى (المُورة) غازياً بأمر أبيه (محمد علي) طلب واعظاً دينياً للجنود من طلاب الأزهر، فكان محمد أسرع الراغبين، ووقع عليه الاختيار، فسافرَ مع الرحلة وعاد بعودتها، ولكنّه لم يَعدْ كما خرج، بل رجّع وقد عَرَف كثيراً من الجنود والضباط، واتصلت بهم حباله عن مودة، فقدّروا موهبته، وساعدوه على أن يكون مصحّحاً للكتب بإحدى المدارس التي أنشأها محمد علي، وهنا أصبحَ الشيخُ هانيّ البالِ من جهة العيش، إذ وَجَدَ الراتبَ المعجزى، فأسعدَ أمّه بعد عناء، وتزوَّج ليكون ربّ أسرة، وبهذه الوظيفة الجديدة أصبحَ الشابُّ ذا رسالةٍ ثقافية، وسار له ذكرُ نابه، إذ أجاد التصحيح والتحرير، ورَضِيَ عنه رؤساؤه مغتبطين . .

من نهاء الأزهر:

لم يكن التّونسيّ وحده هو الذي اختير للتصحيح بمدارس الدولة، بل كان على رأسهم فحسب، لأنّ الأمر قد اقتضى وجودَ طائفةٍ من علماء اللغة، تُصحّح ما يُطبعُ

من دروس هذه المنشآت الحديثة، وكان الأمر عجباً أيّ عجب في ذلك الحين، لأنّ المدرسين أجانب بعضهم من فرنسا وبعضهم من إيطاليا وبعضهم من أسبانيا، وكلّهم لا يعرفون لغة الطلاب المصريين، كما أنّ المترجمين طائفة من مسيحيّ سورية، فهموا اللغة عن طريق التكلم الشفوي أكثر مما فهموها عن طريق التعليم المنظم، ويترجمون العلوم بالعاميّة العربيّة التي يغلب عليها لغة الشوام، فتطلّب الأمر وسيطاً ثالثاً يأخذ ما ترجمه السوريون عن المدرسين الأجانب ليصوغه صياغة عربيّة، ويقدمه للطبع بعد صقله التعبيري.

وهنا جاء دور الأزهرين في هذا العمل، وقد وُجه الأسلوب جميعه بالنقد في بعض الصحف الأوروبيّة، ولكنّ (كلوت بك) القائم على أمر مدرسة الطب، ردّ على هذه النقود بأنه يفعل ما يمكن أن يُستطاع، ولا سبيل إلى الإتقان المؤكّد إلاّ إذا كان المدرس الأوروبيّ يجيد اللّغة العربيّة التي هي لغة الطلاب، أو كان المصحّح الأزهريّ يجيد اللغة الأوروبيّة التي هي لغة المدرسين، أما وقد تعذّر وجود هذين، فلن تقف المدرسة دون تدريس، وعليها أن تُقَرّب الموادّ ما أمكن.

وقد جرّت العادة في كل كتاب يُترجم أن يكتب له الشيخ الأزهريّ مُقدمة تبين موضوعه وغرضه، وللشيخ التونسيّ في هذا المجال إبداعات فهو يتحدث عن المؤلّف فيقول إنّهُ أبقراط زمانه، وإفلاطون أقرانه، أمهُر من قال إنه طبيب، ومن يكاد الداء إذا رآه بدون مُعالجة يطيب، وهذا هو أسلوبُ العصر في مبالغته وسجعه.

والشيخ معذور حين يخلع على طبيب مثل (كلوت بك) هذه الأوصاف، لأنّه يرى لأول مرّة في حياته طبيباً يسلك مسلكاً جديداً في جسّ المريض، وتشخيص الداء وكتابة نوع الدواء، مع مواصلة العلاج دائماً بأخذ درجات الحرارة، وتحديد الجرعة المعطاة قدرأ وزمناً، ورصد النتائج في كُشوف يقرؤها المدرسون ويتداولها الطلاب ليكون النفع عاماً، هذا الضربُ من العلاج الحضاري لم يكن مألوفاً بالقاهرة، إذ كان الأطباء أو المنتمون إلى الطب من المواطنين يعتمدون على الوصفات الشعبيّة، ويُرَكَّبونها بالتّمائم والتعاويز، وحرّق البخور، فإذا شاهد الشيخ محمد عمر التونسيّ هذا العلاج الدقيق، وقرأ ما كتبه المترجمون عن مشاكل المرض، وطرق الوقاية وأسباب العلاج ثم لاحظ بواذر الشفاء السريع فلا خيّر إذا قال عن الطبيب إنّهُ أبقراط العصر، وإفلاطون الزمن، وقد يستغرب القارئ مجيء

إفلاطون هنا، لأن الرجل فيلسوف لا طبيب، ولكن كُتِب الطب العربية كانت تدعو الأطباء بالحكماء، فكلّ طبيب حكيم، ولا يزال لدينا في الريف المصري من يدعو الطبيب بالحكيم جزياً وراء هذا الاصطلاح!

وقبل أن أخصّ الباحث الفاضل الشيخ محمد عمر التونسي بالحديث، لأن الموضوع موضوعه، أعلن أن جميع مؤرخي النهضة العلمية في الشرق العربي قد أعطوا هؤلاء الشيوخ حقهم من الشناء، فتحدّث عنهم أمثال جورجى زيدان وعبد الرحمن الراجعي وأحمد أمين، وأحمد عزت عبد الكريم، وجمال الدين الشيال بما توجّ جهودهم المثمرة بأكاليل الشناء، وأذكر أن أستاذنا الدكتور محمد كامل التّني أستاذ الأدب بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر، تحدّث عن بعض الجهود المضنية التي قام بها الشيخ التونسي وزملاؤه فقال^(١):

«ولا ينبغي أن نستعين بما لهؤلاء المحرّرين من نصيب في هذه النهضة، فقد أظهروا هذه الثروة الضخمة الناشئة عن وضع مصطلحات عربية مناسبة للمصطلحات الأجنبية، وزاد ذلك في ألفاظ اللغة العربية، وأعانها على تأدية رسالتها، وكثيراً ما يتطلّب التحرير ممّن يقومون به تقليباً في كتب اللغة العربية، ومراجعة للكتب الفنية القديمة كمفردات ابن البيطار، لاستخراج المصطلحات العربية، والاستعانة بها على صوغ ما تتأدّى به مطالب العلم الحديث، إذا لم ينهض القديم بأدائه حتى أصبح للطب في خمس سنين قاموسٌ تزيد كلماته على ستة آلاف كلمة».

هذا ما كتبه الدكتور التّني عن هؤلاء، أما الدكتور الشيال فقد نحا نحو الدكتور التّني فيما قال، ولكنه خصّ الشيخ محمد عمر التونسي بالتقدّم، فحدّد اسمه وحده في مجال التعقيب العام، إذ شاهد من آثاره ما دلّ على مزيد فضل، ورسوخ قدم؛ وهكذا يظفر الرجل ببعض ما يستحق، ولكن على فترات متباعدة دون اتصال، وقد آن لنا أن نركّز الحديث عن جهود التونسي بتحديد بعض ما نقله من العامية السّورية إلى العربية الفصيحة، ليقف الدارس على نموذج باهر من الجدّ الدؤوب في ميدان من الميادين.

(١) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، ص ٧٧، للدكتور محمد كامل الفقي.

كلوت بك :

حين أرادَ محمد علي أن ينهض بالجيش نهضةً حربيةً واثبةً، رأى أنَّ العسكر في حاجةٍ إلى هيئةٍ طبيةٍ تُشرف على الجنود كما هو الحال في الدول المتقدمة، فأوفد إلى فرنسا من تعاقد مع الدكتور (كلوت) في مرسيليا ليكونَ المشرف العام على الجيش، وله أن يختارَ مُساعديه ممن يثقُ فيهم من أطباء أوروبا، وقد لبَّى كلوت الدعوة، وأظهر نشاطاً ملموساً في الارتقاء بالإدارة الصحية التابعة للجيش، ورأى محمد علي أن جهود الرجل لا تقفُ عند الجيش وحده، فقَوَّضه في إدارة الشؤون الصحية بالدولة، وسرعان ما أنشأ المستشفيات العسكرية، ومصلحة الصحة البحرية، ثم أنشأ مدرسة الطب القديمة، وجعلَ مقرها بأبي زعبل لتكونَ قريبةً من ثكنات الجند، وقد فهم كلوت أنَّ إدارته قد اتسعت بحيث أصبح يلي أعمال وزير الصحة في الدول الأوروبية، ونظَّر فوجد الحالة المصرية تستدعي مؤلفاتٍ في الطب، مؤلفاتٍ خاصةً لطلبة مدرسة الطب بأبي زعبل، ومؤلفاتٍ عامة خاصة بالشعب المصري، والرجل لا يستطيع التأليف بالعربية فاضطرَّ إلى المترجم السوري ثم إلى صاحب الصقل العربي .

وهنا تعرَّف تعرِّفاً تاماً بالشيخ محمد عمر التونسي حيث صار المحرَّر لأكثر كتبه، وبعضُها اضطراري أوجَّبته الحالة الصحية في البلاد إذ انتشرت الحمى والجدرى والطاعون وغيرها، فكتبَ الدكتور رسائلَ علاجيةً دَفَعَ بها إلى طلاب المدرسة وإلى القراء بمصر معاً، لُتْرسلَ بعض الأضواء على ظلماتِ هذه الأدواء، وفي مقدمة هذه الكتب كتابه (كنوز الصَّحة ويواقيت المنحة) والتسمية من وَخي الشيخ التونسي لأنَّه لم يتخلص من طابع العصر في التزام السجع عنواناً للكتاب، وقد ألَّفَه الدكتور بالفرنسية وأعطاه للدكتور (برون) وله إلمامٌ مبدئي بالعربية كي يُترجمه ما أمكن، ثم يعطي الترجمة للشيخ محمد عمر التونسي كي يقوم بوضع الكتاب في مقرِّه المستريح، وقارئُ مقدمة الدكتور كلوت يلحظ سخطه على الوضع الصحي في مصر، إذ ادَّعى الطَّب أناسٌ يجهلونهُ، فكُم أسقموا صحيحاً، وأماتوا عليلًا، وظلُّوا في طُغيانهم يعمهون، وهذا الأسلوبُ التعبيري بلا شك أسلوب التونسي، إذ كيف يستشهد كلوتُ بآياتٍ من الكتاب وهو لم يقرأ القرآن أصلاً، ثم شُفِّعت مقدمة المؤلف بمقدمةٍ أخرى كتبها الشيخ محمد عمر التونسي، وقد قال فيها :

«يقول راجي رحمة المنان، محمد التونسي بن سليمان، محرّر كُتب الطب البشري الآن، لما كانت صحة الأبدان من أجلّ ما أنعم به الجوادُ على العباد، وبدونها تتعطلُ الأسباب، ويبقى الجسم عليلًا نحيلًا، ويحقّ لفاقدِها أن يُكثر البكاء عويلًا، إذ لولاها لما اصطدمتِ الجحافل، ولا قرئت العلوم في المحافل... كان من الواجب مُراعاتها بقدر الإمكان!!»

وبعد أن أشار التونسي إلى اهتمام وَلِيّ الأمر بصحة المواطنين، وإحضاره الأطباء من أوروبا للارتقاء بالطب البشري، تحدّث عن تأليف (كلوت) هذه الصفحات، وقيام الدكتور (بّرون) بنقلها إلى العربية قدر استطاعته وقيامه هو بالتّسج العربي اللائق، ومراجعة المترجم فيما ينتهي إليه، مع تجنّب التعمق في الألفاظ اللغوية، ليعمّ نفع الكتاب العالم والجاهل، والمفضول والفاضل.

وقد صدر الكتاب بفصل موجز يحتل ست عشرة صفحة عن تاريخ بیمارستانات في مصر، أي تاريخ المستشفيات في العصر الإسلامي نقلها التونسي عن (خُطط المقرّيزي)، ومعنى ذلك أن الرجل كان ذا ثقافة واسعة دفعته إلى أن يربط الحاضر بالماضي، ويُرِي القارئ أنّ المستشفيات الطبية الآن ليست بدعاً حديثاً نقله الوالي عن أوروبا، بل هي امتدادٌ لتاريخ حافل للطب الإسلامي، ومعنى ذلك أيضاً أن كُتِب التاريخ المخطوطة كانت تحت يده ينقلُ منها ما يشاء، فهو لا يعكف على التحرير وحده، بل يقرأ ويطالع ليجد ما يرفده من الألفاظ الاصطلاحية تارة، ومن المعاني الصحية تارة أخرى.

وقد راجَ الكتابُ وتعددت طبعاته، ولاحظ قارئوه أنّه متوجُّ بالآيات القرآنية، وموشعٌ بالأحاديث النبوية الخاصة بالطب النبوي، وهذا أثرٌ واضح من آثار الثقافة الدينية التي نهلها التونسي من حياض الأزهر، ولا أدري هل كان الدكتور كلوت يعلم شيئاً عن هذه الإضافات التي جادَ بها التونسي، أو أنه فرغ من أمر الكتاب بمجرد تأليفه وتسليمه لذوي الاختصاص، ومن قوة تأثير هذا الكتاب أن طبعته قد تكرّرت في سنوات متتابعة، إذ طُبِع في عهد سعيد ثم في عهد إسماعيل ثم في عهد توفيق، ثم في عهد الخديوي عباس الثاني مما يعني أنه أصبح أصلاً في موضوعه قرابة ثمانين عاماً! مع أنّ طلاب البعثات الأوروبية الطبية قد رجعوا إلى مصر، وقاموا بالتدريس في مدارس الطب، وكتبوا مؤلفاتٍ جديدة من ابتكارهم الشخصي،

لأنهم نالوا الشهادات الأوروبية عن جدارة ثم حاضروا الطلاب بالعربية باذلين ثمرة جهودهم دون أن يحتاجوا إلى وسيط ينقل من لغة إلى لغة! ومع ذلك فقد تكرر الطلب الملح لكتاب كلوت الذي ترجمه التونسي وكأنه الوحيد في الميدان.

هذا عن كتاب (كنوز الصحة) ويليه كتاب آخر ألفه الدكتور كلوت بك خاصاً بأمراض الأطفال أطلق عليه (الدرر الغوال، في معالجة أمراض الأطفال) والتسمية من وحي التونسي قطعاً فهي عربية أزهرية، وقد قال الدكتور كلوت في مقدمة الكتاب التي صاغها التونسي بأسلوبه: «لما كان وليّ النعم مهتماً بعلاج الرعايا، راجياً في كثرة سوادهم وسلامتهم من الأمراض والبلايا، وتحقق لدى سعادته أن الأطفال في الديار المصرية معروضون لجملة أمراض، ويهلك بها أكثرهم حين تشتدّ به الأعراض، لكنّ عدم اعتقاد الأهالي في الطب هو أكبر بلية، لا سيما والأمهات والمراضع لا يراعين نظافة الأطفال، ولا يلتفتن إلى ما يليق من العلاج وإن ساء الحال. أمرني أيّده الله أن أجمع كتاباً مختصراً فيما ينفع الأطفال المذكورة، فجمعتُ هذا الكتاب امتثالاً لأوامره النافذة المنصورة».

وبعد مقدمة المؤلف جاءت المقدمة الثانية للشيخ التونسي محرر الكتاب ومصّححه كما قال عن نفسه: «لما كان العلم أفضل مقتنى، وأعظم شيء به اللبيب يعتنى، وكان من أهمه بعد معرفة ما يجب به الإيمان، علم الطب الذي استنار بذره في هذا الزمان، بمراحم صاحب السعادة الدّاورية، والسيادة الخديوية، أفندينا الحاج محمد علي، وكان من أجل أطباء حضرته، ومُنشّي عموم صحة أرباب دولته أمير اللواء كلوت بك، فألف - خدمة لسعادته - جملة تأليف، ووضع فيها كلّ قول مشهور لطيف. لكن لما كانت مصرُ مدينةً وخيمة، وأن ما يُولد بها من الأطفال يُصابُ بأمراض ذميمة، أمره - أيّده الله - أن ينتخب مختصراً يجمع فيه ما يصلح للأطفال من العلاج، وما يُذهب عنهم السقم الذي طغى عليهم وهاج».

وقد ذكر أن الدكتور كتبه بالفرنسية، ونقله إلى العربية الحكيم الأول محمد شافعي أفندي، حيث تولّى هو صوغه وتحريه، فجاء كتاباً صغير الحجم، كبير العلم، وقد سمّيته (الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال).

وقد وقفتُ عند قول الشيخ التونسي عن نفسه «محررُ الكتاب ومصّححه» إذ تضاربت أقوال كثيرة في الفرق ما بين المحرر والمصحح، أحما بمعنى واحد، أم

بمعنيين مختلفين، وأفضل ما ارتحُت إليه في هذا الجدل ما قرّره الأستاذ جورجي زيدان حيث قال^(١):

«ولما بدأت حركة نقل العلوم الحديثة إلى العربية في عهد محمد علي كان أكثر الثقل لا عناية لهم باللغة العربية، وأكثر علماء اللغة لا معرفة لهم باللغات الأجنبية، فاحتيج إلى المحرّر الذي يحزّر الكتب المنقولة، ويهيئها للطبع، وهو غير المصحح الذي يتولى تصحيح الكتاب أثناء الطبع، لأن المحرّرين يُشترط فيهم معرفة العلم الذي يُعهد إليهم تحريره، وفهم مصطلحاته العلمية، وغير ذلك، فضلاً عن معرفة اللغة، أما المصححون، فيكفي فيهم معرفة قواعد اللغة وشواردها، لضبط العبارات حسب القواعد».

وإذن فالشيخ التونسي قد استطاع أن يفهم المصطلحات العلمية وأن يلمّ بمسائل ما يكتب، وهو إذن محرر اندرجت صفة المصحح تحت مهمته، لأنها جزء من كلّ، وعلينا إذن ألاّ نضع جميع من أخرجوا الكتب من الشيوخ في مستوى واحد، فهم ذوو درجات!

معجم الشذور الذهبية:

أما أعظم عمل علمي في ميدان الطب، صدر في هذا العهد فهو (معجم الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية)، وهو عمل لم يظهز على وجهه الجاد إلاّ بمعونة الشيخ محمد عمر التونسي حتى تحمّل من الأعباء ما لم يستطع أن ينهض بها سواه، ومن حديث هذا المعجم أن كلوت بك فكّر جدياً في وضع قاموس حافل بكل المصطلحات الطبية في عصره، وهو عمل لا يمكن أن يظهر على وجهه الصحيح دون الاستعانة ببعض المعاجم الأوروبية، لذلك بادر كلوت بك فأحضر من فرنسا (قاموس القواميس) تأليف (فاير)، وهو قاموس يقع في ثمانية أجزاء، ويحوي جميع الاصطلاحات العلمية والفنية في الطب والنبات والعلوم المتصلة بهما، وقد أكد على النبات لصلته الوثيقة بالعقاقير الطبية التي تُستعمل دواءً للأمراض، وكلف كلوت بك الدكتور (بژون) ناظر مدرسة الطب أن يقوم بتوزيع فصول المعجم على أساتذة المدرسة الذين عاّدوا من البعثة وفي مكنتهم أن يترجموا ما عُهد إليهم إلى

(١) (تاريخ آداب اللغة العربية) لجورجي زيدان: ٥٤٨/٢.

العربية دون مشقة، فقاموا بما عهد إليهم في الوقت الذي حدّده كلوت بك، ولكن الدكتور برون لم يقنع بذلك، ورآه عملاً مبتوراً لا بدّ أن يُضاف إليه ما بالتراث العربيّ من مصطلحات علمية في القواميس المختلفة، واختار من شيوخ المصححين الشيخين (سالم عوض) و(علي العدوي) فاقتصر عملهما على مُراجعة قاموس الفيروزآبادي وحده، ولكنّه لا يكفي في هذا المجال، فاتجه الدكتور برون إلى الشيخ محمد عمر التونسي كي يقوم بالعبء الثقيل حين يُراجع قانون ابن سينا، وتذكّرة داود الأنطاكي، ليستخرج ما بهما من التعريفات العلمية، وما أكثر ما حوياً من مصطلحات، ثم أضاف إلى هذين المرجعين كتباً أخرى في فقه اللّغة، وبعد هذا العناية الطويل قام بترتيب المعجم بأجزائه المتعدّدة ترتيباً مُعجمياً دقيقاً.

وقام الدكتور محمد شافعي بالمراجعة النهائية معه لكل ما أضافه من المصطلحات العربية ومدى موافقتها للمصطلح الأعجمي في جلساتٍ مرهقة مضية، ومن سوء الحظ أن محمد علي قد مات، وجاء عباس فلم يَزِ ضرورةً لطبع المعجم، ولكن كلوت بك خافَ على ضياع هذا المجهود الضخم، فحَمَلَ المعجم العربي إلى باريس وأهداه للمكتبة الأهلية.

ثم رأت دار الكتب المصرية بعد ستين عاماً أن تُحضر نسختين مصورتين من هذا القاموس الحافل، الذي يقع في اثني عشر جزءاً، وقد ألّفت لجنة لطبع المعجم، ولكن لم يظهر منه غير جزء واحد بتحقيق الدكتور أحمد عيسى، وقد كتب الكاتبون يُطالبون المسؤولين بضرورة نشر المعجم بأجزائه جميعها، فاعتل المعوقون بأن الاصطلاحات العلمية تتقدّم باطراد، وقد أصبح المعجم بالنسبة إلى ما جدّ من المصطلحات في حاجة إلى تبويب وزيادات! وهو تعلّلٌ مرفوض، لأننا ننشر الآن كتب جالينوس وابن سينا والرازي وابن النفيس، وقد تقدّم الزمن بهم بعدة قرون، وأصبح ما كتبه ميدان دراسة تاريخية لا انتفاع طبيّ! فهل يكون (معجم الشذور الذهبية) أقلّ جدوى مما سبقه بقرون عدّة يتجاوز بعضها العشر أو يزيد! أم أن طمس الجهود الشريفة قد أصبح هدفاً مقصوداً لذاته لدى بعض المغرضين... إن الكتاب محفوظ بأجزائه الكثيرة بدار الكتب، واسم التونسي يتصدر الصفحة الأولى من كل جزء، إذ قام بالنصيب الأوفى في مذهب وعر عنيد...

الدكتور برّون :

كان الدكتور برّون من أمهر أساتذة مدرسة الطب، وقد أثر أن يتعلم اللّغة العربية ليستطيع أن يصل إلى الطّلاب مباشرة دون حائل، فكان الشيخ محمد عمر التونسي أستاذه الذي أفهمه قواعد اللّغة وأصولها، وراجع أكثر كتبه، وقرأ معه كتاب (كليلة ودمنة) وغيره من الكتب الأدبية، وكانت في أخلاق برّون حدة ليست في أخلاق كلوت بك مع أنّه رئيسه وموجهه، لذلك كان أكثر زملائه ينفرون من مجلسه، ولكنّ الشيخ محمد عمر التونسي استطاع أن يعقد معه صداقة علمية تحولت تلقائياً إلى صداقة أخوية، وهذا يدلّ على شيء هامّ في أخلاق التونسي، هو أنه كان ذا حظ وافٍ من الذكاء الاجتماعي استطاع به أن يستميل من يتسمون بالغرور استعلاءً على من يظنونهم أقلّ من مستواهم الفكريّ.

وهذا الذكاء الاجتماعي هو الذي جعل أساتذة المدرسة جميعاً من المواطنين والأوروبيين يثقون في التونسي، ويفرحون حين يُراجع ما يكتبون، ومن ثمرات الصداقة التي قامت بين برّون والتونسي أن الشيخ الفاضل حدّثه بإفاضة عن رحلته إلى السودان وما لاقى من العجائب في تنوّع التقاليد، واختلاف الطباع، ثم ما لحظه الشيخ أثناء مروره بالقرى من آداب في العلاقات العامة وتقاليد الزواج والمأتم، واجتماع في المناسبات الدينية والوطنية، فأصرّ الدكتور برّون على أن يدوّن الشيخ التونسي كلّ ما رواه له من هذه العادات، لتكون موضع دراسة اجتماعية لدى المتخصصين ممن يهتمون بدروس الاجتماع المُقارن بين الدول والشعوب، وقام التونسي بالتنفيذ عن رغبة مماثلة فكأنه أحسنّ هو الآخر أنّ ما ينقله من هذه الغرائب والعجائب جديرٌ بأن يُراح عن صدره حين ينقله من خاطره إلى الفضاء الفسيح بين أيدي القراء.

وفعلًا كتب رحلته الرائعة في جزئين سمّى أحدهما (تشحيذ الأذهان بسيرة العرب في السودان) وقال في مقدمة كتابه عن (برّون): «لقد ذكرتُ له بعض ما عانيتُ في أسفاري من العجائب، فحملني على أن أزيّن وجه الدفتر بإيضاح ما شاهدته، فامتثلتُ أمره لما له عليّ من الأيادي البيضاء».

وكان اهتمام (برّون) بالرحلة عظيماً، حيث طبع النصّ العربي الذي كتبه الشيخ دون زيادة أو نقص بباريس سنة ١٨٥٠ م، ولم يكتف بذلك بل ترجمه إلى الفرنسية

ونشره بباريس سنة ١٨٥٥ م، أما الكتابُ الثاني فسمّاه التونسي (الرحلة إلى مراداي)، وقد ترجمه (بژون) إلى الفرنسية، ونشره أيضاً بباريس، ولكنه لم يُنشر النص العربي الذي كتبه التونسي كما فعل برحلة دارفور.

ويقول الدكتور جمال الشيال بصدد هاتين الرحلتين: «إنهما من أحسن المراجع التي وصفت السودان في النصف الأول من القرن التاسع، فهل نُكَلِّفُ بعض الباحثين شططاً حين نقترحُ عليه أن يبحث في مكتبات باريس عن الترحمتين التي قام بها بژون للرحلتين ثم يردّ عليهما غربيتهما الأليمة فيترجمهما ثانية إلى العربية، إن لم يتيسر له أن يجد النص العربي الأول الذي نُشره (برون) بباريس، وذاع صيته فأصبح مرجعاً لأساتذة الاجتماع!».

والجدير بالذكر أن الشيخ التونسي لم يُترجم من مؤلفات (برون) كتبه الطيبة فحسب، بل ترجم كتبه الكيميائية، وبذل جهداً مُباركاً في اختيار المصطلحات العلمية لما يُترجم من المواد، ولم يأت ذلك سهلاً هيناً، ولكنه رَجَعَ إلى التراث العربي في مصادره القديمة، وهو جهدٌ متشعب لا يقوم به فردٌ واحد إلا إذا كان ليّله ونهاره، ومصبحه وممساءه مُلكاً خالصاً للبحث الشاق العسير! وتمرّ الأيام ولا يذكُر الأبناء ما ترك الآباء، وكأنّ ما كتبه التونسي وتلاميذه كومةً من رمل طارت بها الريح في مكان سحيق...».

من نصوص الرحلة:

أشرتُ من قبل إلى الرحلة التي كتبها التونسي وسمّاها (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان) وكنتُ أحبُّ أن أظفر بقراءتها لأوازن بين اتجاهها الأسلوبى واتجاه رفاة الطهطاوي في رحلته المسمّاة (تخليص الإبريز في الرحلة إلى باريس) فهما قد كتبتا في عصر واحد، وروّتا من العجائب ما يعذب ويُتندر به، ولكن لم أظفر بنسخة منها، وقد رأيت المرحوم علي باشا مبارك ينقل في كتاب (الخطط التوفيقية) شذرات منها تدلّ على منحها الكتابي، حيث يقول المؤلف^(١):

«ثمّ جيء بالمطّي فحملتنا، وخرجنا في مهمّة حتى وصلنا إلى الخارجة في عشية اليوم الخامس، فوجدناها قد دار بها النخيل دورة الخلخال بالساق، والتفاف

(١) الخطط التوفيقية: ٣٤/١٧.

العاشق على معاطف المعشوق للعناق، وفيها ما تشتهيها الأنفس وتلذ الأعين، مع رخص الأسعار، وحُسن تلك الشمار، ثم سافرنا يومين ونزلنا في ثالثهما بلداً يقال له (بولاق) وهو من الساكن في إملاق، قد دَرَسَتْ معالم أكثرها، وتصَدَّعَ بناء أقومها وأشهرها، ومن العجائب أن نَحْلُها في غاية القصر وهو حاملٌ للشمر، لا يتكلفُ جانبيه للقيام، بل يتناولُ منه وهو في حالة النيام، وليس فيه من الشجر إلا ما قل، وهو بعض أثل وعبل».

هذا نمط من أسلوب الرحلة، ويزيد في مكانتها أن صاحبها قد كتبها بعد أعوام طوال من انتهائها، حيث لم يعتزم تدوينها إلا بعد أن رَغِبَ الدكتور بَرُون في ذلك، ومثله في هذا مثل الرحالة الشهير ابن بطوطة فإنه لم يُدَوِّن رحلته إلا بعد أن رجع إلى المغرب وانضمَّ إلى بلاط السلطان المريني، وجعل يروي الغرائب مما شاهد وعان، فأمر السلطان بتدوين كلِّ ما يتذكر، وجعل كاتبه ابن جزى يستمع إليه وينقل عنه، حتى قيل إنه زادَ في الرحلة بعض ما لم يقله ابن بطوطة اعتماداً على رحلات سابقة!

ولم يفارق محمد عمر التونسي طريقته التعبيرية في اختيار المحسنات البديعية، لأن أثر مقامات الحريري التي أشرف على طبعها بارزٌ في أسلوبه، كما أشرف على طبع كتب أخرى من كتب الأدب الخالص كالمستظرف للأبشيحي، مع هذا الحشد الهائل من الكتب العلمية التي أشرنا إلى بعضها دون بعض، ومن الحظ الحسن أن الذين أرخوا للتعليم في هذه الفترة قد ذكروا كلَّ ما أشرف عليه التونسي وزملاؤه، واعترفوا لهم بسايع الفضل، وقد فاتنا أن نقرأ ما كتبوه في حينه، والرجوع إليه ضروري في تجديد الأثر العلمي لهؤلاء الفضلاء.

نزاهة نفس:

قد اهتم مؤرخو الحركة العلمية في عصر التونسي بالحديث عن مؤلفات الشيوخ وما صحَّحوه وحزَّروه، وقليلاً ما اهتموا بالحديث عن أخلاقهم الشخصية وأنماطهم الخلقيَّة، لأنهم عُنُوا بالمؤلفات أكثر مما عُنُوا بالرجال، ولكن الطابع الخلقي يظهر في مسلك واحد من تصرُّفات صاحبه، فيدلُّ هذا المسلك بإشارته الواضحة على التكوين النفسي لمن صدر عنه.

وقد روى الكاتبون أن الشيخ محمد عمران الهراوي وهو أقدمُ المصححين

بمدرسة الطب، ويكاد يكون أستاذاً لمن تلاه، قد وقع في خلافٍ حادٍّ مع الدكتور كلوت بك الرئيس العام لكلِّ ما يتعلق بشؤون الصحة في البلاد والجيش، وتمسك كلُّ منهما بوجهة نظره حتى جأَرَ الدكتور كلوت بالشكوى إلى محمد علي وهو ذو حظوةٍ لديه، فنصره نصراً مؤزراً على الشيخ المتمسك برأيه، وانتهى الأمر بانزواء الهراوي فوق مقعد صغير ليزاول أعمال التصحيح كأصغر مصحح ينتسب إلى القوم، وجعل الوصوليون يتجنبون لقاءه زلفى للدكتور كلوت، إذ الدنيا لمن غلب، ولكنَّ الشيخ محمد عمر التونسي لنفاسة مَعْدَنه الخلقي لم ينسَ حقَّ صاحبه، بل جعل يشيد به ويثني عليه، ثم أُتيحت مناسبةٌ لطبع كتاب أشرف الهراوي على إنجاز أكثره، ومات قبل أن يُتمه فعهد به إلى التونسي، فأثنى على الهراوي ثناء مستطاباً، وقال إنه أفتى أثره ونحا نحوه، وإن لم يكن من أضراجه!! وهو ثناء يوجب الالتفات والتنويه.

النهاية:

ذهبَت أيام وجاءت أيام، فقد ماتَ محمد علي، وانتقل الحُكْمُ إلى عباس الأول، وكان يضيق ذرعاً بكلِّ ما ينتسب إلى التعليم والمعرفة ومن ينتسب إليهما بسبب، فأغلق المدارس، وأوصد المطابع، واختصَّ الأساتذة الأعلام من أمثال رفاة الطهطاوي ومحمد بيومي بغضبه، فنفاهما إلى السودان مُدرّسين بمدرسة أولية صغيرة ليُدْرَسَ رفاة الطهطاوي - عَلمَ التَّربية - حُرُوف الهجاء للصغار، وليُدْرَسَ محمد بيومي - أستاذ الرياضيات الهندسية المتعلم في باريس - مسائل الجمع والطرح والضرب! وتلك مأساةٌ نجد صداها فيما كتب رفاةٌ من رسائل التضرع والاستنجاد.

في هذا الجو الأسود آثر التونسي أن يعتزل دون ضجيج، فاتَّجه إلى مسجد السيدة زينب ليُدْرَسَ علم الحديث متطوعاً، كأنه لم يزل عالماً أزهارياً لم يُغادر الزواق كشيوخ العهد العريق، وهي فراصةٌ منه أَمِنَ بها شرَّ الحاكم فلم يعدّه خطراً على ما يدعو إليه من الجمود، وما زال كذلك حتى لقي ربه في سنة ١٨٥٧م، بعد أن ترك أثراً خالداً لا يمحوه ماح، وأذكر أن المؤرخ الكبير خير الدين الزركلي قد احتفظ بصورة شمسية رائعة للرجل نشرها في الجزء السادس من موسوعة الأعلام ص ٣١٨ من الطبعة السادسة الصادرة ببلنن نوفمبر سنة ١٩٨٤م، مع ترجمةٍ دقيقة للرجل على إيجازها، وقد أردتُ بهذه الإشارة السريعة أن أحثَّ حضرات الفضلاء

القائمين على الدائرة الخلدونية بتونس، أن يُكَبِّروا هذه الصورة، وتُوضع في إطار جميل ليكون محمد عمر التونسي في صُحبة هؤلاء الأئمة الذين رأيتُ صورهم الكريمة مُشرقةً في الدار الخلدونية؛، فهو زميلهم الكريم، وأخوهم الصميم، شاركهم مجد العلم، وشاطرهم قصب الفضل، ومن اللائق أن يجلس النظير جوار النظير، في مقعد صدق لدن القاعة الخلدونية، هذا اقتراحٌ جاش بنفسي وأنا في القاهرة وكتمته حتى أذعته عليكم الآن فقد يجدُ طريق التنفيذ، حيث لا فائدة من الحديث عنه في مصر، إذ الأمر كما قال القائل:

ما بالديار أخو شوق نظارحه حديث نجد ولا خِلْ نصافيه
والسلام عليكم ورحمة الله .

* * *

محمد الفاضل بن عاشور بحاثة ذو رسالة، وكاتب ذو بيان

ما قرأت أثراً من آثار العلامة الأديب البحاثة الشيخ محمد الفاضل عاشور إلا بلغ من نفسي أرفع منازل الإعجاب، حتى خفتُ أن أكون مغالياً، ولكني أرجع إلى القراءة معادداً فأرى تدفقاً في المعنى، وعلواً في الصياغة، وغوصاً في التفكير، فأرجع إلى موضع الإكبار في نفسي فأجدُه صحيحاً لا غبار عليه.

والحق أن تجربتي معه في قراءة تأليفه الممتعة هي التي غرست في النفس هذا الإعجاب الأصيل، فقد أتيت لي أن أكتب كتابين عن تفسير كتاب الله هما كتاب (خطوات التفسير البياني) وكتاب (التفسير القرآني)، ورجعتُ إلى عدة مؤلفات معاصرة وقديمة تتصل بالتفسير، ومن بينها كتاب (التفسير ورجاله) فراعني أن هذا الكتاب على إيجازه يُغني عن كثير من المطولات من ناحية ما تضمن من الحقائق التاريخية الممتدة على توالي العصور، ولكنه من الناحية الأسلوبية تفكيراً وتعبيراً وتأصيلاً لا يرتفع إلى مستواه أسلوب سابق أو لاحق إلا ما كان من أمر عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز).

وقد أعدتُ قراءة الكتاب مراتٍ عديدة وأنا في كل قراءة أشعر كأنني أقرأ مقالة إبداعية لا بحثاً علمياً، وليس معنى ذلك أن قلم الأديب قد جار على حقيقة العالم، ولكنَّ معناه أن الرجل الكبير قد ارتفع بالأسلوب التألفي ارتفاعاً بلغ القمة التي تعزُّ على النظراء والأمثال، وقد جلَّى من الحقائق ما لم يتيسر لغيره لأنه قرأ من تفاسير المغاربة المخطوطة ما لم نجده لدينا في الشرق، فأضاف حقائق كانت حلقاتها مفقودة من قبل، وكان إذا افتتح موضوعاً من أبواب الكتاب لا يدخل في صميمه دون أن يُمهِّد له بمقدمة مستوعبة تربط الغابر بالقبال ارتباطاً يتجلى فيه عمق الغوص

وسعة النظر، حتى لأجزم بأثر ابن خلدون في تكوينه العلمي، إذ استفاد من طريقة تناوله ما لم يُتخ إلا لذوي العمق والاستبصار، ولكي أمتع القارئ ببعض ما أعنيه فأني أنقل له بعض مافتح به الأستاذ حديثه عن (تفسير أبي السعود) ببعض التصرف اليسير، حيث قال:

«عندما كان التفسير بالمغرب - وتونس خاصة - يسير على منهج الإملاء والجمع والتحليل، كان التفسير ببلاد الشرق الأوسط في إيران وما وراء النهر راكباً بحر التقرير والبحث والتفكيك مغرقاً فيه، سابحاً بين أمواج متلاطمة من المباحث والأنظار تتراعى على عبّريه، وكان ربّان السفينة الذي أمسك بخيزرانتها، ووضع قُطب التحقيق والتمحيص نُصب عينيه هو العلامة سعد الدين التفتازاني، ثم أخلافه على طريقته التحقيقية الذين ملكوا قيادة الفكر الإسلامي باسمه خمسة قرون [وذكر الشيخ نبذاً عنهم].

ثم قال: وكان لهذا الخضم الهائج ببلاد الشرق الأوسط موجة امتدت إلى آسيا الصغرى وبلاد الروم منذ أواخر القرن التاسع بسبب ما أحدث قيام السلطة العثمانية من صلات بين الممالك الإسلامية، وما كوَّنت الفتوح العثمانية من صلات، وبذلك أصبح لخصائص المنهج العلمي في التأليف والتدريس امتداداً إلى بلاد السلطنة العثمانية بالأناضول وبالروميلى أثمر رجالاً التحقوا بركب العلامة التفتازاني واشتركوا مع أخلافه في بحوثهم القلمية والتدريسية، حول الكتب الجامعة لتقارير المحققين، ومنها تفسير الكشاف وتفسير البيضاوي، فأتسع بذلك مجال البحث حول التفسيرين وأثمر بحوثاً شاقة مضيئة متشعبة، فتطلّع العلماء إلى وضع تفسير جديد يجمع بين الكشاف والبيضاوي، ويريح من عناء تسليط الكلام على هذا وذلك، فكان الذي انتدب لتحقيق هذه الرغبة شيخ الإسلام أبو السعود».

هذا كلام لم يتجاوز في كتاب (التفسير ورجاله) صفحتين، ولكنه ألم بتاريخ أربعة قرون من البحث التقريرى المتغلغل في شروح مدرسة التفتازاني في إحكام دقيق لا غاية لدقته، وقد كنت أود أن أستشهد بنقول أخرى من هذا الطراز تبين روعة البحاثة وضلّاعته، ويُعد مرماه على إيجاز قوله ولكن مجال القول شحيح.

وقد عرفت مصر الفاضل حين تكررت زيارته العلمية لها في مناسبات عدة، إذ كان عضواً بارزاً في مجمعي اللغة العربية والبحوث الإسلامية، فكانت مؤتمرات

المجمعين السنوية تشهده متحدثاً ومناقشاً، فهو يعدّ للموسم بحثاً يشغل الأذهان إعداداً دقيقاً تظهر فيه شخصيته العلمية، وقد يتناول بحثاً في موضوع أعده زميل آخر، فيقرأ البحثان في جلسات المؤتمر ويلحظ السامعون امتيازاً ملحوظاً لبحث الفاضل، لأنه فوق اهتمامه بخطة البحث من حيث المقدمة الجيدة والعرض الدقيق، والخاتمة الملخصة يأتي بمعلومات جديدة من كتب مغربية مخطوطة لم يطلع عليها علماء الشرق، فيلفت الأنظار إلى كنوز غائبة كانت في حكم المفقودة، ويدور النقاش عقب المحاضرة حول ما اهتدى إليه المحاضر من حقائق علمية، وينبري الأستاذ الفاضل للردّ متواضعاً، وقد قال في مرات كثيرة بعد أن سمع الثناء الحافل على ما قدّم، إنه كان يرجو التصويب من أساتذته الكبار، وهو تواضع علمي يتسم به من يعرفون أنّ العلم بحر لا ساحل له.

وهنا أشير إلى بحث فقهي أصولي لغوي إلى مجمع اللغة العربية في إحدى دوراته الشتوية، تحت عنوان (المصطلح في الفقه المالكي) حيث أنّه شدّ الأنظار إلى حقائقه الدقيقة، إذ أبرز أن رجال القانون الوضعي من أساتذة كليات الحقوق في البلاد العربية قد وجدوا الطريق سهلاً أمامهم في ترجمة مواد القانون حين قرؤوا المصطلح الفقهي في كتب المذاهب بعامة والمذهب المالكي بخاصة، وذكر أن مصطلحات الموطأ للإمام مالك بن أنس كانت أول مصادر هذه الترجمات، حيث تداولها المالكيون من بعده، وزادوا عليها كثيراً كثيراً، وكان الباحث موفقاً حين عرض إلى النهج التألفي في الفقه بين المشرق والمغرب، حيث اعتمد فقهاء المشرق على الاختصار المركز، على حين لجأ فقهاء المغرب إلى البسط الكاشف، وضرب الأمثلة لذلك بما هو معروف من كتب الفريقين؛ إلى أن قال^(١):

«ومن هنا ندرك كيف استطاع الفقه المالكي عندما أتى عليه دور الاحتكاك بالقوانين الوضعية، والمدارك الحقوقية الأجنبية أن يجد من متانة مصطلحه ما حمّاه من أن يفسد التعبير الدخيل جوهره النقي، وأن يجد من ثروته ما تفضّل به على المعاني القانونية فجاءت أصيلة محكمة خالية من التقعر والالتواء».

وقد كثر التعقيب المادح لهذا البحث بعد الفراغ من إلقائه، ومما قاله^(٢) العلامة

(١) البحوث والمحاضرات للدورة الرابعة والثلاثين، ص ٩٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٣.

الأستاذ محمد بهجت الأثري حينئذ: «ولا ريب أن ما تفضل به الأستاذ الجليل محمد الفاضل بن عاشور كان بحثاً انفرادياً، إذ لا يستطيع أحد أن يطرقه ما لم يكن متخصصاً فيه، وقد تعمق سيادته في هذا البحث إلى أعماق أغواره فأحسن غاية الإحسان».

والأستاذ الفاضل لم يكن متخصصاً في الفقه المالكي وحده كما أشار الأستاذ الأثري، لأن الفقه أحد مواد ثقافته المتشعبة، ونصيبه منها نصيب التفسير والحديث وعلوم اللغة العربية بفروعها المختلفة؛ وذلك فضل الله.

ومن حسن الحظ أن الشيخ الفاضل قد أملى ترجمة موجزة لحياته المباركة، حيث سألته سائل عن جهاده العلمي مشفوعاً بخطواته العملية في طريق الحياة، فبعد أن حدّد تاريخ ميلاده في أكتوبر سنة ١٩٠٩م، قال إنه ابتدأ القراءة وهو ابن ست سنين، فتعلّم الهجاء بكتب مصرية، وابتدأ حفظ القرآن الكريم، ثم منذ التاسعة بدأ يحفظ متون الأجرومية والألفية والعاصمية والرسالة. وتعلّم اللغة الفرنسية على يد معلمين خصوصيين بالمنزل مع دراسات في مبادئ القراءات والتوحيد والنحو أهّله إلى اجتياز امتحان القبول بالزيتونة، فالتحق بالسنة الثانية مباشرة، واختزل سنوات التعليم حين أكب على دراسة العلوم المقررة من تلقاء نفسه فتقدّم لامتحان التطويع ونجح نجاحاً أهّله للدراسات العليا بالجامعة، ثم للانتساب إلى كلية الآداب بجامعة الجزائر، فأحرز شهادتها سنة ١٩٣٢م وبذلك انتقل من التعلّم إلى التعليم فصار مدرساً.

هذه خطوات الرجل في مرحلة الدراسة، والمشاهد لتناجه الحافل يدرك أنه لم يكن يقتصر على المواد الدراسية في الزيتونة وكلية الآداب، بل كان يتوجّه والده الكبير وبهمة نفسه الطامحة يقرأ كل ما يقع تحت يده من آثار التابعين من أعلام العصر، وتلك حقيقة لا شك فيها، لأن إسهامه العلمي بعد تخرجه مباشرة ينطق بثقافة حيّة ذات رصيد فخم، لا يتهيأ لطالب يعكف على الدروس المدرسية فحسب، بل لطالب يرى المدرسة والكلية إحدى الوسائل الثقافية فقط.

وكانت الموسوعية الشاملة التي اتصف بها والده الكبير الشيخ الطاهر موضع احتذائه، إذ امتد بفكره إلى التراث الإسلامي الفسيح ينهل من ينابيعه الكثيرة، فأمدّه بدسم حافل في معارفه، وليست المسألة مسألة معارف فحسب، فكم من الناس من

وَعَى من المعارف أكثر مما وعى الفاضل، ولكنه لم يتعمق ما قرأ، ولم يقف موقف الناقد فيما يأخذ ويدع.

والذي يقرأ آثار الفاضل يدرك أنه شغف بأعلام الإسلام في القديم والحديث شغفاً مُلْكاً عليه تفكيره، فقد وعى من سيرهم ما دفعه إلى قراءة مؤلفاتهم الكثيرة، وكان يحسن بشغف يدفعه إلى مواصلة البحث التاريخي لأنه يجد في سير العلماء والمعاصرين مدداً لكيانه الفكري، وسلوكه الاجتماعي.

وإذا كان نتاجه في التراجم يتجه غالباً إلى علماء المغرب بمعناه المتسع أكثر مما يتجه إلى علماء المشرق، فليس معنى ذلك أنه لم يدرس آثار المشاركة ولم يلم بكنوزهم الحافلة، فإن هذه الآثار تلوح ثمارها الناضجة في نتاجه الفكري، ومفهومه الإصلاحية، ولكنه رأى أن تاريخ المغاربة لم يحظَ بالذوبوع على الوجه المأمول، وأن عوامل كثيرة حالت دون ذلك؛ فرأى من واجبه أن يسد الثغرة الواضحة في هذا التاريخ، وجعل يرصد زعماء المغرب منذ الفتح الإسلامي إلى عصره الراهن ليختار من الشخصيات العلمية والسياسية ما يقدم القدوة الماثلة للنشء المبهور بأعلام من الغرب وجدوا الدعاية المتكررة في الصحف والإذاعة حتى كادوا يكونون عند بعض الأغرار كل شيء في دنيا الثقافة المعاصرة، والفاضل قد وعى الكثير من ثقافة الغرب، ودرس الفرنسية دراسة مكنته من الوقوف على المؤلفات في أصولها العربية لا في ترجماتها العربية وحدها، وقد انتفع بها انتفاعاً ظهر في طريقة تناوله للأبحاث.

وأذكر أن بعض النقاد قد أخذ عليه أنه في تراجم المعاصرين قد عرض كل المحاسن وتناسى ما وجّه إلى الشخصيات من بعض النقود وإلى بعض الآثار العلمية من سقطات، وهذا حق، لأن الفاضل أراد أن يقدم للمغاربة نماذج مشرفة تدفع الناشئة إلى الاحتذاء، وهو في ذلك لم يطمس لآلئ الحق حين امتدح، بل ذكر الحيثيات الداعية إلى التقدير، وحال منهجه التربوي دون سرد بعض المآخذ التي لا يخلو منها بشر في سلوكه أو نتاجه العلمي، لأن الكمال لله وحده.

والفرق واضح بين الباحث المعلم والباحث الأكاديمي، فالأول يوقد المشاعر، ويرتفع بالأحاسيس دون جناية على الحقائق، والثاني يقيم الميزان بالحق؛ وليس الفاضل هو الوحيد في البحث التاريخي، فله زملاء يشاركونه هذا المنحى في

البحث، والقارئ سيُلم بما كتب الفاضل، وما كتب زملاؤه، فإذا وجد بعض النقص عند كاتبٍ كَمَله وأتمه عند كاتبٍ آخر.

وأحب أن أقرر حقيقة مهمة هي أن العلم من أعلام التاريخ لم يصبح علماً يترجم له إلا بما جمع من فضائل علمية أو خلقية أو نضالية، ولولا ذلك ما احتفلت الأقلام برصد خطواته، وتتبع آثاره، فإذا عُرِفَت الصورة العامة في ترجمة له، دون تفصيل في الجزئيات، فقد أخذ مكانه المناسب، والهدم لذات الهدم ممّا يُسقط الهمم ويُخمد الجدوات، ونحن نعرف مؤرخاً كالسخاوي في الضوء اللامع قد تتبّع الهنات، وتسقط العثرات، فهل حال ذلك دون تقدير من خصّهم بالنقد والتجريح، كما نعرف من المؤرخين من بالغ في الثناء، وأطنب في المدح، فهل منع ذلك أن يبحث الدارس في ترجمة أخرى عن نقداً صائبة وُجّهت لهذا الممدوح الكبير؟!

وكان من توفيق الشيخ الفاضل أن يجمع في ثقافته بين عدة اجتهادات، فهو من كبار علماء الزيتونة يعرف شيوخها معرفة الدارس الفاحص، ويقرأ الكتب المقررة بها قراءة الخبير المتمرس، فهو من هذه الناحية خيرٌ من يؤلف التراجم الصادقة عن العلماء، إذ هم معشره وذووه؛ كما أنه من ناحية ثانية أديبٌ متمكن يقرأ المأثور من البيان ويحتذيه ويعرف أعلام عصره من المنشئين والمبدعين معرفة الناقد المتابع؛ ثم هو ينظر إلى سياسة وطنه نظرة الدارس للتيارات الصاخبة في المحيط الداخلي بتونس، والخارجي فيما حول تونس، ويعرف زعماء السياسة معرفة واعية، لأن منهم أصدقاء والده وزائري بيته الكريم، فهو بذلك كله إذا كتب تاريخ الرجال في عصره لم ينحجر قلمه في طبقة معينة كما فعل من اكتفوا بتراجم مبتورة عن العلماء، ولكنّه امتد إلى الأفق الفسيح، فعرف أن تاريخ العالم الفقيه لا يغني عن تاريخ الأديب المبدع، كما لا يُغني هذا وذاك عن تاريخ السياسي الملابس للأحداث.

ولذلك تحدّث عن هؤلاء جميعاً فيما كتبه بمجلّات (الثريا) و(المجلة الزيتونية)، ثم جُمع بعد ذلك في كتب مستقلة، أوفاها كتاب (تراجم الأعلام)، وقد جُمع بعد وفاته تخليداً لذكوره، جمعه الأديب المرموق الأستاذ (الحبيب شيبوب)، ولم يشأ أن يذكر في الكتاب تنويهاً بعمله ولكن عارفي فضله أذاعوا ذلك وسجّلوه.

وإذا كان التاريخ المعاصر لتونس قد مرّ بأطوار مختلفة في القرنين الماضي والحاضر، فقد آثر الشيخ الفاضل أن يكتب تاريخ هذا البلد المناضل، من خلال

مناضليه، ويبنّ وجهة نظره الصائبة حين قال في مقدمة كتابه (أركان النهضة الأدبية بتونس)^(١):

«هذه مقالات توجّهت بها إلى مراحل النهضة الفكرية في تونس، وفواصل أطوارها في نهاية القرن الماضي وأوائل القرن الحاضر، معتمداً إظهار كلّ طور من هذه الأطوار بخصائصه ومقوماته، في حياة علم من أعلام المعرفة أو الفكر أو القلم جعلته بمؤثرات حياته وتأثيراتها وظروفها مجلّي الاتجاهات العلمية أو الفكرية أو الأدبية التي تميز بها هذا الطور، وأرجو أن أكون قد وفّقت إلى تحقيق ما أردت من ذلك فهديت الشاردين ونبتت العارفين إلى نواح ينبغي إبرازها من تاريخنا الحديث على المنهج الذي رأيت أنه الكفيل بتحرير تاريخنا القومي على وجهه».

وإذا كان هذا الكتاب قد اختص بأعلام النهضة الفكرية أدباً وعلماً فحسب، فإن كتاب (تراجم الأعلام) قد جمع إليهم رجال السياسة لتكتمل أضلاع المثلث دون نقص، وقد عرفت أن بعض الفضلاء من أمثال الأستاذين أحمد بن أبي الضياف ومحمد السنوسي وغيرهما قد كتبوا نبذاً شتى عن بعض الأعلام، ولكن صنيع الشيخ الفاضل قد جاوز الإيجاز إلى الإطناب في كثير من المواقف، كما تضمّن تحليلاً كاشفاً يفصح عن الأسباب الداعية، والنتائج المحتموة، وهذا مما تكلف له كثيراً من العناء، وقد كرّر بعض التراجم في كتابيه هذين، وكأنه رأى أن يضيف الجديد إلى القديم حين عاود الكتابة، أو رأى أنّ شخصية كخير الدين وسالم أبي حاجب ومحمد السنوسي تحتاج إلى مواصلة البحث ومعاودته، وحسناً فعل، ومما يشدني في هذه التراجم الزاهية افتتاحياتها التي تصوّر جواً فكرياً خاصاً بالمتحدّث عنه، فتلفّت القارئ إلى أن شيئاً هاماً سيُقال، فهو مثلاً يفتتح حديثه عن الشيخ محمد السنوسي بقوله^(٢):

«ارتبطت حركة الإصلاح التونسية بحركات الإصلاح الإقليمية التي ظهرت في العالم الإسلامي، حركة مدحت باشا في تركيا، وحركة السيد جمال الدين في الهند وأفغانستان، وحركة رياض باشا في مصر، فلما استبان لنظر القارئ بتلك الحركات أنّ المشاكل التي تهدف حركات الإصلاحات المحلية إلى حلّها إنما

(١) مقدمة كتاب (أركان النهضة الأدبية بتونس)، ص ٣.

(٢) أركان النهضة الأدبية بتونس، ص ٤٨.

تولدت عن أصل عريق يمتد إلى أسباب الانحطاط الإسلامي الذي كان جمال الدين أول من كشف عنها في رسالة الرد على الدهريين، استقرت الآراء على أنّ عللاً نشأت عن أسباب عامة، وتولدت من عوامل عالمية لا تختصّ بقطر دون قطر من بلاد العالم الإسلامي، فلا يمكن أن تعالج بصفة محلية دون أن تمتد وسائل العلاج إلى المحلّ المشترك الذي انبعثت منه جرائم الداء إلى كل عضو من أعضاء الهيكل الإسلامي».

ومضى الفاضل في تحليله ليربط اتجاه المتحدث عنه بهذا المحيط العام، متحدّثاً عن أفاعيل السياسة وكيد الاستعمار، ليرز التناج الفكري للسنوسي في إطاره الصائب بحيث كان^(١) (المثال الكامل لتطور الأدب العربي بتونس، في جميع نواحيه).

ولا أدري لماذا وقفْتُ عند ذكر (مصطفى رياض باشا المصري) مقارنةً بجمال الدين ومدحت باشا وهو منهما بمكان بعيد، بل ربما كان على النقيض منهما في كثير من أحواله! لعلها هفوة قلم!

على أنّ أبرع ما امتاز به قلم الشيخ الفاضل هو هذه الموازنات بين المتحدث عنهم، فهو يقرن فاضلاً بفاضل من هؤلاء ليبرز كيف اختلف الاتجاه مع صدق العمل، وتزيد هذه المقارنة قوةً واكتمالاً حين تكون بين صديقين حميمين يتفقان في الود، وصدق العمل ويختلفان في الاتجاه، فهو مثلاً يقارن بين الشيخ أحمد الورتاني والشيخ سالم بوحاجب، فيقول عن الورتاني^(٢):

«كان قريبه في كل وجهة من وجهاته، وإن كان في ميله النفسي مخالفاً لطريقة الأستاذ سالم، فلم يكن يؤثر البحث، ويتجرأ على الابتكار، بل كان يؤثر الضبط والتدقيق والتحصيل والإحاطة، وهو ميل أعانه على تنميته ما وهب من قوة الحافظة، واتساع الذاكرة، حتى أصبح في العلوم النقلة مشاراً إليه بالبنان».

وأروع ما وقفْتُ عليه في كتاب (تراجم الإعلام) موقفُ تربوي رائع للشيخ الإمام عمر بن الشيخ، لو كان لأحد أساطين التربية في أوروبا وأمريكا لسارَتْ به الركبان،

(١) أركان النهضة الأدبية، ص ٣١.

(٢) تراجم الأعلام، ص ٦٣.

وتعد مفخرة المفآخر في نزاهة البحث، وإخلاص النية، وصدق التواضع، فقد عمّد الشيخ عمر إلى تدريس كتاب علمي من أصعب كتب علم الكلام وهو كتاب (المواقف) بشرح السيد، فانقطع له الشيخ انقطاعاً تاماً ليصل إلى حقائقه الخافية في أسلوبها الغامض - شأن الكثرة من كتب الأعاجم - وكان مما ارتآه الشيخ أن يعقد في منزله ليلة الدرس الأسبوعي مجلساً يضم نبهاء الطلاب في حلّفته، فيقرأ عليهم درس الغد ليبيدي كل طالب رأيه في المقرر المطلوب ويّدور النقاش في حرية حتى يهتدي الشيخ إلى معارف طلابه ثم يودعونه، فيظلّ ساهراً يطالع الدرس، معتمداً الوقوف على الخوافي التي عزّت على الكشف في اجتماع الطلاب، ويجتهد في أن يجد حلاً لكل مُعضلة، وفي الصباح يلتقي بطلابه فيقرأ الدرس من جديد، ويتحدّث بما اهتدى إليه بعد أن خرجوا من مجلسه! وقد ظلّ درس (المواقف) عشرين عاماً متصلة يلقيه الشيخ في جامع الزيتونة.

وحين زار الشيخ (محمد عبده) تونس سنة ١٣٠٠هـ زار الشيخ وجلس في ساحة الدرس مع الطلاب، وأثنى على الشيخ بما هو أهل له^(١).

فمنّ من الأساتذة يرى أن يُشرك طلابه معه في الفهم على هذا النحو المتّصل؟ ومنّ منهم لا يأنف أن يقول هذه عبارة غامضة لم أهدّ إلى معناها، وسأواصل البحث؟!.

هذا وما ذكره الشيخ الفاضل عن هذا الموقف، ذكره أستاذنا محمد الخضر حسين في ترجمة أستاذه عمر بن الشيخ، وقد تلاقى الشيخان في بعض التراجم الخاصة بكبار التونسيين، ومن بينهم عمر بن الشيخ، ومحمد العزيز بو عتور، وأحمد الورتاني ومحمد بن الخوجه، وذلك فيما كتبه الخضر في كتابه (تونس وجامع الزيتونة) والخضر أستاذ الفاضل، وصديق والده الحميم، وأسلوبه في كتابه يميل إلى الإيجاز لا الإطناب.

وقد وجدت الفاضل يتحدث مطيلاً عن الشاعر الرائد المصلح (محمود قابادو) في مطلع كتابه (أركان النهضة الأدبية بتونس)^(٢) فيعدّه شاعراً بليغاً طويل النفس يغوص على حقائق الوجود التي لم يكن غيره يحوم عليها، فيبرزها في أروع القوالب

(١) أركان النهضة، ص ٧.

(٢) أركان النهضة، ص ٧.

البيانية وأبدعها، ثم لا يذكر له بيتاً واحداً مما قال! أما الأستاذ الخضر فقد احتفل بشعر الرجل، واستشهد بأكثر من ستين بيتاً من شعره من مناسبات شتى وذلك في مقالة (نظرة في أدب الشيخ محمود قابادو التونسي)^(١) فوفاه حقّه، وبحث الشيخ الفاضل في حاجة إلى هذا الاستشهاد ليقدم للقارئ ما يقنعه ويرضيه.

وإذا شاهدنا بعض الاقتضاب في الحديث عن نفرٍ من المترجمين، فهذا شيء مألوف لدى الدارسين، لأن الباحث لا يجد المصدر الوافي في كل ما يتجه إليه بالحديث، فقد يعرف مكانة علم من الأعلام، ولا يجد من أخابره أو آثاره ما يشفي غلته، ويعز عليه أن يتركه دون كلمة عابرة، فيأتي بما لديه على قصوره، وقد أحسن بذلك لأنه يفتح الطريق لباحث تالٍ يرى أن يتابع البحث ليضيف الجديد.

فإذا تركت حديث المعاصرين إلى الغابرين في نتاج الشيخ الفاضل، فإننا نجد وقته المتوزع بين أعمال شتى من تدريس وفتيا وقضاء ورحلة وعضوية في المجامع المختلفة، قد حَالَ دون أمنية كبيرة لديه هي أن يؤرخ للثقافة الإسلامية في المغرب جميعه منذ أشرق نور الإسلام حتى اليوم، وهو جهد لا بد أن يفرغ له متخصصون لا متخصص واحد، ومنّ للفاضل - على سعة مقدرته - بالوقت الذي يسمح له أن يكتب موسوعة تسير على منهجه في الغوص والاستشفاف والشمول، إخاله فكّر في ذلك فرأى الأمر مع تعدّد صولاته لا يتفق له في مجتمعه الذي يشهده كل يوم أستاذاً وخطيباً ومحاضراً، فانتهى في تاريخ السابقين إلى ما انتهى إليه في تاريخ العصر الحديث وهو أن يختار من كل حقبة ماضية علماً يمثلها، ولست أرجح بالغيث في ذلك، بل إنني أرجع إلى مانصّ عليه في مقدمة كتابه (أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي) حيث قال^(١):

«ومن هنا أصبحت معرفة علماء الدين والوقوف على تراجمهم وتبيين أفكارهم وآثارهم، أمراً لا يستطيع أن يتجاوزه من يدرس عصور التاريخ الإسلامي، فهم الذين تنبع منهم الأفكار الموجهة إلى تحصيل مدارك الدين نظرياً وعملياً على الصور التي يلقونها إلى الشعوب».

ثم قال: «ولقد حاولنا في المقالات الخمس عشرة التي نقدمها في هذا السفر

(١) أعلام الفكر الإسلامي، ص ١٠٥.

الصغير إبراز خمس عشرة حقبة من حقب التاريخ، مجلوة كل حقبة منها في المنبع الفكري الديني الذي يعتبر مصدرها وموردها».

ومن هنا تتألف فصول الكتاب متحدثة عن عقبة بن نافع، والفقهاء العشرة، وأهل الرباط، وعلي بن زياد، وأبي عثمان الحداد، وابن أبي زبير القيرواني، وأبي الوليد الباجي، والقاضي عياض، وابن عرفة، وأبي إسحاق الشاطبي، والمقرئ الكبير وأبي بكر بن عاصم، وابن مرزوق، وابن ناجي؛ وفي هؤلاء من ذاعت شهرته وكُتبت عنه البحوث بإفاضة كالقاضي عياض وأبي إسحاق الشاطبي وأبي الوليد الباجي، ومن لا تزال جهوده العلمية في حاجة إلى بسط، أما عقبة بن نافع فقد ابتدئ به لأنه قائد النور المشرق على هذه البلاد، وإذا كان قد حمل الإسلام إلى أفريقيا فقد حمل النصر والهداية معاً.

وإذا كنتُ ذا إلمام بسيرة أكثر هؤلاء، فلنأتي لم أكن أعلم شيئاً عن القاضي أبي القاسم ابن ناجي وقد تحدثتُ عنه الفاضل في بضع صفحات حديثاً يمس الخصائص الفقهية التي برزت في نتاجه العلمي، وقد بدأ الكلام كعادته بمقدمة جامعة عن البيئة التي أنجبت ابن ناجي، فتحدثت عن مأساة القيروان حين داهمتها سلائل الأعراب من الهلاليتين فأحالوها إلى أنقاض، ولكن رحمة الله أنقذت جامعها الأعظم، جامع عقبة، ليظل منارة للضوء عبادةً وعلماً، ومن هذا الجامع بزغ النور من جديد، فأنجب كوكبة من الفقهاء والقضاة على رأسهم أبو القاسم ابن ناجي، وقد تابع الفاضل أدوار حياته في إيجاز يعمد إلى توضيح الخطوط الأصلية ذات اللون الفاعل في نسيجه العلمي، حيث مارس القضاء والفتوى ليجد من ظروف المجتمع ما يدفعه إلى النظر في قضايا كثيرة تعتمد على الفقه المالكي وهي في حاجة إلى توجيه جديد؛ يقول الفاضل^(١):

«لقد شدد ساعده ممارسته الطويلة للقضاء، وخبرته باختلاف مقتضيات الترجيح والاختيار والتصرف، بسبب اختلاف البلدان، وتباين عوائدها وملائماتها، فكانت دروسه الفقهية بياناً للأحكام بأصولها وعللها، وتقريراً لما فيها من مختلف الأنظار والتخاريج، وفحصاً لما يجذبها من أحوال مكانية وزمانية لا تتحقق فيها المصلحة المقصودة من الحكم إلا بالأخذ بوجهة نظر معينة، أو توليد وجهة نظر جديدة،

(١) أعلام الفكر الإسلامي، ص ١٠٥.

وبذلك كانت دروس فقهه عمدة العمل القضائي في أفريقية، ووجهت الفقه في فاس وتلمسان ومارونة وباجه وقسنطينة، كما وجهته في تونس نحو الاعتناء بالعمل ضبطاً ونظراً، ممّا أحدث في المذهب المالكي طوراً جديداً امتاز بكثير من المبادئ والتفصيل في الإجراءات والأحكام الموضوعية. وكانت كُتُب ابن ناجي هي الأصل في هذا التوجيه».

أقول كم كان يلذ للقارئ أن يتابع (الفاضل) حديثه فيأتي ببعض الأمثلة لهذا التطور في الفقه المالكي، وهذه السهولة المستحدثة في الإجراءات والأحكام الموضوعية، ليجد ما يشفي ظمأه العقلي، ولكنّ منهج الفاضل في الحديث عن عدة أئمة في حيز محدود حال دون ذلك وأمثاله! وبقي الأمر محتاجاً إلى مؤلفين محدثين يقرؤون ما كتب الفاضل عن هؤلاء الكبار ويوسعونه إيضاحاً واستشهاداً وتفصيلاً، بل يوسعونه نقداً إذا وجدوا مجالاً للنقد، وقد طُبعت كُتُب كثيرة لهؤلاء الأعلام فقدّمت الأرضية الصلبة التي يجب أن يقف عليها الباحثون، ولم يكن لدى الفاضل صبر والده الطاهر، لأن الوالد كان لا يعجله شيء عن امتداد التحقيق، أترى الشيخ الفاضل قد أحسن في أعماقه أن الأجل قريب، وأنه يُحب أن يضع الثمار في عدة حقول، ليأتي من يتعهدا بالري والتسميد والإنماء؟ وقد مرّ الوقت دون أن نجد هذا الآتي المرجو؟ ومن يدري فقد يجيء!

لقد قرأتُ بعض ما قيل عن الشيخ الفاضل بعد رحيله، وأكثره يتجه وجهة الإنصاف لعالم مثقف مجاهد، ولكن بعض المتحدثين ذهب إلى أن رُوح المحاضرة تغلب على آثاره العلمية، وعدّ ذلك موضع نقداً! وأنا أقول لهذا الناقد الفاضل: أليست الدروس العلمية في جامعات الشرق والغرب كلها محاضرات؟ وهل تبتعد المحاضرة عن العلم، وهي تُقَرَّب مسائله، وتوضح أبوابه، وتفصّل قضاياها! قد يكون الروح الأدبي في أسلوب الفاضل مدعاة نقد متعسف لدى مَنْ لا يعرفون كيف يكتبون، ويسوؤهم أن يعترفوا بذلك فيتجهون إلى نقد من يعرفون، وهم يتمنون في قرارة أنفسهم أن يرزقهم الله بعض ما فتح به على هؤلاء النابهين من الفصحاء! ولكن الله يختص بفضله من يشاء!

ولا يجوزُ لي أن أقصر الحديث على الناحية العلمية للشيخ، وأترك القول عن جهاده الملحّ الدائب في إصلاح التعلم الديني بتونس خاصة وبالمغرب العربي عامة،

فقد بذل في ذلك من الجهود رِحلةً وكتابةً ومحاضرةً ما أثمر خير الثمار، منذُ شبابه الغض، حين أسهم في مؤتمر طلبة شمال أفريقية المنعقد بقاعة الخلدونية سنة ١٩٣١، وكان عمره لا يزيد عن الثانية والعشرين، وقد انتخب عضواً في لجنة التعليم العربي، وألقى بحثاً شافياً عن الوضع العلمي السائد في الشمال الإفريقي، وانتقد طريقة المُتون والشروح والحواشي والتقارير السائدة لدى بعض المعاهد العلمية إذ ذاك داعياً إلى نهج طريف في التأليف والتدريس، وهي دعوة الشيخ محمد عبده من قبل في مصر.

كما ألحَّ على وجوب الاهتمام بالثقافة العامة والعلوم الحديثة جوار ما يدرسه الطلاب من علوم الشريعة واللسان، والطريف في اجتماع هذه اللجنة، أن الفاضل رحمه الله دعا إلى ضرورة (قلب) نظام التعليم، فاعترض بعض الفضلاء على كلمة (القلب) لأنها تُحدث معنى الثورة، ويرى أن تكون العبارة (تبديل نظام التعليم)، ولكن الفاضل أصر على استعمال لفظ القلب ليؤدي مدلوله الصحيح، لأن لفظ التبديل يتضمن شيئاً من المدهانة التي لا يجوز أن تقف في سبيل الإصلاح، ووافق المؤتمرون على اختيار الفاضل.

وتابع الفاضل، ضرورة إنشاء المؤتمرات الخاصة بعلاج الأسلوب التعليمي، فكان عضواً في المؤتمر الذي انعقد سنة ١٩٣٣م برئاسة الطالب (أبي القاسم الشابي) شاعر العرب جميعاً لا تونس وحدها، وانتهى إلى قرارات إصلاحية كانت موضع عناية المسؤولين، وقد وجدت طريق التنفيذ بعد سنوات؛ وطبيعي أن يخص الفاضل جامع الزيتونة باقتراحاته الصائبة، ونتج عن ذلك أن عقد المدرسون الزيتونيون مؤتمراً بالخلدونية سنة ١٩٤٤م، انبثقت عنه عدة لجان فرعية، وأبدت من الاقتراحات ما كان موضع التنفيذ العاجل، لقوة الحركة الإصلاحية التي نادى بهذه الاقتراحات، وفي كتاب الحركة الأدبية والفكرية في تونس تفصيلٌ جيدٌ لهذه الخطوات الميمونة، ذات الأثر البعيد.

أما أثر الرجل في الإفتاء والجامعات والمجامع والمؤتمرات الاستشراقية فواضح فيما تُدوّل من آثاره، وقد أسس معهد الحقوق العربي، ومعهد البحوث الإسلامية وألقى بهما من المحاضرات ما استنفد قدراً كبيراً من وقته وجهده، لذلك كانت وفاته العاجلة مصدرَ أسى شامل في الدوائر العلمية في شتى ربوع الإسلام.

وأذكرُ أن الصحف المصرية قد نعتته في الصفحة الأولى إلى جوارِ صورته
الكريمة، وكذلك فعلت صحفُ العالم العربي، وقامت له حفلات التأبين بالمجامع
العلمية حيث لقي ربه في ٢٠ / ٤ / ١٩٧٠م، مشيعاً بالدموع والآهات . . وتلقى
والده الشيخ الإمام آلاف البرقيات المواسية، وليتها كانت تفيد.

* * *

محمود محمد شاكر بين الرافي و طه حسين

- ١ -

لم يكن رَحِيلُ الأستاذ محمود محمد شاكر عن هذه الدنيا رَحِيلَ كاتب أديب محقق له ثماره المختلفة في رياض الأدب والعلم فحسب، فكم رَحَلَ أناسٌ لهم هذه الأوصاف، ولم ينعثوا في النفوس هذه اللهفة المريرة التي بعثها رَحِيلُ الأستاذ محمود محمد شاكر، لأنَّ الرجل العظيم لم يكن أديباً عالماً محققاً فحسب، ولكنه كان زعيم اتجاهٍ أدبيٍّ علميٍّ تندافعُ حوله الأمواج الهائجة لتزِيلَ أعمدته الراسخة، ولها القوة كل القوة فيما يمدّها بها العصر من نفوذٍ في المناصب والإعلام والوظائف التي تنفع الأشرار وتغصّف بالأخيار، بل فيما يُسيطرون عليه من أدوات النشر، إذ يعملون على ترويح كتبٍ سيئة مغرضة تحاول أن تهدم تاريخ الأمة هدماً لا بقاء لها بعده.

وقد كان الأستاذ محمود محمد شاكر بماضيه الحافل، وثقافته الواسعة، وشجاعته العاصفة، ودراسته العميقة بأهواء المتربّصين - شجاً في حلق هؤلاء يُحاولون هدمه فلا يستطيعون، لأنّهم يرون من صلابة فكره، ونفاذ رأيه، والتفاف الشرفاء من حوله ما يجعله لواء خفاقاً، وقد حاول بعضُ زعمائهم حين مُهدت له أسباب الذبوع الكاسح أن يفترى على العربية في سِيرِ أعلامها وأبطالها وقوادها مموهاً حديثه ببعض البراهين المصطنعة التي لا تثبت لتمحيص، حاول ذلك ووجد من أشياعه من يُقعدونه في الصدارة، ويُسَبِّحون بحمده حتى لا يعلو صوت كاتبٍ ما على صوته.

ثم فوجئ القراء بمحمود شاكر يزأر زئيره المرعب، في وجوه الطرائد المنتشرة في شتّى البقاع دُونَ أن تقدر على ردّ الهجوم الزائر، فيكشف عورات كثيرة ويردّ

الاعتبار لأعلام من القمم مثل أبي العلاء وابن خلدون، ويكشف عن المرض المعضل في نفوس يزعمها أن ينتشر فضلٌ لهذين العَلَمَيْنِ في رُبوع الغرب فتردّده آفاق الشرق، ومحمود شاكر لا يعبأ برأي الغرب، ولكنّه يرى من ضِعاف النفوس طوائف تقرأ فتعتقد فتصفّق، فبادر يكشف النقاب عن الأباطيل أولاً، وعن دوافعها ثانياً، فإذا السر مكشوف مفضوح.

لم يكن محمود شاكر رجل ثقافة أدبية تقتصر على المتعالم المتعارف عند الأدباء المعاصرين وحده، ولكنّه كان يجمع ثقافة الأمة الإسلامية جميعها كأحسن ما يكون الجمع الواعي، كان يعرف علوم الفقه والأصول والتوحيد والتفسير والحديث والتاريخ والمنطق معرفة الدارس المتعمق كما يعلم علوم النحو والصرف والبيان والمعاني والبديع واللغة سواء بسواء، وقد تكون له من ذلك كله منطق عُرِف به وحده، فهو رجل الثقافة الإسلامية في عصره بشعبيّتها الدينية والعربيّة معاً، فإذا انضمّ إلى ذلك روايته المتسعة الممتدة لدواوين الشعر العربي في شتى عصوره. رواية الناقد المتذوق المتعمق، فهو بذلك كله صاحب القول الفصل، المنطق المفحم الصريح. . في كل ما خاضه من جدال.

والحديث عن الأستاذ يتطلّب كتاباً برأسه لا فصلاً أو فصلين في كتاب، لذلك سأكتفي بالإشادة إلى بعض مواقفه تاركاً الحديث عن تحقيقه العلمي، وأسلوبه الأدبي، وجدله المنطقي، ومقالاته الصاعقة التي واجه بها ذوي الغرض إلى مَنْ يستطيع أن يخصّ كل ناحية بكتاب مستقل، ومما نحمد الله عليه أن تلاميذه المخلصين كثيرون، وفيهم من قام ببعض هذا العبء عن رضا وسماح، ومن يتهاى لعمل أكثر قيمة، وأوفى بياناً، لأن الله الذي ألهمه الجهاد في حياته، ألهم تلاميذه أن يُوفوه حقّه فلا يضيع، وإلى القارئ ما يُشير إلى بعض هذه المواقف مع زعيمين كبيرين من زعماء الأدب الحديث! هما طه حسين ومصطفى صادق الرافعي، ثم أتبع ذلك بنقاش كان بيني وبينه منذ عهد بعيد.

- ٢ -

بين طه حسين ومحمود محمد شاكر

قرأتُ ما وقّع تحت يدي مما قيل في تأيين الأستاذ محمود محمد شاكر بعد

رحيله، والحق أن رنة أسي شملت الكتاب والقراء معاً حين علموا أن حارس الفصحى وسادن العقيدة قد ألقى عصاه واستقرت به النوى في مضجعها الأخير، وكأن ذلك قد ساء قوماً ممن يبغضون اتجاه الرجل في كفاحه الجاهد الشريف، حيث نازل خصومه وحيداً في أشد الحومات اشتعلاً، وأشهد ما توانى في موقفه، ولا ألقى السلم عن طوع، بل ظلّ مناضلاً يحمل الراية في إباء، ويجمع حوله من التلاميذ من آمنوا باتجاهه، ورضي عنهم ورضوا عنه.

أقول كأن قوماً ساءهم أن يُشيع الرجل بهذا الاحتفال الوافي البار، فأخذوا يتحدثون عن مواقف كانت له، ليبرزوها على غير وجهها، ويجعلوا من ضيائها الساطع ظلاماً يتكاثف، وأول ما اعتمد عليه هؤلاء موقفه من أفكار أستاذه طه حسين، حيث كان التلميذ وفياً لأرائه الصادقة، أبى أن يضيع مثاليته بعرض الدنيا، ومنصبها الزائل، لقد قالوا إن طه حسين قد ساعده على الالتحاق بكلية الآداب، وهو طالب من طلاب الشعبة الرياضية لا الأدبية، وداور رئيس الجامعة أحمد لطفي السيد في ذلك حتى اقتنع فأصدر قراره بالتحاقه بكلية الآداب، وكان ذلك كافياً لأن يكون من أشياعه الأقربين، والحق أن الأستاذ شاكر لم ينكر ذلك، ولكن سجّله في مقالاته أكثر من مرة، ثم جذت من أحوال الدكتور ما جعل الحق أولى لديه من أستاذه، أفيكون ذلك مأخذ المأخذ وآية المثالب عند أرباب الوصولية من المتملقين!

لقد هُتّي محمود شاكر في صباه الأول لأن يكون راوية أميناً للشعر العربي، فحفظ ديوان المتنبي وهو صبي لم يبلغ الحلم، ثم نزع أستاذه الكبير سيد بن علي المرصفي شارح الكامل الأشهر إلى الأدب الجاهلي شعراً ونشراً، فعكف عليه عكوف الصّب المدنف، كان لا يكتفي باستظهاره وفهمه، بل كان لكل بيت من أبيات هذا الشعر إحياء خاص يُعطيه أكثر من مدلوله المتعارف، فهو يتلمس الأغوار الدفينة في مطاوي البيت ليعرف نوازع الشاعر وخوالجه.

وهكذا كان الشعر الجاهلي لدى شاكر الشاب الناشئ تاريخاً وأدباً، في وقت واحد وقد أمكنه مراسه الأطول أن يعرف لهذا الشعر نمطاً خاصاً يبعده عما جاء بعده من الشعر، إذا ألف له موسيقى شجية تنحدر من سمعه إلى قلبه فتورثه جيشاناً وانفعالاً عند الثورة، وانبساطاً ونشوة عند السرور، وفي هذه الحياة الأدبية (ولا

أقول الجاهلية كيلا تعطي مدلولاً لا أرتضيه) في هذه الحياة ذات النشوة الساحرة الآسرة التحق الطالب بكلية الآداب ليكون تلميذاً للدكتور طه حسين، وقد قيل إنّ دروس الأستاذ ستكون في الشعر الجاهلي أوّل ما تكون، فأحسّ الطالب بنشوة غامرة واعتقد أنّه سيجد من يفوقه هيأماً وافتناناً بهذا الشعر، أو على الأقل اعتقد أنّه سيجد من يُقاسمه حبه الأكيد لهذا الضرب من الإبداع عن بيئة صادقة، لا عن هوى مُفتعل، ولكن الدكتور طه حسين بدأ بدعوى انتحال الشعر، وأنه كاذبٌ ملفّق لم يقله أمثال امرئ القيس وزهير، وإنما ابتدعه إسلاميون حاولوا أن يُثبتوا به مجدداً لقوم غابرين!

هكذا فوجئ محمود شاعر بما قاله أستاذه، ولم تكن المفاجأة ذات شقّ واحد بل ذات شقين، لأنّ محمود شاعر قد قرأ هذه الأفكار لمستشرق إنكليزي هو (مرجليوث) أعطاه إياها فقيده العروبة والإسلام أحمد تيمور منشورة في مجلة استشرافية، فقرأها الشاب الناشئ ونبذها وراءه ظهرياً، لأنّ قائلها أعجمي لا يفهم اللسان العربيّ على وجهه الصحيح، ولا يضّرّ الشعر الجاهلي أن ينكره أعجمي لا يفهم ألفاظه فضلاً عن معانيه، أمّا أن ينقل ذلك أستاذ الجامعة نقلاً واضحاً دون أن يشير إلى قائله وأن ينقله مُعجّباً مفاخرأ وكأنه من ابتكاره، فهذا ما أورث الطالب صدمةً عنيفة في شعوره نحو أستاذه، ويقول الأستاذ شاعر: «إنّ ما كتبه طه حسين فيما نُشر من صحف الشعر الجاهلي كان أقلّ ضجيجاً وأخفّ مباحاة مما كان يقوله للطلاب، حيث بالغ في الشطح مبالغة حاول أن يخفيها فيما نشر!».

ولم يقف الأمر عند الشعر الجاهلي بل انتقل إلى كتاب الله، فزعم أن القرآن قد اختلق هجرة إبراهيم إلى بلاد العرب مع ولده إسماعيل اختلاقاً وليس لها وجودٌ تاريخي، وقرّن القرآن بالتوراة في تلفيق هذا الزعم، وهذا أيضاً ما قاله مرجليوث، وما ردّده مستشرق آخر تابعه مرجليوث عن جهل، وجاء الدكتور طه ليفاجئ طلابه أولاً ثم قرّاه ثانياً بهذا الإفك المدخول ناسباً إياه لاجتهاده؛ فماذا يصنع شابٌ غيور مؤمن مثل محمود شاعر، لقد واجه أستاذه بشططه فيما قال عن الشعر الجاهلي، واحتاط فلم يقل شيئاً عن قصة إبراهيم وإسماعيل، وفوجئ الأستاذ بمن يعرف الأصل المنقول عنه من طلابه، وكان يظن أن هؤلاء الأغرار لا يُمكن أن يكون فيهم من قرأ كلام مرجليوث، فسكت على ألم، ولم يردّ عليه أمام الطلاب، ولكنه

استدعاه بعد المحاضرة ملاطفاً مُلايناً وكأنّه يحاول أن يصرفه صرفاً عن مبتغاه! وأصرّ الطالب على هُجومه، فسكتَ الدكتور على غيظ، وأذنه بالانصراف.

وظهر كتابُ الشعر الجاهلي، وقامت الضجة حوله، وظهّرت الكتب الناقدة، تعلن السرقة المكشوفة من آراء مرجليوث ومَن سبقه، وكان المنتظر إزاء هذه السرقة البلقاء أن يكونَ لدينا رأي عام ينكر أن يسرق الباحث أفكاراً مسمومة لأعداء دينه ثم يذيعها وكأنّها من إلهامه وابتكاره، كان المنتظر أن يكونَ لنا رأي عام يضع الدكتور موضعه الطبيعي بعد أن انكشف عواره، ولكنّ الرأي العام تكونَ فعلاً من الجمهور لا من المثقفين، فقد حملت الأمة ممثلةً في برلمانها ونوابها على الكتاب، وصدر الأمر بمصادرته على أن المتزلفين إلى الرؤساء لم يُواجهوا السرقة مواجهة الجريمة، بل اندفعوا إلى القول بحرية الفكر! وحرية الفكر هذه لا تنقل إلا عند مُهاجمة الدين، كأنّ الإسلام عدو للحرية الفكرية وهو باعِثُها الأصيل، لقد كان الظرف السياسي بين الأحزاب المتناحرة لا يسمحُ بالتشدد مع الدكتور فاكتفى القوم بمصادرة الكتاب، ورجع الدكتور إلى الجامعة وكأنّه انتصر في معركة شَبّها الحاقدون لا المخلصون!.

لقد ضاق الأستاذ محمود شاكر بما رأى وما حقّق، إذ انقلب الباطلُ حق، وأصبح سارقُ الأفكار زعيماً ذا كفاءةٍ واقتدار، وكان الدكتور قد اعتصم بما سماه مذهب ديكارت في الشك، ولكنه فهم المذهب على غير وجهه، وواجهه المخلصون بحقيقة رأي ديكارت الذي حُرّف وبُدّل، ونشر الأستاذ الخضير ترجمة عربية لمنهج ديكارت ليرى القراء كيف ادّعاها الدكتور طه حسين دون معرفة، نشر ذلك تحقيقاً لرغبة الأستاذ محمود شاكر كي يقف الجمهور على ما كان من ادّعاءٍ وتطاوُل من ناحية، ومن خطأ وسرقة من ناحية أخرى، ومع ذلك فقد رضي أكثر المثقفين عمّا فعل طه حسين، ولم يستمع هؤلاء لما كتبه أربعة من كبار المحققين في نقد ما أُرْجِف به الدكتور، وكان الكُتُب الأربعة كانت صرخة في واد، وهي بحقائقها السافرة تغني عن كل تعليق!.

لقد ضغط الإحساس العظيم ضغوطه المرهقة على نفسية شاكر، فأثر أن يترك الجامعة نهائياً، ورأى جوّ الصحافة حوله مريضاً موبوءاً فأثر أن يترك مصر جميعها، وارتحل إلى جدّة بالحجاز ليضمّد جراحه، وظل بها يدير مدرسة متواضعة حتى استدعاه والدّه الشيخ فما استطاع أن يتخلّف!

حضر محمود إلى مصر، لا ليسكت عن طه حسن كما كان يظن أن يفعل، ولكن ليلتحم به أعنف التحام وأشدّه، إذ كان مما قدّر عليه أن يؤلف كتاباً عن المتنبي بمناسبة ذكره الألفية تُصدره مجلة المقتطف عدداً ممتازاً يكون بمثابة احتفالٍ خاص بالمجلة لِذكرى الشاعر الكبير، ومحمود يحفظ شعر المتنبي عن غيب في صدره، وقد أطلّ معاودته وترديده، حتى صار هذا الشعر لديه بمثابة تاريخ لحياة المتنبي يُغنيه أن يقرأ ما كُتب عنه من أخبار تاريخية في صحف التراث، وليس معنى هذا أنه لم يقرأ هذه الأخبار في مظانها الكثيرة، فهو طُلعة نقاب متمرس على صغر سنّه بالنسبة لمن يتصدّون للتحقيق الأدبي العميق، وإنّما معناه أنه استشف من قصائد الرجل جميع أحواله على نحو كشف له المكنون من سرائره، والخافي المجهول ممّن لم يشر إليه أحد من المؤلفين.

وهذا مذهب من التفسير لا يتاح لكلّ من يتصدى لدراسة الدواوين الشعرية، بل لا بدّ لهذا الدارس من أن يكون ذا ذوق حسّاس ملهم، وذا استشفافٍ بعيد النظر بحيث تكون اللفظة لديه ذات مدلول لا يقف عند المعنى اللغوي، فذلك أيسر الأمر، ولكنه يطوي في لفائفه مُستكناتٍ تنكشف شيئاً فشيئاً بالمعاودة المتكررة، ولم لا يُعاود المؤلف ما يحفظه طي صدره، يُعاوده في خلواته بالليل، حيث يسدل الستار على النوافذ لتكون ليلاً آخر كما عبر عن ذلك في بعض مقالاته.

وفي هذا الهدوء ينساب تيار الأبيات هادئاً رقيقاً في البدء، ثم جيّاشاً مطرداً في ما بعد ذلك، فيقف على أشياء من حياة الشاعر لم يُفصح عنها راوٍ، ولم يدوّنها كتاب، وهذا ما كان فعلاً حيث اهتدى إلى أشياء كثيرة لم يكتبها أحدٌ من قبله، اهتدى إلى (علوية المتنبي) بمعنى أنه لم يكن ولّد أحد السقّاتين كما قيل، ولم يكن والدّه ممتهنّاً هذا الامتهان، بل كان علويّاً نشأ بالكوفة موطن العلويين، وتعلّم مع الأشراف في مكاتب العلم حفظاً للقرآن، وهذا ما لم يقلّه أحدٌ قبل شاكر، قاله استنتاجاً من أبياتٍ عرّف باطنها الخفي ولم يقف عند ظاهرها الجليّ.

وقد جدّت من النصوص - في مخطوطاتٍ ظهرت فيما بعد - بعض أقوالٍ إن لم تؤيّد الرجل صراحةً فقد أيدته ضمناً، إذ وصلت هذه الأخبار للقول بأن المتنبي أَرْضَعته علوية كوفية فهو إذن علويّ عن طريق الرضاع على التحقيق، وهذا يكفي في الانتساب، لأن للرضاع حرمة النسب في الإسلام!

أما الأعجوبة حقاً التي اهتدى لها شاكر فهي حُبّ المتنبي لخولة أخت سيف الدولة ، وأدلة ذلك محتملة فيما استشهد به ، وقد قال الراجعي رحمه الله في هذه المسألة أنها تركته بين الشك واليقين ، وإذا شكّ الراجعي ولم يجزم بالرفض فقد وجد باباً من التعليل لا يمكن رفضه البات ! مهما يكن من شيء ، فقد كان كتاب شاكر عن المتنبي مذهباً جديداً في التحليل الأدبي للشعراء ، وصلته طه حسين بذلك أنه اعتنق هذا المذهب في كتابه (مع المتنبي) ، دون أن يشير إلى صاحبه ، كما أنه تبني آراء كثيرة لشاكر دون أن يشير إلى مصدره من كتابه ، بل إنه عارض شاكر معارضة دلت على تأثره به دون أن يُشير إليه إلا في موضعين ، مع أن صفحات الكتاب ناطقة بالسطو (على حد تعبير الأستاذ شاكر) .

وهذا ما فرغ له الشاب الناهض كثيراً ، وحُق له أن يفزع ، إذ يرى من يعتبر نفسه أكبر أدباء مصر يسطو على آرائه ثم على مذهبه التحليلي ، مدّعياً في المقدمة والخاتمة أنه لم يرجع لأحد غير ديوان الشاعر ! والذي أثبتته الأستاذ شاكر أن كل ما جاء به الدكتور لا يتعدى ثلاثة مراجع فحسب هي : كتاب شاكر وكتاب عزام وكتاب بلاشير ، عجنها عجنأ - والتعبير لشاكر - وأظهرها للناس حاملةً اسمه ، وهي لم تحمل غير أسلوبه التعبيري في أكثر ما كتب ! لقد هاج هائج شاكر ، وامتنق قلمه ليكتب عدة مقالات ملتهبة في جريدة البلاغ تنبئ عن ذلك السطو ، وقابل القراء مقالات شاكر بالدهشة ، كما قابلها رئيس التحرير عبد القادر حمزة نفسه بالحيرة من كاتب كبير كالـدكتور طه يهجم على آراء غيره وعلى طريقته التحليلية دون أن يعترف بما اقتنص .

وكان الدكتور قد ألقى قبل ظهور كتابه محاضرة عامة في ذكرى المتنبي الألفية التي أقامتها كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وحضرها الأستاذ شاكر ، فعلم موضع الاقتباس منه مما قال المحاضر ، ثم التقى بالدكتور فأطال الحديث عن كتابه مُثنيًا مادحاً ، وقال إنه قرأه مرتين وسيعودُ إليه ، قال الدكتور - والرواية لشاكر -^(١) : « اعلمُ أنني قرأتُ كتابك مرتين بل ثلاثاً ، ولا أظن إلا أنني عائد إلى قراءته مرات ، وأنا أشهدُكم أنني لم أقرأ منذ سنوات مثل هذا الكتاب ولا أستثني ، لا في العربية ولا في غير العربية ، لا عن الشعراء ولا عن غير الشعراء ، وأشهدُ أنني ما قرأته مرة ثم عدت

(١) المتنبي : ١٣٨/١ لمحمود شاكر .

إليه أقرأه، إلا وجدت لذة أخرى فوق التي وجدتُها في المرة السالفة، لقد مثلت لي المتنبي تمثيلاً، وإنك أحييته إحياءً كأنني أراه وأسمعه، وأشهد أنك درست المتنبي كما ينبغي أن يدرس، وأنك صوّرت المتنبي كما كان يعيش».

هذا ما قاله طه لفظاً لا كتابة، وشاكرٌ تخوّف من هذا الشراء، لأنّه عرف أن الدكتور سيفعل بكتابه ما يحذر، وقد أكّد ذلك للشيخ مصطفى عبد الرازق، فثناه عن وهمه!

فإذا ظهرَ كتاب طه عن المتنبي، وهذه حاله؛ أفما يجوز لشاكر أن يتور، وهل يلام إذا قال إن مذهبه قد انتحله سواء وادّعه لنفسه، وهل يكون عاقلاً لمن ساعد على التحاقه بكلية الآداب! ثم ماذا؟ لقد سكّ الأستاذ شاكر حيناً من الدهر عن الدكتور طه حسين بعد معركة المتنبي، فلم يخصّه بمقال نقدي منفرد، إلا ما كان من تعقيباته الأدبية سنة ١٩٤٠م بمجلة الرسالة في الباب الذي كان يُحرره تحت عنوان (الأدب في أسبوع) إذ اتسع إلى نقاش موجز في بعض ما قاله طه حسين عن الفرعونية وتأثيرها في الروح المصرية، وعن مدرسة المروءة التي يجب أن تُنشأ لتعليم الناس ضرورياً من الأخلاق النبيلة، والذين صاحبوا الأستاذ شاكر في هذه الفترة يقولون إن حديثه عن مخالفات الدكتور طه حسين لا ينقطع، ولا يلومُه أحد في ذلك، لأنّه يحسُّ أن الرجل الكبير قد اختلس أفكار الشاب الناهض، وطريقته التحليلية، ونسبها إلى نفسه حين صدر عنها في كتاب (مع المتنبي)، ولكن القدر كان يُهيئ لمناقشة أخرى بين الرجلين، فقد أصدر الدكتور طه حسين كتاباً تحت عنوان (الفننة الكبرى) خاصاً بمأساة الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه، والقول في الخليفة المظلوم متضارب الروايات، مختلف الأنباء.

فأنت ترى من الروايات المختلفة ما يضرب بعضه بعضاً، وما يحتاج إلى مؤرخ ناقد حصيف، وقد تصدّر الدكتور طه حسين لإيضاح ما يراه في هذه الفتنة الطاغية، ولم يكن الأستاذ شاكر جاداً حين قال في مطلع رده على الدكتور طه حسين: «بادرتُ إلى قراءة هذا الكتاب، لأنّه أوّل كتاب له عن رجل من رجال الصدر الأول من الإسلام، وهو عثمانُ بن عفان أمير المؤمنين، وخليفة رسول الله ﷺ، وأنا أعرفُ للدكتور مكانةً من العلم والتحقيق، فمن أجل ذلك أيقنت أنه سيملاً هذا الكتاب علماً يُضارع قدر هذا الرجل، ويوازن خطر الفتنة التي استعر سعيها في آخر خلافته، وانتهى باغتيال خليفة رسول الله اغتيالاً لم يعرف تاريخ الإسلام أبشع منه

ولا أعظم، وقلتُ لنفسي قبل أن أتجاوز الكلمة الأولى من الكتاب، إنَّ طه خيرٌ من يصوّر للناس هذه الأحداث المختلطة المضطربة وخيرٌ من يهديهم في شعابها إلى مفصل الرأي ومقطع البيان» إلى آخر ما ينحو هذا النحو من الإطراء، وهو إطراء لم يلبث أن انقطع فجأة، حين ظهر أن الكتاب أخذَ يختلج في يد الناقد! وهذا ما توقعه القراء فعلاً منذ قرؤوا عنوان المقال وعرفوا أن الذي يتحدث هو محمود.

أما جوهر ما قام عليه الخلاف فهو إنكار طه حسين لقوة تأثير عبد الله بن سبأ في الفتنة الكبرى، لأنه لم يكن ذا بال في عهد عثمان، وإنكار طه حسين للكتاب الذي أرسله عثمان للمصريين على أيدي أناسٍ أشار بقتلهم، ولكل مؤرخ أن ينفي ويثبت ما دام لا يحتكم إلى نصٍّ سماوي أو حديث متواتر، والمجتهد مأجور.

هذا بعضٌ ما يقال عن موقف شاكر من طه حسين، وهو موقفٌ طبيعي من ناقد يخالف وجهة نظر ناقد، وليس من العدل أن نزعِم أن الخلاف في العلم نوع من العقوق، وإلا فماذا نقول في رجال المذهب الفقهي الواحد حين يُخالفون إمامهم الذي يتمون إليه في بعض ما أصدر من الأحكام؟ لقد كان على هؤلاء اللاتمين أن يقدروا للشاب الناشئ رجولته الحقّة حين واجه أستاذه بالدليل، وحين أُنْفَ أن يسير في ركب المهلّلين.

- ٣ -

بين مصطفى صادق الرافعي ومحمود محمد شاكر

حين انتقل الأستاذ محمود محمد شاكر إلى رحمة الله، احتفلت الصحف بتأبينه، وذكرت أسماء كثيرة لأناس كانوا ذوي أثر في حياته الأدبية، ما بين مؤيد قام بتركيزه وتقديره، ومعارض جابه أراءه ومنهجه؛ وأعجبُ العجب في ذلك أن أحداً لم يُشر إلى دور الأستاذ مصطفى صادق الرافعي نابغة الأدب وحجة العرب في عصره فيما كان للراحل الكبير من اتجاه، وكأن اسم الرافعي رحمه الله صار محزوماً على من يسطرون الصحف بالسواد حقيقياً ومعنوياً، والشيء الذي لا ينكره أمينٌ على تاريخ الأدب بعامة، والأدباء بخاصة أن محمود شاكر كان امتداداً للرافعي في أكثر اتجاهاته، فكل ما جاهد في سبيله الرافعي جاهد محمود في مثله، إذ حمل الراية من يده بعد رحيله، وذاد عنها السقوط، وكان في الحقبة الأخيرة من حياته مثلاً مطابقاً

لرافعي، يعرفه كل المعرفة من قرؤوا تاريخ الرجلين، له هيئته وسمعته وقيئته، حتى كأنه هو وهذا التحاشي المغرض لذكر الرافعي هو دافعي الملزم لكتابة هذه السطور.

اعتمد الرافعي على نفسه في تحصيل التراث العربي أدباً وتاريخاً وفلسفة وفقهاً وأصولاً، كما اعتمد شاكراً في ذلك على نفسه، فقد كان والد الرافعي من كبار الفقهاء في عصره، وكانت له مكتبة حافلة بخير ما في التراث من كنوز، فعكف الرافعي على ذخائرها تلميذاً لا أستاذ له غير الكتاب، وكذلك كان والد محمود وكيلاً للأزهر، ومن أكبر رجال التوجيه الإسلامي في الصحف السيارة، وصاحب مكتبة حافلة، رجع إليها محمود بعد أن درس علوم المدارس والكلية ليجد شيئاً آخر غير الذي درس، يجد ما يجده الرافعي من كنوز الشريعة والأدب، فتلاقى الرجلان على منهل واحد، وآتت القراءة ثمراتها اليانة دون إمهال.

وحين نجمت فتنة الشعر الجاهلي اشترك في وأداه الأستاذ والتلميذ، كل على قدر طاقته، وقد كان اتحادهما في الرأي سبيل التعارف فالمودة فالحب، وإذا كان الرافعي يقيم في طنطا، ويقيم محمود في القاهرة حيناً، وفي جدة حيناً آخر، فقد أخذت الرسائل تتبادل بينهما دون انقطاع، بل كان محمود يكتب للرافعي عن بعض ما يلمسه من الاعوجاج لدى المتسرعين من الكتاب، طالباً أن يعصف الرافعي بما يشذ من الانحراف، فكان الأستاذ سريعاً إلى تلبية تلميذه، ومن ذلك ما كتبه محمود شاكر إلى الرافعي خاصاً بانزلاق السيد حسن القاياتي إلى موازنة أدبية لم يطمئن في حوكها. فأذت العجلة إلى الخطأ، وكانت الموازنة بين نص قرآني ومثل عربي، فاندفع الرافعي إلى إحقاق الحق بما يراه القارئ مسجلاً على صفحات (وحي القلم) وكان في مكنة شاكر حيثئذ أن يرد بما يفهم، ولكنه علم أن الرافعي - حيثئذ - لا يسد مسده أحد في مثل هذا المقام، وهذا ما كان.

رواية محمد سعيد العريان :

الأستاذ محمد سعيد العريان تلميذ الرافعي، ومؤرخه الأمين، وقد قام في تاريخ حياته مقام السيد محمد رشيد رضا من الأستاذ الإمام، فلولاهما لما حفظ التاريخ مآثر هذين الرجلين على هذا النحو البارع المستفيض، ودارسو الأسلوب البياني في هذا العصر يرون أسلوب محمود شاكر أقرب إلى أسلوب الرافعي، وأسلوب الأستاذ محمد سعيد العريان أقرب إلى أسلوب الأستاذ أحمد حسن الزيات، وذلك يرجع

إلى الطبيعة النفسية أكثر مما يرجع إلى التذوق الأدبي، ففي شاكر عرامة الرافعي واندفاعه وتوجهه، وفي العريان سماحة الزيات ولينه وحنكته، والناس ميولاً وأهواء.

يقول الأستاذ العريان^(١): «جلستُ يوماً أتحدث إليه، فقال: إن صديقنا (م) لم يكتب إلينا من زمان، فليت شعري ما منعه عنا، إن بي قلقاً عليه وفي نفسي أن أراه أو أعرف من خبره، وفي صبحه اليوم التالي طالعنا الأهرام، بأن شاباً من الأدباء، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر، قد حاول الانتحار، بقطع شريان يده، فقرأ الرافعي الخبر، واربداً وجهه، وقال: إنه هو! قلتُ: من تعني؟ قال صديقنا (م) فجزعُ وطارت نفسي وقلت له: إنك تتوهم، ولكن الرافعي لم يلتفت إلى ما أقول، وأخذ يحوّل ويسترجع ويستعيد بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان، ثم مد يده إلى مكتبه، فكتب رسالة إليه يسأله الخبر، ويطلب إليه أن يصف له ما كان من أمره، وجاء الرد بما يُحقق توقع الرافعي، فتأثر شديداً، وكتب مقالاته الشهيرة (الانتحار) في عدة حلقات!».

أما بقية حديث شاكر فقد أوجزه العريان فيما يلي: «صديقنا الأستاذ (م) أديب واسع المعرفة، له دين ومروءة وفيه تحرجٌ وخشية، وقد نشأ في بيت له ماضٍ في الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه، والذود عن حرمانه، وهو شاب عذب [حينئذ] بعيد الخيال، دقيق الحس مرهف الأعصاب، وعلى أنه يعيش في ظل وارف، ونعمة سابعة فإنه من سعة خياله ودقه حسّه، متشائم النظرة، لا تراه إلا رأيت في وجهه وعلى طرف لسانه معنى دفيناً من معاني الألم، وما يرى نفسه في أكثر أحواله إلا غريباً في هذا العالم، فإن له من خياله عالماً غير هذا العالم يتمثل فيه المثل الأعلى الذي أعياه أن يبلغه على الأرض، وكان بينه وبين الرافعي ودّ، وله في نفسه مكانٌ؛ فكان له سرّه ونجواه، منذ كان فتى يافعاً لم يبلغ العشرين، وكان الرافعي يعتز بصداقته، ويقرأ له، ويعجبُ بدينه وتقواه، ويتوقع له مستقبلاً مجيداً بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام».

تزكية قلمية:

ثم أصدر محمود شاكر كتابه الأول عن المتنبي وهو في السابعة والعشرين من

(١) حياة الرافعي، ص ٢٨١.

عمره، أصدره كتاباً في الترجمة الأدبية على غير مثال في المكتبة العربية، وأخشى أن أتهم بالتزويد إذ أقول ما بنفسني عنه، ولكنني أنقل كلام الأستاذ فتحي رضوان عن كتابه (أفكار الكبار) حيث قال^(١) عن كتاب المتنبي لشاكر:

«حينما نمضي قليلاً في مطالعته نعرفُ جسامه الخطأ الذي وقعنا فيه حينما فُتِّنا بالتراجم الأجنبية التي كتبها أمثال الكاتبين اليهوديين (أميل لودفيج) و(ستفان زفايج)، والكاتبين الإنكليزيين (آرمسترونج) و(أرديريس)، وكنا نحسبها لوناً من السحر لا يتأتى للكاتب العربي أو الكاتب المصري، لما فيها من طرافة الأنباء، وسرعة الأداء، ورشاقة الأسلوب، وجدة التناول، والمزج بين التاريخ والقصة، وتقصي الجوانب الحميمة والكشف عنها، ثم وصل العوامل الشخصية المخبوءة بالأعمال العامة المعروفة، فإنك واجدٌ هذا كله وأكثر من هذا كله وأنت تقرأ كتاب محمود شاكر عن المتنبي».

هذا بعض ما قاله فتحي رضوان عن الكتاب، ولكن الشاب الناشئ حين أصدره كان مُنهيياً يتنفض رعباً ألا يكون مصيباً في منهجه، ويقول عن نفسه^(٢): «لقد تقاذفني طول الليل رعبٌ شديد من مخافة ما يقول الناس فيه إذا هم قرؤوا، وفاربي الرعب والشك فيما اجترحت فوراً أذهب من قلبي كل يقين فيما كتبتُ، وكل ثقة بما بذلت من جهد، واغتال الرعب سلطاني على عقلي، وسرى سمّ الشك في قلبي طول ليلتي، وركبني الحمى، ثم جاءت كلمة الرافعي - عن الكتاب - ترياقاً، وكلما أعدت قراءتها دبّت كلماتها إلى صميم هذا الرعب حتى أذهبته من قلبي فأحيت، وعندئذ عرفت شيئاً فشيئاً حقيقة طريقي الذي سرت فيه حين كتبتُ هذا الكتاب، وكأنه طريق لم أسلكه من قبل قط».

كلمة الرافعي:

أما ما قاله حجة العرب مصطفى الرافعي عن الكتاب، فمنه:

«لقد كان أول ما خطر لي بعد أن أمضيت في قراءة هذا الكتاب أن المؤلف جاء بما يصح القول فيه أنه كتب تاريخ المتنبي ولم ينقله، ثم لم أكد أمعن في القراءة

(١) أفكار الكبار لفتحي رضوان، ص ٢٨٧.

(٢) المتنبي: ١٠٣/٢ لمحمود شاكر.

حتى خُيل إليّ أنه قد وضع لشعر المتنبي بعد تفسير الشراح المتقدمين والمتأخرين تفسيراً جديداً من المتنبي نفسه .

وكان الرجل مطويّاً على سرّ ألقى الغموض فيه من أول تاريخه، وهو سر نفسه، وسر شعره، وسرّ قوته، ومن هذا السرّ بدأ الكاتب فجاء بحثه يتحدر في نسق عجيب، متسلسلاً بالتاريخ، كأنه ولادة ونموّ وشباب، وعرض بعد ذلك شعر أبي الطيب عرضاً خيل إليّ أن هذا الشعر قد قيل مرّة أخرى من فم شاعره على حوادث نفسه وأحوالها ، وبذلك انكشف السر الذي كان مادة التهويل في ذلك الشعر الفخم .

لقد عرف الرافعي بذلك الفطرة أنّ الكتاب جديد جديد في كل شيء، وأن كبار الكتاب سيسكتون عنه إذ يقرؤونه ضناً بالشئاء على شاب يفتح فتحاً جديداً في تاريخ الشعر والشعراء، وفيهم من قرّاه، وأخذ منه، وحاول أن يُعارض بعض اتجاهاته دون أن يخصّه بكلمة ترحيب؛ عَرَف الرافعي ذلك كما عرف من تلميذه أنه شكّاك ظنّان في كل ما يكتب، لا يعتقد أنه بلغ مرتبة الإجازة، وقد كان ذلك منه في أول شبابه، فلا بد أن يجهر بالقول في كتابه، وما كان الرجل مغالياً بل كان صادقاً كل الصدق .

وقد هوجم شاكر في (الأهرام) وفي (السياسة الأسبوعية)، ولكن كلمة الرافعي كانت درعاً واقية لما يتلقاه من السهام، فكان يدفع القول بثقة لم تكن له لولا كلمة الرافعي، ولم تطل الأيام بالرافعي بعد ذلك أكثر من عام حتى لحق بربه، وبكاه الزيات ومنصور فهمي والمازني بكاء العقل المتمرّن، والعاطفة المتثدّة التي أدركت هول التجارب من قبل فصدق عليها قول المتنبي :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهنتني لم تزدني بها علماً
أما محمود شاكر فقد أرنّ إرّنان الثاكلة الجزوع، وسألّت كلماته دماء لا دموعاً، ولم يكن يتحدّث عن الرافعي فحسب، ولكنه كان يتحدّث عن نفسه حين قال من قصيدة حارة، تُحسب من الشعر المنشور^(١) :

«لم أفقدك أيها الحبيب ولكنّي فقدت قلبي، كنت لي أملاً أستمسك به كلما تقطعت آمالي في الحياة، كنت راحة قلبي كلما اضطرب القلب في الغناء، كنت

(١) الرسالة - ١٧/٥/١٩٣٧ .

الينبوع الروي كلما ظمى القلب وأحرقه الصدى، عشتُ بنفسى مجدبة قد انصرفت عنها الخصب، ثم رحم الله نفسي بزهرتين ترفان نضرة ورداء، كنت أجد في أنفاسهما ثروة الروضة الممرعة، فلا أحسن فقر الجذب، أما إحداهما فقد قَطَفْتُها حقيقة الحياة، وأما الأخرى فانترعتها حقيقة الموت، وبقيت نفسي مجدبة تستشعر ذل الفقر».

ولا أستطيع أن أنقل الرثاء جميعه، فمعدرة، ولكنَّ لذعة الحزن لم تفارق قلب التلميذ رداً من الدهر، فكان ينقُص عن صدره بكلمات ينشرها بين الفينة والفينة، ومن أوجع ما قاله محمود في الذكرى الثالثة لرحيل صاحبه:

«ذهبتَ وبقيت، لأتعلم كيف أنافق بصداقتي بعض النفاق، لأنهم يريدون ذلك؛ لأجيد مهنة الكذب على القلب، لأنهم يجيدون ذلك؛ لأتعلّم كيف أنظر في عيونهم بعينين لثيمتين، يلتبس في شعاعهما الحب والبغض، لأنه هو الشعاع الذي يتعاملون به في مودّاتهم؛ لأفني بقائي في معانيهم المتوحشة، إذ كانوا هكذا يتعايشون؛ لأحطّم بيديّ بنيان الله الذي أمرنا بحياطته. وأتعبّد معهم للأوثان البغيضة الدميمة التي أنشأتها أيديهم القذرة؛ لأجني الثمار المرّة التي لا تحلو أبداً».

والذي يريد أن يتأمل حياة شاكر أصدق التأمل، يرجع إلى هذه السطور، فقد كانت معانيها المفزعة إحدى العوامل التي اضطربت بها حياته النفسية، إذ كانت الوحشة تطل من عينه حتى في مجالس الفرح، فكأنها بظلالها الحزينة تصرخ في وجهه قائلة: ليس هذا طبعك إذ تبتسم، كما كانت تدفعه إلى صراحة ناقمة ضجر بها خصومه وأصدقائه معاً، ولعله كان يضجر بها في ذات نفسه، إذ خلقه الله ثائراً لا يهدأ، واثباً لا يستكين.

معركة أدبيّة

بعد رحيل الرافي بعام واحد، أوقد الشهيد الأستاذ (سيد قطب) معركة أدبيّة على صفحات الرسالة لا خَير للأدب فيها، إذ كان (السيد) رحمه الله في عنفوان شبابه المتحمس منغمساً في دور عبادة البطل وهو الأستاذ عباس محمود العقاد، إذ كان الكاتب الأول والشاعر الأول والناقد الأول في ميزان سيد قطب، وطبيعي أن يتضاءل جواره أدوار النظراء من أمثال عبد الرحمن شكري، وخليل مطران، وإبراهيم المازني، وهم في رأي العقاد نفسه زملاء طريق ورفقاء سلاح.

وإذا كان الرافعي - رحمه الله - هو الذي اشتهر بمنازلة العقاد والهجوم على أدبه، فقد رأى سيد قطب أن يُوازن بين الرجلين لا ليذكر لكلٍّ مآخذه ومآثره، بل ليجرّد الرافعي من الإنسانية، فضلاً عن الشاعرية، وليصفه بالجمود والانغلاق وما لا أحبّ الاسترسال في تسطيره، وقد ثارَ محبّو الرافعي لهذا الهجوم الصارخ فاتسعت صحيفة الرسالة لهجمات إسماعيل مظهر، ومحمد سعيد العريان، وعلي الطنطاوي، ومحمد أحمد الخمرأوي، على مدى قرابة عام، وكان الأستاذ محمود شاكر من أبرز المدافعين عن أستاذه وصديقه، ولم يكن مثل السيد قطب رحمه الله منكراً فضلاً أحد ليعترف لغريمه بكل فضل، ولكنه حفظ مقام الأديبين الكبيرين معاً، وحدد موقفه بادئ بدء إذ قال^(١) في مقاله الأول بعد مقدمة لا بد منها:

«إن الرافعي رحمه الله، لو كان يرى العقاد ليس بشيء البتة، وأن أدبه كله ساقط ذاهب في السقوط، لما حمل العناء في نقده وتزييف أدبه، ولو كان العقاد يرى في الرافعي بعض رأيه الذي كتب، لما تكلف الرد عليه ولا التعرض له، وكم من رجل كتب عن الرافعي وعن العقاد ونالَ منهما وأوجع، ولأنه ليس يدخل في حسابهما، ولا يقيمان لأمثاله وزناً، فقد تركاه يقول فيكثر فيمل فيسكت، ولم يكن بين أحد منهما وبين مثله كالذي كان بين الرافعي والعقاد.

فالرافعي والعقاد أديبان قد أحكما أصول صناعتهما، كلٌّ في ناحيته وغرضه، وكلاهما يعلم عن عمل صاحبه مثل ما يعلم عنه، ولا يُظن بأحدهما أنه يجهل قيمة الآخر، فلما كانت العداوة بينهما، بدأت قوة تعارض قوة، ورأي يُصارع رأياً، وكان في كليهما طبيعة من العنف والضرام والحدة، وولع العقاد بإرسال العبارة حين يغضب صريحة لا صنعة فيها، وأغري الرافعي بالسخرية والمبالغة في تصوير ما نصبه لسخره وتهكمه... وخلق بنا وبأدبنا أن نطوى سيئة رجلين، أحدهما في غيب الله، وبقي الآخر تحوطه الدعوة الصالحة لطول البقاء وامتداد الأجل وسداد العمل».

وفي ضوء التقدير التّام لأدب الرجلين قامت المعركة بين شاكر وسيد قطب! وليتها لم تقم.

(١) الرسالة ١٩٣٨/٥/٩ م.

من يريد أن يعرف تلاقي الأفكار، وتجاوب المشاعر بين الراجعي ومحمود شاكراً، فليقرأ كتاب الراجعي (تحت راية القرآن)، وكتاب محمود شاكراً (أباطيل وأسماء) ليرى أنّ وحدة الاتجاه، وبواعث التفكير، واتفاق النظرة، وحدة الأسلوب كلّها تنزع من مشكاة واحدة لدى الأستاذ والتلميذ، وليس معنى هذا أن شاكراً قد اقتفى أثر الراجعي، ولكن معناه أن التاريخ قد أعاد نفسه - على القرب القريب - أعاد ما كان في زمن الراجعي من الاحتدام بين القديم والجديد، وما كان في زمن شاكراً من توابع هذه المعركة، المتفقة في أصولها، المختلفة في فروعها، المتحدة في ثمارها.

على أن ناحية هامة من نواحي التأثير الراجعي في أدب محمود شاكراً، لم تأخذ خطها من الدراسة، هي ما كتبه شاكراً في الأعداد الممتازة من مجلة الرسالة عن مثل أسماء بنت أبي بكر، والحقيقة المؤمنة، وأيام حزينة، وإلى أين؛ فإن منهج الراجعي البياني كان ذا تأثير جاذب في بيان شاكراً، حتى لكأنك في بعض الأحيان تنسى أنك تقرأ لشاكراً ويختل إليك أنك تقرأ في (وحي القلم)، أما أشعار شاكراً الغزلية ففيها نفحة رافعية، وأعيد القارئ أن يعلم أنني أقصد المحاكاة التقليدية، فقد استوى شاكراً على سوقه أديباً مبدعاً وشاعراً مجيداً وكاتباً فحلاً، ولكن وحدة الاتجاه واتفاق المنبع، وتشابه العواطف قد أدى إلى ذلك كله، وقد يتاح لي أن أبسط ما أجملت في موضع آخر، لأن لكل مقال حده المرسوم.

- ٤ -

بيني وبين الأستاذ محمود محمد شاكراً

[كان الأستاذ شاكراً تناول كتاب العدالة الاجتماعية في الإسلام للأستاذ سيد قطب بنقد موجه، فكتب مايلي ردّاً عليه بمجلة الرسالة، وقوبل برد عاصف رددت عليه بمثله كما يتضح ممايلي]:

للأستاذ محمود محمد شاكراً منزلة كبيرة لديّ، فأنا أعده كاتباً قوي الأسلوب، رصين العبارة، وأعرفه أديباً مخلصاً يتدفق غيرة على الإسلام، وتعصباً لأفذاذه

الأبطال، لذلك أُقْبِلُ على قراءة ما يدبجه يراعه المؤمن في شوق واهتمام؛ وقد طالعت أخيراً ما كتبه بمجلة (المسلمون - العدد الثالث ص ٣٨ - جمادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ) تحت عنوان «لا تسبوا أصحابي» فوجدت المجال واسعاً للخلاف بيني وبينه، ولم أشأ أن أطوي ما دار بخلدي عن القراء، فرأيت أن أناقش الكاتب الكبير فيما سطره راجياً أن يحق الله الحق بكلمته، فالحق وحده هدف الكرام الكاتبين، وفي طليعتهم الأستاذ الجليل.

ولعل من الأوفق أن أبدأ بتلخيص الفكرة التي يدور حولها مقال الأستاذ شاكِر، فأعلن أن الكاتب الفاضل ينحي باللائمة على المجاهد الداعية الأستاذ سيد قطب - وإن لم يصرح باسمه - إذ تعرض في كتابه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» إلى أناس عدهم الأستاذ شاكِر من أفاضل الصحابة، وقد خصهم صاحب الكتاب بما لا يليق في مذهب الأستاذ شاكِر من النقد والتجريح، وهو بذلك يخالف ما اجتمع عليه الرأي السائد من تقديس أصحاب الرسول «إذ لا سبيل لأحد من أهل الأرض ماضيهم وحاضرهم أن يلحق أقل أصحاب محمد، مهما جهد في عبادته، ومهما تورع في دينه، ومهما أخلص قلبه من خواطر السوء في سره وعلايته»، كما قال الأستاذ الجليل.

وقد بدأ الأستاذ شاكِر مقاله بحديث الرسول (ﷺ): «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» واندفع في سياق منبري يسرد الأدلة الخطابية، ويستثير النوازع العاطفية، ويستشهد بقول الرسول (ﷺ) «خير الناس قرني ثم الذي يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» كما ذكر حديثاً يدور حول هذا المعنى، محاولاً أن يؤيد بذلك كله دعواه الخطيرة إلى تقديس أناس بعدوا عن الحق فيما سجله عليهم التاريخ من أعمال. ومما نحمد الله عليه أن الحق - في هذه الناحية - واضح أبلج لا يحتاج إلى برهان.

وقبل أن نعرض ما ذكره الأستاذ قطب في شأن معاوية وأصحابه، نذكر أن الأستاذ شاكِر قد أثار هذه العاصفة وحجته الوحيدة، أن كل صحابي رأى الرسول وسمع عنه قد اكتسب مكانة تحرم على كل إنسان أن ينقد أخطائه، أو يظهر أغلاطه

«فإذا أخطأ أحدهم فليس يحلّ لهم ولا لأحد ممن بعدهم أن يجعل الخطأ ذريعة إلى الطعن عليهم» كما ذكر الكاتب .

وحسماً للنزاع من أقرب طرقه، نبدأ بتحديد معنى الصحابي، وهو - في أبسط حدوده - يطلق على كل إنسان حصلت له رؤية الرسول أو مجالسته، فجميع من سعدوا بمشاهدته ﷺ في حياته بعد الإسلام صحابة يُشَرَّفون بهذه الصفة المباركة، حتى عبد الله بن أبي رَأْس النفاق بالمدينة، فقد قال الرسول لمن همّ بقتله: «معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، فعبد الله من أصحاب محمد ﷺ كما ينطق الحديث، فليت شعري أينطبق الحديث القائل «لاتسبوا أصحابي» على جميع من سَعِدَ بالصحبة، أم يخصُّ من باعوا أرواحهم وأموالهم لله من المؤمنين الصادقين؟ لا بد أن تكون الطائفة الأخيرة هي المقصودة دون أدنى تردد أو نزاع، فكل من تمسك بأخلاق الإسلام من أصحاب الرسول، وشهد تاريخه بمروءته وصدقه فهو موضع التَّجَلُّة والتَّجِيل، ولا يجوز لمسلم يدين بالإسلام أن ينتقصه في شيء، وكل من حامت الشبهات فوق تاريخه فهو موضع الملامة والنقد، لأن الناس سواسية أمام الإسلام، ولا فضل لعربي على أعجمي بغير تقواه، والإسلام لا يقدّس غير البررة المخلصين .

ومعلوم أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا من الدين والجهاد بمنزلة واحدة، ففيهم من أسلم في فجر الدعوة منذ أعلنها الرسول وقطع السنوات المتتابة في الجهاد والجلاد، وفيهم من أسلم قبيل الفتح أو بعده والسيف مصلت على رأسه، وفيهم من بذل الكثير من الدم والمال وادخر القليل، وفيهم من تقاعس ولم يبذل شيئاً من دمه وماله، ومن الظلم البين أن نرتفع بهؤلاء جميعاً إلى منزلة واحدة، بل على التاريخ أن يُهَيِّئَ لكل إنسان منزلته وفق ما أسلف من أعمال:

﴿ لَا تَسْتَوِ الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥] .

وإذا كان الأستاذ شاكر يرى أنه لا يجوز لأحد من الناس أو من الصحابة أن يجعل الخطأ ذريعة إلى الطعن في المخطئين، فماذا يفعل في الصحابة إذ أحلوا لأنفسهم ما حرمه عليهم الآن، فخطأ بعضهم بعضاً، وطعن فريق منهم على فريق

آخر يناوئه، أفىكونون بذلك قد خالفوا الحديث النبوي كما فهمه الأستاذ شاكر . . أم عرفوا أن الصحبة وحدها لا تعصم من النقد والملام؟

لقد اتضح بجلاء أن الحديث الذي عَنَوَنَ به الأستاذ مقالَه لا يندرج على جميع من سَعِدَ بالصحبة، بل يختص الطائفة المناضلة التي لم تترك أخلاق القرآن في موقف، أو تنبذ روح النبوة في صنيع، وجميع من سار على النهج القويم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود موضع القدوة والاحتذاء من المسلمين، وحرام على كل مؤمن أن يحوم على أحد منهم بطعن أو تجريح، أما الذين تأخر بهم الركب عن اللحاق بالإسلام في مشرق شمسِه، فيجب أن ننظر إلى صحف أعمالهم ومواقفهم في الحياة، ثم نحكم عليها في ضوء القرآن والنبوة، وهذا ما فعله الأستاذ سيد قطب، فقد نظر إلى أعمال معاوية وطائفة من بني أمية نظرة إسلامية صادقة، فوجد خليفة المسلمين قد بَعُدَ عن روح الإسلام في أكثر أعماله، وساعده في هذا السبيل فريق باع آخرته بدنياه، فرأى أن يقول كلمة الحق في أناس تجاوزوا حدود الله في أعمالهم .

والأستاذ قطب لم يرد بكتابه أن يكون مؤرخاً راوياً، فالرسالة التي يضطلع بها الآن أعظم من أن تنحصر في حدود التاريخ، ولكنه ينادي بالرجوع إلى أحكام القرآن، وهدى النبوة، وتعاليم الإسلام، وقد عرف أن الخلافة الإسلامية قد فقدت معناها الديني بعد مصرع علي، وجاء من الخلفاء من أحالها إلى مُلْك عضوض، تبعد عنه روح الإسلام في أكثر نواحيه، وقد ظن كثير من الناس أن هؤلاء الخلفاء الرسميين من لدن معاوية يمثلون الخلافة الدينية التي تتقيد بالقرآن وتهتدي بالسماء، ورأوا من جرائرهم الخلقية، وترفهم المقيت، ولهوهم الماجن ما ييغضهم في الخلافة والإسلام، فقام الأستاذ سيد قطب يدافع عن دينه، ويبين أن الإسلام لا يعترف بخلافة بعد علي، وقد نطق بالحق المؤيّد بالتاريخ حين أعلن أن معاوية أول خليفة تحلل من قيود الإسلام، أفنقول له بعد ذلك لقد تهجمت على أصحاب الرسول، وخالفت هدى النبوة، أم يريد الأستاذ شاكر أن يفهم الناس أن معاوية وأشباهه يمثلون الإسلام بما ارتكبه من رشوة وخداع وممالة؟ لو أن الأمر كذلك لبعد الناس عن الإسلام، ولبرئ المسلمون من دين يبيح لخلفائه الخديعة والمكر والإرهاب وإقامة القصور واحتكار الأموال والضياع؟

ولقد كان الأخرى بالأستاذ شاكر أن ينقد ما ذكره الأستاذ قطب عن معاوية نقداً تاريخياً، فيبين أن الوقائع التي ذكرها في كتابه الخالد غير صحيحة، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك؛ إذ أن الأستاذ قطب قد نقل وقائعه عن كتب التاريخ، ولم يخترعها من عنده اختراعاً، وهي - رغم ثورة الأستاذ شاكر - معروفة لدى الكبير والصغير.

فمن ذا الذي ينكر أن معاوية حين صَيَّرَ الخلافة مُلكاً عضوضاً في بني أمية لم يكن ذلك من وحي الإسلام إنما كان من وحي الجاهلية؟

ومن الذي ينكر أن أمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها! وما كان الإسلام لها إلا رداء تلبسه وتخلعه حسب المصالح والملاسات!! وهذا باستثناء عمر بن عبد العزيز الذي أحاطه الأستاذ قطب في كتابه بسياج من المحبة والإجلال، وجعل عهده بقية من عهود الخلافة الراشدة، وإشعاعه مضيئة تير الطريق، وقد بسط الكلام عن هذا الخليفة العظيم في أربع صفحات طوال!! ومن الذي ينكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه على المسلمين مدفوعاً إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام؟

ومن الذي ينكر أن معاوية قد أقصى العنصر الأخلاقي في صراعه مع علي، وفي سيرته في الحكم بعد ذلك إقصاء كاملاً، لأول مرة في تاريخ الإسلام، وقد سار في سياسة المال سيرة غير عادلة، فجعله للرشوة واللهو وشراء الضمائر في البيعة ليزيد بجانب مطالب الدولة والفتوح بطبيعة الحال؟

هذه وأمثالها أمور مسلمة في التاريخ لا يستطيع الأستاذ شاكر أن ينكرها بحال. ونحن نعجب كثيراً حين نجده في مقاله يلبس مسوح الوعظ والإرشاد فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾. أفبهذه الآيات وأمثالها يستطيع الأستاذ شاكر أن يُسَكِّتَ لسان التاريخ.

كنا ننتظر من الأستاذ أن ينقد هذه الحوادث التاريخية نقداً موضوعياً يحدد على ضوءه موقف معاوية من تعاليم الإسلام! ولكن الأستاذ لا يستطيع أن يأتي لمعاوية بتاريخ جديد، فذهب يدافع عنه من باب آخر، فنقل عدة روايات تدل على أنه حسن الصلاة!! وأنه أوتر بواحدة! فقال ابن عباس: إنه فقيه!! وأن الرسول ﷺ قد قال:

اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب!! وسار في هذا المضمار خطوات أتعبته كثيراً. والعجيب أنه يجعل ما ذكره الأستاذ قطب عن تاريخ معاوية روايات متلففة من أطراف الكتب! وهي ما تنطق به جميع كتب التاريخ، أما ما ذكره الآن من فضائل معاوية فليس من قبيل الروايات المصنوعة، وإن اصطيد من (مجمع الزوائد) وأمثاله من مراجع الأستاذ، أفهذا منطق يقنع الباحثين!

وقد تعجبت كثيراً وأنا أقرأ قول الأستاذ شاکر عن قطب: «إن كان يعلم أنه أحسن نظراً ومعرفة بقريش من أبي بكر حين ولى يزيد بن أبي سفيان وهو من بني أمية، وأنه أنفذ بصرأ من عمر حين ولى معاوية فهو ما علم!» كأن تولية عمر لمعاوية كافية لأن تمحو أخطاءه فلا يأخذه مؤرخ بملام! ونحن نفر أن معاوية كان حسن السيرة على عهد عمر فولاه أعمال دمشق، ولكنه قلب المِجَنّ للتعاليم الإسلامية بعد مصرع عثمان فلم تنفعه تزكية الفاروق في شيء، وعمر رضي الله عنه لا يعلم الغيب حتى تكون تزكيته لإنسان ما في عهده ممتدة إلى جميع أعماله مدى الحياة!

هذا هو معاوية، أما أبو سفيان وهند وزوجه، وعمر بن العاص فلا أعلم أن الأستاذ قطب قد تجاوز الحق فيما كتب عنهم من تاريخ!! فجميع المسلمين يعرفون أن أبا سفيان حارب الإسلام حرباً لا هوادة فيها، ولم يدخل في حظيرته إلا بعد أن تقررت غلبة الإسلام! وأن زوجه هند قد ولغت في الدم حين أخذت كبد حمزة بين فكيها، ولاكتها لتأكلها فلم تستطع، وأنها قالت عن زوجها حين أسلم: اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه، فُبِحَ من طليعة قوم، هلا قاتلتم ودافعتم عن أموالكم، ثم أسلمت بعد ذلك أيضاً!! وأن ابن العاص قد عاون معاوية في خصامه مع علي جرياً وراء مآرب يذخرها لنفسه دون نظر إلى صالح الإسلام والمسلمين!! هذا كله ما ذكرته كتب التاريخ، أفيلام الأستاذ قطب إذا ذكره في معرض الدفاع عن الإسلام وتبرئته من آثام المذنبين، أم يريد الأستاذ شاکر أن يؤخذ الإسلام بجرم أبنائه ومدعيه، حين يحتضن أناساً لم يتمسكوا بأهدافه وقواعده، ما يكون لنا أن نتكلم بهذا في ذلك الشأن.

ولقد تعمدت أن أكون واضحاً صريحاً حين تكلمت عن المراد (بالصحابي) فتحدثت عما يفهم من مادة الكلمة دون نظر إلتي ما دار حولها من اختلاف لدى الأصوليين؛ إذ هم يذكرون عدة تعاريف تتقارب وتتباعد دون أن تلتقي في ناحية

واحدة ولو تمسك كل إنسان بتعريف معين لتضارب القول، واتسعت شقة الخلاف! على أن الصحبة بمدلولها اللغوي تدل على الملازمة، فصاحبك هو الذي يطيل المكث معك أكثر من سواه، وصحابة الرسول بالمعنى الشرعي واللغوي معاً هم أكثر الناس ملازمة له، وليس منهم معاوية وأبوه وأمه ونجله على أي حال، ولن أطيل هنا القول فيما ذكره المحدثون في قول الرسول: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم» - وقد سبق في صدر هذا المقال - إذ أن مفسري الحديث قد أجمعوا على أن العبرة بالمجموع لا بالجميع، فقد يوجد في القرن العشرين من هم أفضل بكثير من بعض من عاصروا الرسول العظيم، وإذن فليس للأستاذ شاكر أن يتمسك - بهذا وأمثاله - كدليل يستند إليه في دعواه، وهو من البدهاة بـمكان لا يحتمل التردد والإسهاب.

إن من القسوة العنيفة أن يقول قائل عن الأستاذ سيد قطب، إنه قد بعد في كتابه عن منهج الإسلام وهو الداعية الذي تشرَّب روح الإسلام، وفهم دقائق التشريع فهماً ما عليه من مزيد.

- ٥ -

[بعد نشر ما تقدم بمجلة الرسالة العدد ٩٧٣ ردّ الأستاذ شاكر بالعدد (٣٧٤) ردّاً يعرف القارئ خلاصته من ردّي عليه بالعدد (٣٧٥)]:

حين يكتب القارئ نقداً لمقال قرأه، يود من أعماق نفسه أن يصل إلى الحقيقة على ضوء ما يعقب المقال من حوار وحديث، وواجب المنقود أن يواجه الحقائق سافرة واضحة، ثم يجيب عنها واحدة واحدة، إذ أن القراء يتبعون النقاش فقرة فقرة، ويوازنون بين الطيب والخبيث في دقة بالغة، ويصدرون الرأي عن ثقة واقتناع.

وقد ناقشت الأستاذ شاكر بما لا أستطيع أن أحيد عنه من الأدب والذوق، راجياً أن أجد لديه الإجابة الشافية المقنعة، فماذا وجدت؟! وجدت أن الأستاذ المهذب قد خصّني بكثير من الزراية والجهل، وقلة المعرفة، وضعف المنطق، وسوء الأدب، وليته وقف عندي بشتائه وسبابه، بل انتقل إلى الأستاذ الكبير سيد قطب، فرماه ظالماً بسوء الفهم، وولج إلى ضميره، فاتهمه بقبح المقصد، وخبث الطوية،

ومعاندة الحق لهوى في النفوس يعلمه الله، وبالحرص على تتبع المثالب القبيحة، واجتناب المناقب الفاضلة، وبالغلو الأرعن في سياق المثالب وتفسيرها، ثم ينضح إناء بهذه التهم الجاحدة ملقياً بها في عنف وحدة إلى قراء الرسالة، وهم جميعاً يعرفون فضائل قطب، فأين ذهبت عنه الحصافة والاتزان؟

وقد حاولت أن أجد لدى الأستاذ في رده الطويل العريض شيئاً يقنع المنصفين، فما وجدت غير التنقص والسباب!! وقد دعوته في مقالتي السالف إلى هجر الوعظ والإرشاد في الجدل العلمي، فصاح يقول على رؤوس الأشهاد «من العسير أن أكتب في هذا الموضوع دون أن أتوشح بذيل من ذيول الوعظ والإرشاد»، واندفع مع ذيوله الضافية إلى أبعد مدى وأقصاه، وهكذا ضاعت الحقائق التاريخية لدى كاتب يزهي بنفسه، فيقول «إنه يعرف حق الكلام، ويلتزم مقاطعه ومطالعه وحدوده، وإن للعقل شرفاً لا يرضى معه بالتدهور في مواطئ الغفلة وسوء الأدب، والخوض في العبث والجهالات».

ولا أريد أن أكيل للأستاذ صاعاً بصاع، ضناً بكرامتي، ولكني أحاول أن أجمع من مقاله العريض فقرات مبعثرة مضطربة في أنحائه، ساقها مساقاً مهلهلاً لا يعرف الدقة والحدود! لأستطيع دحضها بالرأي الموجز الصريح، جزعاً على الحقيقة العلمية من الغرق في إطناب المنابر وإسهاب الخطباء.

لقد سطر الكاتب خمسين سطراً من مقاله تبدأ من قوله «دعني أيها السيد أعيد عليك» إلى قوله «خالصة من قلبي بلا مسوح وعظ وإرشاد»! سطر هذه السطور ليقول «إن أخبار معاوية وعلي جاءت عن طريق الرواية فحسب، ولكلا الرجلين شيعته التي تنسج الحوادث، وتلفق الأخبار» وقد كنت أقرأ سطور الطويلة وأنا أسأل نفسي: أذلك نقاش أم مجرد كلام؟ ولو كانت النتيجة التي وصل إليها الكاتب صحيحة لعذرناه وسكتنا عنه، ولكنها باطلة كل البطلان، ولو جاز لإنسان أن يأخذ بها في شيء لمزقنا جميع صحف التاريخ الإسلامي من أول عام في حياته إلى مئة عام أنت عليه، فلا نتكلم عن أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية ويزيد والحسين وعمر بن عبد العزيز!! حتى يعرف الأستاذ شاعر اسم الراوي وأباه وأمه، ولحسن الحظ أن كُتِّب التاريخ ورواته لم يستمعوا لهذه الضجة، وقدموا إلينا مدداً وفيراً من الأحداث التاريخية!!

ولم تُسَجَّلْ حوادث معاوية وأضرابه عند مؤرخ واحد حتى يتهمه الأستاذ بالافتراء والهوى، ولكنها أنباء متواترة، رواها جميع المؤرخين دون استثناء، ولو أن شيعة علي وحدهم الذين اختلقوا مثالب معاوية، لسكت عنها بعض المؤرخين؛ ولكن هيهات هيهات!

فهل وجد من المؤرخين من أنكر أن معاوية قد أحال الخلافة إلى ملك عضوض مخالفاً بذلك تعاليم الإسلام؟ وهل وجد من المؤرخين من أنكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه مدفوعاً إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام؟ وهل وجد من المؤرخين من أنكر أن معاوية قد جعل جزءاً من بيت المال للرشوة وشراء الضمائر في بيعة يزيد؟ لم يوجد من أنكر ذلك من المؤرخين، ولكن الأستاذ شاكراً ينكره، ويدّعي أن المؤمنين قبله قد أنكروه، وهو بحمد الله لم يكن مؤرخاً، ولا نعلم أنه خط كتاباً في التاريخ، فلم ينسب نفسه إلى قوم ليس منهم؟

ويدعي الأستاذ أنه لم يفهم شيئاً مما كتبه في تحديد معنى الصحابي، فإذا وجدني أستدل بحديث الرسول ﷺ عن عبد الله بن أبي لجأ إلى مخرج ينقذه مما واجهته به، فذكر أن الرسول ﷺ قال: معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، خشية أن تدور على السنة المشركين الذين لا يميزون مؤمناً عن منافق، وكلهم عندهم من أصحاب محمد ﷺ!! وأنا أقول للأستاذ إن المشركين كانوا يميزون المؤمن عن المنافق، ويعرفون نفاق ابن أبي كما يعرفه المؤمنون سواء بسواء، بل إنه تعاهد معهم على التنكيل بالدعوة المحمدية، ولمسوا من نفاقه ما شجعهم على التعاون معه، وكان إذا خلا إليهم يقول: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ فليس هناك مشركون لا يميزون مؤمناً عن منافق، وعلى الأستاذ أن يبحث له عن مخرج آخر، لو يستطيع!!

وإذا كان الأستاذ يصنّفي بالجهل وسوء الفهم وقلة المعرفة، ثم ينقل فقرات طويلة من مقاله ليبين لقراء الرسالة حقيقة ما قال، ومن هذه الفقرات قوله: «إذا أخطأ أحدهم فليس يحل لهم ولا لأحد من بعدهم أن يجعل الخطأ ذريعة إلى سبهم والطعن عليهم» إذا كان الأستاذ ينقل ذلك، فلم لم يجب عما وجهته إليه بشأن هذه الفقرة، فقد قلت إن الصحابة قد طعن بعضهم بعضاً، واستباحوا ما حرمه عليهم، أف يكونون بذلك قد خرجوا عن منهج الإسلام، أم أن الأستاذ

شاكر يرسل كلامه في الهواء، فإذا ناقشه كاتب متواضع مثلي لجأ إلى الشتم والسباب!!

ولقد دعوت الأستاذ إلى النقد الموضوعي، فقال في الرد على ذلك: «إن النقد الموضوعي ينبغي أن يسبقه التحقق من صحة هذه الحوادث تحققاً ينفي كل ظنة». وأنا أقول له ما دمت تنكر هذه الأحداث المتواترة لدى المؤرخين، فلن تقدم للقارئ ما يقنعه ويشفيه، وأنا أعلم أن الطعن في رواية الآثار الفردية سائع ومقبول، أما الوقوف في وجه التاريخ وتفنيد ما أجمع عليه المؤرخون بلا دليل، فلن يجد من يصغي إليه في كثير أو قليل.

ولقد نصحتني الأستاذ شاكر أن أضع عن يدي عبء القلم؛ فإنه ثقیل ثقيل، وذكر أن الحياء يمنعه أن يترك كلامي بلا مجيب!! وأنا أعجب للحياء الذي يمنع صاحبه من الصمت المريح، ثم يدفعه إلى السب المقذع والطعن الجارح في كاتب كبير كالأستاذ سيد قطب!!

فضلاً عما وجهه إليّ من قذائف ظالمة، ثم ما الفرق بين وبينه حتى يطلب إليّ أن أكف عن الكتابة، وما هي مؤلفاته التي^(١) تبيح له أن يتقدم إليّ بمثل هذا الأمر. لأحفظ له حقه في الإرشاد والتوجيه؟! أخشى أن يكون استياؤه المفزع من نشاط الأستاذ قطب وإنتاجه قد دفعه إلى الهجوم عليّ بألفاظه الحداد!! وإني لأستغفر الله له رغم ما أصابني من كلوم!!^(٢).

- ٦ -

تعقيب الأستاذ شاكر بالعدد (٣٧٥)

«أعتذر إليك»

أكتب هذه الكلمة محزون النفس لشيء اجترمته، كان أولى بي أن أصبر حتى

(١) كتبت هذا الرد في سنة ١٩٥٢م قبل أن تظهر مؤلفات الأستاذ شاكر وتحقيقاته العلمية الرائعة على هذا النحو المتعارف البهيج، ولعل ضيقي من تهجم الأستاذ حيثل كان الباعث على هذا التسرع الذي لا أقبله الآن! ولكنه التاريخ!

(٢) بعد ظهور هذا المقال بالعدد (٩٧٥) من مجلة الرسالة، كتب الأستاذ الكبير محمود محمد شاكر تعقيبا بالعدد (٩٧٦) يجده القارئ فيما يلي.

لا أزلُّ عليه؛ وذلك أني قرأت كلمة في بعض المجلات يقول فيها كاتبها: «إذا منع الفقير حقه، فله أن يقاتل عليه، لأن الله يأمر بقتال الباغين ﴿وَلَا تَظَاهَرُوا عَلَيْهِمْ﴾» أَفَنُتَلَّوْا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴿وَلَا شَكَّ أَنْ مَانَعَ الْحَقُّ بَاغٌ﴾.

فاحتملتني العجلة وسوء الظن أن أرى الكاتب قد استدل بالآية في غير مكان الاستدلال بها، فسأ قولِي في الرجل بين جماعات من الناس؛ إذ لم يقع لي إلا أن الآية في اقتتال طائفتين من المؤمنين ثم بغى إحدى الطائفتين على الأخرى. ولما سكن بي الليل أمس (السبت ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧١هـ) حاك في قلبي شيء لم أدر ما هو، وألح عليّ أني اكتسبت في أيامي هذه إثماً أخشى أن لا أفلت من عقابه، وارتفعت لعيني هذه الآية بختامها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، فرأيت من العدل والقسط أن أرجع إلى تفسيرها، وإلى أقوال الأئمة في قتال أهل البغي، فعرفت ما لم أكن أعرف، أن بعضهم قد استدل بها في مثل ما استدل عليه الكاتب الفاضل، وإن كان لطريقة الاستدلال عندهم نهج غير نهجه، وقيد فيما أطلقه. وإذا أنا قد ظلمته ظلماً لا ينبغي، فلم أزل منذ تلك الساعة أستغفر الله لما فرط مني، وما جرى من لساني من الكلام السيئ، واستغفرت له بما أسأت إليه بظهر الغيب.

فلما قرأت الرسالة في صباح ليلتي (الأحد ١٣ جمادى الآخرة)، كنت أوشك أن لا أحمل القلم مرة أخرى للردّ على الكاتب الفاضل في مقاله (أجل.. ذو العقل يشقى) ولكنني وجدت السبيل قد تيسر لي أن أعذر من سيئة اكتسبتها في الإساءة إلى رجل بظهر الغيب، لنفس الداء الذي نهيت الأستاذ عنه، وهو العجلة.. وأنا لم أقصد نهيه إلا لما فيه خير له ولي إن شاء الله.

وقد تبين لي بعد قراءة كلمته أني أخطأت أيضاً في الذي كتبت به إليه، فوقعت بما كتبت في نفس ما نهيته عنه. وما كان أغناني عن هذه الخصلة السيئة التي تجلب عليّ غضب أستاذ فاضل، لم أسمع به ولم أعرفه، ولا أظنه يعرفني. والأستاذ الفاضل بلا ريب هو عندي أكبر مما ظنّ في نفسه، وإذا كان هو قادراً على أن يضمن بكرامته، فالواجب عليّ أنا من قبله أن أضن بكرامته.

وإذا كانت كرامته تأبى أن تنزل منزلة يوجه إليه من أجلها شيء يقدح فيها، فأنا أيضاً أنزّهه عما ظن في كلامي من (الشائم والتنقص والسباب)، وإذا كان كلامي

الطويل العريض، كما وصف، ليس فيه شيء يقنع المنصفين، وليس هو إلا فقرات مبعثرة مضطربة أسوقها مساقاً مهلهلاً لا يعرف الدقة ولا الحدود، وإذا كان كل ما أقوله لا أبغي منه إلا إرسال الكلام في الهواء، وإذا كنت عنده لست مؤرخاً، ولم أخط كتاباً في التاريخ، وأنا أدخلت نفسي في قوم لست منهم، فأظن أن واجبه على الأقل أن يلغي كل ما أقول بمرّة، فإن من الشقاء له أن يتعقب كلام كاتب هذا شأنه.

وأنا لا أستطيع صادقاً أن أفهم الأستاذ الفاضل شيئاً مما أقول، فقد عرفت هذا بالتجربة، وإذا كان مما يرضيه أن أقول له إنني مخطئ في كل ما قلت قديماً، وما أقوله الآن، وما سوف أقوله إلى أن يكف لساني وقلمي عن اللجاجة وإرسال الكلام، فأنا أقول له: إنني أخطأت، وسوف أخطئ، ولن يسمع مني إلا ما أنا مقرّ على نفسي بأنه خطأ محض، وأزيدة أنني عاجز كل العجز عن مقاومة حجته، وعن دفع براهينه، وعن التصدي لما يحسنه من العلم.

بيد أنني أعود فأسأله أن يتغمد سوء أدبي بفضله، وإذا كان قد استخرج من كلامي سبأاً وشتائم، فأنا أعيذه أن يكون غرضاً لها، وأعتذر إليه، وأستغفر الله مما أزلت إليه من إساءة، وله أحسن الأسوة في أصحاب رسول الله ﷺ، فإن بعض السفهاء لم يتورعوا قط عن سبهم، والطعن فيهم، بأقبح اللفظ؛ فأين يقع مثلي من هؤلاء، فأني مهما ملكت من السباب والشتائم والبذاءة وسوء الأدب، فلن أبلغ بعض ما بلغوا من هؤلاء الصحابة، فلا عليه مني ومن سبابي وشتائمي، وليعلم الأستاذ الفاضل، إن كان لا يعلم أن هؤلاء السفهاء في الدنيا كثير، فإذا كان يغضب لكل سفاهة من سفيه، فإن شقاه سيطول بغضبه، فدع السفهاء وليقولوا ما شاؤوا، وكن أنت ضئيلاً بكرامتك، فإنها أعز وأعلى من أن تبذل على الألسنة، وتقيل إن تفضلت عذري وشكري واحترامي وتقديري، وعجزي عن مخالفتك، وحيي لرضاك، وقد بلغت مني في مقالك ما شئت، وناصيتي بيدك، وفي المثل: «ملكك فأسجح» فافعل مؤيداً منصوراً. والسلام.

* * *

مصطفى أحمد الزرقا فقيه باحث ثبت

- ١ -

كنت أطلع في المجالات العلمية بحثاً فقهياً للأستاذ مصطفى أحمد الزرقا فأجدها واضحة التعبير سهلة التناول مع دسامتها الفكرية، فهي تسير في نسق سلس مطرد، وكأنها مقال أدبي يوحى به خاطر كاتب مبدع، وأنا أحب هذا الطراز من القول منذ تمتعت به في آثار المغفور له الأستاذ عبد الوهاب خلاف رحمه الله، إذ كان يجذب القارئ إلى بحوثه الفقهية بما جُبل عليه من سهولة الأداء، وقد اعتقدت أن الأستاذ الزرقا أَلَمَ بكتب الأدب العربي إماماً واسعاً، لأن صاحب هذا الإيضاح السلس في بحوث التشريع لا بد أن يركز على دعامة أدبية هي منواله الذي ينسج عليه آثاره.

ثم عرفت أنه درس في كليتي الحقوق والآداب معاً، وأن والده الفقيه المتمكن كان أديباً راوية إخبارياً، يمتعه في صباه بدرس الأدب كما يفيد به حقائق الفقه، وهو في هذا المنحى قريب من الأديب الكبير الأستاذ علي الطنطاوي حين درّس في صباه الفقه والأدب دراسة متوازية، ومع نبوغه في البيان حتى عُذَّ من كبار فطاحلة اليوم، وقد كان قاضياً درس القانون دراسة الباحث المتخصص!

على أنني تذكرت فيما تذكرت أن الأستاذ الزرقا قد عالَج الشعر على صفحات مجلة الرسالة^(١)، والشعر المسرحي ذا الموهبة النادرة، حيث كتب مسرحية قصيرة تدور حول موضوع طريف، لأن الشاعر الكبير الأستاذ عزيز أباطة حين فقد زوجته الحبيبة، ورثاها بديوان كامل، كان قد قال في بعض مرثيته:

(١) مجلة الرسالة، العدد ٦٩٨ - ١٨/١١/١٩٣٦ م.

سَأَلَقَاكَ لَمْ يُشْغَلْ فَرَاغٌ تَرَكَتِهِ بَيْتِي، وَلَمْ يُمَلَأْ مَكَانَكَ مِنْ قَلْبِي

ثم نزل على حكم الأيام، فتزوج وأحب، وهنا شاء الأستاذ الزرقا - وكان حينئذ أستاذ الحقوق المدنية في الجامعة السورية كما وقع مسرحيته - أن يتخيل سيدات فضليات جلسن يبحن أمر الشاعر حين أخلف عهده، وهُنَّ رفيقاتٌ مخلصات للزوجة الراحلة، ومعهن الشاعر عبد الرحمن صدقي الذي رثى زوجته بديوان، ثم تزوج أيضاً من بعد، وقد قال الأستاذ الزرقا على لسان مَنْ سماها سعاد:

عَزِيزٌ لِفَقْدِهَا ذُو اللَّبِّ طَاشَا وَكَانَ وَفَاؤُكَ الْعَجَبُ انْتَعَاشَا
أَتَبْغِي بَعْدَهَا أَنْسَا بِسُزُوجٍ وَتُبْنِي بَعْدَ مَا رَحَلْتُ فَرَاشَا

ودار الحوار المسرحي على مدى صفحتين كاملتين من صفحات الرسالة، وليس من غايتي الآن أن أزن قدرة الزرقا المسرحية ولا مقدرته الشعرية، ولكني أريد أن أسجل أن من خير الفقيه، ومن سعة النفع بآثاره أن يكون أديباً مفطوراً على الأسلوب المبين، لأن هذا يجعل قراءه في تخصصه الدقيق أكثر من قراء فقيه لا يلم بفنون الأدب، ولا يحسن تناول البحث في نطاقه الفصيح.

كما أذكرُ أمراً ثانياً مرَّ بي، خاصاً بالأستاذ الزرقا، فقد كنت أعد رسالة الدكتوراه عن البيان النبوي، مفصلاً نواحي القول في أسلوب الرسول الأعظم أديباً مبيناً، إذ هو أفصحُ مقالٍ العرب وأوفاهم أداءً، فكتبتُ فصلاً عن الفُروق الواضحة بين أسلوب القرآن، وأسلوب الحديث، وعرضته على صديقي الأستاذ عبد الرحيم فوده رحمه الله، فقال بعد أن استوعب حقائقه: لقد فاتك شيءٌ كثير مما يجب أن يُقال، فإن الأستاذ مصطفى أحمد الزرقا قد كتب بحثاً في هذا المجال أوفى به على الغاية، ولا بدَّ أن ترجع إليه، وتلطف وأحضر لي البحث المشار إليه، وقد نشر بمجلة الواء الإسلام في عددين متواليين، فلما قرأتُ ما كتب الأستاذ وجدت أنه أتى بمالم أت به، بل وجدت من الخير أن أقتبس لبابه، وأن أشير إليه مَصْدرًا قوياً من أصول هذا الفصل.

وقد قرّر الأستاذ في مبدئه أن الحديث النبوي جاء كلّهُ على الأسلوب المعتاد للعرب في التخاطب، تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهم والتعليم والخطابة في صورها المألوفة عند العرب، ويتميّز عن الكلام العربي المألوف بلغته المتقنة

ويأحكام في التعبير، وجمع للمعاني المقصودة بأوجز طريق وأقربه، دون حشو؛ مما استحق أن يسمّى بجوامع الكلم.

أما أسلوب القرآن فقد قال الأستاذ عنه^(١):

«أسلوب مبتكر، لا يجد الناظر فيه والسامع إليه شبيهاً له فيما يُعرف من كلام العرب وأساليبهم، فهو يفرض الأحكام، ويعالج الكليات، ويضرب الأمثال، ويوجه المواعظ في عموم لا تُشبهه العمومات المألوفة، وخطاب فيه من التجويد ما يجعل له طابعاً خاصاً منقطع النظير».

ولتفصيل هذا الفرق الواضح بين الأسلوبين، عرض الأستاذ لنماذج من القول اتحد فيها المعنى بين ما جاء في كتاب الله، وما قاله رسول الله ﷺ؛ من مثل قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وقول رسول الله ﷺ: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى».

وتشفع الأمثلة الشافية الوافية بما يوضح الاختلاف بين الأسلوبين، وكان رائعاً حقاً، حين أرجع هذا الاختلاف إلى اختلاف الشخصية، لأن سامع كتاب الله أوقارته^(٢) يتجلى له من خلال آياته ذاتية تتكلم من جو عال ذي سيطرة ذاتية لا تضعف حتى في المواطن التي تعبر فيها عن الرحمة، ذات سلطان مطلق، آخذة بزمائم من الترغيب والترهيب.

أما الحديث النبوي فيشرك بذاتية بشرية، يعترها الضعف والقوة، ففيها الضعف أمام الصعوبات القاهرة تارة، وفيها الثقة القوية بالحق تارة أخرى؛ وضرب الأستاذ للناحيتين من كلام الرسول ﷺ ما أفتق القارئ وأمتعته، ثم نقل عن صاحب الإبريز الشيخ عبد العزيز الدرباع في معرض البيان عن الفروق بين الأسلوبين ما أيد

(١) مجلة لواء الإسلام، شعبان، سنة ١٣٧٩ هـ.

(٢) مجلة لواء الإسلام، رمضان، سنة ١٣٧٩ هـ.

وجهته وسدد خطاه، فكانَ ما جاء به الأستاذ الزرقا مع وضوحه الساطع قولاً فضلاً، بلغ الغاية في الإقناع.

وكنْتُ جمعتُ جزازات شتى تتضمن شيئاً من جهود الأستاذ العلمية لأصوغَ منها ما يدل على اتجاهه العلمي في ميدان التأليف، ولكنَّ الوقوف على تاريخ النشأة العلمية التي أهلكته لهذا السبيل كان متعذراً لديَّ حتى وقع في يدي الجزء الثاني من كتاب (علماء مفكرون عرفتهم) للأستاذ الجليل محمد المجذوب، وقد تضمن ما يشفي الغلة في هذا المجال، إذ أقام الأستاذ المجذوب حواراً بينه وبين الأستاذ الزرقا تضمن الكثير من تاريخه طِفلاً فغُلاماً فشاباً فأستاذاً كبيراً.

منه عرفتُ أن الأستاذ ولد في سنة ١٩٠٧ ميلادية، ونشأ في كنف والدٍ كريم رُزق أكبر حظ من المعرفة الإسلامية ديناً وأدباً، وكانت له قيادةٌ علمية في وطنه جعلته محط الأنظار، وألهمتْ ولده أن يقتدي به منذُ عرف معنى الحياة، ومن سعة نظر هذا الوالد أنه ألحق ابنه بالمدارس المدنية (مدرسة الفرير) ليصل أسبابه بالمواد الحديثة، وليتعلم اللغة الفرنسية، وكأنه رأى بثاقب فكره أنَّ في دراسة هذه المواد ما يفسح تفكير الغلام الناهض، على أن يقوم هو بتدريس المواد الشرعية والأدبية له، وهذا ما كانَ فعلاً، حيث اشتدت الصلة العلمية بين الأب والابن، لدرجة أنه كانَ ينام معه في حجرة واحدة ليظلاً يتحدثان ويسمران في أوليات الثقافة العلمية، على نحو لا يُوحى برهبة الدرس وخشية المعلم، وكانَ للوالد اتجاه إلى الأدب ظهر أثره في اتجاه الابن، إذ تنقَّل به الحال إلى مدارس شتى حتى نال البكالورية، والتحق بالجامعة في دمشق.

ولعل الأستاذ قد أفصحَ عن ميله الأدبي حين قال^(١): «كنْتُ منذ العاشرة أحفظ الآلاف من أبيات الشعر، وأقبل على قراءة القصص حتى لأستظهر مجموع الأشعار الواردة في قصة عنترة الشعبية، ولما بلغت العشرين كنت أزاحم كبار الشيوخ من أقران والدي على حلِّ المشكلات اللغوية؛ فيلجؤون إليَّ كلما استشكلوا قاعدة، أو معنى ليعلموا رأيي فيه».

وقد عُرِض عليه بعد البكالورية أن يكونَ مدرساً للأدب العربي في مدرسة

(١) من كتاب الأستاذ المجذوب المشار إليه في المقال.

إنطاكية، وهي وظيفة يُشوق إليها زملاؤه، ولكنه أبى؛ إذ كان همه أن يلتحق بالجامعة، وقد يَسَّرَ اللهُ له ذلك، فكانَ من همته أيضاً أن يجمعَ بين دراسة القانون في كلية الحقوق ودراسة الآداب في كلية الآداب، وهي هِمَّة طامحة لا تُخْلَقُ إلَّا في نفوس ذوي المآرب العالية؛ وشاءَ حفظه العلمي أن يكونَ القانون والتشريع مادَّة دراسته منقطعاً عن البحث الأدبي، فجلَّى في هذا الميدان، بحيث ترك أخصب النتائج.

أما النضالُ الوطني فكانَ له نصيب قويٌّ من نشاطه، إذ كانَ زميلاً للفضلاء من شباب جيله في الكفاح الوطني في عهد المستعمر الفرنسي، ومعه رفيق جهاده الدكتور معروف الدواليبي، وناهيك به فضلاً وعلماً وفدائية، وقد ذكر الزرقا أن فرنسا لم تقيِّد الأفلام، بل تركت للنفوس أن تُظهر مكنونها، فكتب الزرقا وخطب ونظم، وتوثقت صلاته بزعماء الأمة من أمثال إبراهيم هنانو وسعد الله الجابري؛ وذلك تاريخ حافل لا تُغني عنه هذه السطور، والإشادة تكفي.

وقد تقلد الأستاذ منصب الوزارة، وانتُخب نائباً في البرلمان، وليساً بكثيرين على فضله، ثم كان من ثمرة كفاحه العلمي في ميدان الفقه والقانون أن صار أستاذاً بجامعة دمشق لتدريس الحقوق المدنية والشرعية الإسلامية معاً، وعهدنا لكلية الحقوق في مصر أن تُفصل بين القانون والشرعية، فتختارُ للقانون أساتذةً مدنيين ممن درَّسوا القوانين الأوروبية مقارنةً بالقانون المصري، وتختار للشرعية أساتذةً فضلاء ممن تخصصوا في الفقه الإسلامي، وكلَّهم من رجال الأزهر، ومدرسة القضاء، ودار العلوم؛ ولكنَّ الجمع بين الناحيتين قد تهيأ للأستاذ الزرقا وأتاح له ذلك أن يمتد بنظره إلى القوانين الأوروبية التي بهرت بعض الناس ليقارنها بما في كتب الفقه الإسلامي من مواد لا تقل عنها خصوبةً وإتقاناً، وقد ظهر ذلك في مؤلفاته الموسوعية التي حازت قبول المتخصصين على نحو غير مسبوق!

ومما أذكرُه عن الأستاذ الزرقا أنه ألقى محاضرةً بالجامعة الأردنية سمعَها ذات مساء بإذاعة عمَّان، فأعجبني منها قصَّةً طريفةً، خلاصتها: أنه علِمَ عن الفقيه الكبير الأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم بك أستاذ الشريعة الإسلامية الأشهر بكلية الحقوق بمصر أنه ألقى في دروسه حديثاً عن شمول الفقه الإسلامي لكلِّ ما يجد من شؤون الحياة، فقال له بعض الطلاب: وهل في كتب الفقه القديمة حُكْمٌ مَن هَجَمَ على منزِلٍ ليلاً لِيَسْرِقَ فاصطدم بسلكٍ كهربائي فقتله؟ وقد ظنَّ الطلاب أن مسألة الكهرباء

مما استُحدث بعد أن دُوِّنت كتب السلف، ولكنَّ الشيخ أحمد إبراهيم رحمه الله صَاح بالطالب: إنَّ في الكتب نصّاً واضحاً لهذا الحكم؟ فقال الطالب: وكيف؟ قال الشيخ: أليسَ في هذه الكتب حكمٌ من تجرأ على يَبْتِ بليل ليسرقه فهجم عليه كلبٌ حارس فعقره وأرداه قتيلاً؟ إنَّ الكلب هنا هو السلك الكهربائي، والحكم هو الحكم.

أقول: قد سمعتُ هذه الطرفة من الأستاذ الزرقا في محاضراته بالإذاعة الأردنية، ودوَّنتُها في أوراقِي لساعتها، ثم حان الحديث هنا عن الرجل الفاضل، فرأيتُ أن أنقل ما سمعت منه منذ ثلث قرن، لأن دلالته العلمية ذات مغزى ملحوظ.

هذا الاستنتاجُ الواضح كانَ أحد السبل المهيأة للاستفادة من كتب التراث، وهو سبيل لا يَتيسَّر لكل قارئ، بل لا بدَّ من بصيرة ثاقبة تقيس النظر، وتقرن الشبه بالشبه، وهو مما أجادهُ الأستاذ في موسوعاته الحافلة التي كَتَبها في محيط الفقه الإسلامي وفي نظرية الالتزام في هذا الفقه مقارنةً بأحدث ما تمخضت عنه العقول في القوانين الوضعية المعاصرة، وإذا كُنْتُ بحكم تخصصي الأدبي لا أستطيع أن أحكم على مؤلفات الأستاذ حُكم المتخصص المنقَّب، فإني سأنقل عن ذوي الاختصاص ما سجلوه عن هذه الأعمال المجيدة، وأبدأ بما قاله عن عمله في هذا المجال، نقلاً عن كتاب الأستاذ محمد المجذوب.

قال الأستاذ الزرقا عن هذه المرحلة [مرحلة التدريس بكلّيات الحقوق في سورية والأردن]: «وقَّفتني الله لإخراج سِلْسَلَتين من المؤلفات، أولاهما هي السِلْسَلَةُ الفقهية، وعنوانُها العام (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) وقد بلغت أجزاءها أربعة مجلدات، وقَدَّر الله لها البقاء والذِئوع، فهي مرجعٌ للتدريس إلى اليوم، من سنة ١٤٠٠هـ، في جامعة دمشق وفي الجامعة الأردنية، وغيرهما؛ وتُعْتَبَرُ من المراجع المعتمدة لدى القانونيين والشرعيين والأساتذة المدرسين لموضوعاتها في جامعة دمشق، ولا سيَّما النظرات الإسلامية في الفقه الإسلامي، وهي مقررة في جامعة دمشق.

هذه الأسئلة بما تنطوي عليه من التبسيط في عرض الفقه وتبسيطه، قد أوضحت المعقدات من القضايا الفقهية التي كانت تستعصي على غير طلاب الفقه القارحين، حتى باتت بمتناول غير ذوي الاختصاص.

أما السلسلة الثانية فتألف من ثلاثة مجلدات في شرح القانون المدني السوري، الذي حلّ محل (مجلة الأحكام العدلية) المُلغاة بالقانون المدني سنة ١٩٤٩م، عرضت فيها النظريات القانونية الوضعية بصورة مبسطة كذلك، ولم أجد فيها على غرار ما يفعله الكثيرون من القانونيين العرب إذ يأخذون المصادر الأجنبية ويترجمونها حرفياً، بل سلكت مسلكاً حرّاً في شرح القانون، وفي عرض أحكامه ونقدها، وقد أودعتها آراء وبحوثاً قد تخالف آراء أولئك القانونيين الذين نقلوها بمحض التقليد للأجانب في مصر وغيرها.

وفي كتابي هذا عن أعلام النهضة الإسلامية في هذا العصر، لا بد أن أفسح المجال للحديث عن السلسلة الأولى الخاصة بالفقه الإسلامي، إذ كان جهد العالم الكبير فيها محلّ اعترافٍ من النظراء والأمثال، وقلّما يُرسلون القول ثناءً وإكباراً، إلا حين يبهرهم الواقع بجلاله العظيم، وليس في ذلك انتقاص للسلسلة القانونية، لأنني أرى أمثالها قد وُجد فعلاً في نتاج النظراء، وليسوا جميعاً ينقلون عن قانوني الغرب مترجمين، ففيهم من سلك مسلك الأستاذ في هذا المجال، وحسبنا أن نذكر الأستاذ الكبير (عبد الرزاق السنهوري) فهو أستاذ شيخنا الزرقا، وسابقه في التأليف والتأصيل؛ ولأرض في حديثي عن السلسلة الفقهية فأقول:

- ٢ -

حين تصفحتُ على عجل هذا المجهود الضخم الذي بذله الأستاذ مصطفى الزرقا في حقل الفقه الإسلامي حيث نقله نقلةً هائلة تبويماً وتفريراً وصياغة، لم أجد من نفسي الجرأة على الحكم الدقيق على هذا العمل الهائل كما وكيفاً، وقد قرأت كثيراً من المؤلفات الجامعية لأساتذة كبار في هذا المنحى، ولكنني وجدت ما قدّمه الأستاذ الزرقا عملاً تجديدياً مستقلاً مستوعباً، وكان لا بدّ لمثلي أن يستطلع آراء المتخصصين في هذا الحقل، فوقفت على كلمات رائعة تشيد بهذا التجديد الباهر في حقل الفقه، وسمعتُ عبارات الثناء من أعلام كبار مثل: محمود شلتوت ومحمد أبي زهرة، وهذا طبعي من زملاء يعرفون قدر أنفسهم، ولكن ما أدهشني حقاً هو التفاتُ أساتذة القانون ورجال القضاء في مصر إلى روعة هذا العمل، إذ كتبوا من المقالات المحبذة ما كان دافعه الإعجاب المطلق.

يقول الباحث الكبير الشهيد الأستاذ عبد القادر عودة رحمه الله^(١): «لقد وَقَعَ في يدي كتاب المدخل الفقهي العام فوجدتُ شيئاً جديداً، وعملاً جليلاً، أما أَنَّهُ شيءٌ جديد فإنَّ الفقه الإسلامي لم يَجْرِ رجالُهُ على هذه الطريقة الحديثة، التي جرى عليها المؤلف، ولم يأخذوا بذلك التقسيم العضري الذي أخذ به، حيث تُوصَل المسائل، وتُعرض الكليات، وتُبسط النظريات، وتُشرح المصطلحات، ثم تُستخرج الفروع من أصولها، أو ترد الجزئيات إلى كلياتها، أو تُطبق النظريات على موضوعاتها، فيخرجُ الدراس من دراسته، وقد أَلَمَّ بالكليات والنظريات، وتماسكت في ذهنه المسائل، وارتبطت الفروع بالأصول، واستفاد القدرة على حلِّ المشاكل والتمييز بين المتشابه.

وأما أَنَّهُ عملٌ جليل، فلأنه عملٌ غير مسبوق، ولأنه يقتضي من صاحبه فهماً وعقلاً وجهداً وصبراً، حتى يصل إلى ما وصل إليه المؤلف من مستوى رفيع، لا يصلُ إليه عادة إلا النابھون، بَعْدَ أن تُمهّد لهم الطرق ويسبقهم الرواد، فإذا ما وصل المؤلف إلى ما وصل إليه بعد أن شقَّ طريقه في الصخر، وكان الرائد لنفسه ولغيره؛ فتلك هي العبقرية الفذة، أو هُوَ فضل الله يوتيهِ من يشاء، وقد ساعد المؤلف على الوصول إلى ما وصل إليه أَنَّهُ رجلٌ ذو هدف في الحياة، وأَنَّهُ من أصحاب المثل العليا، الذين يعملون ويقولون لوجه الله، فأمدّه الله جل شأنه بعونه، ورزقه الفهم لدينه وشريعته.

ويلوح لي أَن المؤلف قد عانى من مرارة الاطلاع على كُتُب الفقه ما عانى، فأخذ على نفسه أَن يُوطِّئ الفقه لطلابه، ثم رأى الفقه الإسلامي في تربيته وتبويبه وربطَ فروعه بأصوله متأخراً قروناً عن الفقه الحديث، فأخذ على نفسه أَن ينقل الفقه الإسلامي عبر هذه القرون الطويلة نقلةً واحدة، ليلحقه بالفقه الحديث، فوفقه الله إلى ما أراد، فوطأ الفقه الإسلامي لكل طالب، ونقله بخطوة واحدة جبارة من العصر العباسي إلى عصرنا الحديث، فإذا هذا الفقه الغني القوي الذي كان ملتفّاً في ثوبه العتيق القديم يخرجُ على الناس في ثوبه الجديد فتياً مشرقاً يزاحم الفقه كلّ بمنكيه، ويُعلن للناس أَن فقه الإسلام هو الفقه، وأن شريعته هي الشريعة، وأن ما اختاره الله للناس هو الخير كل الخير لو كانوا يعلمون».

(١) مجلة المسلمون - السنة الثانية - العدد الخامس، ص ١٨ وما بعدها.

هذا بعض ما قاله البحاثة الشهيد الأستاذ (عبد القادر عودة) من مقال طويل ينحو هذا المنحى من الإطراء المعلن والثناء الموضوعي الكاشف، أمّا المستشار القانوني الأستاذ (حسن جلال) فلم يكن من عادته أن يتحدث عن المؤلفات المعاصرة في مقالاته بمجلة (الثقافة)، ولكنّه فوجئ بكتاب الأستاذ الزرقا يأخذ عليه لبه، ويتركه في دهش من براعة تأليفه ولطف تأنيته، فكتب مقالاً عنه، بدأه بمقدمة تمهيدية عن أحوال التشريع في سورية من حيث الأحكام المدنية؛ إذ كان قضاتها يستخرجون الأحكام من كتب التراث على ما بها من مشقة في التحصيل وعسر تناول ووضع الحكم الشرعي في غير بابهِ كثيراً، ثم رأت الدولة العثمانية - التي تتبعها سورية - أنّه لا بد من تيسير الأحكام، فألفت لجنة لذلك، وتابعت اللجنة بحوثها حتى انتهت إلى ما سمّته (مجلة الأحكام الشرعية)، فصارت هذه المجلة بمثابة القانون المدني وقانون المرافعات في محاكم الدولة العثمانية جميعها؛ ظلّت (مجلة الأحكام) مرجعاً حتى بعد زوال التبعية العثمانية، ثم جاء الأستاذ الزرقا ليدرس لطلاب الحقوق بدمشق مادة الحقوق المدنية والتشريعة، فماذا صنع؟! .

يقول الأستاذ جلال^(١): «كانت عملية تحويل الفقه الإسلامي من صورته الفرعية القديمة - التي كانت تُعالج فيها الموضوعات في جزئياتها دون عمومها - إلى صورة موضوعية تبدأ بالقواعد الكلية العامة ثم تنتهي إلى الجزئيات والفروع أجلّ وأخطر من أن تقوم بها لجنة واحدة، مثل اللجنة التي وضعت (مجلة الأحكام)، فما بالك بفرد واحد يتصدى وحده لهذه المهمة؟! . . . ولكن الأستاذ الزرقا أحسّ بأن هناك اتجاهاً إلى اقتباس القانون المصري بنصه فاضطلع بعبء صياغة الشريعة الإسلامية في ثوبها الجديد تمشيّاً مع روح العصر، ومسايرةً لعمل فقهاء الغرب، واستجابةً لرغبة الأمة في الحصول على قانون مدني عصري بسيط، فأقدم في جرأة عجيبة على حمل هذا العبء الثقيل الذي تنوء به العصبية أولو القوة» .

ثم نقل الأستاذ حسن جلال عن الأستاذ الزرقا هدفه من هذا العمل، وأنه يدفع به كل ما يقال عن صلاحية القانون الأجنبيّ دون التشريع الإسلامي، وذلك حين قال في مقدمة كتابه:

«وقد فاتهم أنّ طريق الخلود ليس في أخذ قانون أجنبي، لا أثر لنا فيه إلّا

(١) مجلة الثقافة - العدد ٧٢٦ - ٢٤/١١/١٩٥٢ م.

الانسلاخ من قوميتنا التي في كل أرضٍ منها أثر، وفي كل حضارةٍ عنها خبر، ولا نتيجة له إلا تناسي الذات، والتحول إلى حياة على هامش الحياة، وإنما طريق الخلود في أن نُشئَ جوهرَ فقهنا الذي ملأَتْ آلاف مؤلفاته مكتبات العالم، وأن نستمدَّ من معينه الهدَّار قانوناً جديداً يفي بحاجاتنا الحديثة، كما كان يفعل فقهاؤنا الأعظم في تخريجاتهم وتجديداتهم الفقهية إزاء حاجة كل عصرٍ ومصر، حتى بلغوا بالفقه الإسلامي هذه السعة التي جلت عن الحدود».

وقد واصل الأستاذ الزرقا خطواته في هذا العمل الشامخ بعد أن رأى استحسان المخلصين، وثناءهم على جهده المخلص، فكتب مجموعته الشاملة لكافة الحقوق المدنية في تأصيل ثابت للقواعد، وتفرع دقيق للأحكام، وتعليل وافٍ للفتوى، مما كان موضع التقدير، ولم تكن جائزة الملك فيصل رحمه الله إلا مكافأة صادقة لجهده طيب نفعه الله بثمرته في الحياة، وما عنده من ثواب الآخرة أوفى وأجزل.

وإذا كان الزرقا قد بدأ في مؤلفاته الأكاديمية دقيقاً كل الدقة، فإن هذه الدقة لم تفارقه في مقالاته الصحفية التي ينشرها في المجلات الإسلامية، فصان بذلك كرامة البحث العلمي دون أن يهبط به إلى مستوى الوعظ الشارد، والحق أن المجلات الدينية في كثير من بحوثها لا تكاد تأتي بالجديد إلا إذا قام بتحريرها علماء أصلاء يعرفون تبعاً القلم فيما ينشرون، فما أكثر ما تقرأ صحيفة قامت الدولة بنشرها، وتيسير سبل إذاعتها، ومكافأة كتابها مكافأة مجزية، ثم لا تجد كثيراً مما يرضيك، فهذا يشرح آية بالمعنى المتعارف، وهذا يشرح حديثاً دون إضافة، وهذا يكتب فصلاً من السيرة أو تاريخ الصحابة مردداً ما قيل، وكله لهوٌ وعيب، لأن رسالة الإسلام أسمى من أن تُبتذل بتكرار المُعاد، وترداد المألوف، لذلك لاحظت أن الأستاذ الزرقا فيما ينشره من بحوث في المجلات الإسلامية لا يخالف طريقه في الإفادة النافعة، والتيسير المذلل لما لم يُعهد من القول، وقد يكتب في صميم علم الأصول أو في معضلة من معضلات علم الفقه، ولكنه يسلك سبيل المُيسر المستوعب، والتيسير لا يتنافى الاستيعاب، إذا كان المراد منه الإحاطة بالجوهر العام للموضوع؛ وأضرب الأمثلة لذلك ببعض ما كتب:

نشر الأستاذ بمجلة (المسلمون)^(١) بحثاً تحت عنوان (ثروة الإسلام الفقهية، هل

(١) مجلة المسلمون - السنة الثانية - العدد الثالث، ص ٢٩ وما بعدها.

ينقص من قدرها اختلاف المجتهدين فيها) وقد أوحى به فيما أعتقد ما انتشر من اللغو على السنة قوم يحسبون أنفسهم من المجددين لا لأنهم قدموا الجديد، بل لأنهم أخذوا يشتون حرباً على المذاهب الفقهية وأعلامها الكبار، إذ يرؤن -لضيق في أفهامهم- أنَّ اختلاف الحكم في مذهب عنه في مذهب آخر مصدر اضطراب وتناقض، ولهم أتباع يلوكون أقوالهم بما لا يفهمون من حقيقة ما يعرضون! فجاء هذا المقال ردّاً سديداً على هذا اللغو المتطائر، ردّاً محكماً يوضح أن معنى الاختلاف الفقهي في الأحكام العملية هو تعدد النظريات والمبادئ والطرائق الحقوقية في استمداد الأحكام وتقريرها، وهذا يجعل الأمة في غنى من تشريع لا يضيق بها عن حاجتها، ثم ينتقل إلى المشاهد في القوانين الوضعيّة، فيرى أن علماء الحقوق من الفرنجة يتباهون بما انحدر إليهم في ميراثهم التشريعي من آراء ونظريات مأثورة عن فقهاء الشرع الروماني وشراحه، ولا يجدون حرجاً في اختلاف الآراء المتوراثّة أو تناقضها، مع أن الفقه الروماني على سعته لا يمثل إلا غيضاً من فيض إذا قيس بالاجتهادات الحافلة في التشريع الإسلامي.

ثم يأخذ الباحث في سرد بعض النصوص التي اختلفت فيها آراء المجتهدين منتهاً إلى إيضاح ثمره الاختلاف في رفع الحرج، وتحقيق الصالح العام، ومؤكداً أن تعدد الاشتقاقات واختلافها لا ينافي وحدة الأصل اللغوي المشتق منه، ولا يُنافي صحة الاشتقاق في كلّ منهما، وكذلك الاجتهادات المختلفة بالنسبة إلى الشريعة وأصولها.

ومقال آخر كتبه تحت عنوان (التشريع المحمدي) والذي يقف عند العنوان يفهم أن المقال مقصور على ما أتى به الرسول ﷺ من الأحكام اجتهاداً أو تفسيراً للنص القرآني، ولكن الواقع غير ذلك، لأن الأستاذ الزرقا كما تحدّث عن بعض أحكام الرسول في هذا المقال تحدّث عن أحكام الشريعة المستقاة من القرآن، واجتهادات الفقهاء، وهذا ما يجعل العنوان أضيق من موضوعه، وقد احتاطت مجلة (المسلمون) فكتبت تعليقاً تقول فيه: «إن نسبة التشريع الإسلامي إلى محمد ﷺ ووصفه بالمحمدي لا يعني عندنا معشر المسلمين ما يتبادر إلى فهم غيرنا ممّن وقعوا في عبادة الأشخاص! وهذا ما يعرفه كل مسلم، وقد قرّر الأستاذ في مقاله أنَّ عظمة التشريع المخلّدة إنما هي في قواعده وأصوله لا في فروعه؛ فكلما كانت تلك

القواعد أحكم وأكمل، وتلك الأصول أعم وأكمل، كان التشريع أخلد حياة، وأخصب إنتاجاً، وألمع سراجاً، وأوفى بحاجات العصور؛ وواضح أن هذا القول يشمل التشريع الإسلامي كافة.

وتساءل الأستاذ عن أثر نبينا محمد ﷺ في هذه السبيل العالمية العليا، وأجاب بأن النبي ﷺ قد جاء بتشريع خالد القواعد والأصول، كان أساساً لفقهاء عظيمين ملأ جوارب الأرض وعمّر آلاف المدارس؛ ووازن في قوة بين مصادر الحقوق في الشريعة الإسلامية وفي الفقه الأوروبي الحديث، ثم قال^(١):

«إن الفقه القانوني الحديث في تربيته البديع، لمصادر الحقوق والالتزامات لم يستطع أن يأتينا بجديد لم تسبق إلى تقريره نصوص الشريعة المحمدية التي أعلنها النبي ﷺ في أمة أمية جاهلة لم تعرف للشرائع معنى ولا أثراً، وليس هذا مجرد دعوى بل هو مبني على معرفة بفقه الشريعة ومبانيها. . ثم أفاض في هذه المعاني إفاضة مستندة إلى الأحكام الفقهية الناطقة بذلك، وانتهى إلى أن الأهم من كل ذلك أن التشريع المحمدي ربط احترام التشريع بالعقيدة حتى يكون الإنسان قاضياً على نفسه إذا أراد أن يكون مؤمناً! فمن استطاع أن يخدع القضاء حتى أخذ ما ليس له بحق، أو منع صاحب حق عن حقه، فإن القضاء له لا ينجيه، بل تبقى ذمته معلقة، وهو غاصب لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، حتى يؤدي الحقوق إلى أربابها، وهذا ما عجزت عنه الشرائع الوضعية التي لا محلّ فيها لفكرة الحلال والحرام، بل ما قضى به القاضي فهو حق، وما لم يقض به فهو باطل».

وفكرة الحلال والحرام هذه التي انفردت بها الشريعة الإسلامية دون القوانين الوضعية، تحمي الحقوق في أكثر الأحوال، وقد رأينا بأعيننا أناساً يحكم لهم القضاء بناء على ما يظهر من الأمور، ثم يفثون إلى ضمايرهم ساعة المحاسبة الدقيقة فيرجعون إلى الله، ويدفعون بالحق إلى صاحبه الذي لم يقف معه القضاء! لأن القاضي الأعلى وهو الله! يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور!

وأختم هذا البحث بإشارة إلى مقال كتبه الأستاذ الزرقا تحت عنوان (تغيّر الأحكام بتغير الأزمان)، وهو موضوع مشتهر خاض فيه الباحثون، ولكن الزرقا قد

(١) مجلة المسلمون - السنة الثانية - العدد السادس، ص ٥١ وما بعدها.

استوعب نقاطه الجوهرية في صفحات تعطي مضموناً جيداً موضحاً ما قرره من هذه الحقيقة التي لا خلاف عليها، وهي أن الأحكام الشرعية التي تبدل بتبدل الزمان لا تخرج عن المبدأ الشرعي الخاص بإحقاق الحق، وجلب المصالح، ودرء المفاسد! وَوَضَعَ النقاط على الحروف ليرد على قوم يتساءلون عن هذا التغير باعتباره عامل هدم للشرعة، فيقرّر أن الأحكامَ الأساسية التي جاءتِ الشريعة لتأسيسها وتوطيدها بنصوصها الأصلية الآمرة الناهية لا تبدل فيها ولا تغير، لأنّها أصول صالحة لكل زمان ومكان؛ مثل وجوب التراضي في العقود، والتزام الإنسان بعقده، وضمان الضرر الذي يلحقه بغيره، وسريان إقراره على نفسه دون غيره، وسدّ الذرائع الداعية لفساد ومسؤولية كل مكلف عن تقصيره.

أما الأحكام الاجتهادية من قياسية ومصلحية فهي التي تتغير باختلاف الأحوال، وقد ضَرَبَ الباحث أمثلة كثيرة لهذا التغير، منها ما تغيّر في عهد أئمة المذاهب وما وقع في العصر الأخير، وقد شاعَ عند بعض الكاتِبين أن هذا التغير في الحكم الشرعي إنما جاءَ مما يُعتبر مراعاةً للعرف، ولكنَّ الباحث لم يَرَ ذلك بل رآه من قبيل نظرية المصالح المرسلة، لأنَّ قعودَ الهمم، وفساد الذمم، وقلة الورع، وكثرة الطمع ليست أعرافاً يتعارف الناس عليها ويبنون أعمالهم بها إنما هي انحلال في الأخلاق يُضَعِفُ الثقة ويفسد الأمور، ونميل إلى أن القائلين بأن تغيير الأحكام قد تقرّر بناء على مراعاة العرف، لا يقصدون العرف العاميّ السوقي الذي يجري عليه ذوو الشبهات، إنما يقصدون العُرف الذي يصطلح الفقهاء على صحته وصدق مرماه، ونجاح قصده؛ وإذن فالخلاف ضيقٌ بهذا الاعتبار أو لا خلاف.

لقد أدّى الأستاذ الزرقا رسالةً قويةً مثمرة في حقل الفقه الإسلامي، فارتفع به إلى مستوى فكريّ رائع، كما سهّل طرق تناوله بما كتّب من قواعد، وأصل من نظريات، وإذا كانت الكتب الصفراء آفة بعض القارئین، وتعلّة كثير من المنصرفين، فإن لُبَاب هذه الكتب قد انتقل إلى الورق الأبيض في نهج منطقي، وأطّراد فكريّ، ونسق بياني لا يُعذر معه مقصّر إن تساءل عن كتب الفقه أين هي؟ وكيف تُقرأ دون إملال!

* * *

مصطفى القاياتي خطيب الثورة المصرية

بيتُ القاياتي بيتُ دين وسياسة، ففي أثناء الثورة العُرابية كان الشيخان محمد عبد الجواد القاياتي، وأحمد عبد الجواد القاياتي من كبار الدعاة لها في منزلهما بالسكرية حيث تحتشد طوائف الشعب، وقد زارهما (أحمد عرابي) ليُخاطب الجمهورَ المزدحمَ من أبناء الدرب الأحمر، ثم حكم عليهما بالنفي بعد انتهاء الثورة إلى بيروت، فذهبا كريمين وعادا كريمين.

وفي ثورة سنة ١٩١٩م عادَ لبيت القاياتي صدهاء السياسي على نحوٍ أوسع وأعم، إذ كانَ جميع خطباء الأزهر الثوريّون يجتمعون في المساء به، ليرسموا خطط اليوم القادم، وكان زعماء الثورة جميعاً يؤمنونه ليعرفوا نبض الشعب الثائر من خلال ما يرون ويسمعون، فإذا أشرقت الشمس كان الأزهر بمنبره الخالد لسان الأمة المعبر وضميرها البقظ، وأنا لا أقول ذلك وحدي ولكن مؤرخ مصر الأستاذ عبد الرحمن الرافعي يقول^(١):

«كانَ الأزهريون في مقدمة صفوف المتظاهرين، ومن أكثر الطلبة جرأة وحماسة وتضحية، ومن أشدّ العاملين على بثّ روح الثورة، والإضراب في طبقات الشعب، وكثيراً ما كانت المظاهرات تبدأ من الأزهر، هذا إلى أن الاجتماعات العامة كانت تُعقد به غالباً، فكان يموجُ في كل مساءً بالألوف المؤلفة، لسماع الخطب الثارية، تُلقى فيه ضدّ الاحتلال والحماية، فكانَ يتعاقب على المنبر الأزهريون وطلبة المدارس وبعض العلماء والقسس والمحامين والصحفيين والعلماء وغيرهم من

(١) الثورة المصرية لعبد الرحمن الرافعي، ص ٢٢٨.

مختلف الطبقات، فيضيقُ بهم فناء المسجد على سعته، وفيه كانت تدبر المظاهرات وترسم الخطط».

وحين ذكر الراجعي المؤرخ خطباء الثورة^(١) بدأ بذكر «الشيخ مصطفى القاياتي، والشيخ علي سرور الزنكلوني، والشيخ محمود أبو العيون، والشيخ عبد ربه مفتاح، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز والشيخ عبد الباقي سرور، وكلهم من علماء الأزهر» وذكر غيرهم من الأفاضل الأخيار.

وقد تحدثت على صفحات مجلة (الأزهر) عن دور الأزهر في الثورة، كما كتبت حديثاً مسهباً عن الشيخ محمود أبي العيون، ثم بدا لي أن أتحدث اليوم عن الشيخ مصطفى القاياتي، لأن الدكتور زكي مبارك قد ظلمه ظُلماً فادحاً في ما كتب عنه، وكنتُ أظنُ كلام الدكتور مبارك قد نسي وأهمِل، ولكنني وجدت من نقله مصداقاً في رسالة جامعية، فحقَّق علي أن أتحدث عن أكبر خطباء الثورة بعد سعد زغلول - وهو مصطفى القاياتي - حديثاً من قرأ وسمع ووعى ثم رأى أن يصدع بالحق.

وقبل كل شيء أعلن أن الخطيب بالنسبة للشاعر والكاتب في التاريخ الأدبي مظلومٌ مظلوم، فالشاعر يقول القصيدة فتُروى، ويسيرُ من عصر إلى عصر، والكاتب يكتب المقال أو يعد الفصل فيُنشر ويعرف، أما الخطيب فيدعوه الموقف الحافز إلى الكلام فتلهبُ عاطفته، ويترسلُ ما شاء مُبدعاً ما دام يحملُ وصفَ الخطيب، ثم يتفرق الناس، فإذا تحدثت عنه الصحف أشارت إلى موقفه، وقد تنقل ملخصاً مبتوراً لما قال، وتمضي الأيام فلا يذكر له أحدٌ شيئاً ذا بال، ولولا أن سعد زغلول ومصطفى كامل كانا زعمي الأمة ولكليهما حزب شعبي له صُحفه السيارة التي تحرصُ على أقوال الزعيم وخطبه، لولا ذلك ما عرفنا خطب مصطفى وروائع سعد!

ولندع اليوم إلى الأمل لنذكر أننا نعرف ديواناً لأمثال امرئ القيس، ولكننا لا نعرف لخطيب العرب قس بن ساعدة غير خطبة واحدة لولا أنها شُرِّفت بسماع رسول الله لها في عكاظ، ما ذكرها ذاكر. وقد ضرب المثل بسحبان وائل، فقيل «أخطب من سحبان»! فهل بقي في التاريخ له غير أربعة أسطر؟! لذلك نأسى على

(١) الثورة المصرية لعبد الرحمن الراجعي، ص ٢٣٠.

ما ضاعَ من خطب الأزهر في أيام الثورة، إذ أنها كانت تقود النفوس إلى المظاهرات لا يحول دونها دوي المدافع ولا تساقط الرصاص .

تعلم الأستاذ مصطفى في الأزهر، ونال شهادة العالمية سنة ١٣٢٦ هـ من الدرجة الأولى فعيّن مدرساً بالأزهر عندئذ، ولو وقّف أمره عند التخرج والتعيين لكان كمثاتٍ غيره، ولكنه بدأ العمل الإصلاحي منذ تخرجه، وأول ما قام به تأسيس جمعية (مكارم الأخلاق الإسلامية) مع الأستاذين زكي سند وعبد الوهاب النجار، ولم يقبل أن يكون رئيساً أو وكيلاً حيث أسندت الرئاسة إلى الأستاذ زكي سند والوكالة إلى الشيخ النجار، وظلّ يخطب أسبوعياً في الجمعية وفي موضوعات سياسية ذات وتر حساس .

وكان السبب المباشر لإنشاء الجمعية هو أن مدرسة إنكليزية بباب الخندق أخذت تدعو جهاراً للتبشير في ظل الحماية، وكان القسس يجمعون كلّ مآراً ليحدثوا الناس عن فضائل المسيحية وعلم الشيخ النجار فافتحم المدرسة، وقال أنا أبشر بالإسلام هنا، ووصل الأمر للحكومة فحرمت على الشيخ أن يتخطى عتبة المدرسة، وأرسلت المحافظة جنداً وفرساناً لحمايتها من شيخ واحد! وعلم الشيخ مصطفى القاياتي بما كان، فرأى أن ينشئ العلماء جمعية تسمى (مكارم الأخلاق) تقوم بالإرشاد الديني، وتتولى تنفيذ دسائس التبشير، وسارع الشيخ زكي الدين سند، وهو صاحب الخطب الدينية الشهيرة التي ظلت تردّد على المنابر في القرى والمدن زمناً طويلاً، فانضمّ بجهد وعلمه، كما التحق بالجمعية خيرة طلاب المدارس العليا، وأصدرت مجلة إسلامية راقية حملت اسمها وظلت تواصل الحياة قرابة ثلاثين عاماً! وجعلت تنشر ما يلقى من المحاضرات .

وعظم النفع بالجمعية فسعى الشيخ مصطفى لإنشاء فروع لها بالأقاليم وأنشأ جمعيات أخرى على متوالها لتشر الوعي الديني في المجتمع، وكان لتنقله المستمر في فروع الجمعية بشتى الأنحاء أثرٌ في طلاقة لسانه، وسُرعة ترسله حتى إذا جاءت الثورة كان من أبرز خطبائها، ويذكرون عنه أنّه خطب يوم عودة سعد من منفاه خطبة رائعة في الجموع، وقد حرص سامعوها على تسجيلها بجريدة البلاغ، وحين طلب المحرّر من الأستاذ أن يكتب ما قال، لم يجد ما يقول، إذ أعلن أن الموقف الخطابي هو الذي يدفعه للقول المسهب، أما إذا ترك اللسان إلى القلم، فسيكذب

على نفسه إذ يُؤلف ما لم يقل! وهذا ما لا يرتضيه، على حين نرى نفرأ من الخطباء يرتجلون القليل ثم يُضيفون عند النشر أكثر ممّا قالوه! .

وقبل قيام الثورة وفي أثناء الحرب العالمية الأولى، والأفواه مكّمتة، والألسنة معتقلة أسس (جمعية الدفاع عن حقوق مصر)، وحين تَرامى نشاطه إلى المسؤولين صادَرُوا الجمعية، فاحتال أن يُؤلف ما سمّاه (نقابة المستخدمين) مُظهراً أن عمَل النقابة مصلحي لا سياسي، ثم عُيّن وهو مدرس بالأزهر رئيساً لمجلس إدارة مدارس جمعية النجاح، وكان يحرص على اختيار الأكفاء من المدرسين، ويمتحن في اللغة والدين كلّ من يتقدم للتعيين، وقد سار له بذلك صيتٌ مدوّ في المحيط التعليمي، مع ما اشتهر به من الوعظ الديني .

ثم قامت الثورة المصرية، فلم يدع يوماً واحداً دون جهاد متّصل، كان يخطبُ في الأزهر، ويجمعُ التبرعات، ويقود المظاهرات، ويكتبُ الاحتجاجات إلى السفارة البريطانية، ثم يرسلُ مع أعماله صوراً أخرى إلى السفارات الأجنبية، وكيلا يحسبني القارئ مبالغاً في ذلك فإني أنقل عن جريدة البلاغ^(١) ما ذكرته عنه عقب وفاته، إذ قالت بعد تمهيد حزين :

«كَانَ علماً بين المجاهدين في الحركة الوطنية سنة ١٩١٩م إذ كَانَ مثلاً للصدق والإخلاص والتضحية، وعَلَمًا من أعلام الهدى للأزهريين، وكان لمقامه الديني وورعه وبلاغته الخطابية تأثير عميق في جهاده، واضطهد إذ ذاك فُرِفَعَت عليه دعوى تأديبية في الأزهر إذ كَانَ مدرساً به، فلم يجد مجلس التأديب تهمة يأخذ بها، غير أَنَّهُ خطيب مجاهد يُعارض رغبة الحكومة في كبت الشعور الوطني، فَقَضَى المجلس التأديبي بإبعاده إلى رَشِيد، وتخفيض مرتبّه، وكان ذلك الإبعاد مقصوداً به التخلص من تأثيره على الجماهير، فَأَجَابَ على ذلك بالاستقالة من التدريس بالأزهر لينقطع إلى العمل الوطني، ثم توالى الحوادثُ بعد هذا، ونُفي زعماء الوفد إلى (سيشل)، وسُجِنَ من بقي من البارزين، فتألّف وفدٌ جديد كان الأستاذ مصطفى القاياتي من أعلامه المرموقين، وعَرَفَت السلطة الإنكليزية أَنَّهُ قوةٌ كبيرة فاعتقلته، وسُجِنَ في أوحش السجون وأشدّها بلاءً أمداً طويلاً، فما زاده ذلك إلا إيماناً وثباتاً، وحاولت السلطة العسكرية أن تُوجه إليه تهمة التحريض على اغتيال الإنكليز، فَالْحَثَ عليه

(١) جريدة البلاغ ١٥/٩/١٩٢٧.

بالسجن من جديد، ولكنها لم تنل منه منالاً حين عجزت عن إحكام تهمة تجديع التصديق، وقد عجزت أيضاً عن أن تقنعه بالعدول عن مذهبه السياسي، فظل صامداً حتى أطلق سراحه».

هذا ما جاء في البلاغ بتصريف يسير لضيق المجال، و الحق أن الرجل كان عاملاً أساسياً في نجاح (الوفد) في الانتخابات الأولى، إذ ترك دائرته التي يجب أن ينحصر نشاطه بين ناخبيها، واتجه إلى جميع الدوائر في القاهرة وما حولها داعياً إلى تأييد مرشح (الوفد)، وأذكر أن جريدة (السياسة) وهي لسان (حزب الأحرار الدستوريين) قد فزعت لسطوة تأثيره الخطابي، فادّعت أنه قال: «لو رشح الوفد حجراً لانتخبناه» ومضت تنتقد هذه العبارة وكأنها جريمة كبرى، وقرأ الشيخ ما قالت السياسة، فجعل منه موضوعاً لخطبته التالية، وقال: «لو فرض أنني قلت ذلك فالتعبير مجازي لا حقيقي، والسياسة تقول عن زعيم حزبها أنه في السماء لا في الأرض، فهل هو في السماء على سبيل الحقيقة» وانتشرت العبارة منسوبة إلى القاياتي، وأذكر أن الدكتور محمد حسين هيكल أشار إليها في الجزء الأول من مذكراته السياسية، وكأنها شيء مهول.

وإذا كانت جريدة (البلاغ) قد أجملت حديث اعتقال الشيخ، فإن الذين تحدّثوا عنه قد خصّوه بالتفصيل حيث حددوا أول مايو سنة ١٩١٩م لاعتقاله بشكنات قصر النيل شهراً، ثم نُقل إلى رفح بسيناء فمكث شهراً ونصفاً، وخرج ليواصل نشاطه على نحو أوسع فاعتقل في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١٩م وامتد اعتقاله قرابة عامين تنقل فيهما بين رفح ومعسكر سيدي بشر وثكنات قصر النيل، ثم نُقل إلى بلدته يُرافقه أحد الضباط ليكون رقيباً عليه وهو سجين بين أسرته في القايات، ولكنه سعى حتى عاد إلى القاهرة، وقاد المظاهرات الصاخبة فاعتقل في سجن مصر العمومي، ثم بسجن الاستئناف! وقد كانت هذه الاعتقالات في أمكنتها الفاسدة صحياً ذات تأثير كبير على جسمه فأخذ الضعف ينتابه، وكان سبباً في سرعة رحيله.

وفي الانتخابات الأولى رشحه الزعيم سعد عن دائرة (أبي الوقف) فنجح نجاحاً ساحقاً، وقام بواجبه النيابي في مواقف كثيرة، وسأُنقل أحد هذه المواقف إذ أن مضبطة البرلمان قد سجلت قوله فلم يذهب كما ذهبت خطبه الكثيرات.

وإذا كان الشيخ قد زاول التدريس بالأزهر، فإنه انشُد إلى تدريس الأدب العربي

بالجامعة المصرية، فأدى دوره العلمي أداءً كان موضع الإعجاب من تلاميذه الكثيرين، ومنهم أساتذة الأدب في السنوات التالية، وحملة الدكتوراه من الخارج، وكان الشيخ كعادته ينقل الموضوع المتشعب من غيب صدره دون أن يسجله في أوراق إلا ما كان من النصوص الأدبية التي يضطر إلى إلقائها من مصادرها التي يحضرها معه، وهنا يتسع المجال لدحض أكذوبة ادعاها الدكتور زكي مبارك على الرجل، وقد أشرت لها من قبل، والدكتور زكي مبارك في أحاديثه يمزج الواقع بالخيال، وقد ذكر عن أناس كثيرين أوهاماً لم تُعرف لديهم، ومنهم من رد عليه، ومن أثر السكوت لأن الرد يدل على اهتمام بأمره.

وقبل أن أخوض في هذا الأمر، أذكر أن الأستاذ الدكتور زكي مبارك قد أشاد بالشيخ القاياتي في مواقف كثيرة جداً، وكُتِبَ مليئة بهذه الإشادة، فهو يذكر في الجزء الأول^(١) من البدائع أن المرحوم الشيخ مصطفى القاياتي: «كان يلقي دروساً في الأدب والإنشاء، وكانت الطلبة يُقبلون عليها أيما إقبال، وكنتُ من المعجبين بطريقته الخطابية التي يصنع بها دروسه» ثم يسعى ليكتب له تقريراً عن كتابه (حب ابن أبي ربيعة) ينقله الدكتور مهابياً في ختام الجزء الأول من زهر الآداب^(٢)، وقد قال الشيخ إنه يأمل أن يكون هذا الابن البار إماماً من أئمة الأدب، وقد صار الدكتور زكي من أئمة الأدب حقاً، ولكنه لم يكن الابن البار، حيث نشر بمجلة الرسالة^(٣) ما ملخصه: «أن الشيخ مصطفى القاياتي حين عُيِّن أستاذاً للأدب بالجامعة المصرية رجاءً أن يكتب له المحاضرات الأدبية التي سيلقيها على الطلاب، فأعد أربعين محاضرة لو نُشرت لكانت غاية في دقة البحث ونضارة البيان، ثم أنه أدى امتحاناً أمام الشيخ مصطفى القاياتي في الدروس التي أعدها له».

وأنا أسأل هل كان مصطفى القاياتي يلقي المحاضرات من ورقات مكتوبة أو أنه كان يرتجل؟ إن الدكتور زكي مبارك نفسه يعترف في (البدائع) أنه كان مُعجباً بالطريقة الخطابية التي يصنع بها دروسه، وأن الطلاب كانوا يُقبلون عليه أشد الإقبال، فهل كان الأستاذ الذي ينقل من غيب صدره يحفظ محاضرات تلميذه عن

(١) البدائع: ٧٢/١.

(٢) زهر الآداب: ٢٦٥/١.

(٣) مجلة الرسالة ١٩٤٣/٩/٢٠.

ظهر قلب! ولماذا؟ هل كَانَ الرَّجُل يعجز عن أن يقرأ الكُتُب المطبوعة في تاريخ الأدب إذ ذاك، ومنها جزءان لحفني ناصف وجزءان للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، وأربعة أجزاء لجورجي زيدان، وكتب أخرى للأستاذ حسن توفيق العدل وأحمد الإسكندري ومترجمات عن المستشرقين في عدة أجزاء، حتَّى يكتبَ له تلميذه ملخصات في تاريخ الأدب؟؟ وكأنَّ الدكتور قد أحسنَ بتكذيب القراء فمهَّد لكلامه بقوله^(١):

«كان الشيخ مصطفى القاياتي من أخطب الخطباء في عصره، كان يخطب ساعة أو ساعتين بلا تلثم ولا توقف ولا تحبس، وكان لا يلحن أبداً وهو يخطب، ومعَ هذا كانت الكتابة عسيرة عليه عُسراً لا يطاق، فَمَا كان يسهل عليه إنشاء مقال، ولا كان في مقدوره تحرير خطاب!».»

قد يكونُ القاياتي خطيباً أبرعَ منه كاتباً! أما أن يخطب ساعتين فلا يتلثم ولا يتوقف ولا يحتبس، ثم لا يقدر على أن يحزر خطاباً فهذا انحذارٌ لا يليق! إنَّ الذي أتصوره إنَّ كان لكلام مبارك أصل أنَّ القاياتي طَلَبَ منه بعض المراجع فأعدها له! أما أن يعجز أخطب الخطباء في عصره - كما يقول زكي مبارك - عن أن يقرأ موضوعاً في كتاب مثل (الأغاني) ثم يصوغه بأسلوبه؟ فهذا هو المضحك حقاً! لقد رد الدكتور على نفسه حين اعترف أنَّ الطلاب كانوا يقبلون على دروس الشيخ لأسلوبه الخطابي، فهل هو الذي كتب هذا الأسلوب في أربعين من المحاضرات!!

تلك فرية واضحة! والعجيبُ أنها لاقت قبولاً لدى بعض من كتبوا عن زكي مبارك، فجعلوه أستاذاً في الجامعة، وهو تلميذ!! أقولُ صراحة: إنَّ الرجل من الناس يحتل مكانته بخُلُقِه قبل أن يحتلها بعلمه، فهل كان المنتظر من الابن البار أن يحيد عن سنن الأخلاق؟

في العشرينيات كانَ الشيخ مصطفى القاياتي على رَغمِ انهماكهِ في العمل السياسي يصدر مجلة (الرشد) وهي مجلةٌ دينية اجتماعية، وقد حاولتُ الرجوع إليها في هذه الأيام بدارِ الكُتُب، فقليلٌ لي إنَّها في مخازن سحيقة بالقلعة يتعذر الوصول إليها، والذي يُصدر مجلة أسبوعية يكتب فيها خواطره ومواعظه، لا يقال

(١) مجلة الرسالة ١٩٤٣/٩/٢٠ م.

عنه إنه يتعثر حين يُريد أن يكتب خطاباً! لكان الله ألهم الدكتور زكي مبارك أن يكتب هذه العبارة ليقدم الدليل على تطاوله!.

وقد قرأت في كتاب (تاريخ إصلاح الأزهر) للأستاذ عبد المتعال الصعيدي ثناء بقلم الشيخ القاياتي نشره بمجلة الرشيد لكتاب تربوي ألفه الأستاذ الصعيدي، وقد قال فيما قال: «قدم صاحب الفضيلة العالم العلامة الشيخ عبد المتعال الصعيدي للعالم الإسلامي خير مؤلف أخرج لإصلاح الأزهر الشريف، ناقداً فيه نظام التعليم الحديث مع كلمة في قانون سنة ١٣٤٢هـ، والمتصفح لهذا الكتاب يُمكنه أن يرى من خلال سطورهِ غيرة فضيلته على الأزهر، وحبّه الصادق للأزهريين، وتفانيه في خدمة الإسلام، وإنا نرى أننا لسنا في حاجة إلى تقرير هذا السّفر النفيس، لأن قلم كاتبه أغنى الأقلام عن التقرير، وأنه ليحسن بكل مسلم أن يقتني هذا الكتاب النفيس، ليطلع على ما تضمنه من الصراحة في الدفاع عن الأزهر والأزهريين»^(١).

وقد عقب مؤلف الكتاب على هذا الثناء بقوله: «ومثل هذا ليس بكثير على الشيخ مصطفى القاياتي رحمه الله، لأنه من بيت عُرف بالجهاد في سبيل الدين والوطن، وقد كان جدّه [لعله يريد أباه] من زعماء الثورة العراقية، وكان هو أعظم الأزهريين جهاداً في الثورة الوطنية التي قامت بمصر عقب الحرب الأوروبية الكبرى الأولى، وإنما يعرف فضل الجهاد في الإصلاح من ذاق لذة الجهاد، وعرف قيمة التضحية في سبيل الدين والوطن».

ويتحتم علينا بمناسبة ما قاله الصعيدي عن بيت القاياتي أن أذكر ما يعرفه الناس جميعاً من خصوصية هذا المنزل في اتساع الكرم، واستقبال الزائرين، وتقديم الطعام لكل زائر مهما كثر العدد، تلك كانت عادة المنزل من قرون لاحقة توارث الكرم فيها أجداد عن أجداد، وقد رأيتُ بنفسِي ما كان يقدمه السيد حسن القاياتي بالمنزل نفسه لأضيافه من المطعم والمال، لأن شيوخ الطرق الصوفية والقاياتية من أعيانهم يتلقون الكثير من أتباعهم، وينفقون الأكثر، والله عادة في صانعي المعروف أن يسترهم في كل حين، فلا تفرغ عندهم أوعية الزاد حتى تمتلئ.

وقد نقل الدكتور زكي مبارك عن الأستاذ علي عبد الرازق وزير الأوقاف الأسبق

(١) تاريخ الإصلاح في الأزهر، للأستاذ عبد المتعال الصعيدي، ص ٩٨.

قوله : إن بيت القاياتي قبله الناس ضيافةً ومأكلاً ونوماً^(١)، وقد حاصرت السلطات الإنكليزية هذا البيت مرات متتالية لمعرفة المحتل أنه مصدرُ ثورة لا تخمد، ومما أذكره في هذا الصدد أن الشيخ القاياتي قد لاحظ أن بعض موظفي المحكمة الشرعية بالحلمية لم يَقومُوا بالإضراب العام مع الموظفين، وعدَّ ذلك كبيرةً، فأمر بمظاهرة تخرج من الأزهر إلى الحلمية لتُنذر من تلكأ، وتزاحمت الصفوف عقب كلمة الشيخ، وحمل علم الأزهر الأستاذ محمد الطنيسي الذي صار عضو جماعة كبار العلماء فيما بعد، وأترك له أن يصفَ الموقف ببعض الاختصار حيث يقول عن طلاب المظاهرة^(٢) :

«وقد أحاطَ بهم الجنودُ من كل جانب حتى استطاعُوا أن يعتقلوا نفراً كبيراً منهم، ومكثُوا في المحافظة أياماً نُقلوا بعدها إلى قسم الأزيكية ليحاكَمُوا أمام محكمة إنكليزية مصرية معاً فحكمت على كل فرد بغرامة مالية، وما إن علم إخوانهم بالأزهر حتى سارعوا إلى دفع الكثير مما فرض، وفي الطلاب من باع ملابسه فخوراً، ليفرج عن إخوانه فاشترها أحدهم بأول عطاء، وقَدَّم الثمن ثم رجع بالملابس إلى صاحبها، فكان منظرًا مؤثراً».

يقولُ الأستاذ الطنيسي ثم ذهب الطلاب إلى منزل المرحوم الشيخ مصطفى القاياتي، فعدَّوا ما جمعه من المال فوجدوه ناقصاً عما قَدَّر من الغرامة، فدفع الشيخ القاياتي كل ما طُلب، ولم يأت المساء حتى أفرج عن الجميع».

هذه مآثر لأبناء الأزهر طلاباً، ولأساتذتهم قادة، فهل سجلها أحدٌ ممن ملؤوا الكتب بحديث الثورة! إنهم مع اعترافهم بأثر الأزهر البارز يُجملون تفصيلات كان الأولى أن تُذاع لتكون قدوةً مُثلى! ولكن العمامة لا تزال تبحثُ عن التصير فلا تجد، وقد علَّلتُ سبب ذلك في كثير مما كتبت، وأوجزه الآن فأقول: إن قوماً تسوؤهم أن يكونَ رجال الدين أهلَ كفاح، فهم يحاولون أن يطفؤوا نوراً ائتلق في جباههم وأشرق في نفوسهم بما يتجاهلون!

وقد أراد الله ألا أختتم هذا المقال إلا باستشهاد حافلٍ قويٍّ ينطق بمقدرة القاياتي

(١) التصوف الإسلامي، للدكتور زكي مبارك: ٣٥٩/١، ط. أولى.

(٢) مجلة الأزهر، مقال الشيخ الطنيسي (المجلد السابع والعشرون) ص ٤٠٠، سنة ١٣٧٥هـ.

البيانية، حين ألقى كلمة رنانة بمجلس النواب في قضية الشعر الجاهلي حين ثارت الثوار على ما جاء في الكتاب بشأن إبراهيم عليه السلام، ولولا أن مضبطة المجلس قد سجلت كلام الأستاذ، فنقلته الصحف ما بقي إلى الآن، بعد أن خلده أديب العربية العظيم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في الصفحات الأخيرة من كتابه الذائع (تحت راية القرآن) مع خطاب مماثل لنائب فاضل هو الأستاذ عبد الخالق عطية، وحديث القاياتي المرتجل صورة مما كان يخطب خارج البرلمان وداخله، وهو مُغنٍ عن كل تعقيب، قال الأستاذ^(١):

«سادتي النواب [يوم الإثنين ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦م] كان بودي أن تمرّ بنا ميزانية الجامعة، فنستقبلها هاتفين مصفقين، لأنها ميزانية أُمْنِيَّة طالما تمّيناها، وغاية كثيراً مارجوناها، لأننا نعتقد أن وجود جامعةٍ مصرية، إنما هو طريقٌ إلى الفلاح المرجو، إلى الحرية المطلوبة، وإلى الاستقلال الحقيقي المنشود، ولكن الله تعالى أراد - أو أنّ غير الله ممن يجروون على ما لا يجوز لهم أن يجروا عليه - أرادوا أن تمر علينا هذه الميزانية ونحن نئن من الألم، ونتضجّر من الحزن، ونبكي من المُصيبة التي كنا نرجو أن تكون نعمة كبرى؛ أنا لا أريد أن أتكلّم عن الجامعة الكبرى، باعتبار إدارتها، ولا باعتبار كفاية مدرسيها وموظفيها بعد الذي أدلّى به حضرات الأعضاء المحترمين من البيانات في هذا الشأن، ولكن الذي أريد الكلام فيه من غير إطالة هو موضوع كتاب (في الشعر الجاهلي) الذي ألفه الدكتور طه حسين وهو ابن الجامعة البكر، الذي كانت تنفق عليه من مال الأمة، وما كان يُظنّ أبداً أن يُقابل هذا الإحسان بالعقوق إلى درجة أن يضربها بضرب دين الإسلام، دين الأغلبية.

ذكر حَضرة النائب الأستاذ عبد الخالق عطية ملاحظاتٍ كثيرة عن هذا الكتاب، وعن وقعه على الأمة، وتأثيره في قارئيه وسامعيه، حتى لقد قال بحق إنه أثار فتنة أو كاد والحق أنّه ما كان من المظنون أن يُوجد بين المسلمين في مصر، من يجروا على الدين إلى هذا الحد، الذي بلغه الشيخ طه حسين.

قبائحٌ متعددة، ما بين تكذيبٍ لصحيح التاريخ، وتكذيبٍ لنصوص القرآن، ونسبة التحايل إلى الله، وإلى النبي محمد ﷺ، وإلى موسى عليه السلام.

(١) تحت راية القرآن، للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، ص ٣٨٦ وما بعدها.

وقبل أن أتعرض لسرد ما جاء في هذا الكتاب، أو سرد شيء منه، أريد أن أظهر لكم شدة اندهاشي مما نقله معالي وزير المعارف عن حضرة مدير الجامعة من أن هذا الكتاب لم يُلَقَ على الطلبة، يعني أن الدكتور طه حسين لم يُلَقَ على طلبته ما جاء في هذا الكتاب، اندهشنا من هذا القول، لأن المؤلف نفسه صرّح في مقدمة كتابه أنه ألقاه على الطلبة، ولست أدري كيف يُمكن أن يكون حقاً ما قيل أنه لم يُلَقه على طلبته بعد أن يقرر بنفسه بأنه ألقاه عليهم.

أصوات: ماذا قال؟

الشيخ القاياتي: قال في مقدمة الكتاب: [هذا نحو من البحث في تاريخ الشعر العربي لم يألّفه الناس عندنا من قبل، وأكاد أثق بأن فريقاً منهم سيلقونه ساخطين عليه، وأن فريقاً آخر سيزورون عنه ازوراراً، ولكنتي على سخط أولئك، وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث، أو بعبارة أصح: أريد أن أقيده، فقد أذعته قبل اليوم حين تحدثت به إلى طلابي في الجامعة، وليس سراً ما تتحدث به إلى أكثر من متي شخصاً]، هذا قول المؤلف في مقدمة الكتاب، ولست أفهم بعد ذلك أنه لم يُلَقَ هذا الكتاب على طلبة الجامعة، وأن يترتب على ذلك مارتبة الجامعة من منع أستاذ أن يرد عليه في الجامعة، بعد أن سمحت له بذلك، بعلّة أن الكتاب لم يُلَقَ على الطلبة، حتى يرد عليه في نفس الجامعة.

لقد جاء في هذا الكتاب تكذيب صريح للقرآن، ونسبة صريحة للنبي عليه الصلاة والسلام بأنه متحايل، وكذب صريح على التاريخ لا يجوز أبداً أن يهمل ولا أن تترك صاحبه دون تدقيق معه في البحث، ويكون حسابنا معه عسيراً، إنني أعرف أنه من الكرم والمروءة أن يعفو الإنسان عن أساء إليه، ولكن من الظلم والتهجم على المصلحة أن يعفو الإنسان عن أساء إلى غيره، أو عمن طعن في وطنه ودينه (تصفيق) إن الدولة أعلنت في دستورها أنها دولة إسلامية، وإن دولة إسلامية لا تحافظ على دينها من أن يمس ولا على كرامتها من أن تُجرَحَ لهي دولة أعوذ بالله أن تكون مصر من أمثالها!

لقد بلغت الدرجة بالدكتور طه حسين، أن يذكر في كتابه أن حادثة إبراهيم وإسماعيل التي نصّ الكتاب العزيز عليها - حادثة لا يُعوّل عليها التاريخ، وإنما هي حادثة أرجعها المسلمون بسبب مخصوص، هو سبب سياسي أكثر منه دينياً.

وقد جاء في كتابه بالصفحة ٢٦ ما يأتي :

للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات [وجودهما التاريخي] ومعنى هذا أن دعوى الله أن شيئاً حصل لا ينهض دليلاً على أن هذا الشيء حصل ، والله يعلم أن هذا يُساوي في قوله (إن الله كذاب فيما قال) ثم جاء في الصفحة المذكورة [فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة بها، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، والتوراة والقرآن من جهة أخرى، وأقدم عصر يمكن أن تكون نشأت فيه هذه الفكرة، إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية، ويبنون فيه المستعمرات، فنحن نعلم أن حروباً عنيفة نشبت بين هؤلاء المستعمرين وبين العرب الذي كانوا يقيمون في هذه البلاد، وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة ونوع من المحالفة والمهادنة، فليس بعيد أن يكون هذا الصلح الذي استقر عليه الرأي بين المغيرين وأصحاب البلاد فنشأت هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام، لا سيما وقد رأى أولئك وهؤلاء بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل، فأولئك وهؤلاء ساميون].

ويقول في ص(٢٧) مايلي : [وقد كانت قریش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة، في القرن السابع للمسيح] كلمة الأسطورة يا حضرات الزملاء لا تُقال إلاّ للخرافات أو الترهات فالقول بأن هذه القصة التي وردت في كتاب الله العزيز خرافة ليعني أن الله يخرف ونحن نؤمن بتخريفه (مقاطعة).

أنا والله لا أريد التشنيع، ولكني أريد أن أذكر حقيقة، أريد أن أقول لأقوام لا يرون رأينا، ويدعون أن البحث أمر واجب وحرّ، وأنّه لا يجوز أن نقيد حرية الناس في آرائهم، أقول لهم إننا لانقيد حريتهم في عقائدهم، ولكننا نقيد آراء تلحق لأولادنا، ونُشاع على أفراد الأمة بين متعلم وغير متعلم، ولا بد أن يكون ذلك داعيةً للضلال والفُسوق، فإذا لم أطل بينكم الليلة في سرد النصوص الواردة في هذا الكتاب، وذكر العبارات الشنيعة التي لا تدل إلا على زندقة، فلأني لا أريد إدخال

الحزن على قلوبكم، ولآتي لا أريد أن أرى دموعكم تسيل جزعاً على دينكم،
وشرف دولتكم.

إننا لا نتكلم في هذا إلا بباطل المحافظة على الدين، وليس ذلك بالأمر الذي
يهمّ المسلم دون غيره، فإنّ كرامة الأديان كلّها على السواء يجب أن تكون
محفوظة، إنني لا أسمع ولا أقبل أن يطعن أحد في دين المسيح عليه السلام،
ولا أقبل أن يطعن أحد في دين موسى عليه السلام، فإنّ حرّامات الأديان يجب أن
تكون موفورة، إنني لا أخشى أن يقال إننا نتكلم متعصبين تعصباً دينياً، لأنّه إذا كان
التعصب الدينيّ هو المحافظة على كرامة الأديان جميعاً. فأنا أول المتعصبين، كنتُ
أودّ بعد أن قرأت لكم كلمات المؤلف أن أقرأ لكم كلمات الله فيما كذبه المؤلف،
ولكنّي لا أظن أنكم في حاجة إلى ذلك، نريد أن نثبت في تاريخ عملنا أننا لا نقبل
أبداً أن يتهور متهور على الدين تهوراً يحطّ كرامته، وكرامة الدولة، فإنّ الطعن في
دين الدولة طعنٌ من الدولة، هو طعنٌ في كل فرد من أفرادها، ولا نرضى أن يسجل
علينا التاريخ أنّه قد فُتح بيتنا هذا الباب، ونُشر بيننا هذا الكتاب، وقامت عليه الضجة
التي قامت، ثم يمر مرّ السحاب، دون أن ينال المسيء جزاء إساءته، لا أريد أن
يقال: طعن في الدين، وشُهر به، ومرّ الأمر على مجلس النواب، وخرج الطاعن
نظيفاً شريفاً دون جزاء، الرحمة واجبة، وليست في الدين، وقد أوجب الدين أن
يُرجم بعض من يرتكب الجرم، فما بالكم فيمن يدعي أن الله كاذب! وأن النبي
كاذب! وأن المؤمنين جاهلون لا يفرقون بين الحق والباطل؟

ولا يجوز أن يُكتفى بأن المؤلف صرّح في الصحف أنّه مسلم، وإنني ألفت
نظركم إلى أن الدكتور المؤلف لم تسمح له نفسه - مع أن الموقف كان شديداً،
والإلحاح عليه كثيراً - أن يكتب كلمة يشرح بها ما قاله، وأن يؤوِّله بمعنى يفهم منه
خلاف ما فهمناه.

هذا أطول نصّ استشهدت به في كل ما كتبتُ، وما فعلت ذلك إلا لأدفع
أباطيل، وأكشف عن حقائق، ولعلّي بلغت! ولعلّ فريضة الدكتور زكي مبارك بعد هذا
البيان قد ذهبت أدراج الريح.

* * *

منصور فهمي يعود إلى حظيرة الإيمان

- ١ -

الخطأ طريق الصواب، لأن تجارب الإنسان في الحياة، تتعرض لهزات أليمة يستقيم بعدها السير في الطريق الصحيح، وفي تاريخ العلم أمثلة كثيرة، لأناس أفاضل سلكوا بعض الاتجاهات عن اعتقاد صحيح في سلامة هذه الاتجاهات، ثم بدا لهم ما جعلهم يحيدون عن مذهبهم المشهود، فلم ينكلوا عن الاعتراف بالحقيقة، إذ أعلنوا خطأ الأمس لينهجوا طريق الصواب منذ اليوم، وكان على خلطائهم أن يُقدروا لهم شجاعة الاعتراف، وأن يحمدا لهم فضيلة الرجوع إلى الحق، ولكن قوماً يُحبون أن يتهموا الناس بكل مثلبة لا يروقههم أن يجدوا المخطئ مُصَحِّحاً خطأه، فهم يلمزونه بسوء النية حيناً، والانتهازية أحياناً، وكأنهم يلتمسون لذة خفية في تثبيت الأخطاء، وإصاق الشكوك بالأبرياء.

لقد نشأ (أبو الحسن الأشعري) زعيم المتكلمين الأشهر على مذهب الاعتزال، يُدافع عنه، ويحارب مناوئيه، ثم فُكّر وقدّر في عزلة هادئة حتى اهتدى إلى غير ما كان يراه، فلم يصبر على تصحيح ما سلف من اتجاهه، وجمع الناس بالمسجد الجامع بالبصرة، في يوم من أيام الجمع، حيث الحشد الحافل، والحفل الزاخر، ثم صعد إلى المنبر فقال:

«أيها الناس مَنْ عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله تعالى لا يُرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعليها، وأنا نائب مقلع متصد للرد على المعتزلة، إنما تغيّبتُ عنكم هذه المدة، لأنني نظرت فتكافأتُ عندي الأدلة، ولم يترجعْ عندي شيء، فاستهديتُ الله تعالى،

فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتيبي، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب كان عليه».

هذا الموقف مما يحمده لأبي الحسن، لأنه رأى خطأ وقع فيه فأراد أن يصحح ما سلف، ولست أوزان الآن بين آراء السلف والخلف، فليس هذا موضع الموازنة، ولكني أقول إن الرجل العظيم قد كان ذا فكر دائب صوّال، وقد عثر ثم نهض، فما يلومه عاقل، عارض اتجاهه، أو زكاه!

كذلك كان من قدّر الباحث الأديب المفكر الدكتور منصور فهمي أن يقول في بعض الشؤون الخاصة بالمرأة ما ثبت له بعد الدراسة المتأنية خطأ ما كثره من قبل، فرجع عن كل ما قال، وكتب من الصفحات المشرقة الوضيئة ما يكتبه المؤمن الملتزم الغيور، وكان على المنصفين أن يقدروا له طويل بحثه، ومواصلة تفكيره، حتى رست سفينته على الجودي مطمئنة سالمة! ولكن فريقاً ممن أحزنهم أن يرجع إلى الحق، أخذوا يرمونه بالدروشة أحياناً، وبالوصولية أحياناً، وقد عزّ عليهم أن يكون الدكتور العلامة الباحثة معارضاً لأهوائهم ومجانباً تطرفهم المادي، فأفكوا وأضلوا، ومضى الرجل في طريقه الجديد ذاثداً عن الحق، مدافعاً عن الصواب، متغافلاً عما يدور حوله من أراجيف، أما كيف كان ذلك بدءاً وخاتمة، فهذا ما نوجزه في هذه السطور.

ولد منصور فهمي سنة ١٨٨٦م في إحدى قرى الدقهلية ونشأ في أسرة ميسورة ذات ظل من الجاه، فحفظ بعض سور القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة المنصورة الابتدائية، وانتقل إلى القاهرة، فنال الشهادة الثانوية وانتسب لكلية الحقوق، وكان الظن به أن يتمّ دراسته القانونية، ولكن مسابقة بين الطلاب أعدت لاختيار بعثة علمية لباريس، وكان الشاب أحد المختارين لهذه البعثة العلمية، فسافر إلى فرنسا، واتصلت دراسته خمس سنوات، نال بعدها شهادة الدكتوراه في موضوع (المرأة في الإسلام) وهو موضوع لم تكتمل للدارس فيه ثقافة إسلامية يراد إليها من ينابيعها الصحيحة.

وقد أشرف على الرسالة الأستاذ (ليفي بريل)، وهو من الذين يرون الإسلام حائلاً دون التقدم الفكري والحضاري، لا عن بحث في أصول الإسلام، بل عن تعصّب عُرفت به طائفة من المستشرقين أخذت تُهاجم كل ما يتصل بالإسلام، وكان

تأخر المسلمين في ظل الاستعمار الأوروبي أحد بواغث هذا الهجوم الظالم، إذ نُسب التأخر للإسلام، لا لابتعاد المسلمين عن تعاليم دينهم، وقد كانوا سادة الأرض حين التزموا بها صادقين، والحق أن سفر الشاب الناشئ دون استعداد علمي يقيه نزوات التعصب مما يعصف بنباته أمام أساتذة يتشحون بلباس العلم ظاهراً ومن أغراضهم أن يُورثوا البلبلة في نفوس بريئة لم تعرف كيد الأهواء، لذلك كان من الضروري أن يلم المبعوث بتعاليم دينه ليكون مسلحاً بالأدلة الصادقة، والبراهين القاطعة.

وقد سافر الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبد الله دراز فيما بعد إلى باريس طالباً بجامعة السوربون، بعد أن نال عالمية الأزهر، ودرس في كلياته، فواجه مطاعن كثيرة استطاع أن يثبت أمامها، وكان من المقرر عند أساتذته أن يدرس نظرية الأخلاق في القرآن دراسة أوروبية تنزع من القرآن كل توجيه فلسفي إلى أصول الخير والسعادة، ولكن الدارس البصير واجه أساتذته بنصوص القرآن الدالة على سمو اتجاهه، وأصالة منحاه الفلسفي بعيداً عن مؤثرات الثقافة اليونانية، وأتم رسالته في ضوء ما اعتقد، إذ لم يستطع أساتذته أن يواجهوا النصوص الصريحة في كتاب الله.

فلو كان منصور فهمي ذا ثقافة إسلامية ركيعة لاستطاع أن يعصف بتوجيهات أساتذه، ولكنه ظن الأستاذية مخلصاً في اتجاهها، فتورط في تسجيل أمور بعيدة عن تعاليم الإسلام، ونسبها إلى الدين الحنيف في صورة الناقد، ولأمر ما أوحى له المشرف أن يتحدث عن تعدد الزوجات في بيت الرسول بما يجعل هذا التعدد مصدر مؤاخذه، مع أن الموضوع قد درس من قبل، وعُرفت أسبابه البعيدة عما يتوهم من مزالق الشهوة، لأن الرسول بعد الخمسين - منذ وفاة خديجة رضي الله عنها - لم يكن ذا هوى، وهو في شغل شاغل بمكافحة خصومه الذين يحاولون قتله تارة، والهجوم على مأمته في المدينة تارات!

وكانت محنة انجلت غشاوتها عن عين منصور حين رجع إلى مصر، وقرأ من الردود المنطقية ما أدرك به هوته السحيقة، فتأب عما أسلف، وأعلن أنه كان مخطئاً أكبر الخطأ، وانضم إلى الجمعيات الإسلامية مؤازراً معضداً، وله في كل أسبوع خطبة موجهة، وفي كل صحيفة توجيه سديد.

وهنا قامت القيامة عليه من فريقين متعارضين، فبعض زملائه في فرنسا لم

يرحبوا باتجاهه المؤمن، وهاجموه لأنه استقام، وتلك عجيبة العجائب حقاً! وقد ذكر الدكتور زكي مبارك فصلاً قوياً الدلالة في كتابه (الأسماء والأحاديث) يكشف عن ثورة هؤلاء التي بلغت ببعضهم درجة الغيظ، وتكفي الإشارة إليه دون حاجة إلى تلخيصه، أما الفريق الثاني فنحن نعرفهم من الجامدين الذين لا يرون التوبة باباً للصّح، بل يظنون يَعدّون الأخطاء الماضية، وكأنّها مدعاة للطرد من رحمة الله! وفي الناس مُسلمون يتقربون إلى الله بمعادة التائبين من المذنبين، كأنما يسوؤهم أن تُقبل توبة التائبين؛ ولا حيلة لنا مع هؤلاء.

ومن شجاعة الدكتور منصور فهمي، أنّه كان يقرر في أحاديثه ومقالاته نقداً لتورطه السابق، متخذاً منه العبرة حين يتحدّث للشباب حديث من يحذّرهم عواقب الاندفاع، وكانوا يعجبون بصراحته، لأن الإسلام أعز عليه من نفسه، كما أنّه سجّل في مقالات عدّة خواطره الناقمة على تسرعه المتعجل، وأنقل على سبيل المثال ما كتبه في مجلة (حياتك) الصادرة في ديسمبر سنة ١٩٥٨م حيث قال:

«كانت رسالتي في الدكتوراه عن المرأة في الإسلام، واندفعتُ أكتب بحرارة الشباب المندفع، ويظهر أنني انحرفت قليلاً حيث كانت معلوماتي عن الإسلام طفيفة، وحين قبولت - في مصر - بضجة كبرى ازدادت عناداً، ولكن الله كتب لي أن أجلس طويلاً مع بعض مشايخ العلماء، من ذوي الأفق الواسع، والصدر الرحيب من أمثال الشيخ حسونة النووي، والشيخ مصطفى عبد الرزاق، والشيخ علي سرور الزنكلوني، هؤلاء الذين يمثلون رجل الدين الحقيقي في عقولهم وعلومهم، فبدأتُ أتخلّص من الزيف، لأعود إلى حظيرة الدين والحمد لله».

ثم قال في موضع آخر نجده في مجلة (لواء الإسلام) شوال سنة ١٣٧٨هـ:

«لقيتُ المرحوم الشيخ حسونة النووي حين زرته في منزله، فوجدتُ شيخاً وقدرأ يملأ القلب بمهابته وتقواه، وكنتُ أسمع الكثير عن شجاعته وهيمته، واستهائته بشؤون الدنيا، فلما قدّمتُ إليه، قال لي: أنت الذي يُقالُ عنك: إنك ملحد! فقلتُ: نعم يا مولاي، فَرَبْتُ على كُتُفِي، وقال لي: إقرأ القرآن، إقرأ البخاري إن لم تكن قرأته، فوعدتُ الشيخ الوقور بذلك، ولما خرجتُ استحييتُ ألا أفي بعهدي، فعكفتُ على قراءة البخاري، وعجبتُ لغفلتي الأولى؛ وجدتُ حكماً ونظماً، وأخذتُ أقارن ذلك بما درست من فلسفة، فوجدت ما جاء به (محمد)

أعلى من كل فلسفة، وأنّ الإلهام الصادق يبدو في كل حديث، فلم أجذّ إلا أن أقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

إنّ المتشكك الذي ينتهي إلى الإيمان بعد فحص وتأمل، يكون ذا منعة وصيانة أقوى من سواه، فكثير من الذين سلّموا بقواعد الشريعة تسليماً إيمانياً عن غير دراسة، لا يستطيعون الصيال عنها دون أن يبذلوا جهداً آخر في التحصيل والموازنة، وقد لا يجدون الدافع لذلك مرتكبين إلى إيمانهم الراسخ، أما المتشكك الحائر الذي يهتدي إلى اليقين فذو مناعة حصينة تمده بذخائر صائبة في حلبة الصيال فيصبح داعيةً غيوراً، لا يسكت عن تردد شبهة، بل يتعرض لها مهاجماً ذاتداً، وهذا ما عهدناه في محاضرات الدكتور منصور فهمي، وفي مقالاته المتشعبة، وله من مركزه الأدبي وصيته العلمي ما جذب إليه عقول قارئيه وسامعيه.

لقد وطّد منصور فهمي نفسه على أن يكون داعيةً مستثيراً لما فقهه من تعاليم الإسلام، وقد انضمّ إلى جمعية (الشبان المسلمين) منذ أنشئت، وهي ذات رسالة حية في جمع الشبان الحائر فيما يسمع من أضاليل المستغربين، حيث أنّ الفترة الزمنية بين الحريين شاهدت رواجاً حافلاً للدعايات المسمومة ضدّ الدين بعامة والإسلام بخاصة، وظنّ قومٌ أن الابتعاد عن الدين خروجٌ من ظلام العصور الوسطى إلى نور الحضارة الغربية، وجاهروا بما يدعون في محاضرات ومناظرات، ومقالات، تمتلئ بها الجرائد والمجلات.

وطبيعي أن ينهض أصحاب الأقلام المؤمنة إلى صدّ هذه الانحرافات وأكثرهم من أبناء الأزهر ودار العلوم مع قلة جامعية من ذوي التربية الأصيلة قاومت ما تسمع في مدرجات الجامعة المصرية من شطط يسترّ بلباس البحث، لذلك كان صوت الدكتور منصور فهمي أستاذ الفلسفة بالجامعة وحامل الدكتوراه من السوربون، وعميد كلية الآداب، ومدير دار الكتب، ورئيس جامعة فاروق فيما بعد - كان صوت هذا المثقف الغيور جاذباً لانتباه الشباب، ونصيراً للشباب المسلم الذي يجد في محاضرات الجمعيات الإسلامية ملاذاً عاصماً من الأباطيل، وإذا كانت رسالته السوربونية السابقة قد دارت حول المرأة، وبعض مواقف نبي الإسلام، فإنّ الرجل المعترف بتسرّعه شاء أن يجعل محاضراته تصحيحاً لأخطائه.

وفي حفل حاشد من حفلات الشبان المسلمين وقف الزعيم التونسي الأستاذ

عبد العزيز الثعالبي مفنداً آراء من يسمون أنفسهم بالمتحررين فيما ينسبونه للمرأة المسلمة من تأخر حضاري، وقد صفق الجمهور تصفيقاً حاراً للأستاذ الثعالبي حين جاء بالفلق السافر من البراهين.

ثم كانت الدهشة حين قام الدكتور منصور فهمي يستأنف الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام مفنداً كل ما قيل من الأراجيف، وكأته أعد محاضراته من قبل مع أن حديثه كان تعقيباً فورياً على حديث الأستاذ الثعالبي، ومن هذه الليلة، والدكتور لا يترك اجتماعاً ثقافياً دون أن يشترك فيه مناقشاً، أو محاضراً، وكان لحديثه مذاق خاص به، لأنه يكشف عن الأوهام الذائعة في أوروبا ما لا يعرفه الكثيرون ممن لم يطلعوا على ما درس وشاهد ولمس، وإذا كان الدكتور ممن يحاضرون في الجامعة المصرية وفي قاعة (يورث) التذكارية وغيرهما من أندية الثقافة الرفيعة، فإنه جعل قضايا المجتمع مادة محاضراته، إذ لم يشأ أن يخاطب الجمهور في مسائل الفلسفة وعلوم النفس والاجتماع كما يفعل من يتباهون بالجديد، لأنه اعتقد أن قاعات الدرس الخاص في الجامعة غيرُها في الأندية العامة، ومن رسالته أن يُقرب القضايا الاجتماعية للأذهان في أسلوب لا يتكلف الغموض الفلسفي!

وقد جُمعت بعض محاضراته عقب رحيله في كتاب أخرجته الهيئة المصرية للكتاب، فحفظت القليل دون الكثير، لأن محاضرات الدكتور في مدى خمسة وعشرين عاماً تحتاج إلى أجزاء متعددة، ولا أدري لماذا لم ينهض الدكتور لجمعها، والناشرون يتلهفون على آثاره، والقراء متعطشون؛ وقد قال في تعليل ذلك^(١):

«إن شغفي بالمبتكر الطريف قد يكون من شأنه تعطيل الإسراع في التأليف حين أجد أن المتقدمين لم يقصروا في خدمة الموضوعات التي تناولها المتأخرون مما يقع في دائرة تخصصي العلمي، وأن ما قد يُضاف إليهم من جهود أمثالي من المتأخرين قد لا يفي بحاجة المطلعين منهم، وذوي المكانة فيهم، وهذا كاف للتردد والإبطاء».

وقد يحتاج هذا القول إلى تعقيب، لأنه لو صدق على بحوثه الجامعية في مادة الفلسفة، فلن يصدق على محاضراته الثقافية في الندوات المتتابعة، كما لا يصدق

(١) أبحاث وخطرات للدكتور منصور فهمي، ص ٣٠.

على المقالات الدسمة التي نشرها بـ (الرسالة) و (الهلال) و (مجلة مجمع اللغة العربية)، و (مجلة الرابطة الشرقية)، وغيرها مما لا أستطيع حصره، فإن هذه المحاضرات الثقافية تعالجُ مشكلات معاصرة، وفيها مما يختلف في اتجاهه عن كثير مما يكتبه سواه، وقد جَمَعَ المحاضرون آثارهم في أجزاء تَوَالَى طبعها، وبعضها يمثل اتجاهًا مختلفًا عن اتجاه الدكتور، فكانَ من الضروري أن تُنشر هذه المحاضرات في مجموعات مستقلة فيقرؤها الجيل القادم كما سمعها الجيل المعاصر.

وإذا عَزَّ علينا أن نجد الفلسفة النظرية فيما تركه الدكتور من آثار، فإننا نجد الفلسفة العملية في اتجاهه محاضراً، وفي نسقٍ بيانه مؤلفاً، لأنَّه في بحوثه لم يكن بعيداً عن الروح الفلسفي العام، بل كان يتقيد بأسلوب الفلسفة في بحث القضايا تمهيداً ومقدمات ونتائج، دون أن يُشعر سامعه أنه يسير على نهج فلسفي، والفلسفة بمعناها العام تتسع لقضايا الدين والاجتماع والأخلاق، فإذا تحدَّث عن هذه القضايا أستاذُ الفلسفة فهو بعقليته العلمية يرضي الدارس المتخصص، كما يتمتع القارئ المثقف، وقد عهدنا أساتذة الفلسفة ينكمشون في حجورهم، فلا يكتبون لغير تلاميذهم، وفيهم من يعتمد الغموض حيث في إمكانه أن يكون واضحاً، وكان جلال الأستاذية يحولُ بينه وبين الدنو من جَمْهرة القارئ، وهؤلاء في أكثرِ أحوالهم لا يُقدمون الجديد ولكنهم يُلخِّصون ما درسوه، وكتابٌ واحدٌ في موضوع دراسي يُغني عن غيره في موضوعه، إذ الاتباع لديهم أكثر من الابتداع.

لقد كتب الدكتور مقالاتٍ شتى تتسمُ بالطابع الفلسفي تفكيراً، وبالتساق البياني تعبيراً، وكان الإصلاح رائده في كل ما كتب، وأشيرُ إلى رُؤوس مباحث جَمَعها كتابه (أبحاث وخطرات) تتسمُ بالعمق الفكري، والإشراق التعبيري معاً، ومن بينها ما كتبه تحت هذه العناوين: (وسائل الاستقلال الاجتماعي، الفيلسوف بين الناس يقظة الضمير الإنساني، الضعف الخلقي وأثره في حياتنا الاجتماعية، المحافظة والتجديد، مدى الاقتداء والتقليد، الانطلاق والحرية، الوعي الإنساني السليم، مصر بين جوارف المؤثرات الاجتماعية، التفرد والشعور بالذات، مقومات المواطن الصالح، الرأي العام المثقف).

هذه الموضوعات وأشباهها ذات دسم فكري نافع، وتحليلها يحتاج إلى كتاب

مستقل ، وإذا كَانَ للدكتور تلاميذه الكثيرون في كلية الآداب ، فقد كُنَّا نود أن نرى كثيراً منهم يحذون حذوه في مخاطبة الجمهور العام بمقالات إصلاحية تُقنع وتُمتنع ، وليسَ في هذا الامتناع ما يُنقص جلال الفكر المتعمق ، والنظر البعيد .

- ٢ -

كان جميلاً من الدكتور منصور فهمي أن يهب نفسه للمجتمعات والأندية خارج الجامعة ، إذ رأى أن الشباب لهذه حريص على الاستماع لما يُلقى في هذه الأندية ، ففي الزمن الذي لم تنتشر فيه أدوات الإعلام من إذاعة مرئية ومسموعة ، كانت المحاضرات العامة مصدرَ جذب للشباب المتعطش إلى المعرفة ، ولم تكن الأندية الثقافية ذات مشرب واحد ، لأنَّ بعضها كان يتجه وجهةً الانبهار بمظاهر الحضارة الأوروبية في ملامحها ومعاشها ، لا في اتجاهها العلمي ، فكثُر بها الحديث عن تخلف المرأة المسلمة ، وقصور الثقافة الشرقية (يراد بها الإسلامية) ، وسيطرة التقاليد المحافظة .

ثم أنشئت جمعيات نسائية تطالب بنهضة المرأة ، وكان من قدر هذه الجمعيات أن يتولى إدارتها وعضويتها سيدات وأنسات من ذوات الثراء والعناء ، ولم يكنَّ يبحثن عن الارتقاء النسوي قدر ما يحرصن على الظهور في المحافل الرنانة ، والمجتمعات الصاخبة ، وقد ساعدت المجلات المصوّرة على إبراز هؤلاء وكأنهن لسان النهضة المرتقبة ، مع أنهن لا يقمن بواجب الأسرة في منازلهن بل يكتفين بحفلات تُنسب إلى الإحسان ليجتمع بها الآكلون والشاربون من أثرياء الأمة دُونَ أن يظفر المستحقّ الحقيقي بشيء ذي بال ! وما أكثرَ ما تحدثت مجتمعاتهن عن ظلم المرأة المسلمة ، وتأخرها في ظل الحجاب ، وتحكم الزوج في أمور الزوجة ، وضرورة السفور العاجل كي تتحرر الفتاة من سجنها المؤبد ! .

وإذا أُقيمت محاضرةٌ تنحو هذا المنحى ، فالجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية تحوطها بمزيد الاحتفاء ! وقد تعب المصلحون من المحافظين في دفع هذا الهجوم الصارخ على تقاليد الأمة ومثلها ، ولكنهم لم يجدوا المجال مفتوحاً في هذه الأندية النسوية ذات المظهر الخلّاب ، لأنَّ العمامة لم تكن موضع الحظوة لدى هؤلاء ! لذلك كان الدكتور منصور فهمي منفرداً بين المبعوثين إلى فرنسا بتبني الوجهة

الإسلامية في هذه الأندية، وكان يفرض نفسه فزضاً عليها دون أن يستطيع أحد دفعه، وقد ألقى من المحاضرات الهادفة المتكررة ما لو حرص على جمعه لكان ذخيرةً للأجيال من بعده.

ومن حسن الحظ أن بعض المجلات الملتزمة قد نقلت جانباً من هذه المحاضرات فضمنت لها البقاء، وبين يدي محاضرة قيمة نشرت في مجلة الرسالة في عدد من متواليين تحت عنوان (نساؤنا بين التقاليد والتجديد) تُعطي خلاصةً وافيةً مبلورةً لأفكاره التي دعا إليها في أكثر ما حضر به من قبل، وهي تُسجل الرأي الإسلامي الصريح دون مواربة أو مداراة.

تحدث الدكتور^(١) عن دعوة (قاسم أمين)، فأظهر أنها كانت تريدُ تعليم المرأة وتهذيبها بعيداً عن التبرج والانحدار، ولكن الذين تبعوه لم يتقيدوا بدعوته، إذ تحول خروجُ النساء من عزلتهن عن أن يكونَ وسيلةً يسوغها شرف الغاية، ليكونَ غايةً لذاته، أو وسيلةً لغاية وضیعة، ومن أشدَّ العوامل التي أضعفت قيمة الاختلاط بين المرأة والرجل هو انتشارُ بعض الآراء دون أن تُفهم على وجهها الصحيح، ومن هذه الآراء ذهابهم إلى أنَّ الاختلاط بين النساء والرجال من شأنه أن يهذب من المظاهر.

لكن الناس توسعوا في هذا الترخص واستباحوا لأنفسهم أن يجوزوا مجتمعات الجند إلى مجتمعات الهزل التي تُؤدِّي إلى تحريك الانفعالات التافهة والشهوات الوضيعة، والمواقف المزدولة، فقد يزدحمُ الرجال والنساء في مجتمع من المجتمعات، فلا يلبثُ هذا المجتمع أن يتحول إلى معارض للترن والآنقة، والتأنق بالأقوال الرخيصة، والتظرف المصنوع، واتخاذ الابتسامات المناقفة، ومن ثم تكون النظرات المسمومة، والأحاديثُ المهيئة لنزعات الشيطان، وإذا ذكرنا مجامع الشاي وحفلات الخمور، فلنصف إليها ما هو أسوأ منها أثراً من منتديات الميسر والمراقص والرحلات المشتركة، ومسارح التمثيل الخليع، وحمامات السباحة الجامعة، وشتى ضروب المجتمعات التي تخلط بين النساء والرجال، وإثمها أكبر من نفعها لو أن لها نفعاً مذكوراً!!

(١) الرسالة، العدد (٤٠٥) ٧/٤/١٩٤١م.

وهذه المجتمعات تضعف لدى المرأة عاطفة الحياء، وتوهن في الرجل عاطفة الغيرة. وقاسم أمين كان يخشى ذلك حين قال: «والذي أراه أن الغربيين قد غلوا في إباحة التكشّف للنساء إلى درجة يصعب معها أن تتصوّن المرأة من التعرض لمثارات الشهوة، وما لا ترضاه عاطفة الحياء».

ثم انتقل الدكتور إلى حديث الحرية التي تُطالب بها المرأة، فقال بعد تمهيد طيب: «إذا كان طلبُ الحرية ليُصن من المعلم ما يصقل نفوسهن، ويُقوّم أخلاقهن، فلا يُمانع في ذلك أحد، وإذا كان الباعث عليها هو القيام بما ينتفع به المجتمع حين يحتاج إلى نشاط نسائيّ فلا اعتراض، ولكن إذا طلبت المرأة الحرية لتُلبّي داعي النزق، فتلهو مع اللاهين، وتهجّر بيتها للتسكّع في الملاهي والمزارات، وتتخذ من الحرية مطيّة للتبرج رغبة في الزّهو والغرور، فما أحمق يرضى عن ذلك، وإذا كانت الأوروبيات يفعلن ذلك غير مكترثات بمفاسد الأخلاق، فهو أشد ما أخشاه على نساتنا، وقد ضعفت دولة الرومان من قبل لوجود هذه الظاهرة، وكذلك بعضُ الدول التي تقلّدها إذ انحلت بها قوة المقاومة عند الجهاد والكفاح الوطني».

ومضى الدكتور فتحدث بإفاضة عن مآسي التبذل، وتبرير الاختلاط بحجّة التعرف إلى الزوج المنتظر، مع أن ذلك متعذر لأن الزوج المرتقب لا يرضى بمبتذلة، كما أشار إلى فساد الذوق في ارتداء الملابس المثيرة، واتخاذ الأضباع اللافتة، والإصرار على عُري الصدر والساقين والذراعين، أما عملُ المرأة فهو سجنٌ لها، والكاتب يعجب لمن يقولون إن البيت مع هدوئه سجنٌ للأُنثى، والمصنع مع ضجّته وإرهاقه حريةٌ وانطلاقٌ، وختم الباحث محاضراته الوافية بقوله^(١):

«وليس من شك في أن هذه الحالة التي تواضع الناس على تسميتها بالحياة العصرية حيناً، وبحالة التجديد حيناً آخر، تتنافى مع التقاليد الأصيلة فينا، وقد تسللت إلى مصر مع غفلة الزمن وضعف الشخصية والولوع بالمحاكاة، وقد شعروا الكثيرون منا بخطر هذا الحال الاجتماعي، وأخذوا يشورون عليه سرّاً، وفي

(١) الرسالة - العدد ٤٠٦ - ١٤/٤/١٩٤١ م.

استحياء، على حين أن دُعَاة من صميم الغرب قد دعوا جبهة إلى الحد من خروج المرأة عن نطاق عملها، ودائرة نشاطها».

وقد مضى أكثر من نصف قرن على إلقاء هذه المحاضرة، وما نراه الآن من مظاهر مقاومة الحجاب الشرعي، والدعوة إلى التبرج السافر، يجعل المحاضرة جديرة بالذبول والانتشار، لأنها تصف ما كان بالأمس، وكأنها تسجل ما نراه اليوم، وكأن الدكتور قد عَرَفَ أن الموضوع في حاجة إلى تكرار متصل، لأنه يخاطب الأهواء الجامحة بمنطق العقل الرزين، وقد لا يُجدي العقل كثيراً أمام نزعات الأهواء الضالة، لذلك كَثُرَ محاضراته عن المرأة في أساليب مختلفة، تتفق في العلاج والتشريح، وإن اختلفت في السياق.

ومن أبرز ما قاله في ذلك ما نشره تحت عنوان (المرأة والعروبة) وقد سُجِّلَ في مجموعة (أبحاث وخطرات) حيث تعرض لما يُقال عن حقوق المرأة السياسية، فقرر أن المرأة باعتبارها أنثى تختص بأمور لا يشاركها فيها الرجل، ومهما قامت بأعمال الرجل فطابع الأنثى يُكوِّنُ هذه الأعمال بصيغتها الخاصة، ولو نزعَت المرأة من الرجل ما يصلح له من الأعمال، لبقيت لها أعمالها التي لا يُجيدها الرجل بحال، وقد أفاض في هذه الناحية بما كان تمهيداً لقوله بعد ذلك^(١):

وحسبي أن أقول إن الذين يُغرون بالمرأة لترج بنفسها في المجالس النيابية والسياسية إنما يهثون بذلك عندها عقدة نفسية، تقوم على أنها ظلمت في الغابر، وتظلم في الحاضر، لاستلابها حقوقها، وحرمانها من أعمال هي أحق بها، وعلى ذلك تشحن صدور النساء بلون من ألوان الضغينة على الرجال، وتثار عندهن نزعات لضروب من المنافسة والانتقام، لإسقاط الرجل من منزلته ودرجته. . . ولو تأمل النساء وأنصارهن ممن يتسلون بذكر الأحلام، وترويح الأوهام، لوجدوا أن القضية التي يتوهمونها في تقدير حقوق النساء ليس فيها ما يسوغ القول بذلك، فليست تنجلي من مغام أو مغارم بين عنصرين حليفين يتم بعضهما بعضاً كشركاء في حاجات هذا الوجود ومستلزماته، وهذه المعركة التي تقوم بين النساء وخصومهن، في ميدان حقوق المرأة معركة مصنوعة أو صورة تمثيلية تهيئها الأيدي العابثة، مما

(١) أبحاث وخطرات، ص ١٩٢ وما بعدها.

أدخل في مجتمعنا المصري فصلاً يُسمى بحقوق المرأة، وأقل ما يقال عنه إنه زوبعة في فئجان.

وفي رأيي أنّ التقاليد السليمة الإسلامية التي تُستخلص من فهم الإسلام على حقيقته، ومن مصادره السليمة هي أولى التقاليد التي يجب أن تُتخذ لصيانة المرأة من مفاسد المدنية الزائفة، والزمن المضطرب الآثم، ومن ثم تُصان العائلة التي هي الخليّة الأولى للحياة البشرية، وإني لا أجهل أنّ في النساء من بلغن شأواً في أفق السياسة، ونلن الدرجات في فنون الحقوق والطب والرياضة والفلسفة والطيران، ولكن كل ما تبرز فيه من ناحية، وتُصرف فيه من جهد، إنما يُخضم من رصيدها في تقويم العائلة، والعائلة هي مأواها الأوّل، ومرمى الإنسانية المتطلعة للكمال، فكل خروج بالمرأة في أعمال المجتمع هو مطروح من حساب خصائص العائلة وتراحمها وتساكنها.

وواضح من ذلك أن الدكتور يحدد مجال العمل للمرأة في دائرة الأسرة أولاً، وما زاد على ذلك فلا يحسن إلّا إذا أخذت الأسرة من المرأة كل حقوقها، وبقي فراغ يسمح للترف العقلي، لا للاندماج في أعمال المصانع الكادحة، والأسواق الصاخبة.

وقد ألقى الدكتور (منصور) عدة محاضرات عن فضليات من ذوات الفكر المعاصر ممن نضجن في شؤون من مسائل الأدب والشعر والثقافة، ويَعُدْنَ في الوقت نفسه عن مزاحمة الرجل في مرهقات العيش ومكاسب الكدح، وهؤلاء هنّ: عائشة التيمورية الشاعرة الأدبية، ووردة اليازجي اللبنانية، وباحثة البادية ذات الصيت المدوّي ببحوثها المعتدلة عن المرأة المعاصرة، ثم الأدبية الشهيرة (مي زيادة) وهي الرمز الأعلى للثقافة المعاصرة والتصون الاجتماعي؛ وقد جُمعت هذه المحاضرات في كتاب أصدره المعهد العالي للدراسات العربية، حيث قام الدكتور بإلقائها على فريق من الطلبة والطالبات، وكأنّ المؤلف أراد ألا يكون نظرياً في بحوثه عن المرأة، فاندفع إلى اختيار نماذج مشرّفة تكون تطبيقاً عملياً لما يُريده من المرأة في ترفها الأدبي، ورقّيتها الفكري، مستشهداً بنماذج مختارة من أقوال هؤلاء المفكرات ذوات الرقي الأدبي المشهود.

هذا عن المرأة، أما الشبابُ من الفتيان فقد كان لمنصور فهمي جولات صائبة

في توجيهه، ومن ذلك ما تفرّد به بين مبعوثي فرنسا من النعي على الحضارة الغربية إذ قذفت الشباب الأوروبي في تيه مظلم، لا يدرون به بصيصاً من ضياء، فحين كان الأساتذة أحمد الصاوي، وزكي مبارك، ومحمود عزمي، وطه حسين يشيدون بأنماط خادعة من الحضارة الفرنسية، ويحاولون أن يتحدثوا في ذكرياتهم عن باريس بما يجعل ناسها موضع السمو المدني، وبما يدعّو إلى احتذائهم في الشرق العربي إذا أراد شبابُه النهوض، في حين ذلك وقف الدكتور منصور فهمي بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية يعلن الحقيقة السافرة في قوله^(١):

«لقد نشأ الشباب الحاضر في فترة من الزمن تمتد بين حربين عالميتين، وتصطبغ بشّر المنازع للنفوس الأمانة بالسوء، وتنجلّى فيها مساوئ الحياة المادية والآلية، وتبدو عليها متاعب الأنانية والجشع، وتلوّح منها مكاره المخادعة والعناد، وتلتزمها مخازي التحلل من القيود الأدبية، وتظهر فيها مخاطر الانحراف عن المنطق السليم، وتكتنفها مهازل الركون إلى النظم المنهارة البالية، مما انتهى إلى تباين الحظوظ من مغام هذه الحياة، وتنافر بين الشعوب والطبقات، وتباغض وتناحر بلا هوادة ولا رحمة، ولو ذهبنا نستعرض ناشئة العالم المتحضر لوجدنا في بعض بلاد الغرب شباباً ترعرع في أجواء مستتمة من أثر الجدل والأحقاد والغرور، مما كان له أثره الواضح في الانقلابات والثورات، والأزمات، وحدث هذه الحرب الدامية!

هذا في أوروبا، وعلى الشباب العربي إذن أن يتأمل ذلك المصير جيداً، وأن يبحث عن مخرج آمن يُنجمه من ويلات هؤلاء الذين عدّهم مصدر الرّغد والحضارة فزلزلوا الأرض بأطماعهم، وضربوا المدن الآمنة في الشرق وساكنتها بالقنابل المحرقة، وليس لهم في هذا الصراع ناقة ولا جمل! وهذا المخرج كما حدده الدكتور منصور فهمي ينحصر في التدين الصحيح الذي يسن الخلق الفاضل، ويدعو إلى الصراط القويم؛ يقول الباحث^(٢):

«وإني حين أعفي نفسي من الإسهاب في تفاصيل الأخلاق الكريمة، وبسط جزئياتها الرائعة، أقرّر بأن التدين الصحيح هو أفضل رائد للوصول إلى الأخلاق الرفيعة، وذلك لأنّ الديانات على اختلافها قد أجمعت على تقديس الأخلاق

(١) الرسالة - العدد ٤٣٩ - ١٢/١ - ١٩٤١ م.

(٢) الرسالة العدد ٤٣٩ - ١٢/١ - ١٩٤١ م.

الأساسية التي كانت أهدافاً للإنسانية مع تتابع العصور، وإن التدبّر الصحيح إذا استحالَ في عناصر الدم دماً، وفي عناصر الأعصاب عصباً، وعلى الجملة في عناصر النفس الناطقة رُوحاً وقيناً وإيماناً فإن أفعال الناس جميعها تستقر على الخير، وتدور في دوائر الحق، وتسرح في ميادين الجمال».

وفي بسطٍ لمنزلة الأخلاق الدينية في النفوس شرحَ الباحث معاني الكرامة الإنسانية، ورقابة الضمير على ما يأتي صاحبه ويدع، وأثر النيات في الحكم على الأعمال، ثم ختم محاضراته بقول الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وإذا كانت منابر المحاضرة لدى الدكتور منصور فهمي قد تعددت في القاهرة حتى شملت أكثر الأندية الثقافية فإن ساحةً جمعية (الشبان المسلمين) قد سعدت من بين هذه المنابر بنفحاتٍ طيبة تسري بعطر الإيمان، وإذا كان المتحدثون في الليلة الواحدة أكثر من متحدث، فإن حديث منصور فهمي كان يتميز بطرافة نادرة تجذب السامعين، حتى في الذكريات المتكررة سنوياً كالهجرة والمولد النبوي؛ هذه الذكريات أشبعها المتحدثون تحليلاً بما جعل أكثر ما يقال بها يلوح وكأنه حديث معاد، ولكن الدكتور منصور ينأى عن الشائع المتداول فيفاجئ السامع بما يبهجه ويرضيه؛ ففي إحدى احتفالات الجمعية بذكرى المولد النبوي الشريف سنة ١٣٦٠هـ خطب المتحدثون فأطالوا، وتحذت كل فاضل بما اهتدى إليه من حقائق تدور في فلك هذه الذكرى الشريفة، وتحذت الدكتور منصور فجاء بما نجعله خاتمة الحديث عنه، حيث قال:

«إذا صحَّ لأهل الفلسفة والتاريخ عند ذكر سقراط أن يقولوا إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض يعنونَ بذلك أن وجهة العلم قد غيرَها هذا الفيلسوف، إذ كانت مقصورة على البحث في حقائق الهيئة والنجوم والأفلاك، فحولها إلى البحث عن حقائق الإنسان ونفسيته ومسلكه، كذلك يصح لمؤرخي الديانات أن يذكروا ذلك الحدث العظيم حين حوّل محمد بن عبد الله معاملات الناس في الدنيا ومعاشهم الجارية فيها، فرفعها من خفضها الأرضي، ووجه مساقها الديني وجهه دينية عالية، فجعل في شتى معاملات الناس بعضهم بعضاً صلةً بالتعبد والتقوى، وجعل في شتى مساعيهم ومكاسبهم جوانب ترتبط بأوامر الله حين يُحبّب لعباده ابتغاء

الأحسن فيما يعملون، وبذلك رفع محمد ﷺ أديم الأرض إلى وجه السماء». وبعد أن ذكر الدكتور آية البر الكريمة، وأحاديث الأخوة الإسلامية، عَقَّبَ عليها بقوله:

«فأي نقلة في توجيه الحياة أعلى من تلك النقطة التي تُؤخذ فيها أنواع المعاملات في شتى الشؤون لتكون ركناً ركيناً في دين الله، وأي تغيير في فلسفة المعاملة أرقى من ذلك الذي يفرغها في قالب من قوالب العقيدة، فتجري السفينة بين شاطئين من خوف الله ورجائه، وبذلك أصبحت الأعمال البشرية كلما قربت من هذه المثل العليا رقيت إلى ملكوت الله، فمن كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه».

لقد كان المجتمع المصري في حاجة إلى باحث مستنير، يرشده إلى الصميم من لباب الأخلاق الإسلامية، رافعاً إياها على ما عرف من أمشاج نصحت بها شتى الفلسفات! وكان هذا الباحث هو المفكر المتشد الدكتور منصور فهمي رحمه الله!

* * *

الدكتور نجيب الكيلاني

قصاص مكتمل الأدوات

من توفيق الله للدكتور نجيب الكيلاني أنه عرف طريقه الصحيح منذ نشأته الأولى، فقد وُلِدَ في قرية ريفيّة بمحافظة طنطا، التي تهتم بأمور الدين، وتحُرِّص على تقاليده الحميدة في السلوك، وحين التحق بالمدرسة الابتدائية كانت دروس الدين والتاريخ الإسلامي حبيبةً له، ودفعه هذا الحب إلى القراءة في الكتب قدر ما يستطيع، فَوَعَى من أساليب اللغة العربية بهذه القراءة أكثر مما وَعَى من دروس القواعد، وانضم إلى لجنة الخطابة بالمدرسة، فكانَ أظهرَ عضوٍ بين التلاميذ، والتفوق في مادةٍ واحدة يدلّ على استعدادٍ للتفوق في مواد الدراسة، فُهِلَ عليه أن يحرر السبق في المدارس جميعها.

وحين انتقل إلى طنطا في المدرسة الثانوية وَجَدَهَا ذاتَ رُوح ديني متوثّب، فالصلاة في المساجد، أتم وأكمل من مثيلاتها في المدن، ولا يزالُ المثقفون بها يذكرون أديب طنطا الكبير مصطفى صادق الرافعي، ويطلقون اسمه على شارع كبير فيها، ويسألُ الطالب الناشئ عن مصطفى صادق الرافعي هذا الذي يتحدث عنه أساتذة اللغة العربية داخلَ المدرسة، ومن يلقاهم من المثقفين خارجها، فيعلم أنه كانَ حجةَ العرب في بيانه الأدبي، وفارسَ الدفاع عن الإسلام في وجوه منابذه، ويتساءلُ عن مؤلفاته فيجد (وحي القلم) بأجزائه الثلاثة، وأسلوبه أرفع من مستوى طالب الثانوية مهما كان ذا سبق جهير، ولكنّ اتّصاف الرافعي بأنه حجة العرب وفارسُ الحومة في الدفاع عن الإسلام قد حَبَّبه إلى نفسه، فأخذ يقرأ القصص التاريخية في وحي القلم، يفهم منها ما يفهم، ويَجَلّ عن فهمه ما يجَلّ، ولكنّ الذي فهمه قد وجهه إلى هذا اللون الأدبي من صناعة التاريخ، وإلى الشغف بأعلام الإسلام وأبطاله، مع إدراك الحقائق العالية عن فرائض الإسلام وأخلاقه الرفيعة.

ثم انضم إلى رفاقه من شباب جمعية (الإخوان المسلمين)، وهُنا عرف أول ما عرف أن الإسلام وطنٌ واحد، وأن هموم المسلمين في شتى بقاع الأرض النائية هي هموم كل مسلم في وطنه، وأنه لا خلاص للأمة الإسلامية إلا بالرجوع إلى عهدِها الزاهر في صدر الإسلام، وبذلك قد انفسح أمامه طريقان واسعان؛ طريقُ الزمن الذي يجب أن يعيه جيداً فيعرف تاريخ الإسلام منذ نشأ في عصوره المختلفة حتى يومه الذي يعيش فيه، وطريقُ المكان في كل أنحاء الأرض متصفحاً أحوال الأمم الإسلامية عربية وغير عربية .

لقد عَرَف الشاب طريقه الهادف منذ اللحظة التي تفتَح فيه قلبه إلى خدمة دينه الحنيف، فهو مطالبٌ بأن يكون لساناً قوياً من ألسنة الإسلام، لساناً يعي صفحات التاريخ الممتدة ليأخذَ منها الحافز في أدوار الارتفاع، والدافع الثائر على أدوار الانحدار، وقراءة التاريخ بهذا الاعتبار لم تعد لإنماء الثقافة وحدها، بل صارت هوى غالباً لا يصبر على انقطاعه، ومع الهوى الغلاب استطاع أن يعرف من الشخصيات والوقائع، والثورات والانتصارات والهزائم ما كان زادَ حياته، ومصدر إلهامه .

ثم هناك الناحية الأخرى التي غفل عنها الكثيرون من رفاقه حين اهتموا بأحوال المصريين في بلدهم، فإذا طمحو إلى الكثير تلقفوا الأبناء عن أحوال العرب، واقتنعوا بذلك على أنه غاية ما يمكن أن يطمح إليه المتطلعون، ولكن نجيباً قد علم أن الأمة الإسلامية في أندونيسيا والهند والصين وإيران والترك ونيجريا وأفريقيا جسدٌ واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى كما يقول نبي الإسلام، ومن ثم فإن قراءة التاريخ العربي لا تكفي، بل لا بد من الوقوف على تواريخ هذه الأمم جميعها، وقد وجد في قراءته الكثيرة لمقالات محب الدين الخطيب، وشكيب أرسلان، وعلي الطنطاوي وأحمد حسن الزيات وعبد الوهاب عزام ما جعله يطمئن إلى فهمه هذا كل الاطمئنان، وكم كان يطربه أن يستعيد من الشاعر الكبير أحمد محرم قوله :

وارحمنا للمسلمين تفرقوا	وتباعدوا في الأرض بعد تداني
فلئن بكيتُ فقد وجدت مصابهم	في منكبي وجوانحي وجناني
من كان أبصر خطبهم فأنا الذي	مارسته ولمسته بيناني

ما زلتُ أجمع بالفريض شتاتهم حتى انقضى أدبي وضاع بيانني
وإذا كان الرافعي في أسلوبه الأدبي نسيح وحده، وما من سبيل إلى محاكاته،
فإن نجيب الكيلاني، قد وَجَدَ من يسير على دربه دون تعمق في البيان أو تغلغل في
المعاني، وَجَدَ الكاتب القصّاص الشاعر علي أحمد باكثير يصدر (سلامة القس)
(وإسلاماه)، ويهتم بطرائف مجيدة من التاريخ الإسلامي يُبدعها على أجمل
منوال، وَجَدَ (باكثير) مثلاً في حبه للإسلام، وعمله على استنهاض النفوس عن
طريق القصص الديني، فأكَبَ على قراءته مستلهماً، وجعل يترقب ما ينشر في
المجلات الأدبية من هذا اللون ليشربه شرباً، إذ كانت مجلات الرسالة والثقافة
والأنصار والفتح تُصدر الأعداد الخاصة بالذكريات الإسلامية، وفي كل عدد قصص
تصور البطولة الإسلامية في القديم والحديث بأسلوب زاهٍ مشرق، فالرواية الطويلة
تمتعه في نتاج (باكثير) وفي نتاج (محمد فريد أبو حديد) الذي تحدث عن التاريخ
العربي حديثاً رائعاً لم يرتفع إلى مستواه أحدٌ من النظراء، وكذلك في نتاج (عبد الحميد
السحار) على اختلاف في الطبقة الفنية بين كل قاص وقاص، لأن الله لم يجعل
الناس نمطاً واحداً في التعبير.

لقد عشق نجيب القصة التاريخية بما قرأ عن هؤلاء، ولكنه كان موزعاً الأهواء
الأدبية، لأن ملكته لم تنحصر في فن واحد، لقد قرأ كثيراً في كتب النقد الأدبي
واستراح إلى مذهب رأى أن يدعو إليه، فليكتب في إيضاح مذهبه، وليكن رائداً فيما
يكتب عن الأدب الإسلامي وكيف يكون! كما استراح إلى التحليل الشعري ببعض
الروائع الهادفة من القصائد الموحية، وإذا كان لأحمد شوقي إسلامياته الرائعة، فلا
بد أن يقف أمامها وأن يُصدر كتاباً يصور انطباعه نحو العاطفة الدينية لدى أمير
الشعراء.

وكانت أصداً تتوالى من الباكستان عن محمد إقبال الشاعر الإسلامي الكبير،
هذا الذي استطاع أن يلهب الحماسة في الصدور، حتى جمع قومه على ضرورة
إنشاء وطن مستقل هو الباكستان! أين يجد إقبال؟ لقد قرأ كل المترجمات التي نقلت
شعره إلى العربية ووجد بها مذاقاً خاصاً يخالف منحي شوقي، مذاق التصوف
الحالم المرفرف في أجواء عالية من التفكير الإنساني!.

والتصوف لدى إقبال مصدر قوة لا مصدر ضعف، لأنه يدفع النفوس إلى الجذل

والكفاح حتى تتبوأ مقاعد المصلحين من قمم الإنسانية الشوامخ، أديبٌ حسّاس مثل نجيب لا بدّ أن يسطر خواطره نحو إقبال، فاستوعبَ تاريخه، وقرأ كلّ ما عثر عليه من قصائده، وأصدر كتاباً موجهاً حيّاً، لأنه كتبه بروح المندفع الطموح، الذي يسوّقه إقبال العظيم إلى مشارق النور، فيصعدُ إلى الضوء الأعلى في عزة واشتياق!

وهكذا نظر نجيب الكيلاني فوجدَ نفسه كاتباً ناقداً محلّلاً دون أن يجبر قلمه على اعتماد، إذ أن عواطفه كانت دافعه الأوّل إلى تمجيد من يرى تمجيده من ذوي الإلهام، ويخيّلُ إليّ أن أعباء الحياة بما ألقته على كاهل هذا الأديب الناهض قد صرفته عن أكثر ما يريد في هذا المجال، فلا بدّ أنّه كان يتمنى أن يدرس وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي، وإليّاذة مجد الإسلام للشاعر الكبير أحمد محرم، ولكن «ما كل ما يتمنى المرء يدركه».

أما الذي صهرَ نفسه حقّاً، وطهرها من كلّ إحساس دنيوي عابث، فهي محنة السّجن الرهيبة، إذ قُضي عليه أن يعيش خلف الأسوار عشر سنوات في فترتين متقاربتين، وعشرة سنوات من أجمل سنوات العمر وأزهرها قد تزمي المسجون بالشلل التّام بعدها فيصبح إنساناً آلياً، يعيش على ظهر الحياة ضائعاً تائهاً فقد المبالاة ويش من الغد كما عُدّب بالأمس، بل لحاذر أن يفعل ما يُنبئ عن ذنب يجزه إلى الحبس من جديد، والذنب المحظور - هو الدعوة إلى الله، والسير في طريق الجهاد - لدى من أعمتهم الشهوات، وظنّوا أنهم سيملكون الكون إلى الأبد... ثم عصفت العاصفة فإذا هم جيفٌ تُدفن في الأرض، وذكرى تبصق عليها الأفواه.

ولكنّ إنساناً عامر القلب بالإيمان، شديد اليقين بعدالة السماء لا بدّ أن يكون سجنه بركةً ونعمة على يقينه المؤمن، وقديماً دخل يوسف نبي الله السجن مظلوماً، فوجدها مناسبة لنشر دينه القيم فأخذ يصيح بصاحبيه قائلاً: ﴿يَصْدَحِي السَّجْنَاءُ رَبَّابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٢٥﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ آمَرَ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

كان من رحمة الله على (نجيب) في السجن أنّه بعد عام منه قد أخلد إلى السكينة المؤمنة، وعكف على القراءة الهادية، ولكل أخ من إخوانه زائر يأتيه بالكتاب

الهادف على فترات، ولن تكون كتب الإخوان إلّا نوراً يثبت القلوب، ويمدّ الأرواح بزاد لا ينفد.

وقصةُ سجنه قد كتبها في روايته الرائعة (رحلة إلى الله)، ولا أستطيعُ الحديث عنها لأنني قرأتها قراءة متقطعة تحتَ عوامل شاقة كانت تحولُ بيني وبين الاسترسال، إذ لم تتحمل نفسي رهبة ما أقرأ، وهذا وأنا على الشاطئ، فكيف بمن كان في الخضم المتلاطم يغشى الهول وترميه اللجج في ظلمات بعضها فوق بعض! وقد اطمأننتُ إلى أن السجن كان بالنسبة إليه مدرسةً أدبية ممتازة زادته إيماناً و يقيناً.

وقد تحدث في صفحات الكتاب عن مؤلّف جيد للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد هو كتاب (الإسلام في القرن العشرين)^(١) فقال عن صاحبه (نبيلة) إنّها كانت مشدودةً بقوة إلى تلك الصفحات التي يتحدّث فيها الكاتب الكبير عن الإسلام كقوة غالبية، قوة صامدة تصور ثبات الإسلام أمام تيارات العداء العالمي والتاريخي، وازدياد أنصاره برغم ذلك.

وإذا كان الحديث عن غيره في الرواية، فإنّه بلا شك بعض أفكاره التي وزعها في الحوار والسرد على شخصيات أكثرها من إبداعه الفني، وكأنّ الله عز وجل شاء أن يمدّه بثقة في نفسه، فقد كتّب قصة تاريخية تتحدّث عن فترة مظلمة من فترات مصر القريبة حين حُورب الدستور، ووثدت الحريات، وتقدّم بها لبعض المسابقات الأدبية، ففازت فوزاً عظيماً، وطُبعت على مدى فسيح، حيثُ قرّرت على الطلاب في مدارس مصر، وهو نجاح يشرب إليه قاصٌّ قضى نصف قرن في الإنتاج فلا يتأله، وإذا ناله فعلاً أحس برضا من بذل نصف قرن في الجهاد حتى صار اسمه يملأ أذهان الطلاب، وهم طلائعُ الغد، وكانَ هذا النجاح أكبر حافز لنجيب كي يواصل السير في اتجاهه المُفيد.

وأكثرُ القصّاص في مصر يجذّون الرواج لرواياتهم عن طريق الجنس، ومواقف الانحرافات، وبعضهم تأتيه الشهرة الفنية لاستخفافه بالقيم، ولكنّ الشهرة المؤقتة لا تلبثُ أن تخبو، والريحُ الكثير يضيع في مهب النزوات فلا يبقى منه شيء، أما

(١) رحلة إلى الله، ص ٣٢٢.

القصاصُ الهادف، فكتابه منشورٌ خالداً يقرؤه الناس مستروحين نساءً الأمل والثقة..

وإذا كانَ النجاحُ يبعثُ على النجاح فقد أذنت الأيامُ بمناسبةٍ أخرى لفوزٍ جديد، حيثُ أعلنتُ مسابقةً أدبيةً كبرى لقصة تصور كفاح المنصورة أمام الصليبيين في عهد الصالح أيوب، وموضوعُ القصة مما يُذكي مشاعر الأديب الناشئ فبقي التاريخ الإسلامي يملأُ رثبه، وعظمةُ الإسلام التي قهرت كلَّ اعتداءٍ ترنح من عطفه، وهكذا أقدم على تأليف قصة (اليوم الموعود). أقدم على التأليف أستاذاً في فنه، يعرفُ كيف ينسج القصص التاريخي على نحو يجمع بين فنية القصة، وصدق التاريخ، وقد قلتُ إنه أقدم على تأليف (اليوم الموعود)، وهو أستاذٌ في فنه لأنه كُتب للقصة مقدمةٌ رائعة، تنبأتُ بمستقبله الآتي، حين أصدر الكتب النقدية متحدثاً عن رسالة الأدب في الحياة، وعن وظيفة الأدب الإسلامي في التوجيه والبعث الصحيح حتى بلغت ثمانية كتب! ليست كتاباً أو كتابين إنما هي ثمانية، كلها حشد غير مزدحم لأدق النظريات الأدبية، حشد الأديب الفنان الذي لا ينسى شفافية الأسلوب في مُتلاطم النظريات ومشتجر الآراء، أما بعض ما ذكره في مقدمة (اليوم الموعود) فهو قوله في مقدمة القصة تحت عنوان (أضواء على القصة):

«القصة بمفهومها الدقيق فنٌّ، والتاريخ علم، والفن الحقيقي هو مزيجٌ من التعبير الناجح الذي يضم بين ثناياه أفكاراً حية ناضجة تتسم بالإيجابية المجدبة، ومن هنا كانت القصة عملاً أدبياً ثرياً، يحتاج لمزيد من الدقة والبراعة، لأنَّ التاريخ يمدّها بالوقائع الثابتة، ويفرض عليها رُوحه وأجواءه الخاصة. وصياغة التاريخ في قصةٍ تخرج به عن كونه علماً جافاً، وتُدرجه في باب الفن الذي يُمتنع ويثير، ولهذا فإن المزيج الناتج من خلط الوقائع التاريخية، بالقواعد القصصية مزيجٌ يحتاج إلى دقة الصبغ ويقلته، وإلا تحولت القصة إلى كتاب تاريخ، أو على النقيض من ذلك، أغني تشويه الحقائق التاريخية والعبث بها».

وبهذا المنطق أخذَ القاص الواعد ينسج على نوله الجيد قصص الحياة من تاريخية في الزمن الغابر، ومعاصرة تُسجل أحداث الإسلام في هذا العصر، وأقولُ أحداث الإسلام عن قصد، لأنَّ الذين يتبعون نهج المستشرقين يجعلون تاريخ الإسلام يقف عند الحملة الفرنسية في مصر، ويُعدّون ما بعدها «تاريخ العصر

الحديث» وفي ذلك إحياء بانفصال أحداث العصر الراهن عن تاريخ الإسلام، وهو إحياء مشبوه - وقد كررتُ هذا المعنى من قبل - ولكنني ألتمس كل مناسبة لتكراره كي يرسخ في الأذهان، والكُتب الدراسية في مدارس العالم العربي، قد آمنت بهذا الانفصال الشاذ، وجعلت تَقْفُ بتاريخ الإسلام عند قدوم الحملة، ولكنها في الوقت نفسه تضطّرُّ إلى تسجيل مواقف المناهضين للاستعمار وكلّهم يستظل بعباءة الإسلام فتكونُ أول هادمة لما تتخذ من مناهج.

وفي ضوء هذا الشمول اتجه نتاج (نجيب الكيلاني) الغني إلى كلِّ عصر من العصور سابقة وحاضرة، كذلك اتجه إلى الأمكنة البعيدة من ديار الإسلام في أقصى الشرق وفي جنوب أفريقيا، ولو امتدَّ به الأجلُ لصوّر مأساة البوسنة والهرسك في قصّة دامية، فمثله لا يغفل عن إخوانه المعذبين في قارةٍ تدّعي الحرية والإخاء والمساواة، وهي بتصرفها الشائن لا تحب هذه المبادئ إلا لأبناء ملتها فحسب، أما الآخرون فلهم الإبادة والاستئصال.

وحينَ أختار من كل عصر ما يمثله من الإبداع الفني لدى القصاص الأديب، أجدُ في عصر النبوة قصتين أحرارُ في اختيار إحداهما، فلدينا قصّة (نور الله) وتحدّث عن نشأة الإسلام في مكة، ثم انتقاله إلى المدينة، ملقمةً بإسلام عمر وغزوات الرسول، وكيد اليهود، والأحداث ذائعةٌ مشتهرة، ولكن حديث النفس في تصوير الخلجات، قد كان مما يقربها إلى العمل الأدبي، على وجه محدود إذا قورنت برواية (قاتل حمزة)، إذ أنّ اتساع الشقة نسبياً في أحداث (نور الله) قد جعل التاريخ يكادُ يطغى على الفنّ، وللكتاب في رأيي عُذره، لأنّ أحداث النشأة الأولى للإسلام من الاحتشاد والتراحم بحيث تجعل الكاتب يأسف على مواقف كثيرة هامة، يريد أن يلم بها فتضيق الحبكة الروائية عن الاستيعاب، وقد أبدع شخصيةً خياليةً يهودية من بني قينقاع كانت ذات لهو وابتذال في ما قبل البعثة، ثم لما أشرق نور الإسلام أخذت بحكم صلاتها بزعماء قريش من ناحية وسادة اليهود من ناحية أخرى، تعرف المرامي الخفية والبعيدة للفريقين، وقد مالت إلى الإسلام عن ذكاء، إذ رأت في سير الدعوة الإسلامية ما ينبي عن طهارتها.

وقد يستغرب الإنسان أن تُفكر مُذنبه خاطئة في الطهارة الشريفة، ولكن ذلك عند التأمل الطبيعي سليم منطقي لا غرابة فيه، فالكثير من المذنبين لا يرضون عن

أنفسهم، وهم يتناولون الموبقات، ويشعرون بتيار من الندم يأخذُ عليهم سبيل الاستقرار، ثم يرتكسون مضطربين فيما ندموا عليه، فإذا عَرَفْنَا أن اليهودية بعد زلاتها الموبقة قد فاءت إلى الحق، فذلك امتدادٌ لندم استمرَّ خافياً ثم اشتدَّ صوته فلجأ إلى الإعلان.

أما ما أخذه على المؤلف فهو تسرعه بالقول عن علاقة بين اليهودية وعمر قبل الإسلام، وأنا لا أنزه عمر قبل الإسلام فهو بشر يخطئ ويصيب، ولكن منطق الواقع يأبى هذه العلاقة فعلاً، فعمراً جاداً ملتزم غيور في جاهليته، بعيدٌ عن الدنيا، ولم يتحدث أحدٌ من مؤرخيه عن سابقة له في الإثم!

هذا عن قصة (نور الله) وهي في مرتبة فنية دون قصة (قاتل حمزة) وذلك لشيء هام، هو أن الحدث التاريخي محصورٌ في نطاق شخص لا في عدة أشخاص، نعم لهذا الشخص علاقاته بالسادة والعبيد ومجتمعه الجاهلي، ولكنه نقطة الارتكاز في الرواية تلتفّ الخيوط بعد امتدادها السريع لتتجمع ثانية حوله.

وقد أحسن الكاتب بالرحمة على حبشي فصوره في جاهليته عبداً مأموراً لا يعرف معاني العزة والحرية، وهكذا كان! وما كان لمثله في عبوديته ونظره إلى سادته باعتبارهم المثل الأعلى في عينه، ما كان لمثله أن يفكر في بوارق الإيمان ولوامع الشرف الحقيقي، لأن ذلك كله بعيدٌ عن مستواه، وقد أحسن بوضاعة نفسه فأراد أن يثبت بين أقرانه ما يجعله صاحب امتياز، ولكن كيف؟ إنه يفكر كثيراً في خلواته الغاضبة في أمره، لا سيما وقد شعر بحرارة الحب نحو أمةٍ لسيده تُجاوره في عمله؟ وحين وثقت من شعوره جعلت تسائله عن الحب وأمل المستقبل، فصاح صنيحة الغاضب الموتور: أي حب؟ لو علم سيدنا بما نتحدث عنه لسحق أحلامنا، وفرّ منا إلى الأبد؟ فقالت له: إن سيدهما هو الذي يطعمهما ويكسوهما؟ فنارَ عليها ثورة عنيفة، وكانت الأمة تسمع حديث الدعوة الجديدة فبشرت وحشياً بها، ولكنه لضيق أفقه، وانخفاض مستواه، لم يكن ليُدري شيئاً عن هداية السماء، فانفجر فيها، وهكذا أخذت الشُّقَّة تتباعد بين الحبيين شيئاً فشيئاً لاختلاف المثل وتباين الأهواء.

وكان (الكيلاني) رائع الخيال في تصوير كل ما يدور بخلد هذا المتمنر الغضوب؟ ومن أبرع ما وُفق إليه في ذلك تصوير خواطره الحاقدة حين سمع من جاءت تُحمسه كي يغتال حمزة، وينال حرّيته، إنها قالت له: لقد قُتل حمزة ولدي

وأبي وأخي فلا بدّ من الانتقام، استمع وحشي إلى هذه الحسرة الكاوية في نفس إحدى السيدات المترفات عن أمثاله، فجعل ينظر إليها بعين الاحتقار، ويقولُ في نفسه: إنكم أيها السادة صرعى الغباء والغرور، أنتم عبيدٌ في الباطن، لأنكم لا تنهضون لثأر، ولو كانت الأقدار تجري على المنطق لكنتُ أنا سيدكم، فأنا غيورٌ وذو كرامة! ما أبو جهلٌ وعتبة وشعبة ممن قُتلوا إلا بعضُ الجيف! وكانوا قذى في عيوننا.

وتمرّ الأحداث وينال وحشي حريته، ولكن هل استمتع بها؟ لقد كان يظن أنه سيصبح سيّداً وسيقدم إليه الناس فخورين يبطولته، ولكنه لمس أنه لا يزال في نظرهم لم يَبْرَحْ مستواه، وإن نال حريته، لا يجلس مجالس السادة ولا ينعمُ بما ينعمون به من ثراء وحسب وافتخار، حتى أنه دخل دار سيده مرّة، فصاح به: مَنْ علّمك أن تدخل الدار دون استئذان، فقال في تواضع: ألسْتُ حراً، فصاح السيد بعبيده: اقدفوا به خارج البيت، فتضاءل وحشي أمام سخريّة المشاهدين وقال في انكسار: سيدي لم تزل الدار داري، فأنا بالأمس غلامك، وسأظلّ طيلة عمري في خدمتك، لقد ساقني الولاء والحنين إليك فأتيت، كنتُ أريد أن أوي إلى مكاني لديك، فلماذا يحرمني سيدي من ذلك، ففقهه السيد وقال: لا بأس، اذهب واقض الليل مع رفاقك القدامى!

يقول القاص: «كَانَ وحشي في داخل ذاته يتفجر غيظاً وحنقاً، بل تمنّى في تلك اللحظات أن ينقضّ على عُنق سيده جبير ويقضي عليه بيديه المتخشبتين ولا يتركه إلا جثة هامدة».

وتسيرُ القصة إلى نهايتها حتى يأتي الفتح فيسلم وحشي بعد صراع، ويسمعُ قول الرسول ﷺ: غَيَّبَ عني وجهك، ثم يلحقه الندم، ويرى في حُرُوب الردة مجالاً للتكفير، فيصمّم على قتل مسيلمة ليكون ذلك كفارةً عن مصرع حمزة! لقد عبّرتِ القصة البارعة عن فترة حاسمة من فترات الدعوة النبوية الكريمة، وهي بمقارنتها بقصة (نور الله) تعطي مدلولاً فنياً خالصاً، هو أن العبرة في قوة القصة ليست بتوالي الأحداث، وتعدد المشاهد، ولكنها باختيار موقف محدد ذي معنى، وشخص محدد ذي دلالة، وهنا يدورُ الفن في نطاقه الأدبي المستريح، حيث تجتمع الأضواء لتسلط على وجهٍ وحادثٍ لا أن تتفرّق الأشعة فلا تلوح الملامح إلا بقدر ضئيل.

هذا بعض ما يقال عن قصص العصر النبوي، وننتقل منه إلى ماجد في العصور اللاحقة من أحداث دعت إلى إبرازها إبرازاً فنياً، وأظهر ما يلوح لنا في هذا النطاق ما كتبه نجيب الكيلاني عن التتار وعن الصليبيين، ونختار مسرحية (على أسوار دمشق) للحديث عن التتار، حيث أظهر المؤلف معركة التتار لدمشق في عهد الإمام ابن تيمية إبرازاً يؤكد بها مضمونها البعيد في النفوس، لأنَّ حديث هذه المعركة قد تضاعف جوار حديث معركة التتار في عين جالوت، فأصبح المتحدثون عن هؤلاء المُنْدفعين إلى النهب الغاصب دُون مبدأ يذودون عنه يرون في معركة عين جالوت المثال الشاهد.

ولعل هزيمة التتار لأول مرة على يد الجيش الإسلامي في هذه الموقعة، وردَّهم على أعقابهم مدحورين كانت ذات صدَى تضاعف بعده ما كان من هزيمتهم على أسوار دمشق، مع فارق هام، هو أن القراءة في المعركة الأولى كانوا كُفَّاراً لا يدينون بدين سماويّ، فهم أعداء للحضارات الدينية جميعها، وفي طليعتها حضارة الإسلام، وكان ظفرهم الممتد منذ قذفت بهم الظروف إلى اجتياح الدولة الخوارزمية وما تلاها يُلقي الرعب في النفوس بحيث أصبحوا معجزة حربية لا تقاوم.

وقد أفلح الأستاذ علي باكثير في تصوير معركة عين جالوت تصويراً رائعاً في قصته الشهيرة (وا إسلاماه)، وبقينا أن نجيب الكيلاني قد وقف عندها طويلاً، واستلهم منها كثيراً من الخلجات الدينية ذات المضمون الرائع الذي يُعتبر أهم أدوات النصر، أضف إلى ذلك أنَّ التتار الذين يتحدث عنهم الكيلاني في مسرحية (على أسوار دمشق) لم يكونوا كفاراً بل كانوا مسلمين يشهدون بالتوحيد والنبوة المحمدية، وإن أتوا كلَّ ما يُخالف إرشادات الإسلام، وهم من هذه الناحية الدينية قد يخدعون بعض الأغرار، فيتساءلون: لماذا يُقاتل المسلمون المسلمين؟! وهذا ما دارت المسرحية على تفسيره، إذ قام بطل المسرحية ابن تيمية وهو أشهر إمام ديني في عصره بتعرية هذا الادعاء الكاذب، لأنَّ الانتساب للإسلام لا يتحقق بالقول دون العمل، وأبناء (جنكيزخان) و(هولاكو) و(تيمورلنك) لا يزال من اعتنق الإسلام منهم على جاهليته الجاهلة، وإذا أردت أن تعرف الجرأة لدى الحق عند علماء الإسلام فاقراً شاهداً منها في هذه المسرحية، كما تقرأ شاهداً مماثلاً في قصة

(وا إسلاماه) للعز بن عبد السلام، فكأن التاريخ قد امتد حتى عهد (قازان) حين أتى بهذه الصورة الجديدة للإمام مشابهة صورة العزّ الماضية، وهو تشابه حقيقي غير مستغرب، لأن الفقيه المسلم إذا فهم رُوح الإسلام كما فهمها العزّ وابن تيمية، تحتم وجوده في كل عصر.

ولا أزيدك بالإسلام معرفة كل المروءة في الإسلام والحب

وتأتي موازنة أخرى بين (باكثير) و(الكيلاني) في موضوع واحد هو قصّة الاعتداء الصليبي على المنصورة، حيث تسابق الكاتبان علي أحمد باكثير ونجيب الكيلاني في مباراة أدبية خصصت لهذه الملحمة، فأتى كلّ منهما بما كتب له الفوز، وقُذِرَت الروايتان معاً كما قرّر غيرهما على طلاب المدارس، وقد كان (باكثير) في أوج ازدهاره حين كتب روايته الرائعة، وكان الشاب الناشئ (الكيلاني) لا يزال في أول الطريق، ولكن المسألة مسألة رُوح واتجاه، والروح الإسلامي لدى الكاتبين كان من التفاد بل من الاشتعال الحماسي بحيث أوحى لهما ما دفع بروايتيهما إلى سجل الخلود، فقرأهما الجمهور معجباً مكبراً، ودّعك ممّن حاول أن يقول إن الروح الإسلامي في الروايتين قد تغلب على الروح الفني، فهي شنشنة مريضة نعهدا لدى قوم يحاولون أن يصدوا الناس عن طريق النضال الباسل، ولايجرؤون أن يكشفوا عن خبايا نفوسهم المريضة، فيتعلّلون بالفن واصطلاحاته، وأبسط ردّ على هؤلاء، هو أن نقول إن القصتين قد فازتا في مسابقة المجلس الأعلى، والحُكّام عدول، وللقراء عقول، ولن يصحّ غير الصحيح.

أراني قد أطلت بعض الشيء، وقد حان أن نُعبر عن أعظم عمل انفرد به نجيب الكيلاني بين كتّاب الجبهة الإسلامية جميعاً، هذا العمل هو الامتداد الحي المتوثّب إلى آفاق بعيدة المكان عن ديار العروبة في تركستان وأندونيسيا ونيجيريا، ليكتب ثلاث قصص من أروع ما كتب، تتحدّث عن مآسي لا نكاد نعرف عنها في صحافة العرب شيئاً ذا بال، وكأنّ سياسة مدبرة لدى القائمين على الصحافة العربية تَهْدَف إلى قطع الجذور بين أبناء الدين الحيّ، بل قد قرأنا لبعض من يكتب تاريخ الزعيم (مصطفى كامل) رحمه الله، فيأخذ عليه أنه كان يُفرد في جريدة (اللواء) صفحة خاصة بالعالم الإسلامي كل يوم، وكذلك كان يفعل صاحب المؤيد (علي يوسف) رحمهما الله!

أجلُ قرأنا من يكتب ناقداً الزعيم مصطفى كامل لأنه يهتم بأبناء بني دينه، ويعدّ ذلك جنوحاً بالوطنية المصرية إلى غير مسارها الصحيح! وقد كرّر الكاتب أمثال هذه الفلتات الطائشة، ولكنّه بقي بمنعزلٍ عن الشعور العام، وإن التفّ حوله بعض الناشزين

لقد كان نجيب الكيلاني يعرفُ غربة قرائه في مصر والعالم العربي عن التركستان، فأدار حواراً في مفتتح الرواية يتساءل فيه؟ ما تركستان؟ فيردّ عليه صاحبه: أهَيّ بلاد ملحقة بتركيا؟ فيقول السائل في ابتسام ساخر: المسلمون لا يعرف بعضهم بعضاً. ويكونُ ذلك فاتحةً للحديث عن تركستان ذات المجد القديم في عز الإسلام حيث أظهرت من سقاها من علماء المسلمين، ثم يصور مأساة هذه الأمة حين انقسمت تركستان بفعل الاستعمار إلى قسمين، شرقيّة وغربيّة، فاحتل الروس تركستان الغربية واحتلت الصين تركستان الشرقية.

وقام المحتلون معاً بأبشع ما يتصوّر لمحاربة المسلمين في عقائدهم، إذ صمّموا على زواج المسلمة بغير المسلم، وعاقبوا بالحبس والقتل أحياناً من يقف في هذا الطريق، وأيقنوا أن هذا الزواج سيقضي على الجنسية الإسلامية بالتدريج، وكان من العجيب أن يتظاهر قائدٌ مسلم بقبول زواج ابنته من صيني لا يؤمن بالإسلام، وتُدبّر الزوجة الشجاعة مؤامرة تحاك يوم العرس، حيث يتحمس المسلمون إلى قتال هؤلاء البغاة، إذ خرج الأهالي عن بكرة أبيهم يُدافعون عن شريعتهم، ويستردّون كل من أُجبرن على الزواج الاضطرابي تحت تهديد السيف، وتشتعل نار الثورة في البلاد إلى أمد بعيد، ومن الفاجع حقاً أن أكثر من مئة ألف مسلم قد لَقُوا حتفهم في حومات، المقاومة لأنهم لا يملكون من القنابل المبيدة والقذائف الجهنمية ما يملكه الصينيون.

هؤلاء الذين كانوا نعاجاً يتهاوون تحت أقدام اليابانيين قبل الحرب العالمية الثانية، فلما انهزمت اليابان ونالوا الحرية بمعاونة الحلفاء استأسدوا على العُرْل الأمنين، وهم لا يبلغون معشارهم في العدد، وقارئ قصة هذا الوطن الباسل يعرف كيف درس المؤلف تاريخ البلاد قديماً وحديثاً، وكيف عرف مناخها الطبيعي من أنهار وجبال وفلوات، ووظّف ذلك في أدائه المسرحي توظيفاً رائعاً، ولو قدّمت هذه القصّة في مسابقة عادلة لنالت الجائزة الأولى، ولكن أوجدُ من يهتم ببلاد

الإسلام فيرصد الجوائز الهائلة بأمجادها؟ وفي أي مكان؟.

أما مشاعر المسلمين من أبطال النضال التركستاني فقد أفصح عنها (نجيب) بما لا مزيد بعده من التأثير، وهو بذلك قد سد مسدداً لم يبلغه سواه، بل كان رائداً دون أن يتبعه خلف من بعده؟ وأعظم شهادة له أنه فتح الطريق ولم يجد سائراً بعده.

وفي حماسة الاندفاع الروحي رأى نجيب أن يُصوّر مأساة أندونيسيا على أيدي الشيوعيين، كما صوّر مأساة تركستان، ولم يُعوّزها أن يحتاج إلى دراسة طويلة قبل البدء، لأنّ الشيوعي هنا هو الشيوعي هناك، وإن اختلفت البلاد، وتعددت الأسماء، كان الانفجار في جاكارتا عاصمة أندونيسيا أعنف منه في تركستان، لأن الشعب في أغلبته العظمى مسلم، وليس أقلية بالنسبة إلى الصين الكبرى في تركستان، هذه الأغلبية كانت تعرف عن الشيوعيين أنهم عملاء، وأنهم يتظاهرون بالدفاع عن العمال والفلاحين لا ليكفلوا لهم الحياة الكريمة بل ليكونوا مجالاً للشعارات الزائفة، فهم يتحدثون عن الأجير الكادح والعامل المحترق، ثم هم يتركونهما دون عمل حاسم، ينتقل بهم من فقر إلى غنى، إذ أنّ الغنى مقصور على العملاء وحدهم: يركبون السيارات الفاخرة، ويسكنون القصور الجميلة، ويعيشون عيشة الملوك في القرون الأولى، وكأنّهم آلهة؛ ثم يتحدثون بعد ذلك عن الأغنياء الذين سلبوا الفقراء حقوقهم. وجاؤوا لينقذوهم من الفقر والحرمان.

كانت عذراء جاكارتا تفهم كلّ ذلك لأنها كريمة زعيم مسلم مناضل حمل راية الكفاح أيام الاستعمار الهولندي، وجاهد وناضل حتى صار اسمه علماً من أعلام الحرية، ثم شاءت له الأقدار أن يُحارب الأندونيسيون أنفسهم لا المستعمرين من الهولنديين، حين وجدّوا الشيوعيين يتخذون من عملائهم قادة كباراً، ويفسحون لهم طريق الجاه والسلطان.

والشعب المسلم لا يصدّق أنّ الشيوعية لا تُعارض الإسلام، كما حاول هؤلاء أن يتخذوا البسطاء، وهذا ما تصدّت له (عذراء جاكارتا) في المحافل المشهودة حتى ضاق بها الزعيم العميل ذرعاً، وحاول ألاّ تُناقشه في محفل عام لقوة حجتها الساطعة، ولأنّ الجمهور يقابل آراءها بالتصفيق الحاد. وأخيراً صمّم على حيلة رآها تُدلّل من جموحها، فعرض عليها أن تتزوجه وتشاركه كل ما هو فيه من نعيم وسلطان ونفوذ! وقد ظنّ هذا العرض سيجذبها جذباً لا محيص عنه، ولكنّ صفة

وُجِّهَتْ إليه حين صاحت به: أنا مسلمة، وأنتَ لست بمسلم.. أنتَ شيعي؟ وأحسَّ بالإهانة تُزلزل الأرض تحت قدمه، فأصدر أمره باختطاف والدها الشيخ المسن ذي التاريخ الحافل، ونظرت (فاطمة) فوجدت أباهما في مكانٍ لا تدريه، ولا تعلمُ أحيي هو أم ميت، فنارت ثائرتها، وجمعت الجموع، وقوبلت بالإرهاب الشيعي الفاجر يختلقُ عليها أساطير آفكة فينسبُها للرجم والانحلال ليصرفَ عنها قلباً أخذت تتعلّق بها، ولكنّ الباطل لا قدم له، فهو عاجز عن المسير. وبعدَ جهاد انتصر الشعب، وقتل الزعيم الخائن!

تلكَ خيوطُ قصّةٍ سياسيّةٍ بارعة كانت سجلاً لأحداثٍ سياسيّةٍ قبل أن تكون مسرحاً لعواطف إنسانيّة، وقد ذاعت القصّةُ في العالم العربي على نحوٍ ممتد، حيثُ طُبعت عدة طبعات، ولكنها لم تجد تلاميذ يحتذونها! وبقي نجيبٌ في هذا المجال رائداً دون تلاميذ! ومن يدري فلعلّ أحداً من أبناء العقيدة الملهمة قد حدّا حذو الكاتب الرائد، ولم يقع في يدي ما كتب، أقول: لعلّ، على سبيل الرجاء!

أما قصّة نيجيريا فقد كانت انتقالاً طبيعياً من آسيا إلى أفريقيا، لأنّ الأمة المسلمة بشعوبها وممالكها وجمهورياتها كانت جميعها تحت مجهر نجيب، فما تغيب عن قلبه صرخةٌ ندت من قلب جازع في مملكة نائية، وقد قرأ عن أفريقيا جميعها قبل أن يقرأ عن نيجيريا وحدها لأنّ الاستعمار الأوروبي ومن خلفه التبشير النصراني قد بذلا من الجهد ما حاولا به أن يُخفضوا راية الإسلام! وأعجبُ شيء أن يترك المبشرون الوثنيين في إفريقيا فلا يُحاولوا جذبهم إلى النصرانية، ثم تراهم يبذلون جهودهم في تنصير المسلمين! وقد أفلحوا في بعض ما اتخذوه، لأنّ الشعوب الإسلامية تغط في نوم عميق، فلا تقومُ بواجبها الصحيح.

وهذا ما دعا المؤلف إلى أن يكشف أحقاد المستعمرين في نيجيريا فيكتب روايته الرائعة (عمالقة الشمال) تلك التي سجلت أعمال التبشير بما لا يمكن تجاهله، إذ حاول الاستعمار في معركةٍ مستميتة أن يجعل من المسلمين نصارى! فأخذ يُوقد نار الفتنة بين القبائل المتضاربة، بعد أن قسّم البلاد إلى مناطق يُعادي بعضها بعضاً، وكان من زعماء الإسلام من قاومَ هذه الدعوة الانفصالية بجهادٍ مستميت، وهو البطل (عثمان أمينو) الذي قاومَ حركة الانفصال في إقليم (بيانرا) وتزعّم المسلمين في قبيلة (الهوسا) المسلمة ضد ما يُحاك لهم من المؤامرات، وكانت قوته لافتة

للنظر المحايد، لأنه جابه المستعمر بحديده وناره وذهبه وعملائه مُجاهدة مَنْ يعتمد على الإيمان والصبر وحُسن العقابة!

وقد شاء المؤلف أن يوجد علاقةً عاطفية بين الزعيم وفتاه مسيحية شاركته مشاعره نحو الاستعمار، وذلك ليعلن الوحدة بين العنصرين أمام المستعمر الغاصب، ولا أدري أكان ذلك حقيقةً تاريخية أم أنه ابتكار مبتدع من خيال الكاتب الفنان، والقصة تاريخ للاستعمار الإفريقي بعامة قبل أن تكون تاريخاً للاستعمار النيجيري بالذات، لأن الخيوط متشابهة، والفكر الاستعماري يُراعي التقيد بدسائسه وحيله في مواجهة الصعاب!

لقد كنتُ أرجو أن أستفيض في بعض التحليل الكاشف لعبقرية الكيلاني، ولكن ذلك يتطلب كتاباً مستقلاً، وقد قام نفرٌ من المحللين بجهود مشكورة في هذا المجال، فتحدثوا عما أغفلتُ، ولم يُفتهم أن يذكروا أهوال السجون المصرية كما تراءت في قِصَّتِي (رحلة إلى الله)، و(حكاية جاد الله والواقع الأسود).

وقد انتقل الفقيد إلى رحمة الله في ٦/٣/١٩٩٥ م، وكان قد ولد في ١/٦/١٩٣١ م بقرية (شرشابة) إحدى قرى محافظة الغربية، وقد فاضت الأقلام المؤمنة في تأبينه، وتحليل كتبه، وأصدرتُ عنه مجلة (الأدب الإسلامي) عدداً ممتازاً حوى خير ما يُكتب عن أديب ملتزم متعدد النبوغ، وفي ذلك - مع مجموعة كتبه وأقاصيصه وقصائده - ما يُقدّم للدارس مجالاً خصباً للحديث عن هذا النابغة الموهوب، وهو جدير بكل احتفاء وتنويه.

* * *

ملحق ختامي علماء كبار يَنقُضون كتاب الإسلام وأصول الحكم

- ١ -

كان الأستاذ أحمد بهاء الدين قد كتب في مؤلفه (أيام لها تاريخ) حديثاً عن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لا يمتّ إلى الحقيقة التاريخية بأدنى سبب، وما هو إلاّ تخيلات موهومة يكذبها الواقع الفعلي لتاريخ هذه الحقبة، وقد نشط أنصار الحقيقة إلى تزيف كل ما ذكره الأستاذ أحمد بهاء الدين بالبرهان المقنع، والدليل السافر، بحيث غدا قارئ هذه الردود الملجمة يتساءل: لماذا تحدث الأستاذ أحمد بهاء الدين في أمر يجهل كل شيء فيه، ولماذا سمح لنفسه أن يتوهم علاقات لا ترتبط وشائجها على نحو من الأنحاء؟!

وكان المظنون بعد أن انكشف بطلان ما نسجه الأستاذ أحمد بهاء الدين من خيالات موهومة، وبعد أن أصدر المغفور له الأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس كتابه الرائع (الإسلام والخلافة في العصر الحديث - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم) كان المظنون أن تنكشف الأباطيل الموهومة أمام من رأوا أفكاراً باطلة تصاغ في أسلوب الحقائق المسلّمة، لا سيما أن كتاب الدكتور الرئيس وهو أستاذ النظم الإسلامية بجامعة القاهرة قد تعددت طبعاته، ونالت إعجاب الدارسين إلى غير ما حد .

وقد أفرد لها الأستاذ الغيور أحمد بهجت صفحات مسهبة، تلقى الضوء على حقائقها السّافرة، كما أن الدكتور الرئيس لم يكن وحده صاحب النقد الصارم في هذا المجال، بل تبعه أساتذة أفاضل من ذوي الغيرة على الحقائق، فشفوا واشتفوا، هذا

من ناحية المعلومات التاريخية المصرية المتعلقة بفترة زمنية هي فترة ظهور هذا الكتاب، أما الحقائق الفقهية الأصولية فقد أشبعت نقداً وتزييفاً بقلم أئمة أعلام متخصصين لا يرقى الشك إلى أوجههم الفقهي السامق، ومنهم الأساتذة الكبار: محمد بخيت المطيعي، ومحمد الخضر حسين، ومحمد الطاهر عاشور، وعبد الوهاب خلاف، ومحمد أبو زهرة، ومحمد الغزالي، وغيرهم من أساتذة الفكر الإسلامي المعاصر؛ بحيث أصبح كتاب (الإسلام وأصول الحكم) بعد هذه التصحيحات الصائبة خبراً من الأخبار.

وقد رجّع مؤلفه الأستاذ (على عبد الرازق) عن مضمونه الجوهري في مقالٍ نشره بمجلة ذائعة سنشور إليها بالتاريخ والرقم، ونقل من مقال الأستاذ ما يدل على ذلك، ولكنّ القائمين على سلسلة (المواجهة والتنوير) قد أعادوا نشر الكتاب بما يحمل من أخطاء فادحة، وكان من العجب العاجب أن يتبنّى الدكتور جابر عصفور - مقدّم الكتاب - كل ما قاله الأستاذ أحمد بهاء من أباطيل ثبت زيفها الصارخ، وأن يتعجل الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي فينقل إلى قراء (الأهرام) ما ذكره الدكتور جابر عصفور مؤيداً مزكياً!

والدكتور جابر كالأستاذ حجازي قد سمحا لأنفسهما أن يتجاهلا الردود الساحقة الماحقة التي عصفت بآراء الأستاذ أحمد بهاء الدين، فإذا لم يكونا يعرفان شيئاً عن موضوعها، فلماذا يسمح الأول لنفسه أن يقدم كتاباً فقهياً لا يدري من أمره شيئاً، وكان المنتظر منه أن يرصد الحركة الفكرية نحو كتاب يخصه بتقديره، فيقف موقف المدافع عنه إزاء ما نُسف به من اعتراضات لو كان يطلب الحق لوجه الحق، بل كان المنتظر ممن يحمل أمانة القلم أن يشير إلى الاعتراضات التي وجهت إلى قواعد الكتاب حتى أتت على كيانه المنهار!

أما الأستاذ حجازي فهو التابع الثاني للتابع الأول. قرأ المقدمة ونقل ملخصها في مقال نشره بالأهرام ٢٦/٥/١٩٣٣م، وكان على من بلغ هذا المبلغ من عمره الممتد في دنيا القلم أن يعرف أن الكتاب قد لاقى معارضة عاصفة، فينقل إلى قرائه ما ووجه به من أعلام الفقه في العالم العربي قبل أن يصفق تصفيقاً متواصلاً لكتاب لا يمت إلى اختصاصه الأدبي بسبب، ولست أمتع أدبياً أن يتحدث عن كتاب متخصص، فكلنا نشارك في البحوث الإسلامية قدر ما نستطيع دون أن نتصدّر

الميدان إذ لهُ فرسانهُ المعلمون، وزارتهُ الأكرمون،، إنما أُمِنَ الأستاذ أن ينقل باطلاً عن باطل، دونَ أن يكلف نفسه عناء القراءة فيما يحاول أن يتحدث عنه، وإذا كان أدباء اليوم يقرّظون دون بحث، ويهتفون دون اطلاع! فلماذا يتصدّرون؟ ووراءهم من يحصي عليهم هذا التهاون الأليم.

لقد صدّر الأستاذ الدكتور جابر عصفور، كتاب الأستاذ علي عبد الرازق بكلمة قال فيها: «بعد أن قام كمال أتاتورك بحركته الإصلاحية في تركيا، وما ترتّب عليها من إلغاء الخلافة العثمانية وإعلان الجمهورية، بدأت محاولات متعددة لإقامة الخلافة في أكثر من قطر، بعضُ هذه المحاولات حدثت في القاهرة، وكانت مرتبطةً بدافع تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين، وبينما كانت محاولات أنصار الملك فؤاد قائمةً متصلة، وفي الوقت الذي كان فيه الحوار دائراً حول معنى الخلافة في عصرنا، أصدر على عبد الرازق القاضي الأزهرى الذي كان يعمل رئيساً للمحكمة الشرعية في المنصورة كتابه (الإسلام وأصول الحكم) الذي فرغ منه في مطلع إبريل سنة ١٩٢٥م وطُبع في العام نفسه أكثر من مرّة، وكان الكتاب قبلةً بكل معنى الكلمة وعلى مستويات متعددة، ونُسف الكتاب فكرة الخلافة الإسلامية التي كان يحلم بها الملك فؤاد وأعوانه، ونسف الكتاب كثيراً من الرواسب العالقة في أذهان القراء عن الدولة الدينية، ونُسف الكتاب السطوة التي يزعمها بعض رجال الدين عندما يتحدثون عن الحكم، وكانَ الكتاب بمثابة تأكيد من أزهرى مستنير لدعائم الدولة المدنية، وفي الوقت نفسه كان ثورةً هائلة على المفاهيم السائدة عند أقرانه من المشايخ.

وكان من الطبيعي أن يُحارب الكتاب وأن يعاقب صاحبه، واتفق القصر مع لجنة كبار العلماء على العقاب، صدّر قرارٌ بسحب شهادة العالمية من الرجل، وتبع هذا القرار فصله من عمله بالقضاء، وقامت الدنيا ولم تقعد، وتولّت الدفاع عن الكتاب كل قوى الاستنارة في مصر، وكل الفصائل السياسية المؤمنة بالديمقراطية، وكل دعاة الدولة المدنية والمجتمع المدني».

إلى أن قال الدكتور جابر عصفور:

«كانت دعوةُ الفقيه الأزهرى العظيم رئيس المحكمة الشرعية الذي فصله القصر لأنه ناهض مصالح القصر السياسية، وتحالفت مع القصر لجنة كبار العلماء من

رجال الأزهر الذين غضبوا من استنارة الشيخ علي عبد الرازق، كما غضبوا من استنارة أستاذه محمد عبده، فهاجموا الأخير كما هاجموا الأول، ولكن ذهب خصوم الرجل، وذهب الملك فؤاد، وبقي الكتاب نفسه وثيقة رائعة من وثائق التنوير».

فإذا أردنا أن نُوجز هذه العناصر المتداخلة، التي أرسلت إرسالاً لا يتقيد بمنطق تاريخي، أو واقع لا يزال بعض شهوده ينعمون بالحياة لردِّ عليها بما يشهد به التاريخ الصريح، واضحاً ملموساً دون لبس، فإننا نحصرها فيما يلي:

أ - أن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) أُلِّفَ بعد سقوط الخلافة العثمانية، ليثبت أن إلغاءها صوابٌ سديد، حيث بدأ الدكتور حديثه بقوله «بعد أن قام كمال أتاتورك بحركته الإصلاحية وما ترتب على ذلك من إلغاء الخلافة العثمانية بدأت محاولات متعددة لإقامة الخلافة في أكثر من قطر».

ب - أن الملك فؤاد شجع أنصاره على المناداة به خليفةً للمسلمين، وهو ما يفهم من قول الدكتور: «وبعض هذه المحاولات حدثت في القاهرة، وكانت مرتبطة بدافع تنصيب الملك فؤاد خليفةً جديداً للمسلمين». ثم قوله بعدئذ: «وكان من الطبيعي أن يُحارب الكتاب وأن يُعاقب صاحبه، واتفق القصر مع لجنة كبار العلماء على العقاب»: بعد قوله: «نسف الكتاب فكرة الخلافة التي كان يحلم بها الملك فؤاد وأعوانه».

ج - أن الكتاب نسف الكثير من الرواسب العالقة في أذهان القراء عن الدولة الدينية، كما نسف السطوة التي يزعمها بعض رجال الدين، عندما يتحدثون عن الحكم.

د - أن القوى المستنيرة تولت الدفاع عن الكتاب، وكلّ الفصائل السياسية المؤمنة بالديمقراطية!

هذه أربعة عناصر نقلها الدكتور جابر عصفور ممّا سبق الأستاذ أحمد بهاء الدين إلى تدوينه، وقد نسي أن يذكرّ عنصراً خامساً نذكره نحن لردِّ على كل هذه الأوهام بما يكشف الزيف، أما العنصرُ المنسي فهو قول الأستاذ أحمد بهاء الدين^(١):

(١) أيام لها تاريخ، ص ١٥٣، للأستاذ أحمد بهاء الدين.

«والتَقَطَ الإنكليز فكرة الخلافة الواقعة على الأرض، نعم! لماذا لا ينشؤون هم خلافة إسلامية جديدة تنمو تحت رعايتهم، وأن الخلافة لحجة قديمة للتغريب بالمسلمين، وخلف عباؤها خرجت من مكة (كذا) وتنقلت بين دمشق وبغداد والقاهرة وإستامبول، يمتطيها الحاكم الذي يستبد بالمسلمين».

هذا ما جاء في الكتاب من مزاعم تاريخية ذات بريق خادع، أبدأ في تفنيدها قبل أن أكرّر على النقاط العلمية التي تعرض لها الأستاذ علي عبد الرازق على غير دراية ما بأحكام الفقه الإسلامي، وهي واضحة جلية في كتب التشريع، ولا تخفى على قاض شرعي يحمل درجة العالمية، وقد امتحن في علوم الأصول والفقه والكلام والتفسير والحديث فأحرز درجة النجاح! أي أن هذه المقررات الصحيحة لم تكن غائبة عنه، ولكنه تجاهلها إلى لقطات شاذة حُرِف فيها الكلام عن موضعه، وسأستعين في توضيح هذه النقاط التاريخية بما ذكره الأستاذ الدكتور ضياء الدين الرئيس في كتابه القيم، لأنه كشف عن إحاطة شاملة لم تُنخ لي حين نقدت هذا الكتاب في الجزء الثاني من كتابي (قضايا إسلامية) وفي كتاب (الأزهر بين السياسة وحرية الفكر)، ولا يزال الكاتب الملتزم يتطلب الكمال بمواصلة البحث، فإذا رأى من بلغ الغاية في موضوع قوي يستأثر بتفكيره، فإنه يحمد الله أن وجد المصباح المضيء!

العنصر الأول:

يزعم الأستاذ أحمد بهاء وتابعوه من غير أهل الدراية، أن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) أُلِف بعد سقوط الخلافة العثمانية وإعلان الجمهورية، وقد سقطت الخلافة سنة ١٩٢٤ فهل هذا الزعم صحيح؟

إنّ الأستاذ علي عبد الرازق يذكر في مقدمة كتابه: «وليت القضاء بمحاكم مصر الشرعية منذ سنة ١٣٣٣هـ الموافقة سنة ١٩١٥م، فحفزني ذلك إلى البحث عن تاريخ القضاء الشرعي، والقضاء بجميع أنواعه فرع من فروع الحكومة، وتاريخه يتصل بتاريخها اتصالاً كبيراً، وكذلك القضاء الشرعي ركن من أركان الحكومة الإسلامية، وشعبة من شعبها، فلا بدّ حينئذ لمن يدرس تاريخ القضاء أن يبدأ بدراسة ركنه الأول، أغني الحكومة في الإسلام، وأساس كل حكم في الإسلام هو الخلافة والإمامة العظمى، فكان لا بدّ من بحثها، شرعت في ذلك كله منذ بضع سنين،

ولا أزالُ بعدُ في مراحل البحث الأولى ، ولم أظفر بعد الجهد إلا بهذه الورقات أقدمها على استحياء .

وإذا كان الكتاب قد قُدم للمطبعة سنة ١٩٢٥م ، وقد بدأه الأستاذ سنة ١٩١٥م فمعنى ذلك أنه قضى في تأليفه تسع سنوات قبل أن تسقط الخلافة ، وأن الفكرة التي بعثت على تأليفه لم تكن حركة مصطفى كمال ، وتطلع الملك فؤاد إلى الخلافة ! هذا ما يعترف به المؤلف في سطور الكتاب الأولى فهل يكون أحمد بهاء ومن تبعه في (المصور) وفي مجلة (الطلیعة) ثم في مقدمة كتاب (التنوير) أدرى بالحقيقة من المؤلف نفسه ! وهؤلاء الواهمون يصفون الأستاذ علي عبد الرازق بالجرأة البالغة ، والشجاعة القائمة ، فهل كان يُعجزه أن يقول : لقد فكرتُ في الكتاب منذ سقطت الخلافة فكتبْتُ الكتاب لأبين أنها باطل لاحق !! وبذلك يجد هؤلاء مستنداً لمزعمهم الخاص بسبب تأليف الكتاب !

لو قرأ مقدّم الكتاب الصفحة الخامسة والعشرين من الطبعة التي ابتدأت بمقدمته ، لوجد الأستاذ علي عبد الرازق يقول : «وما كانَ لأمير المؤمنين محمد الخامس سلطان تركيا أن يسكنَ اليوم (يلدز) لولا تلك الجيوشُ التي تحرس قصره ، وتحمي عرشه ، وتنفى دون الدفاع عنه» .

ثم كتب الأستاذ في الهامش يقول : «كتبنا ذلك يوم كانت الخلافة في تركيا ، وكان الخليفة محمد الخامس ، وذهب محمد الخامس وغير محمد الخامس من الخلفاء كما ذهبَت تلك القوة التي قلنا إنها أساس الخلافة» !

فما معنى هذا؟ معناه أن تأليفَ الكتاب لا علاقة له بسقوط الخلافة ، وأن الهجوم عليها كان في خلافة محمد الخامس ، في السنة التي بدأ فيها المؤلف كتابه ! .

فماذا يقول الذين زعموا أن سقوطَ الخلافة كان حافز المؤلف ، وقد اتضح أنهم لم يقرؤوا المقدمة ، ولم يصلُّوا إلى الصفحة الخامسة والعشرين ! مع أنَّ أولَ واجب على كاتب يتحدث عن كتاب أن يستوعبه استيعاباً؟ فماذا نقول فيمن لم يقرؤوا مقدمة الكتاب ، ولم تقع عيونهم على أول الملمزة الثالثة !! ثم يتصدرون للحديث عن كتاب لم يتموه .

وهنا أتساءل لماذا اتجه الأستاذ علي عبد الرازق إلى تأليف هذا الكتاب بعد رجوعه مباشرة من إنكلترا .

إن الأستاذ قد نال عالمية الأزهري سنة ١٩١١م، وقضى بالأزهر عاماً واحداً يدرس مادة البلاغة وقد ألف فيها كتاباً عن علم البيان سَمَّاهُ (الأمالي) ثم سافر سنة ١٩١٢م إلى إنكلترا ليدرس السياسة أو الاقتصاد فلم يُسَّحْ له أن يتفرغ لفرع معين، فعادَ عند نشوب الحرب العالمية سنة ١٩١٤م ليعيّن بعد وقت قصير قاضياً شرعياً!! لقد سافرَ إلى إنكلترا في الفترة التي أعقبت سقوط الخليفة عبد الحميد سنة ١٩٠٨م، وتسلّم الحكم جماعةٌ من الضباط سمّوا أنفسهم (جمعية الاتحاد والترقي) وكانَ هدفهم الأول إلغاء الخلافة تماماً، فعزلوا السلطان الجديد محمد رشاد الذي لقب بمحمد الخامس عن كل سلطة، وأصبحَ مجرد شخص يعيش حبيساً في قصر، ثم تركوا للأقلام أن تتحدث عن الخلافة لكل منكر فظيع، وظهر كتاب الأتراك يشيدون بزعامة ضباط الاتحاد والترقي، ويجعلونهم أبطال الإنقاذ من حكم السيطرة والاستبداد، ورحبَتْ صحافة أوروبا بالهجوم على الخلافة .

وكان (مرجليوث) المستشرق الإنكليزي بالذات من أكبر أعداء الخلافة الإسلامية، وقد أخذ يقرّر^(١): «أن مبدأ الحكومة الأتوقراطية أي الاستبدادية قد ظلّ مُسلماً به لا يجادل أحدٌ فيه في الأفطار الإسلامية حتى القرن التاسع عشر! وذلك حين وصلت الموجة التي صدرت عن الثورة الفرنسية عن طريق تركيا إلى المنطقة الحارة!» كذلك كانَ المستشرق الإنكليزي (أرنولد)^(٢) الذي قرّر: «أن الحكومة الإسلامية أتوقراطية أدّعي لها أنها مبنية على الوحي الإلهي، وقد جعل واجباً دينياً على الفرد المسلم أن يُطيع الحكومة الاستبدادية التي يقوم على رأسها الخليفة» .

وقد كانَ الأستاذان (مرجليوث) و(أرنولد) من كبار أساتذة أكسفورد التي التحق بها الأستاذ علي عبد الرازق على مدى عامين متتابعين! وموضوعُ حديثهما في الجامعة هو السياسة الإسلامية، فاستجابَ الأستاذ لما سمع! وهذا موضع العجب، لأنّه أزهري يفترض فيه أن يكون قد درس أصول الحكم في الإسلام وقرأ ما كتبه

(١) كتاب النظريات السياسية الإسلامية، ص ٢٩٢، للدكتور الرئيس ط. (٢).

(٢) كتاب النظريات السياسية الإسلامية، ص ٢٧٤ وما بعدها.

أساطين العلماء! ولكن كتابه الذي ألفه ينطق بأنه لم يلم بما قاله هؤلاء الأعلام فكان
فرصة سهلة الوقوع! وحضر إلى مصر ليكتب كتابه قبل سقوط الخلافة بتسعة أعوام،
فهل يستطيع أحد أن يزعم أن الكتاب قد ألف بعد أن قام كمال أتاتورك بحركته
الإصلاحية وما ترتب على ذلك من إلغاء الخلافة العثمانية وإعلان الجمهورية، كما
جاء في مقدمة الكتاب!

العنصر الثاني:

مواجهة الملك فؤاد بكتاب (الإسلام وأصول الحكم).

يعلم الذين يزعمون أن الأستاذ علي عبد الرازق قد كتب مؤلفه ليهدم رغبة
الملك فؤاد في الخلافة؛ أن علي عبد الرازق من عائلة عريقة تنتمي إلى حزب الأحرار
الدستوريين، وهو الحزب الذي حارب زعيم الأمة سعد زغلول محاربة طاغية،
وأقدم على تزيف الانتخابات ووقف الدستور، وكان أكبر ما يحرصه أمام الأكثرية
الوفدية تقربه من القصر، وقد ثبت فيما كتبناه في العنصر الأول أن الكتاب قد
أحكمت خطته وكتبت صفحات كثيرة منه قبل أن يتولى الملك فؤاد الحكم! فكيف
أولاً يُعقل أن يشرع المؤلف في كتابه وفي ذهنه أن يهدم ملكاً لم يتبوأ عرشه بعد،
ولم تكن تدل الدلائل على أنه سيخلف أخاه السلطان حسين كامل إذ كان المنتظر أن
يخلفه ولده الأمير كمال حسين، ولكنه اعتذر فجأة فأصبح الأخ بديلاً عن الابن!

وكيف ثانياً يُعقل أن يهاجم حزب الأحرار علانية ملكاً جاء بزعمائه في وزارة غير
شعبية، قد غصبت حقوق الحزب المجمع على تأييده، ولا عون له في ذلك غير
الملك والقصر! إن منطق أحزاب الأقليات أن يلودوا بمن يصطنعونهم لأهوائهم،
فلا يقدموا على خطر يعصف بهم، حيث لا ظهير لهم من جمهور، ولا عاصم من
شعب! وإذن فاعتبار الهجوم موجهاً إلى الملك مستبعد، وهذا ما أكده الأستاذ علي
عبد الرازق حين كتب في جريدة السياسة يرّد على من ظنّ أنه بهجومه على الملوك
السابقين، والخلفاء السالفين يعني الملك فؤاد!! وهو قول رّده بعض الناقدين،
فأنزع المؤلف إلى درجة الهلع وكتب تحت عنوان (عرس وتاج وذات ملكية)
يقول^(١):

(١) الإسلام والخلافة في العصر الحديث، ص ١١٥.

«أولئك ملوك لم يُراعوا للعلم حرمة، ولا عَرَفُوا للحرية قدراً، وملك مصر أعز الله دولته - وما يضيره أن يكون خليفة - هو أول ملك عرفه الإسلام في مصر ملكاً دستورياً ينصّر العلم والعلماء ويؤيد في بلده مبادئ الحرية».

بعد هذا نتحدث عن صلة الملك بمسألة الخلافة فنذكر أن سقوط الخلافة قد أفزع العالم الإسلامي في جميع أقطاره فزعاً خطيراً صوّره الأستاذ الأكبر محمد الأحمدى الظواهري شيخ الجامع الأزهر - فيما بعد - حين قال^(١):

«وعندما أقدم مصطفى كمال على فعله الشنيع اهتزّ العالم الإسلامي له اهتزازاً كبيراً وثارث أفكار المسلمين في أنحاء الأرض، وطفق كبارهم في مختلف الأمم الإسلامية يكتبون في هذا الموضوع، فلعلماء الهند، وكبار مسلميهم، وقادة العراق وساستهم، وزعماء الشام ولبنان وتونس والجزائر ومراكش والحجاز والسودان وباقي أمم الإسلام في آسيا وأفريقيا، كلّ هؤلاء اهتزّت مشاعرهم واشمأزت نفوسهم من جرّاء هذا الحدث الكبير الذي أقدم عليه مصطفى كمال، فهو حدث الأحداث في الإسلام بلا ريب، فإنّ تراث أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وما كان لهؤلاء من شرف الخلافة عن رسول الله ﷺ في جمع كلمة المسلمين، قد أصبح الآن في خطر الزوال أو قد تعرضَ على الأقل للإهانة والتحقيق، بواسطة هذا العسكري التركي الفظ الطاغية، فأجمع هؤلاء السادة جميعاً على أنه لا بدّ من عمل شيء يحمي هذا التراث، ولم يكن أهل مصر وقادة الرأي فيها بأقل من أمم الإسلام اهتماماً بهذا الحادث الجلل، بل إنّ مصر أولى دول الإسلام جميعاً بالاهتمام بحماية الإسلام والدود عنه، أليس فيها الأزهر الشريف، وهو معهد القرآن والحديث، وأليس مصر زعيمة الشرق العربي وهي في دول الإسلام شقيقة كبرى، بما للشقيقة الكبرى وما عليها من حقوق».

وفي هذه البلبلة الطاغية جاءت الأنباء بأنّ الملك حسين بن علي قد أعلن نفسه خليفةً للمسلمين دون تشاور مع أحد، فحصل رفض كبير من جهات مختلفة في شتّى ربوع العالم الإسلامي، وكانت مصر إحدى الدول التي عقدت الاجتماعات بالأزهر وغيره، ودعا الأمير عمر طوسون إلى عقد مؤتمر إسلامي من جميع الدول

(١) السياسة والأزهر (مذكرات الشيخ الظواهري) ص ٢٠٨.

للنظر في هذه المسألة، وقد كَتَبَ إلى رئيس الوزراء وزعيم الأمة سعد زغلول يطلبُ منه رأي الحكومة في عقدِ هذا المؤتمر فأجاب دولته بكتاب في ١٨/٣ يقول فيه:

«ردّاً على خطاب سموكم المؤرخ في ١٥ الجاري أُنشِرَف بأن أُبدي آتي عرضته على جلالة الملك لاختصاصه بمسألة الخلافة التي لها علاقة بشخصه الكريم، وسأبلغ سموكم ما أتلّقه من جلالته في هذا الشأن».

ينقل الدكتور ضياء الريس هذا الخطاب عن مذكرات أحمد شفيق باشا، الذي أرخ الموقف في حواريته، ثم أتبع ذلك بقوله^(١) مسجلاً ردّ الملك فؤاد:

«كيف أقوم بالواجب نحو جميع المسلمين، مع أن حملي ثَقِيل بالنسبة لمصر وحدها» وإلى هنا - نجد الملك لم يكن صاحب الفكرة في ترشيحه! ولكن أئمة الرأي من العلماء عقدوا اجتماعاً نادوا فيه بضرورة عقد مؤتمر إسلامي للنظر في مسألة الخلافة، وكان للشعور العام غير مستريح لمبايعة الملك حسين بن علي وهو ما عبّر أحمد شوقي بقوله في قصيدته الباكية لسقوط الخلافة^(٢):

لا تُسلموا برد النبي لعاجز عزل يدافع دونه بالراح
بالأمس أوهى المسلمين جراحه واليوم مَدَّ لهم يد الجراح
فلتسمعنَّ بكلّ أرض داعياً يدعو إلى الكذاب أو سجاح
ولتشهدنَّ بكسل أرض فتنة فيها يباع الدين بيع سماح

في هذه البلبلة، اتجهت الجهود إلى إقناع الملك فؤاد بقبول ترشيحه، نظراً لمكانة مصر، وقد استجاب على شريطة أن يُعقد مؤتمر شامل لكل بلاد الإسلام، وهو ما تعذر حدوثه، فانعقد المؤتمر ببعض دون بعض، ورأى ألاّ يقطع برأي لأنه لا يمثل الجميع.

وإذن فكتاب (الإسلام وأصول الحكم) لم يؤلف لمجابهة الملك فؤاد أو مَنْ يتطلّع للخلافة، ولكنه أُلّف لدحض مشروعية الخلافة منذ قام بها أبو بكر الصديق! أما ثورة العلماء عليه فليما تضمّنه من خطأ منكر، وجهل صريح! وهو ما سنلم به عن قريب.

(١) الإسلام والخلافة في العصر الحديث، ص ٨٦.

(٢) الشوقيات: ١٠٩/١.

العنصر الثالث :

يزعم كاتب المقدمة أن الكتاب قد نسف الكثير من الرواسب العالقة في أذهان القراء عن الدولة الدينية، كما نسف السطوة التي يزعمها بعض رجال الدين عندما يتحدثون عن الحكم؟

ويريدُ الكاتب بالرواسب الحقائق الفقهية الأصيلة التي جاء بها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وقام بتطبيقها سيدنا محمد ﷺ ومن تبعه بإحسان من الخلفاء الراشدين، فهل يستطيع جبار من جبابرة الفكر أن ينسف آية قرآنية، حتى يزعم الدكتور جابر عصفور أن الكتاب قد نسف كثيراً من الرواسب العالقة في أذهان القراء؟

لقد حاول الأستاذ علي عبد الرازق أن تكون الشريعة الإسلامية كالديانة المسيحية شريعة روحية محضة لا صلة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا، فهل نسف ما قرره الشريعة من هيمنتها التامة على أمور الناس بحيث يُصبح الإسلام ديناً ودولة، وهل يمترى في ذلك غير المفرضين؟

لقد حاول الأستاذ علي عبد الرازق أن يقرّر أن جهاد رسول الله في سبيل نشر دعوته كانَ للملك لا للدين، فهل صدّقه أحدٌ حين قرر أن الرسول كان ملكاً بعد أن تتوّج جهاده بالنصر المبين؟

لقد حاول الأستاذ عبد الرازق أن يقرّر أن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان مجالاً غموض أو اضطراب يدعوان للحيرة، فهل استطاع أن يقنع الدارسين بما زعم وهم يقرؤون عن نظام الإسلام في الحكم عشرات الكتب الواضحة دون أدنى التباس، يقرؤونها دارسين، ويشيدون بعد بها معجبين؟

لقد حاول الأستاذ علي عبد الرازق أن يثبت أن مهمة سيدنا رسول الله ﷺ كانت بلاغاً مجرداً عن الحكم والتنفيذ، فهل أقنع بذلك الصغار من طلبة المدارس الابتدائية وهم يعرفون سيرة رسول الله، وقيامه على تنفيذ أوامر القرآن عقيدة وشريعة وديناً ودُنياً؟

لقد حاول الأستاذ عبد الرازق أن يُنكر الإجماع المنعقد على وجوب تولية إمام - حاكماً كان أو خليفة - يقوم على تنفيذ الشريعة وتطبيقها في الحياة مع الالتزام بها،

إذ هي دستور المسلمين، فهل يُوجد في الدنيا المتمدينة دولة دون دستور؟ وهل الخطأ وحده أن يكون الدستور كتاب الله؟

لقد أنكر الأستاذ أن القضاء وظيفة شرعية، فلماذا أصرَّ على أن يكون قاضياً شرعياً حتى فصلَ فصلاً دون إرادته! وكيف رضي أن يبقى عشر سنوات في منصب لا يراه ذا موضوع! وهو في رأي مُقرّظيه مجاهد يستظل بالحق الصريح؟

لقد حاول أن يقرر أن حكومة الخلفاء الراشدين لم تكن دينية بل كانت دنيوية، فهل كانت حروب الردة باسم الدنيا؟ وهل يجهل طلاب المدارس أن الفتوح الإسلامية في عهد أبي بكر ومن تلاه كانت لنشر الدين وإخراج العالم من الظلمات إلى النور.

هذه هي المقررات الثابتة التي حاول المؤلف أن يدورَ حولها، فهل نسفها نسفاً من العقول، وهل أحكامُ الله في كتاب يتلى آناء الليل وأطراف النهار يُعبر عنها بالرواسب التي تُسفت نسفاً من الأفكار! ولماذا حاول الكاتب ومن شايعه أن يعيدوا طبع الكتاب ونشره بضمن زهيد إذا كان ما قرره أصبح حقيقة واقعة! ولم تعد له رسالة تؤدّي لدى الناس؟ أهو العبث الضائع؟ أم أنها الحقيقة السافرة تنادي بأن ما قاله الرجل صار هباءً تذرّوه الريح؟

هذا بشأن ما عبّر به عما سمّاه الرواسب العالقة بالأذهان؛ فما هي السطوة الدينية التي يزعمها بعض رجال الدين حين يتحدثون عن الحكم؟

إنّ هذه السطوة الدينية ليست لدى علماء الدين في الإسلام، حتى يقال إن الكتاب قد نسفها، وكلّ مبتدئ يعلم أن ليس في الإسلام رئيسٌ يأمر بغير ما شرعه الله، ولم تكن لعالم ما من علماء الدين سلطةٌ كسلطة البابا في المسيحية، ولكن الذين كتبوا عن الإسلام من أمثال (مرجليوث) ومن دار مداره ممن أُلمعنا إليهم من قبل قد ذكروا ذلك مفترين، فوجب أن يكون الافتراء حقيقة، ووجب أن نعصف بكل ما يخالفه، وإن جاء به القرآن الكريم، ثم ما هي مظاهر هذه السطوة في قضية الأستاذ علي عبد الرازق.

لقد أصدر المؤلف كتابه باسمه وعمله، فهو قاضي شرعي تخرّج من الأزهر، وواجه المسلمين بما ينكره الإسلام، وصرخ الناس في كل مكان مطالبين بإيضاح

الحقيقة فيما زعمه عالم أزهري وقاضٍ شرعي؟ فماذا يجبُ على الأزهر حينئذٍ؟ وماذا كانَ يُنتظر منه؟ أكانَ مَنْ يُمجدون الرجل ينتظرون من الأزهر أن يَسْكُتَ عن باطل اقترفه أحدُ أبنائه الذين أخذوا مكانتهم الرسميّة باسمه؟ وإذنُ فما فائدةُ الأزهر حينئذٍ، وهو القائم على إيضاح الحقائق الدينيّة التي يشوّهاها المغرضون من غير أبنائه، أيجوزُ للأزهر أن يردّ على أباطيل المستشرقين والملاحدة والجهلة من المتعالمين من غير أبنائه، فإذا ما تجرأ أحدُ قضاة الشرع الإسلامي الذين أخذوا مناصبهم باسم الإسلام والأزهر لجأ إلى السكوت دون النكران، وإلاّ فهوَ مسيطرٌ على الناس ظلماً باسم الدين؟

إنّ للأزهر قانوناً سنته الدولة، وقد قدّم المؤلف للمحاكمة باسم هذا القانون الذي تقول المادة (١٠١) منه ما نصّه :

«إذا وقع من أحد العلماء - أيّاً كانت وظيفته أو مهنته - ما لا يناسب وصفَ العالمية يحكم عليه من شيخ الأزهر بإجماع ١٩ عالماً من هيئة كبار العلماء بإخراجه من زمرة العلماء، ولا يُقبل الطعنُ في هذا الحكم، ويترتبُ عليه مَحْوُ اسم المحكوم عليه من سجلات الجامع الأزهر، والمعاهد الأخرى، وطرده من كلّ وظيفة، وقطع مرتباته في أيّ جهة كانت، وعَدَم أهليته للقيام بأية وظيفة عمومية دينيّة» .

وقد صدرَ القانون سنة ١٩١١م، ولم يُطبق إلّا سنة ١٩٢٥م، لأنّ عالماً أزهرياً لم يقع تحت طائلة هذا القانون قبلَ الشيخ علي عبد الرازق وبعده! فهل قدّم الرجلُ للمحاكمة بغياً؟ أو أنه اقترف ما يجبُ أن يكون موضع الحساب؟ وإذا أخذتِ العدالة مجراها مع أستاذٍ تنكّر لآيات كتاب الله، وسنة الرسول وأعمال الصحابة وأقوال الفقهاء، أيكُونُ هذا الأستاذ قد نسف سطوة رجال الدين التي يزعمونها لأنفسهم؟ وهم لم يزعموا لأنفسهم شيئاً لأن قانون سنة ١٩١١م قد وضّعه المشرعون من رجال القانون المصري وهم: أحمد فتحي زغلول، وعبد الخالق ثروت، وإسماعيل صدقي؛ وقد حوكم الرجل بمقتضاه! والثاني والثالث صارا من رجال الأحرار الدستوريين فيما بعد!

ولكنّ الحكم الصريح في ظل المادة القانونية المعترف بها دفع الأستاذ أحمد

بهاء الدين ليقول^(١): «أن رجال الدين ثاروا لأنهم رأوا في الكتاب ما يُزعزعُ سلطانهم ويعطلُ منافعهم في الاتجار بالدين، ويكشف عن حقيقة هذه العمائم الضخمة التي لا ترتفعُ إلا لتسترَ وراءها الظلم والاستبداد».

ثم بدأ بالإمام الخضر حسين فأخذ عليه أنه أهدى كتابه في نقض كلام الأستاذ عبد الرازق إلى خزانة صاحب الجلالة فؤاد الأول ملك مصر المعظم، فهو في رأيه بهذا النقض القوي الهادم، وهذا الإهداء الملكي أحدُ أصحاب العمائم الضخمة التي لا ترتفعُ إلا لتسترَ وراءها الظلم والاستبداد، والأستاذ الخضر - رضي الله عنه - مجاهدٌ كبير حُكِمَ عليه بالإعدام في تونس لمناوئته الاحتلال الفرنسي، وفرَّ هارباً بدينه إلى المشرق حيثُ أكرمَه الله بمصر، ورعاهُ الملك فؤاد فساعَدَ على تعيينه بالأزهر بعد أن أدَّى الامتحان الرسمي أمامَ لجنة من كبار العلماء! فهل عَرَضَ أحدٌ من مُتتبعيه نفسه إلى الإعدام باذلاً رُوحه كما بذلَ، وهو أحدُ العمائم الضخمة حقاً برجولتها وعزتها، تلك التي تتفاصرُ عنها هامات الأدعياء!

أما إهداءُ الكتاب إلى ملك رَعَى حياته وأنقذَ مصيره فمما يجبُ على رجل يستشعرُ المنّة فيحاول أن يشكرها، وقد أهدى الدكتور طه حسين كتاب (صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان) الصادر بتاريخ ١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م إلى السلطان فؤاد قائلاً في إهدائه:

«إلى صاحب العظمة فؤاد الأول سلطان مصر.

مولاي، يحفظ التاريخ مالعظمتك من أثر محمود في إنشاء الجامعة وإحيائها، وأحفظ أنا ما تفضلت به من عطف علي، وتشجيع على درس الأدب القديم، وإذاعته، فمن الحق أن أرفع إلى مقامك الجليل، أول كتاب أنشره في أدب اليونان، وأنا سعيدٌ كل السعادة إن ارتاحتُ إليه نفسك الكريمة، وانتفع به أبناء هذا الوطن العزيز».

هذا ما كتبه الدكتور طه في إهدائه، ولم يجذُ لائماً ما ينكرُ عليه الاعتراف بالفضل لذويه، ولكن المجاهد الذي كان قاب قوس من الإعدام في سبيل وطنه

(١) أيام لها تاريخ للأستاذ أحمد بهاء الدين، ص ١٦٠.

ودينه، وَجَدَ من يَشَنّ عليه التكبر ويرميه بالوصولية لأنه أحد أصحاب العمامة الضخمة! وهكذا يختلف الميزان.

العنصر الرابع:

يقول الدكتور جابر عصفور «إن القوى المستنيرة تولت الدفاع عن الكتاب، وكلّ الفصائل السياسية المؤمنة بالديمقراطية».

إن الذي يقرأ كلّ ما دار حول المعركة لا يجدُ أحداً من غير الأحرار الدستوريين وجريدة (السياسة) الناطقة بلسانهم قد وقَفَ مع الأستاذ علي عبد الرازق في اتجاهه! فأين هي القوة المستنيرة، وأين الفصائل السياسية المؤمنة بالديمقراطية؟ إن حزب الأحرار كان أرستقراطياً ليس له كيانٌ شعبي، وقد جيء به إلى الحكم ليكونَ خصماً لحزب الأغلبية الديمقراطي وهو حزبُ الوفد، فهل يكون حزب الأحرار ممثلاً للقوى الديمقراطية؟!

ليقرأ الكاتبُ ما سجّله الأستاذ عبد الرحمن الرافعي عن اتجاه هذا الحزب ليعرف أنّه لا يعرف معنى الديمقراطية التي هي في صميمها أن يحكم الشعب نفسه بوساطة نواب يُنتخبون انتخاباً نزيهاً! وليست للحزب أدنى نسبة شعبية تؤهله للاستقلال بالحكم، فكيف يكونُ هو القوة الديمقراطية التي وقفت مع الشيخ! إن القوى الديمقراطية كانت ممثلةً في جريدة (البلاغ)، وجريدة (كوكب الشرق) الوفديتين، وقد شتتا الحرب القاضية على مزاعم الأحرار الدستوريين، وأظهرتا بالدليل الواضح عداوتهم للأكثرية التي تؤمن بالزعيم الخالد سعد زغلول، وإذن فليست هناك فصائل سياسية تؤمن بالديمقراطية قد ساندت الرجل، ومن كتب هذا القول يسترسل في الحديث دون رجوع إلى دلائل! وسعد زغلول الزعيم الوطني المستنير حقاً قد وصف الكتاب بالفاهة والبطلان كما سيجيء.

ثم ما معنى القوى المستنيرة! وما معنى التنوير الذي يذكرونه هذه الأيام! لقد سقطت كلمة (التقدمية) التي أزعجنا بها الماركسيون قرابة نصف قرن، سقطت لأنها كلمة لا مدلول لها في الواقع، وإنما هي زيفٌ يستر خلفه من امتصّوا دماء الشعوب باسم التقدمية، وهم في حياتهم الخاصة أباطرة يأكلون قوت الفقير، زاعمين أنهم يدافعون عنه، وقد كان للتقدمية دُولُها وذخيرُها وأنصارها في أكثر من قارة، ومع ذلك فقد باءت بالفشل، واليوم تختفي كلمة التقدمية مذحورة محظورة لتحل محلها

كلمة (التنوير)، وليتصدقَ بها من ينشرون الأباطيل في كُتُب حُكْم على أكثرها بالخطأ والجموح، وقد نُوقِشتْ حتى بان عوارها، ولم يعد يقرأها باحثٌ رشيد، فهل (التنوير) معناه أنَّ القرآن لم يأتِ بتشريع للحياة؟ هل معناه أنَّ رسول الله كان ملكاً حين أقام دولة؟ وهل معناه أن الفتوح الإسلامية لم تكن لنشر دين الله؟! إذا كان التنوير معناه ذلك فهو تضليل كُشف عواره، وسيلقى مصير التقدمية التي فزع أكثر دعائها إلى كلمة التنوير بعد أن خجلوا من ذكر التقدمية، ولن يطول أمد استقرارهم، لأنهم لا يعتصمون بالحق الساطع ولن يصح غير الصحيح!

العنصر الخامس:

نصل إلى العنصر الخامس وهو قول الأستاذ أحمد بهاء الدين: «إن الإنكليز قد التقطوا فكرة الخلافة الواقعة على الأرض كي ينشؤوا خلافةً إسلامية جديدة تنمو تحت رعايتهم، وأن الخلافة حجة للتغريب بالمسلمين...» إلخ ما ذكرناه.

وهذا كله وهم لا يعتمد على شيء من التفكير المستقيم، فالإنكليز منذ بدؤوا يستعمرون دول الإسلام يضيّقون بالخلافة أكبر الضيق، لأنها أداة تجمع واتحاد، وسياستهم تعتمد على حكمتهم القائلة (فرق تسد)، وقد أوجدوا فريقاً من المستشرقين يتبعون وزارة المستعمرات البريطانية، ومن رسالتهم الأصلية الطعن في الخلافة، وضرورة إلحاق المآثم المنكرة بها، وقد ذكرنا من قبل ما أجهد فيه (مرجليوث) وأشياؤه من مستشقي الاستعمار أنفسهم في تزييف الحقائق التشريعية والمواقف التاريخية الخاصة بالخلافة الإسلامية ليتضاءل بريقها في عيون الأغرار ممن يظنون كتاب الاستشراق على شيء من الإخلاص للعلم والحقيقة، فكيف يعمل الإنكليز على إحياء الخلافة من جديد وقد كانت شجى في حلوقهم، وقذى في عيونهم.

وما مدح كُتّاب الإنكليز جماعة الاتحاد والترقي بتركيا وبالغت صحفهم وبحوثهم في مدح هؤلاء قبل أن تقوم الحرب العالمية الأولى وينضم الأتراك فجأة إلى ألمانيا، أقول ما مدح كُتّاب الإنكليز وصحافتهم جماعة الاتحاد والترقي إلا لأنها تحللت فعلياً - لا رسمياً من قيود الخلافة، حين سجنَت الخليفة محمد الخامس في قفص من ذهب، فبات سليب الحول، عديم الطول، وقد رتت الفرحة في صحف أوروبا بعامة وصحف إنكلترا بخاصة حين بادر كمال أتاتورك بإسقاط

الخلافة سنة ١٩٢٤م، وعدته هذه الصحف أكبر مصلح عرفته بلاد الإسلام!

هذه واحدة، أما الثانية فنحن نعلم أن الملك حسين بن علي كان المعوان الأول للحلفاء في الشرق العربي، وقد نازع الأتراك منازعة العدو الألد أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد انتهز سقوط الخلافة في تركيا وأعلن نفسه خليفة للمسلمين، فإذا كانت إنكلترا تودّ إحياء الخلافة فإلى أيّ بلد تتجه؟ المصّر التي أصرت على علائق الود بينها وبين الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى، وطرح جانباً أوامر الإنكليز بهذه القطيعة، وما زالت ترى الأتراك إخواناً في العقيدة والآلام والآمال، أم تتجه إلى مؤازرة حليفها الصديق الحسين بن علي الذي نازع تركيا وجاهرها بالحرب منخدعاً بوعود الحلفاء، إن خاطر إحياء الخلافة لو خطر مرة واحدة لدى الساسة من الإنكليز ما ترددوا في اختيار صديقهم الحسين بن علي الشريف، ولكنهم يرفضون الخلافة رفضاً لا مناص منه، فكيف إذن يكون صاحب كتاب (الإسلام وأصول الحكم) خصيماً لهم، وعدواً لدوداً لآرائهم حين يطعن الخلافة في الصميم، وهو معهم في طريق واحد لا يختلفان!

لقد ذكر الأستاذ الأكبر محمد الأحمد الظاهري في مذكراته السياسية^(١) أنه على إثر تولية السلطان حسين العرش استدعاه رشدي باشا رئيس الوزراء حينئذ، وذكر له أن الدعاء على المنابر لخليفة تركيا موضع اعتراض من إنكلترا، والواجب أن يُحذف، فرد الشيخ الأحمد بأن حذف الدعاء للخليفة يثير مشاعر المسلمين في مصر، ويحدث ضرراً بالغاً، وبعد نقاش متد رأى الشيخ الأكبر ألا يُحذف اسم الخليفة وأن يدعى له بالتوفيق لا بالنصر كيلا تتأزم الأمور مع المحتلين، فأقر رشدي باشا رأي الأستاذ الأحمد، وجرى الأمر عليه، كما جدت أمور أخرى تدل على حرص إنكلترا على استئصال الخلافة، فكيف تسعى إلى إحيائها بعد أن وجدت من قام بمَرْضاتها النفسية دون أن تتكلف أدنى مجهود.

هذا ما أكتبه تعليقاً على رأي الأستاذ بهاء الدين، أما الدكتور ضياء الدين الرئيس فقد تتبع المسألة تتبعاً تاريخياً مدعماً بالوثائق الناطقة، ودلّ على صبر وبصيرة^(٢)، فرجع أولاً إلى ما كتبه رئيس تحرير جريدة (السياسة) وهو أقرب المؤيدين إلى

(١) مذكرات الشيخ الظاهري، ص ١٦٦.

(٢) كتاب الإسلام والخلافة في العصر الحديث، ص ٧٣-٩٢.

صاحب الكتاب، ولسان الحزب في صحيفته اليومية، فتتبع كل ما كتبه على مدى عدة أشهر بشأن هذه القضية فلم يجد الدكتور هيكمل قد أشار إلى الإنكليز تصريحاً أو تلميحاً، إذ اعتبرهم بحكم الواقع المشاهد خارج الدائرة تماماً، كما نقل عن نائب رئيس الوزراء يحيى باشا إبراهيم أنه ذهب إلى مقر الوكالة البريطانية للحديث عن موقف حزب الأحرار من قرار هيئة كبار العلماء الناطق بفصل الشيخ من منصبه، وقد دارت محاوره بينه وبين القائم بالأعمال لتغيب المندوب السامي، عقب عليها رئيس حزب الأحرار نفسه بقوله:

«إن ساسة الإنكليز يرتهبون أمام المسائل الدينية، وسياستهم تقتضي ألا يتعرضوا لأمر ديني، وقد قالوا: نحن لا دخل لنا، فلتتصرف الحكومة بما تريد».

كما ذهب الدكتور الرئيس لاستقصاء ما كتبه المؤرخ أحمد شفيق باشا في الحوليات، والأستاذ عبد الرحمن الرافعي بهذا الصدد، فلم يجد لدى الرجلين المحايدين أدنى إشارة إلى موقف الإنكليز سلباً أو إيجاباً، وبذلك أصبح كلام الأستاذ أحمد بهاء شبيهاً بالحبكة القصصية التي يتخيل فيها القاص ما شاء ليملا الفراغ تارة، وليجذب الأنظار بغرائب المفارقات تارة أخرى، وما هكذا يُكتب التاريخ!

- ٢ -

آن أن أكثر على أظهر قضايا الكتاب الموغلة في الخطأ بالتصويب، وأقول أظهر قضايا الكتاب لأن مناقشة جميع أخطائه تتطلب كتاباً مستفيض المعاني، وهذا ما قام به نفر من الأساتذة الكرام، أشرت إليهم في صدر هذا البحث، وقد رجعت إلى قرار هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف، حيث تعرض للنقاط الخطيرة في هذا الكتاب، وجعلها موضع المحاكمة، وسجلتها في مقدمة عريضة الدعوى، فهي إذن مصدر الضيق الكارب الذي عاناه المخلصون للحقيقة، والاكتفاء بها مقنع كاف.

لقد حصرت الهيئة الموقرة موضع مؤاخذاتها العلمية في هذه النقاط^(١):

١ - القول بأن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا.

(١) مجلة المنار - مجلد ٢٦ صفر ١٣٤٤ هـ.

- ٢ - القول بأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي ﷺ، كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين.
- ٣ - القول بأن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ، كان موضع غموض وإبهام واضطراب ونقص وموجباً للحيرة.
- ٤ - القول بأن مهمة النبي ﷺ كانت بلاغاً للشرعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ.
- ٥ - إنكار إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام، وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا.
- ٦ - إنكار أن القضاء وظيفة شرعية.
- ٧ - القول بأن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده كانت حكومة لا دينية.

الدعوى الأولى:

أما القول بأن الشريعة الإسلامية شريعةٌ روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الحياة الدنيا، فالعجبُ ممن يُصدِّقه لا يقلُّ عن العجب ممن يقوله، لأن كلَّ قارئٍ لكتاب الله أو سامعٍ يعلمُ ما يتحدَّث به القرآن في جُلِّ سُورِهِ من شؤون هذه الحياة، فكيف تكون الشريعةُ روحية وكتابُ الله يأمر بالحكم بما أنزل الله، ويتحدَّث عن أحكام البيع والرهن والربا والذِّين والوصية والزواج والطلاق والظهار والميراث، والقصاص والدية وقطع يد السارق وجلد الزاني وإعداد العدة للحروب، ومسائل القتال والسلام، وما لا نستطيع حصره في صفحة من هذه الصفحات، أجاث هذه الأحكام ليرمى بها في الطريق دون تنفيذ.

هذا بعضُ ما في كتاب الله، فكيف بما امتلأت به كتب السنة المطهرة من شرح هذه الأحكام، وتفصيل مجملها وتوضيح ما قد يشكل من مدلولها، والقيام على تنفيذها دون استجابة لشفاعه عزيز، وإن يكن حبُّ رسول الله وابنِ حَبِّه، أما سيرة رسول الله فلا تُوجد سيرة نبيٍّ من أنبياء الله قد استكملت حلقاتها استكمالاً دقيقاً، ثم تواترت على الألسنة قبل التدوين، وامتلأت به الصحف بعده، كما استكملت سيرة الرسول، وما زال المؤرخون يبذلون الجُهد في تحليل مواقفها، وتفسير آراء صاحبها، وصغار الطلبة يعلمون من أمره الكثير، سفرأ وإياباً، وحرباً وسلمأ، وانتصاراً وانتظاراً، ومودةً وبغضاء، ولكل موقف تعليله وإيضاح ما يؤخذ منه، أيكون قارئ القرآن من أشباه الأميين، وراوي بعض الحديث من تلاميذ المدارس،

وسامع أحاديث السيرة العطرة في المساجد والزوايا ممن يجلسون مجالس الوعظ والإرشاد، أيكون هؤلاء جميعاً يدركون ما لا يدركه باحثٌ نال أرقى شهادة بالأزهر الشريف لعهدِهِ! .

قد نعلمُ أن بعض من يتحدثون عن الكتاب والسنة وسيرة رسول الله من ذوي الاستشراق، قد ذهبوا هذا المذهب خضوعاً لُخْطَةً يعلمون عاقبتها، ويخفون في أنفسهم ما لا يبدونه، ومنهم من يقبضُ الأجر المغري على تلفيق الأوهام، ولكننا مع ذلك نعلم أن من يقول بروحية الإسلام من هؤلاء الأجانب لا يُرجع إليه ولا مَنْ على شاكلته في مسائل التشريع والسنة المطهرة والسيرة الشريفة، إذ هم غرباء لغةً واعتقاداً وميولاً فوقَ ما يؤوِّدُهُمْ من عجمة لا تهتدي إلى أسرار البيان ودقائق التشريع، قد نرجعُ لأمثال هؤلاء من بني جلدتهم فيما برعوا فيه من شؤون الطب والهندسة والطبيعة والكيمياء، وأفانين التقدم العلمي، لأنَّ سبق أوروبا الظافر قد جعلها قبلة الدارسين اليوم في هذا المجال .

وأقولُ اليوم لأنَّ الفلك دَوَّار، وقد كانت الحضارة الإسلامية في الخلافات العربية الثلاث ببغداد العباسية ومصر الفاطمية والأندلس الأموية تغمرُ الناس بضوئها العلمي الباهر، وأوروبا تموجُ في لجج الظلام! وفي هذه العُهود الزاهرة كانت أحكام الشريعة نافذةً في مجالس القضاء إذ يحكمُ القاضي في الدقائق المعضلة بما يعلمُ من آراء الفحول مؤيَّدةً بالدليل، مشفوعة بالبرهان، وما ضاقتْ هذه الأحكام عن حاجات الناس على تناسل الأيام، بل كلُّ حكم يجد عن طريق القياس والاستنباط يكونُ مجالاً للتفريع والتدليل، ويصبحُ بعض التراث الحيِّ على مدى القرون المتتابعة .

ولن تجدَ أمةً من الأمم في القديم والحديث، وأقولُ في الحديث مع انتشار الجامعات العلمية في الشرق والغرب لها هذا الكنز الهائل في التشريع الإسلامي لا في العبادات وحدها، بل في جميع شؤون المعاملات والبيوع والحدود، وما يسمَّى الآن بالأحوال الشخصية من ميراث وزواج وطلاق! أفيعقل أن يغيب هذا عن دارس للفقه بالأزهر! نعم قد يغيب إذا انطفأ بريق العقل، كما غاب الآن لدى من يرجفون بما يُسمَّى الإسلام السياسي، والإسلام المستنير، وهي صفاتٌ مريبة

ابتدعها الغرباء، وتابعنهم بها عن قصد أو غير قصد، وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب.

أليس عجباً أن يقول الأستاذ علي عبد الرازق في كتابه^(١): «ذلك من أغراض الدنيا - أي شؤون السياسة والدولة وإقامة العدل بالقسط - والدنيا من أولها إلى آخرها أهونُ عند الله من أن يُقيم على تدبيرها غير ما ركبَ فيها من عقول وجعل لنا من عواطف وشهوات، وعلمنا من أسماء ومسميات، هي أهونُ عند الله من أن يبعث لها رسولاً».

ولكنَّ الله قد بعثَ الرسول وأنزلَ الكتاب والميزان ليقومَ العدل بهما بين الناس، فكيفَ تكونُ أهونُ لديه من أن يبعثَ الرسول! إنه لم يبعثَ رسولاً واحداً بل بعثَ من لا نخصيهم من الرسل والأنبياء، منهم من عُرف ومنهم من جُهل، وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلا بإذن الله!.

لا أطيل القولَ في أمر أعتبرُهُ ويعتبرُهُ المحاييد البريء من ذوي الإنصاف أمراً بدهياً لا يحتاجُ إلى إسهاب، وإنما أشيرُ إلى ما ذكرته من قبل من أنَّ الولوع المريض بقياس الإسلام على المسيحية هو الذي مدَّ العنان لبعض من لا يفهمون المسيحية، والإسلام معاً، ولئن فهموها فقد أغماهم الغرض، وران على أعينهم الضلال، وهؤلاء تعرفهم بسيماهم، ومن يحاولُ التستر بمموهات الأدلة، وملفقات الأحداث تعرفه في لحن القول، وهو المريب يكاد أن يقول خذوني.

ومحاولة استقطاع جملةٍ من كتاب قديم لمؤلف سابق، بحذف بعض كلماتها، أو تحريف معناها على غير وجهه محاولة باطلة، لأنَّ القدماء جميعاً قبل أن نبثوا بأساتذة الاستشراق لم نجد فيهم من قال بأنَّ شريعة الإسلام روحية محضة! وها قد قالها الأستاذ عبد الرازق فصفق له المرجفون! وتبعه من سار في طريقه، فما أتى بغير التكرار المملول! وفيهم من كثر قوله دون أن يذكره، لينال سبقاً موهوماً في حومة خاسرة عالجها المستنيرون حقاً، لا الذين يتشدقون بالاستنارة وهم منها بمكان بعيد.

(١) الإسلام وأصول الحكم، ص ٩٧.

الدعوى الثانية :

نأتي إلى القول بأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين، فتقرر أن أحداً من المسلمين قبل الكاتب لم يقل إن الرسول كان يسعى إلى الملك، بل إن خصوم الرسول من مشركي قريش كانوا يعرفون تماماً أنه لا يريد أن يكون ملكاً وقد طاف هذا الخاطر بأذهانهم في مبدأ الدعوة فعرضوا عليه أموراً منها قولهم: «لو كنت تريد أن تكون ملكاً لملكناك علينا»، فردّهم بما بدّد هذا الخاطر من أذهانهم، وهم كانوا يعرفون مقدار رجولته وعظمة نفسه، فلو وافقهم على أن يكون ملكاً لألقوا السلم عن طوع.

فإذا كان المؤمن والمشرک معاً يعرفان من اتجاه رسول الله أنه صاحب رسالة يسعى إلى إبلاغها للناس كافة دون أن يحرص على استعلاء ورياسة، فكيف يذهب المؤلف هذا المذهب، وقد قال رسول الله حين جاء بالدعوة أنا عبدُ الله ورسوله، وقال لمن استشعر خشيةً من لقائه: «هوّن عليك فأنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة»، فهل يحرص من يصف نفسه بالعبودية الخالصة لله، ومن يعلن أنه لا يفرق عن الناس في شيء أن يكون ملكاً ذا سلطان وأبهة لأجل الملك وحده لا لكي يبلغ رسالة الله!

إن المؤلف قد استشعر غرابة اتجاهه فقال^(١): «بعدما كان هذا البحث جديداً في الإسلام لم يتناوله المسلمون من قبل على وجه صريح، ولم يستقرّ للعلماء فيه رأي واضح، وإذن فليس بدعاً في الدين ولا شذوذاً عن مذاهب المسلمين أن يذهب باحث إلى أن النبي ﷺ كان رسولاً وملكاً، وليس بدعاً ولا شذوذاً أن يخالف في ذلك مخالف، فذلك بحث خارج عن دائرة العقائد الدينية التي تعارف العلماء بحثها، واستقر لهم فيها مذهب، وهو أدخل في باب البحث العلمي منه في باب الدين».

وقارئ هذا الكلام يقف مندهشاً أمام قول المؤلف إن بحثه «خارج عن دائرة العقائد الدينية... وهو أدخل في باب البحث العلمي منه في باب الدين» إذ أنه ينص على أن البحث في رسالة الرسول بحث ينتمي إلى العلم لا إلى الدين، فإذا

(١) الإسلام وأصول الحكم، ص ٤٩.

كَانَ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ لَا يَتَّصِلُ بِالْدِينِ، فَبَآئِي شَيْءٍ يَتَّصِلُ، وَهَلِ الْبَحْثُ الدِّينِيَّةُ إِلَّا بَعْضُ الْبَحْثِ الْعِلْمِيَّةِ تَنْدَرُجُ فِيهَا كَمَا يَنْدَرُجُ الْخَاصُّ فِي الْعَامِ، فَكَيْفَ يُقَمُّ الْمُؤَلَّفُ الْحَوَائِلَ الْحَاجِزَةَ بَيْنَ النَّاحِيَتَيْنِ وَكَأَنَّ كُلَّ بَحْثٍ دِينِيٍّ لَا يَنْتَمِي إِلَى الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ؟ وَلِمَاذَا يُسَمَّى بَحْثًا إِذْنًا!!

إِنَّ الَّذِينَ لَمْ يَذْكُرُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ مُلْكًا لَا يُرِيدُونَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَا سُلْطَانٍ سِيَاسِيٍّ، وَلَكِنْ يَقَرُّونَ أَنَّ قِيَامَهُ عَلَى إِبْلَاحِ الرِّسَالَةِ وَالِدِفَاعِ عَنْهَا وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِهَا مِمَّا يَتَضَاءَلُ جَوَارَهُ أَنْ يَكُونَ مُلْكًا، هُنَاكَ مَلْحَظٌ خَاطِئٌ، هُوَ أَنَّ الْمُلْكَ - أَيْ مُلْكٌ - قَدْ يَكُونُ مُصْلِحًا وَقَدْ يَكُونُ مُنْحَرَفًا، أَمَّا الرِّسَالَةُ فَلَنْ يَكُونَ مُنْحَرَفًا فِي أَيْ اتِّجَاهٍ أَرَادَ، لِأَنَّهُ مُقَيَّدٌ بِوَحْيِ اللَّهِ! فَإِذَا كَانَ لِلْمُلْكِ سُلْطَانٌ قَدْ يَسْتَعْمَلُهُ فِي الْخَيْرِ أَوْ الشَّرِّ، فَلِلنَّبِيِّ ﷺ سُلْطَانٌ لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الْخَيْرِ، وَهُوَ بَرِيَا سَتِهِ الدِّينِيَّةُ، وَسِيَاسَتِهِ الْخَلْقِيَّةُ، جَمَعَ أَعْظَمَ مَا يَكْمُلُ بِهِ الرَّئِيسُ الْمُدِيرَ الْحَازِمَ! وَرِيَاسَةَ الرِّسَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ أَمْرٌ وَاضِحٌ قَرَّرَهُ الْكِتَابُ الْكَرِيمُ، وَأَكَّدَتْهُ السَّنَةُ الْمُطَهَّرَةُ، يَقُولُ الْأَسْتَاذُ مُحَمَّدُ الْخَضِرُ حَسِينٌ بِهَذَا^(١) الصَّدَدُ:

«أَمَّا الْكِتَابُ فَمِنْ آيَاتِهِ الْكَثِيرَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَقًّا يُحْكِمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وَأَمَّا السَّنَةُ فَمِنْ شَوَاهِدِهَا أَقْضَيْتُهُ ﷺ وَإِقَامَتَهُ الْحُدُودَ عَلَى مِثْلِ الزَّانِ وَالسَّرَّاقِ وَشَرْبِ الْخَمْرِ، وَإِرْسَالَهُ الْأَمْوَءَ فِي طُولِ الْبِلَادِ فِي عَرْضِهَا، وَأَمَّا اعْتِقَادُ الْعُلَمَاءِ قَاطِبَةً بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا، وَمُشْرَعًا سِيَاسِيًّا، فَدَلِيلُهُ إِجْمَاعُهُمْ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ بِأَقْضَيْتِهِ وَأَحْكَامِهِ وَسَائِرِ تَصَرُّفَاتِهِ الْعَائِدَةِ إِلَى شُؤْنِ الدَّوْلَةِ».

أَمَّا التَّسْمِيَةُ بِالْمُلْكِ فَقَدْ رَأَاهَا الْعُلَمَاءُ أَضْأَلُ وَأَهْوَنَ مِنْ أَنْ تُضَافَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ آثَرُوا عَلَيْهَا وَصْفَ الرِّسَالَةِ، لِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَإِنْ كَانَتْ لَهُ كُلُّ وَاجِبَاتِ الرَّئِيسِ الْعَادِلِ وَحَقُوقِهِ فَقَدْ فَاقَ الرُّؤَسَاءَ جَمِيعًا فِي التَّزَامَةِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ، وَالْعَمَلِ عَلَى تَطْبِيقِهَا التَّطْبِيقَ الصَّحِيحَ! وَالْعُلَمَاءُ إِذْنًا يَكْرُمُونَ رَسُولَ اللَّهِ حِينَ يَجْعَلُونَ الرِّسَالَةَ أَخْصَصَ مَزَايَاهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ بِخَاطِرِهِمْ أَنَّ يَجِيءُ كَاتِبٌ بَعْدَ عِدَّةِ قُرُونٍ فَيَذْكُرُ أَنَّهُ كَانَ ذَا سُلْطَانٍ فَهُوَ إِذْنًا مُلْكٌ!.

(١) نَقَضَ الْإِسْلَامُ وَأَصُولُ الْحُكْمِ، ص ١٣٦.

ولكي يؤكد المؤلف أنّ حروب رسول الله لم تكن في سبيل العقيدة، بل كانت في سبيل الملك تجراً أن يقول^(١): «وما عرفنا في تاريخ الرسل رجلاً حمل الناس على الإيمان بالسيف، ولا غزاً قوماً في سبيل الإقناع بدينه، وذلك هو المبدأ الذي يفرزه النبي ﷺ فيما كان يبلغ من كتاب الله، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾»، وقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِغَ مِنْ أَحْسَنُ﴾»، وقال: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُنْيَسَ ءَاسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعَمَلِ﴾».

هذا قول الأستاذ، ونحن نعلم أن رسالة محمد ﷺ هي الرسالة الخاتمة، وهي التي أرسلت إلى الناس كافة، فإذا كان أنبياء الله من قبله لم يحملوا السيف حمايةً لدعوتهم المحدودة فإن عموم رسالة الرسول، ووجوب ذبوعها إلى الآفاق تُوجب على صاحب الرسالة أن يقاوم من يعترضه، فهو أولاً يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن كما يحتاج الناس بالبرهان، ويقول لمعارضيه من ذوي السلم أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، كما يعلن أن لا إكراه في الدين إذ تبين الرشد من الغي! وكلّ هذا مُسلّم إذا لم يتعرض للإيذاء، وإذا لم تُجابه الدعوة بالتحرش وتُحشد لها الجموع في الديار المتاخمة لئهاجم مقر الرسالة، إذا كان ذلك فلا بدّ من القتال تنفيذاً لقول الله: ﴿إِنَّ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا أُولَئِكَ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ . وقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ، وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْسِدُوا﴾ .

هذه آيات مشتهرة يحفظها المؤلف لأنه امتحن في حفظ القرآن بالأزهر، وكان عليه وقد استشهد بمثل قول الله: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أن يجمع الآيات كلها وأن يبحث أسباب النزول ومقتضياته وأن يفهم كل نص في ضوء سبب نزوله، حتى إذا اكتملت النصوص، وجد التعارض معدوماً في ضوء الموقف التاريخي الذي نزل فيه النص مقارناً بالموقف الآخر.

(١) الإسلام وأصول الحكم، ص ٥٣.

وعلماء التشريع لم يفتهم ما يسمى بالفقه الموضوعي إذ يجمعون النصوص التي يلوح من بعضها ما يشبه التعارض، ليؤلفوا بينها في ضوء ما يعلمون من أقوال الرسول وتوضيحه! أما أن نقتطع آيةً من مناسبتها، ونترك آيةً مكتملة في الموضوع ذاته لنرضي الهوى بحكم تعسفي لا يجد برهانه الصريح، فليس هذا سبيل الباحثين.

الدعوى الثالثة:

هل كان نظام الحكم في عهد النبي ﷺ موضع غموض وإبهام، واضطراب ونقض، وموجباً للحريرة!!

لا أدري إذا كان المؤلف يقصد أن ما عناه بالغموض والاضطراب حول نظام الحكم في عهد النبي ﷺ يرمي إلى عصر النبوة أم يرمي إلى ما بعده من العصور؟ فإن كان يظن أن نظام الحكم في عهد النبوة كان موضع غموض وإبهام فهذا ما تنكره الحقائق الصارخة، لأن الحكم حينئذ كان مُستمدّاً من كتاب الله وهو ذائع الذكر، متصل الحفظ، أو من تبين الرسول وتوضيحه بالسنة القولية والفعلية، وقد دُوّنَت على نحو مشتهر لم يُنح لأحد من الأنبياء والرسل قبل محمد ﷺ، فجميع أفعاله الظاهرة وأقواله المسموعة قد تناقلها أصحابه، وحرصوا على إداعتها، ولكل صحابي اعتزازه البالغ بما وعى وحفظ عن رسول الله، بحيث كان أكثرهم يحرص على أداء سنته حتى فيما لا يُراعى الالتزام به من سير في طريق أو صلاة في موضع، أو استراحة في مكان.

فإذا كانت هذه البسائط اليسيرة موضع التفات وأسوة، أفلا تكون آراؤه القضائية وأحكامه الفقهية، ومأثوراته النبوية موضع الاحتفاء والاحتفال، وكيف تكون موضع الاضطراب والإبهام والغموض، وهي مجال الدراسة والمناقشة والتوضيح في مجالس الصحابة، وقد دُوّنَت فيما بعد ذلك في كُتب الحديث والسيرة والشمال، وأعقبتها الشروح والتحليلات الشافية بما يقصر العمر الطويل عن استيعاب أيّسره فضلاً عن أكثره، فهل يعقل بعد هذا أن تكون أحكام الرسول في القيادة والرياسة موضع غموض واضطراب؟

أما إذا كان المؤلف يرى أن هذا الغموض والاضطراب، قد بدت آثاره فيما دُوّن من الكتب بعد عصر النبوة، فما أبعدَ هذا القول عن الواقع، لأن كُتب التفسير

والحديث والفقه والأصول وعلم الكلام والتاريخ لم تدع في هذا المنحى مزاداً لمستزيد، وقد اعترف المؤلف أنه لم يطلع على كتب التراث في مجال العلوم السياسية في الإسلام فذكر^(١): «أن من الملاحظ البين في تاريخ الحركة العلمية عند المسلمين أن حظ العلوم السياسية فيهم كان بالنسبة لغيرها من العلوم الأخرى أسوأ حظ، وأن وجودها بينهم كان أضعف وجود، فلما نعرف لهم مؤلفاً في السياسة ولا مترجماً، ولا نعرف لهم بحثاً في شيء من أنظمة الحكم ولا أصول السياسة، اللهم إلا قليل لا يُقام له وزن إزاء حركتهم العلمية في غير السياسة والفنون».

هذا مبلغ علم الأستاذ عن كتب السياسة في الإسلام، وقد تعقبه الأستاذ محمد الخضر حسين^(٢) فقال ما ملخصه أن العرب قد وقفوا على مُترجمات كتب السياسة لأرسطو وأفلاطون، وأن الكندي قد ألف في السياسة اثني عشر مؤلفاً، وأحمد بن الطيب ألف كتاب السياسة الصغير وكتاب السياسة الكبير، والفارابي أصدر ثمانية مؤلفات في السياسة منها كتاب (السياسة المدنية)، وهو يتحدث عن الاقتصاد السياسي بلغة العصر الحديث، والإمام الماوردي قد كتب عن الأحكام السياسية في كتابه (سياسة الملك)، وابن أبي الربيع قد كتب عنها في كتاب (سياسة المالك) والطرطوشي قد أصدر في ذلك كتابه (سراج الملوك)، ومضى الأستاذ الخضر يسجل أسماء أسعد بن الخطير وابن خرداذبه، وابن خلدون وابن عبد ربه، والفتح بن خاقان وابن المقفع، وعبد الكريم البرزنجي، وحسين السمرقندي ناسباً إلى كل مؤلف من هؤلاء ما كتبه من أسفار السياسة، ومنتهاً إلى قوله^(٣):

«هذا ما أطلعنا عليه أو على التعريف به في بعض كتب التاريخ، وقد مُنيت المكاتب الإسلامية ببلايا الإحراق والإغراق والإنلاف التي سامها بها أعداء العلم على ما هو معروف في التاريخ من هجمات التتار على بغداد، ونائية خروج المسلمين من الأندلس ونكبات الحروب الصليبية وغيرها».

على أن الأستاذ قد قرأ آيات الكتاب وأحاديث السُّنة وما كتبه ابن خلدون،

(١) الإسلام وأصول الحكم، ص ٢٢.

(٢) نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم.

(٣) المصدر السابق.

وما فسر به الشارحون كلام الله وأحاديث الرسول، وفي ذلك كله مَقْنَعٌ لمن يريد استجلاء الحقيقة في مصدرها الصحيح.

الدعوى الرابعة:

قول المؤلف إن مهمة النبي ﷺ كانت بلاغاً للشريعة مجرداً عن الحكم والتنفيذ، تتداخل هذه الدعوى الرابعة مع الدعوى الثانية القائلة بأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين، لأنه في هذا الرأي قد قرّر مخطئاً أن جهاد الرسول كان من أجل انتشار الملك وليس من أجل الإسلام وتأمينه، وهو هنا يحصر مهمة الرسول في تبليغ الرسالة فحسب، دون ما قام به من تنفيذ أوامر الكتاب، وسرد عليه الآن بما يُعتبر إضافةً للدعوى الثانية إذ هما من باب واحد.

أجهد المؤلف نفسه ليثبت أن الرسول ﷺ كان رسولاً وملكاً معاً! وبعد أن اطمأن إلى ما قرّره أخذ يتساءل^(١): هل كان تأسيسه ﷺ للمملكة الإسلامية وتصرفه في ذلك الجانب شيئاً خارجاً عن حدود رسالته ﷺ أم كان جزءاً مما بعثه الله، وأوحى به؟

وهذا التساؤل بين شيئين، يجزم المؤلف بأحدهما دون الآخر على نحو قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَوْ إِنَّا كُنَّا لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ جعله المؤلف تمهيداً لقوله بعد سطور^(٢).

«فأما أن المملكة النبوية عمل منفصل عن دعوة الإسلام، وخارج عن حدوده، فذلك رأي لا نعرف من مذاهب المسلمين ما يشاكله، ولا نذكر من كلامهم ما يدل عليه، وهو على ذلك رأي صالح لأن يُذهب إليه، ولا نرى القول به يكون كفراً أو إلحاداً».

لقد اعترف الرجل أن رأيه هذا لم يقل به أحد من المسلمين على مدى ثلاثة عشر قرناً أو تزيد، وأزيد فأعترف أن التعبير (بالمملكة النبوية) نسبة لمحمد ﷺ قول لم يقل به أحد من المسلمين على مدى ثلاثة عشر قرناً أو يزيد، قد تكون المملكة النبوية جديرةً بنبي الله سليمان عليه السلام الذي وهبه الله ملكاً لم ينبغ لأحد من بعده

(١) الإسلام وأصول الحكم، ص ٥٥.

(٢) الإسلام وأصول الحكم، ص ٥٥.

أو لنبي الله يوسف عليه السلام، على تأويل الملك بالحكم فيما جاء من قول الله عز وجل على لسانه: ﴿ رَّبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أما أن تكون المملكة النبوية نسبة إلى رسول الله فهو من المبتدعات غير المسبوقة بين المسلمين، إلا أن يكون الكاتب نقلها عن مستشرق لا ندرية، وهو ما نميل إليه، إذ لا يسوغ في منطق الإيمان أن يصف مسلم نبيه بالملك مبتدئاً مبتدعاً، حيث لا خير في الابتداع والابتداء.

والسؤال الذي نوجهه إلى المؤلف الفاضل هو: أكان رسول الله في حروبه، وأخذه الصدقات وإقامة الحدود بين العصاة وقضائه بين الناس بما أنزل الله بعيداً عن وحي الله أم كان ملتزماً به؟! فإذا كانت الإجابة بأنه ملتزم بما جاء في الكتاب، فهي الرسالة إذن لا الملك، وإذا كانت الإجابة بأنه لم يلتزم بوحي الله فهو الخطأ الفادح! لأن أعمال الرسول السياسية نابعة كلها من وحي الله وإلهامه!.

وإذن فلماذا نقول إنه حين غزا المشركين كان ملكاً وهو ياتمر في ذلك بقوله عز وجل ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلُمُوا ﴾ ولماذا نقول عنه حين يقسم الغنائم إنه كان ملكاً وهو ملتزم بقول الله عز وجل: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ ﴾، وكذلك جميع ما صدر في مجال رياسته السياسية؟ إذ أنها كانت تنفيذاً صريحاً لقول الله!! فهل يكون ما سماه المؤلف (بالمملكة النبوية) لا يمت إلى الرسالة، مع أنه تنفيذ واضح لكتابها العزيز، وإذا لم تُنسب سياسة رسول الله إلى كتاب ربه فإلى أي شيء تنسب؟

على أن من الغريب أن يقول المؤلف في خطراته المندفعة: «وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة إلى الدين ولا لحمل الناس على الإيمان بالله ورسوله، وإنما يكون الجهاد لتثبيت السلطان، وتوسيع الملك»^(١).

ولو تتبع المؤلف خطوات الدعوة الإسلامية لعلم أن الجهاد النبوي لم يخرج عن حالتين: إما رد على اعتداء، أو مقاومة لسلطة جبارة تحول دون الإسلام والامتداد؛ لقد كان الإسلام معتدى عليه في بادئ أمره من المشركين، وتتابع الاعتداء عليه دون موجب حتى بعد هجرة الرسول إلى المدينة، فلم يكن بد من رد الاعتداء بمثله

(١) الإسلام وأصول الحكم، ص ٥٢.

تحقيقاً لقول الله عز وجل: ﴿أُوذِنَ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ بِآيَاتِهِمْ ظُلْمًا وَلَئِنْ أَنذَرْتَهُمْ لَقَدْ يُبَدِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتَلُونَ وَلَا تَسْتَدُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يُجِبُ الْمُفْتَدِينَ﴾ !.

هذه الحالة الأولى في العهد النبوي الذي سماه المؤلف بالمملكة النبوية، أما الحالة الثانية فتحزّش الأعداء بالإسلام ومقاومة الروم له وهي السلطة الجبارة المتاخمة، حين جمعت الجموع لمهاجمة المدينة، وحشدت تابعيها من العرب ليقاتلوا معهم إخوانهم في الجنس واللغة بغياً دون حق، فكان لا بدّ من منازلتهم في مؤنة وتبوك!! فأين المملكة النبوية التي ذهب الرسول باعتباره ملكاً ليذود عنها وليضم إليها مساحات أخرى! ألا يجوز لرسول الله أن يأمن في موطنه من هجوم فجائي يُدبّر لبيل! وإذا أخذ العدة وقاتل أياكون بذلك ملكاً يحمي عرشاً وليس نبياً ينشر عقيدة ويُصلح حياة!!

الدعوى الخامسة:

إنكار المؤلف لإجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام، وعلى أنّه لا بدّ للأمة من إمام يقوم بأمرها في الدين والدنيا.

يقول الأستاذ عليّ عبد الرزاق^(١): «لو ثبت عندنا أن الأمة في كل عصر سكنت على بيعة الإمامة لكان ذلك إجماعاً سكوتياً، بل لو ثبت أن الأمة بجملتها وتفصيلها قد اشتركت بالفعل في كل عصر في بيعة الإمامة واعترفت بها، فكان ذلك إجماعاً صريحاً، لو نُقل إلينا ذلك لأنكرنا أن يكون إجماعاً حقيقياً، ولرفضنا أن نأخذ منه حكماً شرعياً، وأن نتخذ حجة في الدين، وقد عرفت من قصة يزيد كيف كانت تؤخذ البيعة، ويغتصب الإقرار».

لقد خلط المؤلف هنا بين إجماعين، فلدينا الإجماع الأصولي الذي يستند إليه الفقهاء في تقرير الأحكام الشرعية، ولدينا الإجماع في قضية الخلافة، وهو إجماع الصحابة على أن يكون للمسلمين إمام عادل.

أما الإجماع بمعنى اتفاق المسلمين جميعاً على مبايعة إمام فهذا ما لم يقل به الفقهاء، وإنما قالوا إن مبايعة الشخص المعين تنعقد باتفاق جماعة من أهل الحل

(١) الإسلام وأصول الحكم، ص ٣١.

والعقد وإن لم يكن بينهم مجتهد أصلاً، وإذن فالصحابة قد أجمعوا على وجوب نصب الإمام إذ لا بدّ للأمة من إمام يقوم بأمرها، وهذا هو الحكم الفقهي، أما أن يكون هناك إجماع على اختيار شخص بعينه فلم يقل بذلك عالم، ولأن الإجماع في هذه الحالة متعذراً!

لقد ألم الدكتور ضياء الرئيس بما وقع فيه المؤلف من خلط بين الإجماعين المختلفين فقال^(١):

«لقد فهمه - الإجماع - على أن المقصود منه أن الناس كلهم يجمعون على اختيار شخص الخليفة، وتأسيساً على هذا الفهم الخاطئ قال: «إن الناس لم تجتمع أبداً على أي خليفة في عهد من العهود، بل كان هناك من يخرج على الخليفة في كل عصر». فظاهر أنه لم يفهم معنى أصل الإجماع الذي يقرره علماء الشريعة، أي إجماع الصحابة والمسلمين على قيام خلافة، فالإجماع على الخلافة لا على الأشخاص الذين يُختارون، والشرع لا يشترط الإجماع على الشخص الذي يُختار، إذ تكفي فيه الكثرة.

وإنصافاً للأستاذ علي عبد الرازق ذكر الأستاذ الدكتور ضياء الدين الرئيس^(٢) «أن الرجل عاد بعد حين، فألف كتاباً في مئة صفحة عن موضوع الإجماع يختلف أسلوباً وروحاً عن الكتاب السابق - يريد الإسلام وأصول الحكم - وأنه تاب وأناب بعد هذه المدة ورجع إلى الحق، فقد ذكر أن الإجماع ثابتٌ بآيات من القرآن، وأحاديث الرسول عليه السلام، وأنه حجة قطعية، وأن إجماع الصحابة هو بمنزلة الآية القرآنية والحديث المتواتر، وأنه مقدم على الأدلة الأخرى... وأن الخلافة ثبتت بالإجماع! ولا شيء بعد الاعتراف.

الدعوى السادسة:

القول بأن القضاء ليس وظيفة شرعية:

يقول الأستاذ علي عبد الرازق^(٣): «وفي التاريخ الصحيح شيء من قضائه عليه

(١) الإسلام والخلافة في العصر الحديث، للدكتور الرئيس، ص ٢٥٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٥٢.

(٣) الإسلام وأصول الحكم، ص ٤٠.

السلام فيما كان يُرفع إليه، ولكننا إذا أردنا أن نستنبط شيئاً من نظامه ﷺ في القضاء نجد أن استنباط شيء من ذلك غير يسير بل ممكن، لأنّ الذي نُقل إلينا من أحاديث القضاء النبوي لا يبلغ أن يعطي صورة بينة لهذا القضاء، ولا لما كان له من نظام إن كان له نظام».

ويدور المؤلف حول هذه المعاني حتى ينتهي إلى قوله:

«كلّما أمعنا تفكيراً في حال القضاء زمن النبي ﷺ، وفي حال غير القضاء من أعمال الحكم وأنواع الولاية، وجدنا إبهاماً في البحث يتزايد، وخفاءً في الأمر يشتد، ثم لا تزال حيرة الفكر تنقلنا من لبسٍ إلى لبسٍ، وتردنا من بحثٍ إلى بحثٍ إلى أن ينتهي بنا النظر إلى غاية ذلك المجال المشتبه الحائر».

هذا ما قاله الأستاذ، وأحبّ أن أقرر أن القضايا في عهد رسول الله كان لها قانون مدوّن في كتاب الله، فليس في الأحكام لبسٌ أمام هذا القانون، وكان رسول الله حاكماً يتولّى القضاء بنفسه في المدينة، تنفيذاً لقول الله عز وجل: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيماً﴾.

أما قلّة ما حكم فيه الرسول من القضايا فترجعُ إلى أن المسلمين في عهد النبوة كانوا في درجة من الإيمان تعصمهم من اللجاج في الباطل، لأنّ سيطرة الرقابة الإلهية تملأ نفوسهم، ولذلك قلّت المنازعات فيما بينهم، كما كانوا يعلمون أن القاضي هو رسول الله ﷺ، وأنه مؤيّد بفراصة صادقة ووحى إلهي، وسيكشف زيف المبطل، ويعلم حق المحق، لذلك تحاشوا كثيراً أن يلجوا مولج الخصومة الباطلة في حضرته، إلّا فيما اشتبّه فيه الأمر بين الحل والحرمة والصحيح والخطأ، كما أن جانباً مما رُفع إلى الرسول ﷺ في هذه المنازعات كان مقصده عند المتحاكمين هو الفتوى حينما كانا يجهلان وجه الحق، فيسمع الرسول ما يقولون ثم يُبدي ما فتح الله به عليه من الرأي فيتراضيان دون عناد.

وإذن فقد كان الرسول قاضي الناس بالمدينة، فإذا أرسل بعض الصحابة إلى مكان نازح ليلّي أمر المسلمين كان له أن يقضي بين الناس بحكم هذه الولاية، وهُنا كان القضاء جانباً من جوانب الحكم بين المسلمين.

يقول الأستاذ محمود بن محمد عرنوس في كتاب (تاريخ القضاء في الإسلام)^(١):

«مضى زمنُ النبي ﷺ وزمنُ أبي بكر، والقضاءُ جزءٌ من الولاية، إلى أن جاء زمن عمر بن الخطاب فكثُر فيه فتحُ الأمصار، واتَّسع نطاق العمران فأصبحَ من المتعسر على الخليفة أو نائبه أن يجمعَ معَ النظر في الأمور العامة، الفصلَ في الخصومات، ففصل عمرُ القضاءَ من الولاية وعهد به إلى شخص آخر غير الوالي».

ثم نقل الأستاذ محمود عرنوس عن ابن خلدون قوله في المقدمة: «أول من دفعه - القضاء - إلى غيره وفوض به عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فولَّى أبا الدرداء معه بالمدينة، وولَّى شريحاً بالبصرة، وولَّى أبا موسى الأشعري بالكوفة، وكتبَ له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاء وهي مستوفاة فيه».

وهنا نتساءل: أين الغموضُ والإبهام في مسألة القضاء في عهد الرسالة، والأحكام الشرعية في الحدود والمعاملات والإرث والأسرة معروفة في كتاب الله، ورسولُ الله يقوم على القضاء بالمدينة، ويجعل لعامله المختار في غير المدينة أن يقوم بالقضاء فيؤصيه بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ففيما رواه الإمام أحمد والترمذي أَنَّ النبي ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «كيف تقضي إذا عَرَضَ عليك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسوله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله؟ قال: أجتهد ولا آلو».

على أن الرسول كان صادقاً أميناً في كل ما يصدر عنه من أحكام، وهو يعترف للخصمين أنه بشر، وأن الحق قد يخفى إذا كان أحدهما أبين من صاحبه، فقد روى الإمام أحمد عن أم سلمة هند زوج النبي ﷺ، أنها قالت: «جاء رجلان يختصمان في مواريث بينهما قد درست، ليست بينهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: إنكم تختصمون إلي رسول الله، وإنما أنا بشر، ولعلَّ بعضكم ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه إنما أقطعُ له قطعة من النار يأتي بها إصطاماً في عنقه يوم القيامة، فبكى الرجلان، وقال كلُّ واحد منهما: حَقِّي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: «أما إذن فقوما فاذهبا

(١) تاريخ القضاء في الإسلام، للأستاذ عرنوس، ص ١١ وما بعدها.

فلتقتسما، وتوخيا الحق، واستهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه».

فالقضية في مواريث قد درستُ وليس لأحدٍ من الخصمين بيّنة، ومتى فُقدت البيّنة فقد حار القاضي، لذلك اضطر الرسول عليه السلام أن يقول لهما «أنا بشر، ولعلّ أحدكما أن يكون ألحن من صاحبه»، وقد قلتُ: إنّ صحابة الرسول في عهده الطاهر كانوا ذوي ورع وتقوى؛ لذلك لم يكد الخصمان يسمعان تحذير رسول الله وتخوفه حتى بكيا وهم كل واحد منهما أن يتنازل لصاحبه، ثم ارتضيا حكم رسول الله بالقسمة مناصفة!

وإذا كانت الأحكام مقيدةً بكتاب الله وسنة رسوله فهي أحكامٌ شرعية، والقضاء قضاءً شرعي، فكيف يعلن الأستاذ أنه ليس وظيفةً شرعية، وإذا كان القاضي رسول الله في المدينة وواليه في غير المدينة، ثم خُصّ القضاء برجلٍ خاص غير الوالي على عهد عمر بن الخطاب ومن تلاه، فأين الغموض في تاريخ القضاء لعهد الرسول كما يرى المؤلف؟ وأين الغموض في عهد الصحابة، وقضاة عمر ومن وليه معروفون بأسمائهم وأحكامهم، وكلّها في ضوء الكتاب والسنة؛ ألا يزال أحد بعد ذلك يرى أن القضاء ليس وظيفةً شرعية؟

الدعوى السابعة:

هل كانت حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده حكومة لا دينية؟! يقول المؤلف: «زعامة النبي ﷺ كانت كما قلنا زعامةً دينية جاءت عن طريق الرسالة لا غير، وقد انتهت الرسالة بموته ﷺ، فانتهت الزعامة أيضاً، وما كان لأحد أن يخلفه في رسالته».

وطبيعي ومعقولٌ إلى درجة البدهة ألا توجد بعد النبي زعامةً دينية، وإنما الذي يُمكن أن يتصوّر وجوده بعد ذلك فإنّما هو نوعٌ من الزعامة جديدٌ ليس متصلاً بالرسالة ولا قائماً على الدين، هو إذن نوعٌ لا ديني، وإذا كانت الزعامة لا دينية، فهي ليست شيئاً أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية أو السياسية، زعامة الحكومة والسultan، لا زعامة الدين، وهذا الذي كان».

تلك هي النتيجة التي هدف إليها الكاتب منذ بدأ السطور الأولى من الكتاب، نتيجة: أن لا خلافةً دينية في الإسلام، بل سلطانٌ سياسي فحسب! وقد ألحّ من قبل

على أن يكون الرسول مبلّغاً فقط وليس ذا سياسة، وجاء في هذا الفصل ليثبت أن من جاؤوا بعد رسول الله ممّن نعتهم بالخلفاء هم سياسيون لا يستظلون بالدين! وإذن فالجهة منفكة، فلا صلة في الحكم بين رسول الله، وبين أبي بكر ومَنْ والاه!!

هذا منطق الأستاذ، فلننظر إلى أُسّة المتخاذل بما ادّعاه في شأن أبي بكر رضي الله عنه، بعد أن نظرنا إلى ما ادّعاه بالنسبة لرسالة محمد ﷺ، وبأن وجه الخطأ فيه!

ومحط الجدل في ما انتحاه الأستاذ بشأن خلافة أبي بكر رضي الله عنه أن نسأله: أكانت سياسته ملتزمة بأحكام القرآن والحديث، أم أنه اختط طريقة جديدة في الحكم لا تمت إلى كتاب الله وسنة الرسول، فإذا كان الخليفة الراشد قد التزم بكتاب الله وسنة رسوله فلا بد أن تكون خلافته دينية، وإذا نبذ الكتاب والحديث - وحاشاه - وراءه ظهيراً فسلطانه سياسي لا صلة له بالدين؟ فماد يقول الأستاذ في إجابة هذا السؤال.

إن الفقيه الحجة أبا عبيد بن سلام قد قال في كتاب القضاء: «كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكمٌ نظر في كتاب الله تعالى فإن وجد فيه ما يقضي به، قضى به، وإن لم يجد في كتاب الله، نظر في سنة رسول الله، فإن وجد فيها ما يقضي قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء، فربما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا وكذا، فإن لم يجد سنةً سنّها رسول الله ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به»^(١).

هذا جواب السؤال أتى به الفقيه أبو عبيد صريحاً غير مجمم، فما بعض مظاهر التطبيق العملي لهذا الذي قرره أبو عبيد وخالفه مؤلف الكتاب!

نعلم أن قتال المرتدين كان مبعث خلاف بين أبي بكر رضي الله عنه وبعض صحابة رسول الله، فقد أشفق عمر بن الخطاب - وهو من هو - على المسلمين من هذا الهياج العارم الذي اكتسح كثيراً من القبائل، وعلم أن المسلمين بمكة والمدينة وما حولها سيحاربون أضعافاً مضاعفات في شتى بقاع الجزيرة، وسيخرجون إليهم من ديارهم التي لا يعرفون كثيراً عن دُروبها الغامضة، وطرقها المجهولة، فرأى أن لا يطوّح المسلمون بأنفسهم في قتالٍ لا تُعرف مغبته في ربوعٍ لم تدرس معالمها،

(١) نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، للشيخ الخضر حسين، ص ٢١٢.

والتمسَ عمرُ دليلاً في قول رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

هذا دليلُ عمر، فلم يوافقهُ أبو بكر تشبُّثاً بالرأي دون اعتداء بسنة رسول الله، ولكِنَّه قال له: «إنَّ رسول الله قد قال: (إلا بحقها)، والزكاة من حقوق الله وقد منعوها؛ والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه».

فهل كان أبو بكر سياسياً لا صلة له بالحديث النبوي في مذهبه القتالي، أم أنه مقيّد بقول رسول الله؟ وملتزم بالسير على هداية؟

ثم لماذا نبعدُ النجعة، وأمامنا خطبةُ أبي بكر الصديق التي قالها يوم البيعة مُحدِّداً اتجاهه في الحكم، وفيها يقول: «أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله، فإذا عصيْتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم» وهي خطبة مشهورة كدرجة التواتر، فهل تكونُ حكومة الرجل لا دينية.

ثم ماذا فعل أبو بكر حين أصّر على بعث الجيش بقيادة أسامة بن زيد بعد توليته الخلافة؟ لقد قيلَ له: إن العربَ على ما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين، فردَّ يقول: «والذي نفسُ أبي بكر بيده لو ظننْتُ أن السباع تخطفني لأنفذْتُ بعثَ أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته»^(١).

فبأي شيء نفسر هذا الاتجاه؟

يخيل إليَّ حين أقرر أن أبا بكر رضي الله عنه كان ملتزماً بكتاب ربِّه وسنة نبيِّه أنني أرى الشمسَ الساطعة لذي عَيْنَيْن! وهي بضوئها الباهر تُغني عن كل مقال: وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل رأي الزعيم سعد زغلول:

يتباهى بعضُ المحبِّذين للكتاب بترديد آراء بعض وزراء حزب الأحرار في كتاب (الإسلام وأصول الحكم)! وهؤلاء في اطلاعهم العلمي لا يملكون الحكم الصائب على آراء أصولية تشريعية ليسوا من رجالها، وأنا في هذا الصدد أستشهد برأي

(١) ابن جرير الطبري: ٢٢٢/٣.

الزعيم سعد زغلول القاضي والمستشار والفقيه، لأنه درس الشريعة الإسلامية دراسة مستوعبة بالأزهر، ودرس بعدها القوانين الوضعية دراسة المتفحص الناقد، وهو بمنزلة العلمية الجهرية، ومقامه السياسي الخطير أولى وأجدر أن يستشهد بما قال، قال رحمه الله :

قال سكرتيره الخاص الأستاذ محمد إبراهيم الجزيري^(١)، قلت له : ما رأيكم في كتاب (الإسلام وأصول الحكم)، فقال مهتماً كما يستعد لإلقاء محاضرة .

«لقد قرأته بامعان، لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ والصواب، فعجبتُ أولاً، كيف يكتب عالمٌ ديني بهذا الأسلوب في مثل هذا الموضوع، وقد قرأتُ كثيراً للمستشرقين، ولسواهم، فما وجدت ممن طعنَ منهم في الإسلام، حجةً كهذه الحجة في التعبير، على نحو ما كتب الشيخ علي عبد الرازق، فقد عرفتُ أنه جاهلٌ بقواعد دينه، بل بالبسيط من نظرياته، وإلا فكيف يدعي أن الإسلام ليسَ مدنياً، ولا هو بنظام يصلح للحكم، فأني ناحية مدنية من نواحي الحياة لم ينصَ عليها الإسلام، هل البيع أو الإجارة أو الهبة؟ أو أي نوع آخر من المعاملات؟ ألم يدرس شيئاً من هذا في الأزهر؟ أو لم يقرأ أن أمةً كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهوداً طويلة كانت أنضر العصور، وأن أمة لا تزال تحكم بهذه القواعد، وهي أمة مطمئنة، فكيف لا يكون الإسلام مدنياً ودين حكم؟

وأعجبُ من هذا ما ذكره في كتابه عن الزكاة! أين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية؟ إنني لا أفهمُ معنى للحملة المتحيزة التي تُثيرها جريدة السياسة حول هذا الموضوع، وما قرأُ هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ علي من زمرة، إلا قرأُ صحيح لا عيب فيه، لأن لهم حقاً صريحاً بمقتضى القانون أبو بمقتضى المنطق والعقل أن يُخرجوا من يخرج على أنظمتهم من حظيرتهم، فهذا أمر لا علاقة له مطلقاً بحرية الرأي التي تعنيها السياسة».

هل تراجع المؤلف :

كتبُ في مجلة الثقافة المصرية (١٩٧٨م) مقالاً تحت عنوان (يرجعان إلى

(١) سعد زغلول - ذكريات تاريخيه، للأستاذ الجزيري، ص ٩٢، كتاب اليوم.

الحق^(١)، وقد جاء فيه فيما يختصّ بالأستاذ علي عبد الرازق بعد مقدمة تتحدث عن أسباب مقابله :

«وقد غالبني حبي للحديث عن (الإسلام وأصول الحكم) فقلتُ له في تأدب : وهل لازلتَ يا سيدي تعتقدُ أن الإسلام صلةٌ روحية بين العبد وربّه، وليسَ دستورَ معاملة وتشريع، فقال متحمساً: صلةٌ روحية: لم أقل هذا، لقد أوضحتُ ذلك جلياً في مقال لي.

فدهشتُ دهشة بالغة، وسألتُ أينَ هذا المقال؟ ومتى؟ فقال: في مجلّة (رسالة الإسلام) التي كانت تُصدرها جماعةُ التقريب منذ سنوات! فنظرتُ حائراً، ولمسَ الرجلُ أنني بين اليقين والظنّ، فقال: ابحثُ عن المقال في (رسالة الإسلام) وستجده، ثم تنوّع الحديث وحنّ موعد الفراق فانصرفت.

جمعتُ ما صدر من أعداد مجلّة (رسالة الإسلام) باحثاً متقبّاً حتى اهتديتُ إلى العدد الثالث من السنة الثالثة، وقد صدرَ في رمضان سنة ١٣٨٠هـ الموافق يولييه سنة ١٩٥١م، فوجدتُ مقالاً لحضرة صاحب السعادة علي عبد الرازق باشا كما وصفته المجلة، يقع في صفحتي ٢٤٦، ٢٤٧ تحت عنوان: (الاجتهاد في نظر الإسلام) وفيه يقول الأستاذ علي عبد الرازق:

«قرأتُ بحثاً قيماً لحضرة صاحب العزة الكاتب الكبير الأستاذ الدكتور أحمد أمين، جاء في صدره أنه كان يتجادلُ معي، فقلتُ إنّ دواء ذلك أن نرجع إلى ما نشرته قديماً من أن رسالة الإسلام روحية فقط، ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل، وقد وقفت أمام كلمة (رسالة روحانية) ولم تشأ أن تمرّ من غير أن تُثير ذكرى قصّة قديمة لهذه الكلمة معي، فقد زعمَ الطاعنون أنني في هذا البحث قد جعلتُ الشريعة الإسلامية شريعةً روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ما طوّعت لهم أنفسهم أن يفعلوا، أما أنا فقد رددتُ عليهم أنني لم أقل ذلك مطلقاً لا في هذا الكتاب ولا في غيره، ولا قلتُ شيئاً يُشبه ذلك الرأي أو يدانيه، أسوقُ هذا الحديث ليعلم الأستاذ الكبير أن فكرةً روحانية الإسلام لم تكن لي رأياً يوم نشرتُ البحث المشار إليه، وإنّي رفضتُ يومئذ رفضاً باتاً أن يكون ذلك رأيي».

(١) أعدت نشر المقال بالجزء الثاني من كتابي (فضايا إسلامية) ص ١٢٣ وما بعدها.

قرأتُ هذا الكلام فزادت حيرتي، لأنني أعرف أن الرجل قد قال هذا الكلام بمضمونه إن لم يكن بلفظه، فكيف يقول إنه لم يقل ذلك ولا شيئاً يدانيه، ولو كان ينكر صدور كلمة (روحانية) فإن مادتها صريحة في قوله من الطبعة الأولى ص ٦٩ :

«ولاية الرسول على قومه ولايةٌ روحيةٌ، منشؤها إيمانُ القلب، وخضوعه خضوعاً تاماً يتبعه الجسم، وولايةُ الحاكم ولايةٌ ماديةٌ تعتمد على إخضاع الجسم من غير أن يكون له بالقلوب اتصال، تلك ولايةٌ هدايةٌ إلى الله، وإرشادٌ إليه، وهذه ولايةٌ تدبيرٌ لصالح الحياة، وعمار الأرض؛ تلك للدين، وهذه للدنيا؛ تلك لله، وهذه للناس؛ تلك زعامةٌ دينيةٌ، وهذه زعامةٌ ساسيةٌ؛ ويا بُعد ما بين السياسة والدين».

ويقول ص ٧٨ من الطبعة الأولى :

«والدنيا من أولها إلى آخرها، جميعٌ ما فيها من أغراض وغايات أهونٌ عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما رُكِّبَ فيها من عقول، وحَبَّانا من عواطف وشهوات، وعَلَّمنا من أسماء ومسميات، هي أهونٌ عند الله من أن يبعث لها رسولاً، وأهونٌ عند رسل الله تعالى من أن يشتغلوا بها، وينصبوا لتدبيرها».

ويقول كثيراً من أمثال ذلك مما يُثبت أن الشريعة لا صلة لها بالحياة، وأنها مسألة روحية بين العبد وربّه، فكيف ينكر الأستاذ ما قاله للأستاذ أحمد أمين، مدعياً أن كلمة روحانية الإسلام تسربت على لسانه خطأ، ولم يرذ معناها، ولعل الشيطان ألقى في حديثه بتلك الكلمة !.

الحقّ الذي لا مرية فيه أن الرجل يتراجع عما قال، وكان عليه أن يكون صريحاً في التراجع دون أن يلف تراجعاً في أقنعة تكشف عما تستر، وحسبنا منه أن نعرف أن رأيه الأخير بمجلة (رسالة الإسلام)، قد عَصَفَ بما سبق أن زعم !! هذا ما عَنَ لي ولا أزيد.



تعريف بالمؤلف

أ - معلومات عامة :

- ١ - الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي، عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة سابقاً، والأستاذ المتفرغ بقسم الآداب والنقد بجامعة الأزهر.
- ٢ - مقرر لجنة البلاغة، لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر.
- ٣ - عضو لجنة الأدب والنقد، لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر.
- ٤ - كان أستاذاً بالجامعات العربية، يحاضر في مواد الأدب والبلاغة والنقد عدة سنوات.
- ٥ - اشترك في مؤتمرات علمية في عواصم مختلفة بالدول العربية.
- ٦ - وُلِدَ في أكتوبر سنة ١٩٢٣ م بقرية (الكفر الجديد) التابعة لمحافظة الدقهلية.
- ٧ - أُرُقِيَ مؤهلاته العلمية؛ الدكتوراه في الأدب والنقد بمرتبة الشرف الأولى.
- ٨ - أشرف على كثير من الرسائل الجامعية، واشترك فاحصاً في كثير من هذه الرسائل.

ب - الجوائز الأدبية :

- ١ - نال جائزة شوقي بالمجلس الأعلى للفنون والآداب بمصر، سنة ١٩٦١ م، عن المسرحية الشعرية (انتصار).
- ٢ - نال جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة الأولى، عن المسرحية الشعرية (فوق الأبوة) سنة ١٩٦٢ م.
- ٣ - نال جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م، عن ديوانه الشعري (صدى الأيام).

- ٤ - نال جائزة مجمع اللّغة العربية بالقاهرة الأولى سنة ١٩٦٤م، في الدراسات الأدبية عن كتاب (الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير).
- ٥ - نال جائزة مجمع اللّغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٥م، في التراجم الأدبية عن حياة (محمد توفيق البكري).
- ٦ - نال جائزة مجمع اللّغة العربية سنة ١٩٧٢م، عن المسرحية الشعرية (بأي ذنب).
- ٧ - نال جائزة وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨م، عن المسرحية الشعرية (ملك غسان).

ج - من التأليف الخاص بالدراسات الأدبية والعلمية :

- ١ - البيان القرآني، أصدره مجمع البحوث الإسلامية، بالأزهر.
- ٢ - خطوات التفسير البياني، أصدره مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
- ٣ - البيان النبوي، أصدرته دار الوفاء للنشر.
- ٤ - أدب السيرة النبوية عند الرواد المعاصرين، أصدرته اللجنة العليا للدفاع عن الإسلام بالأزهر.
- ٥ - الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثير، أصدره المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.
- ٦ - النقد الأدبي للشعر الجاهلي، أصدره المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.
- ٧ - أحمد حسن الزيات بين البلاغة والنقد، أصدرته دار الأصالة، بالرياض.
- ٨ - دراسات أدبية، أصدرته دار السعادة، بمصر.
- ٩ - نظرات أدبية (٤ أجزاء)، أصدرته دار زهران، بمصر.
- ١٠ - حديث القلم، أصدره النادي الأدبي، بجدة.
- ١١ - قطرات المداد، أصدره النادي الأدبي، بجدة.
- ١٢ - التفسير القرآني، أصدرته المؤسسة العربية الحديثة.

د - من الإبداع الأدبي :

- ١ - ديوان صدى الأيام (شعر) مطبعة السعادة.
- ٢ - ديوان حنين الليالي (شعر) مطبعة السعادة.

- ٣ - حصاد الدمع (شعر) دار الأصالة، بالرياض.
- ٤ - من نبع القرآن (شعر) دار الأصالة، بالرياض.
- ٥ - فاتنة الخورنق (قصة أدبية) دار الأصالة، بالرياض.
- ٦ - مسرحية (انتصار).

- ٧ - مسرحية (فوق الأبوة) (في كتاب واحد، مطبعة السعادة).
- ٨ - ملك غسان (مسرحية شعرية) مكتب الجامعات للنشر.
- ٩ - في قصور الأمويين (مشاهد تاريخية) مطبعة السعادة.

هـ - من الكتب التاريخية :

- ١ - الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، دار الهلال.
- ٢ - مواقف خالدة لعلماء الإسلام، دار الهلال.
- ٣ - النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين (٥ أجزاء)، دار القلم، بيروت.

- ٤ - ابن حنبل، عن مجمع البحوث بالأزهر.
- ٥ - مع الأبطال، دار القلم، بيروت.
- ٦ - صفحات هادفة من التاريخ الإسلامي، المؤسسة العربية الحديثة.
- ٧ - من القصص الإسلامي (جزءان)، المؤسسة العربية الحديثة.

و - من سلسلة إسلاميات :

تصدرها المؤسسة العربية الحديثة بالقاهرة :

- ١ - في ميزان الإسلام (جزءان).
- ٢ - من منطلق إسلامي (جزءان).
- ٣ - مجالس العلم في حرم المسجد.
- ٤ - المثل الإسلامية.
- ٥ - في ظلال السيرة.
- ٦ - من شرفات التاريخ.
- ٧ - قضايا إسلامية (جزءان)، دار الوفاء، بالمنصورة.

ز - مجموعة قصص الأطفال ، في أجزاء متوالية :

أصدرتها دار الأصالة ، ودار القاسم بالرياض :

- | | | |
|-----------------------------------|---------------------|------------------|
| ١ - المغامر الشجاع | ٢ - الهمة العالية | ٣ - مؤامرة فاشلة |
| ٤ - الفارس الوفي | ٥ - يوم المجد | ٦ - دجال القرية |
| ٧ - الحبل الأسود | ٨ - الفتاة المثالية | ٩ - إلى الأندلس |
| ١٠ - رحلة الخير | ١١ - الله معي | ١٢ - بطل شييان |
| ١٣ - إلى الإسلام | ١٤ - لست وحدي | ١٥ - حكمة الله |
| ١٦ - الأصل الطيب . . . (وغيرها) . | | |

ح - مجلات أدبية وعلمية يكتب فيها من نصف قرن :

- | | | |
|-------------------|------------------------------------|-------------|
| ١ - الرسالة | ٢ - الثقافة | ٣ - الكتاب |
| ٤ - الهلال | ٥ - الأديب | ٦ - الفيصل |
| ٧ - الأزهر | ٨ - المجلة العربية | ٩ - الأقلام |
| ١٠ - منار الإسلام | ١١ - الحج | ١٢ - الضياء |
| ١٣ - المنهل | ١٤ - رابطة العالم الإسلامي | |
| ١٥ - علامات | ١٦ - الأدب الإسلامي . . . (وغيرها) | |

* * *

(انتهى الكتاب بمجلداته الخمسة بعونه تعالى)

الفهرس

٥	مقدمة الجزء الخامس
٧	أحمد حمزة : صاحب لواء الإسلام
١٥	ندوة إسلامية ذات موضوع دقيق
٢٤	أحمد ديدات : كتيبة حافلة في كيان فرد واحد
٣٨	أحمد عبد الغفور العطار : الكاتب الشاعر البخّانة
٥١	أحمد الكاشف : شاعر حر ذو أهداف كريمة
٧٠	السيد أمير علي الهندي : المصلح البخّانة المفكر
٨٤	حسنين محمد مخلوف : بين الولد البار والأب العلامة
٩٧	الشيخ حسونه النووي ودوره في الإصلاح الديني
١١١	خليل الخالدي : الرحالة المنقّب عن ذخائر التراث
١٢٣	روحيه جارودي : كيف أشرق الإسلام على قلبه
١٤٤	سالم أبو حاجب : كبير علماء الزيتونة وشيخ شيوخها
١٥٧	عبد الحميد سعيد : المجاهد المستبسل الغيور
١٧١	عبد القادر عودة : أستاذ التشريع وشهيد الرأي
١٨٥	عبد العزيز الإسلامبولي : صاحب مجلة المعرفة
٢٠٠	عبد المجيد اللبّان : عالم ديني ومناضل سياسي
٢١٢	عبد الوهاب خلّاف : فكر دقيق في تعبير سلس مبين
٢٢٥	عوض الله جاد حجازي : مثال أمين للباحث المستوعب الدقيق
٢٤٠	عيسى منون : باحث يعمل في صمت
٢٥٤	السيدة ليبة أحمد : صاحبة مجلة النهضة الإسلامية
٢٦٨	الدكتور محمد حسين الذهبي : باحث موسوعي ملتزم

٢٨٠		محمد الطاهر بن عاشور : شيخ الإسلام بتونس وأستاذ الأساتيد
٢٩٤		مولانا محمد علي الهندي : المجاهد الداعية المكين
٣٠٨		محمد عمر التونسي : رائد اليقظة التعليمية في النشر والتحرير
٣٢٣		محمد الفاضل بن عاشور : بحّاث ذو رسالة وكاتب ذو بيان
٣٣٧		محمود محمد شاكر : بين الرافعي وطه حسين
٣٦٤		مصطفى أحمد الزرقا : فقيه باحث ثبت
٣٧٧		مصطفى القاياتي : خطيب الثورة المصرية
٣٩٠		منصور فهمي يعود إلى حظيرة الإيمان
٤٠٥		الدكتور نجيب الكيلاني : قصاص مكتمل الأدوات
٤٢٠		ملحق ختامي : علماء كبار ينقضون كتاب الإسلام وأصول الحكم
٤٥٩		تعريف بالمؤلف
٤٦٣		الفهرس

* * *